

روايات الهلال



www.library4arab.com/vb

إمراة من روما

البرتومورا فيا



www.library4arab.com/vb

www.library4arab.com/vb

www.library4arab.com/vb

الاشتراكات

القيمة الاشتراك السنوي واحد وعشرون حذيقا في
ج . م . ع . تدفع مقدما نقدا او بحوالة بريدية غير
حكومية وسبعة عشر دولارا في البلاد العربية
وخمسة وعشرون دولارا لباقي دول العالم والقيمة
تسدد مقدما بشيك مصرفي لأمر مؤسس دار الهلال
ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد .

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك
(المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط)
المكاتب : ص . ب . ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم
البريدي ١١٥١١ - تلغرافيا : المصور - القاهرة ج . م .

ع .
تلكس : TELEX 92703 HILAL U . N
فلكس : FAX 3625469

أسعار البيع للعدد فئة ٤٠٠ قرش

لبنان ٢٥٠٠ ليرة . الاردن ١٥٠٠ فلسا . الكويت ١٥٠٠
فلسا . العراق ٢ دينار . السعودية ١٥ ريال .

الكويت : السيد عبد العال بسيوني
زغلول الصفاة - ص . ب رقم
13079٢١٨٣٣ - تليفون -
٤٧٤١١٦٤

اشترك
في
روايات
الهلال

للحصول على نسختك من روايات الهلال
اتصل بالتلكس : 92703 HILAL. U. N.

الإدارة دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب - القاهرة
تليفون ٢٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

روايات الهلال

Rewayat Al Hilal

سلسلة
شهرية
لتنشر
القصص
العالمية

تصدر عن مؤسسة
دار الهلال

العدد ٥٠٢ أكتوبر ١٩٩٠
ربيع اول ١٤١١ هـ
No. 502 Oc. 1990

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد
نائب رئيس مجلس الإدارة
عبد الحميد حمروش
رئيس التحرير
مصطفى نبيل
سكرتير التحرير
محمود فاسم

www.Library4arab.com/vb

www.library4arab.com/vb

الغلاف بريشة الفنانة
سميحة حسنين

www.library4arab.com/vb

www.library4arab.com/vb

امارة

من

رومانا

بمعلم

البرتومورا فيا

ترجمة

زغلول فهمي

www.library4arab.com/vb

دار الهلال

www.library4arab.com/vb

هذه هي الترجمة الكاملة لرواية

LA ROMANA

تأليف

ALBERTO MORAVIA

نشرت هذه الرواية لأول مرة في روايات الهلال في أغسطس
وسبتمبر ١٩٧١ ونعيد نشرها اليوم كاملة بمناسبة رحيل مؤلفها
البرتومورافيا في الشهر الماضي .

www.library4arab.com/vb

مقدمة المؤلف

قد يعترض بعض قراء « امرأة في روما » بأن امرأة بسيطة غير متعلمة من عامة الشعب لن تكون قادرة على سرد قصة حياتها بالاسلوب الادبي السليم الذي أعرتها آياه . وفى الواقع فان هذه هي المشكلة التى واجهتنى منذ البداية . اذ فتح أمامى طريقان لسرد العرجمة الذاتية الخيالية لتلك الشخصية التى شئت أن أصورها - فاما أن اتخذ أسلوبا واقعيا تصويريا مستخدما فى الحديث يمثل امرأة تنتمى الى طبقة أدريانا وتحترف مهنتها وهى لهجة خشنة فقيرة لا يمكن التعبير بها الا عن مشاعر وأحداث معدودة محدودة أو أن أجعل شخصياتى تتحدث بأسلوبى المعهود كما فعلت فى جميع كتبى الاخرى . فاخترت الطريق الثانى لسببين أولهما أننى لم أجد ضرورة لتغيير أسلوبى بسبب تغيير شخصياتى وثانيهما أن لغة الادب أصدق دائما وأقدر على التعبير بطريقة شاعرية من لغة الحديث . ولا يمكننى أن أنكر أن النساء من صنف أدريانا لا يتحدثن عادة كما تتحدث أدريانا ولا يعبرن عن المشاعر والافكار التى تعبر عنها . ومع ذلك فانى لم أنسب اليها سوى تلك المشاعر والافكار التى يمكن أن يعبر عنها من كن على شاكلة أدريانا اذا ما وهبن القدرة اللغوية والعقلية اللازمة لذلك . وبعبارة أخرى فعلى الرغم من اختلاف القدرة العقلية ومدى المعرفة عند الناس فليدبر جميعا عالمهم الاخلاقي الخاص بكامله حتى من كان منهم فى أشد حالات البؤس والتعاسة . وقد اقتصررت فى محارلتى هذه على تصوير عالم أدريانا الاخلاقي وذلك بأن أدبت لها نفس الخدمة التى يؤديها الكتبة العموميون عندما يترجمون عن عواطف الخادمت الاميات التى تفتقر الى الصياغة والتعبير الدقيق ويقومون بتدوينها .

القسم الأول

www.library4arab.com/vb
الفصل الأول

كنت وأنا في السادسة عشرة من عمري قطعة من الجمال الحق -
فقد ضاق وجهي البيضاوي عند الصدغين وازداد عرضه أسفلهما
بقليل . واتسعت عيناى الرقيقتان المستطيلتان . كما صنع أنفى خطا
مستقيما مع جبهتى . أما فى فكان واسعا ذا شفتين جميلتين
حمرأوين ممثلتين - وكنت عندما أضحك أكشف عن ثغر نضيد
ناصع البياض . وقد اعتادت أمى أن تشبهنى بمرىم العذراء . كما
لفت نظرى ماكان بينى وبين نجمة سينمائية ذاع صيتها حينذاكمن
تشابه . فبدات أحاكيها فى طريقة تصفيف شعرها . وكذلك زعمت
أمى أن قوامى كان يبرز فى رشاقتة جمال وجهى مائة مرة وأن قدى
المشوق لم يكن له نظير فى روما بأسرها . ولكننى فى تلك الايام لم
اكن اعبأ بقوامى بل كان اعتقادى أن الوجه الجميل هو كل ماىهم .
أما اليوم فيجب أن أعترف بأن أمى كانت على حق . فقد استقامت
ساقاى القويتان وتقوس ردفاى واستطال ظهرى وضمير خصرى
وعرض منكباى . كما برز بطنى قليلا وهكذا كان دواما . أما سرتى
فلشد ما عمق تجويفها فى بدنى حتى كادت تختفى . ولكن أمى كانت
تزعم أن هذا مزيد من الجمال لان بطن المرأة فى نظرها ينبغى أن يكون
بارزا الى حد ما لا مستويا كما هو سائد الآن . كذلك استوى صدرى
ناهدا ممثلا ولكن فى قوة ولدونة حتى أنه لم تكن بى حاجة الى ارتداء
مشد للصدر . وكانت أمى كلما شكوت اليها من أن صدرى أكبر حجما
مما ينبغى ترد بأنه جميل حقا وبأن صدور النساء منعقدة فى
هذه الايام . وكنت عندما اتجرد من ملابسى ابدو طويلة القامة فى
تناسب جميل أشبه بالتمثال . هكذا قالوا لى فيما بعد . أما وأنا
فى كامل هندامى فكنت ابدو فتاة صغيرة جميلة ولا يخطر ببال أحد
أنى على هذه الصورة فى تكوينى الجسمانى . وقد أخبرنى الفنان
الذى وقفت له لأول مرة أن ذلك يرجع الى ماكان بين أجزاء جسدى
المختلفة من تناسب وتناسب .

وقد اكتشفت لى أمى ذلك الرسام ، اذ أنها كانت تعمل نموذجا
قبل زواجها واشتغالها بحياكة القمصان ، فلما كلفها أحد الفنانين

ذات يوم بأن تحيك له بعض القمصان تذكرت مهنتها القديمة واقترحت عليه أن أقف له ليرسمني . وعندما ذهبت الى مرسمه لأول مرة أصرت أمي على اصطحابي اليه رغم احتجاجي بأنني أستطيع وحدي الذهاب اليه دون عناء . ولم يعترني الخجل لاضطراري لأول مرة في حياتي الى التجرد من ملابسى أمام رجل بقدر ما اعتراني لما توقعت أن تقوله أمي كيما تقنعه باستخدامي . وفي الواقع فانها بعد أن فرغت من معاونتى على خلع ملابسى من فوق رأسى أوقفتنى عارية في وسط الغرفة ثم راحت تخاطب الفنان في حماسة قائلة : « ما عليك الا أن تتأملها . ياله من صدر ! وياله من ردفين ! أنظر الى ساقها ! أين يمكنك أن تجد مثل هاتين الساقين وهذين الردفين وهذا الصدر ؟ » وبينما كانت تفوه بتلك العبارات ظلت تتحسس جسدى تماما كما يتحسس الباعة الحيوانات في السوق لاقناع الراغبين بشرائها . وراح الرسام يضحك فتولانى الخجل . ولما كان الوقت شتاء فلتشد ما أحسست بالبرد . ولكنى أدركت أن أمي لم تكن تتكلم على هذه الصورة بدافع من الحقد بل كانت فخورا بجمالى لانها أمي ولانى ان كنت على شىء من الجمال فانى مدينة لها به . كما بدا لى أن الفنان أدرك شعورها وأنه لم يكن له من باعث على الضحك سوى الود الصادق فشعرت بالطمأنينة . وما ان تغلبت على خجلي حتى سرت على أطراف أصابعى الى الموقد طلبا للدفاء . كان من الواضح أن ذلك الفنان يناهز الاربعين من العمر وهو رجل بدين ذو أسلوب مرح سمح . وأحسست أن نظرتة الى خلت من الرغبة وكأنه ينظر الى شىء جامد فأطمأن اليه قلبى . ولما توثقت بعد ذلك عرى المعرفة بيننا صار يعاملنى دائما فى رقة واحترام معاملته لكائن بشرى ولم أعد فى نظره جمادا فحسب . وقد أنجذبت اليه فى الحال بل كان من الممكن أن أقع فى حبه بدافع من العرفان فحسب لا لشىء الا لرفقه بى وحده على . ولكنه لم يطلق العنان لشهواته قط . بل كان يسلك نحوى سلوك الفنان لا الرجل . ولم تتجاوز العلاقة بيننا قط ما كانت عليه من البعد والنظافة يوم وقفت له ليرسمنى لأول مرة .

وعندما انتهت أمي من اطراء مفاتنى اتحه الفنان دون أن ينبس ببنت شفة الى كومة من الاوراق كانت مكدسة على أحد المقاعد ففحصها ثم سحب من بينها صورة مطبوعة ملونة وعرضها على أمي قائلا فى صوت خافت « هاهى ابنتك » فابتعدت عن الموقد لانظر الى الصورة المطبوعة . فاذا بها لامرأة عارية ترقد على فراش مكسو

بأغطية فاخرة . ومن خلف الفراش تدلى ستار من المخمل كان يدف
في ثناياه طفلان مجنحان أشبه بملاكين صغيرين . وكانت تلك المرأة
تشبهني الى حد كبير . غير أن أغطية الفراش الفاخرة والحوارييم
التي تحيط بها اصابعها قد أظهرت في وضوح على الرغم من عريها
أنها كانت بلا ريب ملكة أو شخصية هامة في حين أنني لم أعد أن أكون
فتاة عادية . ولم تفهم أمي شيئا في أول الامر بل حملت في الصورة
في دهشة وفزع . وفجأة بدا عليها أنها ترى وجه الشبه بيننا .
فهمت قائلة في انفعال : « ما أشبهها بهذه ! انها ابنتي ادريانا بعينها !
أترى كم كنت على حق ؟ ومن تكون هذه المرأة ؟ »
فأجابها الفنان مبتسما :

« دانيه » (١)

« ومن هي دانيه ؟ »

« دانيه - الهة وثنية » .

فارتبكت أمي قليلا إذ أنها كانت تتوقع أن تسمع اسم شخص
حقيقي . ولكي تخفي ارتباكها أخذت توضح لي أنني يجب أن أستجيب
لرغبات الفنان فأرقد كما ترقد المرأة في الصورة مثلا أو أقف أو اجلس
وألا احرك ساكنا طوال الوقت الذي يعمل فيه . فقال ضاحكا : ان
خبرة أمي بهذا العمل تفوق خبرته هو . ومالبت أمي أن بدأت تتكلم
عن نفسها عندما كانت تعمل نموذجا واشتهرت بأنها من أجمل النماذج
في روما بأسرها وعمما ألحقته بنفسها من أذى بزواجها وتخليها عن
عملها . وفي تلك الاثناء كان الفنان قد أرقدني على أريكة في نهاية
المرسوم حيث جعلني أتخذ وضعا معيناً مسويا ذراعي وساقى على
الصورة التي يريدتها . ولكنه فعل ذلك في رقة وهو شارد الذهن
مستغرق في التفكير . ولم يكد يلمسني بيديه كما لو كان قد رآني
بالفعل في ذلك الوضع الذي شاء أن يرسمني فيه . وعلى الرغم من
ثرثرة أمي المستمرة بدأ يضع الخطوط الاولى على لوحة بيضاء نصبت
فوق حامل . ثم لاحظت أمي أنه لم يكن ينصت اليها لاستغراقه في
رسم صورتي .

فسألته قائلة - « وكم تنقد ابنتي في الساعة ؟ »

فجهد الرسام مبلغاً معيناً دون أن يرفع عينيه عن اللوحة . فالتفت
أمي ملابسى التي كنت قد رتبته على المقعد وقذفتني بها قائلة :

« هيا ! ارتدى ملابسك - يحسن بنا أن ننصرف »

(١) Danae : انها ام برسيوس في اساطير الاغريق وقد زارها زيوس في صورة
مرشة من الذهب .

فسألها الفنان في دهشة متوقفا عن عمله قائلا - « والآن ماذا

فأجابته أمي متظاهرة بأنها في عجلة شديدة من أمرها قائلة -
« لاشيء . هيا بنا يا أدريانا - فثمة أمور كثيرة علينا أن ننجزها » .
فقال الرسام - « ولكن : أنصتى . ان شئت الاتفاق فلتقدمي
عرضا - مامعنى هذا كله ؟ »

ثم بدأت أمي في تمثيل مشهد رهيب وهي تصيح بأعلى صوتها
متهمة إياه بالجنون إذا ما خيل له أنه يستطيع رسمى بذلك الاجر
الضئيل كما قالت له اننى لست نموذجا منبوذا من تلك النماذج
الهرمة وأننى فى السادسة عشرة من عمرى وأن هذه أول مرة أقف
فيها أمام رسام . وكانت أمي كلما أرادت شيئا أخذت فى الصياح
وتظاهرت بالغضب الشديد . ولكنها فى الواقع لم تكن غاضبة
مطلقا بل كانت خلف ذلك المظهر هادئة كالزيت كما أعلم من خبرتى
التامة بها . ومع ذلك فانها لاتفتأ تصيح كنساء السوق عندما يعرض
عليهن المشتري فى مقابل سلعهن ثمنا بخسا للغاية . وكانت تصيح
فى معظم الاحيان مع المهدبين من الناس لعلمها بأن آدابهم الحسنة
لن تفتأ تجعلهم يدعونون لها .

وفى الواقع فان الفنان قد استسلم فى النهاية . ولم تفارقه ابتسامته
طوال الوقت الذى ظلت أمي تتشاجر فيه ولكنه كان من وقت لآخر
يأتى اشارة باحدى يديه وكأنه يريد أن يقول شيئا . وأخيرا توقفت
أمي لتلتقط أنفاسها فعاد يسألها عن الاجر الذى تريده . ولكنها لم
تشأ أن تصرح بذلك على الفور . بل صاحت بغته قائلة : « أريد
أن أعلم كم دفع الرسام الذى رسم تلك الصورة التى عرضتها على
لنموذجه ! »

فضحك الفنان قائلا : « وما علاقة ذلك بما نحن فيه ؟ تلك أيام

آخر - فربما أعطاهم قفازا أو زجاجة من النبيذ » .
وبدا الارتباك على أمي كما عراها من قبل عندما أخبرها بأن الصورة
للإلهة دانيه . كان الفنان يتلهى قليلا فى هدوء بحدثها فى غير حقد
بالطبع ولكنها لم تدرك ذلك فعادت الصياح متهمة إياه بالشح
ومفاخرة بجمالى . ثم تظاهرت فجأة بالهدوء وأخبرته بالاجر الذى
تريده . فجادلها الفنان قليلا ولكنها اتفقا أخيرا على مبلغ يقارب
الاجر الذى طلبته أمي . واتجه الفنان الى منضدة فتح أحد أدراجها
ونقدها الاجر . فتناولت النقود وقد بدت عليها الفرحة الشديدة ثم

فارقتنا بعد تزويدي ببعض الملاحظات . فأغلق الفنان الباب ثم عاد

الى لوحته وهو يخاطبني قائلا :
« أصبح أمك دائما ؟ »

فأجبتة قائلة : « - انها تحبني » .

فقال في هدوء وهو يباشر عمله - « يخيل الى أن حبها للمال يفوق كل ماعداه » .

فأجبتة في حماسة قائلة - « لا . لا . هذا غير صحيح . فحبها لي لا يعدله حب آخر ولكن ما يؤسفها انني ولدت فقيرة فهي تريدني أن أكسب أجرا مرتفعا » .

لقد تحريت الدقة في سرد كل ما حدث مع الفنان أولا لانني يومئذ بدأت العمل مع انني احترفت بعد ذلك مهنة أخرى وثانيا لان سلوك أمي في تلك المناسبة يوضح شخصيتها وطبيعتها حبها لي .

وما ان انتهت ساعة مثولي أمام الفنان حتى ذهبت لاقابل أمي في أحد محال اللبن حيث أوصتني بالمرور عليها . وسألتنى عما حدث وجعلتنى أروي لها كل مدار بيني وبين الفنان الصموت اثناء جلوسى له . وأخيرا نصحتنى بالحذر الشديد فربما لم تكن لذلك الفنان نوايا دنيئة ولكن الكثيرين منهم كانوا يستخدمون النماذج بقصد اتخاذهم خليلات . فكان على أن أصد محاولاتهم بكافة الوسائل . وقالت مفسرة رأيها : « انهم جميعا مفلسون ولا تتوقعى أن تحصلى منهم على شىء . اذ يمكنك بجمالك أن تطمحى الى ما هو أسمى من ذلك بكثير . أسمى بكثير » .

وكانت هذه اول مرة تحدثنى فيها أمي على هذه الصورة . وكانت تتكلم بلهجة حاسمة كمن يتحدث فى شى كان قد فكر فيه بعض الوقت .

فسألتها فى دهشة قائلة - « ماذا تعنين ؟ »

فأجابت قائلة فى شىء من الفموض - « هؤلاء القوم كثير و الكلام ولكنهم مفلسون فى حين أن فتاة جميلة مثلك ينبغى أن ترافق السادة » - « أية سادة ؟ انى لا أعرف أحدا منهم ! »

فنظرت الى قائلة فى مزيد من الفموض : « يمكنك فى الوقت الحاضر أن تكونى نموذجا وبعد ذلك سنرى ... فكل درجة تؤدى الى أخرى ! »

ولكن نظرتها الطامعة المتأملة التى ارتسمت على وجهها بعثت فى نفسى الذعر . فلم أعد أسألها عن شىء فى تلك المناسبة .

ولكننى على اية حال لم اكن فى حاجة الى نصيحة امى لاننى كنت
رغم حداثة سننى غاية فى الجدى . فقد التقيت بأخريين بعد لقائى بذلك
الفنان وما لبثت ان ذاع صيتى بين الفنانين . ويجب ان اعترف بانهم
يمتازون عادة باللباقة والاحترام رغم ان بعضهم كان يكشف عن عواطفه
نحوى . ولكننى صدقتهم جميعا فى جفاء شديد حتى اننى لم البث
ان عرفت بينهم بالعفة التى لا يمكن ان تمس . وقد سبق ان قلت
ان معظم الفنانين كانوا يعاملوننى باحترام فى اغلب الاحيان . ولعل
السبب فى ذلك انهم كانوا لا يهدفون الى مضاجعتى بل الى رسمى
وتصويرى . وكانوا طوال ادائهم هذا العمل لا يروننى بعينى الرجل
بل بعينى الفنان كما لو كنت مقعدا او أى شىء آخر . فقد الفوا
النماذج وكان جسدى العارى رغم شبابه الفضى ونضوجه التام لا يؤثر
فيهم الا بقدر ما يتأثر الطبيب . ولكن اصدقاء الفنانين كثيرا ما كانوا
يقعوننى فى الحيرة والارتباك فقد كان من عاداتهم الدخول الى الرسم
والتحدث الى الفنان . ولكننى مالبثت ان لاحظت انهم كانوا رغم
تظاهرهم بعدم الاكتراث قدر امكانهم يعجزون عن تحويل ابصارهم
بعيدا عنى . وكان بعضهم لا يعرف الحياء فقد اعتادوا ان يتجولوا فى
ارجاء الرسم ليتمكنوا من مشاهدتى من جميع الزوايا . وكانت تلك
النظرات فضلا عن تلميحات امى المقنعة تثير فى نفسى احساسا بالذلال
وتشعرنى بجمالى وبالزوايا التى يمكننى ان استمدتها منه . واخيرا
وجدتنى لم اعود صفاقتهم فحسب بل ما كادت تمضى فترة وجيزة
حتى صرت لا اتمالك نفسى من الشعور بالفرح كلما رايت انفعال الزوار
ومن الشعور بالخيبة كلما رايتهم معرضين عنى غير مباليين بى . وهكذا
قادتنى خيالاتى على غير وعى مبنى الى الاعتقاد باننى استطيع وقتما
اشاء تحسين مركزى باستغلال جمالى تماما كما قالت امى .

ومع ذلك فقد كان الزواج حينذاك هو هدفى الرئيسى . اذ ان
حواسى كانت لاتزال نائمة . وكان الرجال الذين يراقبوننى اثناء
وقوفى للرسم لا يثيرون فى نفسى سوى الزهو والكبرياء . وكنت
اعطى امى كل ما اكسبه من تقود . كما كنت فى الوقت الذى لا اقف
فيه للرسم الامين الازمها فى المنزل حيث اعاونها على قص التمضان
وحياكتها . ذلك العمل الذى كان مصدر وفرتنا الوحيد منذ وفاة
والدى العامل بالسكة الحديد . وكنا نسكن شقة صغيرة فى الطابق
الثانى من مبنى خفيض ممتد اقيم خصيصا لعمال السكة الحديد
قبل ذلك بخمسين عاما . وكان المنزل يقع فى احد الشوارع الواسعة

التي تجمع بين مظهر الريف والمدينة ، تظله أشجار الدلب على صورة
بهيجة ويقوم على أحد جانبيه صف من المنازل المماثلة لمنزلنا . وكانت
جميعها متشابهة تتألف من طابقين وواجهة طوبية عارضة من طلاء
المصيص في كل منها اثنتا عشرة نافذة ست منها لكل طابق ولكل منزل
باب رئيسي . أما في الجانب الآخر فقد امتدت أسوار المدينة من برج
الى برج وكانت حينذاك سليمة تغطيها الخضرة . وعلى مسافة غير
بعيدة من منزلنا ثمة بوابة كانت تقوم في تلك الاسوار وتمتد من الداخل
بالقرب منها مساحة مسورة من الارض تضم متنزها للتسلية .
« لونا بارك » - كانت أضواؤه وموسيقاه تبعثان الحياة في أشهر
الصيف . وكنت عندما أمد بصرى من خلال نافذتى في نظرة جانبية
أرى جبال الزينة التي تتدلى منها المصابيح الملونة وسطوح الاكشاك
المختلفة المزينة بالاعلام وزحام الناس حول المدخل الذي تظله أغصان
الدلب . وكانت أنغام الموسيقى التي طالما سهرت الليل أصفى اليها
تبلغ سمعى في وضوح تام . وقد فتحت عيناي على سعتهما فيما
يشبه الحلم فتبسموا لاذنى على الاقل كأنها منبعثة من عالم
بعيد المنال بينما يقوى في نفسى ذلك الشعور ظلام الغرفة وضيقها .
فكان يخيل لى أن جميع سكان المدينة قد تجمعوا فى لونا بارك وأنه
لم يتخلف منهم سوى . وكنت أتوق الى مغادرة الفراش والانضمام
اليهم ولكنى أظل ساكنة فى مكانى لا أتحرك . أما الموسيقى التي لاتنقطع
ضوضاؤها طوال الليل فكانت تجعلنى أحس بخسارة معينة تكفيرا
عن ذنب لم أدر حتى أنى اقترفته . بل كنت أحيانا أنخرط فى البكاء
وأنا أنصت الى تلك الموسيقى . فلشد ما حز فى نفسى أن أبقى
وحيدة . وكنت حينذاك سريعة التأثر الى حد كبير، وسرعان ماتفيض
عيناي بالدموع لاتفه الاسباب : لجفوة من صديقة - أو ملامة من
أمى - أو لمشهد مؤثر فى السينما . ولعلنى كنت لا أحس بالحرمان
من عالم تسوده السعادة لو لم تحرم على أمى فى طفولتى الاقتراب
من اللونا بارك أو التمتع بأية وسيلة أخرى من وسائل اللهو . ولكن
ترملها وفقرها وعداءها على الاخص لكل وسائل الترفيه التي حرمتها
منها القدر - كل ذلك كان يجعلها تأبى السماح لى بالذهاب الى
اللونا بارك أو الى مكان آخر للتسلية إلا بعد مضي وقت طويل عندما
اكتمل نضوجى وتكونت شخصيتى فعلا . ولعل هذا هو مرجع ذلك
الظن الذى لازمى طوال حياتى بأننى مبعدة على صورة ما عن عالم
السعادة المشرق المرح وهو ظن لاسبيل الى التخلص منه حتى ولو

علمت حقا أنى سعيدة .

سبق أن قلت أنني حينذاك لم أكن أفكر إلا في الزواج ويمكننى كذلك أن أذكر كيف نشأت تلك الفكرة في ذهني . كان الشارع الريفى ادى يقع فيه منزلنا يؤدي على مسافة غير بعيدة الى حي التتر تراء حيث يقوم عدد من البيوت الصغيرة المحاطة بالحدائق بدلا من بيوت عمال السكة الحديد الممتدة الخفيضة التي تبدو كعديد من العربات القديمة الفبراء المستهلكة . لم تكن بيوتا فاخرة - فقد كان يسكنها الكتبة وبعض أصحاب المحال - ولكنها بمقارنتها بمنزلنا الحقير كانت توحى الى بحياة أيسر وأبهج . فقد كان كل منها أولا يختلف عن الآخر . وثانيا لم تكن كلها مشققة ملوته عاربه من الملاط فى بعض أجزائها - ذلك المظهر الذى جعل منزلنا ومنازل أخرى شبيهه به تبدو وكأن سكانها قد أهملوها زمنا طويلا لا لسبب الا لعدم مبالاتهم بها . وأخيرا فان الحدائق الصغيرة المزهرة المحيطة بها كانت توحى بالحب الفيور المنزوى بعيدا عن فوضى الطريق وهرجه ومرجه - فى حين أن مسكنى كان على النقيض من ذلك تقتحمه فوضى الطريق فى كل جزء منه : ردهة المدخل الفسيحة الشبيهة بمخزن السلع والدرج الواسع العارى القدر بل حتى الغرف التي كان أثاثها المتداعى يذكر المرء بمحال « الخردة » حيث تعرض على الارصفة تلك القطع نفسها للبيع .

وفى احدى اماسى الصيف بينما كنت أسير مع امى فى الطريق رأيت من خلال نافذة احدى هذه الفيللات مشهدا عائليا ترك فى نفسى تأثيرا عميقا اذ بدا انه يتفق من كل الوجوه مع الفكرة التي كونتها عن الحياة الطبيعية المهذبة . رأيت غرفة صغيرة نظيفة يكسو جدرانها الورق الزهر وكان بها « بوفيه » ومصباح اوسط يتدلى فوق المائدة المعدة لتناول الطعام . ومن حول المائدة جلس خمسة اشخاص او ستة بينهم ثلاثة اطفال تتراوح اعمارهم فيما اظن بين الثامنة والعاشرة . وقد توسط المائدة وعاء كبير للحساء اخذت تقدم منه الام وهى واقفة . وقد يبدو غريبا أن يلفت نظرى اكثر من اى شيء آخر ذلك المصباح الاوسط او الاخرى ذلك التعبير الذى اتسم به كل شى فى الضوء وكان هادئا طبيعيا على صورة خارجة عن المألوف . وقد حدثت نفسى فيما بعد وأنا اقلب ذلك المشهد فى ذهني قائلة فى تأكيد انه ينبغى أن اجعل هدفى فى الحياة سكنى منزل كهذا فى يوم من الايام وتكوين أسرة كهذه وأن اعيش فى مثل هذا الضوء الذى بدا لى أنه

يكشف عن وجود عواطف ثابتة باقية لا حصر لها . لعل الكثيرين من الناس يعتقدون ان مطالبتي كانت متواضعة للغاية . ولكن مررتي ائذاك يجب ان يؤخذ في الاعتبار . فلما كنت قد ولدت في احد منازل عمال السكة الحديد فقد كان تأثير تلك الفيلا الصغيرة على ذهني كتأثير المنازل الفخمة الفاخرة المقامة في الاحياء المترفة من المدينة على سكان تلك الفيلا انفسهم . فما اراه نعيما يراه غيري جحيما .

ولكن امي كانت قد وضعت خططا محكمة لمستقبلي . ومالبثت ان أدركت أنها تحاول تماما دون تنفيذ تلك الاماني التي لشهد ما تعلق بها قلبي . فكان يخيل لها أنني يمكنني بجمالي أن أهدف الى النجاح ايا كان نوعه الا أن اصير امرأة متزوجة لها أسرة شأن الناس جميعا . كنا نعيش في فقر مدقع وبدا لها أن جمالي هو رأسمالتنا الوحيد الذي كان في متناول يدنا ولذا فانه لم يكن يخصني انا وحدي فحسب بل يخصها هي أيضا لا لسبب الا لأنها أنجبتني كما قلت من قبل وكان على أن أستغل ذلك الرأسمال كما قضت هي لتحسين مركزنا دون اعتبار للمظاهر . ولعل المشروع كله كان مرجعه الافتقار الى الخيال . فكان أول ماتبادر الى ذهنها ونحن في مثل مركزنا أن تحول جمالي الى رأسمال . ثم توقفت امي فجأة عند هذه الفكرة ولم تعبأ بالنظر فيما وراءها .

ولكن لشهد ما قصر ادراكي حينذاك عن فهم خطط امي وطبيعتها . ومع ذلك فاني لم أجسر قط فيما بعد عندما استبانتي لي خططها تماما على سؤالها عما أدى بها الى مثل ما كانت عليه من فاقة وهي زوجة عامل في السكة الحديد رغم اعتناقها تلك الآراء . ولكنني أدركت من تلميحات مختلفة لامي أنني كنت السبب في فشلها لانها رزقت بي على غير رغبة منها وعلى غير انتظار أي أن امي بمعنى آخر قد حملت بي عرضا ولم تجسر على الحيلولة دون مولدي (كما كان ينبغي لها ان تفعل على حد قولها) . فاضطرت الى الزواج من والدي وقبول كافة النتائج المترتبة على ذلك - وغالبا ماكانت تقول لي - « لقد حطمت حياتي » عندما تشير الى مولدي . وهي عبارة كانت في وقت من الاوقات تنبئني الى المستقبل على مداركي . ولكنني فيما بعد أدركت معناها تماما . وهي تعني مايلي « لولاك لما تزوجت ذلك الرجل ولكانت لدى الآن سيارتي الخاصة » . وكان من الواضح وهي تفكر في حياتها الخاصة بهذه الطريقة الا تريد لابنتها التي لشهد ما فاقتها جمالا أن ترتكب نفس الخطأ وتلقى نفس المصير . واليوم

لا يمكننى حقا وأنا ارى الاشياء من بعد معين أن احملي نفسي على اتهامها بالخطأ . فالاسرة في نظرها كانت تعنى الفقر والعبودية وبعض المتع القليلة النادرة التي تنتهى فجأة بوقاة الزوج . ولهذا كان من الطبيعي أن تعد الحياة العائلية المهذبة كارثة كبرى فكانت لى دائما بالمرصاد حتى لايجذبني ذلك السراب الذي قادها الى الهاوية .

ولشد ما كانت أمى مشغوفة بى على طريقتهما الخاصة . فما ان بدأت أتردد على المرسم مثلا حتى حاكت لى ثوبين احدهما يتألف من قطعتين : سترة وازار والآخر ثوب كامل . ولكننى فى الواقع كنت افضل بعض الملابس الداخلية وذلك لخجلى من خشونة ثيابى التي اعرضها على الانظار ومن رثائتها واتساخها فى أحيان كثيرة كلما اضطررت الى التجرد منها أمام الناس . ولكن أمى كانت تزعم اننى حتى لو لبست خلقا بالية فذلك لا أهمية له ما دام المظهر لائقا . وقد اختارت لى قطعتين من قماش رخيص ذى ألوان فاقعة ورسوم تلفت الانظار وقصت بنفسها الثوبين . ولكنها لما كانت صانعة قمصان ولم تصنع ثيابا قط من قبل فقد حاكتهما بطريقة خاطئة . فكان الثوب فيما أذكر خبخابا من الامام يكشف عن نهدي مما كان يضطرنى دائما الى رفعه الى أعلى بمشبك صغير . أما سترة الثوب الاخر فكانت قصيرة ضيقة للغاية مما جعلها تضغط على صدرى وردفى . كما قصر الكمان عن رسفى . وكان الازار من الناحية الاخرى فضفاضا للغاية مما جعله يتغضن من الامام فى ثنايا . ولكنهما كانا فى نظرى ثوبين فاخرين لاننى كنت حتى ذلك الحين ارتدى ما هو أسوأ من ذلك كالصدارى والازر الصغيرة القصيرة التي تكشف عن فخذى والوشح الهزيلة الضئيلة . كما ابتاعت لى أمى زوجين من الجوارب الحريرية الطويلة . وكنت دائما من قبل ارتدى الجوارب القصيرة فتتعري ركبتي . فامتلات بهذه الهدايا زهوا وغبطة . ولم أمل قط النظر إليها أو التفكير فيها . بل كنت أسير فى الطرقات يراودنى احساس بالذات ناصبة قامتى كما لو كنت ارتدى ثوبا لا يقدر بثمن من صنع احدى الحائكات العصريات لا ذلك الخلق التعس .

وكانت أمى لا تفتأ تذكر فى مستقبلى فيما لبثت ان صاقت بمهنتى كتمودج لاعتمادها أن مكاسبها كانت تزيده للغاية . كما أن الفنانين وأصدقاءهم كانوا فقراء معدمين ولم يكن ثمة أمل فى التعرف فى مراسمهم الى شخصيات نافعة . وفجأة خطر لامى أن تجعل منى راقصة . وكانت ذخيرتها من المشروعات الطامحة لا تنضب قط فى حين

اننى كنت لا أفكر إلا فى حياة وادعة مع زوج وأطفال . وتثبتت بفكرة الرقص عندما طلب اليها أحد مؤسسى فرق العرض المسرحى وكان يقدم متنوعات بين الافلام أن تحيك له بعض القمصان . لم يخطر لها أن مهنة الرقص ستكون مجزية فى حد ذاتها ولكنها « درجة تودى الى اخرى » كما كانت تقول فى كثير من الاحيان . فان مجرد ظهورى على المسرح سوف يتيح لى الفرصة فى لقاء أحد السادة .

وذاذ يوم أخبرتنى أمى أنها تحدثت الى ذلك المنتج وشجعها على احضارى لمقابلته . فذهبت ذات صباح الى الفندق حيث كان يقيم مع الفرقة بأسرها . وكان الفندق كما أذكر قصرا منيفا قديما بالقرب من المحطة . ورغم أن الوقت كان قرابة الظهر فان دهايز بالفندق جميعها كانت لا تزال غارقة فى الظلام . وقد افعم جو المكان بانطباع يحبس الانفاس هو أن النزلاء فى مائة غرفة كانوا لا يزالون ينشدون النوم ويتوددون اليه . وأخذنا طريقنا مجتازين عدة دهايز حتى بلغنا فى النهاية غرفة انتظار معتمة كان يتدرب فى ضوءها الخافت ثلاث فتيات وموسيقى وكأنهم على خشبة المسرح . وقد وضع البيان فى احدى زوايا الغرفة بالقرب من النافذة الزجاجية المعتمة لدورة المياه . وتكدست فى الزاوية المقابلة كومة من الاوراق القذرة . وكان الموسيقى وهو رجل متهدم مسن يعزف من الذاكرة و كأنه يفكر فى شىء آخر أو غاف وسنان . أما الراقصات الثلاث فكان صغيرات السن وقد خلعن ستراتهن ووقفن فى أزهرن عاريات الأذرع والنهود . وقد أحاطت كل منهن خصر زميلتها بذراعها وكن عندما يعزف الموسيقى لحننا يتقدمن ثلاثتهن نحو كومة الاوراق القذرة وقد رفعن أرجلهن الى أعلى ثم يلوحن بها ذات اليمين وذات اليسار . وأخيرا يدرن ظهورهن بينما تهز كل منهن أردافها فى حركات مثيرة شدة ما كانت تتنافى مع تلك الخلفية القذرة المعتمة . وقد توقف قلبى عن الخفقان وأنا أراقبهن فى حركتهن الايقاعية وهن يضربن الارض بأقدامهن ضربات ثقيلة كئيبة . كنت أعلم جيدا اننى على الرغم من ساقى الطويلتين المفتولتين لم أكن موهوبة فى الرقص فقد سبق لى أن تلقت دروسا فى مدرسة فى حينما مع صديقين لى . فما لبثت كتابهما بعد العروس القليلة الاولى أن علمت الخطو الموقع والرفس بساقيها وهز أردافها كراقصة خبيرة . بينما لم أستطع أنا الا ان أجر نفسى هنا وهناك وكان قوامى من الخصر حتى قدمى قد صنع من الرصاص . وبدا لى أن تكوينى الجسمانى ليس كغيرى من الفتيات فقد كان به ثمة ثقل ضخم لم تستطع حتى الموسيقى

www.Librarary4arab.com/vb
أن تبده . وفضلا عن ذلك ففي المرات القليلة التي رقصت فيها كنت
كلما التفتت وراء حوز خصرى أصغر بنوع من الاستسلام المسترخى
حتى أنني لم أكن أحرك ساقي بقدر ما كنت أجرهما . وكذلك قال لى
الفنان : « كان ينبغي يا أدريانا أن تولدى منذ أربعة قرون ! فقد
كانت النساء وقتذاك على شاكلتك . أما اليوم فالنحافة هي مقياس
الجمال . فأنت كالسمكة فى خارج الماء . ولن تمضى أربعة اعوام أو
خمسة حتى تصيرى جونو (١) . » ومع ذلك فقد أخطأ التقدير ، لأننى
اليوم وبعد مضى خمس سنوات لم يزد وزنى عن ذى قبل . ولكنه كان
محقا فى أننى لم أخلق لذلك العصر الذى تسود فيه النحافة بين
النساء . وكنت أشعر بالتعاسة لثقل حركتى كما كنت على استعداد
للتضحية بأى شىء فى سبيل الفوز بالنحافة والقدرة على الرقص
كفبرى من الفتيات . ولكننى رغم قلة طعامى كنت دائما قوية البنية
ممتلئة الجسم كالتمثال . وكنت عندما أرقص أعجز تماما عن اللحاق
بالإيقاع السريع المهتز للموسيقى العصرية .

وقد صارحت أُمى بكل ذلك لأننى كنت أعلم أن مقابلتى بمنتج
عرض المتنوعات لن تؤوب منها الا بالفشل وكانت فكرة الخيبة تبعث
فى نفسى المذلة . ولكن أُمى بدأت على الفور فى الصياح زاعمة أننى
أجمل بكثير من كل هؤلاء الفتيات التعسات اللاتى يستعرضن أنفسهن
على المسرح وأن المنتج ينبغي أن يشكر السماء لو أتيح له أن يضمنى
الى فرقته وما الى ذلك . وكانت أُمى لا تدرى شيئا عن الجمال العصرى
بل كانت تؤمن فى صلق بأن المرأة كلما نهد صدرها فى امتلاء
واستدار ردفها ازدادت بلا ريب فتنة وجمالا .

كان المخرج ينتظر فى غرفة تفضى اليها حجرة الانتظار ولعله من
خلال الباب المفتوح كان يراقب راقصاته أثناء تدريبهن . كان يجلس
فى متكأ عند طرف الفراش الأشعث الذى تعلوه صينية فقد كان
موشكا على الانتهاء من تناول أفطاره . كان رجلا مسنا بدينا ولكن
أناقة ملبسه المفرطة ودهان رأسه ونظافته التى لا تشوبها شائبة كل
ذلك أحدث تأثيرا غريبا بانعكاسه على ملاء الفراش المقلوبة فى ذلك
الضوء الخافت الذى يشيع فى الغرفة الخائقة . وكانت بشرته الحمراء
تبدو لى كأنها مظلية . وذلك لان حمرة وجنتيه الوردية كانت تبدو
من تحتها بقع مرضية قائمة غير مستوية . وكان يضع منظارا على

(١) Juno : ربة الزواج فى أساطير الرومان كما كانت زوجة جوبيتر وملكة
الآلهة .

احدى عينيه وهو لا يفتأ يزرر ويلهث كاشفا عن أسنان ناصعة البياض ولعلها زائفة . كان شديد الإناقة في ملبسه كما قلت . فما زلت أذكر وباط عنقه (بابيونته) الذى حاكى فى نونه ورسنه ذلك المندبل الذى دسه فى جيب سترته العلوى . كان يجلس وقد برز كرشه الى الامام . وما ان انتهى من تناول طعامه حتى مسح فاه وقال فى لهجة ساخطة ملول : « هيا اكشفى عن ساقيك » .
فرددت أمى قائلة فى قلق « اكشفى للسيد عن ساقيك » .

وكان الخجل قد زایلنى بعد عملى فى المراسم فرفعت ثوبى الى أعلى وكشفت له عن ساقى ثم وقفت ساكنة ممسكة بثوبى وقد تعرى ساقى وهما رائعتان طويلتان مستقيمتان ولكن فخذى فوق الركبة تماما تأخذان فى الامتلاء والاستدارة فى قوة ومثانة مع ازدياد سمكهما تدريجيا حتى الردفين . وهز المخرج رأسه وهو ينظر الى قائلا :
- « كم تبغين من العمر ؟ »

فأسرعت أمى باجابته قائلة - « لقد أتمت الثامنة عشرة فى شهر أغسطس الماضى » .

فنهض فى صمت وهو يلهث قليلا ثم اتجه الى حاك كان يتوسط كومة من الاوراق والملابس فوق احدى المناضد فملأه واختار فى عناية احدى الاسطوانات ووضعها على الحاكى قائلا - « والان حاول ان ترقصى على هذه الموسيقى - ولكن دون أن تسترى ساقيك » .
فقالت أمى - « انها لم تتلق فى الرقص سوى بضعة دروس . لقد أدركت أمى أن هذه هى اللحظة الحاسمة . فساورها الخوف من النتيجة لعلمها بمدى ارتباكى وثقل حركتى .

ولكن المخرج أشار اليها بالضميت وأدار الاسطوانة ثم دعانى بإشارة أخرى للبدء فى الرقص . فامتثلت لامره رافعة ازارى . وفى الواقع فانى لم أزد على تحريك ساقى أولا الى اليسار ثم الى اليمين فى شئ من البطء والتثاقل . وكنت أدرى أننى لأساير الايقاع . وكان لا يزال واقفا بجانب الحاكى متكئا برفقيه على المنضدة وهو ينظر فى اتجاهى . فاذا به يقف الحاكى فجأة ويذهب ليعاود جلسته فى التلا مشيا بيده الى الباب إشارة لا يعطيا النظر .

فسألته أمى قائلة فى قلق وقد تهيأت فعلا للحرب - « ألا يجدى هذا ؟ »

فأجابها قائلا دون أن ينظر اليها وهو يتحسس جيوبه بحثا عن

علبة السجائر •
- كلا • هذا لا يجدى •
كنت أعلم أن أمى عندما تتخلل صوتها نبرة معينة تكون قد
اعتزمت إثارة شجار ولذا فقد جذبتها من ذراعها • ولكنها تملصت
منى ورددت قولها بصوت أعلى مركزة عينيها اللامعتين على المخرج
قائلة - « هذا لا يجدى هه؟ ولماذا - ان كان لى أن أسأل؟ »

وعندئذ كان المخرج الذى عشر على علبة سجائره يبحث عن
الثقاب - وكانت كل حركة تكلفه جهدا كبيرا لبدانته •

فأجابها قائلا فى هدوء وهو يلهث - « هذا لا يجدى • لانها تفتقر
الى ملكة الرقص • ولانها لا تملك القوام المناسب لهذا العمل » •

وحدث ما كنت أخشاه • فقد انطلقت أمى تصيح بحججها المعهودة
بأعلى صوت قائلة - اننى قطعة من الجمال الحق وأن وجهى يحاكي
وجه السيدة مريم العذراء • وأن ما عليه الا أن يتأمل صدرى وردفى
وساقى ! ظل الرجل فى مكانه هادئا تماما ثم أشعل سيجارته وأخذ
يدخن وهو يراقبها منتظرا أن تنتهى من صياحها •

ثم قال بلهجته الملول الحزينة - « لعل ابنتك تصلح لان تكون
مرضعة ناجحة بعد عام أو اثنين - ولكنها لن تكون راقصة » •

كان لا يدرى مدى ما يمكن أن تصل اليه أمى من درجات الحنق
الجنونى • فتولته الدهشة على صورة جعلته يخرج سيجارته من فمه
ويقف أمامها فاغرا فاه • كان يريد أن يتكلم ولكنها لم تمكنه من ذلك •
كانت أمى نحيلة لاهثة مما يتعذر معه الوقوف على مصدر كل هذه
الضوضاء وقد فاهت بعدد من الاساءات لشخصه وللراقصات اللاتى

رأيناهن فى الدهليز • وأخيرا اختطفت بعض قطع من حرير القمصان
التي كان قد عهد بها اليها وقذفته بها صائحة : « اختر من شئت
لصنع هذه القمصان •••• وربما صنعتها لك راقصاتك ••• أما

أنا فلن ألمسها ولو أعطيتنى ذهب العالم بأسره ! » ولشده ما تولاه
الارتباك لهذه النهاية غير المتوقعة فوقف فى مكانه مذهولا مشلول
اللسان وقد التف جسمه بقماش القمصان • وكنت فى تلك الاثناء

لا أبرح اجانب أمى من كعبها وقد أوشكت على البكاء من شدة الخجل
والمذلة • وأخيرا انقادت لى فغادرنا الغرفة وتركنا المخرج ليخلص
نفسه من قطع الحرير •

وفى اليوم التالى رويت للفنان الذى أصبح أمين سرى الى حد ما
كل ما حدث • فضحك كثيرا من العبارة التى قالها المخرج عن

امكانياتي كمرضعة • ثم علق قائلاً - « يالك من مسكينة يا آدريانا !
- فطالما قلت لك ذلك من قبل ! فما كان ينبغي أن تولدى في عصرنا
العاصر • بل منذ أربعين سنة • فما يعاب اليوم كان يعد ميزة وقتذاك
والعكس بالعكس • والمخرج محق تماماً من وجهة نظره • فهو يعلم
أن الجمهور يريد فتيات شقراوات نحيفات ذوات نهود صغيرة واعجاز
دقيقة ووجوه صغيرة ماكرة مثيرة • أما أنت فانك سمراء ممتلئة تماماً
في غير بدانة ذات صدر ناهد ممتلئ - وكذلك عجزك ! - ووجهك
حلو رقيق • ماذا يسعك أن تفعل في ذلك ؟ انك بغيتي المنشوده
بالضبط ! أستمرى في عمك كنموذج • • • وذات يوم ستتزوجين
وتنجبين عددا كبيرا من الاطفال السممر الممتلئين مثلك ذوى وجوه
رقيقة » •

فقلت في تأكيد - « هذا هو ما أنشده بالضبط » •

فأجابني قائلاً - « حسنا ! والان اتكئ قليلا على أحد جنبك • •
هكذا • • • • • » لشد ما كان ذلك الفنان مغرماً بي على طريقته الخاصة
ولعله كان يمدني ببعض نصائحه المفيدة التي كان يمكنني بها ان
أتجنب أحداثاً كثيرة لو انه بقي في روما وظللت آتمنه على أسرارى •
ولكنه كان لايفتا يشكو من اعراض الجمهور عن صورته • وأخيراً
انتهز فرصة اقامة معرض في ميلان ورحل الى هناك ليستقر فيها
دواماً - وظللت أعمل نموذجاً طبقاً لنصيحته • ولكن الفنانين
الآخرين كانوا لا يتصفون بمثل ما اتصف به من رقة وعطف ولم
أشعر بميل للتحدث اليهم عن حياتي - التي كانت قبل كل شيء
حياة خيالية من نسيج الاحلام والاماني والآمال فقد خلت وقتذاك
من كل شيء •

الفصل الثاني

وهكذا واصلت عملي كنموذج رغم تدمير أمي التي كانت ترى أن مكاسبى منه ضئيلة للغاية . وكانت أمي وقتذاك لا يكاد يفارقها السخط والتبرم . وكنت أعلم - رغم تكتهما - أنني مصدر ذلك السخط بصفة أساسية . فانها كانت تتوقع كما قلت من قبل أن يحقق لى جمالى نجاحا واثرا يفوقان الخيال . أما عملي كنموذج فلم يكن سوى خطوة أولى ومن بعدها خطوة تؤدي الى أخرى كما تعودت أن تقول . فلما رأت أنني لم أزد على أن أكون نموذجا ولا شيء غير ذلك أحست نحوى بالمرارة والسخط وكأني بافتقاري الى الطموح قد خدعتها وأضعت عليها مكسبا معينا . ولكنها بالطبع لم تترجم قط عن خواطرها فى الفاظ بل كانت تلميحاتها ووقاحتها وتنهدياتها وعبوسها وكل ما بقى من حركاتها التمثيلية الشفافة تعبر عن خواطرها . فكان ذلك نوعا من الابتزاز الذى لا نهاية له . وأدركت لماذا ينتهى الامر بكثير من الفتيات اللاتي لا تبرح أمهاتهن الطموحات ينغصن حياتهن على هذه الصورة وقد خاب فيهن رجاؤهن الى الهرب من البيت والاستسلام لأول رجل يصادفنه فى الطريق لا لشيء الا للتخلص من الوضع الذى لا يطاق . وكان من الطبيعى أن تنحو أمي بسلوكها هذا النحو لانها تحبنى ولكنه حب من ذلك النوع الذى تحس به ربة الدار نحو دجاجة كثيرة البيض - فاذا ما توقفت عن وضع البيض أخذت تفحصها وتزنها بيدها وتقدر ما اذا كان من الاجدر أن تلوى عنقها .

ما أكثر صبرنا وجهلنا ونحن صفار ! فقد كنت وقتذاك أعيش حياة تعسة ولكننى فى الواقع لم الحظ ذلك قط . فقد تعودت أن أعطى أمي كل ما كنت اكتسبه من نقود بالوقوف فى المراسم ساعات طويلة شاقة مملة . وفيما بقى من الوقت حين لا يدعونى وقوفى للرسم الى أن أكون غارية متصلة متالة كنت أجلس بجانب الطهر على ماكينة الخياطة لا أرفع عن الأبرة بصرى وذلك لمعاونة أمي فى عملها . كنت أواصل الحياكة حتى ساعة متأخرة من الليل ثم أستيقظ فى الصباح عند مطلع النهار لبعده هذه المراسم عن منزلنا ولأن الجلسات كانت تبدأ فى ساعة مبكرة للغاية . ولكننى كنت قبل ذهابى الى العمل أرتب

فراشي وأعاون أمي في تنظيف الشقة . وكنت في الواقع طيبة صبورا
لا أعرف الكلل وفي نفس الوقت هادئة مرحة معتدلة المزاج . أما الجسد
والمرارة والفيرة فلم يكن لها مكان في قلبي بل كانت نفسي ممثلة
بالعرفان الرقيق الذي لشد ما يزهر تلقائيا في سن الشباب ولا يعرف
له سبب . كما لم الحظ قط قدارة شقتنا .

وكنا نؤدي عملنا في غرفة فسيحة عارية تتوسطها منضدة كبيرة
لا تفتأ تكسوها قصاصات وفضلات من الاقمشة بينما تتدلى بعض
الاشياء الاخرى التافهة من مسامير دقت في الجدران القاتمة حيث كان
الجير الابيض في سبيله الى الزوال . كما صفت بالفرفة بضعة مقاعد
محطمة من الخيزران . ثم كانت هناك غرفة النوم التي تعودت أن آوى
اليها مع أمي حيث أنام في فراشها العريض الذي تعلوه في السقف
مباشرة رقعة كبيرة من البلل . فقد كان المطر يتساقط علينا من تلك
البقعة عندما يسوء الجو . وكذلك كان هناك مطبخ صغير معتم تكدست
فيه الصحف والطايبات التي لم توفق أمي قط بسبب كسلها الى
غسلها كما ينبغي . ولم الحظ مطلقا كم كانت حياتي تضحية في
الحقيقة بلا لهو أو حب أو عطف حتى ابني عندما أفكر في صباي
وأتذكر وداعتي وسذاجتي لأتمالك نفسي من الشعور بالاسى في حدة
وعجز - كذلك الشعور الذي يراودك عندما تقرأ في كتاب عن الكوراث
التي المت بشخص خلاب وتتمنى لو أمكنك أن تبعدها عنه ولكنك تعلم
أن ذلك ليس في امكانك . غير أن هذه هي الحال ! فالناس يضيقون
بالوداعة والسذاجة ولعل هذا ليس أبسط أسرار الحياة - أن السجايا
الحميدة التي تجود علينا بها الطبيعة في سخاء شديد لا تؤدي في الواقع
الا الى زيادة ما نعانيه من شقاء .

كان يخيل لي آنذاك أن ظمئي الى الزواج والى اقامة حياة عائلية
سوف يرتوى يوما ما . وكان من عادتي كل صباح أن أستقل الترام
من الساحة التي لا تبعد كثيرا عن منزلنا حيث لفت نظري بين عدد من
المباني المقامة حديثا مبنى ممتد خفيض ملاصق لاسوار المدينة كان
يستخدم « كجراج » . وفي ذلك الموعد دائما كنت أرى شابا يحدجني
بنظرات حادة للغاية وهو يغسل سيارته أو يظفها . وكان وجهه
شاحبا نحيفا رائع القسماات ذا أنف دقيق مستقيم وعينين
سوداوين وفم جميل للغاية وأسنان بيضاء . ولشد ما كان يشبه
نجما سينمائيا أمريكيا ذاع صيته حينذاك مما لفت نظري اليه حتى
خلته في الواقع شيئا آخر عما كان عليه في الحقيقة لاناقة ملبسه

ومظهره الذي ينبىء بحظه الوافر من التعليم وسلوكه المهذب - كما خيل لى ان السيارة لابد ان تكون ملكا له والله فى سعة من العيش .
وانه احد السادة الذين طالما تحدثت عنهم امى . وقد استهوانى مظهره الى حد ما . ولكننى لم اكن افكر فيه الا عندما اراه . ثم لاتبث صورته بعد ذلك ان تفارق ذاكرتى وانا فى طريقى الى المراسم . ومع ذلك فلا بد انى على غير وعى منى قد فتنت بطلعته فحسب . اذ انى ذات صباح بينما كنت انتظر الترام سمعت شخصا يحاول فى وضوح ان يجذب انتباهى بصوت أشبه بدعاء الناس للقط فاستدرت نحوه وعندما رأته يشير الى من السيارة لم اتردد مطلقا بل اتجهت نحوه فى انقياد اعمى اثار دهشتى . وما ان فتح الباب حتى لاحظت اثناء دخولى السيارة ان يده الممدودة الى النافذة المفتوحة كانت غليظة خشنة ذات اظافر سوداء مهشمة وبنصر ملوثة من اثر النيكوتين كأيدي العمال اليدويين . ولكننى لم انبس بكلمة بل ركبت السيارة على الرغم من ذلك . فسألنى وهو يفلق الباب قائلا - « اين تريدنى ان اصحبك ؟ »

فذكرت له عنوان الرسم . ولاحظت صوته الهادى ، كما خيل لى انه لطيف الى حد ما رغم انى لم اتمالك نفسى من ان احس بشيء من الزيف والتكلف فى سلوكه .

فاجاب قائلا - « حسنا . فلنقم بجولة بالسيارة . فالوقت مبكر ثم اصحبك بعد ذلك الى حيث شئت . » وتحركت السيارة .

وغادرنا الحى الذى كنت أسكنه مجتازين الطريق المحاذى لاسوار المدينة ثم اخترقنا طريقا واسعا تحف به المخازن والاكواخ الصغيرة من الجانبين . واخيرا بلغنا الريف حيث اخذ يقود السيارة كالمخبول فى ممر جانبي بين صفيين من اشجار الدلب . وكان يقول لى من وقت لآخر دون ان يلتفت الى « نحن نسير الان بسرعة ثمانين كيلومترا فى الساعة والان تسعين كيلومترا ثم مائة ثم مائة وعشرين ثم مائة وثلاثين » . لقد اراد ان يبهرنى بسرعة السيارة ولكن قلقتى كان مرجعه بصفة خاصة انى مضطرة الى الذهاب للوقوف امام الرسامين وخبثت ان يظروا خيل لى السيارة لسبب آخر ونحن فى وسط الريف . وفجأة وقف السيارة وأسكت المحرك ثم استدار نحوى قائلا :

- « كم تبلغين من العمر ؟ »

فاجبته قائلة « الثامنة عشرة » .

- « ثمانية عشر عاما - خلقتك أكبر من ذلك » .
- كان يتكلم في الواقع بصوت متكلف لا يفتأ يخفت بين الحين والحين لتأكيد كلمة ما وكأنه يحدث نفسه أو يسر بشيء إلى
- « ما اسمك ؟
- « آدريانا . وأنت ما اسمك ؟
- « جينو .
- فسألته قائلة - وما عملك ؟
- فأسرع بإجابتي قائلا :
- « من رجال الأعمال .
- « وهل هذه سيارتك ؟
- فنظر إلى السيارة بنوع من الاحتقار قائلا - « نعم . سيارتي » .
- فقلت له في صراحة - أنا لا أصدقك . «
- فردد قولي في لهجة ساخرة مدهوشة دون أن يحرك ساكنا قائلا -
- « ألا تصدقيني ؟ حسنا . حسنا . حسنا . حسنا . حسنا -
- ولم لا ؟ »
- « بل أنت السائق » .
- فزادت دهشته الساخرة وضوحا .
- « والآن حقا ما أغرب ماتقولين ! حسبك أن تتخيلي هذا الان حقا . . السائق ! وماذا بالله أوحى اليك بذلك ؟
- « يداك » .
- فنظر إلى يديه دون أن يحمر وجهه غضبا أو يتولاه الارتباك .
- ثم قال :
- « ألا يمكنني أن أخفي شيئا عن سيدتي الصغيرة ؟ انك لفتاة ذكية . حسنا - أنا السائق . هل يرضيك ذلك ؟ »
- فأجبت في حدة قائلة :
- « لا . لا يرضيني . وأرجو أن تعود بي إلى المدينة في الحال » .
- « لماذا ؟ الغضبك مني أنى ادعيت أنى من رجال الأعمال ؟ »
- وكنت غاضبة منه حقا في تلك اللحظة دون أن أدري لذلك سببا .
- فقد بدا الأمر وكأنني لم أتمالك نفسي من ذلك .
- « كفى حديثا في هذا الموضوع - وعد بي » .
- « انها دعابة فحسب . ولم لا ؟ أنكف حتى عن المزاح ؟ »
- « لا يروقني هذا النوع من المزاح . »
- « ما أحد طبعك ! كنت أحدث نفسي قائلا « لعل هذه السيدة

الصغيرة من الاميرات - فاذا ما اكتشفت اننى سائق مسكين بحسب
فلن ترومقنى حتى بنظرة - ولذا فساقول لها اننى من رجال الاعمال «
كانت هذه الكلمات على جانب كبير من الفطنة واللباقة لانها ارضت
كبريائى وكشفت لى فى نفس الوقت عن مشاعره نحوى . وعلى اية
حال فان أسلوبه الجذاب فى التعبير قد استمالنى تماما .
فأجبتة قائلة :

- « انا لست من الاميرات - ولكننى اعمل نموذجا كما تعمل انت
سائقا لكسب القوت » .

- « نموذجا ؟ ماذا تعنين ؟ »

- « اذهب الى مراسم الفنانين حيث أتجرد من ملابسى ليرسموا
صورى » .

فسألنى بحدّة - « اليست لك ام ؟ »

- « بالطبع . لماذا ؟ »

- « وهل تسمح لك امك بالتجرد من ملابسك امام الرجال ؟ »
لم يخطر ببالى قط ان فى مهنتى مايدعو الى الخجل . وليس ثمة
مايدعو الى ذلك فى الواقع . ولكننى سررت لما ابداه من شعور .
فقد اظهر لى انه ذو احساس خلقى جاد . وكما قلت من قبل فانى
كنت عطشى الى الطريق الطبيعى فى الحياة . وقد تكهن بدهائه -
ولست ادرى حتى الآن كيف أمكنه ذلك - بما ينبغى ان يقوله وما
لاينبغى . ولم اتمالك نفسى من الاعتقاد انه لو كان فى مكانه اى رجل
آخر لسخر منى او كشف عن نوع من الغلظة المسيئة لتصورى
عارية . وهكذا فقد تغير على غير وعى منى ذلك الانطباع الاول الذى
احدثه كذبه فى نفسى وخيل لى انه شخص صادق مهذب على الرغم
من كل شىء بل هو بالضبط ذلك الرجل الذى تخيلته فى احلامي
زوجا لى .

فأجبتة فى بساطة قائلة - « ان امى هى التى اوجدت لى هذا
العمل » .

- « اذن فمعنى هذا انها لاتحبك » .

فاحتجبت قائلة - « كلا . انه لاجنى ذلك . فلاشك انها تحبى
- ولكنها هى نفسها كانت تعمل نموذجا فى صباها . والواقع انه
لا عيب فى ذلك . فمثلى كثيرات يؤدين هذا العمل وهن فى نفس الوقت
فتيات مهذبات » .

فهز رأسه فى غير اقتناع ثم قال واضعا يده على يدي - « اتعلمين

انى سعيد بلقائك - سعيد حقا » .

فقلت في صراحة - « وانا كذلك » .

عندئذ احسست بميل نحوه . وكنت اتوقع منه ان يقبلنى .
فلاشك انه لو فعل لما احتججت عليه . ولكنه بدلا من ذلك قال لى
في صوت حازم كمن يحمينى :

- « لو كان من حقى ان اتدخل لما صرت نموذجاً قط » .

وراودنى احساس بانى ضحية وغشيني نحوه شعور بالعرفان .
ثم واصل حديثه قائلاً - « خفتاة مثلك ينبغى ان تبقى في منزلها وتعمل
ان شاءت عملاً مهذباً لاتعرض فيه شرفها للضياع - ان فتاة مثلك
ينبغى ان تتزوج ويكون لها بيتها الخاص وأطفالها وان تبقى مع
زوجها . »

كانت هذه بالضبط هى طريقتى في التفكير ولا يمكننى ان اعبر عن
مدى سعادتى عندما وجدته يفكر او بدا لى انه يفكر بنفس طريقتى .
قلت - « انك محق في ذلك - ولكنك مع هذا يجب ألا تسىء الظن
بأبى . فقد ارادت ان تجعل منى نموذجاً لانها تحبني » .
فأجاب قائلاً في حزم تحدوه شفقة غاضبة - « ذلك امر لايقره
أحد » .

- « نعم . لاشك انها تحبني - ولكن تفكيرها يقصر عن ادراك
اشياء معينة » .

وظللنا نتحدث على هذه الصورة ونحن جالسان خلف حاجز الريح
في السيارة المفلقة . واذكر أننا كنا في شهر مايو وكان النسيم عليلاً
وظلال أشجار الدلب على مدى البصر تتلاعب على سطح الطريق .
وقد خلا المكان الا من سيارة تمرق من وقت لآخر بسرعة فائقة كما
اقفر من حولنا الريف الاخضر المشمس . واخيراً نظر الى ساعته
وقال انه عائد بى الى المدينة . ولم يزد طوال هذا الوقت على ان
لمس يدي مرة واحدة . وكنت اتوقع منه على الاقل ان يحاول تقبيلي
فخالجنى مزيج من الخيبة والسرور لحصافته وفطنته . احسست
بالخيبة لاننى أعجبت به ولم أتمالك نفسى في الواقع من الحملة في
شفتيه الرقيقتين الحمراءين . وسررت لانه عزز رأبى فيه وهو انه
شاب يتسم تفكيره بالجدية تماماً كما تمنيته ان يكون .

وصحبنى الى المرسم حيث أخبرنى انه منذ ذلك اليوم فصاعداً
ان يبرح يصحبنى في السيارة كلما وجدنى على محطة الترام في ميعاد
معين اذ انه عندئذ لايجد مايفعله . فقبلت دعوته بسرور ومررت يومئذ

ساعات وقوفى الطويلة على جناح السرعة . فقد بدا لى أننى وجدت
أحياتى عدنا . كما سرنى التكرار فيه دون استياء أو ندم
كشخص لم أنجذب اليه شكلا فحسب بل توفرت لديه السجايا
الخلقية التى كنت أعدها جوهرية .

لم أذكر لأمى شيئا عنه . فقد خشيت الا تسمح لى بالتورط فى
علاقة مع رجل فقير لايملك سوى مستقبل متواضع . وفى الصباح
التالى جاء ليصحبنى حسب وعده . ولكنه يومئذ حملنى مباشرة الى
المرسى . أما فى الايام التالية فكان يصحبنى أحيانا للنزهة عندما
يكون الجو صحوا جميلا فى طرقات المدينة الواسعة أو فى الشوارع
التى يخف فيها الزحام فى ضواحي المدينة فيمكنه أن يتحدث الى فى
راحة وطمأنينة . ولكنه كان فى حديثه دائما يتسم بالحزم والجد
ويتميز أسلوبه بالاحترام الشديد المتعمد ليأسر به قلبى - ولشد
ما كنت عاطفية حينذاك حتى أن كل مايتصل بالخير والفضيلة
والخلق الكريم والحب العائلى كان يحرك مشاعرى على صورة غريبة
الى حد البكاء فتفيض عيناي لأتفه الأسباب بالدموع التى تبعث فى
نفسى شعورا غامرا مسكرا بالعزاء والثقة والتعاطف . وهكذا تدريجيا
صرت أومن بكماله المطلق . بل كنت فى الواقع أسائل نفسى أحيانا
« ماذا فيه من عيوب ؟ » كان شابا وسيفا ذكيا أمينا جادا فى تفكيره .
وفى الواقع فانه ماكان يمكن أن يقال ان به عيبا واحدا . وكانت تلك
الخواطر تثير فى نفسى الدهشة لاننا لانصادف الكمال فى حياتنا كل
يوم . وكاد يساورنى الخوف . فرحت أسائل نفسى قائلة أى رجل
هذا الذى لا عيب فيه ولا ماخذ عليه مهما اخترته ؟ وحقيقة الامر
أننى كنت على غير وعى منى قد وقعت أسيرة هواه ونحن نعلم جميعا
أن الحب مرآة يبدو فيها الوحش ذا سحر وفتنة .

وقد بلغ من هيامى به انه عندما قبلنى لأول مرة فى الطريق حيث
دار بيننا أول حديث لنا أحسست بالارتياح وكأننى انتقلت بطريقة
طبيعية للغاية من مرحلة الرغبة الناضجة الى مرحلة اشباعها لأول
مرة . ومع ذلك فان الدفعة التلقائية الغلابة التى ضمت شفاهنا فى
تلك القبلة بثت فى نفسى بعض الخواطر لأننى أدركت ان فعلى لم تعد
تتوقف على إرادتى بل على تلك القوة الجبارة اللذيذة التى كانت
تدفعنى نحوه فى الحاح شديد . ولكنه بث فى نفسى الطمأنينة التامة
عندما أخبرنى لحظة افتراقنا أنه ينبغي علينا منذ ذلك الوقت فصاعدا
أن نعد كلينا خطيبين . ولم يسعنى حينئذ أيضا الا أن أرى أنه قد

قرأ أعمق خواطري وفاه بنفس الالفاظ التي كنت أبغى سماعها .
وهكذا لم يلبث أن تلاشي في الحال ذلك القلق الذي بعثته في نفسي
فلبثت الأولى . وظلت طوال ما بقى من الوقت الذي أمضيته هناك
على جانب الطريق أقبله دون تحفظ يراودني شعور بالاستسلام
الحلال المطلق العنيف .

وما أكثر مامنحت وتلقيت من القبل منذ ذلك الوقت ويعلم الله
أنني مامنحتها أو تلقيتها الا كقطعة النقود القديمة التي تداولتها أيد
كثيرة تعطيها وتأخذها أي دون مشاركة وجدانية أو جسمانية ولكنني
لن أنسى ماحييت تلك القبلة الأولى لما اتسمت به من عنف يوشك أن
يكون مؤلما وقد بدا لي أنني لم أكن أعبر بها عن حبي لجينو فحسب
بل عن حال من الترقب يدوم حياة بأسرها . وأذكر أنني أحسست
وكان العالم أجمع يدور من حولي وأن السماء من تحتي والارض من
فوقي . وفي الواقع فاني كنت أتكىء قليلا الى الخلف وفمه علي فمي
حتى يطول عناقه . وأحسست بشيء بارد حي يضغط على أسناني
حتى اذا ما انفرجت شعرت بلسانه الذي طالما دغدغ أذني بحلو حديثه
وهو يلج فمي الآن في صمت ليكشف لي عن لذة أخرى لم تخطر لي على
بال . لم أكن أدري أن التقبيل يمكن أن يطول على هذه الصورة .
وما لبثت أنفاسي أن انبهرت ، وقد عرنتني شبه نشوة حتى أنني
اضطرت في النهاية عندما انفصل كلانا عن الآخر الى الاتكاء قليلا
الى الخلف على ظهر المقعد وقد أغمضت عيني وغشى عقلي ضباب
وكانني على وشك الاغماء . وهكذا اكتشفت أن في الدنيا متعا أخرى
تضاف الى حياة المرء في كنف أسرته في سلام . ولكنني في حالتي لم
أحلم أن تستأثر تلك المتع بحياتي مستبعدة غيرها من المتع الطبيعية
التي كنت أصبو اليها حتى ذلك الحين . وما ان قطع جينو على نفسه
عهدا بخطبتي حتى تأكدت من أنه سيتاح لي في المستقبل أن أتذوق
مباهج المتعنين معا بلا خطيئة أو ندم .

ولشد ما كنت مقتنعة بصحة سلوكي وشرعيته حتى أنني في ذلك
المساء نفسه كاشفت أمي بكل شيء ولعني تعرضت في ذلك لرعدة
وفوجئة شديديتين . وجدتها جالسة الى ماكينة الخياطة بجانب
النافذة في ذلك الضوء الباهر الذي يرميه المصباح العاري من الغطاء
قلت وقد التهبت وجنتاي بحمرة الخجل - « اني مخطوبة
يا أماه . »

فرايت وجهها كله يلتوي في تعبير عن الضيق والاستياء وكان

www.library4arab.com/vb

نضيفا من الماء المثلج أخذ يتقاطر منزلقا على ظهرها .

قالت - « لمن ؟ »
قلت - « لشاب قابلته أخيرا » .

قالت - « وما عمله ؟ »

قلت - « سائق » .

أردت أن أوصل حديثي ولكنني لم أجد الوقت لذلك . فقد وقفت ماكينتها وقفزت من مقعدها - ثم أمسكت بي من شعري قائلة « هل قلت أنك مخطوبة ؟ ... دون أن تخبريني بشيء - ولسائق ! آه يا الهى ! يا الهى ! ... سألقى حتفى على يديك ! » وكانت فى أثناء ذلك تحاول أن تضربنى ولكننى لم أفتأ أحتمى منها بيدي ما استطعت الى ذلك سبيلا . وأخيرا تخلصت من قبضتها ولكنها تبعتنى - فانطلقت أركض حول المائدة فى وسط الغرفة ولكنها ظلت تطاردنى وهى تصيح فى يأس . ولشد ما أفرغنى وجهها النحيل وقد اندفع الى الخارج نحوى يعلوه تعبير ينطق بالفضب الاليم . صاحت قائلة : « سأقتلك . سأقتلك هذه المرة . » وبدأ لى أن غضبها كان يزداد تأججا وتهديدها يزداد واقعية كلما صاحت قائلة « سأقتلك . » ظللت عند طرف المائدة أرقب كل حركة من حركاتها لاننى كنت أعلم أنها لا ضابط لها مطلقا عندما تعترىها هذه النوبات وأنها خليقة حقا بأن تقذفنى بأول شيء يقع تحت يدها ولو أردتنى قتيلا . وبالفعل فقد بدأت فجأة تلوح بمقص الخياطة الكبير وماكدت أمرق جانبا كالسهم حتى مر بى المقص وارتطم بالحائط . وقد فزعت هى نفسها لذلك وجلست فجأة الى المائدة محتفنة وجهها براحتيها وانفجرت فى نوبة من البكاء العصبى الخانق وقد تجلى فيه الفضب أكثر مما تجلى فيه الاسى والاسف .

وقالت بين شهقاتها - « ما أكثر ما أعددت لك من الخطط . فقد أردت لك بكل مالك من جمال أن تنعمى بالشراء - فاذا بك الآن تخطبين لفتى مفلس » .

فقاطعتها فى وجل قائلة - « انه ليس مفلسا ! »

فهمت قائلة وهى تهنئ نفسها - « سائق ! سائق ! - انك عائرة الحظ وسوف ينتهى بك المطاف كما انتهى بى » . قالت هذه الكلمات فى بطء وكأنها تتذوق كل ما فيها من مرارة . ثم أضافت قائلة بعد لحظة - « فانه سيتزوجك وتصبحين خادمته ثم خادمة لاطفالك - وتلك هى خاتمة المطاف » .

فقلت مطلة اياها على احدى خطط جينو - « سنتزوج عندما
يتغير لديه من المال ما يكفي لشراء سيارته الخاصة » .
فصاحت فجأة وهي ترفع وجهها الملوث بالدموع قائلة - « بضعة
آمال ! ولكن لاتحضره الى هنا - لا تحضره الى هنا - فأنا لا أريد
ان اراه . افعل ما شئت . والتقى به حيثما أردت - ولكن لاتحضره
الى هنا . »

وفي ذلك المساء أويت الى فراشي دون عشاء يفمرنى الحزن
والتعاسة . ولكننى قلت لنفسي ان أمى ماسلكت هذا السبيل الا لانها
تحبني وقد وضعت لمستقبلي جميع الخطط التى انقلبت بخطبتى
راسا على عقب . وفيما بعد حتى عندما عرفت كنه تلك الخطط لم
أستطع فى الحقيقة ان ألومها . فانها لم تنعم بشيء سوى المرارة
والعناء والفقر فى مقابل حياتها الشاقة الشريفة . فكيف يمكن ان
نعجب لاملها فى حياة مختلفة تماما لابنتها ؟ ولعله ينبغى ان أقول انها
لم تكن خططا معدة بقدر ما كانت احلاما غامضة وامضة يمكن ان
يتشبث بها المرء دون ان يشعر بكثير من الندم لتألقها وغموضها .
ولكن هذا هو رأيى الشخصى فحسب . ولعل أمى بدلا من ذلك قد
استقر رأيها حقا بسبب ما أصاب ضميرها من تبدل طوال حياتها على
ان تضعنى يوما فى ذلك الطريق الذى قدر لى على أية حال ان أسلكه
فيما بعد على مسئوليتى الخاصة - وأنا لأقول هذا بدافع من الحقد
على أمى بل لان ادراكى مازال حتى الآن قاصرا عن أستيعاب ما كان
يدور بخلدتها حينذاك . وقد علمتنى التجربة ان أشد الأشياء تناقضا
يمكن ان تخطر على الذهن وتخالج الوجدان فى لحظة واحدة بعينها
دون ان نلاحظ تناقضها أو نؤثر احداها على الاخرى .

لقد اقسمت انها لاتبغى رؤيته واحترمت رغبتها بعض الوقت .
ولكن بدا لى ان جينو بعد ان منحنى قبله القليلة الاولى كان يتوق الى
الصراحة فى كل شيء والى اظهار كل شيء على متن السفينة على حد
تعبيره . ولم يفتأ يلح على فى كل يوم اننى يجب ان اقدمه الى أمى .
ولم أجسر على مصارحته بانها تأبى ان تعرفه لاحتقارها عمله .
فجاءت تأجيل اللقاء مسامة مخلت الماتير . وأخيرا أدرك جينو
اننى أخفى عنه شيئا فشدد الحاحه على حتى اضطررنى الى مصارحته
بالحقيقة .

قلت - « ان أمى لاترغب فى التعرف عليك لانها تزعم ان قرينى
كان ينبغى ان يكون سيدا مهلبا لا سائقا » .

كنا فى السيارة فى الطريق الريفى المعهود . فنظر الى فى حزين ثم
أطلق تنهدة . ولشد ما كنت متفونبه به حتى أنى لم العظمدى
ما كان فى أساه من زيف وبهتان .

ثم هتف قائلا فى حدة - « هذه هى نتيجة الفقر . »
وصمت بعض الوقت .

وأخيرا سألته قائلة - « أتبالى بذلك ؟ »

فأجاب قائلا وهو يهز رأسه - « أنى أشعر بالتحقير . فلو أن رجلا
آخر فى مكانى لما طلب لقاءها البتة بل لما ذكر الخطبه قط - هذا هو
جزاؤنا لقاء محاولتنا أن نسلك سواء السبيل . »

قلت - « ولماذا تنزعج ؟ فأنا أحبك - وهذا هو كل ما يهكم . »
- « كان يجب أن أذهب اليها محملا بالنقود ولكن دون أن أحدثها
عن الخطبة بالطبع ! وعندئذ كان يسر أمك أن ترحب بى . »
لم أجسر على معارضته لاننى كنت أعلم أن مايقوله حقيقة لا ريب
فيها .

ولم ألبث أن قلت - « أتعرف ماذا نعمل ؟ سأصحبك يوما
ونفاجئها . وعندئذ ستضطر الى لقاءك - فلا يمكنها أن تغمض
عينها . »

وحددنا يوما لذلك . وفى المساء صحبت جينو الى غرفة الجلوس
كما اتفقنا . وكانت أمى قد انتهت فى التو من عملها وأخذت تنظف
طرف المائدة لتضع المفرش .

قلت وأنا اقوده الى الداخل - « ها هوذا جينو يا أماه . »
كنت أتوقع شجارا وقد حذرت جينو من ذلك . ولكن أمى
لدهشتى قالت باختصار وهى تنظر اليه نظرة جانبية - « يسعدنى
لقاءك . » ثم غادرت الغرفة .

قلت لجينو - « سترى أن كل شىء سيسير على ما يرام . » ثم
اقتربت منه رافعة وجهى اليه ثم قلت - « أعطني قبلة . »
فأجاب فى صوت خفيض وهو يدفعنى بعيدا - « كلا . كلا .
والا كانت أمك على حق فى أساءتها الظن بى . »

كان يعرف دائما كيف يتخير الالفاظ الدقيقة التى تناسب كل مقام
ولا يفتأ ينادى بها فى اللحظة المناسبة . ولم يسعنى الا أن اعترف بينى
وبين نفسى بأنه كان على حق . وعادت أمى دون أن تنظر الى جينو .
- « ليس هناك من الطعام سوى مايكفى شخصينا - فانك فى
الحقيقة لم تخبرينى - انى ذاهبة لكى ... »

ولم تتم عبارتها . فقد تقدم جينو وقاطعها قائلاً - « يا الهى !
اني لم احضر الى هنا لأدعو نفسي للعشاء ، بل لأدعوكما كلتكما أنت
وأدريانا للعشاء في الخارج » .

كان يتكلم في أدب كشخص متعلم . ولكن أمى لم تألف هذا الأسلوب
في مخاطبتها ولم تألف أن يدعوها أحد للخروج . فترددت لحظة
ووقفت تنظر الى ثم قالت :

- « أما فيما يخصني فإن شاءت أدريانا أن . . . »
فاقترحت قائلة - « فلنذهب الى حانة النبيذ القريبة من هنا . »
فأجاب جينو قائلاً - « حيثما شئت » .

وقالت أمى انها يجب أن تذهب لتخلع وزرتها فمكثنا وحدنا .
كانت الفرحة الساذجة ملء جوانحي فقد شعرت أنني فزت في معركة
هامة في حين أنها لم تعد أن تكون مهزلة واننى الشخص الوحيد الذي
لم يشارك فيها . فاتجهت الى جينو وقبلته باندفاع تلقائي قبل أن
يتمكن من صدى عنه . وكانت تلك القبلة تعبيراً عن ارتياحي من كل
ذلك القلق الذي طالما أمضى وأزعجنى وعن اقتناعي بأن الطريق الى
الزواج صار ممهداً منذ ذلك الوقت فصاعداً وعن عرفاني لجينو
بسبب موقفه المهذب من أمى . لم تكن في نفسى غاية خفية بل كنت
مخلصة الاخلاص كله في حبي لجينو وعطفي على أمى . كنت ساذجة
مخلصة واثقة بالناس شأن كل فتاة في الثامنة عشرة من عمرها قبل
أن تزول الفشاوة عن عينيها فتدوى نضارتها . ولم أتعلم الا بعد
زمن طويل أن القلة القليلة من الناس يعجبون بهذا اللون من الصراحة
أو يتأثرون به لانها تبدو مثيرة للسخرية في نظر معظمهم بل تثير في
نفوسهم الرغبة في الايذاء قبل كل شيء .

وذهبنا ثلاثتنا الى الحانة الواقعة على ناصية الطريق وراء أسوار
المدينة تماماً . وعندما جلسنا لم يعد جينو يعيرنى انتباها بل أسلم
نفسه لأمى كلية يحدوه في ذلك غرض واضح هو استمالتها اليه .
ولشد ما بدت لى رغبته في التودد الى أمى صائبة محقة ، فلم أعبأ
كثيراً بأغظ أساليب الملق والمداهنة التي راح يبذلها لها . فكان
يدعوها « سنيورا » (١) وهي صيغة في الخطاب لم تعهد لها أمى قط
وقد حرص على تكرارها كلما أتته ذلك سواء في مستهل عباراته أو في
وسطها وكأنها قرار موسيقي . كما كان يخاطبها قائلاً بطريقة عارضة
تماماً : « انك فطنة للغاية وستفهمين . . . » أو يقول لها « لقد مرت

(١) لقب ايطالى بمعنى سيده

بك التجارب وليس لمة ما يدعو في الحقيقة الى مصارحتك ببعض الاشياء . . . » او يقول لها مرة اخرى في مزيد من اليجاز : « وبما اوتيت من ذكاء . . . » بل استطاع ان يقول لها انها كانت بلا ريب تفوقني جمالا وهى فى مثل سنى . فسألته قائلة فى شىء من الضيق : « وكيف يمكنك ان تعرف هذا ؟ » فأجابنى فى لهجه غامضة متملقة قائلا « هذا واضح لكل ذى عينين . . . فثمة أشياء أوضح من أن تقال . » وكانت أمى المسكينة تحمق فيه وقد برزت عيناها من رأسها وهو يداهنها على هذه الصورة وقد تألق وجهها للفاية بينما هجعت لتهويدة جميع شبهاتها ووساوسها . ثم أراها تارة أخرى وهى تحرك شفيتها مرددة فى صمت ما أمطرها به من مجاملات تعافها النفس . كان واضحا أنها تخاطب على تلك الصورة لأول مرة فى حياتها . وبدا قلبها الظامى قادرا على تشرب كلماته الى الابد . أما عن نفسى فقد بدا لى كما قلت من قبل أن تلك الاكاذيب كانت لا تكشف الا عن احترامه المحب لأمى وتقديره الرقيق لى . وهكذا لم يعد أمامى الا ان اضيف لمسة أخرى للصورة التى تمثل نواحي الكمال فى جينو وقد حملت بأكثر مما تطيق .

وفى اثناء ذلك دخلت جماعة من الشبان وجلسوا الى مائدة قريبة منا . وكان أحدهم يبدو مخمورا الى حد ما ولم يفتأ يحمق فى ثم رمانى بعبارة نابية ولكنها تنطوى فى نفس الوقت على المديح والاطراء . وسمعه جينو فنهض على الفور واتجه نحو الشاب .

وهتف قائلا - « هلا سمحت بترديد ماقلت !؟ »

فسأله الشاب قائلا وكان واضحا أنه مخمور - « وما شأنك بهذا

بحق الجحيم ؟ »

فقال جينو رافعا صوته - « هذه السيدة وهذه الفتاة جالستان معى . ومادامتا معى فشأنهما هو شأنى . هل فهمت الآن ما أعنى ؟ »

فأجاب الشاب فى شىء من الوجمل - « فهمت . هدىء من روعك . . . لا تؤاخذنى . لا تؤاخذنى . . . » وبدا لى أن الآخرين كانوا

ينظرون فى عداء الى جينو ولكنهم لم يحسروا على الانحياز لصديقهم الذى بدأ قدحا من النبيذ وقدمه الى جينو مظهرا بمزيد من السكر

فرفضه الاخير بحركة من يده . فصاح الشاب المخمور قائلا « الا تشرب ؟ الا تحب النبيذ ؟ انك مخطيء . . . فهو نبيذ جيد . وسأشربه أنا نفسى . ثم أفرغ القدح فى جوفه فى جرعة واحدة . فحمق فيه جينو لحظة متجهما ثم عاد الينا .

قال وهو يجلس مسويا سترته بحركات عصبية - « قوم لا خلاق

لهم » . فقالت أمي وقد أشبع غرورها التي حد كبير - « ما كان ينبغي أن

تكثرث لهم صبية أرذال » .

ولكن جينو شد ما ادارت رأسه تلك الفرصة لاستعراض شهامته .

فأجابها قائلاً « وكيف كان يمكنني أن أفعل غير ذلك ؟ فلو أنني كنت

مع امرأة من أولئك . . . وأنت تفهمين من أعني ياسنيورا اذن لاختلف

الامر . . . لاختلف الامر تماماً مع انه . . . ولكنني لما كنت مع

سيدتين محترمتين في محل عام - في مطعم . . . وعلى أية حال فقد

أدرك الشاب أنني جاد وأمسك عن الكلام في الحال » .

وقد استمال أمي تماماً بذلك الحادث . كما استمالها بما كان

يقدمه اليها من شراب وجدت فيه نشوة تعادل نشوة المداهنة والملق .

ولكنها رغم استسلامها لسحر جينو لم تفتأ تغذي في نفسها مشاعرهما

السيئة قبل خطبتنا كما يحدث في أغلب الاحيان لمن يفرط في الشراب .

وانتهزت أول فرصة لتوضح له أنها على الرغم من كل شيء لم تنس

ماحدث .

وسنحت لها الفرصة اثناء حديث دار عن مهنتي كنموذج . ولم

اعد اذكر كيف حدث اني تكلمت عن فنان جديد كنت أقف له في

ذلك الصباح .

فقاطعني جينو قائلاً - « ربما كنت سخيفاً او رجعياً او ماشئت

ولكنني في الحقيقة لايمكنني ان استسيغ تجرد آدريانا من ملابسها

كل يوم امام هؤلاء الفنانين » .

فسألته أمي قائلة في صوت أجش اندرني - لخبرتي بها - بالعاصفة

التي كانت تعتمل في نفسها - « ولم لا ؟ »

- « لانه باختصار امر لا أخلاقي » .

ولن اذكر هنا اجابة أمي بكاملها لانها امتلأت بالسباب وال عبارات

النايبة التي كانت لاتفتأ تستخدمها كلما أفرطت في الشراب او استبد

بها الغضب . ولكن اجابتها حتى مع تخفيف لهجتها كانت تعكس

آراءها ومشاعرها حول الموضوع .

بدأت تصيح قائلة بأعلى صوتها الى حد جعل جميع الجالسين الى

الموائد الاخرى يتوقفون عن تناول طعامهم ويستديرون نحونا -

« لا أخلاقي . اليس كذلك ؟ لا أخلاقي - ولكنني أحب ان أعرف

ما الذي تعده أخلاقياً ؟ ربما كان من الأخلاق ان تكدح طوال النهار

حتى توهي أصابعها فتفصل الثياب وتحيكها وتطهر الطعام وتكوي الملابس وتكنس الأرض وتزِيل مائراكم عليها من القذارة ثم يأتي زوجها بعد ذلك في المساء منهوك القوى فيأوى الى فراشه حالما ينتهي من تناول طعامه ثم يدير لها ظهره ويستغرق في النوم ؟ أهذا هو ماتسميه أخلاقيا ؟ أمن الاخلاق أن تضحي بنفسها فلا يتسع لها الوقت لالتقاط أنفاسها ثم تطعن في السن ويدوى جمالها وتموت ؟ أتريد أن تعرف رأيي ؟ اعتقد أننا لانعيش سوى مرة واحدة وعندما نموت ينتهي كل شيء ثم نذهب نحن وأخلاقنا الى الشيطان . ولاشك أن أدريانا لديها كل الحق في ظهورها عارية اذا ما تقدمها الناس اجرا لقاء ذلك . بل انها تحسن عملا لو . . . » ثم أعقبت ذلك سلسلة من العبارات النبوية التي جعلتني أتلوى من الخجل لانها صاحبت بها جميعا بنفس الصوت النفاذ الذي قالت به بقية كلامها - ثم أردفت قائلة وكأنها قد خطرت لها فكرة لاحقة - « ولو انها فعلت ذلك لما رفعت اصبعها لأمنعها عنه . ليس هذا فحسب بل لعاونتها عليه - نعم اعاونها عليه - مادام الناس ينقدونها اجرا بالطبع » .

فقال جينو دون أن يبدو عليه أثر للانزعاج - « انى واثق أنك لن تستطيعي حقا اقناع نفسك بذلك » .

« ألا أستطيع ؟ هذا هو ما تزعمه أنت ! ماذا يخيل لك بحق الشيطان ؟ اتحسبني فرحة بخطبة أدريانا لتافه مثلك - سائق !؟ الا اكون أسعد حالا الف مرة لو انطلقت أدريانا تبيع الهوى في الشوارع ؟ أيخيل لك أنه يعجبني أن تصير أدريانا - بكل جمالها الذي يمكن أن يدر عليها الآلاف - خادمة لك مابقي من حياتها ؟ أنك مخطيء - بل مخطيء تماما » .

وواصلت صياحها حتى اتنى احسست بالخجل الشديد عندما رأيت الناس جميعا يولوننا انتباههم ولكن جينو كما سبق أن قلت لم يرتبك قط . بل انتهز اللحظة التي اضطرت فيها امي للتوقف عن الكلام لتلتقط أنفاسها وهي مبهورة مجعدة فتناول زجاجة النبيذ ثم ملاً قدها قائلا : اتشربين مزيدا من النبيذ ؟

ولم يسمع امي السكينة الا أن تشكوه وقبلت القلح الذي قلعه اليها . وعندما رأنا الناس نشرب معا وكان شيئا لم يحدث على الرغم من ذلك الانفجار العنيف واصلوا احاديثهم الخاصة .

قال جينو - « ان أدريانا بكل جمالها ينبغي أن تحيا حياة مخلدومتي » .

فسألته قائلة فى حماسة لرغبتى فى ابعاد الحديث عنى - « أى

نوع من الحياة ؟ » فقال فى صوت مزهو أحمر وكأنه يسبح فى المجد الذى يعكسه

ثراء مخدميه - « فى الصباح تستيقظ فى الساعة الحادية عشرة أو الثانية عشرة . فيحمل اليها طعام الافطار فى الفراش على صينية من الفضة وفى أوان فضية ثقيلة . ثم تأخذ حماما . ولكن الخادمة أولا تضع بعض الاملاح فى الماء لتزكو رائحته . وعند الظهر أصحابها فى السيارة الى حيث تتناول قدحا من شراب « الفرموت » أو الى حيث تبتاع بعض الحاجيات . ثم تعود الى المنزل فتتناول غداءها وتضطجع قليلا . وبعد ذلك تقضى ساعتين فى ارتداء ملابسها . ينبغى أن ترى كم تملك من الثياب ! ملء خزائن ! ثم تخرج للزيارة فى سيارتها أو تمكث فى المنزل لاستقبال الزوار . وعندما يلتئم شملهم يلعبون الورق ويشربون الخمر ويسمعون الموسيقى . انهم قوم ذوو ثراء عريض ولا ريب أن مخدمتى تملك من المجوهرات وحدها ما قيمته عدة ملايين » .

كان من اليسير تشتيت أفكار أمى كما هى الحال مع الطفل الصغير الذى يصلح مزاجه شىء قافه . فقد نسيت الآن كل شىء عنى وعن قسوة مصيرى وراحت تحمق فى تلك الصورة ذات البهاء والرونق الفخم .

فرددت قائلة فى نهم - « ملايين ! وهل هى حسناء ؟ » فقال جينو الذى كان يدخن غليونه ويتفل ذرة من التبغ فى احتقار - « حسنا ! انها دميمة حقا - فهى نحيلة تبدو كساحرة عجوز » . واستمرا يتحدثان عن ثروة مخدمة جينو أو بالاحرى لميفتا جينو يتغنى بامتداح ثروتها وكأنها ثروته الخاصة . ولكن أمى لم يكذب شار فضولها لحظة حتى عاودها تبرمها وانقباضها ولم تنطق بكلمة أخرى طوال المساء . لعلها خجلت من انفجارها . ولعلها شعرت بالحسد ازاء ذلك الثراء كله فأخذت تفكر باستياء فى خطبتي لرجل فقير .

وفى اليوم التالى سألت جينو فى وجل عما ان كانت أمى قد أساءت إليه . فأجابنى بأنه رغم عدم مشاركته آراءها فقد فهمها جيدا لانها كانت من وحي حياة نفسه أذلهما الحرمان . وقال أنه ينبغى أن يرثي لها . كما قال انه كان من الواضح على أية حال انها لم تتكلم على تلك الصورة الا لانها تحببني . وكان ذلك هو رأيي ايضا فشعرت بالامتنان لجينو لفهمه اياها جيدا - وقد خشيت أن يكون انفجار أمى قد أفسد علينا

كل شيء ، ولم يملأني ترفق جينو في الحكم عليها بالعرفان فحسب
بل كان سعيدة جديدة أضدت الى قناعة نواحي الكمال في شخصيته .
ولو كنت أكثر تبصرا بالامور وأكثر خبرة لادركت أنه لا يمكن أن يهدف
الى خلق مثل هذا الاحساس بالكمال سوى الخداع المرسوم المدبر
وحده وأن الاخلاص الحقيقي يخلق صورة بها اخطاء كثيرة الى جانب
بعض السجايا الجميدة .

وحقيقة الامر انى أصبحت الان اجد نفسى بالقياس الى جينو في
حال من النقص الدائم . وبدا لى اننى لم أكد أعطيه شيئا في مقابل
صبره وحسن ادراكه . ولعل احساسى بانى تلقيت كثيرا من المعروف
وبانى مطالبة برد الصنيع يفسر عدم مقاومتى اياه عندما ازدادت
مداعباته جراءة - تلك المقاومة التى كان يمكننى أن أبدىها من قبل .
ولكننى يجب أيضا أن اعترف كما سبق أن اعترفت عندما قبلنى لأول
مرة انى أحسست بنفسى مدفوعة للاستسلام له بقوة لشد ما كانت
جبارة ولكنها كانت في نفس الوقت لذيدة للغاية . انها قوة قريبة من
سلطان النوم الذى يغرينا احيانا بالاغفاء عن طريق حلم يتراءى لنا
فيه أننا ما زلنا مستيقظين بغية قهر ارادتنا التى تقاومه . وهكذا
نستسلم لسلطانه لاقتناعنا بأننا ما زلنا نقاومه .

وانى لاذكر على وجه الدقة جميع مراحل اغوائى . اما احساسى
فكان مزيجا من المتعة والندم لما كنت اشعر به ازاء كل خطوة خطاها
جينو في سبيل اغوائى من رغبة وصدود في نفس الوقت . كما كانت
كل خطوة تتخذ تدريجيا بطريقة مدبرة مرسومة في غير ما عجلة أو نفاذ
صبر كما لو كان قائدا عسكريا يغزو بلدا لا عاشقا استثارت فيه الرغبة
حماسته الشديدة وهو يستكشف جسدى المستسلم من شفتى حتى
فخذى . ومع ذلك فانى لا اقصد أن الملح أن جينو لم يقع أسير هواى
حقيقة فيما بعد عندما حلت بالفعل محل تخطيطه وتدبيره رغبة عميقة
لا تعرف الشبع حتى ولو لم تكن حيا .

وكان حتى ذلك الوقت قانعا بتقبيل فمى وعنقى أثناء نزھتنا
بالسيارة ولكنه ذات صباح بينما كان يقبلنى أحسست بأصابعه تعبت
بزرار سترتى ثم راودنى احساس بالبرد . وما ان نظرت من فوق
كتفه تجاه المرأة المثبتة فوق حاجز الريح حتى رأيت أحد نهدي عاريا
- واعترائى الخجل ولكنى لم أشأ أن أستر نفسى مرة أخرى . فما كان
من جينو عندما خمن سبب ارتباكى الا أن بادر بضم طرفى سترتى
على صدرى مرة أخرى ووثق أزرارها جميعا بنفسه . وشعرت بالامتنان

لحركته تلك . ولكننى فيما بعد عندما عدت الى المنزل وفكرت فيما حدث استثارنى ذلك وانجذبت اليه . وفى اليوم التالى كرر نفس الحركة وعندئذ أحسست مزيد من اللذة وتقبل من الخجل . ومنذ ذلك الحين ألفت ذلك المظهر من مظاهر رغبته . وأعتقد أنه لو امتنع عن تكرار تلك الحركة لساورنى الخوف من أنه لم يعد يحبنى بنفس القدر .

وفى أثناء ذلك راح يسرف فى الحديث عن حياتنا بعد الزواج . كما أخذ يتحدث عن أسرته التى كانت تقيم فى الريف وتنعم بحياة لا بأس بها لأنها كانت تملك بضع مساحات من الارض . وأعتقد أنه فى النهاية شأن معظم الكذابين صار يصدق أكاذيبه بالفعل ولا شك أن مشاعره نحوى كانت قوية للغاية ولعلها أيضا كانت تزداد اخلاصا كلما توثقت العلاقة بيننا يوما بعد يوم . أما عن نفسى فكان حديثه يهود قلقي ويبث فى نفسى احساسا بالسعادة المطلقة الساذجة التى لم أعد أعرفها قط فى حياتى منذ ذلك الحين . فقد وجدت من أهوى ويهوانى وخيل لى أننى لن ألبث أن أتزوج وحسبت أن ذلك منتهى آمالى .

وأدركت أمدى فى الحال أن نزهتنا الصباحية لم تكن بريئة تماما وأفهمتني أنها تعلم ذلك بمثل ما يلى من العبارات : « لست أدري ماذا تفعلان أنت وجينو عندما تخرجان للنزهة فى تلك السيارة كما أننى لا أريد أن أعلم . . » أو : « أنت وجينو تعترزمان شرا . لا وفقكما الله . » وما الى ذلك . ولكنه لم يسعنى عندئذ الا أن ألحظ أن تعنيفها اياى بدا لطيفا هينا على صورة مدهشة . فانها لم تبد مسلمة بما بينى وبين جينو من حب فحسب بل راغبة فيه فى قرارة نفسها . وانى الان واثقة بأنها كانت تتحين الفرصة لفسخ خطبتى .

و ذات يوم من ايام الاحاد اخبرني جينو ان مخدوميه قد رحلا الى الريف وان الخادمت قد ذهبن جميعا في اجازة الى قراهن وان الفيلا تركت في عهده هو والبستاني . فهل ابغى القاء نظرة عليها ؟ ولما كان قد تحدث عنها مرارا وتكرارا بعبارات متألقة جعلتني اتوق الى زيارتها فقد قبلت دعوته في سرور . ولكنني في نفس اللحظة التي قبلت فيها الدعوة احساست في اعماق نفسي باثارة مشتاقة جعلتني ادرك ان رغبتى في مشاهدة الفيلا لم تكن سوى ذريعة وان الدافع الحقيقى وراء زيارتى كان شيئا آخر يختلف تمام الاختلاف . ومع ذلك فقد تظاهرت امام نفسى وامام جينو بتصديق ذريعتى كما نفعل دائما عندما تهفو نفوسنا الى شىء ما ونحاول في نفس الوقت ان نمتنع عنه .

ولكننى حذرته قائلة وانا اركب السيارة :
- « انى اعلم انه ما كان ينبغى ان اذهب . ولكننا لن نمكث طويلا .
اليس كذلك ؟ »

احسست انى اقول تلك الكلمات بطريقة مشيرة ولكنها كانت في نفس الوقت مذعورة الى حد ما .
فقال جينو ليطمئننى :

- « ما يكفى من الوقت لمشاهدة المنزل فحسب - ثم نذهب بعد ذلك الى السينما » .

وكانت الفيلا تقع فوق منحدر في شارع صغير بين عدد من الفيلات الاخرى في حى جديد تبدو عليه مظاهر الثراء . كان يوما هادئا وكانت جميع تلك الفيلات المخططة على جانب التل قريبا من صفحة السماء الزرقاء بواجهاتها الطوبية الحمراء او الحجرية البيضاء وممراتها المزدانة بالتماثيل ومراصد الشمس فيها وشرفاتها و « فرانداتها » المزدهية بالعتر واشجارها السامقة المورقة في الحدائق التي تفصل احداهما عن الاخرى - كل هذه الاشياء كانت تبهت في نفسى احساسا بالتجديد والاكتشاف وكأنى استشرف عالما تطيب فيه الحياة ويستوده مزيد من الحرية والجمال . ولم يسعنى الا ان اذكر ذلك الحى الذى كنت اقطنه - والطريق المحاذى لاسوار المدينة ومنازل عمال السكة

الحديد - فقلت لجينو - « لقد أخطأت بمجيئي الى هنا » .
فسألني قائلاً في فتور :

« لماذا ؟ فاننا لن نمكث طويلاً - لا تنزعجى »
فأجبت قائلة :

- « انك لا تفهم ما أعنيه ! لقد أخطأت لاننى فيما بعد سأخجل
من منزلى ومن الحى الذى أقطنه » :
فقال بارتياح :

- « أنت محقة فى ذلك . ولكن ماذا يسعك ان تفعلى ؟ كان ينبغي
ان تولدى من ذوات الملايين - فأصحاب الملايين وحدهم يقيمون هنا » .
فتح بوابة الفيلا ثم قادنى فى ممر مغطى بالحصباء بين صفيين من
الشجيرات المشدبة على شكل دوائر ومكعبات . ودخلنا الفيلا من باب
بلورى فاذا بنا فى بهو عار لامع ذى أرضية من الرخام على شكل مربعات
سوداء وبيضاء كانت مصقولة كالمرآة . ومن هنا دلفنا الى بهو اخر
أكبر منه كان فسيحاً مضيئاً يؤدى الى غرف الطابق الارضى . وفى
طرف البهو كان هناك درج أبيض يؤدى الى الطابق العلوى . ولشدة
ما تولانى الذعر من منظر ذلك البهو حتى اننى أخذت أمشى على اطراف
أصابعى . وما ان لاحظ جينو ذلك حتى قال لى ضاحكاً انه يمكننى
ان أحدث ما شئت من ضوضاء اذ ان المنزل ليس به أحد .

ثم أرانى غرفة الاستقبال وهى مكان فسيح به كثير من المرايا وأطقم
المتكآت والارائك . أما غرفة الطعام التى كانت تصفرها بقليل فقد
زودت بمائدة بيضاوية ومقاعد و « بوفيه » صنعت جميعها من خشب
جميل أسود مصقول . وقد ملئت غرفة المفارش بخزائن بيضاء
مصقولة داخل الجدران . وفى غرفة جلوس اخرى صغيرة اقيم (١)
« بار » داخل كوة فى الحائط - « بار » حقيقى ذو رفوف لزجاجات
الخمير وماكيننة لصنع القهوة مكسوة بالنيكل ومنضدة من الزنك .
وكان ذلك الركن أشبه بمعبد صغير وخاصة بسبب مدخله الخفيض
ذى اللون الذهبى الذى كان يعزله عن بقية الغرفة . وسألت جينو أين
كانوا يطهون طعامهم فأخبرنى ان المطبخ وغرف الخدم كانت فى
« البديوم » . وكانت هذه أول مرة فى حياتى أدخل فيها منزلاً من
هذا النوع فلم أتمالك نفسى من لمس الأشياء بأصابعى وكأنى لآستطيع
ان أصدق عينى . كان كل شىء يبدو جديداً فى نظرى وقد صنع من
مواد ثمينة - كالزجاج والخشب والرخام والمعادن والمنسوجات . ولم

(١) Bar كلمة انجليزية بمعنى مشرب الخمر

يسعنى الا ان اقرن بين تلك الجدران وذلك الاثاث وبين ما فى منزلى
من ارضيات قذرة وجدران ملابها السوداء واثاث واه بداع . وقلت
لنفسى ان امى كانت محقة عندما قالت ان المال هو كل ما يهم فى هذه
الدنيا . وخيل لى ان من يعيش بين كل هذه الاشياء الجميلة لا يشعه
بحال الا ان يكون هو نفسه جميلا خيرا . فاهل هذه الدار لا يمكنهم
بحال ان يسكروا او يتشامتوا او يتصايحوا او يتضاربوا او يرتكبوا
شيئا مما رأته فى منزلى وفى منازل اخرى شبيهة به .

وفى تلك الاثناء كان جينو للمرة المائة يشرح لى فى كبرياء خارجة عن
المألوف أسلوب الحياة فى مكان كهذا وكأنه يسبح فى المجد الذى يعكسه
كل هذا الترف والثراء قائلا - « انهم يتناولون طعامهم فى صحاف من
الخزف ولكنهم يملكون صحافا فضية للفاكهة والحلوى . أما السكاكين
والشوك فكلها من الفضة . وهم يتناولون خمسة ألوان مختلفة من
الاطعمة ويحتسون ثلاثة أنواع من النبيذ . وفى المساء ترتدى سيده
الدار ثوبا مفتوح الصدر كما يرتدى السيد حلة سوداء للعشاء .
وعندما يفرغون من تناول العشاء تقدم خادمة المائدة على صينية من
الفضة سبعة أنواع من السجائر وكلها اصناف اجنبية بالطبع . ثم
يفادرون غرفة الطعام الى حيث يتناولون القهوة و « الليكير » بأنواعه
التي تقدم اليهم على تلك المائدة الصغيرة هناك ذات العجلات . ولا
يخلو المنزل مطلقا من الضيوف . . . ويبلغ عددهم أحيانا اثنين وأحيانا
أربعة . . . وتملك السيدة بضع ماسات كبيرة هكذا ! وقلادة عجيبة من
اللؤلؤ . . . فلا بد انها تملك من المجوهرات ما قيمته بضعة ملايين ! »
فقاطعتة قائلة فى تبرم :

- « لقد قلت لى ذلك من قبل . »

ولكنه لشد ما كان متحمسا حتى انه لم يلحظ ضيقى وتبرمى . ثم
أردف قائلا :

- « والسيدة لا تهبط مطلقا الى « البدروم » - بل تصدر أوامرها
بالتليفون . أما المطبخ فكل ما فيه يدار بالكهرباء . و المطبخ هنا انظف
من غرف النوم عند معظم الناس . ولكن ليس المطبخ فحسب ! بل
ان كلاب السيدة أكثر نظافة وأسهل حالا من أناس كثيرين » كان
يتحدث فى اعجاب بمخدومية واحترار للفقر . . . ولشد ما شجعرت
بالفقر تارة بسبب تلك المقارنات التي لم أفتأ أعقدها بين ذلك المنزل
ومنزلى وتارة بسبب كلامه .

ثم صعدنا الدرج الى الطابق العلوى . وكان جينو يحيط حصري

بذراعه ويضمني اليه بقوة . ولسبب لا أدريه كان يخالجنى شعور
باني سيدة الدار واني صاعدة مع زوجي الى الطابق العلوي في طريقى
لغناء الليل معه في الفراش عقب حفل استقبال أو عشاء . فقال
جينو وكأنه قد تكهن بما يلور في خندى (وكان يمتاز دائما بسرعة
البديهة) - « والآن دعينا نذهب للنوم معا - وغدا سيحملون الينا
القهوة فى الفراش . » فأخذت اضحك ولكن كاد يراودنى الامس
فى أن يتحقق ذلك .

وكنت يومئذ مرتدية أفخر ثيابى للخروج مع جينو وكذلك اجمل
ما عندى من الاحذية والسترات والجوارب الحريرية . وأذكر أن
ثوبى كان يتألف من قطعتين : سترة سوداء وازار ذى مربعات سوداء
وبيضاء . ولم يكن قماش الثوب بالغ السوء ولكن الخياطة التى قصته
- وكانت تقيم فى حينها - لم تكن تفوق امى خبرة بكثير . فقد صنعت
لى ازارا قصيرا للغاية كان من الخلف يقصر عنه من الامام حتى أنه
على الرغم من تغطيته ركبتى كان يكشف من خلف عن فخدى اللتين
تعرضتا للانظار . أما السترة فقد جعلتها ضيقة للغاية ذات طيتين
عريضتين وكمين ضيقين للغاية كانا يؤلمان ابطنى . فأحسست وكأنها
مستنشق عن بدنى وقد برز صدرى الى الخارج كما لو كانت السترة
تنقصها قطعة . وأما قميصى فكان بسيطا للغاية صنع من قماش أحمر
رخيص وقد خلا تماما من التطريز كما يدا من خلاله شعارى القطنى
الداخلى الابيض وكان أجمل ما أملك . وقد صنع حذائى الاسود
اللامع من جلد جيد ولكن شكله كان قديم الطراز . وكنت عارية
الرأس فتهدل شعرى الكستنائى الموجه على كفتى . ولشده ما كنت
مزهوة بثوبى الذى ارتديه لأول مرة . وخيل لى أننى آية فى الاناقة
ولم أتمالك نفسى من الاعتقاد أن كل من فى الطريق كان يستدير
نحوى ليتأملنى . ولكننى ما كدت أدخل مخدع مخدومة جينو وأرى
فراشها الوثير الضخم بغطائه الحريري المطرز وملائه الكتانية المطرزة
وكل هذه الستائر الهفافة التى كانت تنسدل فى رفق ويسر فوق
رأس الفراش . وما كدت أرى صورتى منعكسة ثلاث مرات فى المرآة
الثلاثية القائمة فوق خوان الزينة فى طرف الحجرة حتى أدركت أننى
أشبه فى ملبسى فزاعة الحنظل . وإذا برعوى بما ارتديه من خلق
يصبح مثيرا للسخرية والرتاء . وخيل لى أننى لن أستطيع ادعاء
السعادة مرة أخرى ما لم أرتد ثيابا جميلة وأسكن منزلا كهذا وكادت
تراودنى الرغبة فى البكاء فجلست على الفراش تنتابنى الحيرة ولا

أنبس بينت شفة •

وسألني جينو قائلا وهو يجلس الى جانبي مسكاً بيدي - « ماذا هناك ؟ »

فقلت - « لا شيء • كنت أتأمل ابنة عم لي أعرفها من الريف • »
فسألني قائلا في دهشة - « من هي ؟ »

فقلت مشيرة الى المرأة التي أمكنتني أن أرى فيها صورتي جالسة

على الفراش بجانب جينو •

- « ها هي ذى ، والواقع أننا كنا نبدو كهجينين أشعرين دخلا

خطأ منزلا متمدنا ولكنني كنت أبشع منه منظرا •

وعندئذ أدرك جينو ذلك الشعور بالكآبة والحسد والغيرة الذي

كان يعذبني •

فقال لي وهو يحيطني بذراعيه - « لا تنظري الى صورتك في تلك

المرأة • » كان يخشى على خططه أن تفسد ولم يدر أنه ما من شيء

يمكن أن يلائم خططه أكثر من احساسى الحالى بالمهانة والتحقير •

وتبادلنا قبلة أحيت في نفسى الشجاعة لاننى أحسست بأن هناك

من أحبه ويحبني قبل كل شيء •

ولكن ما لبث أن عاودنى احساسى بالحسد وشعورى بالفقر مما

بعث في نفسى اليأس الشديد عندما أرانى غرفة الحمام وكانت

فسيحة في حجم غرفة عادية بقرميدها الابيض اللامع وحوضها المثبت

في الحائط تعلوه صنابير الممسوحة بالنيكل وكذلك عندما فتح احدى

الخزائن وأرانى ثياب مخدمته وقد ضاق بها المكان • وفجأة استبدت

بى الرغبة عن التفكير في تلك الاشياء • وأردت عن وعى أن أصير

خليلة جينو لأول مرة وذلك أولا لكى أنسى حالتى وثانيا لكى

أقنع نفسى بحريتى أنا أيضا وبقدرتى على أن أفعل ما أشاء على الرغم

من ذلك الاحساس بالعبودية الذي كنت أرزح تحت عبئه • فلم يكن

في امكاني أن ارتدى ملابس جميلة أو أقتنى منزلا كهذا ولكنني كنت

أستطيع على الاقل أن أمارس الحب كما يمارسه الاغنياء وربما تفوقت

عليهم في ذلك •

فسألت جينو قائلة - « لماذا تريتنى كل هذه الملابس ؟ ففيم

تهمنى ؟ »

فأجابني قائلا في شيء من الارتباك - « خلتك تشتاقين الى رؤيتها • »

فقلت - « لا يهمنى مرآها مطلقا • انها جميلة ولكنني لم أحضر

الى هنا لارى ملابس سيدتك • »

ورأيت عينيه تتألقان وأنا أتكلم .

ثم أردفت قائلة في عدم الكترات - « أفضل أن أرى غرفتك .
لأجابني قائلاً في حماس - « انها في البدروم . » هل تهبط

اليها ؟ »

فتأملته لحظة في صمت ثم سألته قائلة في لهجة صريحة لم
أعهد لها في نفسي وكانت بغيضة الى قلبي :
- « لماذا تدعى البلاهة معي ؟ »

فبدأ يتكلم في قلق وقد استولت عليه الدهشة قائلاً - « ولكنني »
فقلت - « انك أعلم مني باننا لم نأت الى هنا لمشاهدة المنزل أو
للاعجاب بشباب مخدومتك بل لناوى الى غرفتك حيث نمارس الحب -
حسنا اذن فلنعمل ذلك دون مزيد من المواربة . »

وبهذه الطريقة اذا بي بعد مشاهدتي المنزل أتبدل في لحظة واحدة
فأصير فتاة أخرى غير تلك الفتاة الحجول الساذجة التي دخلت الفيلا .
ولشد ما دهشت لذلك التغيير حتى اننى كدت ألا أتعرف على نفسي .
فغادرنا الغرفة وبدأنا تهبط الدرج - وقد أحاط جينو خصرى بذراعه
ثم أخذ يقبلنى عند كل درجة - ولا أحسب أحدا هبط درجا قط
بمثل هذا البطء . وعندما بلغنا الطابق الارضى فتح جينو بابا خفيا
في الحائط ثم قادنى وهو لا يزال يقبلنى ممسكا بى من خصرى عبر
الدرج الخلفى المؤدى الى البدروم . كان الوقت مساء والظلام سائدا
فى « البدروم » . وهناك بلغنا غرفة جينو فى نهاية دهليز طويل
دون أن نشعل الاضواء وقد تخاصرنا بينما لم يزل فمه يعلو فمى .
ثم فتح الباب ودخلنا وسمعته وهو يغلقة خلفنا . وقفنا هناك فى
الظلام بعض الوقت ملتحمين فى قبلة . وكانت قبلة لا نهائية فكلمنا
شئت أن أتوقف عادو هو التقبيل وكلمنا شاء أن يتوقف وجدتنى
مستمرة فيه . ثم دفعنى جينو تجاه الفراش فتهاويت عليه .

ولم يفتأ جينو يهمس فى أذنى بلغو عذب لذيذ وعبارات قصيرة مشجعة
فى لهجة مثيرة للغاية هادفا فى وضوح الى أن يوقعنى فى الحيرة
ويمنعنى فى الوقت نفسه من ملاحظته فى تلك الاثناء وهو يحاول

تجريدى من ملابسى . ولكن ذلك لم تكن له شمة ضرورة اولا لاننى
كنت قد حرمت امرى على أن أهبه نفسى ونانيا لاننى كرهت كل تلك
الملابس التى لشد ما كنت احبها من قبل وتاقت نفسى الى التخلص
منها . فقد خيل لى أننى - فى عريى - سأكون فى جمال مخدومة
جينو ان لم أفقها جمالا هى وجميع من فى العالم من نساء ثريات .

وعلى أية حال فقد كان جسدى الان فى انتظار تلك اللحظة منذ شهرين
وأحسست به وهو ينتج على الرغم منى فى ضيق ورغبة مكبوتة
كحيوان مكبل بالقيود يتضور جوعا ثم أطلق سراحه أخيراً بعد صيام
طويل وقدم اليه الطعام .

لهذا السبب بدت لى عملية المضاجعة طبيعية للغاية . ولم يشب
لذتى الجسدية أى شعور بأننى أرتكب عملا غير مألوف . بل على
العكس فقد بدا لى أننى أصنع أشياء سبق لى أن مارستها . ولكننى
لم أدر أين ومتى ولعلنى مارستها فى عالم آخر تماما كما تبدو لنا
أحيانا بعض المناظر الطبيعية مألوفة فى حين أننا نراها فى الواقع
لاول مرة فى حياتنا . ولكن ذلك لم يمنعنى من مضاجعة جينو فى
عنف وضراوة فلم افتأ أقبله وأعضه وأهصره بين ذراعى حتى ليكاد
يختنق ، كما بدا هو وقد هاجت حماسته حميا التملك نفسها .
فتضاجعنا فى عناق عنيف فى تلك الغرفة الصغيرة المظلمة الشاوية
أسفل طابقين من المنزل الصامت الخاوى ولم نفتأ نستحث جسدينا
بطرق لا حصر لها كغريمين يضطرعان من أجل الحياة بينما يحاول
كل منا أن يلحق الاذى بالآخر ما أمكنه ذلك .

ولكن ما أن هدأت رغبتنا واضطجعنا على الفراش جنباً الى جنب
وقد عرانا التعب والخمول حتى ساورنى خوف شديد من أن جينو
الآن وقد امتلكنى فلن يبغى الزواج بى بعد ذلك . فبدأت أحدثه عن
المنزل الذى سنقيم فيه بعد الزفاف .

ولشبه ما تأثرت نفسيا بفيلا مخدومة جينو حتى صرت الآن مقتنعة
تماما بأن السعادة لا يمكن أن توجد إلا بين أشياء نظيفة جميلة . كما
أدركت أننا لن نستطيع أن نمتلك منزلا كهذا أو حتى غرفة واحدة
فيه . ولكننى مع ذلك أصررت على محاولة تدليل تلك الصعوبة بأن
أوضحت له أن المسكن حتى ولو كان شقة متواضعة يمكن أن يبدو
فاخرا اذا ما لمع كالمرآة . فقد بعث فى ذهنى بريق الفيلا أكثر من
رفاهيتها خليطا مضطربا من الخواطر . فحاولت أن أقنع جينو بأن
النظافة يمكن أن تضىفى جمالا حتى على الاشياء القبيحة . ولكننى

فى الحقيقة كنت أبنى اقناع نفسى بذلك لأننى كنت فى يأس من
فقرى وكنت أعلم أن زواجى بجينو هو السبيل الوحيد للخلاص منه .
قلت - « يمكن أن يكون البيت جميلا حتى ولو كان يتألف من غرفتين
فقط ! اذا ما عنى بهما كما يجب وغسلت أرضيتهما كل يوم ونفض
الغبار عن اثائهما وجلى النحاس وروعى التنسيق والترتيب فى كل

شيء فوضعت الصحف في مكانها المخصص لها ومنافض الغيار في
أماكنها الملائمة واللابسي والاحذية كل في مكانه المناسب . أهم شيء
هو الكنس باتقان وغسل الأرضيات وتنظيف كل شيء يوميا . كما
يجب ألا يتخذ من المنزل الذي أسكنه أنا وأمي مقياسا لحكمه - فأمي
لا تراعى النظام وعلى أية حال فهذه المسكينة ليس لديها الوقت لذلك
أما منزلنا فسوف يلمع كالمرآة . ويمكنني أن أتعهد لك بذلك .
فقال جينو - « نعم . نعم . فالنظافة تأتي في المقام الاول .
أتدريين ماذا تفعل مخدمتي عندما تجد ذرة من التراب في أحد
الأركان ؟ تنادى الخادمة المختصة وتجعلها تجثو على الأرض وتمسكها
بيديها - كما تفعلين مع الكلاب عندما تترك قدرها في المنزل . وهي
محقة في ذلك تماما . »

قلت - « انى واثقة أن منزلي سيكون أنظف وأجمل من ذلك .
وسترى . »

فقال مشاكسا - « ولكنك ستكونين نموذجا للفناتين ولن تعبأ
بالمنزل مطلقا . »

فأجبت قائلة في حدة - « نموذجا ! لن اكون نموذجا بعد ذلك . .
بل سأبقى في المنزل طوال النهار أرعى لك نظافته ونظامه وأطهو
لك طعامك . . ان أمي تزعم أن هذا معناه أنني سأكون خادمتك . .
ولكنك إذا أحببت شخصا فإنه لما يسرك أنى تكون خادما له .
وهكذا ظللنا نتحدث زمنا طويلا فزايلى خوفى رويدا رويدا وحلت
محلها ثقتى المعهودة في الناس بسحرها وبراءتها . كيف يمكنني
أن أرتاب فيه ؟ فان جينو لم يوافقنى على كل خططي فحسب بل أخذ
يناقش معى تفاصيلها ويعدل فيها ويضيف اليها من عنده . وأعتقد
أننى سبق أن قلت انه حينذاك كان بلا ريب مخلصا الى حد ما . ولما
كان كذابا فقد انتهى به الامر الى تصديق أكاذيبه . »

وبعد ثرثرة استمرت ساعتين أو ما يقرب من ذلك استغرقت في
اغفائة كما أعتقد أن جينو أيضا استغرق في النوم . ثم ايقظنا شعاع
من ضوء القمر تسلل الينا من خلال نافذة البدروم فأضاء الفراش
وكذلك جسدينا الرقادين هناك . وقال جينو انما بلا ريب في سابعة
متأخرة للغاية . وفى الواقع فان المنبه الموضوع على المنضدة المجاورة
للفراش كان يشير الى ما بعد منتصف الليل بدقائق . فهتفت قائلة
وأنا أقفز من الفراش مبتدئة في ارتداء ملابسى - « ترى ماذا تفعل
بى أمي !؟ »

« لماذا ؟ »

« لأنى لم تأخر قط فى الخروج الى مثل هذه الساعة - بل انى

لا أخرج مطلقا فى المساء . »

فقال جينو وهو ينهض ايضا - « يمكنك أن تقولى لها اننا خرجنا للنزهة فى السيارة . فأصابها خلل ونحن فى وسط الريف . »
- « انها لن تصدقنى . »

أسرعنا بالخروج من الفيلا وصحبنى جينو فى السيارة الى المنزل . كنت واثقة بأن أمى لن تصدق قصة السيارة وما أصابها من عطب . ولكننى لم أتخيل أنها ستتهدى ببديتها الى ما وقع بالضبط بينى وبين جينو - وكان معى مفتاحا الباب الامامى وباب الشقة . فدخلت الدار ثم ركضت صاعدة مرحلتى الدرج وفتحت باب الشقة ، وكنت آمل أن تكون أمى قد أوت الى فراشها وقوى أملى عندما وجدت المنزل غارقا فى ظلام دامس . فأخذت أمشى على أطراف أصابعى تجاه غرفة النوم دون أن أشعل الضوء عندما أحسست فجأة بيد تقبض على شعرى فى عنف . وجذبتنى أمى فى الظلام فقد كانت يدها هى التى أمسكت بى وسحبتنى الى غرفة الجلوس حيث أقلت بى على الأريكة وأخذت تضربنى بقبضتيها وقد عصف بها الغضب دون أن تنبس قط بكلمة واحدة . فحاولت الدفاع عن نفسى بذراعى ولكن أمى كانت لا تفتأ تجد طريقها الى وجهى من تحت ذراعى موجهة اليه لكلماتها القاسية وكأنه كان يمكنها أن تتبين ما كنت أفعله . وأخيرا حل بها التعب وأحسست بها وهى تجلس بجانبى على الأريكة لاهثة فى عنف ثم نهضت وذهبت لتضىء المصباح فى وسط الغرفة وعادت لتجلس الى جانبى وقد وضعت يديها على ردفها محمقة فى . ولشد ما أحسست بالخجل والارتباك وهى تراقبى . فحاولت أن أجنب ازارى الى أسفل وأن أصلح من هندامى بعد ما أصابنى فى ذلك العراك .

قالت بصوتها المعهود - « أراهن أنك كنت تمارسين الحب مع

جينو . »

وأردت أن أقول نعم هذا صحيح ولكننى حسيت أن تعاردي ضريبى .
والآن وقد انتشر الضوء فقد كان خوفى من احكام ضرباتها أكثر من خوفى من الالم فى حد ذاته . اذ كنت أكره أن أسير بكدمة فى عيىنى وخاصة أمام جينو .

فأجبتها قائلة - « كلا لم تفعل - بل طرا خلل على السيارة أثناء

نزهدتنا فتعطلنا في الطريق . .

www.LibrarY4arab.com/vb

- « بل فعلتما - اذهبي وانظري الى صورتك في المرآة فوجهك
أخضر اللون ! »

- « انى متعبة - ولكننا لم نكن نمارس الحب . »

- « بل كنتما تفعلان . »

- « لم نفعل . »

وقد أدهشنى وأزعجنى الى حد ما أنها كانت أثناء اصرارها على
هذه الصورة لا تكشف عن غضب بل عن فضول قوى راجح للغاية .
وبعبارة أخرى فقد أرادت أمى أن تعرف ما اذا كنت قد أسلمت نفسى
لجبنو لا لتنزل بى العقاب أو لتنجى على باللائمة بل لغرض خفى فى
نفسها كان لا بد لها أن تعلم . ولكننى أدركت ذلك بعد فوات الاوان .
ومع أننى كنت الآن واثقة من أنها لن تضربنى مرة أخرى فقد واصلت
انكارى فى عناد . وفجأة خطت أمى الى الامام وهمت بأن تمسك بى
من ذراعى . فرفعت يدى لاتقى بها الضرب ولكنها لم تزد على أن
قالت :

- « لن أمسك - فلا تخافى . هيا معى . »

لم أفهم أين كانت تريد أن تصحبنى . ولكن لما كان الذعر قد
أطار صوابى فقد امتثلت لها على الرغم منى . فقادتنى الى خارج
الشقة وهى لا تزال ممسكة بذراعى ثم جعلتنى أهبط الدرج ورافقتنى
الى الطريق الذى كان مقفراً فى ذلك الوقت من الليل . وأدركت على
الفور أن أمى كانت تعجل بى على الافريز تجاه الضوء الاحمر الصغير
المشتعل خارج الصيدلية حيث كان مقر الاسعاف . وعندما بلغنا عتبة
الصيدلية بذلت محاولة أخيرة لمقاومتها وثبتت قدمى فى الارض ولكنها
دفعتنى الى الامام فدخلت منهارة أكاد أسقط على ركبتى . وكانت
الصيدلية خالية الا من الصيدلى وطبيب شاب .

فقلت أمى للطبيب - « هذه ابنتى وأريدك أن تفحصها . »

www.LibrarY4arab.com/vb

وسألها الطبيب قائلاً - « خبرينى ماذا حدث - ولماذا ينبغي
أن أفحصها ؟ »

فصاحت أمى قائلة - « كانت تضاجع خطيبها . تلك البغى

www.Librarary4arab.com/vb

الصغيرة • وتدعى أنها لم تفعل • أريدك أن تفحصها وتضارحني بالحقيقة •

فوجد الطبيب الامر مسليا وارتعشت شفتاه وهو يبتسم قائلا -
« ولكن هذا ليس تشخيصا لمرض - بل هي حالة من شأن اخصائي -
فأجابته أمي قائلة وهي لا تفتأ تصيح بأعلى صوتها - « سمها ما
شئت • ولكنني أريدك أن تفحصها - أأنت طبيبا ؟ أليس من واجبك
أن تفحص من يطلبون اليك ذلك ؟ »

فالتفت نحوي قائلا - « هدئي من روعك - ما اسمك ؟ »
فأجبت قائلة - « آدريانا • »

كنت أشعر بالخجل ولكن في غير عمق • فقد اشتهرت أمي في
الحى كله بمشاجراتها كما اشتهرت أنا بهدوء طبعي •

ثم واصل الطبيب حديثه قائلا وقد بدأ لي انه أحس بارتباكى
فأخذ يحاول تجنب اجراء الفحص - « ولنفرض أنها فعلت ؟ فأى
ضرر في ذلك ؟ فهما سيتزوجان فيما بعد وينتهي كل شيء على ما
يرام • »

- « ليس هذا من شأنك • »

فردد الطبيب قائلا بلهجة محببة - « هدئي من روعك ! هدئي
من روعك ! » ثم التفت نحوي قائلا - « أنت ترين أن أمك ترغب
فعلا في ذلك - اذن فلتخلعي ملابسك • فلن يستغرق فحصك لحظة
واحدة • ثم يمكنك الانصراف • »

فاستجمعت شجاعتي كلها وقلت - « حسنا • اذن فقد مارست
الحب • فلنعد الى المنزل يا أماه • »

فقلت بلهجة آمرة - « كلا يا عزيزتى ! فلا بد من فحصك • »
فتركت ازارى يسقط على الارض مستسلمة وتمددت على المضجع
ففحصني الطبيب • ثم قال لامي - « كنت على حق • فقد فعلت •
والان أراضية أنت ؟ »

فسألته أمي قائلة وهي تخرج كيس نقودها - « كم تريد ؟ » وفي
تلك الاثناء كنت قد انزلت عن الفراش وارتديت ملابسى من جديد •
ولكن الطبيب رفض أن يأخذ أجرا •

سألنى قائلا - « أتحبين خطيبك ؟ »

فأجبت - « بالطبع • »

- « ومتى تتزوجين ؟ »

فصاحت أمي قائلة - « انه لن يتزوجها . » ولكنني أجبتة في هدوء قائلة - « قريبا - عندما نعد أوراقنا . »
لا بد أن عيني كانت تفيضان بالثقة الساذجة مما جعل الطبيب يضحك في كثير من السماحة ثم ربت على خدي في رفق ودفعتنا الى الخارج .

وتوقعت أن تمطرني أمي بالاهانات حالما نبلغ المنزل بل ربما عاودت ضربى . ولكنها بدلا من ذلك اذا بها تشعل موقد الغاز في صمت وتعد لي شيئا من الطعام . فوضعت طاسة على الموقد ثم دخلت غرفة الجلوس حيث ازال القصاصات المعهودة عن طرف المائدة وهيأت لي مكانا . وكنت جالسة على الاريكة التي سحجتني اليها من شعري قبل ذلك بفترة وجيزة ورحت أراقبها في صمت . ولشد ما انتابتنى الدهشة لانها لم تؤنبنى فحسب بل لان وجهها كله كان ينعكس عليه رضا واضح متدفق على صورة غريبة . وعندما انتهت من اعداد المائدة عادت الى المطبخ ثم ما لبثت أن جاءت تحمل صحيفة في يدها قائلة :

- « والآن اطعمى . »

وكنت في الواقع أتضور جوعا . فنهضت وذهبت لاجلس في شيء من الارتباك على المقعد الذي كانت تحثني أمي للجلوس عليه . وكانت الصحيفة تحتوي على قطعة من اللحم وبيضتين وهو عشاء غير مألوف .

فقلت - « هذا أكثر مما ينبغي . »
فأجابتنى قائلة - « كلى - فهذا مفيد لك - انك في حاجة الى الطعام . »

ولشد ما كان اعتدال مزاجها خارجا عن المألوف . ربما كان فيه شيء من الخبث ولكنه لم يكن معاديا البتة . ثم أردفت قائلة بعد فترة وجيزة ولكن لهجتها أوشكت أن تخلو من المرارة والحقد :

- « لم يفكر جيتو في اعطائك شيئا من الطعام . هه ؟ »
فأجبتة قائلة - « لقد استغرقنا في النوم . وبعد ذلك فاتنا الوقت . »

لم تنبس ببنت شفة بل وقتت تراقبني اثناء تناول الطعام . ثم مضت لتناول طعامها وحدها في المطبخ . فقد مضى زمن طويل الآن منذ أن توقفت أمي تماما عن تناول طعامها معي على نفس المائدة . كان طعامها دائما يقل عن طعامي فاما أن تأكل فضلاتي أو طعاما آخر

يقول جودة عن طعامي . فقد كنت في نظرها شيئاً رقيقاً ثمينا بل مخلوقاً ينبغي أن يعامل بكرامة فليس لها في الدنيا سواه . والآن لم تعد تدهشني منذ بعض الوقت عبوديتها لي في تملق واعجاب . ولكن رضاها الهادى حينذاك بعث في نفسي احساسا بالقلق لم أسترح اليه .

قلت بعد فترة وجيزة - « انك غاضبة منى لاننا مارسنا الحب - ولكنه وعدنى بالزواج . فلن نلبث أن نتزوج . »

فأجابتنى قائلة على الفوف - « لست غاضبة منك . ولكن الغضب قد استبد بي حينذاك لاننى ظلمت أنتظرك طوال المساء وكنت منزوعة - ولكن دعك من هذا الآن - واطعمى . »

غير ان لهجتها المراوغة والمطمئنة في خداع التي يستخدمها الناس في مخاطبة الاطفال عندما يمتنعون عن اجابة اسئلتهم بعثت في نفسي مزيدا من الشك .

فألححت قائلة - « لم ؟ ألا تصدقين أنه سيتزوجني ؟ »

- « نعم . نعم . اصدق . ولكن أستمرى في طعامك . كلى . »

- « كلا . أنت لا تصدقين . »

- « بل اصدق . لا تنزعجى . كلى . »

فقلت وقد دفعتني لهجتها الى السخط - « لن آكل بعد ذلك حتى تصارحينى بالحقيقة - لماذا يبدو عليك كل هذا السرور ؟ »

- أنا لست مسرورة .

ثم التقطت الصحيفة الفارغة وحملتها الى المطبخ . فانتظرت حتى عادت ثم رددت قائلة

- « هل أنت فرحة ؟ »

فتأملتنى في صمت فترة طويلة ثم أجابتنى قائلة بلهجة جادة

منيرة « نعم . انى فرحة . »

- « لماذا ؟ »

- « لانى الآن على ثقة تامة من أن جينو لن يتزوجك . ولسوف

ينبذك . »

- « ولكن لماذا لا يتزوجني ؟ فلا بد من سبب . »

- « لن يتزوجك ولسوف يهجرك - انه سينهو بك قليلا ولكنه

لافلاسه لن يعطيك شيئاً . ثم يهجرك بعد ذلك . »

- « أهذا هو ما يفرحك على هذه الصورة ؟ »

- « بالطبع ! لاننى الآن على ثقة تامة من انكما لن تتزوجا . »

فهمت قائلة في استياء وسخط - « ولكن فيم يهك هذا ؟ »
فقلت فجأة - « لو انه بيني الزواج بك لما ضاجك . لقد ظلمت
خطوبه لايبك مدة عامين ولم يزد على تقبلي مرة أو اثنتين وذلك
قبل زواجي ببضعة شهور - سيقضى معك وقتا طيبا ثم يهجرك
ويمكنك أن تتاكدي من ذلك ! وأنا فرحة لهذا لانه لو تزوجك لكان في
ذلك دمارك . »

لم يسعني الا ان اعترف بيني وبين نفسي بان امي محقة في بعض
ما تقول فاغرورقت عيهاى بالدموع .

قلت - « انى اعرف الحقيقة . فأنت تأبين تماما أن تكون لى
أسرة . وتفضلين أن أحدو في حياتي حذو أنجلينا ! » وكانت انجلينا
فتاة في حيننا احترفت البغاء علنا بعد أن فسخت خطبتها مرتين أو
ثلاثا .

فأجابتنى في خشونة قائلة - « أريدك أن تكونى ميسورة الحال .
ثم التقطت الصحف وحملتها الى المطبخ لتغسلها . وعندما خلوت
الى نفسى بدأت أفكر في كلماتها في شىء من الامعان . وقارنت بينها
وبين وعود جينو وسلوكه فلم أشعر أن امي يمكن بحال أن تكون على
حق . ولكنها بلبت أفكارى بيقينها ونظرتها الهادئة المرحة التى
تتطلع بها الى المستقبل . وكانت في اثناء ذلك تفسل الصحف فى
المطبخ ثم سمعتها وهى تضعها على منضدة المطبخ ثم تأوى الى
مخدعها . وبعد فترة وجيزة ذهبت لانضم اليها فى الفراش يراودنى
شعور بالكآبة والتعب .

وفى اليوم التالى نساءلت عما اذا كان ينبغى ان اطلع جينو على
وساوس امي . ولكننى بعد تردد كثير قررت ألا أفعل . وفى الواقع
فلشد ما كنت أخشى أن يتركنى جينو كما نوهت امي حتى أننى لم
أجرؤ على مصارحته برأيها خوفا من أن أضع الفكرة فى رأسه .
وأدركت لأول مرة أن المرأة باستسلامها للرجل تضع مصيرها بين
يديه ولا تجد بعد ذلك الوسيلة التى ترغمه بها على التصرف طبقا
لرغبتها . ولكننى كنت لا أزال مقتنعة بأن جينو لن يحث بوعدده .

وما ان قابلته حتى عزز سلوكه من اقتناعى .
لأنك انى كنت اطلع بأشتياق الى احضان عناقته الكثيرة
ومداعباته ولكننى كنت أخشى الا يذكر الزواج او يتحدث عنه بطريقة
غامضة فحسب . ولكنه بدلا من ذلك اذا به يخبرنى حالما وقفت
السيارة فى الطريق المعهود أنه حدد موعدا للزفاف فى مدى خمسة

أشهر لا يتأخر عنه يوماً واحداً • ولشد ما سرنى ذلك حتى أننى لم أتمالك نفسى من الانفجار قائلة وكان آراء أمى هى أرائى - « أندرى ماذا خيل لى ؟ أنك ستهجرنى بعد ما حدث أمس • »

فقال نملو وجهه نظرة مستاءة - « ماذا بالله - ! اتحسبيني وغدا ؟ »

- « كلا • ولكننى أعلم أن هذا سلوك الكثيرين • »
ولكنه واصل حديثه مركزاً على اجابتي قائلاً - « اتعلمين أن ظنك فى كان يمكن ان يسيئنى • ماذا تحسبيني ؟ أهكذا تحبيني ؟ »
فقلت فى سداجة - « لا شك انى احبك • ولكننى خشيت ألا تحبني بعد ذلك - »

- « وهل أظهرت لك فى أية صورة من الصور حتى الآن اننى لا احبك ؟ »

- « كلا - ولكنك لا يمكن أن تتكهن • »

فقال فجأة - « أصفى الى • لقد اثرت غضبى الى حد أننى سأصحبك رأساً الى الرسم • » ثم هم بتحريك السيارة فى الحال فانتابنى الرعب وألقيت بنداعى حول عنقه متوسلة اليه ألا يفعل ذلك قائلة - « كلا يا جينو ماذا دهاك ؟ كنت أتكلم فحسب - ولتنس ما حدث • »

- « عندما ترددين أشياء معينة فمعنى ذلك أنك تؤمنين بها • ولو آمنت بها فمعنى ذلك أنك لا تحبيني • • »
- « ولكننى احبك بلا شك • »

فقال متهكماً - « أما أنا فلا احبك • ولم أزد على العبث بك كما تقولين منتويا هجرى - ومن الغريب أنك لم تلحظى ذلك حتى الآن • »
فهتفت منفجرة فى البكاء قائلة - « ولكن لماذا تحدثنى بهذه الطريقة يا جينو ؟ ماذا فعلت لك ؟ »

فقال محركاً السيارة - « لا شىء • ولكننى سأصحبك الآن الى الرسم • »

وانطلقت السيارة بينما جلس جينو الى عجلة القيادة منتصب القامة تبدو عليه سيماء الجدى • فانهرت تماماً ورحت أبكى وأنا أراقب الأشجار وعلامات الطريق وهى تمضى مسرعة أمام النافذة ورأيت فى الأفق فيما وراء الحقول اشباح المنازل الاولى فى المدينة • وتخيلت كيف ستفرح أمى لشجارنا لو علمت به واكتشفت أن جينو قد هجرنى كما تنبأت • فدفعنى اليأس الى أن أفتح باب السيارة وأتكىء

الى الخارج صائحة - « أما أن تقف السيارة أو ألقى بنفسى منها ! »
فنظر الى وأبطأ من سرعة السيارة الى أن أوقفها تماما فى منعطف
جانبي خلف تل صغير تعود بعض الانفاس . ثم أسكن المحرك وحده
الفرملة واستدار نحوى قائلا فى ضجر :
- « حسنا . هات ما عندك - هيا - »

ولما كنت أعتقد أنه ينوى هجرى حقا فقد بدأت أتكلم فى انفعال
وحماسة مما يثير اليوم فى نفسى السخرية والتأثر عندما استعيده فى
ذاكرتى . فقد أوضحت له مبلغ حبي له بل بلغ بي الامر أن قلت انه
لا يعينى زواجنا ما دمت أستطيع أن أكون عشيقه له . فأنصت الى
بوجه حزين وهو لا يفتأ يهز رأسه مرددا بين الحين والحين - « كلا .
كلا - فلا جدوى اليوم - ولعل نفسى تصفو غدا . » ولكننى عندما
قلت انه يكفينى أن أكون عشيقه له أجبانى قائلا فى حزم : - « كلا .
فلا بد من الزواج والا لا شئ . » وظللنا نتجادل بعض الوقت على
هذه الصورة بينما كان بمنطقه الموعج كثيرا ما يدفعنى الى اليأس
ويجعلنى أبكى من جديد . ثم بدا لى أنه أخذ يغير من موقفه العنيد
رويدا رويدا . وأخيرا بعد أن قبلته وعانقته عبثا بدا لى أننى أحرزت
نصرا عظيما عندما أقنعتة بترك المقعد الامامى للسيارة ومضاجعتى
على المقعد الخلفى فى وضع غير مريح كان أسرع مما ينبغى بالنسبة لى
ومرهقا للغاية . وذلك لشدة رغبتى فى أرضائه . وكان يجب أن أدرك
أننى بسلوكى على هذه الصورة لم أحرز نصرا بأى معنى من المعانى
بل على العكس كنت أمكن له من السيطرة على لاننى أظهرت له
استعدادى لان أهبه نفسى لا لاننى أحبه فحسب بل بغية استرضائه
واقناعه عندما تخوننى الحجة - وهذا هو بالضبط ما تفعله النساء
جميعا عندما يقعن فى الحب دون أن يثقن من تبادلته . ولكن سلوكه
الرائع الذى اوحى به مكره قد أعمى بصيرتى تماما . فكان لا يفتأ
يفعل ويقول نفس الاشياء التى ينبغى عليه أن يفعلها ويقولها . ولم
أدر لقلة خبرتى أن مثل هذا الكمال لم يكن يتصف به ذلك الرجل
المائل أمامى بلحمه ودمه بقدر ما كانت تتصف به شخصية العاشق
التقليدية التى أحملها فى ذهنى .

ولكن موعد الرفاق كان قد تحدد وبدأت أركز ذهنى فى الحال
على الاستعداد له . فاستقر رأيى بالاتفاق مع جينو على أن نقيم أولا
مع أمى . فقد كانت الشقة تحوى غرفة رابعة بالإضافة الى غرفة
الجلوس والمطبخ وغرفة النوم ولكن أمى لم تؤثها قط لافتقارها الى

المال • وكنا نحفظ فيها بحطام المهمات التي لا جدوى منها •
ويمكنكم أن تتخلوا بحطام المهمات في منزل كمنزلنا الذي يبدو كل
ما فيه حطاما لا جدوى منه • وبعد مناقشة الموضوع الى ما لا نهاية
وضعنا حداً أدنى لاحتياجاتنا - فاننا سنؤث هذه الغرفة الوحيدة
وأعد لنفسي شيئاً من جهاز العرس • وكنت أعلم أن أمي رغم فقرنا
الشديد قد ادخرت شيئاً وأنها انما كافحت لتجمع المال وتدخره من
أجلي لكي تكون على أهبة الاستعداد كما قالت لمواجهة أى طارئ • أما
عن كنه هذا الطارئ فالضبط فذلك أمر لم يمكن تحديده في جلاء
قط • ولكنه بالطبع لم يكن زواجي من رجل فقير ذي مستقبل غير
مستقر • فذهبت الى أمي قائلة :

- « أليس هذا المال الذي ادخرته من أجلي ؟ »

- « نعم • »

- « حسنا اذن فلتعطيني آياه الان اذا كنت تريدني لي السعادة

لكي نؤث الغرفة التي يمكننا أنا وجينو أن نقيم فيها - فان كنت
حقا قد ادخرته من أجلي فقد آن الاوان لانفاقه • »

وكنت أتوقع منها أن تجادلني وتناقشني ثم ترفض في النهاية
رفضاً صريحاً • ولكن أمي بدلا من ذلك رحبت بالاقتراح في حماسة
مبدية مرة أخرى نفس الهدوء المتهمك الذي لشد ما بلبل خواطري في
ذلك المساء الذي ذهبت فيه أنا وجينو الى الفيلا •

ولم تزد على أن سألتني قائلة - « وهل سيسهم هو بشيء في
ذلك ؟ »

فكذبت قائلة - « نعم بالطبع • لقد صرح بذلك فعلا - ولكنني
أيضا يجب أن أسهم بشيء • »

كانت تحيك القمصان بالقرب من النافذة فتوقفت عن عملها لكي
تحدثني قالت - « أدخلى غرفتي وافتحى الدرج العلوى في الخزانة
حيث جددين صندوقا من « الكرتون » يحوى دفتر الادخار وكذلك
ما أملكه من قطع الذهب • خذى الدفتر والذهب جميعا • ففى وسعك
أن تستحوذى عليهما • »

أما قطع الذهب فلم يكن كبيرة القيمة - وهي تتألف من خاتم
وقرطين وسلسلة صغيرة • ولكن ذلك الكنز الصغير المخبأ في خلق
بال والذي لم يكن يلمح الا في ظروف غير عادية كان يثير خيالي منذ
طفولتي • فاحتضنت أمي باندفاع تلقائي ولكنها دفعتني بعيدا عنها
لا في خشونة بل في برود قائلة :

- « حذار - فالابرة فى يدى - وربما وخزتك . »
 ولكننى لم أسعد بذلك . فلم يكن يكفينى أنى حصلت على ما أريد .
 « أكره »
 بل كنت أريد أيضا أن تشاركنى أمى سعادتى . فقلت - « أمامه . »
 ان كنت تفعلين ذلك لارضائى فحسب فأنا لا أريده . »
 فأجابتنى وهى تعود الى عملها قائلة - « طبعا أنا لا أفعل ذلك لارضائك . »
 فسألته قائلة فى رقة - « أنت لا تصدقين حقا أننى سأأتزوج جينو . أليس كذلك ؟ »
 - « لم أصدق هذا قط . واليوم أكذبه أكثر من أى وقت مضى . »
 - « اذن فلماذا تعطينى النقود لتأثيث الغرفة ؟ »
 - « ليس هذا تبديدا للمال . فستبقى الاثاثات والبياضات ملكا لك على الدوام - فاما المال أو السلع وكلاهما شىء واحد . »
 - « ألا تأتين معى لزيارة المحال واختيار ما نريد من أشياء ؟ »
 فصاحت قائلة - « يا الهى ! انا لا أريد أن يكون لى شأن بهذا كله ! فافعلى ما شئت واذهبى حيثما شئت وائتقى ما شئت - فأنا لا أريد أن أعرف شيئا . »
 كانت فى الحقيقة لا تقبل التفاهم مطلقا فى موضوع زواجى . وأدركت أن عدم قابليتها للتفاهم لم تكن ترجع الى رأيها فى أخلاق جينو من ناحية أساليبه ووسائله بقدر ما كانت ترجع الى طريقتها فى النظر الى الحياة . كان موقفها خاليا تماما من كل حقد بل كان لا يعدو أن يكون ثورة مطلقة على كل الآراء التى تواضع عليها الناس . فالنساء الاخريات يتمنين فى شوق لو تزوجت بناتهن . أما أمى فكانت تتمنى بنفس الشوق ألا أفعل . وقد مضى الان زمن طويل على موقفها هذا .
 وهكذا كان هناك نوع من التحدى الصامت بينى وبين أمى . فقد كانت تبغى أن يفشل زواجى وأن أقنع ببراعة خططها . وكنت أبغى أن يتم الزواج وأن تقنع أمى بصحة نظرتى للامور . وعلى ذلك فقد تشبثت فى مزيد من الحماسة بالامل فى الزواج . وكنت كمن يراهن فى ألعاب بعياله كلها على ورقة واحدة . ولم أفتأ أحس فى مرارة بأن أمى كانت تراقب جهودى وتتمنى فشلها بينها وبين نفسها . ولا يفوتنى أن أذكر هنا أن سلوك جينو الذى لا تشوبه شائبة لم يطرأ عليه خلل قط ولا حتى أثناء استعداداتنا للزفاف . وقد سبق

www.Librar4Arab.com/vb

أن قلت لامي ان جينو أسهم بنصيب في النفقات ولكنني لم أصدقها
القول لأنه حتى ذلك الحين لم يكن قد ألمح قط الى مثل هذا الأمر
فعندما عرض علي جينو دون أن أطلب اليه مبلغا صغيرا من المال
لمساعدتي تولتني الدهشة وفرحت في نفس الوقت فرحا شديدا .
وقد اعتذر لي عن ضالة المبلغ بقوله انه لا يمكنه أن يعطي المزيد
لاضطراره في معظم الاحيان الى ارسال نقود الى اسرته . واليوم
عندما أفكر في عرضه لا يمكنني أن أجد تفسيراً آخر لذلك سوى
اعتزازه الشديد بتفانيه في الدور الذي قرر أن يلعبه . ولعل منشأ
هذا التفاني أنه كان نادما على خداعه آياي وآسفا لعجزه عن الزواج
بي وهو ما كان يريد فعله حينذاك . فأسرعت الى أمي ظافرة أخبرها
بعرض جينو . فلم تزد علي أن عقلت قائلة انه مبلغ ضئيل للغاية -
ولكنه لم يكن ضئيلا الى الحد الذي يظهره بمظهر الفقير المعوز بل
كان فيه ما يكفي لنذر الرماد في عيني .

ولشد ما كنت سعيدة في تلك الفترة من حياتي . فقد تعودت
ان التقى بجينو كل يوم . وكنا نمارس الحب حيثما أمكننا ذلك -
على المقعد الخلفي للسيارة أو أثناء وقوفنا في ركن مظلم في أحد
الشوارع المقفرة أو في أحد حقول الريف أو في الفيللا مرة أخرى
في غرفة جينو . وذات ليلة بعد أن صحبني الى المنزل مارسنا الحب
على بسطة في الظلام مفترشين الارض خارج الباب الامامي لمنزلنا .
ومرة أخرى مارسنا الحب في السينما متعانقين في المقاعد الخلفية
الى اليمين أسفل غرفة العرض تماما . وكان يستهويني أن أندس
في زحام الترام والاماكن العامة وهو واقف الى جوارى لان الناس
كانوا يدفعونني نحوه فانتهاز الفرصة لاضغط بجسدي على جسده .
وكنت لا أفتأ أحس بالرغبة في أن أضغط يده أو أعبت بشعره أو
أدغدغه بطريقة ما أينما كنا حتى في حضور آخرين وأنا أكاد أخدع
نفسى بأن حركتي لن تلفت الانظار كما نفعل دائما عندما نستسلم
لعاطفة غلابة لا يمكن مقاومتها . وكانت عملية المضاجعة تبهجني .
ولعل تعلقى بها في حد ذاتها كان أقوى من تعلقى بجينو لانني كنت
أحس بنفسي مدفوعة اليها لا مضاعرة ليعو جينو فحسب بل كذلك
باللذة التي كنت أجدها فيها . ولم يحظر علي بالي بالطبع أنه يمكنني
أن أجد مثل هذه اللذة مع أي رجل آخر عدا جينو . ولكنني أدركت
بطريقة غامضة أن ما كنت أبته في مداعباتي من حماسة ومهارة
وعاطفة لم يكن مرجعه ما بيني وبين جينو من حب فحسب بل كانت

حركاتي تتميز بطابع خاص وكانني أوتيت موهبة المضاجعة التي كانت ستكشف عن نفسها ان عاجلا او آجلا حتى يغير جينو .
ولكن فكرة الزواج كانت تحتل المقام الاول . ولكني أدخر بعض النقود أخذت أساعد أمي بكل قواي وكثيرا ما كنت أسهر الى سباعة متأخرة من الليل . وكنت في أثناء النهار حين أفرغ من الوقوف في المراسم أطوف بالمحال في صحبة جينو لاختيار أثاثنا واقمشة جهازى . وكنت لا أملك سوى مبلغ صغير ولهذا السبب بعينه كنت أبحث في مزيد من العناية ومزيد من التدبير والتفكير . فكنت اطلب الى الباعة أن يعرضوا على الاشياء التي أعلم اننى لا أستطيع شرائها ، وأقلبها بين يدي في تمهل مناقشة قيمتها ومساومة في سعرها . ثم أتظاهر بعد ذلك بعدم الرضا أو أعدهم بالعودة ثم أغادر المحل دون أن أشتري شيئا . وقد أثبتت لى تلك الحملات الجنونية التي كنت أشنها على المحال وذلك الفحص المرهق للسلع التي لا يمكننى شراؤها صدق ما كانت تقوله أمي دون أن تدرك ذلك - من أنه لا سبيل الى السعادة بدون المال . وكانت تلك هي المرة الثانية التي أرى فيها بعد زيارتي للفيللا ما يمكن أن يكون عليه نعيم الثراء . ولما كنت أحس بأننى مبعدة عنه لغير ما ذنب جنيته فلم أتمالك نفسى من الشعور بالمرارة والسخط الى حد ما . ولكننى حاولت عن طريق المضاجعة كما فعلت فى الفيللا أن أنسى ذلك الظلم . وكانت المضاجعة هي متعتى الوحيدة التي تشعرنى بالمساواة مع كثير من النساء الاخريات اللاتي يفقننى ثراء وحظا فى الحياة .

وأخيرا بعد كثير من المناقشات والحملقة فى المحال استقر رأيى على مشترواتى التي لشد ما كانت متواضعة . كما ابتعت طبقا من الاثاث حديث الطراز بالتقسيم التجارى وذلك لعدم وجود ما يكفى من النقود لدفع ثمنه فورا - وكان يتألف من فراش عريض وخزانة للملابس ذات أدراج ركبت عليها مرآة ومناضد صغيرة توضع بجانب الفراش ومقاعد وصوان للملابس . وكانت كلها أشياء عادية رخيصة خشنة الصنع ولكن أحدا لا يمكن أن يصدق مدى الحب الذى شعرت به فورا نحو تلك القطع الهزيلة من الاثاث . وطلبت جدران الغرفة باللون الابيض ودهمت الابواب والنوافذ بالورنيش ونظفت أرضية الغرفة مما لصق بها من القذارة حتى صارت غرفتنا أشبه بجزيرة نظيفة فى وسط البحر القدر المحيط بنا . ولا شك أن اليوم الذى نقل فيه الاثاث الى المنزل كان أسعد يوم فى حياتى . فلم أكد

اصدق أن مثل هذه الغرفة النظيفة المرتبة المضيئة التي تفوح منها رائحة الجير والورنيش كانت غرفتي الخاصة . وقد امتزج عدم التصديق بشعور لا نهائي من الرضا . فكنت أحيانا عندما أتأكد من غفلة أمي أدلف الى داخل غرفتي حيث أجلس على الحشية العارية وأمكث ساعات بطولها متأملة ما حولي . وكنت أحملق كالتمثال في تلك القطع الهزيلة من الاثاث وكأنني لا أستطيع أن أصدق أنها حقيقة وأخشى أن تتلاشى في الهواء في أية لحظة تاركة الغرفة خاوية . أو أنهض من مكاني وأنفض عنها الغبار وأزيد من صقلها . واعتقد أنني لو أطلقت العنان لمشاعري حقا لقبقتها . وكانت النافذة العارية من الستائر تطل على فناء فسيح قدر تحيط به منازل أخرى خفيضة ممتدة كمنزلنا . وكان المنظر أشبه بفناء في سجن أو مستشفى ولكنني لما كنت منتشية فاني لم أعد أعيره انتباها . بل أحسست بسعادة وكان الغرفة تطل على حديقة جميلة مملوءة بالاشجار . وأخذت أتخيل الحياة التي سنحياها أنا وجينو هناك - وكيف سننام ونتضاجع . وكانت في ذهني أشياء أخرى كنت أعتزم شراءها حالما يمكنني ذلك - آنية للزهور ومصباح ومنفضة للسجائر توضع في ركن الغرفة أو حلية أخرى . ولم يكن يؤسفني سوى أنني لا أستطيع الحصول على حمام ذي قرميد أبيض لامع وصنابير كذلك الذي رأيته في الفيلا أو على الأقل حمام جديد نظيف . وكنت مصممة على أن تكون غرفتي آية في الترتيب والنظافة فقد اقنعتني زيارتي الى الفيلا بأن الحياة المرفهة تبدأ بالترتيب والنظافة .

وحوالى ذلك الوقت بينما كنت لا أزال أواصل جلساتي فى المراسم تعرفت فى مكان ما الى فتاة أخرى تعمل نموذجا وكانت تدعى جيزيلا فنشأت بيننا صداقة . كانت فتاة طويلة القامة قوية البنية ذات بشرة ناصعة البياض وشعر أسود مجعد وعينين زرقاوين غائرتين وفم أحمر واسع . وكانت طباعها على النقيض من طباعى . فكانت سريعة الانفعال حقودا لاذعة ولكنها فى نفس الوقت ذات تفكير

عملى تنشده الكسب المادى . ولعل هذه الاختلافات نفسها هى التى ربطت بيننا ووثقت عرى الصداقة . وكنت لا أعلم أن لها عملا آخر بالإضافة الى عملها كنموذج ولكنها كانت ترتدى ثيابا تفوق طاقتى بكثير . ولم تخف عنى أنها كانت تتلقى الهدايا والنقود من رجل قدمته الى على أنه خطيبها . وأذكر أننى كنت أغبطها سترتها السوداء التى اكتسبت ياقتها وطرفا كميتها بفراء أستراخان . وكثيرا ما كانت ترتديها فى ذلك الشتاء . أما خطيبها فكان يدعى ريكاردو وهو شاب

طويل القامة هادىء الطبع ممتلىء الجسم ذو وجه ناعم كالبيضة خلته حينذاك وسيما للغاية . وكان ذا شعر لامع دائم التنسيق غارق فى الدهانات وهو لا يفتأ يرتدى حلا جديدة . وكان أبوه يملك محلا لملايس الرجال الداخلية وأربطة العنق . كما كان بسيطا الى حد البلاهة وديعا مرحا ولعله كان شابا مهذبا للغاية . كان هو وجيزيلا عاشقين ولكنى لا أعتقد أنه كان بينهما حديث عن الزواج كما كان

بينى وبين جينو . ولكن جيزيلا كانت مثلى تهدف الى الزواج دون أن تعلق عليه كثيرا من الآمال . أما ريكاردو فانى واثقة أن فكرة زواجه بجيزيلا لم تخطر له قط على بال . وقد صممت جيزيلا التى كانت رغم حماقتها الشديدة تفوقنى خبرة بكثير على أن ترعانى وتردنى الى

طريق الحكمة والصواب فى كثير من الامور . وبإختصار فقد كانت تعتقد نفس الآراء والأفكار التى تعتقدتها أمى فى الحياة والسعادة . ومع ذلك فان تلك الآراء كانت تعبر عنها أمى بلهجة عدوانية مريرة لانها كانت ثمره حياة مليئة بالشدائد وخيبة الرجاء فى حين أن

اعتناق جيزيلا تلك الاراء كان يرجع الى بلادتها واكتفائها الذاتي
العتيد . ومن الممكن ان نقول ان ابي كانت تنسج بالتعبير عن ادائها
نظريا وكان تقريرها لمبادئها يفوق تطبيقها العملي أهمية في نظرها .
أما جيزيلا التي كانت تفكر دائما بهذه الطريقة ولم تكن تحلم بأن
هناك من يمكن أن يفكر بطريقة مختلفة فقد تولتها الدهشة لانني لا
أحذو حذوها . ولم تتحول دهشتها الى غضب وغيره الا عندما أظهرت
استنكارى لاعمالها لانني في الحقيقة لم أتمالك نفسي من ذلك . فقد
اكتشفت فجأة انني لا أرفض حمايتها ونصيحتها فحسب بل لعل كنت
في مركز يسمح لي بانتقادها من ذروة أمانى الغريزة النزوية . وعندئذ
فقط ولعلها لم تكن تعي ما تفعل بدأت تخطط للحيلولة بيني وبين
الحكم عليها وذلك عن طريق ارغامى على أن أحذو حذوها في أقرب
وقت ممكن .

وفي أثناء ذلك كانت لا تفتأ تتهمنى بالحرق لاحتفاظى بطهارتى
وتدعى أنه كان يشينها ان ترانى على تلك الصورة من سوء الهندام
أعانى مثل هذه الحياة الشاقة في حين أنه يمكننى اذا شئت بفضل
جمالى أن أغير مركزى تغييرا كاملا . وأخيرا أخبرتها بعلاقتى بجينو
لاننى خجلت من اعتقادها أننى لا أعرف شيئا عن الرجال . ولكننى
أخطرتها بأننا كنا خطيبين وأننا لن نلبث أن نتزوج . فسألتنى فى
الحال عن عمل جينو وما ان سمعت أنه سائق حتى عبس وجهها .
ولكنها مع ذلك طلبت الى أن أقدمه اليها .

كانت جيزيلا خير صديقة لى وكان جينو خطيبى . واليوم يمكننى
أن أحكم عليهما حكما نزيها بعيدا عن الهوى . ولكن بصيرتى حينذاك
لشد ما عميت عن حقيقتهما . فقد كنت أعتقد بالفعل أن جينو بلغ
حد الكمال . أما جيزيلا فربما أدركت أن لها بعض الاخطاء ولكننى
كنت أعتقد أنها فى مقابل ذلك ذات قلب عامر بالحب . وأنها لشد
ما كانت شغوفة بى . وعندما علمت ببراءتى كنت لا أرجع قلقها على
مستقبلى الى حقدها على ورغبتها فى افسادى بل الى طيبة قلبها الخاطئة
المضللة . وهكذا فقد قدمت كلا منهما الى الآخر فى شئ من التوحش
والخوف . وكنت أمل بسداجتى أن يصيرا صديقين . وقد تم اللقاء
فى أحد محال اللبن . وظلت جيزيلا طوال الوقت ملازمة الصمت
الحذر . ولكن موقفها العدائى كان واضحا . وبدا لى فى أول الامر
أن جينو كان يحاول جاهدا أن يسحر جيزيلا بشخصيته لانه كعادته

بدأ يتحدث عن الحياة مركزا على ثراء مخدوميه وكأنه كان يأمل أن يبهرها بهذه الاوصاف ويخفي فقر حياته . ولكن جيزيلا أبت أن تلتزم وظلت محتظة بموقفها العدائى . ثم علقته فائله . ولست أذكر تماما السبب الذى دعاها الى ذلك - « انه لمن حسن حظك أنك عثرت على آدريانا . »

فسألها جينو قائلا فى دهشة - « لماذا ؟ »

فقلت - « لان الساقه عادة يرافقون الخادمت . »

فرايت جينو وقد تغير لونه . ولكنه لم يكن ليؤخذ على غرة . فأجابها قائلا فى بطء خافضا صوته كمن يفكر فى حقيقة ظاهرة كانت قد فاتته ملاحظتها حتى تلك الآونة - « انك محقة تماما . فقد تزوج السائق الذى سبقنى فى الواقع بالطاهية - طبعا - لم لا ؟ وكان ينبغى أن أحذو حذوه - فالساقه يتزوجون الخادمت والخادمت يتزوجن الساقه . لم لم يخطر ذلك على بالى بحق السماء ؟ » ثم أضاف قائلا بعدم اكتراث - « ومع ذلك فقد كنت أفضل أن تكون آدريانا خادمة على أن تكون نموذجاً . » ثم أردف قائلا وهو يرفع يده وكأنه يريد أن يتجنب أى اعتراض يمكن ان تبديه جيزيلا - « ولا أقصد - لا أقصد أن ذلك بسبب المهنة نفسها - مع أننى أصارحك بأنه لا يمكننى استساغة تجردها من ثيابها أمام الرجال - بل لسبب رئيسى هو أنها مضطرة بحكم اشتغالها بهذه المهنة أن تتعرف الى قوم وتتخذ صديقات ممن . . . » ثم هز رأسه وصعر وجهه . وبعد ذلك قدم اليها علبة سجائره قائلا - « أتدخين ؟؟ »

ولم تدر جيزيلا كيف ترد عليه فى الحال بل اكتفت بأن رفضت السيجارة . ثم نظرت الى ساعتها قائلة - « علينا أن نذهب يا آدريانا فقد تأخر الوقت . » وكان الوقت قد تأخر بنا فى الواقع . فغادرنا محل اللبن بعد أن ودعنا جينو . وما ان خرجنا الى الطريق حتى قالت لى جيزيلا : - « انك ترتكبين عملا جنونيا للغاية . فأنا لا يمكننى مطلقا أن أتزوج رجلا كهذا . »

فسألته قائلة فى قلق - « ألم يعجبك ؟ »

- « كلا مطلقا . فقد قلت لى أولا انه طويل القامة ولكنه يكاد يكون أقصر منك - ثم هو غير طبيعى بالرة . كما أنه يتكلم بطريقة خيالية غريبة تظهر لك على بعد ميل أنه لا يقول ما يعتقد حقا . ثم ما كل هذه المظاهر والحركات المصطنعة التى يضيفها على نفسه وهو لا يعدو أن يكون سائقا ؟! »

فاحتجبت قائلة - « ولكننى أحبه ! »
فأجابت قائلة فى هدوء - « حسنا . ولكنه لا يجبك - واسوف
يهجرك يوما ما . »
ولقد بوغت بهذه النبوءة . فلشد ما كانت لهجتها مؤكدة ولشد
ما حاكت نبوءات أمى . واليوم يمكننى أن أقول أن جيزيلا بغض النظر
عن سوء نيتها قد استشفت شخصيه جينو فى ساعه واحده أكثر
مما فعلته أنا فى عدة شهور . أما جينسو فقد ساء رأيه أيضا
فى جيزيلا ولكننى يجب أن أعترف أنه تبين لى فيما بعد أن رأيه لم
يجانب الصواب . والحقيقة أن شغفى بكليهما فضلا عن قلة خبرتى
قد أعمى بصيرتى . وما أصدق القول بأن سوء الظن هو السراى
الصائب فى معظم الاحيان .

قال جينو - « ان جيزيلا هذه هى ما نسميه نحن فى بلدنا بفتاة
الطريق . »

فبدت على الدهشة وأردف موضحا - « عاهر تجوب الشوارع .
فآدابها وأخلاقها تدل على ذلك - كما أنها مفتره لحسن هندامها -
ولكن أنى لها أن تدفع ثمن ثيابها ؟ »

- « ان خطيبها يهديها اياها . »
- أراهن أن لها خطيبا مختلفا فى كل ليلة . . . والان أنصتى الى
فاما أنا أو هى . »

- « ماذا تعنى ؟ »
- « أعنى أنه يمكنك أن تفعل ما شئت - ولكنك اذا لم ترغبى فى
مقاطعتها فلتخرجينى من حسابك . فاما أنا أو هى . »

وحاولت أن أثنيه عن عزمه ولكننى فشلت . فلا بد أن جيزيلا قد
جرحت كبريائه باحتقارها اياه . ولكن لا ريب أن سخطه المبعض
عليها كان فيه شىء من الاخلاص للدور الذى يؤديه كخطيب لى -
ذلك الاخلاص الذى أوحى اليه بالاسهام فى تكاليف تآثيث
المنزل . كان رائعا كعهده دائما فى التعبير عن عواطف لا يشعر
بها . إذ أنه لم يفتأ يردد قائلا فى صلابة - لا . . . ان خطيبتى لا ينبغي
أن تكون لها صلة بالساقطات . « وأخيرا وعدته أن أقطع كل صلة
بجيزيلا خشية ان ينهار الزواج مع انى كنت أعلم فى قرارة
قلبي أنه لا يمكننى بحال الوفاء بوعدى لانتى أنا وجيزيلا كنا نعمل
معا فى نفس الوقت وفى نفس الرسم .

ومنذ ذلك اليوم ظلمت أراها دون علم جينو . وكانت جيزيلا

في كل لقاء لا تفتأ تنتهز كل فرصة للتعريض بخطبتنا بألفاظ
نفيض نهكما واستنكاراً . ولقد بلغت بي سداجتي أنى كنت
أطلبها على كل ما يخص علاقتي بجينو من أشياء تافهة صغيرة .
فكانت بالتالي تستغل تلك الأسرار في الإساءة الى وفي اللقاء ضوء
من الهزء والسخرية على حياتي الحاضرة والمستقبلية - أما
صديقها ريكاردو الذي بدا انه لا يميز بينى وبين جيزيلا وكان يعد
كلتينا فريسة سهلة كفتاتين غير جديرتين بالاحترام - فقد كرس
نفسه عن طيب خاطر للمشاركة في لعبة جيزيلا فشدد من نكير
قسوتها وسخريتها . ولكنه كان يفعل ذلك في حماقة وحسن نية
لانه كما سبق أن قلت لم يكن في الحقيقة ذكيا ولا شريرا . وكانت
خطبتي في نظره لاتعدو أن تكون مادة دعاية - أو تسلية . أما
جيزيلا التي كانت لا تفتأ تجد في عفتي تعنيفا مستمرا لها والتي
شاءت أن تجعلني أحدو حذوها حتى تسلبني بذلك كل حق في
ادانتها فكانت تهاجمني في حقد واصرار محاولة بكل طريقة ممكنة
أن تعذبني وتحقر من شأنى .

وكانت تركز هجومها على أضعف نقطة في وهى ملابسى فكانت
تقول - « لشد ما يخجلنى حقا أن أسير معك اليوم . » أو تقول -
« ان ريكاردو لا يسمح لى مطلقا بالخروج فى مثل هذه الخلق التي
ترتدينها . . أليس كذلك يا ريكاردو ؟ فهذه الاشياء تكشف عن
الحب يا عزيزتى ! » وكنت من السداجة بحيث أستجيب فورا
لهذا الاغراء الذى يوقعنى فى الفخ . فأخرج عن طورى وانبرى
للدفاع عن جينو وكذلك عن ملابسى ولكن باقتناع أقل . وكنت لا
أفتأ أخرج من المعركة أسوأ حالا وقد احمر وجهى واغرورقت عيناي
بالدموع . وذات يوم قال ريكاردو وقد أخذته الشفقة على « اليوم
سأعطى هدية لادريانا . تعالى يا آدريانا . فانى أريد أن أعطيك
حقيبة يد . ولكن جيزيلا عارضته فى عنف قائلة - « كلا يا ريكاردو !
لا تعطها شيئا ! فلديها جينو وليأت لها بالهدايا . » فأذعن لها
ريكاردو فى الحال وقد دفعته طيبة قلبه الى ذلك الاقتراح ولكنه
لم يخطر بباله مدى ماكانت ستحدثه هديته فى نفسى من سرور .
وفى ذلك الساء دلعتى كبريائى الجريئة الى ابتاع حقيبة بنقودى
الخاصة . وفى اليوم التالى قابلتهما وتحت ذراعى حقيبتى الجديدة
زاعمة لهما أنها هدية من جينو . وكان ذلك هو النصر الوحيد
الذى أحرزته فى كل مدار بيننا من مشادات تثير الرثاء . وقد

كلفني ذلك النصر غاليا لانها كانت حقيبة جميلة للغاية فدفعت في مقابلها ثمنا باهظا .

وعندما خيل لجزيلانا انها بقوة تفكيرها وتحضيرها ووعظها اياي قد حطمت مقاومتي بصورة كافية اقتريت منى قائلة ان لديها اقتراحا ثم اردفت نقول - « ولكن دعيني آرو لك القصة بأكملها . ولتتخلى عن عنادك المعهود حتى تسمعي ما عندي . »

فقلت - « الى به . »

فبدأت حديثها قائلة - « انت تعلمين اننى أحبك . فأنت بمثابة أختي . ان لديك من الجمال ما يجعلك تملكين كل ماتبتفين . ولا أحب ان أراك فى مثل هذه الملابس المخجلة التى تبدين فيها وكأنك من أطفال الشوارع المردين . والان أنصتى . » ثم توقفت عن الحديث وراحت تحمق فى بكل جد وحزم وأردفت قائلة فى صوت خفيض - « هناك سيد مهذب - سيد حقيقى - رقيق دمى للغاية وقع بصره عليك فأبدى بك اهتماما . وهو متزوج ولكن أسرته تقيم فى الريف . كما انه شخصية هامة فى الشرطة . فان شئت أن تتعرفى اليه أمكننى أن أقدمك . وهو شخص غاية فى الرقة وغاية فى الجد . ويمكنك أن تتأكدى تماما من أن أحدا لن يعرف شيئا عن علاقتك به . وعلى أية حال فانه قلما يفرغ من عمله ولن تلتقى به أكثر من مرتين أو ثلاثا فى كل شهر . كما أنه لا يعترض ان شئت على استمرار علاقتك بجينو - ولا يبالى بزواجك به ولكنه فى مقابل ذلك سيكفل لك حياة أيسر من تلك التى تعيشينها الان .

فمما رأيك ؟ »

فقلت فى صراحة - « شكرا جزيلانا له . ولكننى لا أستطيع قبول اقتراحه . »

فسألتنى قائلة وكانت دهشتها صادقة - « لم لا ؟ »

- « لاننى لا أستطيع . فأنا أحب جينو ولو قبلت ذلك لما أمكننى أن أواجهه . »

- « دعك من هذا ! حتى لو أكدت لك أن جينو لن يعرف شيئا عن هذه العلاقة ! »

- « هذا هو السبب بالضبط . »

فتألت وكأنها تحدث نفسها - « انى لا أكاد أتخيل عرضا

كهذا - ماذا أقول له ؟ أنك ستفكرين فى الامر ؟ »

- « كلا . كلا . . . بل قولى له انه لا يمكننى قبوله . »

فقلت جيزيلا وقد خاب أملها - « انك حمقاء . فالحظ يواتيك
ولكنك ترفسينه . »

وقالت لي اشياء أخرى كثيرة من هذا القبيل ولكنني كنت أحب
عنها بنفس الطريقة . وأخيرا انصرفت وهي أشد ما تكون سخطا على
لقد رفضت العرض جزافا دون روية أو تفكير فيما كان ينطوي
عليه حتى اذا ما خلوت الى نفسي كان يراودني شعور بالندم . فدخل
جيزيلا كانت محقة في أن ذلك هو السبيل الوحيد للحصول على
كل الاشياء التي كنت في حاجة ماسة اليها . ولكنني طردت الفكرة
من ذهني في الحال وتشبثت في مزيد من القوة بفكرة الزواج
وبالحياة المنتظمة التي عاهدت نفسي عليها حتى ولو كانت متواضعة .
ولقد أرغمتني تلك التضحية التي كان من الواضح انني قمت بها
الآن على أن أتزوج بكل وسيلة ممكنة بل زاد الامر الحاحا عما كان
عليه من قبل .

ولكنني لم أتمالك نفسي من الشعور بالزهو فأطلعت أمي على
عرض جيزيلا . وخيل لي أنني بذلك أبعث في نفسها فرحة مزدوجة .
فقد كنت أعلم انها فخور بجمالي وأنها ما زالت متمسكة بأرائها .
فكان ذلك العرض يرضي كبرياءها ويعزز آراءها . ولكنني دهشت
لحالة الاضطراب التي عرتها على اثر سماعها قصتي . فقد لمت
عيناها ببريق جشع وتضرج وجهها كله بحمرة الفرح .

وأخيرا سألتني قائلة - « من هو ؟ »

فأجبتها قائلة - « سيد مهذب . » ولكنني خجلت من مصارحتها
بأنه يعمل في الشرطة .

- « أقالت أنه واسع الثراء ؟ »

- « نعم . من الواضح أنه يكسب كثيرا . »

ولكنها لم تجرؤ على مصارحتها برأيها الذي كان واضحا وهو
أنني أخطأت برفض ذلك العرض .

- « لقد رآك وأبدى بك اهتماما ؟ فلم لا تدعينها تقدمه اليك ؟ »

- « وما الفرض من ذلك اذا كنت لا أريده ؟ »

- « للاسف انه متزوج . »

- « ولكنني ماكنت لإقايه حتى لو لم يكن كذلك . »

فقلت أمي - « ثمة طرق كثيرة لممارسة الأمور . فهو غني

ومعجب بك . وكل خطوة تؤدي الى أخرى - وفي أماكنه مساعدتك

دون أن يطلب شيئا في مقابل ذلك . »

فأجبتها قائلة - « لا - لا . فهؤلاء الناس لا يعطون شيئا بدون

مقابل . »
« هذا أمر لا يمكن الكهن به مطلقا . »

فرددت قائلة - « لا . لا . »

فقلت أُمى وهى تهز رأسها - « لا أهمية لذلك . ولكن جيزيلا فتاة رقيقة حقا ولا شك أنها تحبك . فان أية فتاة أخرى ما كانت لنذكر لك هذا العرض بسبب غيرتها . وهكذا ترين أنها صديقة بحق لم تعد جيزيلا تتكلم عن صديقها السيد المهذب بعد رفض اقتراحها بل لقد امتنعت لدهشتى عن مشاكستى بصدد خطبتى . وظللت التقي بها خلسة هى وريكاردو . ولكننى ذكرت اسمها لجينو أكثر من مرة آملة أن أصلح ذات البين لانى لم أكن أحب تلك الاتصالات الخفية . ولكنه لم يدعنى قط أكمل ما كنت أقوله ولم يزد على ترديد عبارات الكراهية وكان يقسم أن ينتهى كل شيء بيننا لو اكتشف فى أية لحظة أنى ألقاها . وكان يعنى ما يقول . وخيل لى أنه ما كان ليشعر بالأسف لو وجد عذرا لفسخ الخطبة . وكاشفت أُمى بكراهية جينو لجيزيلا فقالت دون حقد تقريبا :

- « انه لا يريدك أن تلتقى بها خشية ان تقارنى بين ما ترتدينه من خلق بالية وبين ما يهديه اياها خطيبها من ثياب . »
- « كلا . بل هو يزعم أن جيزيلا عاهر . »

- « انه هو العاهر ! ليته يكتشف أنك تقابلين جيزيلا ويفسخ الخطبة حقا . » فتولانى الرعب وهتفت قائلة - « ولكنك لن تخبريه بشيء يا أماه . ! »

فأسرعت باجابتى قائلة فى شيء من المرارة - « كلا . كلا . فهذا شأنك . ولا صلة لى به مطلقا . »

فقلت بانفعال - « لو أخبرته فلن ترى وجهى بعد ذلك . »
وحل صيف سانت مارتن (١) وكان الجو فى تلك الايام صحوا معتدلا . وذات يوم أخبرتنى جيزيلا انها قد اعتزمت بالاتفاق مع ريكاردو وصديق لى الاقيام برحلة فى السيارة وأنهم فكروا فى اصطحابى معهم لحاجتهم الى امرأة أخرى يكتمل بها العقد . فسررنى قسول تلك الدعوة لانى حينذاك كنت لا أفقا لبحث من أى نوع من البهجة لاخفت

(١) Saint Martin اسقف مدينة تور فى القرن الرابع الميلادى . وقد ولد فى ١١ نوفمبر . والمقصود بصيف سانت مارتن هو ذلك الفصل الجميل من السنة حوالى ذلك التاريخ .

بها من تعاسة حياتي . وزعمت لجينو أنني مضطرة للوقوف بضع ساعات اضافية . وفي الصباح ذهبت في ساعة مبكرة الى مكان اللقاء المتفق عليه على الجانب الآخر من جسر ميلقيو حيث كانت السيارة في انتظارى وعندما اقتربت منها لزم ريكاردو وجيزيلا مكانيهما في مقدمة السيارة . أما صديق ريكاردو فقد وثب الى خارج السيارة وجاء للقائى . كان شابا متوسط القامة أصلع الرأس ذا وجه شاحب وعينين نجلاوين سوداوين وأنف أقنى وفم واسع ارتفعت زاويتاه الى اعلى كمن يبتسم . كما كان أنيق الملبس ولكن فى هدوء على صورة تختلف تماما عن أناقة ريكاردو . فكان يرتدى سترة رمادية قاتمة رسراويل رمادية زاهية الى حد ما وياقة منشاة ورباط عنق أسود به مشبك لؤلؤى . وكان صوته رقيقا وكذلك بدت عيناه اللتان كانتا فى نفس الوقت حزينتين انجابت عنهما غشاوة الوهم . كان مؤدبا للغاية بل يبلغ فى ذلك حد الكلفة . وقدمته الى جيزيلا باسم استفانو أستاريتا فأيقنت على الفور أنه لا بد أن يكون ذلك السيد المهذب الذى حملت الى اقتراحه المنطوى على الشهامة . ولكننى لم يؤسفنى لقاءه لان اقتراحه فى الواقع لم يكن مسيئا بل كان من وجهه نظر معينة يرضى كبريائى . فمددت له يدي وقبلها فى تعبد غريب وفى قوة تكاد تؤلمنى . وما أن ركبت السيارة وجلس بجانبى حتى انطلقت بنا .

وبينما كانت السيارة تسرع بنا فى الطريق المشمس العارى بين الحقول الجافة اليابسة لم نكد نتبادل الحديث . كنت سعيدة بركوبى السيارة وسعيدة بالرحلة وسعيدة بالهواء الطلق الذى كان يداعب وجنتى ولم امل قط منظر الريف . كانت تلك هى المرة الثانية أو الثالثة فى حياتى التى أقوم فيها برحلة بالسيارة وكاد يساورنى الخوف من أن يفوتنى شيء . فكنت أفتح عيني محاولة أن أرى اكبر عدد ممكن من الاشياء : اكوام الدريس وبيوت المزارع والاشجار والحقول والتلال والغابات دون أن أنسى طوال الوقت أن شهورا ولعل أعواما تمر قبل أن أتمكن من القيام برحلة أخرى كهذه وأنه ينبغى أن احفظ كل التفاصيل عن ظهر قلب حتى تعيها ذاكرتى كاملة كلما أردت استعادتها . ولكن أستاريتا الذى كان يحس متصلبا على مسافة صغيرة منى بدأ أنه لا يرى شيئا سواى . فان نظرتة العريضة المشتاقة لم تفارق قط وجهى وقوامى . وكنت أحس وكأن نظرتة اصبع لا تفتأ تلمسنى هنا وهناك . ولا أزعج ان هذا الاهتمام كان

يضايقتني ولكنه بلا شك لم يفتأ يحيرني . فاحسست بنفسى شدينا
فسيئا مرغمة على أن أعيره بعض التباهى وأن أحدث إليه . كان
يجلس واضعا يديه على ركبتيه وكان يضع فى إحدى يديه خاتم الزواج
وخاتما ماسيا آخر .

فهتفت قائلة فى ارتباك . « ما أجمل هذا الخاتم ! »
فخفض عينيه وتأمل الخاتم دون أن يحرك يده قائلا - « انه خاتم
والدى . لقد نزعته من اصبعه عند وفاته . »
فقلت وكأنى اعتذر . « آه ! » ثم أضفت قائلة وانا أشير الى خاتم
الزواج « هل أنت متزوج ؟ »
فأجابنى قائلا فى رضا حزين - « بالطبع - فلى زوجة - وأطفال
- وكل شيء . »

فسألته قائلة فى حياء - « وهل زوجتك جميلة ؟ »
فأجابنى قائلا دون أن يبتسم فى صوت لشد ما كان خفيضا
مشددا وكأنه يقرر حقيقة هامة - « انها ليست فى مثل جمالك . »
ثم حاول بيده التى تحمل الخاتم أن يمسك بيدى ولكننى سحبتها
بعيدا فى الحال .

ثم سألته بغير قصد قائلة - « وهل تقيم معها ؟ »
فأجابنى قائلا - « كلا . انها تقيم فى - » ثم ذكر اسم مدينة
ريفية بعيدة، « بينما أقيم أنا هنا - وحيدا - وأمل أن تأتى لزيارتى . »
فتظاهرت بأننى لم أسمع ما قاله فى لهجة حزينة توشك أن تكون
تشنجية .

وسألته قائلة - « لماذا ؟ الا تحب الاقامة مع زوجتك ؟ »
فقال عابسا - « نحن منفصلان بحكم القانون . فعندما تزوجت
لم اكن اتجاوز سن اليقاعة . وكان ذلك الزواج من تدبير أمى . فأنت
تعلمين كيف يدبرون هذه الامور . فتاة من أسرة طيبة تملك مهرا
كبيرا . ويحدد الابوان كل شيء ثم يتعين الزواج على الابناء - اقيم
مع زوجتى ؟ أتقيمين انت مع امرأة كهذه ؟ » ثم اخرج حافظته من
جيبه وفتحها وناولنى صورة . فرأيت طفلين أسمرين شباحين
بينهم وان كرواميين وقد ارتدبا ملابس بيضاء . كما رأيت امرأة فضيلة
سمراء شاحبة تقاربت عيناها كعيني البومة وارتسم على وجهها
تعبير خبيث كانت تقف خلفها واضعة يديها على كتفيهما . فأعدتها
اليه ودسها فى حافظته .

وتنهت قائلا - « احب أن أقيم معك . »

فقلت فى ارتباك ازاء موقفه الملح الذى لا يتغير - « انت لا تعرفنى

مطلقا . » - « بل أعرفك تمام المعرفة : - فقد ظلمت أعقبك شهرا كاملا .

واعرف عنك كل شىء . »

كان يجلس على مسافة قصيرة منى وهو يخاطبنى باحترام . ولكن مشاعره نشد ما كانت عميقة طوال حديثه حتى أن مقلتيه كادتا تدوران فى محجريهما .

قلت - « انى مخطوبة . »

فقال فى صوت مختنق - « لقد أخبرتنى جيزيلا بذلك . ولا تدعينا نتحدث عن خطيبك . فقيم يهنا ؟ » ثم اتى بيده حركة سريعة مهتزة تدل على عدم اكرائه المصطنع .

فأجبتة قائلة - « انه يهمنى كثيرا . »

فنظر الى قائلا - « ما شد اعجابى بك ! »

- « لقد لاحظت ذلك . »

فردد قائلا - « ما أشد اعجابى بك ! ولعلك لا تدريين مداه . » كان يتحدث كمن فقد صوابه . ولكن جلوسه بعيدا عنى وامتناعه عن محاولة الإمساك بيدي مرة أخرى بعثا فى نفسى الطمأنينة . فقلت - « لاضرير من اعجابك بى »

- « وهل أنت معجبة بى ؟ »

- « كلا . »

فقال لاويا قسماته فى تصعيرة - « انا ثرى . لدى من المال ما يكفل لك السعادة - فان جئت لزيارتى لما أسفت لذلك . » فأجبتة قائلة فى هدوء وفى شىء من الرقة - « لا حاجة بى الى مالك . »

فبدأ انه لم بسمعنى .

ثم قال وهو يتأملنى - « ما أجملك ! »

- « شكرا لك . »

- « عيناك جميلتان »

- « أتظن ذلك ؟ »

- « نعم - وكذلك نمك . انى أبغى تقبيلك . »

- « لماذا تقول لى هذه الأشياء ؟ »

- « أبغى تقبيلك كلك - كل جزء فيك . »

فاحتججت قائلة - « لماذا تحدثنى على هذه الصورة ؟ أنت مخطيء . »

فأنا مخطوبة وسأتزوج بعد شهرين .
فقال - « أرجو أن تصحى عنى . فليشد ما يستعملون أن أقول هذه
الاشياء - هبى أننى لا أحاطبك . »

وسألت قائلة بغية تغيير الموضوع - « هل فيتريو الآن على مسافة
بعيدة ؟ »

- « لقد أوشكنا على الوصول اليها . وسوف نتناول وجبة فى
فيتريو . عدبنى بالجلوس الى جانبى عند الغداء »
فأخذت أضحك لان الحاحه الشديد كان يرضى كبريائى الى حد
بعيد . ثم قلت - « وهو كذلك . »
فأردف قائلا - « اجلسى بجانبى كما تفعلين الآن . اذ يكفينى
عطرك . »

- « انى لا اضع عطرا . »

فقال - « ساهديك قليلا منه . »

وكنا الآن قد بلغنا فيتريو فخفت سرعة السيارة ونحن ندخل
المدينة . وقد لزم ريكاردو وجيزيلا الصمت طوال الرحلة وهما
جالسان أمامنا . ولكن ما ان بدأت السيارة تشق طريقها فى ببطء
خلال الشارع الرئيسى المزدهم حتى استدارت جيزيلا نحونا قائلة :
- « كيف حالكما ؟ أتعقدان اننى لم أركما ؟ »

فلم يتبس أستاريتا بشيء . واحتججت قائلة - « لا يمكن ان
تكونى قد رأيت شيئا . فاننا لم نزد على تبادل الحديث . »
فقلت - « دعك من هذا ! » ولشد ما أدهشنى سلوك جيزيلا
كما ضايقنى الى حد ما التزام أستاريتا الصمت الملح .
فبدأت أتكلم قائلة - « ولكننى أوكد لك - »

فردت قائلة - « دعك من هذا ! ولا داعى للخوف - فلن نشى بك
الى جينو . »

وفى اثناء ذلك كنا قد بلغنا الساحة فغادرنا السيارة وأخذنا نسير
فى الطريق الرئيسى وسط زحام الناس الذين ارتدوا أبهى ملابس يوم
الاحد تحت شمس اكتوبر اللطيفة المشرقة . ولم يفارق أستاريتا
مكانه بجانبى لحظة واحدة . وكانت لاتزال عليه سماء الجدد بل
الحزن فى الوان وقد ارتفع رأسه فى فصلب فوق ياقته العالية بينما
وضع احدى يديه فى جيبه وتدللت الاخرى الى جانبه . وكان يبدو
وكأنه حارسى لارفيقى . أما جيزيلا فكانت على العكس من ذلك لاتفتأ
تضاحك ريكاردو وتمازحه بينما استدار كثير من الناس ليحملقوا

فيينا . ثم دخلنا محلا للحلوى حيث تناولنا شراب « الفيرموت »
ونحن وقوف الى « البار » وفجأة لاحظت أستارينا وهو يتمتم بشيء
مهيدا متوعدا فسألته عما به . فقال في انفعال - « تمة ابله هناك
بالقرب من الباب يحملق فيك . »

فاستدرت ورأيت شابا أشقر نحيل واقفا عند مدخل المقهى ينظر
الى . فقلت في مرح - « ولم لا ؟ فلنفرض انه يتأملنى فعلا ؟ »
- « لن يلبث هذا أن يدفعنى للتوجه اليه وضربه في وجهه . »
فقلت في شيء من الضيق - أنك لو فعلت لما نظرت في وجهك مرة
اخرى ولما قلت لك كلمة واحدة بعد ذلك . فليس من حقك ان تتدخل
- ولا شأنك مطلقا بي . »

فلم ينبس بكلمة بل اتجه الى الخزانة ليدفع ثمن المشروبات .
ثم غادرنا المقهى وواصلنا سيرنا في الطريق الرئيسي حيث أبهجتنى
الشمس والضوضاء وحركة الزحام ووجوه أهل الريف المتوردة التي
تفيض صحة . وعندما بلغنا ساحة صغيرة منعزلة في نهاية أحد
الشوارع المتقاطعة مع الطريق الرئيسي قلت فجأة - « انظروا هناك!
- لو كنت أملك منزلا صغيرا كهذا لفرحت بالإقامة هنا . » ثم أشرت
الى منزل صغير بسيط يتألف من طابقين أمام إحدى الكنائس .
فقلت جزيلا - « حاشا لله ! تخيلي الحياة في الريف وخاصة
في فيتريو ! ان أقبل ذلك حتى لو غمرت بالذهب . »
وعلق ريكاردو قائلا - « أنك لن تلبثي أن تملئى الحياة فيها يا
آدريانا . فإذا ما ألف المرء الحياة في مدينة كبيرة تعذر عليه أن يستقر
في الريف . »

فقلت - « أنك مخطيء تماما . فانه لما يسرنى أن أقيم هنا مع
رجل يحبنى - في شقة تتألف من أربع غرف صغيرة نظيفة ومظلة
وأربع نوافذ - فلن أبغى شيئا أكثر من ذلك . »
ولشد ما كنت مخلصه فيما قلت لاننى تخيلت نفسى مقيمة مع
جينو فى ذلك البيت الصغير فى فيتريو . ثم قلت مستديرة نحو
أستارينا - « ما رأيك ؟ »

فأجابنى قائلا فى صوت خفيض محاولا الا يسمعه أحد غيرى -
« انى أقبل الإقامة معك ؟ »
فقلت جزيلا - « ان مشكلتك يا آدريانا هو أنك لا تطمحين الى
هدف أسمى . ومن يطلب القليل من الحياة لا يحصل على شيء . »
فاعترضت قائلة - « ولكننى لا أبغى شيئا . »

فقال ريكاردو - « انك تبغين الزواج بيجينو . »
- « نعم . ذلك هو ما ابغيت حقا . »
والآن كان الوقت قد تأخر وأخذ الطريق الرئيسي يقفر من الناس
عندما دخلنا المطعم . وكانت غرفة الطابق الارضى قد ازدحم معظمها
بالفلاحين فى أبهى ملابس يوم الاحد وقد جاؤا متسوقين الى فيتريو .
فرفعت جيزيلا أنفها الى أعلى قائلة ان الرائحة العفنة المنبعثة من
الغرفة خليقة بأن تذهب الانفاس وسألت المدير عما اذا كان يمكننا
ان نصعد الى الطابق الثانى لتناول الطعام . فوافق على ذلك وقادنا
الى غرفة ضيقة ممتدة بها نافذة واحدة تطل على شارع جانبي .
فتفتح المصراعين الخشبيين واغلق النافذة ثم وضع مفرشا على المائدة
الخشبية التى كانت تشغل معظم الغرفة . واذكر ان المجدران كانت
مكسوة بورق الحائط الذى كان باهتا وممزقا فى بعض الاماكن يعلوه
زخرف من الزهور والطيور . ولم يكن هناك بالاضافة الى المائدة
سوى خزانة صغيرة ذات واجهة زجاجية ملئت بالصحاف .

وفى اثناء ذلك كانت جيزيلا تجوب أرجاء الغرفة فاحصة كل شئ
كما تطلعت من خلال النافذة المطلة على الشارع الجانبى . واخيرا
دفعت بابا كان من الواضح انه يفضى الى غرفة أخرى وما ان اختلست
النظر الى الداخل حتى استدارت نحو صاحب المحل وسألته عن
كنه تلك الغرفة بلهجة تدل على عدم اكرامها المتكلف .
فقال - « انها غرفة للنوم . فان شاء احدكم ان يستريح قليلا
بعد الفداء . »

فقال ريكاردو بضحكته السخيفة - « اننا سنأخذ قسطا من
الراحة يا جيزيلا . أليس كذلك ؟ » ولكن جيزيلا تظاهرت بأنها
لم تسمع شيئا . وبعد أن اختلست النظر الى داخل الغرفة مرة
أخرى جذبت الباب بعناية ولكنها لم تغلقه تماما .

وقد ابهجتنى غرفة الطعام الصغيرة المريحة حتى اننى لم أعد أفكر
فى الباب الموارب وفى نظرة التفاهم التى خيل لى أن جيزيلا وآستاريتا
قد تبادلاها . فجلسنا الى المائدة وجلس آستاريتا الى جانبى كما
وعدته ولكنه بدا وكأنه لم يلاحظ ذلك . فلستد ما كان مستغرقا فى
التفكير حتى انه لم يستطع الكلام . وبعد فترة وجيزة عاد صاحب
المحل حاملا فواتح الشهية والنبيذ . ولشد ما كنت جائعة فانكببت
على الطعام على صورة اضحكت الآخرين منى . فانتهزت جيزيلا
الفرصة للبدء فى مشاكساتها المعهودة بصدد زواجى قائلة :

« هيا اصمى . فلن تتناولى مع جينو كل هذا الطعام ولا مثل هذا الصنف الجيد . »

www.Library4arab.com/vb

« اتراهنين أنك ستأكلين الفول كل يوم ! ؟ »

ضحك ريكاردو قائلا - « وما عيب الفول ؟ بل انى فى الواقع سأطلب تليلا منه فى الحال . »

فلردفت جيزيلا قائلة - « انت حمقاء يا آدريانا . أنك فى حاجة الى رجل موسر . رجل مهذب يحسن التصرف ويرعاك ولا يرغبك على التخلي عما تحتاجين اليه من أشياء ويمكنك من ابراز جمالك . فاذا بك بدلا من ذلك ترتبين أمور حياتك مع جينو . »

فلزمت الصمت العنيد حانية رأسى على صحفتى بينما لم افتأ اتناول طعامى . فضحك ريكاردو قائلا - « لو اننى فى مكان آدريانا لما تخليت عن شىء . لا عن جينو ما دامت تحبه الى هذا الحد ولا عن ذلك الشخص العجاذ فى نواياه بل لأرتببت بكليهما - وربما لم يعترض جينو على ذلك الوضع . »

فأسرعت قائلة - « بل يعترض . كما أنه لو علم بذهابى معكم اليوم فى هذه الرحلة لفسح الخطبة . »

فسألتنى جيزيلا قائلة فى ازدراء - « ولماذا ؟ »

- « لانه لا يريدنى أن أراك . »

فقالت جيزيلا فى غضب شديد - « يا له من فاشل قدر مفلس جاهل ! انى أود أن أثبت ذلك . . أن أذهب اليه قائلة : ان آدريانا ما زالت تلقانى . ولقد أمضت معى النهار كله اليوم . فلتفسخ خطبتها الان ! »

فنوسلت اليها فى ذعر قائلة - « كلا . أرجوك ! لا تفعلى هذا - »

- « هذا هو خير ما يمكن أن يحدث لك . »

فنوسلت اليها مرة أخرى قائلة - « ربما . ولكن لا تفعلى هذا . ان كنت تحبيننى ولا تفعلى هذا . »

لم يتبس أستاريتا بشىء اثناء ذلك الحوار ولم يكد يتناول لقمة . بل ظل طوال الوقت مركزا عينيه على فى تعبير بأسر حافل بالمعاني مبالغ فيها حتى انه لم يلاحظ الحيرة والارتباك . ولقد

أردت أن أطلب اليه الا يحملق فى على تلك الصورة ولكننى خشيت سخريه جيزيلا وريكاردو . ولنفس السبب لم أجرؤ على الاحتجاج عندما انتهز أستاريتا الفرصة ليضغط على يدي اليسرى التى كنت

أضعها على المقعد أثناء جلوسنا فأرغمني على تناول طعامي بيد واحدة فقط . ولكنه كان يبغى على أن أحتج لأن جيزيلا انفجرت فجأة ضاحكة وهي تقول - « ما أشد اخلاصها لجينو فيما تقول ! اما الافعال - ! أتحسبيني لا أراك أنت وأستاريتا متماسكين بالأيدي تحت المائدة ؟ »

فتضرج وجهي بحمرة الخجل وقد انتابني الارتباك وحاولت أن أخلص يدي ولكن أستاريتا ظل قابضا عليها بقوة . فقال ريكاردو - « دعيهما وشأنهما . فماذا يضيرنا من ذلك ؟ اذا كانا يتماسكان بالأيدي فلنخذ حذوهما . » فقالت جيزيلا - « هذه دعاية . فأنا لا أبالي . بل انه ليسرني ذلك . »

وعندما فرغنا من تناول المكرونة ظللنا ننتظر اللون التالي . وفي اثناء ذلك لم يفتأ ريكاردو وجيزيلا يتضحكان ويتمازحان ويتساقيان كما ظلا يسقيانني . وكان نبينا أحمر جيدا وقويا للغاية لم يلبث أن صعد الى رأسي . ولقد أعجبت بمذاقه الدافئ اللاذع . ولم أشعر مطلقا بالسكر وأنا في تلك الحال من النشوة بل أحسست بالقدرة على سواصلة الشراب الى ما لا نهاية . وظل أستاريتا ممسكا بيدي وقد ارتسم على وجهه الجد والإستفراق . ولم أعد الان أعترض على ذلك قائلة لنفسى أنه يمكنه على الاقل أن يمسك بيدي رغم كل شيء . وكانت هناك صورة زيتية معلقة على الباب تمثل رجلا وامرأة يرتديان زيا مضى على عهده خمسون عاما وكانا يتعانقان بطريقة مرتبكة مصطنعة في شرفة تكسوها الورود . فلمحتها جيزيلا وقالت انها لا تستطيع أن تتخيل كيف يمكنهما التقبيل وهما في ذلك الوضع . ثم قالت لريكاردو - « دعنا نحاول . فلنر ان كنا نستطيع محاكاتهما . » فوقف ريكاردو صاحكا واتخذ موقف الرجل المائل في الصورة الزيتية بينما اتكأت جيزيلا على المائدة وهي ضاحكة أيضا متخذة موقف المرأة المائلة في الصورة وهي تتكئ على جانب الشرفة المغطى بالورود . وقد استطاعا بعد مجهود حبار أن يضمنا شفاهما معا ولكنهما في نفس اللحظة تقريبا فقد توازئتهما وأسقطتا معا على المائدة . ثم قالت جيزيلا وقد أثارها المزاح - « والآن جاء دوركما ! » فسألت منعوردة - « لماذا ؟ وما شأنى بهذا ؟ » « هيا . فلا بد أن تحاولي . »

وأحسست بأستاريتا يحيط خصري بذراعه فحاولت أن أتملص

منه قائلة « انى لا أبغى ذلك » . . . فقالت جيزيلا - « اف . يا لك من

مفسدة للهو ! ما هى الإدعابة . »
كان ريكاردر يضحك حائا أستاريتا على تقبيلى قائلا - « اذا لم
تقبلها يا أستاريتا فلن أرى وجهك بعد اليوم . » ولكن أستاريتا كان
جادا يكاد يفزعنى . فمن الواضح ان الامر فى نظره كان أكثر من
دعابة .

فقلت مشيحة بوجهى بعيدة عنه - « دعنى وشأنى . »

فنظر الى ثم رمق جيزيلا وفى عينيه تساؤل كمن يتوقع ان تحثه .
فهتفت جيزيلا قائلة : - « هيا يا أستاريتا ! » كانت تبدو أشد منه
حماسة على صورة أمكنتنى فى غموض أن ألكهن بقسوتها وخلوها من
الرحمة .

فشدد أستاريتا من احاطته بخصرى وهو يجذبنى نحوه . وان
لم يعد الامر دعابة فقد أراد أن يقبلنى مهما كان الثمن . وحاولت أن
أتخلص من قبضته دون أن أنبس بكلمة ولكنه كان قويا للغاية . وكما
دفعته ييدى بعيدا عنى زاد احساسى باقتراب وجهه من وجهى رويدا
رويدا . ومع ذلك فقد كان من المحتمل ألا يتمكن من تقبيلى لولا تدخل
جيزيلا التى خفت لمساعدته فقد نهضت فجأة وهى تطلق صيحة النصر
وجاءت راكضة من خلف ظهري حيث أمسكت بذراعى وجذبتهما
الى الوراء . وكنت لا أراها ولكننى احسست بتصميمها العنيد من
الطريقة التى غرزت بها أظافرها فى بدنى ومن نبرات صوتها الذى لم
لم يفسأ يردد قائلا بنغمة منفعلة قاسية مهتزة تتخلله انفجارات من
الضحك - « أسرع . أسرع يا أستاريتا ! فما قد حانت فرصتك ! »
والان كان أستاريتا قد أطبق على . فحاولت جهد طاقتى أن أشيح
بوجهى بعيدا عنه . وهذا هو كل ما كان يسعنى أن أفعل . ولكنه
بيد واحدة أمسك بذقنى وأدار وجهى نحوه بقوة ثم قبل فمى قبلة
عنيفة طويلة .

فقال جيزيلا بلهجة المنتصر - « ها قد تم ما كنت أبغى ! » ثم

عادت لتجلس فى مكانها فرحة مسرورة .
وأطلق أستاريتا سراخى . فقلت وأنا أصر بالضييق والأسياء -
لن أخرج معكم مرة أخرى .

فقال ريكاردر ساخرا متى - « ما هذا يا أدريانا ؟! كل ذلك

أجل قبلة واحدة ! »

ثم صاحت جيزيلا قائلة فى نشوة - « لقد اكتسى وجه أستاريتا بأحمر الشفاه ! ماذا يقول حينو لو دخل علينا الان ؟ »
وكان فم أستاريتا ملوئا حقا بأحمر الشفاه . فبدأت تضحك وقد ارتسم عبر وجهه الحزين الشاحب خط قرمزى . قالت جيزيلا - « هيا فلتتصافيا - ولتمسحى له أحمر الشفاه بمنديلك . والا فماذا يظن بنا النادل عندما يأتى ؟ »

وكان على أن أصلح ما فسد فبللت طرف منديلي بلسانى وأخذت أمسح تدريجيا أحمر الشفاه عن وجه أستاريتا الحزين . ولكننى أخطأت باظهارى مدى هدوئى وعدم اضطرابى لاننى لم أكد أبعد منديلي حتى أحاط خصرى بذراعاه فى الحال . فقلت - « دعنى أذهب . »

« ماذا بك يا أدريانا ؟ ! »

فقلت جيزيلا - « وأى فرق هناك ان كان ذلك يعجبه ولا يضرك فى شىء ؟ وعلى أية حال فقد قبلك . فلتدعيه يفعل ما يشاء . »
فأذعنت مرة أخرى ومكثنا متجاورين وقد وضع ذراعه حول خصرى بينما جلست أنا هناك على مضمض متصلبة . وجاء النادل حاملا اللون الثانى من الطعام . وأخذ سخطى يزألنى شيئا فشيئا اثناء تناولى الطعام رغم أن أستاريتا كان يضمنى اليه بقوة . ولشد ما كان الطعام سائغا فشربت كل ماكانت تصبه لى جيزيلا من نبيذ دون أن ألحظ ذلك . وبعد أن انتهينا من تناول اللون الثانى اكلنا الفاكهة والحلوى الفاخرة . ولم أكن فى حيايتى قد ألقت مثل هذه الاشياء ولذلك فانى لم استطع الاعتراض عندما قدم الى أستاريتا نصيبه من الحلوى والتهمته ايضا . ثم بدأت جيزيلا تستميل ريكاردو بشتى الطرق وكانت هى أيضا قد جرعت كمية كبيرة من النبيذ فأخذت تضع له فصوص اليوسفى فى فمه وتمنحه قبلة مع كل فص . وأحسست بالنشوة على صورة محببة . ولم تعد تضايقنى ذراع أستاريتا المحيطة بخصرى . ثم نهضت جيزيلا وكانت فى كل لحظة تزداد قلقا واضطرابا وذهبت لتجلس على ركة ريكاردو . فلم أتمالك نفسى من الضحك عندما سمعت ريكاردو وهو يتظاهر بالصياح فى ألم وكأنه يزرع تحت ثقل جيزيلا . وإذا بأستاريتا الذى كان قائما بوضع ذراعه حول خصرى ولم تبدر منه حركة حتى تلك اللحظة يأخذ فى تقبيل عنقى وصدرى ووجنتى وهو لاهث الانفاس . وعندئذ لم احتج أولا لاننى كنت فى حال من النشوة لا تسمح لى

بمقاومته وثانياً لانه بدا لى وكأنه يقبل شخصا آخر . فلم اكد اشاركه فيما يفعل بل ظلت ساكنة متصلبة كالتمثال . وقد خيل لى وانا على تلك الحال من النشوة انى واقفة خارج نرسى فى احدى زوايا الغرفة اشاهد فى غير اكرات رغبة استاريتا العارمة وكأنى لا أعدو ان اكون مشاهدة دفعها الفضول . ولكن الاخرين حسبوا عدم اكراتى حبا فصاحت جيزيلا قائلة - « احسنت صنعا يا ادريانا - فهذه هى الطريقة ! »

وأردت ان اجيب ولكننى عدلت عن ذلك لسبب لا ادريه ثم قلت بصوت واضح مدو وانا ارفع قدحى مملوءاً بالنبيذ - « لقد سكرت ! » وفى جرعة واحدة افرغت القدح فى جوفى . واعتقد ان الاخرين صفقوا لى . ولكن استاريتا توقف عن تقبيلى ثم تتمم قائلاً لى وقد ركز عينيه على : - « فلنمض الى الغرفة الاخرى »

فتابعت عينيه ورأيت انه كان ينظر الى باب الغرفة المجاورة وكان موارباً . فخيل لى انه لا بد ان يكون مخموراً ايضاً . فأومأت برأسى معبرة عن رفضى ولكن فى رقة تكاد تبلغ حد الغزل . فردد قائلاً كما يفعل النائم - « فلنمض الى الغرفة المجاورة » ولاحظت ان جيزيلا وريكاردو قد توقفوا عن الضحك والثرثرة واخذوا يراقبان حديثنا .

وقالت جيزيلا - « هيا ! وماذا فى ذلك ؟! ماذا تنتظران ؟ » فأفقت من سكرى فى الحال . فلاشك انى كنت مخمورة ولكننى لم ابلغ الحد الذى يجعلنى غافلة عما يتهددنى من خطر . وقلت - « انى لا ابغى ذلك . » ثم نهضت واقفة .

فنهض استاريتا ايضاً ثم قبض على احدى ذراعى وحاول ان يجذبنى نحو الباب . اما الاخران فأخذوا يحثانه من جديد قائلين - « هيا يا استاريتا ! »

وكان استاريتا قد سحبنى قرب الباب رغم مقاومتى اياه . ثم تخلصت منه بحركة مفاجئة وركضت نحو الباب المؤدى الى الدرج . ولكن جيزيلا كانت اسرع منى اليه وصاحت قائلة : - « لا ياعزيزتى . لن تفعل ذلك ! » فقد قفزت من فوق ركبتى ريكاردو وجرت لتوصد الباب قبل ان اتكن من الوصول اليه ثم اخذت المفتاح . رددت قائلة فى رعب وانا واقفة بجانب المائدة - « انى لا ابغى ذلك . »

فسألنى ريكاردو قائلاً - « وفيم يمكن ان يضرك ذلك ؟ »

وقالت جيزيلا فى خشونة وهى تدفعنى نحو استاريتا - يالك من يلهاء! ما كل هذه الضجة؟ - هيا امضى الان : « ادركت ان جيزيلا رغم قسوتها واصرارها لم تكن تفهم ما هيا فاعلة - فلا بد ان الخطة التى وضعتها من اجلى كانت تبدو لها غاية فى الذكاء والترفيه على صورة تبعث على السرور . كما ادهشنى ابتهاج ريكاردو وعدم اكراته وكنت اعهدده رحيماً رقيقاً غير خليق بارتكاب ما يراه خبيثاً .

وردت قائلة - « انى لا ابغى ذلك . »

فسألنى ريكاردو قائلاً - « لم لا ؟ فليس فى ذلك من اذى . »

ولم تفتأ جيزيلا تدفعنى فى حماس وانفعال قائلة : « - « لم اكن اتخيل انك على هذا القدر من الفباوة . هيا يا آدرينا .

ماذا تنتظرين ؟ »

وظل استاريتا حتى تلك اللحظة صامتاً لا ينطق بكلمة بل كان يقف ساكناً بالقرب من باب غرفة النوم محملاً فى . ثم رايتة يفتح فاه كمن يريد ان يتكلم . فقال فى صوت بطيء مختنق وكان الالفاظ ذات معدن لزج مما يتعذر معه ان ينطق بها - « هيا والا ابلفت جينو أنك خرجت معنا اليوم وسمحت لى بمضاجعتك . »

وادركت فى الحال انه بلا ريب سوف ينفذ وعيده . فالالفاظ نفسها يمكن الشك فيها . اما نغمة الصوت فقلما يخطئها السامع . فما من شك فى انه كان ينوى ان يخبر جينو وكان ذلك يعنى بهاية حياتى قبل ان ابدأها فعلاً . واليوم عندما افكر فيما حدث اعتقد انه كان يمكننى ان اقاومه . فلو اننى صرخت او قاومته بعنف لاقنعته بان تهديده اياى كان كانتقامه منى لا تأثير له على . ولكن ربما كان ذلك لا يجدينى لان رغبته فى كانت أقوى من نفورى . عندئذ بالطبع أحسست اننى غلبت على امرى تماماً ولم يتجه تفكيرى الى مقاومته بقدر ما اتجه الى تجنب الفضيحة . فوجدت نفسى متورطة فى ذلك الموقف دون أدنى استعداد له بينما امتلأ ذهنى للمستقبل بالخطط التى لشد ما كنت أرغب فى تنفيذها . وفى اعتقادى ان ما وقع لى وقتذاك بمثل هذه الطريقة الفظة لابد ان يحدث لكل من له مثل نظامى الربية المتواضعة المشروعة . فالعالم يقبض علينا من خلال مطامحننا ثم يرغمنا ان عاجلاً او آجلاً على دفع ثمن مؤلم باهظ - ذلك الثمن الذى لا يأمل ان يعفى منه سوى طريدى المجتمع واولئك الذين نفضوا ايديهم من كل شىء .

ولكننى فى نفس اللحظة التى ارتضيت فيها مصرى خالجنى احساس
بالالم حاد مضى . فثمة وميض من البصيرة بدا وكأنه يضىء لى
طريق المستقبل بأسره فيكشفه واضحا مستقيما أمام عيني - ذلك
الطريق الذى لشد ما كان يبدو مظلمًا ملوئًا . وقد أظهر لى فى تلك
اللحظة ما سافقده فى مقابل صمت أستاريتا ، فاغزورت عيناي
بالدموع وبدات أبكى واضعة ذراعى على وجهى . وأدركت أن بكائى
لم يكن تمردا أو عصيانا بل استسلاما مطلقا . وفى الواقع فان ساقى
كانتا تحملاننى نحو أستاريتا بينما تنهمر الدموع من عيني . ودفعتنى
جيزيلا من ذراعى مرددة - « فيم البكاء ؟ انه ليخيل لكُل من يراك
أنك تفعلين ذلك لأول مرة ! » فسمعت ريكاردو وهو يضحك .
واحسست بعيني أستاريتا دون أن أراه وهما مسلطان على أثناء
سيرى نحوه فى بطاء والدموع تنهمر من عيني . ثم أحسست به وهو
يحيط خصرى بذراعه ويفلق باب الغرفة من خلفى .

ولم اشأ أن أرى شيئا بل لقد بدا لى أن احساسى يفوق قدرتى
على الاحتمال . ولهذا فقد ظلت واضعة ذراعى على عيني فى عناد
رغم محاولة أستاريتا أن يجذبهما بعيدا . وأنى اعتقد أنه شاء أن يحذو
حذو العشاق جميعا فى مثل هذه المناسبات أى أن يستميلنى الى
رغباته شيئا فشيئا وعلى غير وعى منى تقريبا . ولكن اصرارى على
عدم رفع ذراعى عن وجهى ارغمه على أن يكون أكثر عجلة ووحشية
مما يريد . وهكذا فبعد أن أجلسنى على حافة الفراش وحاول عبثا
أن يستميلنى بقبلاته وعناقه دفعنى الى الخلف على الوسائد وألقى
بنفسه على . وكان جسدى كله من الخصر حتى قدمى ثقيلًا جامدا
كالرصاص الى حد أننى اعتقد أنه مامن مضاجعة قبلت قط من جانب
امراة بمثل ما كانت عليه من سلبية واستسلام ولكننى ما لبثت أن
توقفت عن البكاء . وما ان رقد على صدرى لاهث الانفاس حتى أبعدت
ذراعى عن وجهى ورحت أحملق فى الظلام .

وانى اعتقد عن اقتناع أن أستاريتا حينذاك كان يحبنى بقدر
مايمكن أن يحب رجل امراة حبا يزيد بكثير عما يظهره لى جينو -
فانى أذكر أنه لم يتمالك نفسه من أن يمر بيده مرارا وتكرارا على
جبهتى ووجنتى بحركة عاطفية تشنجية مرتجفا من أعلى رأسه الى
أخصر قدميه وهو لا يفتأ يهتف بكلمات الحب . ولكن عيني كانتا
مفتوحتين على سعتهما وقد جفت فيهما الدموع كما شاع فى رأسى
الآن بعد أن انجابت عنه أبخرة النييد صفاء ثلجى دوام . وتركت

آستاريتا يدغدغنى ويحدثنى بينما لم أفتأ أتابع خواطرى الخاصة .
فترأت لى مرة أخرى غرفة نومى كما رتبتهأ وبها أثاثها الجديد الذى
لم أنه بعد من دفع ثمنه فأحسست بلون من العزاء المرير . وقلت
لنفسى انه لايمكن الآن أن يحول شىء بينى وبين الزواج أو بينى وبين
الحياة التى أبغيتها . ولكننى فى نفس الوقت احسست بروحى وقد
تغيرت تغيرا كاملا فقد حل محل آمالى الفضة الساذجة فى وقت ما
يقين جديد وتصميم أكيد . وفجأة احسست اننى أقوى بكثير مما
كنت رغم أنها قوة حزينة خالية من الحب .
وأخيرا قلت متحدثة لأول مرة منذ دخولنا غرفة النوم - « لقد
حان الوقت للعودة الى الغرفة الأخرى . »
فسألنى فى الحال قائلا فى صوت خفيض - « هل أنت غاضبة منى؟ »
- « كلا . »

- « أكرهينى ؟ »

- « كلا . »

فتمتم قائلا - « لشد ما أحبك . » وفى عاصفة من الحماس بدأ
مرة أخرى يغطى وجهى وعنقى بقبل عاطفية سريعة . فتركته يفعل
ما يشاء ثم قلت - « نعم . ولكننا يجب أن نذهب . »
فأجابنى قائلا - « انك على حق . » ثم ابتعد عنى فجأة وأخذ
يرتدى ملابسه فيما أظن . فأصلحت من هندامى بقدر امكانى
ثم نهضت وأضأت المصباح المعلق فوق الفراش . وفى ذلك الضوء
الاصفر بدت الغرفة تماما كما أوحى بها رائحتها الخائقة المعطرة
باللافندر : فكان سقفها خفيضا طليت عروقه الخشبية بالجير
واكتست جدران الغرفة بورق فرنسى الصنع وكان الاثاث قديما
ثقيلاً . وفى احدى زوايا الغرفة كانت هناك مفسلة تعلوها رخامة
وضع عليها ابريقان وحوضان وقد نقش عليها جميعا باللونين الاخضر
والاحمر زخرف من الزهور . كما وضعت مرآة كبيرة فى إطار ذهبى .
فاتجهت الى المغسلة حيث صببت قليلا من الماء فى الحوض ثم غمست
فيه طرف المنشفة ومسحت على شفتى المكدومتين بقبل آستاريتا
وعلى عينى اللتين مازالتا محمرتين من أثر البكاء . وانعكست على
سطح المرآة اللامع المخلوش صورة امرأة لى فتاملتها لحظة كالسحورة
وقد امتلأ قلبى بالشفقة والعجب . ثم استجمعت شجاعتى ونسقت
شعرى بيدي بقدر امكانى واستدردت نحو آستاريتا وكان ينتظرنى
عند الباب . وما ان رأى أننى على استعداد للخروج حتى فتحه

متجنباً عيني ومديراً ظهره نحوي . فاطفات الضوء وتبعته الى الخارج
وقبولنا بتحيةة مرحة من جيزيلا وريكاردو اللذين كانا كما تركناهما
يراصلان جالستهما بنفس الطريقة المتبعة في العائنة . لقد عجزا
من قبل عن فهم مدى اضطرابي كما عجزا الآن تماماً عن ادراك ما كنت
فيه من صفاء .

وصاحت جيزيلا قائلة - « ما أبرعك في ادعاء البراءة ! فأنت لا تبغين
ذلك . لا تبغين ذلك ولكنك فيما أرى سرعان ما أنجزت المهمة بمهارة
فائقة . وعلى أية حال فلا بأس ان شئت من أن أتحمل وزرك ...
ولكن الامر لم يكن يستحق أن تثيري حوله كل هذه الضجة »
فنظرت اليها وقد بدا لي من الظلم الصارخ أن تكون هي التي حثتني
على الازعان بل ان تكون هي التي أمسكت بنداعي حتى يتيسر لاستاريتا
أن يقبلني ثم تلومني الآن لرضاي .

فعلق ريكاردو قائلاً بمنطقه اللفظ - « انك لست منطقية في تفكيرك
يا جيزيلا . فأنت تحثينها في اول الامر - ثم تبدين الآن وكأنك تأخذين
عليها ما فعلت . »

فأجابت جيزيلا قائلة في قسوة - « بالطبع . فلشد ما يعظم خطؤها
لو أنها لم تبغ ذلك . فأنا عن نفسي لا يستطيع شيء في الوجود ولا
حتى القوة أن يخضعني اذا لم تكن لدى الرغبة . » ثم أضافت قائلة
وهي تنظر الى في نفور وسخط - « ولكنها كانت تبغى ذلك . تبغى
ذلك . وكيف ! - لقد شاهدتهما في السيارة ونحن في الطريق الى
فيتريو . لذلك ما كان ينبغي أن تثير كل هذه الضجة . هذا
هو رأيي . »

فلم أنبس بكلمة لاجبابي الشديد الذي كاد يذهلني بخلوص
قسوتها اللاواعية التي لا تعرف الشفقة . واقترب مني أستاريتا
محاولاً في ارتباك أن يمسك يدي . ولكنني أبعدته عنى وذهبت لاجلس
عند طرف المائدة . فهتف ريكاردو قائلاً - « انظروا الى أستاريتا !
فهو يبدو وكأنه عائد لتوه من تشييع جنازة ! »

وفي الواقع فان أستاريتا بكل ما كان يرتسم على وجهه من كآبة
ومهابة بدا وكأنه يفهمني أكثر من الآخرين . اذ قال - « انكما

تسخران من كل شيء . »
فصاحت جيزيلا قائلة - « أظن أننا يجب أن نجهدنا بالبكاء .
والآن عليكما أن تجلسا عاطلين في انتظارنا كما فعلنا . فقد جاء دورنا
والآن . هيا ياريكاردو ! »

فقال ريكاردو وهو ينهض لاتباعها - « خذا حذركما . » ومن

الواضح انه كان مخمورا ولم يكن يدري هو نفسه ماذا ينبغي ان نحذر

« هيا بنا هيا ! »
ثم غادرا الغرفة ومكثنا وحدنا انا وأستاريتا . وكان كل منا

يجلس الى احد طرفي المائدة . وقد تسلسل شعاع من الشمس خلال

النافذة فسطع على الاواني الخزفية المبعثرة وقشر الفاكهة وأقداح

النبيد التي لم يفرغ الا نصفها والشوك والسكاكين القذرة . أما تعبير

أستاريتا فقد ظل حزينا مفتما رغم أن الشمس كانت تسطع مباشرة

في وجهه . ولم تزل تبدو في عينيه (بعد أن هدأت رغبته)

نظرة الحماس العاطفي الممض التي كانت تتجلى في عينيه

عند بدء تعارفنا . وعندئذ أحسست بالاسف له رغم ما الحقه بي

من أذى . فقد أدركت أنه كان تعسا قبل أن ينال منى مأربه ولكن

تعاسته الآن بعد أن تم كل شيء لم تنقص عن ذي قبل . فقد كان

يعانى من قبل لرغبته في وصار يعانى الان لاننى لم أبادله الحب .

ولكن الشفقة هي ألد عدو للحب . فلو أننى كرهته لراوده الامل في

أن أحبه يوما ما . ولكننى لم أشعر نحوه بالكراهية . ولما كنت

أحس بالاسف له كما قلت فقد تأكدت من أننى لن أشعر نحوه بشيء

سوى النفور البارد العزوف .

وجلسنا هناك فترة طويلة في الغرفة المشمسة في انتظار عودة

جيزيلا وريكاردو . ولم يتوقف أستاريتا لحظة عن التدخين وهو

لا يفتأ يتأملنى بنظرة صريحة من خلال سحب الدخان التي أحاطت به

كمن يريد أن يقول شيئا ولكنه لا يجرؤ عليه . كنت أجلس الى المائدة

جلسة جانبية عاقدة ساقى وقد خلا قلبى الا من الرغبة في الهرب . كنت

لا أشعر بالتعب أو الخجل من نفسى . بل كان كل ما أبقيه هو أن

أخلو الى نفسى وأفكر فيما حدث في أناة وتريث . وكان حينى الى

الهرب تتخلله من وقت لآخر أشياء سخيفة كنت لا افتأ الأخطا -

كاللؤلؤة المثبتة في مشبك رباط عنق أستاريتا وزخرف الورق الذي

يكسو الحائط وذبابة كانت تدور حول حافة احد الاقداح وقطرة

صغيرة من صلص الطماطم لوثت قميصى أثناء تناولى الطعام . فضقت

بنفسى لعدم قدرتى على التفكير فيما هو أهم من ذلك . ولكننى

أفدت بعض الشيء من تنامى خواطرى عندما سألنى أستاريتا بعد

فترة صمت طويلة متقلبا على خجله قائلا في صوت مخنوق - « قيم

تفكرين ؟ » فتربشت لحظة ثم قلت فى بساطة - « لقد قصف أحد

أظافرى ولا أستطيع أن أتذكر متى أو كيف حدث ذلك . » ولقد

صدقته القول . ولكنه رمانى بنظرة مريرة غير مصدقة . ومنذ تلك اللحظة لم يحاول قط أن يتحدث الى .

وأخيراً عاد ريكاردو وجيزيلا في الوقت المناسب وقد بدأ عليهما شى من الارهاق ولكن مرحهما وهدوءهما لم يتفيرا عن ذى قبل . وقد أدهشهما ما كنا فيه من صمت ورزانة . ولكن الوقت الآن كان قد تأخر كما عراهما شىء من الهدوء على اثر المضاجعة التى لشد ما اختلف تأثيرها عليهما . فقد صارت جيزيلا اكثر عطفا على ولم تعد تظهر اضطرابها وقسوتها اللذين كشفت عنهما قبل ضربة آستاريتا المنذرة المهدة وبعدها . وكذت أعتقد أن تهديده اياى قد اضى على علاقتها المملة بريكاردو لونا جديدا من الاثارة الجنسية فأحاطت خصرى بذراعها أثناء هبوطنا الدرج الى الطابق الارضى وهمست فى أذنى قائلة - « لماذا يبدو عليك كل هذا الانزعاج ؟ اذا كنت قلقة بصدد جينو فلا داعى لذلك - فأنا وريكاردو لن نذكر شيئا لاحد »

فكذبت قائلة - « انى متعبة . » فأنا لا أستطيع العبوس كما أن احاطتها خصرى بذراعها كانت خليقة بأن تزيل استيائى . واجابت قائلة - « وكذلك أنا . فانى لم افتأ أواجه الريح طوال الطريق الى هنا . » ثم مالبت أن قالت أثناء وقوفنا على عتبة باب المطعم بينما اتجه الرجلان صوب السيارة . - « انك لست غاضبة منى بسبب ماحدث ؟ »

فأجبت قائلة - « كلا مطلقا . فما شأنك بذلك ؟ » لقد شاءت أيضا أن تتأكد من اننى لست غاضبة منها بعد أن أرضت قدر امكانها بخطتها الصغيرة التى حاكتها لى شتى نزواتها . وأحسست انى صرت أفهمها أكثر مما ينبغى . ولهذا كنت أتوق الى تبديد وساوسها جميعا والى اظهار العطف نحوها خشية أن تفضب لو أدركت أننى أفهمها . فاستدرت نحوها وقبلتها على وجنتيها قائلة - « ولماذا أغضب منك ؟ فانك كنت دائما تقولين لى اننى يجب أن أتخلى عن جينو واتخذ من آستاريتا عشيقا . »

فأمنت على قولى مؤكدة - « هذه هى الحقيقة . ومازلت أرى ذلك . ولكننى أخشى أنك لن تصفحى عنى »

لقد بدأ عليها القلق . كما كنت - خشية أن تكتشف حقيقة شعورى - أكثر منها قلقا وكأنه قد انتقل الى عن طريق عدوى غريبة فأجبتها قائلة فى بساطة - « من الواضح أنك لا تعرفيننى على حقيقتى . فأنا أعلم أنك تريدننى أن أترك جينو وذلك لانك تحبيننى

وتأسفين لانى لا أسعى جهدى الى ما فيه مصلحتى . « ثم أضفت أذوبة اخرى قائلة - « بل بعدنى أن أقول لك ربما كنت على حق . » فبدأ عليها الاطمئنان . وأمسكت بي من ذراعى قائلة فى لهجة حوار ولكنها كانت فى نفس الوقت بطيئة مؤتمنة - « يجب أن تفهمى ما أعنيه . فانه لما يناسبك أن تتخذى من أستاريتا أو أى شخص آخر عشيقا لك . . عدا جينو ! فليتك تعلمين كم يكدرنى أن أرى حسناء مثلك تبدد جمالها ! سلى ريكاردو . ثانى لا أفتأ أحادثه عنك طوال النهار . « وصارت الآن تتحدث الى دون ارتيباك كما اعتادت أن تفعل . ولقد حرصت على أن أوافقها على كل ما تقول . وهكذا بلغنا السيارة حيث اتخذنا نفس الاماكن التى جئنا فيها . وعندئذ تحركت بنا .

ولم ينطق أحدا بكلمة أثناء رحلة العودة . فقد ظل أستاريتا يحملق فى ولكن نظرته لم تكن تكشف عن رغبته بقدر ما كشفت عما يحس به من مهانة . ولم تعد الآن تسبب لى ارتيباك نلم تراودنى الرغبة فى التحدث اليه وملاطفته كما راودتنى عند مجيئى . بل أخذت أستنشق الهواء الذى لم يفتأ يهب على وجهى من النافذة المفتوحة . ولم أبرح أحصى بطريقة آلية علامات الطريق التى تقيس المسافة من روما . ولكننى فى لحظة معينة أحسست بيد أستاريتا وهى تحتك بيدي ولاحظت انه كان يحاول أن يدس فيها شيئا - لعله قصاصة من الورق . وخيل لى أنه لما كان يجبن عن مخاطبتى فقد خط لى رسالة ، ولكننى عندما خفضت بصرى وجدت أنها ورقة مالية طويت مرتين . وكان ينظر الى فى ثبات وهو يحاول أن يضم أصابعى على الورقة . وددت لحظة لو ألقيت بها فى وجهه . ولكن خطر لى فى نفس الوقت أن مثل هذا السلوك لشد ما يكون سطحيا ومن وحى التقليد وليس نتيجة اندفاع ذاتى عميق نابع من القلب . ولشد ما حيرنى احساسى آنذاك - ذلك الاحساس الذى لم يعاودنى قط بهذه الصورة الواضحة العنيفة ايا كانت الطريقة أو المناسبة التى تلقيت فيها نقودا من الرجال فقد أحسست وكأنى مشاركة فى جريمة أو فى مؤامرة جنسية احساسا لم تستطع قبله وأحضانها كلها آثارته فى نفسى عندما احتوتنا غرفة النوم فى المطعم . أحسست بالرضوخ الذى لا مفر منه مما كشف لى فى ومضة عن ناحية من نواحي طبيعتى كنت أجهلها حتى الآن . كنت أعلم بلا شك أننى يجب أن أرفض النقود ولكننى أحسست فى نفس الوقت بالرغبة فى قبولها لا طمعا فيها بل ايارا لتلك اللذة

الجديدة التي اتاحتها هبته لى .

ولكننى رغم استقرار رايى على قبولها اتيت حركة توهم بانى اعترام ردها اليه . وكانت حركتى تلك بدافع من غريزتى ولا يشوبها ظل من التفكير أو التدبير . فاصر آستاريتا على أن يعطينى اياها وهو لا يزال يحملق فى عينى فنقلت الورقة خلسة من يدي اليمنى الى يدي اليسرى وشعرت بالاثارة على صورة غريبه وقد التهب وجهى بالدم واضطربت أنفاسى . ولو أستطاع آستاريتا أن يتكهن بمشاعرى فى تلك اللحظة فلربما خيل له أننى أحبه . ولكن ذلك كان أبعد ما يكون عن الحقيقة . أما ذهنى فلم يكن يشغله سوى النقود والطريقة التى اكتسبت بها والطريقة التى أعطيت بها . ثم أحسست بآستاريتا وهو يمسك بيدي فتركته يقبلها ثم سحبها بعيدا .

وما ان عدنا الى المدينة حتى افترقنا ونحن أشبه بالهاربين كأن كلا منا كان يعلم أنه ارتكب جريمة ولا هدف له سوى الهرب والاختفاء . وفى الواقع فان شيئا أقرب مايكون الى الجريمة قد شاركنا جميعا فى ارتكابه يومذاك - ريكاردو بحماقته وجيزيلا بحسدها وآستاريتا بشهوته وأما أنا فبجهلى وقلة خبرتى . وقد ضربت لى جيزيلا موعدا للذهاب الى الرسم فى اليوم التالى وتمنى لى ريكاردو ليلة طيبة ولم يسع آستاريتا الا أن يضغط على يدي فى صمت وهو لا يزال جادا حزينا كعهده دائما . ولقد صحبونى حتى باب الدار . وعلى الرغم مما كان ينتابنى من أرهاق وندم فانى أذكر أننى لم أتمالك نفسى من الشعور بالزهو عند هبوطى من السيارة الفاخرة عند باب منزلى على مرأى من جيراننا أفراد أسرة عامل السكة الحديد الذين كانوا يتطلعون من خلال النافذة .

ومضيت الى شقتنا حيث احتبست فى غرفتى الخاصة . ثم بادرت بفحص النقود فوجدت أنها ليست ورقة واحدة بل ثلاث ورقات من فئة الالف ليرة . وكدت أشعر لحظة بالسعادة وأنا جالسة على حافة الفراش . فان النقود لم تكن تكفى لسداد مابقى من أقساط الاثاث فحسب بل لشراء بعض الاشياء الاخرى التى كنت احتاج اليها . ولما لم يكن قد توفر لى قط من قبل مثل هذا المبلغ الكثير من المال فانى لم أتمالك نفسى من تحسس الاوراق بأصابعى والحملة فيها . وكان مرأها بسبب فقرى لا يبعث الفرحة فى نفسى فحسب بل يكاد ألا يكون مصدقا . وكان على أن أتأمل تلك الاوراق بأشتياق كما فعلت من قبل مع قطع الاثاث لى أقنع نفسى بأنها تخصنى حقا .

الفصل الخامس

لقد محاً لومى العميق خلال الليل الطويل - او هكذا خيل لى - ذكرى مغامرتى فى فيتريو فاستيقظت فى اليوم التالى وقد استعدت هدوئى موطنه النفس على المثابرة على بذل كل ما فى وسعى لكى أحيأ حياة عائلية طبيعية . ولم تشر جيزيلا التى قابلتها فى الصباح أيما اشارة الى الرحلة اما ندما على ما فعلت او من وحي كياسة حكيمة . فشعرت نحوها بالامتنان . ولكن القلق أخذ يساورنى بصدد لقائى التالى بجينو . فعلى الرغم من ثقتى ببراءتى التامة كنت أعلم أننى سأضطر الى الكذب عليه فأحسست بالسخط لاضطرارى الى ذلك كما أننى لم أكن واثقة من قدرتى على الكذب لاننى لم أفعل ذلك من قبل بل لشد ما كنت صريحة معه حتى الآن . لاشك اننى أخفيت عنه مداومتى على الاتصال بجيزيلا ولكن دوافعى فى تلك الحال كانت بريئة للغاية حتى أننى لم أعد ذلك كذباً بل الاخرى انه كان ملاذا ألجأتنى اليه كراهيته غير المعقولة لجيزيلا .

ولقد استبدبى القلق الى حد أننى ما كدت ألقاه يومذاك حتى وجدت صعوبة فى الامتناع عن البكاء وعن مصارحته بما حدث راجية الصفح . فلشد ما أثقلت كاهلى قصة الرحلة الى فيتريو بأكملها وكنت أتوق الى التخلص من عبئها بالتحدث عنها . فلو أن جينو كان شخصاً آخر كائناً من كان وكنت أعلم أنه أقل غيرة لحدثته عنها دون شك ولزاد حبنا فى رأى عما كان عليه فى أى وقت ولاحسست باعزازه اباى وارتباطى به برباط أقوى من الحب نفسه . وكنا فى السيارة كعادتنا فى الطريق الريفى المعهود فى ساعة مبكرة من الصباح . ولقد لاحظت قلقى وسألنى عما بى .

فحدثت نفسى قائلة - « والآن سأروى له القصة بأسرها - حتى لو طردنى من السيارة واضطرت أن أعود الى المدينة سيراً على الأقدام . ولكن شجاعتى خانتنى فسألته بدلا من ذلك ان كان يحببنى . فأجابنى قائلاً - ياله من سؤال ! » فأردفت قائلة وقد فاضت عيناي بالدموع - « وهل ستحببنى دائماً؟ »

– « دائما » .

– « وهل سنتزوج قريبا ؟ »

www.library4arab.com/vb

فبما عليه السخط لا حاشي . وهنت ناألا :
– « عجبنا . قد يتبادر الى ذهنى أنك لا تثقين بى – ألم نتواعد

على الزواج فى عيد الفصح ؟ »

– « نعم » .

– « ألم اعطك نقودا لتأثيث المنزل ؟ »

– « نعم » .

– « حسنا اذن – فهل انا ممن يفون بالوعد أو لا ؟ انا لا أقول

شيئا الا فعلته . أراهن أن أمك هى التى لا تفتأ تحرضك على ذلك »

فأنكرت ذلك مدعورة – « كلا . فان أمى لا شأن لها بذلك ! انصت

الى . وهل سنعيش معا ؟ »

– « بالطبع . »

– « ونتمتع بالسعادة ؟ »

– « ان ذلك يتوقف علينا » .

ثم عدت أسأله مرة أخرى قائلة وقد عجزت عن طرد خواطرى

المتلاحقة التى لم يفتأ يصورها لى قلقي – « وهل سنعيش معا ؟ »

– « يا الهى ! لقد سألتنى هذا السؤال من قبل وأجبتك عنه » .

فقلت – « آسفة . ولكن ذلك لا يكاد يبدو لى ممكنا فى بعض

الاحيان »

ولما لم أعد قادرة على التحكم فى نفسى فقد بدأت أبكى . فتولته

الدهشة لبكائى كما انتابه القلق ولكنه قلق مليء بالندم كما كان

واضحاً ، ذلك الندم الذى لم تتكشف لى أسبابه الا بعد وقت طويل .

فقال – « والان كفى ! ففيم البكاء ؟ »

وفى الواقع فان بكائى كان مرجعه احساسى بالمرارة والالام .

لعجزى عن مصارحته بما حدث ومن ثم أخلص ضميرى من عبء الندم .

كما كنت أبكى لشعورى بالمهانة عندما يخطر لى أننى لست كفتا له

أو لكل من يتصف بمثل سموه وكماله . وأخيرا قلت فى مشقة –

« انك على حق . فأنا فتاة حمقاء » .

www.library4arab.com/vb

– « انا لا أبغى ان أقول ذلك . ولكننى لا أرى دأيا لبكائك »

وظل العبء يثقل كاهلى . فذهبت الى الكنيسة للاعتراف بعد

فراقنا فى ذلك المساء نفسه . وكنت قد انقطعت عن الاعتراف منذ عام

تقريبا . ولكننى كنت أعلم طوال الوقت انه يمكننى الذهاب فى أية

لحظة وكان ذلك يكفيني . فمذ أن قبلت جنود لاول مرة أقلمت
عن الذهاب للاعتراف . إذ أدركت أن علاقتي بجينو كانت تعد
خطيئة في نظر الكنيسة . ولكنني لما كنت أعلم أن الزواج مصيرنا
فاني لم أشعر قط بتأنيب الضمير بل عقدت النية على الاستغفار قبل
الزفاف مرة واحدة والى الابد .

ذهبت الى كنيسة صغيرة في قلب المدينة وكان بابها يقع بين مدخل
أحدى دور السينما وواجهة محل لبيع الملابس الصوفية الداخلية .
وكاد الظلام يكون دامسا في داخل الكنيسة عدا المذبح الرئيسي
ومصلى جانبي خصص للسيدة مريم العذراء . وكانت كنيسة صغيرة
قدرة مهملة تباعدت مقاعدها الخيزرانية هنا وهناك على نفس
الصورة غير المنظمة التي تركها فيها المصلون عند أنصرافهم مما
ذكرني لا بقداس بل باجتماع ممل ما ان يهرب منه المرء حتى يتنفس
الصعداء

وقد كشف ضوء خافت كان يسقط من الكوى الصغيرة في قبة
الكنيسة عن الغبار المتراكم على الارضية المرصوفة والشقوق البيضاء
في الطلاء الاصفر المرقش الذي يكسو الاعمدة شبه الرخامية . كما
كانت لوحات النور الفضية العديدة المتزاحمة على الجدران في صورة
قلوب ملتهبة تترك في النفس تأثيرا تافها كثيرا . ولكن
ثمة رائحة بخور قديم كانت منتشرة في جو الكنيسة بثت في قلبي
الشجاعة . فقد كنت في صباى أستنشق تلك الرائحة نفسها
مما أثار في نفسي ذكريات كانت كلها بريئة محببة . إذ بدا لي أنني
في مكان مألوف . ومع أنني لم أزر تلك الكنيسة قط من قبل فقد
أحسست وكأنني كنت لا أفتأ أتردد عليها طوال حياتي .

ولكنني شئت قبل الاعتراف ان اذهب الى المصلى الجانبي حيث
لاحظت تمثالا للعذراء وكنت منذ مولدى مكرسة بالفعل للسيدة
مريم العذراء . وكانت أمى لا تفتأ تزعم أنني أشبهها في قسامة
وجهى المنتظمة وعيني السوداوين النجلاوين الرقيقتين . وكنت
لا أبرح أحب العذراء لانها تحمل طفلا بين ذراعيها ولان طفلها الذي
صار رجلا قد قتل ، ولانها لبست ما عانت عندما رأته معلقا على
الصليب . وهى التى حملته وأحبهته كما تحب أبة أم ابنها . وطالما دار
بخلدى أن السيدة العذراء التى تعددت أحزانها هى وحدها التى
يمكنها أن تفهم أحزاني حتى أنني فى طفولتى كنت أصلى لها وحدها
أعتقادا منى بأنه لا يمكن أن يفهمنى سواها . فضلا عن ذلك فقد

كنت أحب العذراء للفارق الكبير بينها وبين أمي في صفاتها وهدوئها
وثباتها الفاخرة وعينها اللتين تنظران إلي في حبا عميق . فكانت
تبدو لي كأنها أمي الحقيقية لا تلك الام التي تنفق وقتها في زجري
وتعنيفي ولا تبرح تبدو منهوكة القوى رثة الهندام

فركعت أمامها مخفية وجهي بين يدي حانية رأسي ثم تلوت صلاة
طويلة لها شخصيا ضارعة اليها أن تفعل لي ما فعلت ومتوسلة اليها
أن تحميني وكذلك أمي وحينئذ . ثم تذكرت أنه ينبغي علي ألا أحمل
ضعيفة لاحد فسألت العذراء أن تحمي جيزيلا التي خانتني بسبب
حسدها وريكاردو الذي شد من أزرها بسبب حماقته كما توسلت
اليها أن تحمي أستاريتا . بل ان صلاتي من أجل أستاريتا كانت
أطول من صلاتي من أجل الاخرين لا لسبب الا لشدة حفيظتي عليه
فأردت محوها من نفسي لكي أحبه كما كنت أحب الاخرين وأصفح عنه
وانسى ما الحقه بي من اذى . ولشد ما أحسست بالتأثر العميق
في النهاية حتى أغرورقت عيناى بالدموع . ورفعت بصري الي تمثال
العذراء فوق المذبح فكانت دموعي أشبه بالحجاب على عيني مما جعل
!التمثال يبدو شامضا مرتعشا وكأنني أراه من خلال الماء . وبدت
الشموع التي تتلأأ حول التمثال كعديد من النقاط الذهبية
الصغيرة التي تسر الناظرين ولكنها في الوقت نفسه تكلرهم كالنجوم
التي تهفو نفوسنا أحيانا الي لسها ولكننا نعلم أنها بعيدة المنال .
وهكذا مكثت بعض الوقت أتأمل العذراء وأنا لا أكاد أراها . ثم
أخذت الدموع المريرة تتقاطر في بطن من عيني ثم تنحدر علي وجهي
وعني تدغدغني . ورأيت العذراء تنظر الي حاملة طفلها بين ذراعيها
وقد أضيء وجهها بلهب الشموع . وبدت أنها تنظر الي في عطف
وحنان . فشكرتها من أعماق قلبي وما ان نهضت واقفة حتى احسست
بالطمأنينة وقد عادت الي . ثم ذهبت لأعترف

وكانت كراسي الاعتراف جميعا خالية . ولكنني بينما كنت أتجول
في الكنيسة باحثة عن قس رأيت شخصا يخرج من باب صغير الي
يسار المذبح الرئيسي ويمر أمام الهيكل حيث يجثو في خشوع راسما
علامة الصليب ثم يشق طريقه الي الجانب الاخر من الكنيسة . كان
راهبا ولكنني لم أعرف رتبته الكهنوتية . فاستجمت شجاعتني
وناديته في صوت خفيض . فاستدار وأقبل نحوي في الحال . وعندما
أقترب مني رأيت أنه صغير السن الي حد ما طويل القامة تبدو
عليه القوة والنشاط. ذو بشرة وردية تنبئ ملامحه بالنضارة والرجولة

وكان ذا لحية شقراء نحيلة وعينين زرقاوين وحيمة بيضاء عريضة . فلم يستطع إلا أن أعده رجلا وسليما على صورة خارجة عن المألوف مما يندر أن تراه داخل الكنيسة أو خارجها وفرحت لاننى سأعترف على يديه . وما كدت أخبره بما أريد فى صوت خفيض حتى أشار الى بأن أتبعه وقادنى الى أحد كراسى الاعتراف دخل المقصورة وذهبت لأجثو أمام السياج . فاذا بصفحة صغيرة مطلية بالميناء تحمل اسم الأب ايليا كانت مثبتة على كرسى الاعتراف . فسرني ذلك الاسم والهمنى بالإيمان والثقة . وعندما جثوت على ركبتى تلا صلاة قصيرة ثم سألتنى عن آخر اعتراف لى وكم مضى عليه من الزمن

فقلت - « حوالى عام » .

- « هذه مدة طويلة . بل أطول مما ينبغى . لماذا ؟ »

ولاحظت أن لغته الإيطالية لم تكن سليمة تماما . فكان يلثغ فى حرف الرء كما يفعل الفرنسيون . وتبين لى من خطأ أو اثنين وقع فيهما أثناء محاولته نطق كلمات أجنبية بلهجة ايطالية انه هو نفسه فرنسى . فسرني انه أجنبى ولكننى فى الحقيقة ما كان يمكننى أن أذكر السبب فى ذلك . ولعل هذا لاننا عندما نوشك على القيام بعمل نعهده مهما تبدو لنا كذل صغيرة خارجة عن المألوف علامة على الفأل الحسن وأوضححت له أن القصة التى سأرويها له ستكشف عن السبب فى عدم اعترافى طوال تلك المدة . فسألنى بعد فترة صمت وجيزة عما لدى من أقوال . فبدأت أحدثه باندفاع وثقة عن علاقتى بجينو وصدأقتى بجيزيلا ورحلتى الى فيتريو وتهديد أستاريتا . وحتى فى أثناء حديثى لم أستطع أن أتمالك نفسى من التساؤل عن تأثير قصتى عليه . فقد كان يختلف عن معظم القساوسة ودفعنى مظهره غير المألوف كرجل دنيوى الى التفكير فى الاسباب التى أدت به الى الرهينة يحدونى فى ذلك حب الاستطلاع . ولعله يبدو غريبا أن يتشئت ذهنى الى حد التساؤل عن معرفى بعد صلاتى للعنداء وما أثارته فى نفسى من عاطفة خارجة عن المألوف . ولكننى أنا نفسى لا أرى تناقضا بين عاطفتى وحب استطلاعى . فكلاهما ينبع من أهماق قلبى حين يختلط التعبد بالدلال والاسى بالشهوة اختلاطا معقدا لا سبيل الى تحليله ولكننى حتى وأنا أفكر فيه بالطريقة التى وصفتها أخذت أشعر بالارتياح رويدا رويدا كما انتابنى الحماس لمصارحته بالمزيد والاعتراف له بكل شىء مما خفف عنى . فأحسست بالسمو والخلاص من ذلك

الشعور الثقيل بالالم الذى كان يثقل كاهلى حتى تلك اللحظة كالزهرة
التي يصررها الذبول من شدة الحرارة ثم تنعشها في النهاية اولى قطرات
المطر . وكنت في اول الامر اتكلم في صعوبة وتردد ثم بدأت كلماني
تتدفق في مزيد من الطلاقة . وفي النهاية اخذت اتحدث في اخلاص
قوى تحدوني آمال متزايدة . ولم اغفل شيئا مما حدث ولا حتى
النقود التي اعطانيها استاريتا وما اثارته هبته في نفسي من مشاعر
والمنافع التي كنت انوى استغلالها فيها . وانصت الى دون تعليق وما
ان انتهيت من فصتي حتى قال - « انك لكى تتجنبى شيئا خلسه
ضارا بك الا وهو فسخ الخطبة قبلت ان تلحقى بنفسك ضررا اكبر
الى ما لا نهاية »

فوافقت قائلة وانا ارتجف فرحة بانامله الحساسة وهى تسبر
قلبي - « نعم . انى اعلم ذلك »
ثم واصل كلامه قائلا وكأنه يحدث نفسه - « ولكن خطبتك في
الواقع لا شأن لها بما حدث - فانك عندما رضخت لذلك الرجل
استسلمت لشعور بالطمع » .

- « نعم . نعم ! »

- « حسنا . كان الاجدر ان يفسخ الزواج على ان تفعلى ما فعلت »

- « نعم . هذا هو اعتقادى الان . »

- « ولكن ذلك لا يكفى - فانك الان ستتزوجين . ولكن لم يكلفك

ذلك ؟ فلن يمكنك بعد ذلك ان تكونى زوجة صالحة »

كان يضربنى في الصميم بقسوة الفاظه التي لا تعرف اللين . فهتفت

قائلة فى ألم - « كلا . ليس الامر كذلك ! بل انه يبدو لى وكان شيئا

لم يحدث - فانا واثقة باننى ساكون زوجة صالحة ! »

لاريب انه أعجب باخلاصى فى الرد . فصمت بعض الوقت ثم اردف

يقول فى مزيد من الرقة - « هل انت مخلصه فى توبتك ؟ »

فأجبت قائلة باندفاع - « نعم . انى مخلصه حقا . » وخطر لى

فجأة انه ربما ارغمنى على رد النقود لارستاريتا . ورغم ان فكرة ردها

اليه لم تكن مستحبة مقدما فقد خيل لى مع ذلك اننى كنت اُمثل

لامره فرحة مسرورة وذلك لصدوره من شخص احبه استطاع ان

يسيطر على بطريفة غريبة . ولكنه دون ان يذكر النقود واصل

حديثه قائلا بصوته البارد البعيد الذى اُضفت عليه لهجته الاجنبية

نغما عاليا لشد ماكان دفيئا على صورة غريبة - « والان ينبغى ان

تتزوجى فى اقرب فرصة ممكنة - كما ينبغى ان تضعى الامور فى

نصابها - فيجب عليك أن تفهمي خطيبك أنه لايمكنك أن تستمري

www.library4arab.com/vb معه بالوضع الراهن « لقد قلت له ذلك بالفعل »

- « وماذا كان جوابه ؟ »

ولم أتمالك نفسي من الابتسام عندما خطر لي أنه بكل جماله ووسامته يسألني مثل هذا السؤال من أعماق مقصورة الاعتراف .

فأجبتة قائلة في مشقة - « انه يقول اننا سنتزوج في عيد الفصح »

فرد قائلا بعد لحظة من التفكير - « يحسن بكما أن تتزوجا في الحال .

فعيد الفصح مازال بعيدا » . وبدا لي حينئذ أنه لم يكن يتكلم ككاهن

بل كرجل دنيوى مهذب أمله قليلا أن يضطر الى الاهتمام بمشئونى .

- « لا يمكننا التبكير عن الموعد المحدد . فعلى أن أعد جهازى .

وعليه أن يذهب الى أسرته ليخبرها بالنبأ »

فاستمر قائلا - « على أية حال يجب أن يتزوجك في اقرب فرصة

ممكنة . وعليك أن تقلقى عن كل علاقة جنسية بخطيبك حتى يوم

الزفاف . فهذا اثم خطير . أفهميننى ؟ »

- « نعم . سأفعل . »

فردد قائلا في شك - « أتفعلين ؟ عليك أن تقاومى الاغراء بالصلاة

على أية حال حاولي أن تصلى .

- « نعم سأصلى » .

ثم أردف قائلا - « أما عن الرجل الآخر فلا ينبغي أن تويه مهما

كانت الاسباب . ولن يشق عليك ذلك مادمت لا تحبينه . وإذا

أصر على رؤيتك وجاء لمقابلتك فعليك أن تطرديه »

فقلت له اننى سأفعل . وبعد أن أسدى الى نصائح أخرى

كثيرة بصوته البارد البعيد الذى لشد ما اغرانى مع ذلك بالانصات

اليه لما فيه من لكنة أجنبية وما يوحى به من علم صاحبه أمرنى أن

أتلو كل يوم عددا من الصلوات تكفيرا عن ذنوبى . ثم منحنى الغفران .

ولكنه قبل أن يأمرنى بالانصراف جعلنى أتلو معه « أبانا الذى فى

السموات .. » فوافقت على ذلك فى سرور لاننى كنت آسفة لرجلى

www.library4arab.com/vb ولم تشبغ انذارى بعد من صوته

قال - « أبانا الذى فى السموات »

فرددت قائلة - « أبانا الذى فى السموات »

- « نيتقدس اسمك »

« ليتقدس أسمك »
« ليأت ملكوتك . »
« ليأت ملكوتك . »

- « ولتكن مشيئتك على الارض كما هي في السماء »
« ولتكن مشيئتك على الارض كما هي في السماء »
« اعطنا اليوم خبزنا كفافنا »
« اعطنا اليوم خبزنا كفافنا »
« واغفر لنا ذنوبنا كما تغفر نحن للمسيئين الينا »
« واغفر لنا ذنوبنا كما تغفر نحن للمسيئين الينا »
« ولا تدخلنا في تجربة بل نجنا من الشرير »
« ولا تدخلنا في تجربة بل نجنا من الشرير »
« آمين »
« آمين »

لقد ذكرت الصلاة كلمة كلمة لكي استعيد مشاعري عندما تلوتها معه . فقد أحسست وكأنني عدت فتاة صغيرة بينما يقودني هو من يدي متنقلا من عبارة الى اخرى . ومع ذلك ففي تلك الاثناء كنت أفكر في النقود التي أعطانيها آستاريتا وكدت أشعر بخيبة الامل لانه لم يأمرني بردها . فقد كنت أود حقا ان يأمرني بذلك لانني كنت أريد ان أقدم له دليلا محسوسا على طاعتي وتوبتي كما كنت أريد ان أفعل له شيئا يكون بمثابة تضحية حقيقية . وما ان انتهت الصلاة حتى نهضت وخرج هو من مقصورة الاعتراف وهم بالذهاب دون ان ينظر الى ودون ان يحييني مودعا الا بايماء تكاد الا تلحظها العين . فاذا بي على الرغم مني تقريبا أجذبه من كفه دون ان أدري ماذا أنا فاعلة . فتوقف عن المسير ونظر الى بعينه الصافيتين الهادئتين اللتين لاتنبئان عن شيء

فخيل لي انه اكثر وسامة منه في أي وقت مضى . ومرت بذهني مئات الخواطر المجنونة . وتصورت انه لشد ما كان ممكنا ان أقع أسيرة هواه . وتساءلت عن الطريقة التي أستطيع بها ان أعبر له عن اعجابي به . ولكن ضميري في نفس الوقت كان ينذرني انني في كنيسة والله كان كالسنا ومعرفي . كان ذهني في دوامة من كل تلك الخواطر والصور التي استحوذت علي في وقت واحد فعجزت لحظة عن النطق فسألني بعد ان انتظر فترة معقولة قائلا - « هل هناك ما تريد من مصارحتي به غير ذلك ؟ »

فسألته قائلة - « أردت أن أعلم ما اذا كان ينبغي أن أرد لذلك الرجل نقوده ؟ »
فرماني بنظرة سريعة بدون انهاء تنفذ الى اعماق بروحي . كانت نظرة حادة مباشرة للغاية . ثم ما لبثت أن أجابني قائلا - « هل أنت في حاجة ماسة اليها ؟ »
- « نعم » .

- « حسنا . اذن - فلا حاجة بك الى ردها - وعلى اية حال فلتفعلي ما يهليه عليك ضميرك »

قال ذلك بلهجة غريبة وكأنه يريد أن يلمح الى انتهاء مقابلتنا فتلغثم لساني بالشكر دون أن أبتسم محمقة في عينيه وأنا افعل ذلك . لقد فقدت صوابي حقا في تلك اللحظة وكدت أتمنى لو أظهر لي اهتمامه بإشارة أو كلمة . لا شك أنه أدرك معنى نظرتي . فارتسم على وجهه تعبير طفيف ينبيء بالدهشة لم يلبث ان اختفى . ثم ودعني بإشارة صغيرة من يده وانصرف مديرا لي ظهره وتركني واقفة بجانب كرسي الاعتراف في حال من الارتباك والأضطراب الشديدين .

لم أخبر أمي بشيء عن اعترافي كما لم أخبرها بشيء عن رحلة فيتريو . وكنت أعلم أن لها آراء راسخة في الكهنة والدين . كانت ترى أنها أشياء جميلة ومع ذلك فإن الاغنياء يظنون أغنياء والفقراء يظنون فقراء . وكانت تقول - « يمكنك أن ترى أن الاغنياء يجيدون الصلاة خيرا منا » وكانت آراؤها في الدين تشبه آراءها في الأسرة والزواج . فقد كانت هي نفسها فيما مضى متمسكة بتعاليم الدين وكانت تختلف الى الكنيسة ولكن كل شيء مع ذلك ساء حاله بالنسبة لها . فقدت ايمانها بهذه الأشياء . وقد قلت لها ذات مرة اننا سنلقى ثوابنا في الآخرة فاستشاطت غضبا قائلة انها تريد أن تلقى جزاءها في هذا العالم - الان - في الحال وانها ان لم تلقه فمعنى ذلك أن الامر كله سلسلة من الاكاذيب . ومع هذا فقد ربنتني تربية دينية كما سبق أن قلت لانها هي نفسها كانت دينية في وقت من الاوقات . ولكن ما مر بها من محن في الاعوام الاخيرة قد ملأ قلبها بالمرارة وجعلها تغير راياها

وفي الصباح التالي عندما ركبت السيارة أخبرني جينو أن مخلصه يتأهبون للرحيل وانه يمكننا أن نلتقي في الفيلا بضعة أيام . فطربت لذلك في اول الامر لانني كنت أهوى المضاجعة وأهواها مع جينو كما اعتقد انني سبق أن اوضحت

ولكننى فجأة تذكرت وعدي للكاهن

فقلت - « لا يمكننى ذلك »

www.library4arab.com/vb

« لم لا ؟ »
« محال أن - »

فقال فى صبر وهو يتنهد - « حسنا اذن ففدا - »

- « كلا . ولا حتى غدا - بل لن نعود الى ذلك مرة اخرى » .

فردد كلامى قائلا فى صوت خفيض وهو يتظاهر بالدهشة - « لن نعود ! اذن فهذا هو الوضع الآن . أليس كذلك ؟ لن نعود ! يمكنك على الاقل أن توضحى السبب »

وكان وجهه ينطق بالرغبة الغيور . فأسرعت قائلة - « انى احبك يا جينو . . وما احببتك قط كما احبك الان - بل لاننى احبك قررت أننا يجب ألا نعود الى مثل هذا مرة أخرى حتى نتزوج - أعنى الا نمارس الحب »

فقال فى احتقار - « انى افهم الان كل شيء ! فانت تخشين ألا ابغى

الزواج بك » .

- « كلا . بل انى واثقة من زواجك بى . ولو كان ذلك هو اعتقادى

لما كنت الان أعد كل شيء ولما انفقت نقود امى التى ظلت تدخرها طوال حياتها » .

فقال - « يالها من قصة تلك التى تنسجينا حول نقود أمك ! »
وعندئذ لشد ما صار بغيضا حتى اننى لم اكذ أستطيع التعرف عليه .
ثم سألتنى قائلا - « اذن فلماذا ؟ »

- « لقد ذهبت للاعتراف ونهائى القس عن مضاجعتك حتى

نتزوج »

فأتى حركة تعبر عن خيبة امله وأفلت منه لفظ بدا لى كالتجديف

ثم قال - « وما شأن هذا الكاهن حتى يدس أنفه فى أمورنا ؟ »

فأثرت الصمت .

فألح قائلا - « لم لا تقولين شيئا ؟ »

- « ليس لدى ما أقوله أكثر من ذلك »

لاريب أن التصميم المطلق كان يبدو على محياى اذ أنه عدل عن رأيه

فجأة قائلا - « حسنا . لك ما تطلبين - أتريدان أن اصحبك الى

المدينة ؟ »

- « ان شئت . »

ولا يفوتنى أن أقول اننى لم أعهده قط بغيضا قاسيا معى الا فى تلك

المقابلة . اما في اليوم التالي فقد بدا لي مستسلما وقد عاوده عطفه
المهود واهتمامه الشديد الهادئ . فاستمر لقائنا كل يوم كما كان
من قبل غير أننا لم نعد نمارس الحب بل كنا نكتفى بتبادل الحديث
وكنت من وقت لآخر امنحه قبلة رغم انه صار يعد احجامه عن تقبيل
مسألة كرامة . ولم اشعر أن تقبيله خطيئة حقا لاننا كنا قبل كل
شيء خطيبين ولن نلبث أن نتزوج . واليوم عندما اذكر تلك الفترة
يخيل لي أن جينو سرعان ما انساق الى قبول دوره الجديد
كخطيب مهذب يحترم خطيبته على أمل أن تفتت العلاقة بيننا رويدا
ثم تقرب من القطيعة شيئا فشيئا على غير وعي مني تقريبا . فأنتم
تسمعون دائما عن فتيات ينتهي بهن المطاف - دون أن يعين - الى
الوحدة من جديد بعد خطبة طويلة مضمية ولا يلحقهن من أذى سوى
انقضاء زهرة شبابهن . فعندما صارحته بوصية القس هيأت له دون
ان أدري مطلقا الذريعة التي لعله كان ينشدها لتفتت العلاقة بيننا .
اذ انه بلا ريب ما كان ليجد الشجاعة في نفسه قط لضعف شخصيته
وأنايته كما أن رغبته في التخلص مني كانت أضعف من اللذة التي
يجدها في علاقتنا . ولكن تدخل المعرف أتاح له الفرصة في تقديم حل
ريائي يبدو منزها عن الغرض

فاذا به بعد فترة وجيزة يقلل من مرات لقائنا فلم نعد نتقابل سوى
مرة واحدة كل يومين ثم لاحظت أن نزهنا في السيارة كانت لا تفتأ في
كل مرة تقصر عن سابقتها . وكان لا يفتأ يزداد شرودا كلما تحدثت
اليه عن خطط زواجنا ولكن الشك لم يخامرني قط رغم احساسى
الفامض بتغير موقفه فقد كانت كلها أمورا تافهة كنفثات الدخان .
وظل جينو كما عهدته يسلك نحوى سلوكه الرقيق العطوف . وذات
يوم قال لي وفي عينيه نظرة اعتذار انه سيضطر لاسباب عائلية الى
تأجيل موعد زواجنا الى ما بعد الصيف .

وعندما لاحظت أنني لم أعلق بشيء على ما قال ولم أزد على أن نظرت
امامى وقد علا وجهى تعبير مرير لا ينم عن شيء أضاف قائلا - « هل
أغضبك ذلك كثيرا ؟ »

فقلت مستجدة شجاعتى - « لا . لا . فهذا لا يهم - فليس في
وسعنا أن نفعل شيئا . ولكن ذلك سيتيح لى الفرصة لأعداد جهازى »
- « أنت تكذبين . فلشد ما يزعجك ذلك . » وكانت رغبته في

أن اغضب لتأجيل زفافنا أمرا غريبا .

- « كلا . »

« حسنا اذن فان كان ذلك لا يزعجك فمعنى هذا أنك لا تحبيننى
حقا ولعلك فى أعماق قلبك لا تبالين اذا لم يتم زواجنا على الإطلاق »
فهمت قائلة فى ذهنى - « لا تعلق هذا! فحينئذ ما يروعننى قولك »
بل انى لا أحب أن أفكر فيه . »

وحينئذ لم أفهم ذلك التعبير الذى مرق عبر وجهه . فقد شاء فى
الواقع أن يختبر حبى فوجد أنه مازال قويا للغاية مما بث الرعب
فى سببه .

وعلى الرغم من أن تأجيل زواجى لم يكن سببا كافيا لاثارة شكوكى
فانه دعم اعتقاد أمى وجيزيلا وكانتا مقتنعتين به منذ البداية .
ولم تعلق أمى بشىء مطلقا على ذلك النبأ . فهكذا كان أسلوبها فى بعض
الاحيان (وهو مسلك غريب ممن أوتى مثل طبيعتها العنيفة المندفعة)
ولكنها ذات مساء بينما كانت كعادتها تقدم الى عشائى وقد وقفت
صامتة ترقب ما قد أحتاج اليه قالت لى ردا على اشارة ما صدرت
منى بخصوص الزواج .

« أتعرفين ماذا كانوا فى أيامى يسمون من كانت على شاكلتك -
أى الفتاة التى تظل تنتظر الزواج ولا تتزوج قط . »
فشحب لونى وأحسست بالهزال قائلة - « ماذا ؟ »
فقالت أمى فى هدوء - « فتاة على الرف . فهو يظل يضعك على
الرف كاللحم الذى لم يؤكل بعد . ولكن اللحم يفسد أحيانا اذا ماترك
ثم يلقى به بعد ذلك . »

فاستبد بى الغضب وقلت - « هذا افتراء ! فاننا نؤجله لأول مرة
ولبضعة شهور فقط . والحقيقة أنك غاضبة أشد الغضب على
جينو لانه سائق وليس سيدا مهذبا . »
- « أنا لست غاضبة على أحد . »

- « بل هى الحقيقة - ولأنك اضطرت الى انفاق نقودك على
تأثيث الغرفة من أجلنا ولكن لا حاجة بك الى القلق - »
- « يا ابنتى العزيزة - لقد صعد الحب الى رأسك ! »
- « أقول لك لاتقلقى - فانه سوف يسدد بقية الاقساط جميعا .

ولسوف نعطيك كل ما أنفقت . أنظرى . » وتولانى الحماس ففتحت
حقيبتى وأخرجت لها الاوراق المالية التى أعطانيها أستاريتا . ثم
أردفت قائلة - « هذه نقوده وقد أعطانيها . ولسوف يعطينى المزيد .
ولشد ما استبد بى الجنون حتى اننى كدت أصدق أكاذيبى .
فحملت فى النقود فاغرة فاها واكتست نظرتها بالخيبة والاسى

فأحسست بتنايب الضمير . فاني لم أعاملها بمثل هذه العسوة
زما طويلا . كما أدركت أنني كنت أفتري الكسب وأن جينو
في الواقع لم يعطني النفود مطلقا . فلم تنبس بينت شفة بل نظفت
المائدة وحملت الصحف ثم غادرت الغرفة . وبعد لحظة من التفكير
الغاضب نهضت وتبعتها . فرأيتها من ظهرها وقد وقفت منتصبه
أمام الصنبور تغسل الصحف التي أخذت نضعها واحده بعد الاخرى
على رخامة الحوض حانية رأسها وكتفيها قليلا . ففشيتني موجة
من الرثاء لها . واندفعت نحوها ملقيه بذراعي حول عنقها وأنا
أتوسل اليها قائلة - « اغفري لي ما فعلت . فاني لا أعتقد ذلك حقا -
ولكنك لشد ماتفضيبيني عندما تتحدثين عن جينو . »

فأجابت متظاهرة بمقاومتي للتخلص من عناقي - « أتركييني -
دعيني وشأني . »

فصفت ربه سي حماس - « ولكنك يجب ان نفهمي ! فاما ان
أقتل نفسي اذا لم يتزوجني جينو أو أبيع الهوى في الشوارع . »
أما جيزيلا فقد حذت حذو أمي الى حد كبير عندما تلقت نبأ
تأجيل زواجي فقد كنا في غرفتها المؤثثة عندما أخبرتها بذلك وكنت
جالسه في كامل هندامي على حافة الفراش بينما كنت سى سى بميس
النوم تمشط شعرها أمام خوان الزينة . فتركتني انهي قصتي
دون تعليق ثم قالت في هدوء وانتصار - « رأيت أنني كنت على حق ؟ »
- « لماذا ؟ »

- « فهو محجم عن الزواج ولن يتزوج بك البتة . فزواجك الان
لن يتم في عيد الفصح بل في عيد القديسين - ثم يؤجل بعد ذلك
الى عيد الميلاد - وذات يوم تختمر الفكرة أخيرا في ذهنك وتبادرين
أنت بالتخلي عنه . »

فانتابني الغضب وأحسست بالتعاسة لحديثها . ولكنني كنت
قد أطاقت العنان لنفسي مع أمي وعلى أية حال فقد كنت أعلم أنني
لو صارحتها برأبي لكان على أن أفقد صداقتي بجيزيلا وكنت لا
أرغب في ذلك لأنها كانت صديقتي الوحيدة قبل كل شيء . كان
ينبغي أن أفصح عن رأيي وهو أنها لم تكن تريدني أن أتزوج لأنها
تعلم أن ريكاردو لن يتزوجها . كانت هذه هي الحقيقة التي لا يمكن
أن تقال لما تنطوي عليه من حقد شديد وكنت أرى أنه ليس من
العدل أن أسئ اليها لمجرد استسلامها على الرغم منها لمشاعر
الحسد والغيرة عندما تتحدث عن جينو . فاكتفيت بأن قلت -

« فلنكف عن الحديث فى هذا الموضوع • فان زواجى من عدمه أمر لا يهيك فى الحقيقة - كما أنه بما يسرني أن نتحدث عنه • »
فأذا بها فجأة تترك مكانها أمام خوان الرينة ثم تأتي لتجلس الى جانبى على الفراش قائلة فى احتجاج - « ماذا تعنين - بأن الامر لا يعنينى ؟ » ثم اضافت قائلة وهى تحيط خصرى بذراعها - « انه يضيرنى كثيرا أن أراك منقادا من انفك على هذه الصورة » .
فقلت فى صوت خفيض - « ولكننى لست كذلك ! »

ثم أردفت قائلة - « كما أحب أن أراك سعيدة » • وما كادت تمر لحظة من الصمت حتى قالت بلهجة عارضة - « وبهذه المناسبة فان آستاريتا لا يفتأ يضايقنى لانه يود أن يراك مرة أخرى - فهو يقول انه لا يمكنه الحياة بدونك - فهو غارق فى حبك حتى أذنيه ! أتريدىنى أن أضرب لك موعدا معه ؟ »

فقلت - « لا تذكرى لى اسم آستاريتا »
فأردفت قائلة - « انه يدرك انه أساء التصرف معك فى تلك الرحلة التى قمنا بها الى فيتريو • ولكن حقيقة الامر انه لم يفعل ذلك الا لانه يحبك - وهو يبغى مصافاتك » .
فقلت - « لا سبيل الى مصافاتي الا بابتعاده عنى فلا أراه مرة

أخرى » •
- « والان كفى عنادا ! فهو شخص جاد ومفرم بك حقا - كما انه مصر على مقابلتك والتحدث اليك • لم لا تلتقيان فى أحد المقاهى مثلا ويكون ذلك فى حضورى أنا أيضا ؟ »
فأجبتها قائلة فى لهجة حاسمة - « كلا • فأنا لا أريد ان أراه • »
- « انك ستأسفين لذلك » •

- « فلتخرجى أنت معه ! »
- « كالقذيفة يا عزيزتى • فهو شديد السخاء كما انه لا يعبأ بما ينفق - ولكنه يريدك أنت • فهو متعلق بك »
- « نعم • أعلم ذلك ولكننى لا أريده » •

واستمرت تجادلنى محبذة لقاءه ولكننى أبيت الاقتناع برأيها • فقد كانت رغبتى البائسة فى الزواج وتكوين أسرة قد بلغت ذروتها وقد وظنت النفس على مقاومة الحجاج المنطية وانحراء المال • بل انه نسيت رعشة اللذة التى استطاع آستاريتا أن يثيرها فى نفسى عندما أرغمنى على قبول نقوده أثناء رحلة العودة من فيتريو • وتشبثت بفكرة الزواج يحدونى أمل أقوى وأشد تمسكا خشية أن تكون أمى وجبزيلا على حق فينتهى زواجى لسبب أو لآخر بالفشل •

الفصل السادس

وفي تلك الاثناء كنت قد سددت أقساط الاثاث جميعها وأخذت أكد أكثر من أى وقت مضى لأزيد مكاسبى وأدفع ثمن جهازى . ففى الصباح أقف فى المراسم وفى المساء أحتبس مع أمى فى غرفة الجلوس حيث أعكف على حياكة القمصان حتى هبوط الليل . وكانت هى تعمل على ماكينة الخياطة بالقرب من النافذة بينما أجلس انا الى المائدة غير بعيد . منها حيث أعمل بيدي . وقد علمتني أمى فنون الحياكة فكان عملى فيها يمتاز دائما بالسرعة والمهارة . وكان على دائما أن أشق عددا من العرى والثقوب وأقوى حفافها . كما لم يكن بد من أن يوضع على كل قميص الحرفان الاولان من اسم صاحبه ولشد ما كنت أجيد ذلك العمل فأجعل الحروف مرتفعة ثابتة على صورة تبدو معها بارزة فوق القماش . وقد تخصصنا فى ملابس الرجال ولكننا كنا احيانا نصنع قمصان النوم للسيدات أو سراويل داخلية من قطعتين أو قطعة واحدة ولكنها من قماش غث لان أمى لم تكن لها دراية بالتطريز كما لم تكن تربطها صلات بسيدات المجتمع لتقوم بحياكة ثيابهن . وكنت اثناء عكوفى على الحياكة أفكر فى جينو والزواج ورحلة فيتريو وأمى وحياتى الخاصة فى الواقع . وسرعان ما كان الوقت يمضى . اما خواطر أمى فلم أكن أعرفها قط . ولكنها كانت بلا ريب تفكر فى شىء ما لانها لم تفتأ تبدو غاضبة وهى تدير ماكينتها كما كانت عادة تجيبني بلهجة غاضبة كلما تحدثت اليها . وما ان يقترب المساء ويزحف الظلام حتى أنهض من مكانى وأنفض عن ثوبى بقايا الخيط ثم ارتدى أفخر ثيابى وأخرج لمقابلة جيزيلا أو جينو اذا كان فى اجازة من عمله . وانى لأتساءل اليوم عن حقيقة شعورى وقتذاك وهل كنت حقا سعيدة . كنت كذلك من وجهة نظر معينة لأشتياقى الى شىء خلته هرج المبال . ولقد اكتشفت منذ ذلك الوقت أن المرء لا يشعر بالنعاسة حقا الا اذا فقد الامل تماما . وعندئذ لا يجديه يسر أو غنى عن الحاجة

وقد لاحظت أكثر من مرة حينذاك أن أستاريتنا كان يقتفى أثرى فى الشوارع . وغالبا ما كان ذلك فى الساعات الاولى من الصباح وأنا فى

طريقي الى المراسم . فكان ينتظر خروجي من المنزل عادة وهو منزو
في احد منحنيات سور المدينة على الجانب المقابل من الطريق - ولكنه
لم يكن يعبره قط بل يكتفي باقتفاء أثرى بخطا وثيدة متمسترا
بالجدران أثناء سيرى بمحاذاة المنازل مهرولة تجاه الميدان - واني
أعتقد أنه كان قانعا بمراقبتي - ذلك السلوك الذي يتميز به من كان
غارقا في الحب . وعندما ابلغ الميدان كان يذهب ليقف في مواجهتي
تماما على محطة الترام حيث لا يفتأ يراقبني . وما كان على الا ان
أنظر اليه حتى يتولاه الارتباك ويتظاهر بالتطلع الى الطريق ليرى ما اذا
كان الترام قادما . ان حبا كهذا لا يمكن أن تواجهه امرأة دون أن
تكثر له . بل حتى أنا كنت أحس نحوه أحيانا رغم تصميمي على
مقاطعته نهائيا بنوع من الشفقة المزهوة . وبعد ذلك يأتي جينو أو
يقبل الترام فاما أن أركب السيارة واما أن أستقل الترام تاركة
آستاريتا واقفا على المحطة يراقبني وأنا أختفي مبتعدة عن بصره

وذات مساء عندما بلغت المنزل وجدت آستاريتا واقفا في غرفة
الجلوس وبيده قبعته وهو يتبادل الحديث مع أمى متكئا على المائدة .
وعندما فكرت فيما كان يقوله لأمى ليستميلها الى صفه فتشفع له
عندي زابلتني كل شفقة عليه وتولاني الغضب لرؤيته في منزلي فقلت
له : - « ماذا تفعل هنا ؟ »

فحملق في وأخذ وجهه يختلج متشنجا كما كان يختلج في السيارة
عندما صارحني باعجابه بي ونحن في طريقنا الى فيتريو . ولكنه
عندئذ لم يقو حتى على الكلام . فأسرت لى أمى قائلة - « هذا
السيد يقول انه يعرفك . وأراد أن يطمئن عليك » . فأدركت من
لهجتها أن آستاريتا قد تحدث اليها تماما كما توقعت بل وربما
نفحها بالمال . فقلت لها - « أرجو أن تذهبي يا أماه . فتولاها الذعر
لصوتى المخبول ثم دلفت الى المطبخ دون أن تجيب . ثم رددت قائلة -
« ماذا تفعل هنا ؟ اذهب ! » فنظر الى وبدأ يحرك شفثيه ولكنه لم
ينبس بكلمة . ثم سقط جفناه على عينيه وكدت أرى بياضهما . كما
بدأ لى أنه لن يلبث أن يسقط على الأرض في نوبة عسية . فرددت
قائلة بصوت عال وأنا أضرب الأرض بقدمي - « اذهب والا استغثت
- فسأنادى صديقا لنا يسكن الطابق السفلى »

وقد ساءلت نفسي مرارا عن السبب في أن آستاريتا لم يحاول
أبتزأى مرة أخرى أن لم أرضخ له عن طريق تهديدي باطلاع جينو
على ما حدث في فيتريو . وكان في امكانه ذلك مع ترجيح نجاحه

حينذاك لانه ضاجعنى فعلا وكان هناك شهود على ذلك ولا يمكننى انكار تلك الواقعة . وانتهيت الى انه فى المرة الاولى لم يكن يحس نحوى الا بالرغبة اما فى الثانية فكان يحبى . والحب يتوق الى المبادلة . اما وقد أحببى آستاريتا الآن فلاريب انه أحس بأن أملاكه اياى فى فيتريو عندما رقدت له خرساء بلا حراك كالجثة الهامدة لم يكن مقنعا أو مرضيا على الاطلاق . ولكننى عندئذ كنت مصممة على اظهار الحقيقة مهما كان الثمن . فان جينو ينبغى أن يفهمنى قبل كل شىء ويصفح عنى ان كان يحبى . وكان تصميمى خليقا باقناع آستاريتا ان أية محاولة أخرى لابتزازى لن تتمخض عن شىء . وعندما هدذته بالاستفائة لم يفه بكلمة بل اتجه نحو الباب ساحبا قبعته على المائدة . وما ان بلغ طرف المائدة حتى توقف عن المسير مطأثا رأسه فبدا وكأنه يستجمع شجاعته ليخاطبنى . ولكنه ماكاد يرفع رأسه مرة أخرى ويحرك شفثيه حتى بدا وكأن شجاعته تخونه وظل صامتا يحملق فى . وبدت لى تلك النظرة الثانية لا نهائية . ثم تركنى بايماءة من رأسه مقلقا الباب خلفه

وفى التو ذهبت الى أمى فى المطبخ . وسألتها قائلة فى غضب :

« ماذا قلت لهذا الرجل ؟ »

فأجابت قائلة فى خوف - « لا شىء ! لقد سألنى عن عملنا وأخبرنى أنه يريدنى أن أحبك له بعض القمصان »
فصحت قائلة - « سأقتلك ان ذهبت اليه ! »
فنظرت الى فى رعب قائلة - « ومن قال اننى ذاهبة اليه ؟ يمكنه أن يكلف شخصا آخر ليحكى له قمصانه ! »

« ألم يتحدث عنى ؟ »

« لقد سألنى متى تتزوجين ؟ »

« وماذا قلت له ؟ »

« قلت انك ستزوجين فى اكتوبر »

« ألم يعطك نقودا ؟ »

فنظرت الى متظاهرة بالدهشة قائلة - « كلا . لماذا ؟ أكان يجب أن يفعل ؟ »

فتأكدت من لهجة صوتها أن آستاريتا قد أعطاها نقودا . فركضت نحوها وقبضت على ذراعها فى عنف قائلة :

« اصدقينى القول ! هل أعطاك نقودا ؟ »

« كلا . انه لم يعطنى مليما »

وكانت يدها ممدوسة في جيب وزرتها . فقبضت على معصمها في
عنف فسقطت من يدها المسبوطة ورقة مالية مطوية . ومع أنني كنت
لا أزال مسكناً بها فقد انحنيت والنقطة هي أشد ما تكون جشعاً
وغيره فانطفأت نار غضبي في الحال . إذ تذكرت ما أثارته في نفسي
نقود آستاريتا من اضطراب وفرحة يوم رحلة فيتريو واحسست أنه
ليس من حقي إيدانة أمي لأحاسيسها بنفس المشاعر واستسلامها لنفس
الاعراء . والان أتمنى لو لم أسألها ولم أر الورقة المالية . فاكثفت
بأن قلت لها بلهجة طبيعية - « أترين أنه فعلاً أعطاك شيئاً ؟ » ثم
غادرت المطبخ دون انتظار لتفسيرها . ولقد أدركت من بعض تلميحات
فاهت بها أثناء تناول العشاء أنها تبغى أن تحدثني مرة أخرى عن
آستاريتا والنقود ولكنني غيرت الموضوع ولم تصر هي عليه .
وفي اليوم التالي جاءت جيزيلا وحدها دون أن يصحبها ريكاردو
إلى مشرب الشاي حيث تعودنا أن نلتقى .

وما كادت تجلس حتى قالت دون مقدمات - « يجب أن أقول لك
اليوم شيئاً على جانب خطير من الأهمية » .
فانتابني احساس داخلي شحبه له وجهي . وقلت في ضعف - « ان
كان نبأ شيئاً فأرجو ألا تخبريني به » .
فقلت في حماس - « إنه ليس ساراً ولا سيئاً . ولكنه نبأ
فحسب . هذا هو كل ما في الأمر . لقد قلت لك من قبل من هو
آستاريتا - »

- « لا أريد أن اسمع شيئاً من آستاريتا . . . »
- « أنصتي إلى الآن ! ولا تكوني طفلة هكذا ! ان آستاريتا كما قلت
لك من قبل شخصية هامة للغاية . فهو من ذوي الشأن . كما أنه
يشغل منصباً خطيراً في المباحث العامة » .
فأحسست بشيء من الطمأنينة لأنه لا صلة لي بالسياسة قبل كل
شيء . ثم قلت - « لا يهمني مطلقاً عمل آستاريتا حتى ولو كان
وزيراً . »

فهمت جيزيلا قائلة - « يا لك من . . . ! عليك أن تنصتي فقط
بدلاً من مقاطعتي طوال الوقت . لقد أخبرني أنك يجب أن تذهبي
لمقابلته في الوزارة . إذ يجب أن يتحدث إليك . ثم أردفت قائلة بسرعة
عندما رأته أهم بالاحتجاج . « لا عن الحب . بل لديه نبأ خطير
يريد أن يخبرك به - أمر يخصك » .
- « أمر يخصني ؟ » .

- « نعم . أمر فيه مصلحتك . هذا هو ما قاله لى على الاقل » .

ولست أدري أنا نفسى ما الذى جعلنى أقرر عندئذ قبول دعوة أستاريتا بعد رفضها مرارا .

فقلت وأنا أقرب الى الموت منى الى الحياة - « حسنا . انى ذاهبة » .

وقد ارتبكت جزيلا قليلا عندما رأيت موقفى السلبى . ثم لاحظت لأول مرة كم كنت شاحبة خائفة . فسألتنى قائلة :

- « ماذا دهاك ؟ الانه فى المباحث ؟ انه لا يتعقبك ! فما الذى يخيفك منه ؟ فهو لا يبغى القاء القبض عليك ! »

فنهضت واقفة رغم احساسى بالدوار وقلت - « حسنا . انى ذاهبة . اية وزارة هى ؟ » .

- « الداخلية . فى مواجهة السوبر سينما تماما . ولكن أنصتى »

- « متى ؟ »

- « فى أى وقت من الصباح . ولكن أنصتى - »

وفى تلك الليلة لم أنم إلا قليلا . فقد أعيانى أن أفهم ماذا يريد منى أستاريتا خارج نطاق وجدده وهيامه . ولكنى أدركت ببصيرتى التى بدت لى معصومة من الخطأ ان الامر لا يمكن ان يكون خيرا . فالمكان الذى استدعانى اليه جعلنى أعتقد أنه لابد ان يكون أمرا متصلا بالشرطة . وكنت أعلم من الناحية الاخرى كما يعلم جميع الفقراء ان الشرطة عندما تتحرك فلن يكون ذلك للخير . وبعد أن تفحصت مسلكى الخاص فى كل تفاصيله خلصت الى أن أستاريتا كان يبغى ابتزازى مرة أخرى باستخدام معلومات خاصة بجينو استطاع أن يحصل عليها . كنت لا أعلم شيئا عن حياة جينو ولعله كان مشبوها سياسيا . وكنت لأزعج نفسى قط بأمر السياسة . ولكن لم يبلغبى جهلى الا أعلم أن هناك عددا من الناس لا يميلون الى الحكم الفاشى وأن فئة أخرى من أمثال أستاريتا كان من واجبهم تعقب هؤلاء المعادين للنظام والقبض عليهم . وصور لى خيالى بألوان زاهية تلك الورطة التى سيضعنى فيها أستاريتا . فاما أن أسلمه نفسى وأنا راغمة مرة أخرى او يذهب جينو الى السجن . وكان مبعث خوفى انى لم أشأ مطلقا أن ارضى أستاريتا كما لم أشأ ان يذهب جينو الى السجن . ولم أعد أشعر بالشفقة على أستاريتا وأنا أفكر فى تلك الامور بل لم يبق فى نفسى سوى الكراهية . فقد بدا لى مخلوقا فاسدا دنيئا غير جدير بالحياة ولا يستحق سوى العقاب بلا رحمة

أو هوادة • وحدث أن كان التفكير فى قتل آستاريتا من بين الحلول
الأخرى المترحة لمشكلتى . ولكن ذلك لم يكن حلا بقدر ما كان وهما
مريضا تراهى لى وأنا بين النوم واليقظة . وفى الواقع فان ذلك الوهم
لازمنى حتى الصباح شأن أى . وهم يابى أن يتطور بالطريقة السليمة
الى عزم موضوعى ثابت • فقد تراهى لى أننى أضع فى حقيبة يدي
مدية كانت تستخدمها أمى فى قشر البطاطس ثم أذهب بها الى آستاريتا
حيث أسمع الدعوة التى أخشاها فأغمد مديتى فى عنقه بين أذنه وياقته
البيضاء المنشأة تماما بكل ما أوتيت ذراعى المفتولة من قوة . ثم
تراهى لى أننى أغادر الغرفة متظاهرة بالهدوء التام ثم أهرع لاختبئ
عندجيزيلا أو عند صديق آخر . ولكننى على الرغم من استعراض
كل هذه المشاهد الدموية فى خيالى كنت أعلم طوال الوقت أننى لن
أستطيع مطلقا أن أفعل شيئا من هذا القبيل . فلشد ما أرهب الدم
وأخشى ايداء الناس كما أوتر أن أتعرض للاضطهاد على أن اضطهد
أحدا .

وغفوت قرب الفجر فأخذتنى سنة من النوم . وما أن طلع النهار
حتى نهضت وذهبت لمقابلة جينو فى الموعد المعهود .
وما كدنا نلتقى فى الطريق الريفى ونتبادل التحيات المعهودة
حتى قلت محاولة أن أجعل لهجتى تبدو عرضية بقدر الامكان -
« أكان لك قط شأن بالسياسة ؟ »
- « السياسة ؟ ماذا تعنين ؟ »
- « أعنى العمل فى أية صورة ضد الحكومة » .
فرمانى بنظرة مدركة ثم قال - « انتظرى لحظة . أتحسبيني
معتوها ؟ »

- « كلا . ولكن - »
- « لا . لا . فلنستوضح هذا الامر ! أتحسبيني معتوها ؟ »
فقلت - « كلا . فانك لا تبدو كذلك ولكن - »
فقال - « حسنا اذن . فما الذى جعلك بحق الشيطان تظنين أن
لى شأنا بالسياسة ؟ »

- « كنت أدري ولكن أحيانا - »
- « لا جدوى من ذلك ! بل يمكنك أن تقولى لمن صدرت عنه هذه
التلميحات كأننا من كان أن جينو مولينارى ليس معتوها • »
وفى حوالى الساعة الحادية عشرة بعد أن ظللت أتجول حول مبنى
الوزارة مدة تزيد على الساعة دون أن أقوى على حزم أمرى على

الدخول اقتربت من الوباب وسألته عن آستاريتا وكان على أول ان
أصعد درجاً وخامياً واسمائهم درجاً آخر اضيق منه ولكنه مع ذلك
عريض للغاية . ثم اصطحبت خلال عدد من البدهاليز الى غرفة انتظار
تؤدي اليها ابواب ثلاثة - وكانت الشرطة ترتبط في ذهني عادة بالمكاتب
القدرة الحقيرة في الاقسام المحلية . ولذلك فقد ادهشني ان ارى
فخامة المكان الذي كان يعمل فيه آستاريتا . وكانت غرفة الانتظار
فسيحة ذات أرضية من الموزايكو علقتم بها صور قديمة كتلك التي
نراها في الكنائس . كما وضعت هنا وهناك بالقرب من جدرانها مقاعد
جلدية وملاّت فراغ الغرفة في الوسط منضدة كبيرة . وعندما
احسست بالقلق ازاء هذه الفخامة كلها لم يسعني الا الاعتراف
بصحة ما تقوله جيزيلا - فلا ريب ان آستاريتا شخصية هامة حقا .
وثمة حدث غير متوقع أوحى الى بأهميته . فاني ما كدت اجلس
حتى فتح أحد الابواب وخرجت منه سيدة طويلة القامة جميلة ولو
أنها تخطت سن الشباب . كانت متشحة بالسواد في أناقة شديدة
من أعلى رأسها الى أخمص قدميها يغطي وجهها حجاب صغير - وفي
أعقابها خرج آستاريتا فنهضت واقفة ظنا مني انه دوري . ولكن
آستاريتا وأصل حديثه مع السيدة عند مدخل الغرفة بعد ان أشار
الى بيده إشارة يفهمني بها انه رآني ولكن دوري لم يأت بعد . ثم
اصطحب السيدة الى وسط الغرفة حيث انحنى لها وقبل يدها ثم
تركها مشيراً الى شخص آخر كان يجلس معي في غرفة الانتظار
وهو رجل مسن يرتدي حلة سوداء ويلتحي بلحية بيضاء صغيرة ويضع
على عينيه منظارا فبدأ كأحد الاساتذة : وما ان أشار اليه آستاريتا
حتى نهض في الحال وهروول خلفه في ذلة وحماس . ثم اختفى كلاهما
داخل الغرفة فمكثت وحيدة .

ولشد ما لفت نظري في شخصية آستاريتا اثناء ظهوره العابر
اختلاف أسلوبه عما كان عليه في رحلة فيتريو . فقد شاهدته حينذاك
أبكم مرتبكا متشنجا شبه مخبول . أما الآن فكان يبدو رابط الجأش
تماما هادئ الاسلوب ولكن في دقة ينبعث منه احساس غامض بلو
لسان والسلطة والنفوذ ولكن في حياءة . وقد تغير كل شيء فيه
حتى صوته . اذ انه في اثناء الرحلة كان يتحدث بصوت خفيض دافئ
مخنوق النبرات . أما في اثناء حديثه مع السيدة المحجبة فكان صوته
يبدو واضحا باردا هادئا موقعا . وكان كعادته يرتدي حلة رمادية
قائمة تحيط بعنقه ياقة بيضاء مرتفعة أضفت على رأسه مظهر

الصلابة . ولكن حلتها وياقته اللتين سبق أن رأيتهما أثناء الرحلة ولم أعلق عليهما أهمية خاصة بدأت لي في تلك المناسبة زينا يتفق تماما مع الغرفة الضخمة بأثاثها الثقيل العارى من الزينة كما يتفق مع ذلك السكون والنظام اللذين يسودان المكان . وحدثت نفسي قائلة ان جيزيلا كانت على حق فلاريب أنه فى الحقيقة ذو شأن كبير . ولا سبيل الى تفسير أسلوبه المرتبك ازائى واحساسه بالنقص تجاهى الا انه غارق فى حبي .

وقد شتتت ذهنى تلك الخواطر فهدأت فى نفسى مشاعر الاضطراب الاولى حتى اننى عندما فتح الباب بعد بضع دقائق وخرج معى الرجل المسن كنت أحس بالسيطرة التامة على نفسى . ولكن آستاريتا عندئذ لم يأت ليشير الى من مدخل الغرفة . بل دق احد الاجراس ودخل خادم ليرى ماذا يبغى آستاريتا مفلقا الباب خلفه ثم عاد ييلفنى انه يمكننى الدخول بعد ان سألتنى عن اسمى فى صوت خفيض . فنهضت واتجهت نحو الغرفة فى غير اكرث .

وكانت غرفة مكتب آستاريتا لا تقل حجما بكثير عن غرفة الانتظار . وقد خلت الا من أريكة ومنتكأين جلدين فى احدى الزوايا ومنضدة كبيرة يجلس اليها آستاريتا فى زاوية أخرى . وثمة نافذتان أسدلت عليهما ستائر بيضاء كانتا تدخلان ضوءا باردا خاليا من أشعة الشمس ولشدهما كان ذلك الضوء ساكنا حزينا حتى أنه ذكرنى بصوت آستاريتا أثناء حديثه مع السيدة المحجبة . وقد اكتست أرضية الغرفة بسجادتين كبيرتين ناعمتين وعلقت على الجدران صورتان أو ثلاث . ويمكننى أن أتذكر احدهما وكانت تمثل حقولا خضراء ممتدة تحدها عند الافق سلسلة من الجبال الصخرية .

كان آستاريتا كما قلت جالسا خلف منضدة كبيرة . ولم يرفع بصره عن الاوراق التى كان يقرأها أو يتظاهر بقراءتها عندما دخلت . أقول « يتظاهر » لاننى تأكدت أن ذلك كله لم يكن سوى مظهر قصد به تخويفى حتى تمتلىء نفسى احساسا بسلطته وأهميته . وفى الواقع فانى ما ان اقتربت من المنضدة حتى رأيت أن الورقة التى كان يدرسها بكل ذلك الاهتمام لم تكن تحترق الا على ثلاثة أو أربعة أسطر مهورة بتوقيع قبيح . وفضلا عن ذلك فان يده التى كان يتكىء بجبهته عليها وقد أمسك بدخينته بين اصبعين منها كشفت عن اضطرابه فقد كانت ترتعش على صورة ملحوظة مما تسبب عنه سقوط بعض الرماد على الورقة التى كان يفحصها بتركيز شديد واهتمام متكلف .

وضعت يدي على حافة المنضدة وقلت - « ها اندي » .
عندئذ بدأ وكأنه قد تلقى الإشارة اذ توقف عن القراءة ووثب
على قدميه ثم أقبل يحييني ممسكا بكلتا يدي . وقد تم كل ذلك في
صمت تام مما كان يتنافى على صورة غريبة مع ذلك الموقف المتسلط
غير المكترث الذي كان يحاول ان يحتفظ به . وفي الواقع فاني لم
البت ان أدركت ان صوتي وحده كان خليقا بأن ينسيه الدور الذي
أعد نفسه للقيام به . ثم غشيه بعد ذلك اضطرابه المعهود على صورة
لا سبيل الى مقاومتها . فقبل يدي احدهما بعد الاخرى وهو يحملق
في مديرا حدقتيه الحزینتين وقد أمضهما الحنين الى الحب . وما ان
هم بالكلام حتى ارتعشت شفثاه فلزم الصمت راغما .
وأخيرا قال بذلك الصوت الخفيض المخنوق الذي تعرّثت عليه -
« لقد جئت » .

ولعلني الآن عن طريق التناقض مع موقف أستاريتا أحسست
بنفسي وقد امتلأت ثقة . فقلت - « نعم جئت » . وما كان ينبغي ان
أفعل في الحقيقة - مالذي تريد ان تقوله لي ؟ »
فتمتم قائلا - « تعالى واجلسي هنا » . ولكنه لم يترك يدي قط
بل قادني الى الاريكة وهو لا يزال يضغط عليها بقوة . فجلست واذا
به في الحال يجثو أمامي واضعا ذراعيه حول ساقي وضاعطا بجبهته على
ركبتي . فعل ذلك كله دون ان ينبس ببنت شفة وهو يرتجف من
أعلى رأسه الى أخمص قدميه . ولشد ما ضغط بجبهته في قوة على
ركبتي حتى ألمني . وبعد أن مكث فترة طويلة على هذه الحال رفع
رأسه الاصلع الى أعلى وكأنه يريد ان يوسده حجري . فهيمت
بالنهوض قائلة :

- « كان لديك نبا هام تريد ان تبلغني اياه - فاما ان تخبرني به
واما ان أمضي لشأني » .

فنهض واقفا في صعوبة ثم جلس بجانبى ممسكا بيدي .
وتمتم قائلا - « لا شيء » . ولكنني أردت ان أراك مرة أخرى .
فهممت بالنهوض من جديد ولكنه أمسك بي ثم أردف قائلا -
« نعم . ولكنني أردت ان أقول لك ايضا أننا يجب ان نصل الى
تفاهم » .

- « في أية صورة ؟ » .

فأسرع قائلا - « اني أحبك - بل متيم بك - فتعالى لتقيمي معي
في منزلي حيث يمكنك ان تكون ربة الدار وكأنك زوجتي - وسأشتري

لك الملابس والمجوهرات وكل ما تشتين - «

بدا كالمعتوه . وكانت الكلمات تتدفق مختلطة من فيه بينما التوت
شفتاه وهما لا تكادان تتحركان . فسألته قائلة في فتور - « أمن أجل

هذا استدعيتني الى هنا ؟ » .

- « الا تبغين ذلك ؟ » .

- « بل ارفض مناقشته » .

ومن الغريب انه لم ينبس بكلمة بعد هذه الاجابة . بل رفع يده .
وهو يوشك بنظرته الشاخصة المخبولة أن يفرض على نوما منعاطيسيا
ثم راح يربت على وجهي وكأنه يريد أن يتذر قسماته . وكانت
أصابعه خفيفة حتى أمكنني أن احس بها وهي ترتعش بينما ظلت
انامله تتزسم وجهي رائحة غادية بين جبهتي ووجنتي . كانت حركة
رجل عاشق . ولشد ما يقوى الحب على الاستمالة - حتى ولو افتقد
التبادل - الى حد أنني كدت أتأثر لحظة بالعطف فأخفف من لهجتي
الجافة الحاسمة . ولكنه لم يتح لي الفرصة لانه ما كاد ينتهي من
تحسس وجهي حتى نهض واقفا وتكلم بنبرات دقيقة متعثرة فجاء
كلامه خليطا غريبا من الرغبة المكبوتة والاحساس بالواجب ذلك
الاحساس الذي كان جديدا مجهولا .

قال - « انتظري لحظة . فلدي حقا أمر هام أريد أن أطلعك عليه »

وفي أثناء ذلك عاد الى المنضدة حيث التقط ملفا أحمر اللون .

فعراني الاضطراب بدوري عندما رأيته قادما نحوي وفي يده ذلك

الملف الاحمر . وسألته قائلة في ضعف - « وما هو ؟ » .

- « انه - انه » وكان غريبا ذلك الامتزاج الذي حدث بين نبرة

صوته الرسمية التي تنبئ بالسلطة والنفوذ وبين انفعاله العاطفي -

« انها بعض المعلومات عن خطيبك » .

فقلت وأنا أغمض عيني لحظة من شدة الخوف - « آه ! » ولكن

آستاريتا لم يلحظ ذلك بل ظل يقلب الصفحات التي كانت تتقلص

بين يديه من شدة الاضطراب .

قال - « اليس هو جينو موليناري ؟ »

- « نعم » .

- « انك تحتزمين الزواج به في أكتوبر . اليس كذلك ؟ »

- « نعم » .

ثم أردف قائلا - « ولكن يبدو أن جينو موليناري متزوج بالفعل

وتحريا للدقة فانه متزوج بأنثونيتا بارتيني ابنة المرحوم اميليو وحرمه

ديوميرا لافانيا . . . وأنهما منذ أربعة أعوام . . . أنجبا طفلة تدعى ماريما
ووزوجه لى الوقت الحاضر. تقبل مع أمها فى أوروفيتو .
فلم أنبس بكلمة . بل نهضت من فوق الاريكه واتجهت صوب
الباب . وظل آستاريتا واقفا فى وسط الغرفة والأوراق فى يده .
ففتحت الباب وخرجت .

ويمكننى أن أتذكر أننى عندما وجدت نفسى فى الطريق وسط
الزحام فى يوم جميل كثير السحب من أيام ذلك الشتاء اللطيف
خالجنى يقين مرير أن حياتى كانت أشبه بالنهر الذى تحول صناعيا
عن مجراه الطبيعى حينما من الزمان ثم عاد يتدفق من جديد فى
اتجاهه المعهود دون تغيير أو تجديد بعد انقطاع تسببت فيه آمالى
واستعداداتى للزواج . ولعل ذلك الاحساس كان راجعا الى اننى وأنا
فى حيرتى وذهولى أخذت أنظر حولى بانتباه مجرد من بهجته الاولى
وقد بدت لى زحمة الناس والمحال والشوارع لأول مرة منذ عدة
شهور فى ضوء طبيعى لا رحمة فيه اذ انها لم تكن جميلة ولا قبيحة
كما لم تكن مسلية ولا مملة بل تماما كما هى وكما لا بد أن تبدو لعينى
المخمور عندما يفيق من سكرته . ولكننى أرجح أن ذلك الاحساس
كان مستمدا من ادراكى أن الاشياء الطبيعية فى الحياة لم تكن خططى
للسعادة كما كنت أتصور بل نقيض ذلك تماما - اعنى أن جميع
تلك الاشياء المعادية لكل تخطيط وبرامج ما هى الا أسباب عارضه
مخطئة وغير متوقعة للخيبة والاسى . فلو صح هذا كما خيل لى انه
يجب أن يكون كذلك فلا شك أننى قد بدأت أحيا من جديد فى ذلك
الصباح بعد نشوة استمرت عدة شهور .

كان ذلك هو الخاطر الوحيد الذى بعث فى ذهنى على أثر اكتشافى
خداع جينو مولينارى . فلم يدر بخلدى أن ألومه ولم يخالجنى نحوه
حقا أى احساس بالتأذى . فعندما انحرفت عن الطريق السوى كان
ذلك بمشاركتى اياه . فقد كانت ذكرى اللذة التى وجدتها بين ذراعيه
اقرب الى مخيلتى من أن أتقاعس عن التماس المعاذير ان لم يكن
التبرير لكذبه وخداعه . وخيل لى انه لم يكن خبيثا بقدر ما كان
ضعيفا استندت به رغبته وأن الخطأ - ان كان هناك خطأ - مرجعه
جمالى الذى كان يفقد الرجال صوابهم ويسسيهم التراماتهم وكل
وازع من ضمائرهم . وفى النهاية فان جينو لم يكن يستحق اللوم اكثر
من آستاريتا ولا فارق بينهما سوى أن جينو استخدم الفس والخداع
فى حين أن آستاريتا لجأ الى الابتزاز . ولشد ما أغرم كلاهما بى وما

من شك في أنها لو استطاعا لآثرا يقينا أن يستحوذا على بالطريقة
الشروعة ولحقا لي تلك السعادة الواضحة التي تعلق بها قلبي .
ولكن القدر على العكس من ذلك قادني بكل ما أوتيت من جمال الى
لقاء أولئك الذين لا يمكنهم أن يحققوا لي تلك السعادة . ولسوء
الحظ فانه حتى اذا لم يكن ثمة من يستحق اللوم فلا مجال للشك
في ان هناك ضحية - تلك هي انا .

لعل هذه الطريقة في التفكير والجلل تبدو ضعيفة في نظر البعض
على أثر خيانة كخيانة جينو . ولكنني كنت كلما لحقني أذى
ما - وكثيرا ما حدث لي ذلك بسبب فقرى وبراءتى ووحدتى - لا
افتأ أحاول التماس المعاذير لمن أساء الى ونسيان ما لحقني من أذى
في أقرب وقت ممكن . واذا ما احدث ذلك الاذى تغيرا في نفسى على
الاطلاق فانى لا اكشف عنه في سلوكى او في مظهرى الخارجى بل
اطويه في اعماق روحى التي تلتئم وتنقبض على ذاتها كالبدن السليم
الذى يحاول فى أقرب وقت أن يلام جراحه . ولكن الندوب تظل
باقية وهذه الجراح شبه اللاواعية التي تصيب الروح لا تندمل أبدا .
وهذا هو ما حدث مع جينو . فانى لم أحمل له ضغينة في نفسى
لحظة واحدة ولكننى أحسست فى اعماق نفسى بتقوض أشياء كثيرة
الى الابد - احترامى له وآمالى فى تكوين أسرة ورفض الاعتراف
بصدق نظرة أمى وجيزيلا وايمانى الدينى او على الاقل ذلك الاعتقاد
الذى كنت أتمسك به حتى ذلك الوقت . وشبهت نفسى بدمية كنت
أملكها وأنا طفلة صغيرة - فبعد ان ظللت أضربها وأجرها هنا وهناك
طوال النهار أحسست بورم فى داخلها وصرير مشنوم رغم أنها كانت
لا تزال كعهدا دائما مبتسمة متوردة الوجه . فنزعت رأسها
وتساقطت من فتحة عنقها قطع صغيرة من الخزف والخيط واللواب
وجميع الادوات التي تجعلها تنطق وتحرك عينيها هنا وهناك كما
تساقطت قطع غريبة من الخشب والقماش التي ظلت وظيفتها سرا
مستغلقا على ادراكى .

عدت الى المنزل وأنا مشدوهة ذاهلة ولكننى هادئة . وفى ذلك
المساء قمت بعملى كالمعتاد دون أن أطلع أمى على ما حدث أو ما وصلت
اليه من نتائج . ولكننى أدركت أنه لا يمكننى التظاهر الى حد القيام
بحياكة ملابس الجهاز كما كنت أفعل فى الايام الاخرى . بل التقطت
الثياب التي انجزت حياكتها فعلا وتلك التي كان على أن أحيكها
وأودعتها جميعا خزانة الملابس فى غرفتى . ولم يسع أمى إلا أن تلاحظ

عاستى الى امر غير بالرفق لانى كنت فى معظم الايام مرحة خلية .
ولكننى لم اكن ابنى مشبة وهكذا كنت فى الواقع . وحوالى المساء
بينما كانت امى تعمل على الماكينة تركت عملى ودلفت الى غرفتى
حيث تجلست على الفراش . وادركت اننى كنت انامل الاثاث الذى
انتهيت من دفع ثمنه واصبح الآن ملكا لى بالفعل بفضل نقود استاريتا
ولكن لشيء ما اختلفت نظرتى اليه عن ذى قبل فقد خلت من السرور
والامل . ثم اشعر بالتمسك بل بالتمسك وعدم المسالة فحسب كما
يشعر الزم على اثر جهد كبير بذله ولكنه لم يتخض عن شئ . وعلى
اية حال فقد اجسست بالتمسك الجسمانى وبالالم فى جميع اطرافى
وباشتياق حقيق الى الراحة . وبينما كنت افكر بطريقتة مضطربة
فيما افعله بالاثاث وكيف انه صار من المستحيل الآن استخدامه
كما كنت امل استفرقت فى النوم على الفراش وأنا فى كامل هنداى
ونمت فى هدوء لمدة اربع ساعات تقريبا نوما عميقا حزينا ثم استيقظت
فى ساعة متأخرة من الليل حيث ناديت امى من خلال الظلام الذى
كان يحتوينى . فحفت الى فى الحال واخبرتني أنها لم تشأ أن
توقظنى عندما راتنى مستفرقة فى نوم هادىء راض للغاية . ثم
اردفت قائلة وهى واقفة هناك تنظر الى - « لقد اعد العشاء منذ
ساعة . ماذا تفعلين ؟ الا تأتين لتأكل شيئا ؟ »

فاجبتها قائلة وأنا اطفى عيني المبهورتين بالضوء باحدى ذراعى -
« لا أريد أن أنهض لم لا تحضرينه الى ؟ »

فغادرت الحرفة ثم ما لبثت ان عادت حاملة صينية عليها عشائى
المعتاد . وما ان وضعت الصينية على حافة الفراش حتى نهضت
متكة على احد مرفقى واخذت تناول طعامى بلا شهية . ولكننى
ما لبثت ان توقفت عن الاكل بعد اللقم القليلة الاولى ثم استلقيت الى
الخلف على الوسائد مرة اخرى . فسالتنى امى قائلة - « ماذا دهالك
الا تأكلين شيئا ؟ »

- « لست جوعى ا » .

- « اللى على ما يرام ؟ » .

- « بل فى تمام الصحة . » .

فدمدمت قائلة - « اذن فساحمل الصينية . » ورفعت الصينية
من فوق الفراش وذهبت لتضعها على المائدة بالقرب من النافذة .
ثم ما لبثت ان اردفت قائلة - « لا توقظينى غدا صباحا » .
- « لماذا ؟ » .

- « لاني قررت الا اعمل نموذجاً بعد الآن - فلشد ما تكدهن ولا

تكسين سوى النذر اليسير » . فسالتني قائلة في قلق - « وماذا تفعلين ؟ » لم بدأت تقول وفتن

قائلة - « فليس في امكاني ان اكفلك - انت لست طفلة ومطالبك كثيرة . كما اني احمل على عاتقي عبئاً ثقيلاً - فهناك جهاز العرس » فقلت في بظء واعياء دون أن ارفع ذراعي عن وجهي - « لاتضايقيني الآن . ولا تقلقي فسوف يكون هناك دائماً ما يكفي من المال . »

واعقب ذلك صمت طويل . واخيراً سألتني قائلة بلهجة قلقة ذليلة كخادمة تحاول ان تنال الصفح بعد توبيخها لتجاوزها حدود الالفة - « ألا تبغين شيئاً ؟ » .

- « نعم . أرجو أن تعاونيني على خلع ملابسى . فاني متعبة للغاية وما زال النعاس في عيني . »

فاستجابت لرغبتى وجلست على الفراش لتخلع لي حذائي وجواربي التي وضعتها بعناية على المقعد عند طرف الفراش . وبعد ذلك خلعت لي ثوبى وعاونتنى على ارتداء قميص النوم . ولم أفتح عيني طوال الوقت . بل ما كدت أرقد تحت الاغطية حتى انكمشت واخفيت رأسى في الملاءة . وعندما أطفأت أمى الضوء تمت لي ليلة طيبة من مكانها عند مدخل الغرفة ولكننى لم أحر جواباً بل عدت الى النوم في الحال ونمت الليل بطوله ورددحا من الصباح .

وفى الصباح التالى كان ينبغى أن اذهب فى موعدى المعتاد للقاء جينو ولكننى عندما استيقظت أدركت أننى لأبغى رؤيته الا بعد أن يزول الالم فأتمكن من التفكير فى خيانتة عن بعد وبطريقة موضوعية كما لو كانت لم تقع لي بل لشخص آخر . فعندئذ وذلك هو اعتقادى دائماً كنت لا أثق بما يقال أو يتم من أعمال تحت تأثير العاطفة وخاصة اذا لم تكن عاطفة اعجاب أو حب كما هى الحال معى . فلا شك أننى لم أعد أحب جينو ولكننى لم أشأ أن أكرهه على وجه التحديد لانه خيل لي أننى بذلك لن أزيد على أن أحمل روحى عبء عاطفة مؤلمة لست خليقة بها وذلك فضلاً عما الحقه بي فعلا من أذى بخيانتة ابائى .

وعلى أية حال فلشد ما أحسنت بالإصغاء فى ذلك الصباح فقد عراني كسل حسى ولكن شغورى بالنعاسه قل عنه فى الليلة السابقة . فقد غادرت أمى المنزل فى ساعة مبكرة للغاية وكنت أعلم انها لن تعود قبل الظهر . فظللت راقدة فى الفراش وكانت تلك هى متعتى الاولى فى بداية مرحلة جديدة من حياتى التى قدر لها أن

تكون منذ ذلك الوقت فصاعدا حياة متعة فحسب . فمند يوم مولدى لم
أفتأ أسبغ كل يوم فى الساعات الأولى من الصباح . ولذا كان
رفادى فى الفراش بلا عمل ترفا حقيقيا فى نظرى . ولم أستسلم
له قط . ولكننى قررت الآن أن أرقد فى الفراش كلما شعرت
بالرغبة فى ذلك . وخطر لى أننى سأحنو هذا الحذو ازاء جميع
الاشياء التى نبذتها حتى الان من جراء فقرى وأحلامى حول حياة
عائلية طبيعية . وتذكرت كم كنت استمتع بممارسة الحب
واستمتع بالمال وما يمكن أن يجلبه المال فحدثت نفسى قائلة اننى منذ
ذلك الوقت فصاعدا لن أرقض الحب أو المال أو ما يمكن أن يجلبه
المال اذا ما أتحت لى الفرصة . ولا تتخلوا اننى فكرت فى تلك الامور
تحت تأثير الغضب أو الاستياء أو روح الانتقام . بل كنت غاية فى
الهدوء وأنا مضطجة فى فراشى أدعب الفكرة وأستمتع بها مقدما . فان
كل موقف مهما كان بغيضا له جانبه المعكوس . لقد فقدت الزواج
مؤقتا وجميع المزايا المتواضعة التى كنت أتأملها ولكننى فى مقابل
ذلك قد استعدت حريتى . فلاشك أن أعمق آمالى ظلت كما هى دون
تغيير ولكن الحياة الناعمة مع ذلك كانت تجذبنى بقوة . كما كان بريق
الامل يحجب عن عينى كل ما يكمن خلف قرارى الجديد من حزن
واستسلام . وبدأت مواعظ أمى وجيزيلا تؤتى ثمارها . فقد كنت
اعلم طوال الوقت على الرغم من حياتى الفاضلة التى كنت أحيها
أن جمالى خلى بأن يجلب لى كل ما تشتهيه النفس لو اننى فقط
حزمت أمرى . ووجدتنى فى ذلك الصباح أنظر الى جسدى لأول مرة
كوسيلة مريحة للغاية لتحقيق تلك الاهداف التى لم أتمكن من الوصول
اليها عن طريق أمانتى وععلى الشاق .

وكان من جراء أستغراقى فى تلك الخواطر أو بالاحرى احلام اليقظة
أن مضى الصباح كلمح البرق وانتابتنى الدهشة عندما سمعت
أجراس الكنيسة المجاورة تدق معلنة انتصاف النهار ورأيت
شعاعا طويلا من الشمس المشرقة ينفذ من خلال النافذة
ويرتسم عبر الفراش ويدت لى أجراس الكنيسة وشعاع الشمس
المشرقة ترفا ثمينا غير مألوف كىالتى فى ذلك الصباح .
فلا بد أن الموسرات من السيدات اللاتى يسكن الفيلات مثل
مخدومة جينو يرقدن فى مضاجعهن فى تلك اللحظة بالذات بينما
قتراءى لهن الاحلام بنفس الطريقة ويسمعن طنين الاجراس ويرقبن
شعاع الشمس المشرقة بعينين مدهوشتين . وعندما نهضت أخيرا من

الفرانسى وخلفت نعيمى النوم لتمام مرآة الصوانى خالبنى شور باننى
لم اعد أدريانا فتاة الامس المشغولة المعوزة بل فتاة اخرى تختلف
تمام الاختلاف . ونفرت الى صورى عارية فى المراه فأدركت
لاول مرة مبعث الزهو فى حديث امى عندما قالت للفنان - « انظر
الى صدرها الى ساقها - وقظديها - » كما تذكرت استلربنا الذى
تغيرت شخصيته كلها حتى أسلوبه وصوته تحبب تأثر اشتهاه صدرى
وساقي وفظدى وحلثت نفسى قائلة اننى سوف اعثر بلا شك على
رجال آخرين يعطوننى من المال قدر ما نفعنى به استلربنا او حتى
اكثر مما نفعنى به لو أنهم تمكنوا من الاستمتاع بى .

وارتديت فى كسل شخصيتى الجديدة ثم احتسيت بئس القهوة
وغادرت المنزل . اتجهت الى حانه قريبه حيث اتصنت تليفونيا بالفيلا
التي يعمل فيها جينو . فقد اعطانى رقم التليفون ورجانى فى ذلة
تميز بها الا استخدمه الا لماما لان مخدميه يكرهون ان يستعمل
الخدم التليفون فخاطبت اول الامر امراه كانت بلا ريب خادمة المائدة
ثم ما لبثت ان جاء جينو فى الحال تقريبا . وسألنى على الفور ان كنت
مريضة فلم أتمالك نفسى من الابتسام . اذ تعرفت من خلال قلعه
على كمال أسلوبه القديم الذى ربما لم يكن كله مصطنعا . ولشد ما
أسهم فى خداعى . فأجبت قائلة - « اننى فى تمام الصحة . بل ان
صحتى لم تكن قط خيرا منها اليوم » .
- « ومتى أراك ؟ »

فقلت - « وقتما تشاء . ولكننى احب ان أراك كما فطت فى اول
مرة - فى الفيلا عندما يرحل عنها مخدموك » .
فأدرك ما كنت أعنيه فى الحال . واجابنى قائلا فى حماس - « أنهم
راحلون بعد حوالى عشرة أيام لقضاء عيد الميلاد ولكن ليس قبل
ذلك » .

فأجبت قائلة فى عدم اكتراث - « حسنا . اذن فليكن لقونا بعد
عشرة أيام » .

فسألنى قائلا فى دهشة - « اذا ؟ » .
- « لائى مشغولة » .
فسألنى قائلا فى ارتياب - « ماذا دهالك ؟ اغاضبة منى ؟ » .
فأجبت قائلة - « كلا . فلو كنت غاضبة منك لما شئت ان أراك
فى الفيلا . أليس كذلك ؟ » وخطر لى أنه ربما أزعجنى لو انتابته
الفيرة . فأضفت قائلة - « لا تخف - فانى احبك كما احببتك دائما .

ولكن على أن أعاون أمي في انجاز بعض الاعمال الاضافية بسبب أيام
المعطله - ولما كنت لا أستطيع مغادرة المنزل قبل ساعة متأخرة من
الليل حين لا تترغ أنت مطلقاً من عندي فاني أوتر الانتظار الى أن
يرحل مخدوموك .

« ولكن ماذا عن الصباح ؟ »

فاجبت قائلة - « ساكون نائمة في الصباح . وبهذه المناسبة - اتعلم
أننى لن أعمل نموذجاً بعد ذلك ؟ »
- « لماذا ؟ »

- « لقد سئمت هذا العمل - ألسنت مسرورا لذلك ؟ اذن فسأراك
بعد عشرة أيام - هل اتصل بك بليفونيا ؟ »
- « حسناً . »

وانكلمته فاه بكلمة « حسناً » دون كبير اقتناع - ولكن معرفتى الجيدة
به اكدت لى أنه على الرغم من وساوسه فلن يظهر قبل مضي عشرة
أيام . بل الأحرى أنه لن يظهر بسبب وساوسه . فان تفكيره في احتمال
اكتشافى خيانتة كان خليقاً بأن يملأه رعباً و فرعاً . وما ان وضعت سماعة
التليفون حتى أدركت أننى تحدثت الى جينو بصوت هادىء رقيق
بل محب أيضاً . فهنأت نفسى . . كما ان مشاعرى نحوو لن تلبث شيئاً
فحسبنا أن تصير رقيقة هادئة محبة فأستطيع مقابلتة بلا خوف من
ايجاد جو كاذب مزعج من الكراهية يضره ويفمرنى ويفسر علاقتنا .

وفي مساء ذلك اليوم نفسه بادرت بالذهاب لمقابلة جيزيلا في غرفتها المؤثثة . وكانت كمألوف عادتتها في تلك الساعة قد نهضت لتوها من الفراش وأخذت ترتدى ملابسها لموافاة ريكاردو في مواعده . فجلست على الفراش الأشعث . وبينما كانت تتجول هنا وهناك في الغرفة المعتمة غير المنظمة التي امتلأت بالملابس والادوات التافهة رحت أقص عليها بلهجة واقعية للغاية كيف ذهبت لزيارة آستاريتا وكيف أخبرني أن جينو له زوجة وطفلة . وما أن سمعت جيزيلا ذلك النبأ حتى أطلقت صيحة عالية ولا أدري أكانت صيحة فرح أم دهشة ثم جاءت لتجلس على الفراش في مواجهتي واضعة يديها على كتفي ومحملة في عيني قائلة :

« لا . لا . لا يمكنني أن أصدق هذا . . زوجة وطفلة ! احقا تقولين ؟ »

« والطفلة تدعى ماريا . »

من الواضح أنها أرادت أن تعرف القصة بحذافيرها وأن تناقشها تفصيلا بقدر الامكان وقد خاب رجاؤها لهدوء موقفي .

« زوجة وطفلة . . والطفلة تدعى ماريا . . ايمنك ان تتحدثني

عن هذا الموضوع بهذه الطريقة ؟ »

« وكيف ينبغي أن أتحدث عنه ؟ »

« ألسنت غاضبة ؟ »

« بالطبع . »

« ولكنه كيف أدلى اليك بالخبر ؟ أقال لك ان جينو موليناري

له زوجة وطفلة هكذا ؟ »

« نعم . »

« وماذا قلت ؟ »

« لا شيء . فماذا يمكنني ان أقول ؟ »

« ولكن كيف كان شعورك ؟ ألم تنفجري باكية ؟ فهذه كارثة

بالنسبة لك قبل كل شيء . »

« كلا . لم يخطر لي ان أبكي . »

فهمت قائلة في مرح بعد لحظة من التفكير - « حسنا . لا يمكنك الآن أن تتروى جينو . ومع ذلك فيالها من قصة ! ان هذا الرجل معدوم الضمير - فتاة مسكينة مثلك كانت تحيا من أجله وحده ان صحت هذه العبارة . ان الرجال جميعا أوغاد . »

فقلت - « ولكن جينو لم يعرف بعد اننى أعلم كل شى . »
فقلت بحماس - « لو ننت فى مكانك يا عزيزتى لصارحتى برأىى فيه . . ولما تخلص من برائىى دون لوم أو تقريع . »
فأجبتها قائلة - « انى على موعد معه بعد عشرة أيام . وأعتقد أننا سنواصل المضاجعة . » فانسحبت الى الخلف وهى تحمق فى مباشرة قائلة - « يالله ! . . اما زلت تحبينه . . بعد ما فعل ؟ »
فأجبت قائلة دون أن أتمالك نفسى من خفض صوتى - « كلا . فانى لم أعد أحبه بنفس القدر ولكن - » وهنا ترددت ثم تعمدت الكذب قائلة - « ان اثاره شجار وتوجيه اللوم ليسا دائما خير طريقة للانتقام . »

فتأملتني لحظة بعينين مغمضتين حتى نصفهما وقد انسحبت الى الخلف كما يفعل الرسامون عندما يتفحصون صورهم .
ثم صاحت قائلة - « انك محقة تماما . . ولكنى لم افكر فى ذلك . تعلمين ماذا افعل لو كنت فى مكانك ؟ اتركه يقع فى شره وهو هادىء وواثق من نفسه تماما - وذات يوم غير بعيد أتخلى عنه . »
فلم أحر جوابا . ثم مالبت ان أردفت قائلة بصوت أقل انفعالا ولكنه ليس أقل حيوية أو قدرة على التعبير - « ومع ذلك فانى لااكاد أصدق هذه القصة . . زوجة وطفلة . . وكان معك غاية فى التزمتم والتدقيق . ثم جعلك تشتترين كل هذا الاثاث والجهاز . ياله من عمل دنىء ! دنىء ! »

فلزمت الصمت . وصاحت قائلة فى انتصار - « ولكنى كنت أعلم ذلك طوال الوقت ! فقد عرفت حقيقته . ويجب ان تعترفى بذلك . فماذا قلت لك ؟ انه لا يعنى ما يقول . مسكينة يا أدريانا ! » ثم أقلت بذراعيها حول عنقى وقبلتني . فتركتها تفعل .

ثم قلت :
- « نعم . ولكن أسوأ ما فى الأمر هو انه استنفد نقود أمى . »

- « وهل أمك تعلم ؟ »

- « لم تعلم بعد . »

فصاحت قائلة - « لا تقلقى بشأن النقود . فان آستاريتا متيم

بك - وما عليك الا ان تحزمني امرك ولسوف يعطيك كل ما تطيبين .
فأجبتها قائلة - « لا أبغى ان أرى أستاريتا مرة اخرى . أقابل
اي رجل عدا أستاريتا . »
ولا يعوتني ان أقول ان جيزيلا لم تكن حمقاء . فقد أدركت في
الحال انه يحسن بها مؤقتا الا تذكر أستاريتا . كما فهمت ما اعنيه
بعبارة « أي رجل عدا أستاريتا . » وتظاهرت لحظة بالتفكير .
ثم أردفت تقول - « انك على حق . فاني أفهم ماذا تعنين . فانا
نفسى أشعر بالتفاهة الى حد ما لو اننى خادمت أستاريتا بعد كل
ما حدث - فهو يريد ان ينال مآربه باى ثمن - كما انه كان يفتك بحقيقة
جينو بغية الانتقام . » ثم عادت الى الصمت وبعد ذلك عادت قائلة
بهدوء حازم :

- « دعى الامر لى . ابغين مقابلة شخص على اسمك فى المنزل ؟ »

- « نعم . »

- « دعى الامر لى . »

فأضفت قائلة - « ولكننى لا أبغى الارتباط بأحد . بل أوثر
الحرية . »

فرددت قائلة لثالث مرة - « دعى الامر لى . »

فأردفت قائلة - « فاني أريد الآن ان أود لأمى تقوعها وابتاع
بعض حوائجى . » ثم أضفت قائلة - « ولا أريد ان تضطر لأمى الى
المعمل بعد ذلك . »

وفى اثناء ذلك كانت جيزيلا قد نهضت من مكانها وبجلبت الى
خزان الزينة .

قالت وهي تضع بعض مسحوق الزينة على وجهها فى لمسات
سريعة - « لقد كنت دائما أطيب نفسي نغفا مما ينبغي به كعزيتنا . والآن
أترين ماذا يحدث لى هم أطيبهما ينظر لى . »

فقلت - « أعلمين اننى لم أذهب قط الى العمل . فلو كنت لمام
بالزمامين ؟ لقد قهرت الا أعمل ثمودنيا بعد ذلك . »

فأجابتنى قائلة - « انك محقة تماما . فلما نفس لا يفتق سوى -
ثم ذكرت اسم فتان فمعنى وأردفت تقول - « وذلك لا يؤدى له
صنيعا فحسب . ولكننى سأعزل المعمل حالما ينتهى من عمله . »

ولم أكن قد أخطت حينك بالحب نحو جيزيلا وبالمرء الغام .

فكان وقع عبارتها « دعى الامر لى » مطمئنا كوعد قلبى من أم بالتفرغ
لاحتياجاتى فى أقرب وقت ممكن . ولكننى أدركت بالطبع ان جيزيلا لم

تكن مدفوعة الى مساعدتي بأية عاطفة نحوي بل الاحرى انها كانت مدفوعة برغبتها شبه اللاواعية في ان ترانى أهوى الى مثل حالتها في أقرب وأشد ممكن كما سبق ان حدثت في موضوع استاريتا . ولكن ليس ثمة من يفعل شيئا بلا مقابل . ولما كان حسد جيزيلا في تلك الحالة قد صادف هوى في نفسى فانى لم اجد مبررا لرفض مساعدتها لمجرد علمى انها انما تبدلها بدوافع مفرضة .

كانت في عجلة شديدة من امرها لانها كانت قد تأخرت فعلا عن موعدها مع خطيبها . ففادرتنا الغرفة واخذنا نهبط الدرج الضيق في المنزل القديم وقد كاد يكون عموديا .

قالت ونحن نهبط الدرج مدفوعة الى ذلك بعالتها المشطورية وربما برغبتها في التخفيف من مرارة الطبيعة التي كنت احسها بها مشطورية بل اننى لم اكن وساطي عاترة المحظ .

« اتعلمين اننى بدأت اشك في ان ريكاردو يريد ان يخطبني بنفسى الطريقة التي خدعك بها جينو ؟ »

فسألته في براءة قائلة - « اهو متزوج ايضا ؟ »
- « كلا . ولكنه ينسج لى قصصا خيالية كثيرة - اظنه يريد ان

يسخر منى . ولكننى قلت له بصراحة : « انصت الى يابنى العزيز . انا لست في حاجة اليك . فان شئت بقيت معى والا فلتغرب عنى ! » فلم انبس بكلمة . ولكننى كنت اعلم يقينا ان هناك غلواقا كبيرا

بينى وبينها وبين علاقتى بجينو وعلاقتها بريكاردو . اعلم تكن لديها قط في قرارة قلبها اية اوهام حول نوايا ريكاردو . وكما كنت اصلح جيدا فانها لم تتوقف قط لتفكر في خطاها . اما انا فطلى العكس من

ذلك قد طقت كل آمالى قلبى الطير على ان اصير زوجا لجينو وكنت دائما مخلصا له لان المنة التي ارفقتى استاريتا على قلبها لم يتركها ابداى في فيترو لا يمكن ان تسمى خيانة في الحقيقة .

انها ربما استنارت في صلواتها بذلك فلزمت الضمت .

الباب الخارجى انفتحت معى على القدر في مساء اليوم التالي في منزل الطوري مطيرة ابداى من التأخير عن الموعد لانها ربما كانت

مسحبة شخص آخر . ثم انصرفت مهرولة . ادركت اننى يجب ان اطلع على ما حدثت ولكننى لم اجد وقتا

ذلك . فقد كانت امدى تحببى حقا . ولما كانت على النقيض من جيزيلا لتى لم تر في خيانة جينو سوى انتصار لآرائها ولم تحاول حتى ان خفى عنى فرحتها القاسية فانها لن تفرح لادراكها مدى صحة رأياها

في النهاية بقدر أساها لما وقع لي . فقد كانت في قرارة قلبها لا ترغب
إلا في سعادتي دون أن تعبا كيف أحققها . ولكنها كانت واثقة أن
جينو لن يستطيع أن يهينها لي . فقررت بهذا كثير تردد إلا أخبرها
بشيء . فقد كنت أعلم أن فعالي لا الفاظي في مساء اليوم التالي خليفة
بأن تفتح لها عينيها . ومع أنني أدركت أنها طريقة وحشية لظهارها
على التغير الكبير الذي طرأ على حياتي فقد سرتني أنني بذلك سوف
أتجنب كثيرا من التفسير والتفكير والتعليق أو على الأقل ذلك التفسير
والتفكير والتعليق الذي تدفق من فم جيزيلا في سخاء شديد عندما
رويت لها قصة خداع جينو . ولا أكتمم أنني أحسست عندئذ بنوع
من النفور نحو موضوع الزواج بأسره ولم أشأ أن أتحدث عنه إلا في
أضيق الحدود كما وددت لو يتجنبه الآخرون .

وفي اليوم التالي ادعيت أنني على موعد مع جينو فقضيت المساء
كله في خارج الدار حتى لا أتعرض طوال الوقت لمضايقه أمي التي كانت
قد ساورتها الشكوك بالفعل . وكان لدى ثوب جديد معد للزفاف
وهو زى رمادي كنت أنوي ارتدائه على أثر الاحتفال مباشرة . وكان
أجمل ثيابي جميعا فترددت طويلا قبل ارتدائه . ولكنني تذكرت
عندئذ أنني سأضطر إلى ارتدائه في يوم من الأيام ولن يكون ذلك اليوم
أظهر ولا أسعد من يومي هذا . كما أن الرجال من الناحية الأخرى
يحكمون بالمظاهر . وانه لما يبرز جمالي أن أظهر أمام الناس في أبهى
حلي حتى أحصل على مزيد من النقود . فحزمت أمري . وهكذا
ارتديت أجمل ثيابي دون أن تخلو نفسي تماما من بعض الشكوك -
ذلك الثوب الذي يبدو لي اليوم كلما تذكرته غاية في البساطة وخلوا
من كل جمال شأن جميع ملابسي حينذاك . وعانيت بتصفيف شعري
كما وضعت على وجهي شيئا من المساحيق لا يزيد عما أضعه عادة .
ولا يفوتني أن أقول بهذه المناسبة أنني لم أفهم قط لماذا يفرط كثير
من النسوة ممن يحترفن مهنتي في طلاء وجوههن بالمساحيق على
صورة كثيفة للغاية ثم يجبن الشوارع فيبدن وكأنهن يرتدين أقنعة
الكرنفال . ولعل السبب في ذلك أنهن يخشين أن لم يفعلن أن يبدو
عليهن المشحوب الشديد نظرا لنوع الحياة التي يجينها . أو لعلهن
يخشين أن لم يطلين وجوههن بهذه الطريقة البدائية الأيجذب انتباه الرجال
والا يستطعن اظهار مدى استعدادهن للتفاهم . أما أنا فلا أفقد مطلقا
مظهرى الصحى ولون بشرتى البرونزى مهما كنت متعبة ومهما أفرطت
في المضاجعة ويمكننى أن أقول دون خجل أن جمال وجهي دائما كان

خليقا بأن يدير رعوس الرجال ليحملقوا في كلما مررت في الطريق دون
حاجة إلى الأفراس في الزينة . فانا لا أحب الرجال باستخدام أحمر
الشفاه أو أقلام الكحل أو بتغيير لون شعري بمحلول الاوكسيجين بل
بجلال مظهرى او على الأقل ذلك هو . ما قاله لى الكثيرون منهم -
وبما يمتاز به تعبير وجهى من صفاء عذب وبشغرى النضيد الرائع
عندما اضحك وبكتلة شعري الفتى الاسود المموج . ولعل النساء اللائى
يصبغن شعورهن ويطلبن وجوههن لا يدركن أن الرجال يشعرون
نحوهن بنوع من الخيبة مقدا لادراكهم حقيقتهن منذ البداية . أما
أنا فلأنى فى مسلكى طبيعية متحفظة للغاية كنت لا أفتأ أتركهم فى شك
من حقيقة شخصيتى وبهذه الطريقة لا أفتأ أوهمهم بالدخول فى مغامرة
وهذا هو ما يبفونه قبل كل شىء أكثر من مجرد ارضاء حواسهم .

وعندما ارتديت ملابسى ووضعت زينتى ذهبت الى السينما حيث
شاهدت الفيلم مرتين . وما ان خيم الليل حتى غادرت السينما
واتجهت مباشرة الى محل الحلوى حيث ضربت لى جيزيلا موعدا
للقاء . ولم يكن ذلك المحل من الاماكن الرخيصة المألوفة حيث تعودنا
ان نلتقى بريكاردو فى مناسبات أخرى . بل كان محلا أنيقا لم أقصده
قط من قبل . وأدركت ان اختيار ذلك المكان كان راجعا أولا وأخيرا
الى رغبة جيزيلا فى توفير الخلفية الجديرة بى وفى رفع ثمن حظوتى .
حقا ان مثل هذا الاهتمام بالتفاصيل وأمور أخرى سأذكرها فيما بعد
يمكن أن يوفر لامرأة من صنفى اذا كانت تتمتع بالصبا والجمال
وتعرف كيف تستغل هذه الهبات بدكاء عملا ثابتا مريحا وهو مانصبو
اليه جميعا من قلوبنا . ولكن ذلك لا تفعله سوى القليلات ولم أكن
قط واحدة منهن . فان نشأتى المتواضعة كانت تجعلنى دائما أنظر
بارتياب الى الاماكن الفاخرة . فكنت لا أفتأ أحس بالضيق فى المطاعم
ومحال الشاى والمقاهى الراقية حيث أخجل من أن ابتسم للرجال
أو أرميهم بنظرات الفرام بل أحس وكأنى أسام العذاب وسط كل
تلك الاضواء المتلألئة . وكنت لا أبرح أحس بجاذبية عميقة دافئة
نحو شوارع المدينة بقصورها وكنائسها وآثارها ومحالها ومداخل
دورها التى تجعلها أكثر جمالا وجاذبية من أية غرفة فى مطعم أو محل
للساى . وكان من عادتى الأثيرة الى نفسى دائما أن أخرج الى الطريق
قرب الغروب حيث أراقب الشفق وهو ينشر الظلام فى السماء رويدا
رويدا فوق سطوح المنازل . وكان يروقنى دائما أن أتجول وسط
الزحام وأن أنصت دون أن اتلفت حولى الى عبارات الغزل التى يخاطر

عالمهمس بها عفو الخاطر اشخاص من المارة لا ينظر منهم ذلك مطلقا
فوعين اليه باستثارة حواسهم فجأة . وكان يستهويني دائما أن أذرع
الطريق نفسه مرارا رائحة غادية حتى يكاد في النهاية يتساقط
الاعياء الشبيه ولكن فلابي يطل منحنيا متوجها الى لو كنت في معرض
لا ينضب معينه من المفاجآت . فكان الطريق دائما هو مطعمى وغرفة
استقبالي ومقهاى ويرجع ذلك الى اننى ولدت فقيرة والمعروف عن
الفقراء أنهم يرفهون عن أنفسهم بأقل التكاليف وذلك بالحملقة في
واجهات المحال حيث لا يمكنهم أن يتاعوا شيئا وفي واجهات القصور
حيث لا يمكنهم أن يقيموا .

ولنفس هذا السبب كنت دائما أحب الكنائس وما اكثرها في روما
وهو ترف في متناول أبدي الجميع لانها لا تغلق ابوابها أبدا وتشمع
فيها رائحة الفخر المظنة القديمة المتواضعة متطابقة في معظم الاحيان
على رائحة البخور بين الزينات النفيسة من الرخام والذهب . ولكن
الافنياء بالطبع لا يتجولون في الشوارع ولا يترددون على الكنائس بل
ان اقصى ما يمكن أن يفعله الرجل الفنى هو أن يعبر المدينة في سيارته
وهو متكئ الى الخلف على الوسائد متصفحاً الجريدة بين الحين
والحين . وبإثاري الطريق على أى مكان آخر عزلت نفسى في الحال
عن جميع أولئك الرجال الذين كان ينبغى على - طبقا لرأى جيزيلا -
أن أسعى الى التعرف اليهم مضحية بميولى التى لشد ما كانت عميقة
الجدور في نفسى . ولكننى لم اشأ قط أن أقوم بذلك التضحية فكانت
ميولى دائما موضوع نقاش حاد بينى وبين جيزيلا طوال مشاركتى
اباها في العمل . فكانت جيزيلا تكره الطريق ولا تعنى الكنائس شيئا
في نظرها . أما زحام الناس فكانت تتبرح نفسها بالاحتقار له ولا تشعر
نعوه الا بالنفور . فلم تكن تستهدف سوى المطاعم الغالية حيث يرقب
الخدم في انتباه وقلق أقل اشارة تصدق من الرواد . وكذلك المراقص
العصرية حيث يرتدى المراد الطرقة الموسيقية زيا موحداً ويرتدى
المراقصون ثياب المسهرة كما كانت تقصد أكثر المقاهى ونوادى القمار
أناقة وفخامة . وكانت في مثل هذه الأماكن تتحول الى شخص آخر
تماما فيتغير سلوكها وحركاتها بل حتى لهجة صوتها . فكانت في
الواقع تتكاف السلوك كسيدة حقيقية وهو مثلها الاعلى الذى كانت
تهدف اليه وقد حققته الى حد ما كما سنرى فيما بعد . ولكن أقرب
مظهر من مظاهر نجاحها في النهاية أنها لم تلتق بالشخص الذى قدر
له أن يحقق مطامحها في أحد المحال الانيقة بل عن طريقى وفي أحد

التسوارع التي لشد ما كانت تملقها من أعماق اليها . وقد بدت جيزيلا في محل الحلوى ومعها رجل متوسط العمر يعمل مسسارا تجولا فقدمته الي باسم جياكنتي . وكان عريض الفكين الى حد ما مما جعله اثناء جلوسه . يبدو ذاقا قامة عادية . ولكنه ما ان نهض واقفا حتى تبين لي انه يكاد يكون قزما كما زاده عرض منكبيه قصرا على غيره . وكان شعره الابيض الكث السندي يلمس كالفضة مرفوعا الى اعلى بالفرشاة فوق جبهته ربما ليبدو اطول مما هو . وكان احمر وجهه وبدت عليه الصبغة وانتظمت قسوماته وانسجم بالنيل كوجه الشمال . فكانت جبهته جميلة ملساء وعيناه نجلان سوداوين وانفه مستقيما وفمه جميل التكوين . ولكن ثمة تعجب بغيضا ينسب بالخيلاء والفرور والاريجية الكاذبة جعل وجهه مائرا للغاية بعد ان كان يبدو لاول وهلة مهيبا جذابا .

احسست بالحياء الى حد ما فما ان انتهى التعارف حتى جلست دون ان انبس بكلمة . وواصل جياكنتي حديثه الذي كان يدلي به الى جيزيلا وكان وصولي لم يكن سوى حدث تافه على حين انه لم يكن في الحقيقة ثمة غرض من السهرة سواه . قال وهو يضع يده على ركة جيزيلا حيث ابقاها طوال حديثه - « لا يبكنك الشكوى منى يا جيزيلا . فكم طال - ولنقل تحالفنا ؟ ستة شهور ؟ حسنا . هل يسعك ان نقول - ويدك على قلبك - اننى رفضت لك طلبا في هذه الشهور الستة جميعا ؟ » كان حديثه واضحا بطيئا مشددا مؤكدا . ولكنه من الواضح انه كان يتكلم بهذه الطريقة لا ليجعل نفسه مفهوما بل لينصت الى صوته ويستمتع بكل كلمة ينطق بها .

فقلت جيزيلا بلهجة ملول حانية واسها - « كلا . كلا . » ثم اردف جياكنتي قائلا بصوته الواضح المؤكد - « دعى جيزيلا تخبرك يا آدريانا . فاننى لم امتنع فقط عن خفض - ولنقل مكاسبها المهنية - بل كنت لا افتأ احمل اليها الهدايا كلما عدت من ميلان . المذكورين زجاجة العطر الفرنسي التي احضرتها اليك ذات مرة ؟ ومرة اخرى عندما اعطيتك بعض اللابس الداخلية الصنوعة من الحرير والدانتلا ؟ ان النساء يروهن انهم الرجال بالجهل المطبق فيما يخص ثيابهن الداخلية . ولكننى استثناء من القاعدة ! » ثم ضحك في رقة كاشفا عن أسنان جميلة رائعة ولكنها لشدة بياضها بدت زائفة .

وبعد قليل قالت له جيزيلا - « اعطنى سيجارة » فأجابها قائلا في مجاملة تهكمية - « على الفور ! » كما قدم الى

سيجارة وأخذ لنفسه واحدة أشعلها ثم أردف يقول - « أتذكرين
حقيبة اليد التي أحضرتها اليك مرة أخرى ؟ حقيبة بيضاء من الجلد -
كانت جديرة بان تكتبي عنها لاسرتك ! أتم نعودي ستخدمينها ؟ »
فقلت جيزيلا - « انها حقيبة صباحية »

ثم أردف قائلا وهو يلتفت نحوي - « أنا لا أحب تقديم الهدايا
لاسباب عاطفية - اتفهمين ؟ » ثم هز رأسه وهو ينفث الدخان من
منخريه قائلا - « بل لاسباب ثلاثة واضحة . اولها - أنني أحب ان
يشكرني الناس . وثانيها - أنه لامثيل للهدية للحصول على حسن
المعاملة . وفي الواقع فان كل من تصله هدية منك لايفتأ يأمل في
الحصول على أخرى . وثالثها - أن النساء يملن الى الوهيم والهدية
تبعث على الشعور بشيء من العاطفة حتى ولو كانت معدومة . »
فقلت جيزيلا في غير اكرات دون أن تنظر اليه - « لا شك أنك
رجل عميق . »

فهز رأسه كاشفا عن أسنانه جميعها في ابتسامة عذبة - « كلا . فأنا
لست عميقا - بل أنا ببساطة رجل له بعض الخبرة بالحياة وقد
امكنتني أن اتعلم من خبرتي . فانا أعلم ان ثمة أمورا لا بد من اتباعها
مع النساء وأخرى مع العملاء وأخرى مع الخدم وهكذا . فعقلي أشبه
بدليل منظم للغاية . فاذا مارأيت امرأة مثلا عن بعد ! - أخرج
مذكرتي وأتصفحها حيث أجد أن مقاييس معينة أحدثت التأثير
المطلوب وأن مقاييس أخرى لم تفعل ذلك ثم أعيد المذكرة الى مكانها
وأصرف تبعا لذلك ، هذا هو كل ما هنالك . »
كانت جيزيلا تدخن سيجارتها وقد بدا عليها الملل . أما أنا فلم
أفه بشيء .

فواصل حديثه قائلا - « واني أجد ان النساء يشعرون نحوي
بالامتنان لانهن يدركن في الحال أنني لن أخيب رجاءهن . فانا أعلم
ماذا يتوقعن كما أعرف نزواتهن ونواحي الضعف فيهن تماما كما
أشعر أنا بالامتنان نحو العميل الذي يفهمني من نظرة واحدة ولا يضيع
وقتي في الثرثرة وهو يعلم ما يريد وما أريد - ان لدى في ميلان منفذة
للسجائر أشعلها على مكثبي كتب عليها ما يلي - « بارك الله في أولئك
الذين لا يضيعون الوقت . » ثم القى بالسيجارة ونظر الى ساعته
قائلا - « لقد حان الوقت للذهاب الى حيث نتناول الطعام . »
- « كم الساعة ؟ »

- « الثامنة . استأذنكما في الانصراف لحظة - وسأعود فورا . »

تم نهض من مقعده وغادر الغرفة عند منتهائها . وفي الواقع فإنه كان قصير النامة للغاية بسنكيه العريضين وشعره الأبيض السكت المنتصب فوق قمة رأسه . وسحقت جيزيلا سيجارتها في المنفضة قائلة - « انه ممل للغاية ولا يتحدث الا عن نفسه . »
- « لقد لاحظت ذلك . »

فأردفت قائلة - « ما عليك الا ان تركيه يتحدث وتظلي تقولين له « نعم » طوال الوقت . فسوف ترين أنه لن يبرح يقول لك أشياء لا حصر لها - فلا يعلم الا الله ماذا يحسب نفسه - ولكنه يبذل المال بسخاء ويقدم الهدايا فعلا . »
- « نعم . ولكنه لا يفتأ يذكرك »

فلم تحر جوابا بل هزت رأسها كمن يريد ان يقول - « ماذا يسعك ان تفعل في ذلك ؟ » ثم صمتنا لحظة الى ان عاد جياكنتى ودفع الحساب ثم غادرنا محل الحلوى .

وعندما خرجنا الى الطريق قال جياكنتى - « هذه الليلة يا جيزيلا من نصيب أدريانا - ولكن أترغبين في تناول العشاء معنا ؟ »
فأسرعت جيزيلا بالاجابة قائلة - « لا . لا . شكرا . فاني على موعد . » ثم ودعت جياكنتى وانصرفت .
وما ان ذهبت حتى قلت لجياكنتى - « يالها من فتاة رقيقة ! »
فأتى حركة بوجهه قائلا - « لا بأس بها . فهي رشيقة القد . »
- « ألا تحبها ؟ »

فقال وهو يسير بجانبى قابضا بقوة على عضدى اسفل الابط
تقريبا - « أنا لا أطالب أحدا ان يكون ذا شخصية محبوبة - بل ان يحسن اداء عمله ايا كان - فأنا لا أطالب ناسخة مثلا أن تكون محبوبة بل قادرة على سرعة النسخ بلا اخطاء - ولا أطالب فتاة كجيزيلا أن تكون محبوبة بل أن تعرف كيف تؤدي عملها أى أن تمتعنى بوقت طيب طوال الساعة أو الساعتين اللتين أقضيهما معها . وجيزيلا لا تعرف كيف تؤدي عملها . »
- « لماذا ؟ »

- « لانها لا تفتأ تفكر في النقود - فهي تغشى دائما إلا تأخذ أجرها أو ان ينخس حقا - أنا لا أتوقع منها ان تحبني ولكن مهنتها تفرض عليها ان تتصرف كما لو كانت تحبني حقا وان توهمنى بذلك - هذا هو المقابل الذى أدفع ثمنه - ولكن جيزيلا تظهر فى وضوح شديد أنها انما تفعل ذلك لمصلحتها الخاصة - فهي تبدأ فى المساومة قبل ان

طريق الفرقة حتى الالتقاط انفاستك . وهو أمر محمود ولكنها تسرف

في تناول الطعام . وكانت المائدة تجاور النافذة . فجلس جياكنتى وهو يفرك يديه . ثم سألنى قائلاً - « الديك شهية طيبة ؟ »

فقلت فى ارتباك - « أظن ذلك . »

- « حسناً . أنا مسرور لذلك . فانى أحب أن أرى الناس يأكلون عندما يجلسون الى المائدة . فجزيزيلا مثلاً لا تحب ان تأكل شيئاً قط بحجة أنها تخشى البدانة . هذا هراء ! فلكل شىء وقته وزمانه . فلا بد ان تأكلى اذا ماجلست الى المائدة . » كان يبدو مترعاً بالكراميه نحو جزيزيلا .

فقلت فى وجل - « ولكن مامن شك فى أنك تسمن حقاً لو افرطت فى تناول الطعام . وبعض النساء يابين أن تزيد اوزانهن . »

- « وهل أنت من بين هؤلاء ؟ »

- « كلا . لست من بينهم . ولكنهن فى الواقع يقلن لى اننى اميل الى البدانة . »

ثم لا تصفى اليهن - فهذا كله حسد . فانت بهذه الصورة على ما يرام . أقول لك ذلك وأنا أعلم عما اتحدث . » ثم ربت على يدي بطريقة أبوية وكأنه يطمئننى .

وجاء النادل . فقال جياكنتى - « عليك اولاً أن تحمل هذه الزهور بيديك حتى تضايقنى . ثم احضر الطعام المألوف كما تعلم -

الامر له . ولسوف ترين أنك لن تجدى محلاً للشكوى . »

وفى الواقع فانى لم أجد ما أشكو منه . فكانت جميع الالوان التى قلمت وفيرة للذيدة ولو أنها لم تكن ممتازة . وكان جياكنتى ذا شهية هائلة فراح يأكل فى تركيز وهو مطأطأ الرأس قابض بقوة على سكينه

وشوكنه لا يتطلع الى أو يتحدث معي وكأنه لا يجالس أحدا . وفي الواقع فانه كان مستغرقا تماما في عملية الأكل بل لقد أفقده نهمة ذلك الهبوط الذي أشد ما ازدحمت به . كما ارتبكت حركاته وكأنه يخشى الا ينتهى من تناول الطعام في الوقت المحدد فيضطر الى تركه وهو جائع - كان يدفع بقطعة اللحم في فمه وسرعان ما يكسر بيده اليسرى قطعة من الخبز يطبق عليها بأسنانه وبيده الأخرى يصب لنفسه قدحا من النبيذ يجرعه قبل انتهائه من مضغ الطعام . وكان لا يفتأ يتلمظ بشفتيه ويدير عينيه ويهز رأسه من وقت لآخر كما يفعل القط عندما يستولى على لقمة أكبر من فمه . أما انا فلم أكن جوعى مطلقا على خلاف عادتي . فلأول مرة في حياتي كنت مقدمة على مضاجعة رجل لا أحبه بل حتى لا أعرفه فأخذت أتفحصه بعناية مع ملاحظة مشاعري الخاصة محاولة أن أصور لنفسى كيف سأنجز المهمة . وبعد هذه المرة الأولى لم أعد أعر اهتماما لمظهر الرجال الذين أرافقهم ، ولعلى بحكم الضرورة التي كانت تدفعنى سرعان ما تعلمت أن أتبين فى كل رجل من أول نظرة سمته الطيبة المستحبة التي تجعل الاتصال الجنسي به مقبولا ومحتملا . ولكننى فى تلك الليلة لم أكن قد تعلمت بعد سر مهنتى الذى يتركز فى الإلمام بالطريقة التي اكتشف بها فى الحال جاذبية خفية تقلل من بغض العملية الجنسية الى نفسى . وكنت أشد تلك الجاذبية بطريقة غريزية ان صح هذا التعبير دون أن أدرك ماذا أنا فاعلة - لقد سبق أن قلت ان جياكنتى لم يكن قبيحا . وفى الواقع فانه يمكن أن يوصف بالوسامة ما دام مطبقا فاه منظويا على ما تكنه روحه من عاطفة مدمرة . وهذا اسراف فى القول لان الحب لا يعدو ان يكون اتصالا جسديا قبل كل شيء . ولكن ذلك لم يكن يكفينى لانى لم أستطع قط أن أحتمل رجلا - لا أن أحبه - لمجرد صفاته الجسدية .

والآن عندما انتهى العشاء وعاد جياكنتى الى الحديث من جديد بعد ان أشبع نهمة الذى يعوزه التهذيب مطلقا جشاعة او اثنتين أدركت أنه لا شيء فيه او على الأقل لم أتمكن من اكتشاف شيء فيه يجعله محتملا . فهو لم يكتف بالحديث عن نفسه طوال الوقت كما قالت جيزيلا بل كان يفعل ذلك بطريقة كريمة للغاية . فكان شخصا ملاما مفرورا لم يفتأ يروى لى أشياء لا تشرفه مطلقا بل لم تزد على أن دعمت احساسى الغريزى الاول نحوه بالنفور والاشمئزاز . فلم أجد فيه شيئا على الاطلاق يمكننى ان أحبه . أما الأشياء التي لم يفتأ

يفخر بها ويطنب في الحديث عنها كصفات مميزة له فقد بدت جميعها في نظري عيوباً رهيبية . وقد التقيت بعد ذلك برجال آخرين كانوا على الرغم بضارعونه في تفاهته كما لم أحد فيهم على الإطلاق ما أتشبت به حتى يمكن أن يستميلني اليهم . ولم أفتأ أتعجب لوجودهم في الحياة بل رحمت اتساءل ان كنت انا الملوثة لعدم امكاني لاول وهلة اكتشاف الصفات التي لا ريب انهم يتحلون بها . ومع ذلك فقد الفت بمضى الزمن صحبة هؤلاء الرفاق الثقلاء وكنت اظاهر بالضحك والمزاح واتشكل طبقاً لما يروونه في ويريدون مني ان اكونه . ولكن اكتشافى الاول في ذلك المساء ملا ذهني بالخواطر الحزينة . فبينما كان جياكنتى يواصل حديثه ويتخلل أسنانه رحمت أحدثت نفسى قائلة اننى احترفت مهنة شافة للغاية تقتضي ان اظاهر بالحب العام نحو رجال يثرون في نفسى فعلا نقيض ذلك الشعور تماما كما هى الحال مع جياكنتى . وقلت لنفسى ان مثل هذه الخطوة لا يمكن أن تقدر بالمال مهما بلغت قيمته - وان المرء لا يسعه مطلقاً فى مثل هذه الحالات الا ان يحذو حذو جيزيلا التي لم تكن تفكر الا فى النقود وتكشف عن ذلك فى وضوح . كما خطر لى اننى فى ذلك المساء سأصحب جياكنتى - ذلك الشخص البفيض - الى غرفتى الصغيرة المسكينة التي كنت انوى استخدامها لغرض يختلف كل الاختلاف . ففكرت كم كنت عائرة الحظ وكيف شاء القدر ان تزول الفشاوة عن عيني منذ البداية فقادنى الى مقابلة جياكنتى ولم يقدنى الى شاب ساذج ينشد المفامرة او شخص مهذب غير دعى كمئات الاخرين . كما خطر لى أن وجود جياكنتى بين قطع الاثاث فى غرفتى سوف يدمغ تنازلى عن جميع أحلامي القديمة حول حياة طبيعية محترمة .

أخذ يتحدث طوال الوقت ولكنه مع ذلك لم تبلغ به الفباوة حداً لا يمكنه من ان يلحظ اننى كنت لا أكاد أنصت اليه واننى حزينة لا يبدو على المرح فسألنى فجأة قائلاً - « أمكتبة أنت يا طفلى ؟ » فأسرعت بالاجابة قائلة وأنا أستجمع شجاعتى - « كلا . كلا . » ولكن نبرات صوته الحانية فى غير صدق أغرتنى قليلاً بأن اثق به وان أحدثه بشيء عن نفسى بعد ان سمحت له بالتحدث عن نفسه طوال ذلك الوقت .

ثم أردف قائلاً - « والآن حسناً تصنعين ! فانا لا احب الاكتئاب . ولم أدعك الى هنا لتكتئبى - فلعل لديك مبرراتك الخاصة وهذا أمر لا شك فيه . ولكنك ما دمت معى فعليك أن تلقى بمشاعرك الكئيبة

www.Librarary4arab.com/vb
خلف ظهرك - فأنا لا أبغى أن عرف شيئا عن شئونك . فلا أريد أن
أعرف من أنت وماذا حدث لك ولا أية معلومات أخرى . فهذا
لا يهمنى فى شيء . ولكن تمه صفقة قد تعاقدا عليها - أنت وأنا - حتى
ولو لم تكن مكتوبة . فأنا أضمن أن أعطيك مبلغا معيناً من المال وأنت
تضمنين لى فى مقابل ذلك أن أقضى سهرة ممتعة . ولا أهمية لغير هذا»
قال تلك الكلمات بلهجة جدية بل ربما أغضبه قليلا اننى لم أبدأ
منصته اليه فى انتباه كاف .

فأجبتة قائلة دون أن اكشف عن شيء من المشاعر التى ثارت فى
نفسى - « ولكننى لست حزينة ! بل ان المكان هنا شديد الضوضاء
ملى بالدخان - ولذا فانى أحس ببعض الدوار » .
فسألنى قائلاً فى قلق - « هل ننصرف ؟ » فقلت نعم . فنادى النادل
فى الحال ودفع الحساب ثم انصرفنا .
وعندما خرجنا الى الطريق سألتنى قائلاً - « هل نذهب الى
فندق ؟ » .

فأسرعت بالإجابة قائلة - « لا . لا . » فقد أفزعنى اضطرارى
انى ابراز أوراقى . وعلى أية حال فانى كنت قد وطنت النفس على
وجهة أخرى فقلت - « تعال الى شقتى » .
فركبنا احدى سيارات الاجرة وأدليت بعنوانى . وما ان تحركت
السيارة حتى ارتمنى على غارزا مخالبه فى بدنى ومقبلا عنقى . ودلتنى
رائحة أنفاسه على أنه أفرط فى الشراب وأنه لا بد أن يكون مخمورا .
ولم يفتأ يدعونى « طفلة » ذلك اللفظ الذى كان يثيرنى وهو على
شفتيه كما كان يبدو مثيرا للسخرية وفى غير محله . فتركته يفعل
ما يشاء فترة وجيزة ثم أشرت الى ظهر السائق قائلة - الا يحسن
بنا أن ننتظر حتى نصل الى هناك ؟ » .

www.Librarary4arab.com/vb
فلم يجر جوابا بل ارتمنى بثقله الى الخلف على الوسائد وقد احمر
وجهه محتقنا بالدم وكأنه قد أصيب فجأة بنوبة قلبية . ثم دمدم
قائلاً - « انى أدفع له اجرا لياخذنى الى حيث أريد لا لشغل نفسه
بما يجرى فى سيارته . » كان يسيطر على ذهنه ان النقود وعلى
الأخص نقوده هو يمكن أن تسد أفواه الناس جميعا . فلم أجر جوابا .
وظللنا ما بقى من الرحلة كلها جالسين فى تصلب كلانا بجانب الآخر
دون أن نتلامس . ولم تفتأ أضواء المدينة تومض خلال نوافذ السيارة
فتضىء وجهينا وأيدينا لحظة ثم لا تلبث أن تختفى مرة أخرى .
وقد بدا لى غريبا أن اكون بجوار ذلك الرجل الذى كنت قبل ذلك

بفترة وجيزة غافلة حتى عن وجوده وان اهرج معه الى شقتي حيث
أهبه نفسي كما لو كان حبيبي . وكان من جراء استغراقى في تلك
التأملات ان قصرت مسافة الطريق . فاستجبت سمعت نفسي لافيق
من دهشتي عندما رأيت السيارة تقف في الطريق المألوف امام باب
منزلى .

قلت لجياكنتى في الظلام ونحن نصعد الدرج - « لا تحدث ضوضاء
اثناء دخولك الشقة لانى اقيم مع امى . »
فأجابنى قائلاً - « لا تقلقى يا طفلى . »

وعندما بلقنا بسطة الدرج فتحت الباب بالمفتاح . وتبعنى جياكنتى
الى الداخل . فأمسكت بيده وقدمته الى باب غرفتى عبر الدهليز
دون أن اشعل الضوء وكان اول باب الى اليسار فتركته يتقدمنى وأضأت
المصباح المجاور للفراش ثم وقفت في مدخل الغرفة ملقبة نظرة وداع
على أثائها الجديد . فتنهد جياكنتى في رضا وقد سره أن يجد غرفة
نظيفة جديدة في حين أنه ربما كان يخشى أن يجد نفسه محاطا بأثاث
قدر متداع . فألقى بمعطفه على أحد المقاعد . وطلبت اليه ان ينتظرنى
حتى اعود ثم غادرت الغرفة .

واتجهت مباشرة الى غرفة الجلوس حيث وجدت امى عاكفة على
على عملها عند وسط المائدة . وما ان رأتنى حتى تركت ما بيدها
في الحال وهمت بالنهوض ولعلها تخيلت انها يجب أن تحضر الى
العشاء كما كانت تفعل في الاماسى الاخرى .

فقلت - « لا تنهضى . فقد تناولت عشائى فعلا . معى شخص فى
الغرفة المجاورة . فلا تدخلى مهما كانت الظروف . »
فسألتنى قائلة في دهشة - « أمك شخص هناك ؟ »

فأسرعت بالاجابة قائلة - « نعم . ولكنه ليس جينو - بل سيدا
مهذباً . . » ثم غادرت غرفة الجلوس دون انتظار المزيد من أسئلتها .

عدت الى غرفتى الخاصة حيث أوصدت الباب . وجاء جياكنتى
محمر الوجه نافد الصبر للملاقاة في وسط الغرفة حيث ضمنى بين
ذراعيه . كان اقصر منى بكثير فحنى ظهرى الى الخلف على طرف
الفراش لكى يبلغ وجهى وشفتى . وحاولت الا أدعه يلثم فامى . وقد
نجحت فى ذلك تارة بالإشاحة بوجهى بعيداً عند كائنات خجلة وتارة
بالقاء رأسى الى الخلف وكأنى فى نشوة . وكان جياكنتى فى مضاجعته
لا يختلف مطلقاً عنه فى تناول طعامه . فكان نهما لا يميز شيئاً ولا يكاد
يبدأ فى بقعة من جسدى حتى ينتقل الى غيرها خشية أن يفوته

www.Librarary4arab.com/vb
شيء وقد أعماه جسدي كما أعماه الطعام في المطعم . وبعد أن عانقني
بدأ انه يريد ان يجردني من ثيابي ونحن في ذلك الوضعية لا نزال
واقفين . فكشف الثوب عن احدي ذراعي وكتفي ثم اخذ يقبلني من
جديد كأن منظر بدني العاري قد ادار رأسه . وخشيت ان يمزق
ثوبي بحركاته المرتبكة . فقلت اخيرا دون ان ادفعه بعيدا - « هيا
اخلع ثيابك » .

فتركني في الحال وبدأ يخلع ثيابه وهو جالس على حافة الفراش .
فحدوت حذوه على الجانب الآخر من الفراش .
وفجأة سألني قائلا - « وهل أمك تعلم ؟ » .

- « نعم » .

- « وما رأيها في ذلك ؟ » .

- « لا شيء » .

- « أتستنكره ؟ » .

من الواضح أن تلك التفاصيل لم تكن في نظره سوى عامل اضافي
من عوامل الاثارة في مفامرته وهي سمة مشتركة بين جميع الرجال .
فالقليون منهم يمكنهم أن يقاوموا الاغراء بمزج المتعة الجسدية بنوع
آخر من الاهتمام أو حتى الشفقة . فقلت بعد قليل وأنا واقفة اخلع
ازاري الداخلي من فوق رأسي - « انها لا تستحسن ذلك ولا تستنكره
فأنا سيدة نفسي ويمكنني أن افعل ما أشاء . وعندما تجردت من
ملابسي وضعتها بنظام على أحد المقاعد ثم تمددت على الفراش مستلقية
على ظهري وقد وسدت رأسي احدي ذراعي بينما غطيت صدري
بذراعي الاخرى . ولا أدري لماذا فعلت ذلك ولكنني تذكرت أن شبيهي
الالهة الوثنية في الصورة المطبوعة الملونة التي اعطاها الرسام البدين
لامى كانت في ذلك الوضع . وفجأة انتابني الغضب المزوج
بالامتعاض عندما خطر لي ذلك التغير الكبير الذي طرأ على حياتي
منذ ذلك اليوم . ولا بد أن جياكنتي قد تولته الدهشة لمراى جمال
جسدي القوى المتين البديع التكوين الذي لم يكن واضحا عندما كنت
في كامل هندامى فقد توقف عن خلع ملابسه وأخذ يحملني في مهبورا
وقد فغر فاه الى حد ما وبرزت عيناها من رأسه .
قلت - « أسرع فإني أشعر بالبرد » .

فانتهى من خلع ملابسه وارتمى على . ولقد ذكرت من قبل طريقته
في المضاجعة . وهي صورة مطابقة للواقع تماما . واني أعتقد أنني قد
وفيته حقه من الوصف - ولا حاجة الا أن أضيف أنه كان من ذلك

الصف الذي يحرض كل الحرص على اقتضاء حقه اذا ما تذكر
النقود التي انفقها او سوف ينفقها وكأنه يخشى أن يخذع ان لم يأخذ
كل ما يعتقد أنه من حقه . لقد وصفته من قبل بالنهم الشديد ولكنه
لم يبلغ به النهم حدا ينسيه ماله . فكان يريد أن يحصل في مقابله
على كل ما يستطيع . فما لبثت أن أدركت أنه يهدف الى اطالة مدة
لقائنا ما أمكنه ذلك وأن ينال منى كل المتعة التي يعتقد أنها من حقه .
بهذه الفكرة في ذهنه أخذ يعبث بجسدي كما يعبث العازف بآلته التي
تتطلب اعدادا طويلا قبل العزف عليها . وكان لا يفتأ يحثني طوال
الوقت على أن أحذو حذوه بجسده . ولكنني رغم اذعاني له لم ألبث
أن أحسست بالملل وأخذت أراقبه في برود وكان تدابيرہ الواضحة قد
أبعدتني عنه فصرت أنظر اليه والى نفسي أيضا من مسافة بعيدة خلال
مرآة من الكراهية والنفور . وكان ذلك مناقضا تماما للاحساس
بالميل نحوه الذي حاولت بطريقة غريزية في اول المساء أن اشجعه في
نفسى . وفجأة غشيتني موجة من التبيكيت المخجل فأغمضت عيني .
وأخيرا عراه الاعياء فاضطجعنا على الفراش . كلانا بجانب
الأخر .

ثم قال فى لهجة تنبىء بالرضا عن نفسه - « يجب أن تعترفى بأننى
عاشق بارع رغم تجاوزى سن الشباب الى حد ما . »
ثم أردف قائلا - « هذا هو رأى النساء جميعا - اتعلمين ماذا
أعتقد ؟ أن القنانى الصغيرة تحوى النبذ الجيد . فبعض الرجال ممن
يلفون ضعف حجمى لا يقدرّون على شيء ! »
وبدأت أشعر بالبرد فاستويت جالسة فى الفراش وجذبت البطانية
من طرفها لتغطى جسدينا . فحمل ذلك على أنه علامة حب ،
فقال - « والآن يا فتاتى الرقيقة سنأنا قليلا . » ثم انكمش ملتصقا
بى واستغرق فى اغفاءة .

وظللت راقدة على ظهري لا أحرك ساكنا وقد وضع على صدري رأسه
الاشيب . وكانت البطانية تغطى جسدينا حتى الخصر . وبينما كنت
أتأمل وأتأمل صدره الأشعر وقد علت طيات الكهولة المترهلة عاودنى
فى أول الامر الاحساس بأننى فى صحبة غريب لا تربطنى به صلة ما .
ولكنه كان مستغرقا فى النوم . ويومه لم يبد يتحرك أو ينظر أو
يتحرك . ولما كان ذا شخصية بغيضة فان النوم لم يكشف الا عن خير
ما فيه وهو أنه رجل لا يبرح صدره يعلو ويهبط وهو يتنفس واذا بى
أثناء تأملى اياه ومراقبته وهو نائم فى ثقة الى جوارى أكاد أحس نحوه

بالعطف - رغم ما قد يبدو في ذلك من غرابة . وكان مما يدل على صدق ذلك الاحساس حرصى على تجنب ايقاظه بحركة ما . وكان ذلك بدافع من العطف الذى ظلت أشده عبثاً حتى تلك اللحظة . وقد أثاره في نفسى منظر رأسه الاشيب متكئاً في ثقل على صدرى الناهد . وقد خفف عنى ذلك الاحساس وكاد يشعرنى بشيء من الدفء . وفي الواقع فقد خالجنى فى لحظة ما نوع من السمو نى العشق فجر الدموع من مآقى . فلشد ما كان قلبى فى الحقيقة مترعاً بالحب فى تلك اللحظة كعهده دائماً - ذلك الحب الذى آثرت لانتقارى الى اهداف مشروعة الا يبقى عاطلاً وأن ينصب على اشياء تافهة وأناس غير أهل له .

وبعد مضي عشرين دقيقة أو ما يقرب من ذلك استيقظ من نومه وسألنى قائلاً - « هل طال نومى ؟ » .
- « كلا » .

فقال وهو ينهض من الفراش ويفرك يديه - « انى اشعر بالنشاط . بل ما أنشطنى ! فانى احس وكأنى عدت القهقرى عشرين عاماً على الاقل . » وأخذ يرتدى ملابسه وهو لا يفتأ يصيح فى فرح وارتياح .
اما أنا فقد ارتديت ملابسى فى صمت .

وما ان تهيأ للرحيل حتى قال - « أحب أن أراك مرة أخرى يا طفلى . فكيف السبيل الى ذلك ؟ »
فأجبت قائلة - « ما عليك الا أن تتصل تليفونيا بجيزيلا . فانى اراها كل يوم » .

- « وهل تملكين وقتك دائماً ؟ » .
- « دائماً » .

- « تحيا الحرية » .

ثم أخرج حافظته وسألنى قائلاً - « كم تطلبين ؟ » .
فأجبت قائلة - « ما تراه » . ثم أضفت قائلة فى اخلاص - « لو أجزلت لى العطاء فخيراً تفعل لانى فى حاجة الى المال » .

فرد قائلاً - « لو أجزلت لك العطاء فانى لا أبغى من وراء ذلك فعل الخير بل لانك فتاة وسيمة أمتحنى بسهرة ترفيحية جميلة » .
فقلت هائرة كتفى - « كما تشاء » .

ثم أردف قائلاً وهو يخرج النقود من حافظته - لكل شيء ثمنه ويجب أن يقدر حسب قيمته . أما فعل الخير فلا وجود له . لقد زودتنى بأفضل مما كان يمكن أن تزودنى به جيزيلا مثلاً . فمن

العدل أن تحصلى على أجر أعلى من أجرها . أما فعل الخير فلا شأن له بذلك . هاهنا نصيحة تعالين بها . فإياك أن تقولى - « أعطنى ما تراه » . دعى ذلك للباعه المتجولين . فإذا ما قال لى أحد « أعطنى ما تراه » أجدنى دائما ميالا الى اعطائه اقل مما يستحق . ثم قدم الى النقود تعلق وجهه حركة معبرة .

وكان كريما كما قالت جيزيلا فقد فاق المبلغ ما كنت أتوقعه بكثير . ولقد عاودنى وأنا أتناول النقود ذلك الاحساس القوى الذى أثارته فى نفسى نقود أستاريتا أثناء رحلة فيتريو بالمشاركة الجنسية الأثمة . وخيل لى أن ذلك معناه بالضرورة أن القدر قد اختارنى لهذا العمل وأنى فى الحقيقة قد ولدت لاحترف تلك المهنة حتى ولو كنت أتوق من أعماق قلبى الى شىء يختلف عن ذلك . فقلت « شكرا لك » . واذا بى قبل أن أدرك ماذا أنا فاعلة أقبله على وجنتيه بدافع مفاجيء من العرفان .

فأجابنى قائلا وهو يتهاى للانصراف - « الشكر لك » . ثم أمسكت بيده وقدمته فى الظلام الى الباب الامامى خلال الدهليز وفى لحظة ما عندما اغلق باب غرفة النوم وكان الباب الامامى لا يزال موصدا احتوانا ظلام شامل . عندئذ ثمة غريزة تكاد تكون حسية أنباتنى أنامى لابد ان تكون مختبئة فى الظلام فى احدى زوايا الدهليز حيث كنت أتجول مع جياكنتى . فلا بد انها قابعة خلف الباب أو فى الزاوية الاخرى بين « البوفيه » والجدار منتظرة ان ينصرف جياكنتى . وتذكرت ما حدث فى المرة السابقة عندما أتيت نفس العمل فى الليلة التى عدت فيها متأخرة اثر لقائى بجينو فى فيللا مخدوميه . ولشد ما توترت اعصابى عندما خطر لى انها قد تنقض على حالما ينصرف جياكنتى وتمسك بى من شعرى ثم تجرنى الى الاريقة حيث تنهال على ضربا . وأمكنتنى أن أحس انها هناك فى الظلام . بل شعرت وكأنى اكاد أراها . وراودنى من الخلف احساس بالانكماش وكان يديها كانتا تحومان فوق رأسى استعدادا للقبض على شعرى . وكنت أقود جياكنتى باحدى يدي وبالاخرى أقبض على النقود . ثم خطر لى أن أضع النقود فى يدها حالما تنقض على . وبذلك أذكرها فى صمت انها هى التى لم نفتأ تحفرنى طوال الوقت على تسب المال عن هذا الطريق . كما انها محاولة أسد بها فاها بمناشدة حبها الشديد للمال - ذلك الحب الذى لم يفقه قط حب آخر فى أعماق روحها . وكنت فى أثناء ذلك قد فتحت الباب .

فقال جياكنتى - « وداعا اذن . وساتصل بجيزيلا » .
ورأيتنه وهو يهبط الدرج بمنكبته المريضين وشعره الاشيب
المنتصب فوق رأسه وكان يلوح لى بيده مودعا دون أن يستدير
نحوى . ثم أغلقت الباب . ولم تلبث أمى فى الحال أن انقضت على
كما توقعت . . ولكنها لم تمسك بشعرى كما خشيت أن تفعل بل
حاولت أن تعانقنى بطريقة مرتبكة لم أفهمها فى أول الامر . وعملا
بخطتى تناولت يدها ودسست فيها النقود . ولكنها دفعتها بعيدا
فسقطت على الارض حيث وجدتها فى صباح اليوم التالى عندما غادرت
غرفتى . حدث كل ذلك وقد انبهرت أنفاسنا ولكن دون أن تنطق
احدانا بكلمة .

ثم دلفنا الى غرفة الجلوس حيث جلست الى المائدة جلسة جانبية .
وجلست أمى فى مواجهتى وهى تنظر الى . لقد بدأ عليها الانزعاج
وتولانى الارتباك .

ثم قالت على غير انتظار - « أتعلمين أننى اثناء وجودك هناك أحسست
فجأة بالخوف لمدة لحظة ؟ »
- « الخوف مم ؟ » .

فأجابتنى قائلة فى مشقة وهى تنظر الى - « لست أدرى . فقد
أحسست بالوحدة فى أول الامر . . . ثم انتابنى البرد فى جميع اطرافى
. . . لم اكن فى حالتى الطبيعية مطلقا . . . وكان كل شيء يدور من
حولى كما يحدث للمرء عندما يفرط فى الشراب . . . وقد بدأ كل شيء
غريبا فى عينى . ووجدتنى أحدث نفسى قائلة - « هذه هى المائدة ،
وهذا هو المقعد وهذه هى ماكينة الخياطة » . ولكننى لم أستطع
أن أصدق حقا أن تلك الاشياء هى المائدة والمقعد وماكينة الخياطة .
وبدا لى أننى لم اكن أنا نفسى بل شخصا آخر فحدثت نفسى قائلة -
« أنا خياطة عجوز ولى ابنة تلعى أدريانا » . ولكننى لم اكن واثقة .
. . فأخذت استعرض الماضى لاقنع نفسى وأتذكر ماذا كنت فى طفولتى
وفى صباى وعندما تزوجت وعندما أنجبتك . . . وانتابنى الخوف
لاننى رأيت كل ذلك فى لمح البصر وكأنه يوم واحد فانتقلت فجأة من
السباب الى الشيخوخة ولم اعط ما طرأ على من تغير . . . وعندما
أموت سوف يبدو كل شيء وكأنى لم أولد قط . »

فقلت فى ببطء - « وما الذى يجعلك تتخيلين ذلك . فأنت ما زلت
صغيرة ثم ما شأن الموت بما نحن فيه ؟ » .
ولكن بدا أنها لم تسمعنى وواصلت حديثها قائلة بلهجتها التوكيدية

وكان حديثها مؤلماً ومصطنعاً - « أقول لك اننى كنت خائفة . وحدثت
نفسى قائلة - « لنفرض أن شخصاً ما أبى أن يواصل الحياة فهل
يفرض عليه ذلك على الرغم من ذلك . أنا لا أؤمن أن المرء ينبغي
أن يقتل نفسه فذلك يحتاج الى شجاعة . ولكن لنفرض أنه أبى أن
يعيش بعد ذلك كما تأيين الطعام أو السير مثلاً . . حسناً انى أقسم
بأبيك الميت . . اننى أرفض مواصلة الحياة - »

كانت الدموع تترقرق فى عينيها بينما ترتعش شفاتها . فأحسست
أنا أيضاً بالرغبة فى البكاء ونهضت من مكانى ثم أحطتها بذراعى
وذهبت لاجلس معها على الأريكة فى الطرف القصى من الغرفة .
ومكثنا هناك متعانقتين فى قوة بينما أجهشت كلتانا بالبكاء . كنت
مذهولة لشدة اعبائى كما أن حديث أمى بمنطقه المتقطع كان يزيدنى
ذهولاً . ولكننى بادرت باستجماع شعث نفسى لاننى قبل كل شئ
كنت أبكى تعاطفاً معها . إذ اننى كنت قد أقلعت عن البكاء على نفسى
منذ أمد بعيد . فقلت مرتبة على كتفها - « هدئى من روعك » .

فرددت قائلة من خلال دموعها - « انى أعنى ذلك يا أدريانا . . .
فأنا أرفض أن أواصل الحياة . . فربت على كتفها وتركتها تبكى
ما شاء لها البكاء دون أن تتكلم . ولكننى فى أثناء ذلك لم أتمالك
نفسى من الاعتقاد أن دموعها كانت دليلاً قاطعاً على ماتشعر به من
تبكيك الضمير . فانها لم تفتأ تعظنى قائلة اننى يجب أن أحذو حذو
جيزيلا وأن أبيع عرضى لمن يعرض الثمن الأعلى . لا شك أنها فعلت .
ولكن . شتان بين القول والفعل . فلا ريب أنها كانت لطمة قوية لها
عندما رأتنى أصحب رجلاً الى المنزل وعندما أحسست بى وأنا أضع
النقود فى يدها . فقد تمثلت الآن أمام عينيها ثمرة عظاتها فلم تتمالك
نفسها من الرعب . ولكن لا ريب أنها كانت فى نفس الوقت عاجزة على
صورة ما عن الاعتراف بخطئها ولعلها أحسست الآن بالرضا المرير لان
ذلك الاعتراف لم يعد يجدى شيئاً . وهكذا فبدلاً من أن تصارحنى
مباشرة قائلة - « لقد ارتكبت خطأ - فإياك أن تعودى إليه . » آثرت
أن تحدثنى لا فيما يخصنى بل عن حياتها ورغبتها فى الموت . وطالما
لاحظت أن الكثيرين من الناس فى نفس اللحظة التى يرتكبون فيها عملاً
يعلمون أنه خطأ يحاولون تغطية أنفسهم ورد اعتبارهم بالتحدث عن
مسائل عليا من شأنها أن تظهرهم أمام أنفسهم وأمام الآخرين فى ضوء
من النبيل والنزاهة لا صلة له مطلقاً بما يفعلون أو بما يسمحون به .
وهكذا كان الحال مع أمى - إلا أن معظم الناس ينحون هذا النحو وهم

www.Library4Arab.com/vb
على علم تام بما يفعلون . أما أمى العزيزة المسكينة فقد اتحت هذا
السبيل على غير وعى منها مطلقا ويوحى من قلبها وطرورها .
ولكن عبارتها عن رغبتها في الموت بدا فيها رنين الصدق . وأعتقد
اننى ايضا لم اشعر بالرغبة في الحياة بعد ان اكتشفت خداع جينو .
غير أن جسدى كان يواصل حياته تلقائيا غير مبال بارادتى . فكان
صدرى وساقاى وأردافى - تلك الاطراف التى لشد ما كانت تمتع
الرجال - لا تزال تواصل الحياة . وكان جنسى الخفى بين فخذى
لا يفتأ يواصل الحياة ويجعلنى اطلب الحب حتى عندما تاباه ارادتى .
فكان من العبث أن أتمدد على الفراش عاقدة النية الا أعيش بعد ذلك
وآلا استيقظ فى الصباح - فان جسدى يواصل حياته اثناء نومي .
فالدّم لا يفتأ يتدفق فى عروقى . ومعدتى وأمعائى تواصلان هضم
الطعام . وشعرى يعود الى النمو أسفل ذراعى حيث حففته .
وأظافرى تنمو . وأديمى يتصبب عرقا . وقواى تتجدد . وفى لحظة
معينة من الصباح سوف يفتح جفناى دون ارادتى الواعية وسوف
تقع عيناي مرة أخرى على الحقيقة التى أبفضها . وسوف أدرك اننى
على الرغم من رغبتى فى الموت لا أزال على قيد الحياة ولا بد لى من
أن أواصلها . فخرجت من ذلك بنتيجة معينة هى انه ما دام الامر
كذلك فخير لى أن استمتع بحياتى قدر امكاني والا اعيرها اهتماما
بعد ذلك .

ولكننى لم أذكر شيئا من ذلك لأمى لانى أدركت ان تلك الخواطر
كانت كئيبه كخواطرها تماما وما كانت لتبعث فى نفسها البهجة
مطلقا . فاذا بى بدلا من ذلك عندما بدا لى أنها توقفت عن البكاء
انهض من جوارها قائلة - « انى جوعى » . وكنت كذلك بالفعل لاننى
لم أكد ألمس شيئا فى المطعم لشدة اضطراب أعصابى .
فقالت أمى فرحة باقتراحى شيئا نافعا يمكنها ان تؤديه وكانت
لا تفتأ تؤديه كل مساء - « هناك عشاؤك - وسأذهب لاعدادهلك .
ثم غادرت الفرفة وبقيت وحدى .

www.Library4Arab.com/vb
جلست الى المائدة فى مكاني المألوف وانتظرت عودتها وقد خلا
ذهنى من الافكار ولم يبق لى من كل ما حدث سوى تلك الرائحة
العطرة السقيمة فى أصابعى وذلك الأثر الملح الذى تركته الدموع على
وجنتى . ظللت ساكنة أراقب الظلال التى كان يلقيها المصباح المعلق
على جدران غرفة الجلوس الطويلة العارية . ثم عادت أمى حاملة
صحفة من اللحم والخضراوات .

قالت - « انى لم استخن الجساء . فانه لن يكون الإن سائفا -
ولم تكن هناك كمية كبيرة منه . »
- « لا يرام . فهذا ينقى . »
ثم صبت لى قدحا من النبيذ ملأته حتى حافته ووقفت امامى
كعادتها فى سكون وانتباه اثناء تناولى الطعام .
وبعد فترة وجيزة سألتنى قائلة فى قلق - « اتسيفين شريحة
الانحم ؟ »

- « نعم . انها لذيذة . »
- « لقد أوصيت القصاب خصيصا أن يعطينى قطعة رقيقة . »
وبدا لى انها قد استعادت هدوءها وسار كل شيء كالمعتاد تماما
فى الاماسى الاخرى . تناولت طعامى فى ببطء وعندما انتهيت من ذلك
تمطيت متثابة . وفجأة أحسست أنى على خير ما يرام ووجدت
فى تلك الحركة احساسا باللذة فقد امتلأ جسدى قوة وشبابا ورضا
قلت - « نشد ما يغالبنى النعاس . »

فقالتمى فى حماس وهى تهم بالخروج - « انتظرى قليلا .
فسأذهب لاسوى لك الفراش . »
ولكننى أوقفتها قائلة - « سأسويه بنفسى . »

فنهضت من مكانى وتناولت أمنى الصحيفة الفارغة . وقلت لها -
« دعينى أنم غدا صباحا وسوف استيقظ من تلقاء ذاتى . »
فاجابت بانها ستفعل كما أشاء . وما ان تمنيت لها ليلة طيبة
وقبلتها حتى دلفت الى غرفتى . وكان الفراش لا يزال على حاله
كما تركناه أنا وجيا كنتى . فلم أزد على أن جذبت الوسائد والبطنانية
الى مكانهما ثم خلعت ملابسى وأويت الى الفراش حيث اضطجعت
وقد فتحت عيناي على سعتهما فترة وجيزة وكان ذهنى صفحة
بيضاء .

وأخيرا قلت بصوت عال لارى وقع الالفاظ فى نفسى - « انى
بفى . » ولكن نم بيد ان لها تأثيرا ما . فاغمضت عينى وما لبثت ان
استغرقت فى النوم .

الفصل الثامن

وخلال الايام القليلة التالية لم افتأ اقابل جياكنتى كل مساء .
فقد اتصل بجيزيلا تليفونيا فى صباح اليوم التالى وما قابلتنى فى
المساء حتى ابلغتنى رسالتسه . وكان على جياكنتى ان يرحل
الى ميلان قبل اليوم المتفق عليه للقاء جينو بليلا واحدة . وهذا
هو السبب فى اننى وافقت على مقابلته كل مساء . والا لرفضت
ذلك فقد قطعت على نفسى عهدا الا انشد قط مرة اخرى علاقة
مستقرة برجل واحد - وخيل لى انه يحسن بى ان كنت قد اعتزمت
احتراف هذه المهنة ان امارسها فى جد مع عشاق مختلفين فى كل مرة
ولا اخدع نفسى بايهامها اننى لا احترفها اذا ما سمحت لرجل واحد
ان يكفلنى كخيلته فضلا عن خطر تعلقى به او تعلقه بى . وعندئذ
لا أفقد حريرتى الجسدية فحسب بل حريرتى العاطفية كذلك . وعلى
اية حال فقد بقيت ارأى فى الحياة الزوجية الطبيعية كما هى دون
تفسير . وخيل لى اننى اذا تزوجت فلن يكون ذلك بعشيق كفلنى ثم
قرر فى النهاية ان يضى على علاقة العمل التى تربطنى به الصفة
الشرعية ان لم تكن الادبية . بل الاخرى ان اتزوج شابا يحبنى
وابادله الحب ويكون منتبيا الى مثل طبقتى فى الحياة وله نفس
ميولى وآرائى . ولما كنت قد لمست فى نفسى الموهبة الفاتحة لان اكون
زوجة صالحة بقدر موهبتى لان اكون بغيا ناجحة مع عجزى التام
عن اتخاذ موقف حذر منافق فى منتصف الطريق بين الوظيفتين فقد
كان هلقى فى الواقع ان احتفظ بالمهنة التى اخترتها لنفسى بعيدة
كل البعد عن . طامحى الاولى دون اية اتصالات او تسويات . ومع
ذلك فلعل ما اكسبه من خبرة عديد من الرجال يزيد على ما يجسود
به رجل واحد دون سواه .

وفى كل مساء كان جياكنتى بصحبتى لتناول العشاء على نفس
الطعم ثم يرافقنى بعد ذلك الى المنزل حيث يبقى معى حتى ساعة
متأخرة من الليل . وقد اقلعت امى الان عن كل محاولة للتحدث
الى عن سهراتى بل كانت كلما احضرت الى القهوة على صينية فى
ساعة متأخرة من صباح اليوم التالى تكتفى بسؤالى عما ان كنت

قد تمتعت بنوم هادئ عميق . وكنت من قبل اذهب الى المطبخ
في الصباح الباكر لارشف قهوتي امام الموقد دون ان انايم حتى
بالجلوس وانا لا ازال اشعر على وجهي ويني ببرودة الماء
الذي اغتسلت به . أما الآن فكانت أمي تحملها الى لأحتسيها في
الفراش بينما تفتح هي مصاريع النوافذ وتأخذ في تنظيم الغرفة .
ولم احدها قط في شيء لم أذكره لها من قبل . ولكنها أدركت من
تلقاء ذاتها ان كل شيء في حياتنا قد تغير وكانت تكشف بسلوكها عن
ادراكها التام كنه ذلك التغير . فلم تفتأ تنصرف وكأن هناك اتفاقا
ضمنيا . وكان يبدو لي من اهتمامها ورعايتها أنها تتوسل الى في
ذلة ان اسمح لها بالاستمرار في خدمتي وان تكون كما كانت في
الماضي ذات نفع في طريقة حياتنا الجديدة . ولكن لا يفوتني ان أقول
ان تعودها احصار القهوة الى في الفراش كان بلا ريب يطمئنها الى
حد ما لان الكثيرين من الناس ومن بينهم أمي يعلقون على العادات
قيمة ايجابية كما هي الحال الآن . حتى ولو لم تكن كذلك وبنفس
الحماس أدخلت تغييرات أخرى كثيرة في حياتنا اليومية . فكانت
مثلا تعد لي اناء كبير من الماء المغلي لاغتسل به حالما انهض من
فراشي كما اعتادت ان تضع في غرفتي اناء به زهور وما الى ذلك .
ولم يفتأ جياكنتي يمنحني نفس المبلغ في كل مرة وكنت أودعه
داخل احد الادراج في ذلك الصندوق الذي كانت أمي حتى الان تضع
فيه مدخراتها دون ان اخبئها بذلك . وكنت لا أحتفظ لنفسي
ال بعض العملات الصغيرة . واعتقد انها لاحظت بلا شك تلك
الاضافات اليومية الى رأسماننا ولكننا لم نشر قط الى ذلك في
أحاديثنا . وقد لاحظت أثناء حياتي ان الناس بصفة عامة حتى
أولئك الذين يكسبون فونهم بوساس شروعة يؤثرون الا يتحدثوا عن
مكاسبهم لا امام الغرباء فحسب بل امام الاصدقاء . ولعل المال
مرتبط بالاحساس بالخجل او على الاقل بالتواضع مما يحول دون
ادراجه ضمن قائمة موضوعات الحديث العادية ويجعله من بين تلك
الاشياء السرية غير المسموح بها التي يحسن أن يمتنع عن ذكرها وكأنه
لا يفتأ يكسب عن طريق غير مشروع بعض النظر عن مصدره .
ولكن اعلمه صحيح أيضا ما يقال من أن احدا لا يحب ان يكشف عما
تثيره النقود في نفسه من شعور لما فيه من قوة مفرطة ولا ارتباطه
دائما بنوع من الاحساس بالاثم .
وذات مساء عبر لي جياكنتي عن رغبته في أن يقضى الليل معي في

غرفتى • ولكننى نجحت فى ثنيه عن عزمه محتجة بان الجيران سيلاحظونه عند خروجه فى الصباح • وفى الواقع قال علاقتى به لم تتقدم خطوة واحدة عما كانت عليه فى اول مساء ولا لوم على فى ذلك • فان سلوكه فى اول مساء ظل كما هو دون تغيير حتى يوم رحيله • كان رجلا تافها أو شبه ذلك على الاقل فى علاقاته العاطفية • وقد خالجنى فى اليوم الاول أثناء نومه كل ما أستطعت أن أستجمعه من شعور نحوه - وهو احساس غامض ربما لم يكن مرتبطا به • وكان مجرد التفكير فى مضاجعة رجل كهذا خليقا بان ينفرنى • كما ساورنى الخوف من الملل لاننى كنت واثقة من أنه سيبقىنى مستيقظة حتى منتصف الليل وهو لا يفتأ يحدثنى عن نفسه حديثا خاصا • ومع ذلك فانه لم يلحظ مللى قط أو كراهيتى له وتركنى وهو مقتنع أنه قد جعل من نفسه فى خلال تلك الايام القلائل شخصا محببا للغاية فى نظرى •

وأخيرا جاء اليوم الذى تواعدنا على اللقاء فيه أنا وجينو • وما أكثر ما حدث فى تلك الايام العشرة حتى أننى أحسست وكان مائة عام قد انقضت منذ تعودت لقياه وأنا فى طريقى الى المرسم ومنذ سعى لادخار النقود التى أوثت بها المنزل عندما كنت أعد نفسى فتاة مخطوبة لا تلبث أن تتزوج • وقد حضر فى الموعد بالضبط دون تأخير واشد ما بدا عليه الشحوب والاضطراب وأنا أركب السيارة • فان أحدا لا يجب أن يواجه بخداعه حتى لو كان أجرا المخادعين ولا ريب انه فكر كثيرا وساورته الشكوك خلال تلك الايام العشرة التى قطعت لقاءاتنا المعهودة • ولكننى لم أظهر شيئا من الاستياء ولم يكن ذلك تظاهرا منى فى الواقع فلشد ما أحسست بالهدوء • وعندما مرت اللحظة الاولى بما فيها من مرارة الخيبة راودنى نحوه نوع من الشفف المتسامح المرتاب • فانى كنت لا أزال أحب جينو قبل كل شىء كما ادركت من اول نظرة وجهتها اليه وكانت محملة بالمعانى •

وما لبثت ان سألنى قائلا بعد فترة وجيزة بينما كانت السيارة تسرع بنا نحو الفيلا - « اذن فقد غير معرفك رأيه ؟ » وكانت لهجته متشككة رغم ما فيها من سخوية فى نفس الوقت • فاجبته قائلا فى بساطة - « كلا • بل لقد غيرت انا رايى • »

- « وهل فرغت من أعمالك كلها مع أمك ؟ »

- « مؤقتا • »

- « انه لأمر غريب • »

ثم يكن يدري ماذا يقول ولكنه من الواضح انه كان يختبرني ليكتشف ما اذا كان هناك مبرر لشبهاته .

« وما وجه الغرابة في ذلك ؟ »
« قلت ذلك بنيت ان اتقول شيئا فحسب . »

« الا تصدق اننى كنت مشغولة ؟ »

« اذا لا اصدق شيئا . »

وكنت قد عقدت النية على كشف خداعه ولكن بطريقتى الخاصة وذلك بملاعبته قليلا كما يفعل القط مع الفأر دون اللجوء الى الشجار الوحشى الذى نصحت به جيزيلا والذى لا يتفق مع مزاجى .

سألته قائلة فى دلال - « اتغار ؟ »

« انا اتغار ؟ يا الهى ! »

« نعم - فهذا هو شعورك - ولو كنت صادقا لاعترفت به . »

فتناول الطعم الذى قدمته اليه قائلا - « ان أى شخص فى مكانى لابد ان يفار . »

« لماذا ؟ »

« دعك من هذا ! فمن ذا الذى تحسبينه يصدقك ؟ اكان عملك من الاهمية الى حد انك لا تستطيعين مقابلتى لمدة خمس دقائق ؟ »

فقلت فى هدوء - « ومع ذلك فهذه هى الحقيقة . فلشد ما دأبت على العمل . »

وكان ذلك صحيحا . فيماذا يوصف ما كنت افعله مع جياكنتى كل مساء سوى أنه عمل وعمل شاق ؟ ثم أضفت قائلة وأنا أسخر من نفسى - « ولقد اكتسبت ما يكفى لسداد بقية الاقساط وشراء جهازى . وهكذا يمكننا على الاقل ان نتزوج دون ان يطالبنا أحد بديون . »

فلم ينبس بشيء . وكان من الواضح أنه يحاول اقناع نفسه بصحة ما كنت أقول وأخذ يتخلى رويدا عن وساوسه السابقة . وعندئذ أتيت حركة ألفتها فى الماضى . - فألقيت بذراعى حول عنقه وهو يقود السيارة وقبلته بقوة أسفل أذنه هامسة - « لماذا تغار ؟ »

فأنت تعلم أنه ليس فى حياتى سراك
وبلغنا الفيلا حيث قاد جينو السيارة الى داخل الحديقة ثم أغلق البوابة وأتجه معى الى مدخل الباحة . وكانت ساعة الشفق . فقد بدأت الاضواء الاولى تلمع فى نوافذ المنازل المجاورة حمراء فى ضباب ساء الشتوى المائل الى الزرقة . وكاد الظلام يخيم فى دهليز

- « لا أبغى الذهاب الى غرفتك هذا المساء » .
- « لم لا ؟ »
- « أريد مضاجعتك في غرفة مخدمتك » .
فهتفت قائلة في رعب من هول الصدمة - « أجننت ! ؟ »
فطالما صعدنا الى الغرف العليا ولكننا كنا لا نفتأ نمارس الحب في غرفته في البدر .

قلت - « انها نزوة فحسب . وماذا يهمك من ذلك ؟ »
- « يهمني كثيرا - فقد ينكسر شيء ما - فأني لك أن تعلمي -
ولو لاحظوه فماذا أنا فاعل ؟ »
فهتفت قائلة في استخفاف - « آه . يالها من مأساة ! ستفصل
من عملك . هذا هو كل ما هناك » .

- « أيمكنك التحدث عن ذلك بهذه اللهجة ؟ »
- « كيف ينبغي أن أتحدث عنه ؟ لو كنت حقا تحبني لما ترددت
مطلقا » .

- « اني أحبك بلا شك ولكنني لا أستطيع سماع ذلك - بل لا
تدعينا حتى نتحدث فيه . فأنا لا أريد أية متاعب . نعم لا أريد
ذلك » .

- « سنتوخى الحرص والحذر . ولن يلحظوا شيئا » .
- « كلا » .

ولكنني كنت هادئة تماما . وهتفت مواصلة التظاهر بغير شعوري
الحقيقي .

- « أنا خطيبتك أسألك هذا الصنيع الوحيد فترفض خشية أن
أضطجع بجسدي حيث تضطجع مخدمتك وأن أوسد رأسي حيث
توسد هي رأسها ولكن ماذا تظن ؟ أتظنها خيرا مني ؟ »
- « كلا . ولكن » .

أردفت قائلة - « اني أسأري ألفا من صنفها . ولن يبالك من
هذا سوى الخيبة والفشل اذ يمكنك أن تضاجع وسائد
مخدمتك وملاءها . . . فاني ذاهبة » .

كان كما سبق أن قلت يدين لمخدوميه بالاحترام العميق والخضوع
الدليل . وكان فخورا بهم على صورة تغثو لها النفس وكان ثروتهم
بأسرها كانت ملكا له أيضا . ولكنه ما ان رأني أتكلم بهذه اللهجة

منصرفه عنه في اندفاع غاضب يحدوني تصميم لم يعهده في من قبل
حتى فقد صوابه وركض خلفي قائلا :
« انتظري لحظة ! أين أنت ؟ كان ذلك كلاما فحسب ! ولنصعد
- ان شئت - الى الطابق العلوى ! »

فتركته يتوسل الى قليلا متظاهرة بالاستياء . ثم وافقت وصعدنا
الى الطابق العلوى متخاصرين ولم نفتأ نقف عند كل درجة لتبادل
قبلة مثلما فعلنا في المرة الاولى تماما ولكن بقلب متغير - على الاقل
من ناحيتي . وعندما بلغنا غرفة مخدمته اتجهت رأسا الى الفراش
حيث جذبت الاغطية .

فاحتج مرة أخرى قائلا وقد استبد به الخوف - « ولكنك لا
تعنين أن ترقدى مباشرة في الفراش ؟ »

فأجبت قائلة في هدوء - « ولم لا ؟ فأنا لأريد أن أشعر بالبرد » .

فلم ينبس بشيء وقد بدا عليه الاضطراب واضحا . ولكنني ما ان
انتهيت من اعداد الفراش حتى دلفت الى غرفة الحمام حيث أشعلت
السخان وفتحت صنوبر الماء الساخن ليتساقط نضيفا فحسب
حتى لا يمتليء الحوض بأسرع مما ينبغي وتبعني جينو وقد اتابه القلق
والسخط ثم احتج قائلا مرة أخرى :

- « أتستحمين أيضا ؟ »

- « انهم يستحمون اثر المضاجعة . أليس كذلك ؟ »

فأجابني قائلا وهو يهز كتفيه - « أنى لى أن أعلم ماذا يفعلون ؟ »
ولكن أمكنني أن أرى أنه في الواقع لم يتكدر حقا لجرأتى بل تعذر
عليه فحسب أن يستسيغ ذلك . كانت تعوزه الشجاعة فكان يؤثر
الأ يخالف القانون . ولكنه لما كان لا يكاد يسمع لنفسه بالزلزل فان
مخالفة القانون كانت تجذبه في مزيد من القوة . فما لبث أن قال
مبتسما بعد لحظة من الصمت وهو يتأرجح بين الاغراء والأحجام
متحسسا الحشية بيده - « انك على حق قبل كل شيء . فهذا المكان
مريح - وهو أفضل من غرفتي . »

- « ألم أقل لك ذلك ؟ »

جلسنا معا على حافة الفراش ثم قلت ملقبة بـ « دراغى » حول عنقه -
« تخيل يا جينو كم تحلو الحياة عندما يكون لدينا منزلنا الخاص -
بنا فحسب أنه لن يكون كهذا ولكنه سيخصنا
وحدنا . »

ولا أدري لماذا قلت ذلك . ولعل السبب في هذا أنني كنت الان أعلم يقينا أن تلك الاشياء جميعا صارت ضربا من المحال . فأحببت أن أكأ نفس الفرحة التي كان لا يفتأ قنبي يتلقى فيها الطعنت . فقال وهو يقبلني - « نعم . نعم . » واسترسلت قائلة يراودني ذلك الشعور القاسي بأنني أصف شيئا مفقودا ذهب بلا رجعة :

- « انى أعرف نوع الحياة التي أفضلها . فلا حاجة بي الى مكان جميل كهذا بل تكفينى شقة تتألف من غرفتين ومطبخ . على أن أملك كل ما فيها كما أنها ستكون آية فى النظافة وسنعيش فى هدوء وسكينة فنخرج معا يوم الاحد ونأكل معا وننام معا . آه يا جينو تخيل فقط كم تكون الحياة جميلة ! »

فلم ينبس بشيء . غير أنني فى الواقع لم أتأثر مطلقا بكل ماقلت . بل أحسست وكأنى أودى دورا كما يفعل الممثل على خشبة المسرح . ولكن ذلك زاد من مرارة الموقف . فمنذ عشرة أيام فقط كنت أحيا فى الحقيقة ذلك الدور السطحي البارد الذى أعبه الان دون أن يثير فى نفسى أقل صدى . وفى تلك الاثناء بينما كنت أتكلم كان جينو يجردنى من ملابسى فى ضجر . ولاحظت مرة أخرى كما سبق أن فعلت عندما ركبت السيارة أنني ما زلت أحبه . ولعل جسدى الذى كان دائما على أهبة الاستعداد للاستمتاع معه - لا روحى التى كانت عندئذ قد أعرضت عنه - هو الذى بث فى نفسى تلك السماحة ولم يفتأ يحثنى على سرعة الصفح عنه . أخذ يداعبنى ويقبلنى . فاضطرب عقلى لقبله ومداعباته وقد تغلبت لذة حواسى على احجام قلبى . وأخيرا تمتت قائلة فى صدق وأنا أهوى الى الخلف فوق الفراش - « آه يا جينو - انك تشعرنى وكأنى أموت ! »

وفيما بعد دسست ساقى تحت الملاء وكذلك فعل هو . ووقدنا معا وقد جذبنا الملاء المطرزة حتى ذقنينا فوق ذلك الفراش الفاخر . وقد تعلقت فوق رأسينا مظلة بها سحابة من الستائر الرقيقة البيضاء التى تنسدل هههافة على رأس الفراش . كانت الغرفة كلها بيضاء تغطى نوافذها ستائر رقيقة طويلة ويرين حدرانها أثاث جميل خفيض ومرايا مشطوفة وزينات من الزجاج المتلألئ اللامع والرخام والفضة . وكنت أحس بالملاء الرقيقة الفاخرة على جسدى وكأنها لمسة لذيذة مداعمة . وكانت الحشوية تلين فى رقة تحت ثقل أطرافى

كلما تعاطيت الحب في رفق شديد للغاية مما كان يستميلني في عمق
الى النوم والراحة . ومن خلال الباب المفتوح أمكنني أن أسمع صوت
الماء المتدفق في الحوض هادئاً متدبراً . لشدة ما أحسست بالرضا
ولم يعد في نفسي اثر من الحقد على جينو . وبدت هذه أنسب
اللحظات لمصارحته بأني أعلم كل شيء لانى كنت واثقة بأني سأذكر
له ذلك في رقة دون أن تشوبه أية شائبه من المرارة .
فقلت في نبرات رقيقة للغاية بعد فترة صمت طويلة - « اذن يا
جينو فزوجتك تدعى انتونيتا بارتيني »
ولعله كان ناعسا لانه وثب في عنف قائلا وكان شخصا ما علي
حين غرة لطمه علي كتفه :

- « ماذا قلت ؟ »

- « وابنتك الصغيرة تدعى ماريا .. اليس كذلك ؟ » .

كان يود لو احتج مرة أخرى ولكنه نظر في عيني وأدرك أن ذلك
لا جدوى منه . كنا نوسد رأسينا نفس الوسادة وقد تجاوز وجهانا
وكنت أتكلم وفضي يوشك أن يعلو فمه . قلت - « قل لي أيها التعس
لماذا رويت لي كل هذه الاكاذيب ؟ »

فأجابني قائلاً في عنف - « لانى أحببتك » .

- « لو كنت أحببتني حقاً لكان ينبغي أن تقدر مدى شقائي عندما
اقف على الحقيقة . ولكنك لم تفكر في هذا يا جينو . اليس كذلك ؟ »
فقاطعني قائلاً - « لقد أحببتك فقدت صوابي ... و ... »

قلت - « يكفي هذا فقد مرت بي فترة من التعاسة الاليمة ...
فلم يكن يجول بخاطري أنك خليق بذلك ... ولكن كل شيء قد انتهى
الآن ... ولا تدعنا نذكره مرة أخرى ... أما الآن فاني ذاهبة
للاستحمام » ثم أبعدت الملاء وانسلت من الفراش متجهة الى غرفة
الحمام . وبقي جينو في مكانه .

كان الحوض قد امتلأ بالماء الساخن وقد مال لونه الى الزرقة
فراقني منظره وسط كل هذا القرميد الابيض والصنابير اللامعة .
ورقفت في الحوض حيث ظلت أغوص رويداً في الماء الساخن الذي
كان يتساقط منه البخار . وما ان اضطجعت فيه حتى اغمضت عيني .
ولم يبلغ سمعي صوت من الغرفة المجاورة . فلاريب أن جينو كان يفكر
فيما قلت محاولاً أن يرسم خطة ما يمكنه بها أن يتجنب فقداني .
فابتسمت عندما تصورته جالسا في الفراش الواسع العريض وأخباري
لم تزل كالصفعة علي وجهه . ولكن ابتسامتي لم تكن حاقدة بل كان

مبعثها خاطر هزلى مضحك لا شأن له بنا لاننى كما سبق ان قلت لم اشعر نحوه باى امتعاض بل كان احساسى وقد عرفته على حقيقته لا يعدو ان يكون نوعا من الشغف به . ثم سمعته وهو يتجول فى العزفة ولعله كان يرتدى ملابس . وبعد فترة وجيزة اخذ يحتلس النظر عند باب غرفة الحمام وهو يتأملنى كالكلب الذليل الذى ضرب بالسوط وكأنه لا يجرؤ على الدخول .

ثم قال فى ذلة بعد فترة صمت طويلة - « اذن فلن نلتقى بعد ذلك » .

ادركت انه كان يحبني حقا على طريقته الخاصة ولو ان حبه اياي لم يكن بالدرجة التى تنفره من اللجوء الى الكذب والخديعة . وتذكرت أستاريتا وخطر لى انه هو ايضا كان يحبني على طريقته الخاصة . ثم اجبته قائلة وأنا اغسل احدى ذراعى بالصابون - « ولم لا ؟ فلو اننى لا أرغب فى رؤيتك لما جئت اليوم - فاننا سنلتقى ولكن لماما . فبدا وكأن شجاعته قد عاودته عند سماعه هذه الكلمات . فدخل غرفة الحمام وهو يسألنى قائلا - « هل اغسل لك جسدك بالصابون ؟ » .

فلم أتمالك نفسى من التفكير فى أمى التى كانت لا تفتأ تحوطني بمزيد من الرعاية والعناية كلما تخلت عن سلطتها الابوية .

ولم البث ان قلت - « ان شئت فلتفسل بالصابون ظهري حيث لا يمكن ان تصل يدي » . فالتقط جينو قطعة الصابون والاسفنجة ثم اخذ يفسل لى ظهري وأنا واقفة . ورحت أتأمل صورتى فى مرآة طويلة كانت تواجه الحوض وخيل لى اننى السيدة التى تمتلك كل هذه الاشياء الجميلة . فلاريب أنها هى ايضا تقف هكذا وتضطر احدى خادماتها - ولعلها فتاة مسكينة مثلى - الى الانحناء لفسل جسدها بالماء والصابون محاذرة ان تخدش أديمها . وتصورت كم تكون الحياة جميلة لو قام شخص آخر على خدمتى ولم أفعل شيئا بيدي : فأظل ساكنة مسترخية بينما تهول الوصيفة من حولى فى اهتمام شديد ملئ بالاحترام . وتذكرت ذلك الخاطر الساذج الذى مر بذهنى عندما ذهبت الى الفيلا لاول مرة : اننى فى عري مجردة من ملابس الرثة اصير ندا لخدمة جينو . ولكن لست ما اختلف حظى عن حظها على صورة جائرة للغاية .

ثم قلت لجينو فى سخط - « يكفى هذا » .

فالتقط عباءة الحمام وخرجت من الحوض حيث كان يقدمها الى

خلف ظهري فالتحفت بها . وأراد أن يعانقني ولعله شاء أن يرى
ان كنت سأصده ولكنني تركته يقبل عنقني بينما وقفت هناك بلا حراك
متحفة بعبادة الحمام . ثم بدأ يحذف جسدي كله شي صحت مبتدئا
بقدمي الى أن بلغ صدري في حماس ومهارة وكأنه لم يمارس في حياته
عملا سواه . واغمضت عيني فخييل لي مرة أخرى أنني السيدة
وهي الوصيفة . وحسب سلبيني رضا اذ اكتشفت فجأة أنه بدلا من
تجفيفي أخذ يلغدغ جسدي . عندئذ دفعته بعيدا تاركة عبادة الحمام
تسقط على الأرض ودخلت الغرفة المجاورة على أطراف أصابعي وأنا
عارية القدمين . أما جينو فقد مكث في غرفة الحمام ليفرغ الماء من
الحوض .

ارتديت ملابسى بسرعة ثم تجولت في أرجاء الغرفة متأملة قطع
الاثاث ووقفت أمام خزان الزينة المغطى بقطع الذهب وصدف
السلحفاة . فلاحظت بين فرش الشعر وزجاجات العطر « بدارة »
ذهبية . فالتقطتها وتفحصتها عن كثب فاذا بها ثقيلة . وكان من
الواضح أنها مصنوعة من الذهب الخالص . كانت مربعة الشكل
مخططة بذهب ملتف وفي قفها فص كبير من الياقوت . ولم أحس
بالاغراء قدر احساسى بالاكشاف . اذ أصبح في امكاني الان أن افعل
كل شيء حتى السرقة . ففتحت حقيبتى ووضعت « البدارة » . ولما
كانت ثقيلة فقد انزلت الى القاع حيث توجد المفاتيح وقطع النقود
الصغيرة . وقد راودنى أيضا عند أخذها نوع من اللذة الجنسية التي
لا تختلف عما يخالجنى من احساس كلما تلقيت النقود من عشاقى .
وفي الواقع فاني لم أكن أدري ماذا افعل بمثل هذه « البدارة » الثمينة
التي لم تكن تلائم ملابسى أو الحياة التي أحيها . وكنت واثقة من
أننى لن أستخدمها . ولكننى بسرقتها بدا لى أننى أساير المنطق الذي
بات يوجه الان مجرى حياتى . وخيل لى أننى أستطيع أن أسير في
طريق الرذيلة حتى نهاية الشوط .

وعاد جينو يحدوه اهتمام عبودى بكل صغيرة فبدا يسوى الفراش
ويرتب كل ما كان يعتقد أنه في غير مكانه الصحيح . وعندما رأته
ينظر حوله في قلق بعد انتهائه من عمله لى يتأكد من أن كل شيء في
مكانه المهود قلت له في اختصار - « هيا بنا فان محدومتك لن تلاحظ
شيئا - وسوف لا تفصل من عملك في هذه المرة ! » وما ان قلت هذه
العبارة حتى رأيت وميضا من الألم يلوح على وجه جينو فأسفت لذلك
لان عبارتى كانت حاقدة فضلا عن تجردها من الاخلاص .

ولم ننبس بشيء ونحن في طريقنا الى الطابق السفلى ولا عند بلوغنا
المدينة لتركب السيارة . وكان الليل قد خيم منذ بعض الوقت .
وما أن بدأت السيارة تسق طريقها خلال الشوارع المتلوية في ذلك
الحى الراقى حتى بدأت أبكى في رفق وكانى لم أكن أنتظر سوى هذه
اللحظة . بل كنت لا أدري انا نفسى لماذا أبكى . ومع ذلك فقد امتلأ
قلبي بالمرارة . فليس من طبعى أن أمثل أدوار الخيبة والغضب . ومع
أننى قد بذلت قصارى جهدى للاحتفاظ بهدوئى طوال المساء فان
كثيرا من أفعالى وأقوالى كان يستبطنها الغضب والخيبة . والان
لاول مرة وأنا مازلت أبكى أحسست حقا بالامتعاظ من جينو الذى
أثار فى نفسى بخيائته عواطف بغيضة كانت لا تتفق مع أخلاقى .
وتذكرت كم كنت عذبة رقيقة دائما وكيف أننى من الآن فصاعدا
قد لا أكون كذلك فأحسست باليأس يملا جوانحى وودت أن أسأل
جينو بقلب كسير قائلة :

« لماذا فعلت كل هذا ؟ فكيف يمكننى بعد ذلك أن أنساه والا
أعود الى التفكير فيه ؟ »

ولكننى بدلا من ذلك لم أنبس بشيء وابتلعت دموعى ثم هزرت
راسى قليلا لاجعل الدموع تتحدر على خدى كما يهز المرء فرع الشجرة
ليسقط عنه أنضج ثماره . ولم أكد الحظ ان السيارة كانت وقتذاك
تسير بنا عبر المدينة مباشرة . وما ان وقفت حتى غادرتها وأنا
أمد يدي الى جينو قائلة - « سوف أتصل بك » . فنظر الى وقد
ارتسم على وجهه الامل ولكنه ما لبث أن تحول الى دهشة عندما رأى
وجهى تفسله الدموع . ولكن لم يتسع له الوقت لكى يقول شيئا فقد
وليت راكضة وأنا الوح له بيدي وعلى وجهى ابتسامة مفتعبة .

الفصل التاسع

وهكذا ظلت الحياة تدور أمامي في نفس الاتجاه دائما ومع نفس الأشخاص كالاراجيح الدوارة في مدينة الملاهي حيث كان وميض الاضواء يملأ قلبي بهجة كلما راقبتها وأنا طفلة من خلال نوافذ شقتنا .

والاراجيح الدوارة كذلك لا يوجد بها سوى عدد قليل جدا من النماذج التي لا تتغير أبدا . فالبجعة والقط والسيارة والحصان والعرش والتنين والبيضة لا تفتأ تدور جميعها المرة تلو المرة على صوت الموسيقى النائحة في صرير وصليل لتتبعها من جديد البجعة والقط والسيارة والحصان والعرش والتنين والبيضة وهكذا طوال الليل من أوله الى آخره . وقد بدأت وجوه عشاقى تدور أمامى بنفس الطريقة تماما . وسواء أكانوا رجالا سبق أن قابلتهم أوجددا لم أقابلهم فقد كانوا جميعا على غرار واحد . وعاد جياكنتى من ميلان يحمل زوجا من الجوارب الحريرية هدية لى . فظلت بعض الوقت أقبله كل مساء . ثم رحل مرة أخرى فعدت الى مصاحبة جينو الذى لم افتأ التقي به مرة أو مرتين فى الاسبوع . أما فى الاماسى الاخرى فكنت أرافق رجالا ألتقطهم من الطريق أو تقدمهم جيزيلا الى . وكان من بينهم الشبان والكهول والشيوخ كما كان فيهم الظرفاء الذين يعاملوننى برقة والثقلاء الذين يعدوننى سلعة لا تزيد على أن تشرى وتباع . ولكننى لما كنت قد وطنت النفس على عدم الارتباط مطلقا بأحدهم فقد كانت القصة لا تفتأ تتكرر فى النهاية . فكنا نلتقى فى الطريق أو فى احد المقاهى وأحيانا نتناول العشاء معاً ثم نهول عائدين الى شقتى حيث نحتبس فى غرفتى لنمارس الحب ونثرثر قليلا . وبعد ذلك ينقذنى الرجل أجرى وينصرف ثم أنضم الى أمى فى غرفة الجلوس حيث تكون فى انتظارى . فان كنت جوعى تناولت وجبة ثم أويت الى فراشى . وكثيرا ما كنت أتسلل الى الخارج مرة أخرى إذا كان الوقت مسكرا لاخود الى المدينة من جديد بحثا عن رجل آخر . ولكننى كنت أقضى أياما وأياما لا أرى فيها أحدا فأبقى فى المنزل بلا عمل . ولشد ما كان ينتابنى الكسل - كسل شهوانى حزين أشبع

به رغبتى فى الراحة والهدوء - تلك الرغبة التى كنت أشارك فيها أمى
وجميع الفقراء الكادحين من حولى . وأحيانا كان مرأى صندوق
المخبرات فارغا فحسب خليقيا بأن يبدىنى إلى الخارج لأجوب
الشوارع فى قلب المدينة بحثا عن رفيق - ولكن كسلى غالبا ما كان
ينتصر فأوتر أن اقترض النقود من جيزيلا أو أن أرسل أمى لابتياح
حاجاتها بالنسيئة .

ومع ذلك فلا يمكنى فى الحقيقة أن أزعج أننى كنت أبغض ذلك
الإسلوب فى الحياة . وما لبثت أن أدركت أن حبى لجينو لم يكن
شيئا فريدا فى نوعه وأننى لسبب أو آخر كنت أحب الرجال جميعا
فى قرارة قلبى . ولست أدري أن كان ذلك هو ما يحدث لجميع
النسوة اللاتى يحترفن مهنتى أو أن ذلك معناه أننى ذات أهلية خاصة
لها ، ولكننى أعلم فقط أننى كنت لا أفأ أحس فى كل مرة بهزة
من الفضول والترقب اللذين قلما يخدعان . فكنت أحب أجسام
الشبان الطويلة الأنيقة المراهقة وحركاتهم المرتبكة وحياءهم ونظراتهم
العاطفية وشعورهم وشفاهم التى تميل إلى البرودة فكنت أميل إلى
الأذرع المفتولة والصدر العريضة والمناكب التى لا يعرف وزنها أو
قوتها وبطن الرجال وسيقانهم وهم فى مستقبل العمر مكتملو الرجولة .
بل لقد أحببت المسنين من الرجال إذ أنهم يختلفون عن النساء من
ناحية نشاطهم الذى لا يحد بالعمر فيظلون محتفظين بفتنتهم حتى فى
سن الشيخوخة أو يكتسبون فتنة جديدة من نوع خاص . وقد
ساعدنى تغيير عشاقى فى كل مرة على اكتشاف المزايا والعيوب من أول
نظرة عن طريق قوة ملاحظتى الحادة الدقيقة التى لا يمكن اكتسابها
إلا بالخبرة . وفضلا عن ذلك فقد كان الجسم البشرى مصدرا
لا ينضب معينه من اللذة الفاضلة التى لا تعرف الشبع . وكثيرا ما
وجدتنى أحلق فى أطراف رفاقى فى الليلة الواحدة أو أتحمسها
بأناملى وكأنى أتوق إلى تجاوز العلاقة السطحية بيننا لاكتشف كنه
جمال أجسادهم وأفسر لنفسى سر ما أحس به نحوهم من انجذاب
عميق . ولكننى كنت أحاول قدر امكاني إخفاء ذلك الشعور خشية أن
يحسبه هؤلاء الرجال - بفرورهم الدائم - حبا وتعلقا فيخالوننى
مفرمة بهم فى حين أن الحب فى الواقع - على قدر أدراكهم على الأقل -
لم تكن له صلة بمشاعرى التى كانت أقرب إلى هزة الخشوع التى
تخالجنى كلما أدت فى الكنيسة فرائض دينية معينة .
ومع ذلك فإن النقود التى كنت أكسبها عن هذا الطريق لم تكن

طائلة كما قد يتبادر الى الذهن . فلم أستطع اولا ان اكون مثل جيزيلا
فى جشعها وحبها للمال . فبالرغم من اننى كنت أبغى الاجر بالطبع ولا
أوافق الرجال بغية اللهو والتسلية فقد كنت مسافرة بحكم طبيعتى
الخاصة لان اههم نفسى بدافع من فيض حيويتى البدنية لا جريا وراء
المصلحة المادية . وكنت لا افكر فى النقود الا حين يدفع الاجر اى بعد
فوات الفرصة . وكان لا يفتأ يراودنى اعتقاد غامض بأنى ازود الرجال
بسلة لا تكلفنى شيئا ولا مقابل لها فى العادة . فكنت احس بأن ما
أتلقاه من نقود ليس حقا بقدر ما كان هدية . اذ ان الحب فى نظرى
لا ينبغى ان يكون له مقابل والا استحال تقويمه بالمال مهما كان الثمن .
وكان يتنازعنى التواضع والغرور فلم يمكنى ان احدد ثمنا دون ان
يبدو لى تعسفا تماما فى تقديره . ولذلك فانى كنت أشكرهم فى
امتنان عميق للغاية اذا ما أجزلوا لى العطاء وأن قتروا سكت ولم
احتج اذ لم يكن فى مقدورى مطلقا ان أقنع نفسى بأنى خلعت . وثم
يصح عزمى على ان اأخذو حذو جيزيلا التى الفت ان تتفق مقدما على
الاجر الا بعد تجارب كثيرة مريرة . غير اننى كنت فى بادىء الامر لا
افتأ احس بالخجل ولا أقوى مطلقا على ذكر اى مبلغ الا فى صوت
خفيض فكانوا فى معظم الاحيان لا يفهمون ماذا أقول مما يضطرنى
الى ترديد ما قلت .

وثمة سبب آخر كان يقلل من مكاسبى هو اننى لما كنت اقل حرصا
فيما أنفق عنى فيما مضى . ولما كان على - حفاظا على المظهر ولفتا
للأنظار - ان اشترى بضعة ثياب وبعض العطر وأدوات الزينة وأشياء
أخرى كنت احتاج اليها فى مهنتى فان النقود التى كنت أتلقاها من
عشاقى كانت لا تلبث ان تنفذ شأن النقود التى كنت أكسبها من
مهنتى كنموذج ومن مساعدة أمى فى أعمال الحياكة . فبدأ لى اننى
وغم تضحيتى بشرفى لم اكن ايسر حالا مما مضى . وكانت تمر بى
أيام لا أجد فيها مليما واحدا فى المنزل تماما كما كان يحدث لى من قبل
بل اكثر من ذى قبل . ولشد ما كان يعذبنى قلقى لعدم استقرار
مستقبلى تماما كما كان يحدث لى من قبل بل على صورة أسوأ من ذى
قبل . ولكننى بطبعى أميل الى الهدوء وعدم الاكتراث فلم يسيطر
القلق على ذهنى قط كما يحدث للبعض من الناس من لا يتمتعون
بمثل ما أتمتع به من اتزان وعدم مبالة . ولكن الفكرة كانت دائما فى
عقلى الباطن كالذودة التى لا تفتأ تنخر فى قطعة الاثاث القديم . وكانت
لا تبرح تنذرنى باننى لا املك شيئا وأنه لا سبيل الى الراحة بنسيان

حالتى كما اننى لا أستطيع تحسينها على صورة حاسمة عن طريق مهنتى التى اخترتها لفسنى .

أما أمى فلم يعد يساورها القلق مطلقا أو على الأقل كانت لا تكشف عنه حتى لو ساورها بالفعل - لقد قلت لها فى الحال انها لم تعد فى حاجة الى اضعاف بصرها بعكوفها على الحياكة طوال النهار . فما لبثت أن تخلت فى التو عن معظم أعمالها وكانها كانت طوال حياتها فى انتظار تلك اللحظة ولم تحتفظ الا ببضعة أعمال كانت تؤديها كلما احست بالرغبة فى ذلك لا كوسيلة لكسب القوت بل للتسلية وقطع الوقت . فبدأ الامر وكأن الجهد الذى بذلته سنين عديدة منذ أن كانت فتاة صغيرة تعمل كخادمة فى منزل أحد الكتبة قد خاب فجأة دون أن يترك اثرا أو احتمالا لاسترداد قوته مرة أخرى كالمنازل القديمة التى تنهار على عروشها ولا يبقى منها جدار خارجي واحد بل تصير كومة من الانقاض فحسب . وكانت النقود فى نظر امرأة كأمى تعنى أولا وقبل كل شئ الطعام والراحة ملء جوانحها . فقد توفر لها مزيد من الطعام كما أتاحت لنفسها كل ألوان الراحة التافهة التى كانت فى نظرها تميز الاغنياء عن الفقراء كنوم الضحى والنهوض فى ساعة متأخرة والقيلولة بعد الغداء والخروج للنزهة من وقت لآخر . ولا يفوتنى أن أقول ان تلك التجديدات كانت تمثل فى تأثيرها أبغض ظاهرة من مظاهر حياتى الجديدة . ولعل أولئك الذين تعودوا الكد طوال حياتهم لا ينبغى أن يتخلوا عنه مطلقا . ذلك لان البطالة والراحة توديان بهم حتى ولو كان مصدر رزقهم مشروعا يقره الناس كما لم تكن الحال معنا . فما كادت أحوالنا تتحسن حتى بدأت أمى تميل الى البدانة أو بعبارة أدق ان نحافتها القلقة اللاهثة سرعان ما تلاشت وأخذت تترهل بطريقة غير صحية على صورة لها دلالتها رغم أننى لم أستطع ادراك معناها . فاكتنزت أردافها الضامرة وامتلات كتفاها الهزيلتان . أما وجنتاها اللتان لشد ما كان يبدو عليهما النحول دائما حتى ليخيل لمن يراها أنها لاهثة فقد انتفختا فى احمرار . وكانت عيناها هما أكثر ما يحزننى فى سميتها . فقد كانتا فى الماضى كسرتين واستيتين لا يفارتهما تفسير ذكى يظن على الدوام . أما الآن فقد خانتا عن ذى قبل ولمعتا ببريق غامض مبهم . ولكنها على الرغم من بدانتها لم تكتسب جمالا أو شبابا . وكانت الاثار الواضحة لذلك التغيير الذى طرا على أسلوب حياتنا تبدو على قوامها ومحياها أكثر مما تبدو على حتى أننى كنت لا أستطيع النظر اليها دون أن يخالجنى شعور أليم بتأنيب

الضمير وبالرثاء وبالنفور . وكان مما يزيد في حيرتى وارتباكى
استسلامها لمظاهر الرضا الجشع المبتهج . والواقع أنها لم تكـد
تستطيع أن تصدق أنها لم تعد في حاجة الى الكد وان تلك المظاهر
كانت تنبئ عن شخص لم يتل فظ في حياته كفايته من الطعام او
النوم .

ولكننى بالطبع أخفيت عنها مشاعرى تماما . فلم اشأ ان ازعجها .
وعلى أية حال فقد أدركت اننى يجب ان ألوم نفسى قبل ان أوجه
اليها اللوم . ولكن ثمة حركة تنبئ بالضيق كانت من وقت لآخر
تصدر منى عفوا . وقد بدا لى ان حبى لها الان وقد صارت بدينة
منتفخة لا تبرح تتمايل فى مشيتها قد قل عن ذى قبل حينما كانت
نحيلة مخبولة لا تفتأ تصرخ فى وجهى وهى تندفع رائحة غادية دون
ان ينقطع طوال النهار انينها وتأوهاتا . وطالما تساءلت قائلة -
« ترى هل كانت أمى تترهل على هذه الصورة نفسها لو ان ثمة زواجا
سعيدا قد أتاح لى حياة ناعمة ميسورة ؟ » يخيل لى الان عندما أفكر
فى الامر انها كانت تصير كذلك . أما ذلك النفور الذى كانت تثيره
بدانتها فى نفسى فانى أرجعه الى النظرة التى لم يكن يسعنى الا أن
انظر بها اليها . فلشد ما امتلات بتأنيب الضمير والمشاركة فى الاثم .
ولم أخف عن جينو طريقتى الجديدة فى الحياة زمنا طويلا . بل
لقد اضطررت فى الواقع الى مصارحته بها فى الحال تقريبا فى اول مرة
رأيته فيها بعد ممارستنا الحب فى الفيلا وكان قد مضى على ذلك
ما يقرب من عشرة أيام . فقد جاءت أمى لتوقظنى ذات صباح قائلة
فى صوت متأمر مكتوم - « أتعرفين من ذا الذى جاء يطلب مقابلتك ؟
جينو ! » .

فأجبت قائلة فى بساطة - « دعيه يدخل » .
وعندما خاب رجلوها الى حد ما لأجابتى المقتضبة فتحت النافذة
وغادرت الغرفة . ولم تمض لحظة حتى دخل جينو فرأيت فى الحال
انه كان غاضبا منزعجا . لم يحينى بكلمة بل أخذ يسير حول الفراش
الى أن توقف أمامى حيث كنت مضطجعة أراقبه والنعاس ملء عيني .

سألنى قائلا - « ألم تأخذى شيئا عن طريق الخطأ من فوق خوان
الزينة الخاص بسيدتى عند لقايتك يومذاك ! »
فحدثت نفسى قائلة - « والان ها هى اللحظة قد حانت ! »
ولاحظت اننى لم أشعر مطلقا بالاثم ولكن خضوع جينو الدليل أحدث
فى نفسى ذلك التأثير المؤلم المعهود .

وسأله قائلة - « لماذا ؟ »
- لقد أحتفت بدارة عظيمة القيمة من الذهب الخالص وبها فص
من الياقوت . وقد قلبت مخدومتي الدار رأسا على عقب ولما كانت
الفيللا قد وضعت في حراستي فاني أعلم أنهم يرتابون في أمرى مع
أنهم لم ينبسوا بشيء . ولكن من حسن الحظ أنها لم تلحظ اختفاءها
الا أمس أى بعد مضي أسبوع على عودتها . فمن المحتمل ان تكون
احدى الخادومات هى التى سرقتها والا لفصلت في التو أو وجهت الى
التهمة ثم قبض على . اما هذا او ذاك «
وخشيت أن أكون قد تسببت في الحاق الاذى بشخص برىء .
فسأله قائلة :

- « ولكنهم لم يؤذوا أحدا من الخدم ؟ »
فأجاب قائلا في عصبية - « كلا . ولكن احد رجال الشرطة حضر
الى الفيللا وأستجوبنا جميعا . وقد ساد الاضطراب المنزل مدة
يومين » .

فترددت لحظة ثم قلت - « انى أخذتها . »
فحملق في وقد التوى وجهه في تعبير بغيض قائلا - « أخذتها
اهكذا تقولين لى ذلك ؟ »
- « وكيف ينبغى أن أقوله لك ؟ »
- « ولكن هذا مايسمونه سرقة . »
- « نعم » .

فنظر الى ثم انتابه الغضب فجأة . ولعله خشى النتائج او لعله
تكهن بطريقة غامضة اننى أعده مسئولا عن السرقة قبل كل شيء .
فقال - « الى بها ! ماذا دهاك ؟ لهذا السبب اردت ان تدخلنى
مخدع سيدتى ؟! انى ارى الآن كل شيء . ولكننى يافتاتى العزيزة
لن أتورط في شيء من هذا القبيل . فان شئت السرقة فلترتكبيها
حيثما ترغبين . فذلك لايهمنى في شيء فيما خلا المنزل الذى اعمل
فيه . يالك من لصة ! لو اننى تزوجتك لوقعت في فخ محكم - ولكنى
قد تزوجت لصة »

راقبته فى دقة وهو ينفس عن عصبه . فأدهشنى الآن كيف أمكنتى
ان اظن به الكمال طوال تلك الفترة . اذ انه كان أبعد ما يكون عن
الكمال . وأخيرا عندما خيل لى انه قد فرغ من كل مايمكنه أن يقوله
فى لومى وتقريعى بدأت اتحدث قائلة - « لماذا تنفعل هكذا
باجينو ؟ فهم لايتهمونك بسرقتها ! بل سوف يتحدثون عنها يوما

او يومين تم يهدا الامر كله بعد ذلك . والله يعلم كم تملك سيدتك من
البدارات .

فسالني قائلا - « ولكن ماذا بالله دعائك الى سرقتها ؟ » كان من
الواضح انه يريد ان يرعنى على الاعتراف بما نكهن به في غموض
كما سبق ان قلت .

فاجبت قائلة في بساطة - « هكذا تغير ما سبب . »

- « هكذا ! هذه ليست اجابة . »

فاجبت قائلة في هدوء - « ان شئت حقا ان تعرف السبب اذن
فقد سرقته لا لاننى اريدها او احتاج اليها بل لاننى استطيع الان
ان اسرق اذا ما عن لى ذلك . »

فابتدرنى قائلا - « ما الذى ترمين اليه ؟ »

ولكننى لم ادعه يسترسل في حديثه بل فاطعته قائلة - « انى
اجوب الشوارع ليلا لاقتنص الرجال . ثم اصحبهم الى هنا لينقلونى
اجرى . فان كنت افعل ذلك فى امكانى ان اسرق ايضا ان شئت .
ليس كذلك ؟ »

فهم ما اعنيه وكان رد الفعل مماثلا تماما لطريقة تفديره اذ قال -
« فى امكانك ان تسرقى ايضا - هذا صحيح . ولكننى لو كنت قد
تزوجتك اذن لقبض على ! »

فقلت - « ما كنت عندئذ لافعل ذلك . وما اقدمت على هذا الا
عندما اكتشفت ان لك زوجة وطفلة . »

وكان طوال الوقت فى انتظار تلك العبارة اذ انه اجاب قائلا على
الفور - « كلا يا عزيزتى - فهذا لن يجديك ! ولا تحاولى ان تمنحى
باللائمة على . فلا يضطر احد الى احتراف البغاء والسرقة اذا لم
تتوفر لديه الرغبة . »

فاجبته قائلة - « من الواضح اننى عندئذ كنت لصة وبغيا دون ان
ادرى - فاتحت لى الفرصة لاصير كذلك . »

وادرك من هدوتى انه لم يكن ثمة ما يقال فغير من تكتيكه قائلا -
« حسنا - ليس من شأنى ان اعرف من انت وماذا تفعلين . ولكننى
يجب ان استرد هذه « البدارة » والا فقدت عملى ان عاجلا او آجلا .
فعليك ان تردىها لى وسوف اعزم انى عثرت عليها فى الحديقة اوفى
اى مكان آخر . »

فاجبت قائلة فى الحال - « ولم لم تقل لى ذلك من قبل ؟ فلتأخذها
ان كنت بذلك لاتفقد عملك . فهى فى الدرج الاول من خزانة الملابس »

فهرع الى خزانة الملابس فى الحال وهو يشعر بالراحة حيث فتح
الدرج واخرج « البداره » ثم وصحها فى جيبه . وبعد ذلك نظر الى
وفى عينيه تعبير مختلف فيه لمح من الجمل ورعبه فى الصلح .
ولكننى فى الحقيقة لم أستطع أن أواجه ذلك الموقف المربك الذى
اوحى به نظره .

فسألته قائلة - « أمك السيارة فى الخارج ؟ »

- « نعم » .

- « حسنا . لقد تأخر الوقت ويحسن بك ان تنصرف . ولسوف
نتحدث فى الامر كله عندما نلتقى فى المرة القادمة . »

- « اغاضبه منى ؟ »

- « كلا . لست غاضبة منك . »

- « بل . غاضبة . »

- « كلا . »

ثم تنهد منحنيا فوق الفراش فتركته يقبلنى .

وما ان بلغ الباب حتى سألتنى قائلا - « هل ستتصلين بى
تليفونيا ؟ »

- « لا تقلق . »

وهكذا علم جينو بطريقتى الجديدة فى الحياة . ولكننا فى يوم
لقائنا لم نذكر « البداره » او مهنتى بشىء . فقد كانا أشبه بموضوعين
عاديين لا يثيران الاهتمام ولا أهمية لهما الا لجدتهما . وكان أسلوبه
فى الواقع يحاكي أسلوب امى تعريبا غير أنه لم يبد عليه لحظة واحدة
انه أحس بالصدمة التى أحست بها امى عندما اصططحت جياكنتى
الى المنزل لأول مرة - تلك الصدمة التى كان لايسعنى الا أن أراها
من وقت لآخر مستترة خلف رضاها أو متمثلة فى مظهرها المنتفخ
العليل . وكان مما يميز شخصية جينو بصفة رئيسية نوع من المكر
المسول قصير النظر . وانه ليخيل لى أنه عندما علم بالتغيرات التى
طرات على حياتى بسبب خيائه لم يزد على أن هز كتفيه قائلا
لنفسه - « حسنا . ان ثمة طائرین ينقران كرزة واحدة - ففى ظل
هذه الاوضاع لا يمكنها أن تصومى بشىء كما يمكننى بل الرغم من
ذلك أن أظل عشيقا لها . » فثمة رجال يحسبون أنفسهم سعداء
الحظ اذا ما أمكنهم الاحتفاظ بما يملكون سواء اكان ذلك مالا أو
نساء أو الحياة نفسها حتى ولو كان ذلك على حساب كرامتهم .
وكان جينو من بين هؤلاء .

وطلت اقباله لاننى كما سبق ان قلت لا ازال احبه على الرغم من كل شيء ولم يكن ثمة من احبه اكثر منه ولاننى رغم ايماني بان كل شيء قد انتهى بيننا لم اكن راغبة في قطيعة فجائية بغيضة . وكنت لا اميل مطلقا الى القطيعة التامة او الانقطاعات الفجائية . ففى رايى ان كل شيء فى الحياة يموت كما يولد من تلقاء ذاته عن طريق السام او عدم الاكتراث او حتى العادة التى هى فى حد ذاتها نوع من الملل المخلص المنتظم - كما احب ان اشعر بهذه الاشياء وهى تموت على هذه الصورة بطريقة طبيعية دون ان تكون لى او لاحد يد فى ذلك ثم تخلى مكانها فى بطء لتحل محلها اشياء اخرى . فاننا قبل كل شيء لانرى فى الحياة مطلقا تغيرات ايجابية واضحة . كما ان اولئك الذين يحدثون تغيرات عاجلة يستهدفون لخطر العودة من جديد الى عاداتهم القديمة التى مازالت حية عميقة الجذور كهدها دائما . فكنت ابغى ان اصل الى الدرجة التى لا اكرث عندها لمداعبات جينو كما لا اكرث لكلامه وكنت اخشى اننى اذا لم اترك الامور تأخذ مجراها الطبيعى فانه سوف يظل يظهر دائما فى حياتى على غير توقع ويرغمنى على تجديد علاقتنا القديمة .

وفى تلك الفترة عاد آستاريتا الى الظهور فى طريق حياتى . وكان الامر بشأنه أبسط بكثير مما كان بشأن جينو . فقد كانت جيزيلا تلتقى به سرا واعتقد انه كان يضاجعها لا لشيء الا ليتمكن من ان يحدثها عنى . وعلى أية حال فان جيزيلا كانت تتحين الفرصة لتذكره لى . وعندما رأت ان فترة طويلة من الزمن قد مرت وانهى قسدا استعلدت هدهوتى واعتدال مزاجى اتحت بى جانبا ثم اخبرتني فى النهاية بعد ان حامت حول الموضوع قليلا انها قابلت آستاريتا وانه سأل عن اخبارى . ثم استرسلت قائلة - « ولم يقل شيئا بالذات ولكن كان من الواضح انه مازال مفرما بك . ولقد أسفت له فى الواقع - اذ انه يبدو تعيسا . وهو لم يقل لى شيئا بالطبع - ولكننى واثقة من انه يود لو يراك مرة اخرى - وقبل كل شيء - » .

فقاطعتها قائلة - « انصتى لى . لا جدوى من مواصلة الحديث بهذه الطريقة ؟ »
- « كيف ؟ »

- بتحويك حول الموضوع على هذه الصورة ! لم لاتقولين لى على الفور انه أرسلك الى وانه يريد مقابلتى مرة اخرى وانك تعهدت بان تحملى اليه الرد ؟ »

فقلت وهي مأخوذة الى حد ما - « وانفرض اننى لعلت - ماذا اذن ؟ »

فقلت فى هدوء - « اذن فيمكنك أن تبلغيه أنه لامانع لدى مطلقا من مقابلته مرة أخرى - كما أقابل غيره من الرجال بالطبع من وقت لآخر دون ارتباط . »

ولشد ما انتابتها الدهشة لهدوئى . فقد كان يخيل لها أننى أكره أستاريتا وأننى لن أوافق على مقابلته مرة أخرى . إذ أنها لم تكن تدرك أن الحب والبغض لم يعد لهما الآن وجود فى نظرى . وظننت كعادتها أن هناك دافعا خفيا .

فقلت بعد لحظة من التفكير يخالط لهجتها شيء من الدهاء - « انك على حق . ولو كنت فى مكانك لحدوت حدوك . ففى بعض الحالات عليك أن تتجاهلى مشاعر البغض والكراهية - ان أستاريتا يحبك حقا بل ربما فسخ زواجه ليتزوجك . ومع ذلك - فأنت امرأة أريية ! وكنت اظنك غاية فى السداجة ! »

كانت جيزيلا تجهلنى تماما . وقد تعلمت من خبرتى معها أننى لو حاولت أن أفسر لها الامور لكان ذلك مضيعة للجهد . ولذا فقد وافقت متظاهرة بعدم الاكتراث قائلة - « هذا هو الموقف بالضبط » ثم تركتها وفى نفسها خليط من الاعجاب والحسد .

فحملت ردى الى أستاريتا وقابلته فى محل الحلوى حيث التقيت بجياكنتى لأول مرة . وكان لايزال يهيم بى حبا كما قالت جيزيلا . وفى الواقع فانه ماكاد يرانى حتى ابيض لونه وفقد السيطرة على نفسه ولم ينبس بكلمة . فلا بد ان عاطفته كانت أقوى منه . وانى اعتقد أن بعض النساء الساذجات لايجانبن الصواب حين يقطن كما تقول أمى ان بعض الرجال تسحرهم عشيقاتهم . فقد فرضت عليه نوعا من السحر دون أية رغبة أو قصد من جانبى . وعلى الرغم من ادراكه ذلك وبذله كل مافى وسعه للتخلص منه كان عاجزا تماما عن تحقيقه . فقد جعلته يحس تجاهى بالنقص على صورة حاسمة

والاعتماد على والخضوع لى . كما مجردته نهائيا من كل سلاح وفرضت عليه نوعا مغناطيسيا ووضعته تحت رحمتى . وقد شرح لى فيما بعد أنه كان أحيانا يتلو على نفسه الدور البارد المحقر الذى ينوى أن يؤديه أمامى بل كان يحفظ عباراته عن ظهر قلب . ولكنه ما ان يرانى حتى يشحب وجهه ويمتلئ صدره بالالام ويصير عقله صفحة بيضاء ويأبى لسانه أن ينطق . كما كان يبدو عاجزا عن

مواجهتى ثم يفقد صوابه ويشعر أنه مدفوع بقوة لاتقاوم الى ان

يرتد جاثيا امامي ومقبلا قدمي .
وفى الواح فانه كان يختلف عن الآخرين جميعا . اعنى اننى كنت

أسيطر على ذهنه تماما . وفى ذلك المساء الذى التقينا فيه ماكدنا
نبلغ المنزل بعد تناولنا وجبة فى أحد المطاعم حيث احتوانا صمت
عصبى متوتر حتى توصل الى ان اروى له ماوقع لى بالتفصيل منذ
يوم ذهابنا الى فيتريو حتى يوم قطيعتى مع جينو . فسألته قائلة
فى دهشة - « ولماذا تهتم بالامر الى هذا الحد ؟ »

فأجابنى قائلا - « ليس لذلك سبب حقيقى . ولكن الا يستوى
الامر فى نظرك ؟ استرسلى فى الحديث ولا تكثرلى لى . »

فقلت وأنا أهز كتفى - « أما عن نفسى فمادام ذلك يسرك - »
ورويت له بالدقة كل ماحدث لى بعد الرحلة . كيف تحدثت الى
جينو وكيف اتبعت نصيحة جيزيلا وقابلت جياكنتى ولم أغفل شيئا
سوى قصة «البدارة» ولعل مرجع ذلك أن عمله فى الشرطة فلم أشأ أن
أخرجه - ثم وجه الى عددا من الاسئلة وخاصة حول لقائى بجياكنتى .
وقد بدا لى أنه لم يمل قط سماع التفاصيل حتى خيل لى أنه لا يود
أن يسمع عن تلك الاشياء فحسب بل أن يراها ويلمسها ويشارك
فيها . ولا يمكننى أن أصف لكم كم مرة قاطعنى قائلا - « وماذا
فعل ؟ » او « ماذا فعلت ؟ » وعندما انتهيت من سرد قصتى عانقنى
وهو يتلثم قائلا - « انه خطئى أولا واخيرا » .
فقلت وقد سئمت المناقشة الى حد ما - « كلا . فان احدا لم

يتسبب فى ذلك . »

- « نعم . انه خطئى . فقد كنت انا الذى حطم حياتك . فلو
اننى لم أفعل ما فعلته فى فيتريو لاختلف الامر تماما » .

فأسرعت قائلة - « انك مخطيء تماما . فلو ان احدا يستحق
اللوم فهو جينو - أما انت فلا شأن لك بما حدث . فانك ياعزيزى
قد أردت اغتصابى . وكل ما يؤخذ عنوة لا وزن له - فلو أن جينو
لم يخدعنى لتزوجته ولقصصت عليه كل ماحدث ولصار الامر بعد

ذلك وكانى لم أرك قط فى حياتى » .
ولكنه بدا متشبها باعتقاده أنه المسئول عما أصابنى لا لانه كان

أسفا بل لانه على العكس من ذلك كان يلذ له اقتناعه بأنه أفسدنى
وتسبب فى انحرافى . بل ان القول بأن ذلك كان يلذ له تعبير ضعيف
ل للغاية . فحرى بى أن أقول أن الفكرة كانت تثيره ولعل ذلك هو

السبب الرئيسي في هيامه بي . وقد أدركت ذلك فيما بعد عندما لاحظت أنه كثيرا ما كان يصر كلما التقينا على أن الأمر عليه كل ما جرى بيني وبين عشاق الطريق في فترة فراقنا . وكان وهو ينصت الى قصتي لايفتأ يكسو وجهه تعبير مضطرب متوتر يصيبني بالارتباك ويملؤني بالخجل . وبعد ذلك مباشرة يرتدى فوقى ثم لايفتأ يردد في شبق أثناء المضاجعة الفاظا نابية قاسية مسيئة لن أذكرها هنا ولكنها مهينة حتى لاشد النساء فحشا وعهارة . ولم أستطع قط أن أفهم كيف يمكنه أن يوفق بين هذا الموقف الغريب الشاذ وبين هيامه بي . فمن المحال في رأيي أن يقع المرء في حب امرأة ولا يشعر نحوها بالاحترام . ولكن الحب عند آستاريتا كان ممزوجا بالقسوة وكان كل منهما لايفتأ يضيف على الآخر لونه وقوته . وأحيانا كان يخيل لي أن انفعاله الغريب لاقتناعه بأنه السبب في انحرافى كان من وحي مهنته كعضو في المباحث العامة . فان عمله على قدر ادراكى كان ينحصر في اكتشاف نقطة الضعف عند المتهم وفي اذلاله والحط من كرامته على صورة تجعله بعد ذلك لا يؤذى أحدا قط . وقد اعترف لى هو نفسه ولو اننى لا أستطيع أن أذكر المناسبة انه كلما نجح في اقناع متهم بالاعتراف أو دفعه الى الانهيار كان لايفتأ يحس بنوع من الاشباع الغريب كذلك الذى يشعر به عند المضاجعة . وكان يقول - « المتهم كالمرأة يمكنها أن ترفع رأسها عاليا مادامت تقاوم . ولكنها ما ان تستسلم حتى تصير خرقة بالية يمكنك أن تنالها من جديد كيفما تشاء ووقتما تشاء » . ولكن لعل قسوته ورضاه طبيعيان فيه . ولعله اختار مهنته لهذا السبب فحسب وليس العكس .

وكان آستاريتا شقيا في حياته . بل اننى في الواقع لم أعرف في حياتى من هو أشقى منه وأعصى علاجا لان شقائه لم يكن يرجع الى أى سبب خارجى بل كان ينبع من ضعف ما أو التواء في نفسيته استغلق على ادراكى فلم أنجح قط في الوصول الى جذوره . وكان كلما أعفانى من أن أقص عليه مفامرات مهنتى لايفتأ يجثو امامى موددا رأسه حجري حيث يمكث على هذه الصورة بلا حراك ساعة كاملة . وما كان على إلا أن أربت على رأسه برلقى من وقت لآخر كما تربت الامهات على زعوس أطفالهن . وكان بين الحين والحين يطلق أنينا . ولعله أنين البكاء . ومع اننى لم أشعر مطلقا بالحب نحو آستاريتا فانه في تلك اللحظات كان لايفتأ يثير في نفسى شعورا عميقا بالشفقة لاننى كنت أرى انه يعانى ولا أجد سبيلا الى تخفيف معاناته

وكان يتحدث في مرارة شديدة عن أسرته : عن زوجته التي كان يكرهها وعن طفليته اللتين لم يكن يحبهما وعن أبويه اللذين ساماه خسفاً في طفولته وأرضاه على زيجة كانت سبباً في نكته وهو لا يزال شاباً غراً . وكان لا يكاد يذكر مهنته . ولكنه قال لي في مناسبة واحدة فقط وقد ارتسم على وجهه تعبير ينطق بالبغض الغريب - « ان المنزل يحتوى على أشياء كثيرة نافعة حتى ولو لم تكن جميعها نظيفة . وأنا أحد هذه الأشياء - المزبلة حيث تجمع القمامة . » ومع ذلك فقد انطبع في ذهني أنه كان يعد مهنته بصفة عامة عملاً شريفاً . وبقدر ما أتاحت لي زيارتي له في الوزارة وأسلوبه في الحديث الذي تميز بالحماس والكتمان وحدة البصيرة والنزاهة والصلابة يمكنني أن أحكم عليه بأنه كان موظفاً مثالياً شديد الإحساس بالواجب . . ومع أنه كان يشكل جزءاً من قوة المباحث العامة فإنه كان يصرح بأنه لا يعرف شيئاً عن السياسة . وقد قال لي في مناسبة أخرى - « ما أنا إلا ترس في العجلة أنفذ ما يأمرونني به » .

وكان آستاريتا يود لو يلقاني كل مساء ولكنني فضلاً عن رغبتني في عدم الارتباط برجل واحد كما سبق أن قلت فاني لم أفتأ أشعر معه بالملل كما كنت أضيع بلهجته الجادة المثشجة المهتزة وأساليبه الغريبة حتى أنني رغم رثائي له لم أفتأ أتفلس الصعداء كلما فارقتة . ولهذا السبب حاولت إلا أقابله سوى مرة واحدة في الأسبوع . ولا شك أن لقاءنا اليسير يساعد على تأجيج رغبته ويقظتها المستمرة في حين أنني من الناحية الأخرى لو كنت قد وافقت على الحياة معه كما كان لايفتأ يقترح على لتعود وجودي رويداً رويداً ولرأني في النهاية على حقيقتي - فتاة مسكينة كعشرات الأخريات . وقد أعطاني رقم تليفون مكتبه في الوزارة وكان رقماً سرياً لا يعرفه سوى مدير الشرطة ورئيس الحكومة ونفر قليل من الشخصيات الهامة . وكان كلما اتصلت به تليفونياً يرد علي في الحال ولكنه لا يكاد يتعرف علي حتى يضطرب صوته الذي كان صافياً هادئاً منذ لحظة واحدة ثم يأخذ في اللعثة . وفي الواقع فاني قد غزت قلبه تماماً وجنته طوع بناني كالجدب الدليل . وأذكر أنني ذات مرة مررت بيدي على وجنته وأنا شاردة ذاهلة دون أن يطلب الي ذلك . فقبض عليهما في انحال وتبلها في حب وشبق . ثم طلب الي أن أعيد الكرة في مناسبات أخرى فألمسه لمسة تلقائية ولكن مثل هذه المداعبات لا يمكن أن تمنح تلبية لرغبة المشتري .

وغالبا ما كنت أفتقد الرغبة فى الخروج الى الشوارع لاقتناص الرجال فأمكث فى المنزل . ولكننى كنت لا أحب البقاء مع أمى لان حديثنا على الرغم من اتفاقنا الصمنى على الامتناع عن ذكر مهنتى كان لايفتأ يدور حولها فى تلميحات مرتبكة حتى انبنى كادت أفضل الحديث عنها صراحة ودون موارد . ولذلك كنت احتبس فى غرفتى حيث أتمدد على الفراش محذرة أمى من ازعاجى . ومع أن غرفتى كانت تطل على الفناء فان النافذة المغلقة كانت تحول دون وصول الضوضاء الى مسامعى . وكانت تأخذنى سنة من النوم فترة وجيزة ثم أنهض من الفراش لاتجول فى الغرفة وقد شغلت بعمل تافه كترتيب مناعى أو ازالة معلق بالاثاث من غبار . وكانت تلك الاعمال لاتعدو أن تكون حافزا لعقلي على العمل ومحاولة لايجاد جو من الخلوة العنيفة المنعزلة . وكنت أستغرق رويدا رويدا فى خواطرى الى أن يتوقف عقلى تقريبا عن التفكير فى النهاية وأقنع بالاحساس بالحياة بعد كل ذلك الوقت الضائع والاساليب المرهقة .

وكان لايفتأ يفشانى فى لحظة معينة شعور عميق بالحيرة خلال الساعات التى كنت أقضيها فى تلك العزلة المنفردة . فيبدو لى فجأة أننى أرى حياتى بأسرها فى وضوح بارد قاس وكذلك نفسى كلها من جميع الجوانب . وكانت الاعمال التى أمارسها لاتفتأ تتكرر أمامى وتفقد جوهر معناها وتتحول الى مجرد حركات ظاهرية سخيفة مستفلة . فكنت أحدث نفسى قائلة - « كثيرا ما أعود الى المنزل وفى رفقى رجل كان ينتظرنى فى جنح الليل دون أن يعرفنى . فنتصارع على هذا الفراش متعانقين فى قوة وحماس وقد تشبث كل منا بالآخر كعدوين لدودين استحكما بينهما العدا . ثم يعطينى قصاصة من الورق مطبوعة ملونة . وفى اليوم التالى استبدل بهذه القصاصة الطعام والملابس وغيرها من السلع . » ولكن هذه العبارات لم تكن الا خطوة اولى فى سلسلة الخطوات التى تؤدى الى حيرة أعمق واشد . فكانت تلك العبارات تمحو من ذهنى حكمه على مهنتى ذلك الحكم الذى كان لايفتأ يوجد جائما هنالك . فتصور لى مهنتى فى صورة سلسلة من الحركات التى لا معنى لها والتى تشبه من جميع الوجوه حركات المهنة الأخرى . وبعد ذلك مباشرة ثمة صوت بعيد فى المدينة أو صرير قطعة اثاث فى الغرفة كان يبعث فى نفسى ادراكا سخيفا مضحكا لوجودى يكاد يكون مشيرا عنيفا عارما . فأحدث نفسى قائلة - « ها انذى وربما كنت فى مكان آخر - ربما وجدت منذ ألف عام أو بعد ألف عام - وربما كنت

زنجية أو عجوزا شقراء أو قصيرة - « وكان يجول بخاطري كيف
اننى خرجت من ليل لانهائى ولن البث أن الحج ليلا لا نهائيا آخر وكيف
ان مرودى العابر التصير ان لا يميز الا بعمل سخيفة عارضة .
وعندئذ ادرك أن ماكنت افعله لم يكن هو السبب في غمتى بل كان
على صورة أعمق مجرد وجودى على قيد الحياة ولم يكن ذلك خيرا
ولا شرا بل شيئا أليما خاويا من المعنى .

وما ان تنهار شجاعتي حتى ينتابني الخوف بضع لحظات . فكنت
لا أفتأ أرتعد على صورة لا سبيل الى كبح جماحها ويقف شعري .
وفجأة تبدو لى جدران شقتى بل المدينة كلها بل العالم بأسره وقد
تلاشى وأظلم أنا معلقة فى فضاء خاو مظلم لانهائى - بل أكثر من ذلك
ان ملابسى تظل كما هى وذكرياتى لاتتغير وكذلك اسمى ومهنتى .
ثمة فتاة تدعى آدريانا معلقة فى وجه العدم . وكان العدم يبدو نى
شيئا جهما رهيبا مستقلقا . وكان أشد ما يحزننى فى الاسر كله اننى
كنت القى العدم بنفس الطريقة التى القى بها جيزيلا فى المساء فى
محل الحلوى حيث تعودت ان تنتظرنى دون ان يتغير أسلوبى أو مظهرى
الخارجى . ولم يكن يعزىنى أن غيرى من الناس أيضا كانوا يتصرفون
ويتحركون بنفس الطريقة العقيمة القاصرة التى لم أفتأ أتبعها كلما
ووجهت بهذا العدم ووجدت فيه واحطت به . وكنت لا أزيد على
أن أدهش لففلتهم عنه وعدم ابدائهم ملاحظاتهم عليه وعدم اشارتهم
الله مرارا وتكرارا كما يحدث عادة عندما يكتشف عدد كبير من الناس
فى نفس اللحظة حقيقة واحدة .

حينذاك كنت أرتدى جاثية على ركبتى لأصلى الى الله . ولعل
ذلك لم يكن بارادتى الواعية بقدر ماكان عادة اكتسبتها فى طفولتى .
ولكننى كنت لا أردد الفاظ الصلوات العادية التى تبدو لى بالنظر
الى حالتى النفسية الفجائية أطول مما ينبغى . فكنت أرتدى جاثية
على ركبتى فى عنف شديد لاتفتأ تتألم منه ساقاى بضعة أيام بعد
ذلك . ثم أصلى بصوت عال يملؤه اليأس مرددة هذه الكلمات القليلة
فقط - « ارحمنى يايسوع المسيح » . ولم تكن فى الحقيقة صلاة
بل معادلة سحرية كنت أحسبها تبدد الى وتردنى الى الواقع مرة
أخرى . وبعد ان اطلق صيحتى التلقائية على هذه الصورة بكل قوتى
أظل بعض الوقت محتفنة وجهى بيدي فى استغراق تام . وأخيرا
أحس بعقلى وقد صار صفحة بيضاء وبالملل يراودنى وبأننى مازلت
آدريانا كما كنت دائما وبأننى فى غرفتى الخاصة . ثم أتحمس

جسدى وأنا فى شبه دهشة لسلامته . وما ان أنهض من ركعتى حتى
أوى الى فراشى . ولست ما كنت أحس بالتعب والالم فى جميع اجزاء
جسدى وكنتى قد سقطت فوق منحدر صخرى . ثم لا البت ان
استغرق فى النوم .

ومع ذلك فان تلك الحالات النفسية لم يكن لها تأثير على حياتى
اليومية . بل كنت اظن كما انا بنفس الشخصية وبنفس الخلق -
أدريانا التى تصحب الرجال الى المنزل لقاء النقود التى تجوب
الشوارع مع جيزيلا والتى تتحدث فى أمور تافهة مع أمها ومع الناس
جميعا . وكان يدهشنى ذلك الاختلاف الشديد بينى فى وحدتى
وفى صحبة آخرين وبين علاقتى بنفسى وعلاقتى بغيرى . ولكننى لم
أخدع نفسى بتوهمى أنى الوحيدة التى تخالجها مثل هذه المشاعر
العنيفة اليائسة . بل كان يخيل لى أن كل شخص يشعر بلاريب ولو
مرة واحدة فى اليوم على الاقل أن حياته تقلصت حتى صارت نقطة واحدة
من الالم السخيف الذى يفوق الوصف ، غير أنه من الواضح أن
شعوره ذاك كان لا يحدث أثرا ملموسا فى حياته . فكان كل منهم
يترك منزله كما أفعل ليهيم على وجهه مؤديا فى أمانة واخلاص دوره
الذى لا أمانة فيه . وقد دعم ذلك الخاطر اعتقادى أن البشر جميعا
دون استثناء يستحقون الرثاء ولو كان ذلك لبقائهم على قيد الحياة
فحسب .

القسم الثاني

www.library4arab.com/vb

الفصل الأول

وعندئذ كنا قد صرنا انا وجيزيلا شريكتين اكثر منا صديقتين .
حقا اتنا لم نتفق على الاماكن التي نتردد عليها لان جيزيلا كانت
تفضل المطاعم والمحال الانيقة في حين اوثر انا المقاهى البسيطة
بل الطرقات . وكننا نجحنا في الوصول الى اتفاق حتى في ذلك
الشان الذى تختلف حوله الميول . فكنا نقصد الاماكن المختلفة على
التوالى . وذات مساء بعد تناولنا العشاء من غير طائل في احد
المطاعم كنا في طريقنا الى المنزل عندما احسست بسيارة تتعقبنا .
واسررت الى جيزيلا مندرة اياها انا وربما تلقينا عرضا . وكانت غاضبة
في ذلك المساء لانها اضطرت الى دفع ثمن عشاها دون أن يتمخض
ذلك عن شئ في حين انها كانت مند فترة وجيزة تعاني ضائقة مالية
شديدة . فأجابتنى قائلة في وقاحة : « يمكنك أن تمضى معهم أن
شئت . اما أنا فذهبة الى المنزل لانام » . وفي تلك الاثناء كانت
السيارة قد اقتربت من حافة الافريز وأخذت تسير ببطء في
محاذاتنا . وكانت جيزيلا تمشى بالقرب من جدران المنازل بينما
اسير انا من ناحية الطريق . وعندما القيت نظرة جانبية رأيت
رجلين في السيارة . فهمست قائلة لجيزيلا : « ما العمل ؟ ما لم
تأتى معى فلن اذهب أنا ايضا »

فاختلست بدورها نظرة الى السيارة وبدا عليها التردد لحظة
وهي لا تزال في حال من السخط ثم قالت بلهجة حازمة : « لن
اذهب . ولتمضى أنت . اتخافين ؟ »

« كلا . ولكننى لن اذهب ما لم تأتى أنت ايضا . »
فهزت رأسها وألقت نظرة اخرى على السيارة التى ما زالت
تسير بمحاذاتنا ثم قالت وكأنها قد حزمت رأيا فجأة : « حسنا .
ولكن عليك أن تتظاهرى بالرفض حتى نستدرجهما الى ممر

الهداية فان لا اميل الى اتساعهما هنا في الطريق العام » .
فسرنا مسافة تقرب من خمسين ياردة والسيارة لا تقف تسير
بمحاذاتنا طوال الوقت الى ان بلغنا ناصية انحرفت عندها جيزيلا
فاذا بنا في شارع جانبي مظلم ضيق ذى افريز صغير يمتد بمحاذاة

جدار قديم تغطيه الاعلانات - فسمعنا السيارة وهي تنحرف أيضا في الطريق الجانبى ثم سقطت علينا أشعة الكشافات الامامية وكانت بيضاء باهرة . فأحسنا وكان الضوء قد جردنا من ثيابنا وسمرنا إلى الحائط الرطب الذى تكسوه الاعلانات الباهظة المزرقة . فوقفنا فى سكون . ثم قالت لى جيزيلا بصوت خفيض : « أى صنف من الناس هذان المخلوقان ؟ ألم ينعما النظر الينا فى الطريق العام ؟ ان الرغبة تراودنى فى العودة الى المنزل » .

فأسرعت قائلة فى توسل : « لا ، لا ، لا تفعلى ! ماذا يهمنى ؟ فجميعهم ينحون هذا النحو » . ولشد ما أحسست بالرغبة فى لقاء هذين الرجلين فى السيارة ولا أدرى انا نفسى سببا لذلك .

فهزت كتفيها وارتعشت الاضواء الكاشفة فى نفس الوقت ثم انطفت . ووقفت السيارة أمامنا بالقرب من الافريز . ثم أطل السائق برأسه الاشقر الى خارج النافذة قائلا بصوت مدو :
- « طاب مساؤكما » .

فأجابته جيزيلا قائلة فى ثرفع : « ومساؤكما » .
فأردف قائلا : « الى أين تذهبان وحيدتين ؟ الا يمكننا ان نكون فى صحبتكما ؟ » .

وكانت تلك العبارات مبتذلة سبق ان سمعتها مئات المرات رغم ما فيها من لهجة متهكمة تنم عن شخص يظن بنفسه الذكاء المفرط . فأجابت جيزيلا قائلة دون ان تفارقها لهجتها المترفعة : « هذا كله يتوقف . . . » وكانت هي أيضا لا تفتأ تعطى نفس الردود . فالح الرجل الذى يقود السيارة قائلا «أوه هلم بنا الان ! علام يتوقف ؟ » .

فقالت جيزيلا متجهة نحو السيارة وواضحة يدها على الباب :
« كم تنقداننا ؟ »
- « كم تطلبان ؟ »

فحددت جيزيلا مبلغا من المال . فصاح قائلا فى صوت حاد :
« ولكنكما تغاليان . فهذا ثمن باهظ ! » ومع ذلك فقد بدا ميالا لقبول العرض . واذا بصديقه الذى اختفى وجهه يتكئ الى الامام هامسا بشيء فى أذنه . ولكن الشاب الاشقر هز كتفيه ثم التفت

إلينا قائلا :
- « حسنا ، فلتدخلا السيارة » .

وفتح صديقه الباب ثم هبط من السيارة ومضى ليجلس فى

المقعد الخلفى . ودعانى الى الجلوس بجانبه بعد ان فتح الباب المجاور لى . كما جلست جيزيلا بجانب الشاب الاشقر الذى التفت نحوها قائلا : « الى اين نذهب ؟ » .
فاجابته قائلة : « الى شقة ادريانا » . ثم ادلت اليه بالعنوان . فقال الشاب الاشقر : « هذا جميل . فلنذهب الى شقة ادريانا » .

وكان من عادتي كلما وجدت فى سيارة او اى مكان آخر مع احد هؤلاء الرجال الذين لا اعرفهم ان الؤذ بالصمت والسكون فى انتظار ان تبدر منهم كلمة او حركة . وكنت اعلم من خبرتى انهم يتشوقون الى المبادرة ولا يحتاجون الى تشجيع . وفى ذلك المساء ايضا لزمتم الصمت والسكون بينما اخذت السيارة تشق طريقها خلال المدينة . ولم استطع ان اتبين من الشخص الجالس الى جوارى الذى تعين بحكم ترتيب الاماكن ان يكون عشيقى فى تلك الليلة سوى يديه الطويلتين النحيلتين البيضاوين الموضوعتين على ركبته . لم ينبس بكلمة ولم تبدر منه حركة وقد اختفى رأسه فى الظلام . وخيل لى انه ربما كان حيا فاحسست فجأة بانى مشدودة اليه . فقد كنت انا ايضا حية وكان الحياء لايفتا يؤثر فى الاثمة يذكرنى بما كنت عليه قبل لقائى بجينو . ومع ذلك فان جيزيلا كانت تتحدث وكانت تميل الى الحديث عن امور تافهة فى ادب واطناب قدر امكانها وكانها سيدة فى صحبة رجال يحترمونها .

وسمعتها فى لحظة معينة تسأل رفيقها قائلة : « اهذه سيارتك ؟ » فاجابها قائلا : « نعم . فانى لم ارهنها بعد . اتعجبك ؟ » . فقالت جيزيلا فى هدوء : « انها مريحة للغاية . ولكننى افضل سيارات « لانسيا » فهي اسرع من هذه كما انها ذات لوالب اقوى . ان خطيبى يملك سيارة « لانسيا » . »

وكانت صادقة فيما قالت . فقد كان ريكاردو يملك سيارة « لانسيا » . ولكنه لم يكن قط خطيب جيزيلا . وحينذاك كانت جيزيلا قد انقطعت عن لقائه بعض الوقت . فبدأ الشاب يضحك قائلا : « ان خطيبك يملك سيارة « لانسيا » تسير على عجلتين ! »

وكانت جيزيلا سريعة الغضب . بل كانت اتفه الملاحظات خليقة بان تغضبها . فقالت فى استياء : « قل لى ماذا تحسبنا ؟ » فقال الشاب الاشقر : « لست ادرى . اخبرينى من انتما حتى لا اسىء التصرف » .

وثمة لازمة أخرى من لوازم جيزيلا التي كانت لا تفتأ تتبعها مع عشاق الطريق هي انتحال صفة ليست لها : فتزعم أنها راقصة أو ناسخة أو سيّدة محترمة . ولم تكن تدرك أن ادعاءها ذلك يتنافى تماما مع سهولة التفاهم معها كما يتنافى مع تمسكها دائما بضرورة الاتفاق فورا على الناحية المالية . فقالت في كبرياء : « اننا راقستان في فرقة كاتشيني . وليس من عادتنا الخروج مع أول رجل نلقاه في الطريق . ولكن لما كانت الفرقة لم تستعد بعد كما يجب فقد كنا نقوم بنزهة قصيرة هذا المساء . كما انني في الواقع لم أشأ قبول عرضكما ولكن صديقتي قالت انكما تبدوان مهذبين . ولو علم خطيبي بذلك لقتلني ... »

فضحك الرجل الاشقر مرة أخرى قائلا : « لاشك اننا شخصان مهذبان ! ولكنكما بغيان ! لم لا ؟ » .

فتكلم صديقي لأول مرة قائلا في صوت هادئ : « اصمت يا جيانكاريو » .

ولم أنبس بكلمة . وكنت أكره أن أنعت بهذا الاسم لما وراءه من قصد حقود ولكنه يمثل الحقيقة رغم كل شيء .

فقالت جيزيلا : « أولا هذا افتراء . فضلا عن ذلك فأنت وغد »

فلم يفه الشاب الاشقر بشيء . ولكنه قلل من سرعة السيارة في الحال ثم أوقفها بجانب حافة الافريز . وكنا في شارع جانبي مهجور ذي اضاءة خافتة تحف به المنازل من الجانبين . والتفت نحو جيزيلا قائلا : « ولنفرض انني ألقيت بك الى خارج السيارة ؟ »

فقالت جيزيلا منسحبة الى الخلف : « اذن فلتحاول ! » ولشد ما كانت شجاعة لا تهاب أحدا .

وعندئذ اتكأ جاري الى الامام تجاه المقعد الامامي فرأيت وجهه . كان أسمر اللون تجلج جبهته العالية خصلة من الشعر وكان ذا عينين نجلاوين سوداوين بارزتين وأنف مستقيم وأضح المعالم وشفيتين مقوستين وذقن قبيح مرتد الى الداخل . ولشد ما كان نحيفا حتى أن حرقوته ظهرت فوق ياقته . قال مخاطبا الرجل الاشقر مسددا على الفاظه ولكن في اناء . فلما لي وكأنه يتدخل في أمر لا يخصه مطلقا في الحقيقة : « هل ستصمت أم لا ؟ » ولم يتميز صوته بالعمق أو الرجولة المفرطة بل بدا وكأنه قابل لان يصير نشارا صارخا في سهولة .

فقال صديقه ملتفتا نحوه : « وما شأنك بهذا ؟ » ومع ذلك فقد كان صوته غريبا وكأنه خجل فعلا من فظاظته وغير آسف لتدخل صديقه . ثم استرسل قائلا : « ما هذا السلوك ؟ لقد دعوناهما . . فوثقنا بنا . . وها نحن الآن بهينهما ! » والتفت الى جيزيلا قائلا في رقة : « لا تهتمى بما يقول . فلعله أفرط في الشراب ! وانى واثق انه لا يقصد اساءتك » . فأتى الرجل الأشقر حركة احتجاج ولكن رفيقه أسكته بوضع يده على ذراعه قائلا بلهجة قاطعة : « أوكد لك انك أفرطت في الشراب وانك لم تقصد اهانتها . والآن فلنواصل طريقنا » .

وقالت جيزيلا في صوت مرتعش : « انى لم أحضر الى هنا لكى أهان » . وبدت هى أيضا شاكرة للرجل الاسمر تدخله .

فقال : « بالطبع . فليس ثمة من يحب أن يهان . . لاشك في ذلك ! » وأخذ الرجل الأشقر يحملق فيهما وقد علت وجهه الاحمر الذى بدأ متورما تكسوه بقع من الكدمات نظرة غبية حمقاء . كانت عيناه مستديرتين ذاتى زرقة رمادية كما بدأ فمه الاحمر الكبير نهما لا يكبح جماحه . أخذ يحملق فى صديقه الذى لم يفتأ يربت على كتف جيزيلا مهدئا وأخيرا انفجر ضاحكا وهو يهتف قائلا : « أقسم بشرفى اننى لا ادرى ماذا حدث وأين نحن الان ؟ ولماذا نتشاجر ؟ بل انى لا أستطيع أن أذكر كيف بدأ كل هذا . فها نحن نتشاجر بدلا من ان نكون جميعا اصدقاء . انه لامر خليق يدفع المرء الى الجنون » . كان يضج بالضحك ثم التفت الى جيزيلا قائلا وهو مازال يضحك : « دعك من هذا يا احسنائى ولا تفضبى ، فان كلينا فى الحقيقة قد خلق للآخر . . »

فقالت مفتعبة ابتسامة : « ذلك بالضبط هو ما كان يدور بخلدى فى الحقيقة » .

ثم استرسل قائلا فى صوت حاد وهو يضحك بكل قوته : « الست أظرف مخلوق فى الوجود يا جياكومو ؟ فانك تجدين فى كل ما تتمنين . ولكن عليك أن تعرفى كيف تكسبين رضاي . هذا هو كل ما هنالك . هيا . . اعطنى الآن قبلة . ثم اتكأ الى الامام واضعا ذراعه حول جيزيلا فأخرجت من حقيبتها منديلا أرزالت به بين فمها أحمر الشفاه ثم قبلته على شفتيه معتذرة . وبينما كانت تقبله أخذ يلوى أصابعه بحركة تشنجية متظاهرا بالاختناق ومحिला الموقف كله الى مشهد هزلى . ثم ما لبثا أن انفصلا فى الحال تقريبا . وعاد

بحرك السيارة من جديد بحركات بطيئة قائلا : « ها نحن ننتقل من جديد ! وأقسم انى من أكون سببا فى سلوكك منى بعد ذلك فساكون غاية فى الحزم وآية فى حسن السلوك شأن الجنتلمان الاصيل . ويمكنكم أن تضربونى ان ساء سلوكى » . ثم انطلقت السيارة من جديد .

وظل طوال الطريق يتحدث ويضحك ضحكا مدويا بل ويرفع يديه عن عجلة القيادة ليشير بهما مما كان يعرضنا لخطر وشيك . أما جارى فانه على العكس من ذلك قد عاد بعد تدخله المقتضب الى التزام الصمت فى ركنه المظلم . وعندئذ لشد ما احسست بنفسى منجذبة اليه وقد توترت أعصابى على صورة غريبة . . وانى أرى الآن وأنا أعود بذاكرتى الى تلك اللحظة انى حينئذ وقعت أسيرة هواه أو على الأقل أخذت أربط بينه وبين جميع الاشياء التى كنت أحبها ولم انلها قط حتى ذلك الوقت . فلا بد ان يكون الحب كاملا قبل كل شىء وليس مقصورا على الاشباع الجسدى . وكنت لا ازال أنشد الكمال الذى خيل لى من قبل انى وجدته فى جينو . ولعلها كانت المرة الاولى . . لا منذ احترافى تلك المهنة فحسب ، بل فى حياتى بأسرها . . التى صادفت فيها رجلا له مثل صوته وآدابه . فلا شك ان الرسام البدين الذى وقفت له فى البداية كان يشبهه الى حد ما ولكنه كان أهدأ منه وأقوى سيطرة على نفسه . وعلى أية حال فلو شئت لوقعت فى غرامه أيضا . لقد أثار فى نفسى صوت ذلك الشاب وأسلوبه تلك الاحساسات التى خالجتنى عندما ذهبت لأول مرة الى فيللا مخدومة جينو ولكن على صورة مختلفة . فمثلما احسست بافتتان خارج عن المألوف ازاء ما يسود الفيللا من نظام وراحة ونظافة وخيل لى ان المرء ما لم يستطع ان يقيم فى منزل كهذا فان الحياة تبدو غير جدية بأن يحياها . . كذلك الآن فلشد ما جذبنى اليه فى شغف صوته وحركاته الرقيقة وكل ما كانت تنبىء به سمات شخصيته . ولقد تحركت فى نفس الوقت رغبتى الجسدية فتمنيت أن تلمسنى يداه وأن تقبلنى شفتاه . وأدركت ان ذلك المزيج العنيف الذى يفوق الرصف من الامالى القديمة والرغبة العالية التى هى جوهر الحب ورفيقته الذى لا مناص منه كان يعتمل فى نفسى بالفعل . ولكننى لشد ما خشيت ان يلاحظ شعورى فيهرب منى . ودفعنى الخوف الى ان امد يدي نحوه لعله يمسك بها ويضغط عليها . ولكن يديه لم تكثرنا للمسمة

أصابعي المرتبكة التي كانت تحاول أن تتشابك مع أصابعه . ولشد ما انتابني الارتباك لانني لم أشأ أن أسحب يدي بعيدا ولكنني أحسست في نفس الوقت أنني مضطرة الى ذلك ما دممت لم أجعل فيه بادرة تدل على الحياة . وعندما انحرفت السيارة بعنف في أحد المنحنيات ارتمى كلانا على الآخر وتظاهرت بأنني فقدت توازني فارتيمت برأسي على ركبتيه . فارتعش ولكنه لم يتحرك . ولشد ما أمتعني حركة السيارة فقد أغمضت عيني ودفعت بوجهي بين يديه لاغرق بينهما كما يفعل الكلب ثم قبلتهما وحاولت أن اجعلهما تربتان على وجهي بلمسة عاطفية تمنيت أن تكون تلقائية . فأدركت انني قد فقدت صوابي وأدهشني على صورة غامضة أن تؤدي بضع كلمات رقيقة الى مثل هذه الحالة من الاضطراب . ولكنه لم يمنحني تلك اللمسة التي لشد ما استجديتها في ذلة ثم ما لبث أن سحب يديه . وفي الحال توقفت السيارة .

فوثب الرجل الاشقر الى الخارج وعاون جيزيلا على الهبوط من السيارة في مجاملة كاذبة . وهبطنا نحن أيضا . ثم فتحت الباب الامامي ودخلنا الفناء . وقاد الرجل الاشقر الطريق صاعدا الدرج هو وجيزيلا . وكان قصير القامة ممتليء الجسم فبدأ وكأن ملاسسه توشك أن تتفزر عن جسده رغم انه لم يكن بدينا وكانت جيزيلا أطول منه قامة . وعند منتصف الطريق تراجع خطوة الى الخلف حيث أمسك بثوب جيزيلا من حاشيته ورفعها الى أعلى كاشفا عن فخذيها البيضاوين وقد أحاط بهما رباطا الجوربين وعن ردفها الصغيرين النحيلين . وهتف قائلا وهو ينفجر ضاحكا : « ارتفع الستار ! » ولكن جيزيلا لم تزد على أنزلت ثوبها مرة أخرى باحدى يديها . وخيل لي أن رفيقي لا يمكن أن يستسيغ مثل هذا السلوك ألفظ كما أردته أن يعلم أنني أيضا لا أستسيغه .

قلت : « ان صديقك شديد المرح » .

فأجابني في اقتضاب قائلا : « نعم » .

— « من الواضح أن كل شيء يدور أمام عينيه » .

ودخلنا الشقة على أطراف أصابعنا حيث قدتهم رأسا الى غرفتي . وعندما أغلق الباب وقت أربعين لحظة هناك . ولما كانت الغرفة صغيرة الحجم فقد بدونا أكثر عددا مما كنا . وكان الرجل الاشقر أسبقنا الى استعادة هدوئه ورباطة جأشه اذ جلس على الفراش وأخذ يخلع ملابسه في الحال وكأنه لا شأن له بأحد . وكان يتحدث

عن غرف الفنادق والغرف الخاصة وهو يقص علينا احدي مغامراته
الاخيرة قائلا « فخطبتني قائلة : انا سيدة اصيلة - ولا ابني
الذهاب الى فندق » فقلت لها : « ان الفنادق مملوءة بالسيدات
الاصيلات » فقالت : « ولكنى ارفض الادلاء باسمي » فقلت :
« سادخل في روعهم انك زوجتي . فلا يهمني ان زادت زوجاتي
واحدة او نقصن واحدة » . فذهبنا الى الفندق حيث اوهمتهم انها
زوجتي ثم صعدنا الى غرفتنا .. ولكنى ما ان شرعت في مضاجعتها
حتى اخذت تقص على قصة طويلة .. انها نادمة الآن على ذلك ،
وانها تآبى المضاجعة ، وانها سيدة محترمة في الحقيقة . فنقد
صبرى وحاولت اغتصابها . وليتنى ما فعلت ! اذ انها فتحت
النافذة وهددت بالقاء نفسها . فقلت : « حسنا . فقد اخطأت
ياصطحابك الى هنا » . ثم جلست على الفراش واخذت تنسج
بالبكاء وتروى لى قصة مؤثرة خليقة بأن تنفطر لها قلوبكم . ولكنكم
ان شئتم ان تعرفوا موضوع تلك القصة فذلك ليس فى امكاني اذ
اننى نسيته . كل ما اذكره اننى احسست بفيض من النبل والخير
حتى كدت اجثو على ركبتى طالبا الصفح لتصورها على غير حقيقتها
فقلت : « انا الآن متفقان فى الراى تماما ولن تفعل شيئا ، بل
سنضطجع على الفراش فحسب وننام كل على حدة » . وهكذا
حسم الامر وما لبثت ان استفرقت فى النوم . ولكن الليل ما كاد
ينتصف حتى استيقظت وتطلعت الى ناحيتها . فلم اجدها ثم التفت
الى ملابسى فاذا بها مشعثة . ففتشت جيوبى ووجدت ان محفظتى
قد اختفت ايضا . لقد كانت سيدة بحق ! ولشد ما كان ضحكه
معديا حتى اضطرت انا وجيزيلا الى الضحك ايضا ازاء بهجته
اللانهاية . وكان قد خلع حلته وقميصه وجوربه وحذاءه ووقف
مرتديا سراويله الرمادية القاتمة التى احكمت على جسده من رسفى
قدميه حتى عنقه مما جعله يبدو كالبهلوان او راقص الباليه . وقد
زاد من مظهره الهزلى ذلك الرداء الذى يرتديه عادة كبار السن .
وما ان وقع بصرى على منظره حتى نسيت قسوته وكدت اشعر
باليل نحوه اذ اننى كنت لا افتأ اميل الى المرحين من الناس كما
كنت بطبعى اكثر ميلا لى المرح منى الى الكآبة . وبدأ يختال فى
ارجاء الغرفة بقامته القصيرة وبنيته القوية مزهوا بسراويله وكأنها
زى عسكري . وفجأة وثب من الزاوية التى بها خزانة الملابس الى
الفراش فهوى فوق رأس جيزيلا التى صرخت فى دهشة ثم القى

بها الى الخلف وكانه سيضاجها . ولكنه بينما كان لا يزال يحوم فوقها على اربع ازا به يرفع وجهه الاحمر المنفعل بحركة هزلية وكان قد لاح له خاطر ما ثم يدير بصره الى العلت سعوا كما يفعل القط قبل ان يشرع في تناول طعامه ثم يسألنا قائلا : « ماذا تنتظران ؟ » .

فنظرت الى رفيقى قائلة : « هل اخلع ثيابى ؟ » .
وكان لا يزال مرتديا معطفه وقد رفعت ياقته حول عنقه .
فاجابنى قائلا فى رجفة : « لا ، لا ، بل بعد انتهائهما » .
- « هل نذهب الى الغرفة المجاورة ؟ »
- « نعم » .

فصاح الرجل الاشقر قائلا وهو ما زال يحوم فوق جيزيلا :
« اذهبا فى نزهة بالسيارة . وسوف تجدان المفاتيح هناك » . ولكن صديقه تظاهر بأنه لم يسمعه وغادرتنا الغرفة .
ودلفنا الى الغرفة الخارجية حيث اشرت له بالانتظار ثم دخلت غرفة الجلوس حيث كانت امى جالسة الى المائدة فى الوسط تمارس بمفردها لعبة بالورق تدعى « بيشانس » . وما ان راتنى حتى نهضت وغادرت الغرفة متجهة الى المطبخ دون ان تنتظر منى كلاما . فاختلست النظر خلال الباب واخبرت الشاب انه يمكنه الدخول .
ثم اغلقت الباب وذهبت لاجلس على الاريكة فى ركن الغرفة بالقرب من النافذة . كنت اريده ان يجلس بجانبى ويضمنى اليه فى رفق فهكذا كان يفعل الآخرون دائما . ولكنه لم ينظر حتى تجاه الاريكة . بل اخذ يلدغ الغرفة من حول المائدة جيئة وذهابا وقد دس يديه فى جيبه . وخيل لى انه ربما سئم الانتظار، فقلت :
« يوسفنى انه ليس لدى سوى غرفة نوم واحدة يمكننى استخدامها »
فوقف ساكنا . ثم سألنى قائلا فى استياء ولكن فى رقة :
« وهل قلت اننى اريد غرفة ؟ » .
- « كلا . . ولكننى حسبت - » .

ثم دار حول الغرفة بضع دورات . ولم يعد فى مقدورى ان اكبح جماح نفسى فسألته قائلة وانا اشير الى الاريكة : « لم لا تاتى وتجلس هنا بجانبى ؟ »
فنظر الى وقد بدا عليه انه يحزم امره ثم جاء ليجلس بجانبى .
وسألنى قائلا :

- « ما اسمك ؟ .. »

آديانا . . .
قال وهو يمسك بيدي : انا جياكومو .
وكان ذلك امرا غير مألوف . فخطر لى مرة اخرى انه كان حيا .
وتركته يمسك بيدي وابتسمت له مشجعة .
قال : اذن فعلينا ان نمارس الهوى بعد قليل .
- « نعم » .

- « ولنفرض اننى لا أريد ذلك ؟ »
فأجبتة قائلة باستخفاف ظنا منى انه يمزح فحسب : « اذن فلن
نفعل » .
فأجابنى مؤكدا : « حسنا . ابغى الإ نفعل . فليست لى
أقل رغبة فيه » .
فقلت : « كما تشاء » . ولكن اباهه كان شيئا جديدا على فلم
أفهم ماذا يقصد .

قال : « ايسينك ذلك ؟ فالنساء يكرهن ان يرفض طلبهن » .
وأخيرا فهمت ما يعنيه وهزرت رأسى عاجزة عن النطق . اذن
فهو لا يريدنى . وفجأة احسست باليأس وكدت انفجر باكية .
فتلعثت قائلة : « لا يسيئنى ذلك مطلقا . ان لم تكن لديك
الرغبة ، فلننتظر حتى ينتهى صديقك وعندئذ يمكنك ان تذهب » .
فاحتج قائلا : « لست ادرى . فانى أضيع وقتك ، بينما كان فى
امكانك ان تنالى شيئا من رجل آخر » .

وخيل لى انه ربما كان عاجزا عن المضاجعة لا راغبا عنها .
فقلت : « ان لم تكن معك النقود فلا يهم ذلك . اذ يمكنك ان تنقدى
أجرى فى مناسبة أخرى » .

فقال : « انك فتاة طيبة . ولكننى املك النقود . وفى الواقع
- انظرى - فانى مع ذلك سأنتقدك أجرك حتى لا ابدو وكأنى قد أضعت
المساء . ثم دس يده فى جيب سترته وأخرج رزمة من الاوراق المالية
التي بدت وكأنها معدة من قبل ثم ذهب ليضعها على المائدة بعيدا
عنى بحركة مرتبكة ولكنها كانت مع ذلك رشيقة مزدرية .

فاحتجبت قائلة : « لا ، لا ، لماذا تنقضى أجرى قبل دينا نفسى هذا
الامر » . ولكننى قلت ذلك بلهجة هزيلة لانى فى قرارة نفسى لم
أشعر قط بالاسف لقبولى تقوده . . . فهى حلقة اتصال دائمة بينى
وبينه . اذ اننى لما كنت الآن مدينة له فلن يفتأ يراودنى الامل فى
ان ارد له دينه . وحمل رفضى المتخاذل على محمل القبول

وكذلك كان في الواقع . فلم يلتقط النقود بل تركها على المائدة وجاء ليعاود جلسته على الأريكة فشدت يدي لأمسك بيده رغم احساسى بأنه عمل محرج سخيف فتبادلنا النظر لحظة . واذا به فجأة يلوى خنصرى بأصابعه الطويلة النحيلة لوية قسوية فقلت في غضب : « آه . ماذا دهاك الآن ؟ » .

فأجابنى قائلا : « انى آسف » . ولشدهما بدا عليه الارتباك حتى اننى اسفت لتعنيفه بهذه القسوة .

قلت : « أتعلم انك أمتنى ؟ » .

فرد قائلا : « انى آسف » . ثم انتابه اضطراب مفاجيء فنهض واقفا مرة أخرى وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابا . ثم توقف أمامى وسألنى قائلا : « هل نخرج ؟ فان هذا الانتظار في الحقيقة يثير اعصابى » .

— « الى أين تذهب ؟ »

— « لست أدرى . . هل نذهب في نزهة بالسيارة ؟ »

وتذكرت نزهى في السيارة مع جينو فأسرعت بالإجابة قائلة : « كلا . . لا بالسيارة » .

— « فلنذهب الى مقهى . اليس هناك بعض المقاهى بالقرب من هنا ؟ .. »

— « أنها ليست بالقرب من هنا على وجه التحديد . ولكننى اعتقد ان هناك محلا خارج البوابات تماما .. »

— « اذن فلنذهب اليه » .

فنهضت واقفة وغادرنا غرفة الجلوس . وبينما كنا في طريقنا الى الخارج حاولت أن أمزح معه قائلة : « فلتعلم ان تلك النقود التى أعطيتنى اياها تخولك الحق في المجيء لرؤيتى وقتما تشاء . هل اتفقنا ؟ » .

— « اتفقنا » .

وكانت ليلة معتدلة رطبة مظلمة من ليلالى الشتاء . وقد ظل المطر ينهمر طوال النهار فغطت الطريق المهد برك كبيرة سوداء من الماء العكست عليها أضواء أتبنة من المصابيح القليلة في الطريق . وكانت السماء صافية فوق الاسوار ولكنها لم تكن مقمرة بل كانت تلمع فيها بضعة نجوم من خلال الضباب على صورة غامضة . ومن وقت لآخر كانت عربات الترام غير المرئية تمر خلف الاسوار بينما لا يفتأ يتناثر من أسلاكها الكهربائية وميض

حتى يلقي ضوءا خاطفا على السماء والأبراج المهذبة ودعائم المباني
المكسوة بالخضرة . وعندما خرجت الى الطريق تذكرت اننى لم
أذهب فى اتجاه حديقة الملاهى شهورا عديدة . بل كنت عادة
انحرف يمينا صوب الميدان حيث أقابل جينو . كما تذكرت اننى
لم أذهب فى اتجاه مدينة الملاهى منذ صباى . وكنت حينذاك أخرج
للنزهة مع أمى حيث نصحنا الطريق الواسع أسفل الاسوار
ونذهب للاستمتاع بالاضواء والموسيقى دون أن نجرؤ على الدخول
لافتقارنا الى النقود . وكانت تقع فى ذلك الجانب من الطريق
الرئيسى تلك الفيلا ذات البرج الصغير التى لمحت فيها من خلال
نوافذها المفتوحة أسرة كان أفرادها يجلسون حول المائدة - تلك
الفيلا التى جعلتنى احلم بالزواج لأول مرة - البيت والحياة
الطبيعية الخاصة . وأحسست انى منساقا الى التحدث مع رفيقى
عن ذلك العهد وعن شبابى وعن آمالى لا بدافع عاطفى فحسب
كما يجب أن اعترف بل بدوافع أخرى مفرضة . فلم أشأ أن يتخذ
من المظاهر أساسا للحكم على بل أردت أن يرانى فى ضوء أفضل
حسبته أقرب الى الحقيقة . فبعض الناس يرتدون أبهى ملابسهم
ويستقبلون زوارهم المكرمين فى أفخر غرف المنزل . وكان عهد
صباى بما فيه من أحلام ومطامح يمثل عندى أبهى الثياب وغرف
الاستقبال . واعتمدت على ذكرياتى رغم جديها الشديد وافتقارها
الى التشويق فى تغيير رأيه فى وتقريبه منى .

فقلت اثناء سيرنا : « ان هذا الجانب من الطريق لا يؤمه أحد .
أما فى الصيف فان أهل الحي جميعا يخرجون للنزهة فيه . وقد
ألفت ذلك منذ زمن بعيد . فكان لابد من وجودك لاعود اليه من
جديد » .

وكان ممسكا بذراعى ليعاوننى على اجتياز الطريق الممتلىء بالماء .
فسألنى قائلا : « ومن كنت تصحبن ؟ » .
- « أمى » .

فأخذ يضحك بطريقة بيضة دهشت لها .
وراح يردد مشددا على حرف « الميم » قائلا : « أمى . فهناك
دائما أمى . أمى . أمى . ماذا تقول أمى ؟ وماذا تفعل أمى ؟
أمى . أمى »
وخيل لى أنه ربما كان هناك سبب خفى لشعوره بالاستياء نحو

امه . فسألته قائلة :

« هل أسأت اليك أمك ؟ »

فاجاب قائلا : « كلا لم تفعل شيئا . فالامهات لا يفعلن شيئا مطلقا . هل يمكنك أن تذكري لى شخصا لا ام له ؟ اتحبين أمك ؟ »
- « بالطبع . . لماذا ؟ »

فأسرع بالاجابة قائلا : « لا شيء . لا تكثرثى لى . بل استرسى فى حديثك اذن . . فقد تعودت الخروج مع أمك . . »
ولم تكن نعمة صوته مطمئنة او مشجعة . ومع هذا فقد احسست بنفسي منساقة الى الاسترسال فى سرد ذكرياتى بدفنى الى ذلك عاملان : ميلى اليه وحبى لى نفسي .
- « نعم . فقد تعودنا الخروج معا وخاصة فى الصيف عندما يصير الجو خانقا فى شقتى . انظر . . أترى تلك الفيلا الصغيرة هناك ؟ . . »

فوقف ساكنا وهو يتطلع ببصره . ولكن نوافذ الفيلا كانت مغلقة حتى بدت وكأنها مهجورة . وظهرت لعيني أصفر مما صورتها بل قبيحة ومخيفة الى حد ما وهى محصورة بين المنازل الممتدة الخفيفة التى يسكنها عمال السكك الحديدية . فقال : « ماقصتها ؟ »
والآن كاد يعرفونى الخجل مما كنت موشكة على ذكره . فأردفت قائلة فى مشقة : « لقد تعودت أن أمر بها كل مساء . ولما كان الوقت صيفا كما قلت فقد كانت النوافذ مفتوحة . . وكنت أرى من خلالها أسرة جلس أفرادها لتناول الطعام ، ثم . . »
ثم توقفت عن الكلام وقد انتابنى الارتباك فجأة .
- « ثم ماذا ؟ »

فقلت وقد خالجنى فى خجلى مزيج من الاخلاص والمكر : « ان كل ذلك لا يثير اهتمامك » .
- « لماذا ؟ فانى أهتم بكل ما تقولين . »

فأردفت قائلة على عجل : « حسنا . اذن فقد اختمر فى ذهنى انى فى يوم من الايام سأملك بيتا صغيرا كهذا أو سأحذو حذو تلك الاسرة فى حياتها تماما كما تعودت أن أراها . »

فقلت قائلا : « آه . لقد نهيت ! بيتا صغيرا كهذا . . ولكنك كنت متواضعة فى مطعمك » .

فقلت : « انه ليس قبيحا اذا ما قورن بمنزلنا الذى نقيم فيه الان . كما أن المرء فى تلك السن تختمر فى ذهنه أفكار كثيرة . »

فجذبني من ذراعي نحو الفيلا قائلا : « فلنذهب لنران كانت

www.library4arab.com/vb

تلك الاسرة لم نزل تقيم فيها . » فقلت : « بالله ماذا تقصد ؟ فهم هناك بالطبع . »

- « حسنا .. فلنر . »

ووصلنا الى خارج الفيلا تماما . وكان الظلام يسود الحديقة الكثيفة الضيقة كما يغمر النوافذ والبرج الصغير . فأتجه الى البوابة قائلا : « بل ان هناك صندوقا للبريد . فلندق الجرس ولنران كان هناك احد في الداخل . ومع ذلك .. فان منزلك الصغير هذا يبدو مهجورا . »

فقلت ضاحكة - « كلا . لا تفعل شيئا . فماذا دهاك ؟ »

- « فلنحاول . » ثم رفع يده وضغط على جرس الباب . فأحسست بالرغبة في الركض بعيدا خشية ان يأتي احد . وتوسلت اليه قائلة : « فلنمض من هنا ! فلنمض من هنا ! فانهم سيطلقون علينا الآن . وماذا سيقولون عنا ؟ »

فردد قائلا وكأنه قرار موسيقى منقادا لي وانا اجذبه بعيدا في قوة : « ماذا تقول امي هه ؟ ماذا تفعل امي ؟ »

فقلت مهرولة بالمسير : « ان أمك تسيطر على ذهنك ! »

وبلغنا حديقة الملاهي . وتذكرت آخر مرة ذهبت اليها . وكان هناك زحام كبير من الناس الذين يتدافعون بالمشاكب وقد تدلت المصابيح الملونة من الجبال في دوائر ومنحنيات وأضئت الاكشاك بالاسيتيلين وازدانت السرادقات وصدحت الموسيقى . ولقد خاب أملي الى حد ما عندما لم اجد شيئا من ذلك . فقد بدا لي ان السور لم يكن يخطط بحديقة الملاهي بل بأرض مظلمة مهجورة جعلت مستودعا لمواد البناء . كما بدت من فوق السور أقواس الخطوط الحديدية المتوية المتعرجة وقد علاها مقعد هنا ومقعد هناك مما كان لا يزال معلقا فوقها وكأنها حشرات انتفخت بطونها وأصابها شلل مفاجيء فتوقفت عن الطيران . كما كانت السطوح الخفيضة المدببة للسرادقات المطفاة التي تشربت مياه الامطار توحى بالنوم والخمول . فقد بدا كل شيء ميتا . وقد حق علي هذا الوصف اذا ان الوقت كان شتاء . كما كن الفضاء المكشوف امام حديقة الملاهي مهجورا تغطيه برك من الماء . وثمة مصباح واحد من مصابيح الطريق كان يرسل ضوءا خافتا .

قلت : « هذه مدينة الملاهي التي تعمل صيفا ولا يفتا يؤمها

الناس في جموع كبيرة . ولكنها لا تعمل شتاء . فالى أين نذهب؟»

- « ما رأيك في ذلك المقهى هناك ؟ »

www.library4arab.com/vb

- « أذن فلنذهب اليها . . . »

ومررنا أسفل بوابة المدينة حيث رأينا في مواجهتنا بابا زجاجيا مضاءا في الطابق الارضى وسط صف من المنازل الصغيرة . ولم أدرك الا عندما دخلت المحل انه ذلك المقهى الذى تناولت فيه وجبة مع أمى وجينو وأنذر فيه جينو ذلك الشاب المخمور المزعج بأن يلزم حدوده . ولم يكن هناك سوى اثنين او ثلاثة من الرواد الذين جلسوا الى الموائد المكسوة بالرخام وراحوا يتناولون طعامهم من لفائف الصحف ويجرعون نبيذ المحل . وكان الجو في الداخل ابرد منه في الخارج وقد حمل الهواء رائحة المطر والنبيذ ونشارة الخشب . كما بدا لى ان المواعد كانت مطفأة . جلسنا في احدى زوايا المطعم حيث أمر رفيقى بزجاجة من النبيذ .

فسألته قائلة : « ومن ذا الذى سيشرّب زجاجة ؟ »

- « لماذا ؟ ألا تشربين ؟ »

- « انى لا أشرب الا قليلا . . . »

فصب انفسه قدحا ملاء حتى حافته ثم جرعه دفعة واحدة ، ولكن في مشقة وبغير لذة . وقد اكدت لى تلك الحركة ما كنت قد لاحظته فيه من قبل . . انه يفعل كل شيء بقوة ارادته وبطريقة ظاهرية دون أن يسهم فيه بروحه وكأنه يؤدي دورا تمثيليا . ثم خيم علينا الصمت لحظة وهو لا يفتأ يخملق في بنظرته الحادة اللامعة وأنا ادور ببصرى في أرجاء المكان . وقد عاودتنى ذكرى ذلك المساء البعيد الذى قضيته في الحانة مع أمى وجينو ولم أتأكد مما اذا كان شعورى أسفا أم سخطا . فلا شك اننى كنت وقتذاك أتسئم قمة السعادة ولكننى كم كنت مخدوعة ! وأخيرا وصلت الى نتيجة بينى وبين نفسى بأن الامر كان أشبه بالضبط بفتح درج لم يمس أعواما طويلة ولكنك بدلا من أن تعثر فيه على كل الاشياء الجميلة التى كنت تتذمها اذا به لا يعوى سوى خلق بالية وعتة وغبار . فقد انتهى كل شيء . لا جى لغيره حسب بل شبابى وأحلامى الخائبة جميعا . وقد تبين صدق ذلك من قدرتى على استخدام ذكرياتى عن علم وتدبير في التأثير على رفيقى . قلت بلا مناسبة : « اننى لم أعجب بصديقك هذا الذى كان

معنا ولكننى الآن اكاد اشعر بالميل نحوه .. فهو شديد المرح « .
فجانبى قائلا فى اقتصاب : « اولا هو ليس صديقى . وثانيا
لا ظرف فيه مطلقا . »

فانتابتنى الدهشة لما تخلل صوته من عنف . وسألته قائلة فى
رقة : « اتظن ذلك ؟ »

فصب لنفسه قدحا ثم اردف قائلا : « عليك ان تتجنبى ذوى
الفطنة المازحة من الناس كما تتجنبى الطاعون . فان مزاحهم
عادة لا ينطوى على شىء .. اذ ينبغى ان تريحه فى مكتبه ! فهو
لا يعرف المزاح هناك . »

- « أى نوع من المكاتب ؟ »

- « لست أدرى .. لعله مكتب تسجيل .. »

- « وهل يربح كثيرا ؟ »

- « أموالا طائلة .. »

- ما أسعد حظه !

ثم صب لى قليلا من النبيذ . وسألته قائلة : « ولماذا تصاحبه
ما دمت تبغضه الى هذا الحد ؟ »

فقال عابسا : « انه صديق الطفولة . فقد كنا نذهب معا الى
المدرسة . واصدقاء الطفولة جميعا على هذا النحو . »

ثم اضاف قائلا بعد ان تناول جرعة اخرى من النبيذ : « ومع
ذلك فهو يفضلنى فى بعض النواحي . »

- « لماذا ؟ »

- « لانه عندما يقدم على عمل يؤديه فى جد . أما أنا فانى أبغى

القيام به اولا ثم . وفجأة تحول صوته الى نشار فجعلت مدهوشة

ثم اردف يقول : « ثم ما ان اواجه به حتى أعدل عنه . ففى

هذا المساء مثلا - اتصل بى تليفونيا وسألنى ان كنت أرغب فى

الخروج « لصيد » النساء كما يقولون - فوافقت . وعندما التقينا

بكما احسست برغبة حقيقية فى مضاجعتك . ولكننا ما ان عدنا

الى شقتك حتى تلاشت رغبتى تماما . »

فرددت قائلة وأنا انظر اليه : « تلاشت . »

- « نعم . لك لم تعردى امرأتى فى عينى . بل حسنا مرثيا

أو شيئا ما .. أتذكرين عندما لويت خنصرك وألمتك ؟ »

- « نعم . »

- « حسنا . لقد فعلت ذلك لارى ان كنت حقاً على قيد

الحياة - كما أنت الآن - حتى ولو كان ذلك عن طريق ايلامك .
فقلت مبتسمة : « نعم . لاشك اننى كنت على قيد الحياة .

فلنسه ما ألمنى .
والآن بدأت أفهم . فأحسست بالارتياح عندما أدركت انه لم
ينصرف عنى لنفوره منى . ولكن أطوار الناس وطبائعهم على أية
حال ليس فيها ما يستغرب . فما ان يحاول المرء أن يتفهمهم حتى
يجد أن سلوكهم مهما كان غريبا فان الباعث عليه لا يفتأ يبدو مقبولا
تماما . وأردفت قائلة : « اذن فأنا لم اعجبك ؟ » .

فهز رأسه قائلا : « كلا . حقيقة . فسواء أكنت أنت أم أية فتاة
أخرى فلا فرق هناك مطلقا » .

ثم سألته بعد لحظة من التردد قائلة : « ولكنك لست عينا
على أية حال » .

- « يا الهى . كلا ! »

والآن أحسست برغبة ملحة فى مضاجعته وازالة الغربة بيننا
وتبادل الهوى معه . لقد أنكرت ان اباؤه أساءنى ولكنه فى الواقع
ان لم يستنى فلا شك انه ألمنى وجرح كبريائى . اذ كنت أعلم
اننى جميلة وجذابة ولم أصدق ان لديه سببا قويا يحول دون
رغبته فى .

فقلت فى بساطة : « أنصت الى . فلنشرب النبيذ ثم نذهب
الى المنزل لنمارس الهوى » .

- « كلا . فهذا محال . »

- « اذن فأنت تعنى اننى لم أجذبك حتى عندما رأيتنى فى الطريق
لاول مرة ؟ »

- « ليس الامر كذلك . . ولكن فلتحاولى جهدك أن تفهمى .
كنت أعلم ان ثمة حججا لا قبل للرجل بها . فرددت قائلة فى

هدوء متظاهرة بالالم بينما مددت يدي فى نفس الوقت لاربت
بإحدى على وجهه : « من الواضح اننى لا أجذبك » . وكانت

يداي تتميزان بالطول والضخامة والدفء . ولو صح ما يقال من أن
شخصية المرء يمكن ان تتضح فى كفه فان كفى خلو من كل أثر للغلظة

والجفاء على عكس جين سلا التي أحمررت يداها وخشنت ملمسهما
وقبح شكلهما . ثم بدأت أتحمس وجنته وصدغيه وجبهته أسفل

شعره دون أن تفارقه نظرتى لحظة فى الحاح رقيق وحنين عذب .
وتذكرت ان ذلك كان مسلك آستاريتا نحوى فى الوزارة فأدركت

مرة أخرى اننى كنت حقاً أسيرة هواه إذ انه لا شبهة في حب
استاريتا لى وكانت تلك هي حركة الحب ذاته . وظل ساكناً في
أول الأمر لا تحركه لمساتى ثم أجذ ذقنه يرتعش علامة على انفعاله
كما لاحظت ذلك فيما بعد وأرتسم على وجهه تعبير حزين
صبيانى للغاية . فامتلات نفسى شفقة عليه وسررت لذلك الاحساس
لانه يعنى اننى كنت أدنو منه وأتصل به . ثم تتمم قائلاً : « ماذا
تفعلين ؟ اننا هنا في مكان عام » .
فأجبت قائلة في هدوء : « وماذا يهمنى ؟ » .

وكانت وجنتاى ملتهبتين رغم برودة الجو في الحانة . ولم تفتأ
الدهشة تنتابنى كلما رأيت سحابة بخار صغيرة تنبعث من بين
شفاهنا مع كل زفير . قلت : « أعطنى يدك » . فتركنى على
مضض أمسك بها فرفعتها الى وجهى قائلة : « أترى كيف تلتهب
وجنتاى ؟ »

ولكنه لم يجر جواباً . بل نظر الى فحسب بينما راح ذقنه
يرتجف . ودخل المحل شخص ما فدوى صليل الابواب الزجاجية
وسحبت يدى . فتنهد في ارتياح ثم صب لنفسه قليلاً من النبيذ
ولكننى لم ألبث أن مددت يدى مرة أخرى حالما تجاوزنا ذلك
الدخيل ودسستها بين حافتى سترته حيث فككت أزرار قميصه
ولمست صدره العارى بالقرب من قلبه قائلة : « أريد أن أدفئ
يدى كما أريد أن أشعر بضربات قلبك » . ثم أدت يدى ولمسته
تارة بظهرها وتارة براحتها . فقال وهو ينظر الى : « يدك باردة »
فابتسمت قائلة : « ولمكنها لن تلبث الآن أن تدفأ » ومددت
ذراعى ثم مررت بيدي في بطء على صدره وضلوعه الرقيقة
فأحسست بسعادة غامرة لانى كنت أعلم انه قريب منى . وامتلات
نفسى بالحب له حبا فياضاً أغنانى عن حبه أبداً . فأنذرتة قائلة
في مزاح وأنا أحملق فيه : « لن ألبث أن أقبلك » .

فعارضنى قائلاً وهو يحاول أن يضحك أيضاً رغم ذعره الحقيقى :
« لا . لا ! حاولى أن تتحكمى في نفسك ! » .

« الآن فلتنصرف » .
« حسناً . . فلتنصرف ان شئت . »

ودفع ثمن زجاجة النبيذ التى لم تزل فيها بقية ثم غادر الحانة
في صحبتى . والآن كان يبدو عليه الانفعال على طريقته الخاصة

لا بسبب الحب كما كان الحال معي بل بسبب اضطراب غريب
أثارته في ذهنه أحداث المساء . ولقد اكتشفت فيما بعد عندما توطدت
معرفتي به أن ذلك الاضطراب كان لا يفتأ ينتابه كلما صادف لسبب
أو لآخر ظاهرة في شخصيته كان لا يزال يجهلها أو ازداد الملمه بها
لانه كان أنانيا الى أقصى الحدود ولكن بطريقة جذابة - أو الأخرى
انه كان مستغرقا في ذاته . بدأ حديثه قائلا وكأنه يحدث نفسه
بينما كنت أصحبه الى المنزل بخطى مهرولة تكاد تكون راکضة -
« هكذا الحال معي دائما . فلشد ما أتوق الى اتيان عمل ما
ويملؤني الحماس له . كما يبدو كل شيء خاليا من العيوب ولا
يراودني شك في انني سأنفذ ما اعتزمت . وما ان تحين اللحظة التي
يتعين علي أن أعمل فيها حقا حتى ينهار كل شيء فأبدو وكأنني لا
وجود لي - أو الأخرى ان وجودي يقتصر على الجوانب السيئة
منى - فأصير باردا خاملا قاسيا - كما حدث لي عندما لويت
خنصرك » .

كان يتحدث بلهجة شاردة على صورة منساجاة ولغله كان يحس
بنوع من الرضا المرير . ولكنني لم أكن أنصت اليه فلشد ما
استخفني الفرح حتى رحت أسرع الخطى عبر برك الماء بقدمين
مجنحتين . فقلت في بهجة : « لقد قلت لي كل ذلك من قبل .
أما أنا فلم أکاشفك بشعوري . فاني أريد أن اضمك الى بقوة
وأدفئك بجسدي وأحس بوجودك بجانبى وأحملك على أن تفعل
ما لا تبغى . . . ولن أشعر بالسعادة حتى تفعل ذلك » .

فلم ينبس بشيء بل بدا وكأنه لم يسمع ما كنت أقول فلشد ما
كان مستغرقا في تأمل ما كان يقوله هو نفسه . وفجأة دست
ذراعى حول خصره قائلة : « هلا وضعت ذراعك حول خصرى؟ »
فبدا وكأنه لم يسمعي . فتناولت ذراعه ووضعته حول خصرى
بقدر امكاني بنفس الطريقة التي ارتدى بها سترتى . وواصلنا
سيرنا في ارتباك لان كلا منا كان يرتدى معطفا شتويا ثقيلًا ولا
تكاد ذراعانا تحيطان بخصرينا .

وعندما صرنا اسفل البرج المقام فوق الفيلا الصغيرة توقفت
عن المسير قائلة له : « أعطني قبلة » .

فأجابني قائلا : « أعطني قبلة . . . »

« فيما بعد . . . »

« أعطني قبلة . . . »

فاستدارنحوى وقبلته بعنف واضعة كلتا ذراعي حول عنقه ،
بركبت شفتاه ملبقتين فدفت بينهما لساني ثم دفعه بين أسنانه
التي لم تلبث أن انفجرت . لم أكن واثقة من انه سيبادلني
التقبيل ولكنني لم أكن أبالي كما سبق أن قلت . ثم افترقنا
فرايت حول فمه بقعة من أحمر الشفاه حمراء كبيرة متعرجة
جعلت وجهه الجاد يبدو غريبا مضحكا . فانفجرت ضاحكة في
سعادة .

فتمتم قائلا : « لماذا تضحكين ؟ »
فترددت ثم قررت ألا أصارحه بالحقيقة لانني كنت أتمتع
بمشاهدته وهو يهرول بجانبى في جد شديد غافلا تماما عن تلك
البقعة المرسمة على وجهه .
فقلت : « لا شيء . بل انى سعيدة - لا تكثر لى » . ثم
منحته قبلة أخرى سريعة على فمه يخالجنى شعور بأنى أتسنم
ذرا العالمين .

ولكننا ما أن بلغنا الباب الامامى حتى اكتشفنا ان السيارة قد
اختفت .

فقال فى شيء من الضيق - « الآن وقد رحل جيانكارلو فسأضطر
الى السير أميالا لابلغ المنزل . »
ولكننى لم أدع لهجته القاسية تزعجنى . اذ كان لا يمكن لشيء
أن يسيئنى الآن . فان أخطاه صارت تبدو لى فى ضوء خاص
يجعلها محبة تماما كما يحدث عندما يقع المرء أسير الهوى .
فقلت هازة كتفى : « هناك الخدمة الليلية للترام . كما يمكنك
البقاء والنوم معى ان شئت » .
فأسرع يجيبنى قائلا : « لا . لا . ليس هذا » .

ثم دخلنا المنزل وصعدنا الدرج . وما ان بلغنا الردهة حتى
دفعته الى داخل غرفتى . وأخذت أختلس النظر بسرعة الى
داخل غرفة الجلوس . فاذا بها مظلمة فيما عدا النافذة حيث
تسلل شعاع من أحد مصابيح الطريق فأضاء المقعد وماكينه
الخطاطة . فلا ريب أن امى قد أتت لى فراشها وتسللت ان
كانت قد رأت جيزيلا وجيانكارلو وتحدثت اليهما . ثم أغلقت
الباب مرة أخرى ودخلت غرفتى . فاذا به يندرع الغرفة فى قلق
ما بين الفراش وخزانة الملابس .
قال : « أنصتى . يحسن بى أن أنصرف » .

فتظاهرت بانى لم اسمعه وخلعت سترتى ثم علققتها . ولشد ما
أجسست بالسرور حتى اننى لم اتمالك نفسى من أن أقول بكل
خيلاء ربة الدار : « ما رأيت في هذه الغرفة . ليست مريحة لا »

وأخيرا أجال بصره في الغرفة ثم صعر وجهه بطريقة لم أفهمها .
فأمسكت يده وأجلسته على الفراش قائلة : « الآن دع لى كل
شئ » . فنظر الى وهو جالس هناك وقد رفعت ياقة معطفه
ودست يده في جيبه . فخلعت عنه معطفه منحية آياه في عناية
وحرص ثم خلعت سترته وعلقتهما على حمالة الملابس ، وحللت
رباط عنقه في تودة ثم نزعت عنه قميصه وبه رباط العنق وعلقته
على أحد المقاعد . وبعد ذلك جثوت على ركبتى واضعة قدمه في
حجرى كما يفعل الاسكاف ونزعت حذاءه وجوربه ثم قبلت قدميه .
وكنت قد بدأت ذلك العمل في ببطء وترتيب ولكن نوعا من جنون
الذلة والخشوع أخذ ينتابنى رويدا رويدا وأنا أخلع له ملابسه .
ولعله نفس الشعور الذى خالجنى عندما ركعت في الكنيسة .
ولكنه راودنى لأول مرة ازاء رجل فأحسست بالسعادة لاننى
تأكدت من ان ذلك هو الحب الطاهر البعيد كل البعد عن الشهوانية
والرذيلة . وعندما تجرد من ثيابه ركعت بين فخذيته وأحطته
بذراعى متحسنة جسده وكأنى ممسكة بين يدي بزهرة غامضة
ثم ضغطت لحظة بوجنتى وشعرى على بدنه في قوة وقد أغمضت
عيني .

وتركنى أفعل ما أشاء . ولشد ما أمتعنى تعبير وجهه الحائر
المذهول . ثم نهضت واقفة وذهبت الى خلف الفراش حيث خلعت
ملابسى بسرعة وتركتها تسقط جميعا على الارض ثم وطئتها بقدمى .
وكان لايزال جالسا على حافة الفراش وهو يرتجف منكسا عينيه .
فجئت من خلفه وقد تملكتنى نوبة مرحة من العنف فأمسكت به
ودفعته فسقط على الفراش ملقيا رأسه على الوسائد وكان جسده
طويلا نحिला أبيض البشرة . والاجساد كالوجوه لها تعبيرها الخاص
وكان تعبيره غضا عفيفا . ثم تمددت بجانبه وقد حاذى جسدى
قامته بطولها وشعرت كم كان جسدى متأرجح الرأس قوى البنية
أسمر البشرة ملفوف القوام بالقياس الى نحوله وهزاله وبروده
وبياضه . تشبثت به في عنف وضغطت بجسدى على حقويه ثم
ألقيت بذراعى على صدره وقد التصق وجهى بوجهه ولامست
شفتاي أذنه . أحسست وكأنى لا أريد مضاجعته بل أن ألفه

بجسدي كالذئب الدافئ وان انفس فيه من لظاي . كان مضالجمما
الى الخلف وقد ارتفع رأسه قليلا وفتحت عيناه وكأنه يريد أن
يراقب كل ما كنت أفعله . وسرت نظرتة الحادة في عمودي الفقرى
فتولاني شعور غريب بالضيق والقلق . ومع ذلك فاني لم أعرها بالا
مدة لحظة لانني كنت منقادة بدفعتي التلقائية الاولى .
وفجأة تمتت قائلة : « الا تشعر الآن بتحسن ؟ » .
فأجابني قائلا بلهجة بعيدة محايدة : « نعم » .
فقلت : « انتظر » .

ولكنني في نفس اللحظة التي اوشكت فيها على معانقته في حماس
متجدد اذا بي أحس مرة أخرى بنظرتة الثابتة الباردة تمتد مشدودة
على ظهري وكأنها قطعة من السلك البارد المتبل فاعترائني الخجل
فجأة وانتابتني الحيرة . فحمد سعار النشوة في بدني وتراخي عناتي
روييدا ثم تهاويت على ظهري متفصلة عنه . لقد بذلت
جهدا كبيرا في مضاجعته وأودعتها كل ما في القنوط الفطري الساذج
من قوة دافعة . فأغرورقت عيناي بالدموع عندما أدركت فجأة ان
جهودى قد باءت بالفشل ووضعت ذراعى على وجهى لاخفى عنه
بكائى . وكان واضحا اننى اخطأت فقد عجزنا عن ممارسة الهوى
كما خيل لى ان حكمه على حقيقتى لا ريب خال من كل أثر
للوهم . فعرفت الآن اننى كنت أعيش في نوع من السحاب الذى
صنعتة من حولى حتى لا أرى صورتي منعكسة على ذهني . وأما
هو فعلى العكس من ذلك قد بدد بنظراته ذلك السحاب ووضع
المرآة مرة أخرى أمام عيني . ورأيت نفسى كما كنت على حقيقتى
أو بعبارة أدق كما بدوت في نظره بلا شك لاننى لم اكن أعلم شيئا
ولا يدور بخلدى شيء عن نفسى . فانى كما سبق ان قلت لم أكد
أومن بوجودى .

وأخيرا قلت : « اذهب » .
فنهض متكئا على أحد مرفقيه ونظر الى فى ارتباك قائلا : « لماذا ؟
ماذا دهاك ؟ » .

فقلت في هدوء دون أن أرفع ذراعى عن وجهى : « بحسن بك
أن تذهب . ولا تعتقد اننى غاضبة منك - ولكننى أرى أنك لا
تشعر بشيء نحوى ولذا - . . » ولم أتم عبارتى بل هزرت رأسى .
فلم يحر جوابا ولكننى أحسست به وهو يتحرك تاركا مكانه
بجانبي ليرتدى ملابسه . ثم شعرت بألم مبرح وكان بي جرحا

عميقا وان شخصا ما أخذ يسبر جوفه بنصل حاد رفيع . فكنت
أتألم وأنا أنصت إليه أثناء ارتدائه ملبسه وكنت أتألم عندما يدور
بفخذي انه ذاهب الى الأبد بعد وضع لحظات رائتي لن أعود ان رويته
وكنت أتألم لآلى ومعاناتى .

أخذ يرتدى ملبسه فى ببطء ولعله كان يتوقع ان ادعوه مرة
أخرى . وأذكر ان الامل راودنى لحظة فى استيقاظه عن طريق
استشارة رغبته فى . فقد كنت مضطجعة بجانبه والذئار يغطى
جسدى . فاذا بى الآن أحرك ساقى فى دلال يائس وحزين
لينزلق الذئار عن جسدى . ولم يحدث لى قط من قبل ان عرضت
نفسى على تلك الصورة . واذا بى واذا أرقد هناك عارية فارجة ما
بين ساقى واضعة ذراعى على عيني يكاد يراودنى وهم محسوس
بأن يديه على كتفى وان فمه على فمى . ولكننى ما لبثت عندئذ ان
سمعت الباب يفلق .

ظلت فى مكانى راقدة على ظهري بلا حراك . واعتقد اننى انتقلت
من الاسى الى نوع من الخمول ثم استغرقت فى النوم على غير وعى منى .
ولكن ما ان تقدم الليل حتى استيقظت وأدركت لأول مرة اننى
وحدى . ففى خلال فترة نومي الاولى لم يفارقنى احساس بوجوده
معى رغم ما عانيته من مرارة لرحيله . ثم عاودنى النوم على صورة ما .

الفصل الثانى

وفى اليوم التالى ادهشنى ان اجد نفسى فى حال من الهزال والكتابة واللامبالاة وكأنى أتمائل للشفاء من علة لازمتنى شهرا كاملا. وكنت اتميز بطبيعة مرحة . ولم يفتأ مرحى الذى يرجع الى حيوتى وصحتى الجسمانية يتغلب على كل ما حل بى من كوارث الى حد ان احساسى بالمرح على الرغم منى حتى ولو كانت الظروف لا تبرر ذلك حقا كان يضايقنى أحيانا . فكنت فى كل يوم مثلا حالما استيقظ من نومى أحس عادة بالرغبة فى الغناء أو فى سرد حديث أسلى به أمى . ولكننى فى ذلك الصباح كنت افتقر تماما الى تلك البهجة اللا ارادية بل احساسى بالآلم والتبدل والافتقار التام الى ما كنت أجد من لذة جياشة مندفعة ازاء الساعات الاثنتى عشرة التالية من الحياة التى لا بد ان يمنحها النهار . وزعمت لأمى التى لاحظت على الفور سوء حالتى النفسية اننى لم أنعم بنوم هادى .

ولقد صدقت فيما قلت الا اننى أرجعت السبب فى ذلك الى احد الآثار المتعددة للامتحان العميق الذى فرضه جياكومو على روحى بنبذه اياى . وكما قلت من قبل فأننى لم أعد أبالى بما كنت عليه ولم أستطع ان أرى سببا يمنعنى فى نظرى من ان أكون كذلك . ولكن الأمل كان لا يفتأ يراودنى فى ان أجد من أحبه ويحببنى . وخيل لى ان اباء جياكومو رغم ما أبداه من أسباب معقدة كان يرجع كله الى مهنتى التى ما لبثت لهذا السبب ان صارت فى نظرى بغيضة لا تحتمل .

ان حب الذات وحش غريب الاطوار قد يرقد نائما تحت اقصى الضربات ثم يستيقظ وقد أصيب لاتفه الخدوش بجراح قاتلة . فثمة ذكرى واحدة قبل غيرها من الذكريات قد أصابتنى فى الصميم وملا تسمى بالمرارة والحجل . تلك هى ذكرى عبارة فهدت بها فى الليلة السابقة وأنا أعلق سترتى حين قلت : « ما رايك فى هذه الغرفة ؟ الا ترى انها مريحة ؟ » .

وتذكرت انه لم يحببنى بل اجال بصره فى انحاء الغرفة مصعرا وجهه على صورة لم أفهمها حينذاك . ولكننى أدركت الآن انها

كانت تعبيرا عن النفور . فلا شك انه كان يحدث نفسه قائلا :
« انها غرابة نفى » . وعندما تذكرت عبارتي أخذت أتوي من الألم
لما راودنى اثناء نطقى بها من كبرياء شد ما كانت ساذجة صريحة .
وكان ينبغي أن أدرك أن غرفتي في نظر أى شخص متحضر حساس
مثله لأبد أن تبدو حظيرة قدرة بل ومما يزيد في قبحها ذلك الاثاث
الذى كان غاية في التواضع وما استخدم فيه من أغراض .
وتمنيت لو لم أفه قط بتلك العبارة المشؤومة . ولكنها كانت
قد خرجت من بين شففتى ولم يعد فى وسعى الآن أن أفعل شيئا
قبلها . لقد بدت لى تلك العبارة أشبه بسجن لا سبيل مطلقا الى
الهرب منه بأية وسيلة ممكنة . اذ انه كان من الممكن اثبات شخصيتى
بتلك العبارة على صورة لا تقبل النقض أو التعديل فقد جعلت من
نفسى ما كنت عليه بحر ارادتى . وكان نسيان تلك العبارة أو
التظاهر أمام نفسى بأنى لم أفه بها قط أشبه بنسيان نفسى أو
التظاهر أمام نفسى بأنى فى حكم العدم .

وكان تأثير تلك الخواطر فى نفسى كتأثير السم البطيء الذى يسرى
فى عروقى نافشا الاذى فى أعلى دمايى . ومع أننى فى الصباح كنت
أحاول عادة أن أطيل فترة خمولى فان لحظة نفورى من ملاء الفراش
حين يلتقى بها جسدى بعيدا كانت لا تفتأ تعين فيثب منه
وكانه يتحرك بارادة من لدنه . ولكن ما حدث يومئذ كان على
النقيض من ذلك فقد مر الصباح كله وحين وقت الغداء غير أننى مع ذلك
لم أستطع حراكا رغم محاولتى أن أحث نفسى على النهوض .

اذ أحسست انى حبيسة الفراش خاملة الذهن عاجزة عن كل شىء
كسول بليدة . وفى نفس الوقت كنت أحس بالألم فى جميع أجزاء
جسدى وكأنى قد بذلت جهدا كبيرا يائسا لا يبلغ ما كنت فيه من
جمود عن الحركة . أحسست وكأنى قارب من تلك القوارب القديمة
المتداعية التى تسحب أحيانا الى المرسى فى خليج رخو زلق وقد
امتلا جوفها بمياه عفنة سوداء . ولو اعتلى أحد متنها تداعت فى
الحال ألواحها المتآكلة واذا بالقارب الذى ربما مكث هناك سنين
عريضة يفرص فى المسبح المصير . ولست أتوي كم طال رقادى على
تلك الصورة ملتحفة فى ضيق البطاطين ومحملة فى فراغ وقد غطتني
الملاء حتى أنفى . وسمعت الاجراس تعلن انتصاف النهار ثم سمعتها
تدق الواحدة والثانية والثالثة والرابعة . وكنت قد أوصدت باب
غرفتى فكانت أمى لا تبرح تاتى من وقت لآخر لتطرق الباب فى قلق .

وكنت أقول لها في كل مرة اننى لم ألبث أن أنهض من الفراش وأن
عليها أن تدعنى وشأنى .
وعندما أخذ الضوء يخبو استجمعت شجاعتي ثم أبعدت البطاطين
عنى ونهضت من الفراش باذلة في ذلك مجهودا كان من الواضح انه
يفوق طاقة البشر .

وكانت اطرافي مثقلة بالخمول والنفور . فكنت أثناء اغتسالى
وارتداء ثيابى لا أسير على قدمى بل أجر نفسي جرا هنا وهناك .
وكان ذهنى صفحة بيضاء . فكنت لا أدرى الا اننى في ذلك اليوم
على الاقل افتقد الرغبة تماما فى الخروج لاقتناص عشيق : ذلك
الخاطر الذى لم يكن وليد عقلى فحسب بل جسدى بأكمله . وحالما
ارتديت ثيابى ذهبت إلى أمى وأخبرتها اننا سنقضى المساء معا واننا
سنخرج للنزهة فى المدينة وبعد ذلك نحتسى الفيرموت فى أحد المقاهى .
وقد ضايقتنى فرحة أمى بتلك الدعوة التى لم تألفها ولم أدر لذلك
سببا . ولاحظت مرة أخرى فى غير رفق كم ترهلت وجنتاها
المنتفختان وكم ضاقت عيناها اللتان التمتعا بوميض مرتعش مهتز .
ولكننى كبت رغبتى فى أن أوجه إليها ملاحظة جافة ربما أودت
بسعادتها . ثم جلست الى المائدة فى الغرفة ذات الاضاءة الخافتة
فى انتظارها حتى ترتدى ثيابها . وكان الضوء الابيض المنبعث من
مصباح الطريق يتسلل خلال النوافذ العارية من الستائر فيلمع
منعكسا على ماكينة الخياطة كما يضىء أحد الجدران . وخفضت
عيني الى المائدة حيث لمحت فى الضوء الخافت صفوفًا من أوراق
البيشانس ذوات الصور البهيجة التى اعتادت أمى أن تخفف بها
من سأمها أثناء الاماسى الطويلة التى تقضيها وحدها . وعندئذ
خالجنى فجأة احساس غريب . فقد خيل لى اننى أمى - أمى
نفسها بلحمها ودمها تنتظر أن تفرغ ابنها آدريانا من مضاجعة أحد
عشاق الطريق فى الغرفة المجاورة . ولعل مبعث ذلك الاحساس
اننى كنت جالسة فى مقعدها والى مائدتها وأمام أوراقها . فلا شك
ان الاماكن أحيانا تستحضر المشاعر على هذه الصورة . فالكثيرون
من الناس عندما يزورون سجنا مثلا يخيل لهم انهم يشعرون بما
يشعر به السجين الذى رزح هناك فترة من الزمان من برودة ويأس
واحساس بالعزلة . ولكن غرفة الجلوس لم تكن سجنا كما لم تكن
آلام أمى ثقيلة أو من اليسير تخيلها الى هذا الحد . بل اعتقد أنها
كانت تعيش كما عاشت دائما . ومع ذلك فان الاحساس البديهي

بحياتها كان خليقا بأن يورثني نوعا من التغير الجسماني ولعل ذلك يرجع الى ذلك الشعور العدائي الذي راودني قبلها منذ لحظة واحدة . فعندما يريد ذوو النفوس الطيبة من الناس أن يلتصقوا بالذعر لعمل يستحق اللوم فهم يقولون أحيانا « صعي نفسك كانها » حسنا . لقد وضعت نفسي مكان أمي في تلك اللحظة حتى صرت مقتنعة بأنني هي .

هكذا كنت ولكنني في نفس الوقت كنت أدرك ذلك كما لم تفعل هي بالطبع والا لتمردت بطريقة ما . وفجأة أحسنت بالذبول والتفضن والعجز وأدركت معنى الشيخوخة وكيف انها لا تغير الجسد فحسب بل تصيبه بالضعف والعجز . كيف كان منظر أمي ؟ لقد رايتها أحيانا وهي تخلع ثيابها فلاحظت دون تفكير تقلص ثديها المترهلين بلونهما الضارب الى الشبهة كما لاحظت شحوب بطنها المسترخي . والآن أحسنت في نفسي بهذين الثديين اللذين أرضعاني وذلك البطن الذي أنجبني فلم أستطع أن المسهما . وبدا لي انني احس بنفس الاسى والالم العاجز اللذين خالجا أمي بلا ريب لمنظر جسدها المتغير . فان الشباب والجمال يضفيان على الحياة جمالا وبهجة . ولكنهما عندما يذهبان ؟ واقشعر بدني رعبا . وما ان نفضت عن نفسي لحظة ذلك الكابوس حتى هنأت نفسي بأنني في الحقيقة أدريانا التي اجتمع لها الشباب والجمال وبأنني لا أشترك في شيء مع أمي التي فقدت الشباب والجمال ولن تستعيدهما مرة أخرى .

وفي نفس الوقت بدا ذهني وكأنه جهاز توقف عن العمل ثم أخذ يستعيد سرعته تدريجيا فأنشأ يصور لي افكارا لا ريب انها خطرت لها اثناء انتظارها عودتي وحيدة في الفرقة . وليس من العسير مطلقا ان يتخيل المرء خواطر شخص كأمي في مثل هذه الظروف . غير ان تلك الخواطر عند معظم الناس هي بالضرورة وليدة التعنيف والاحتقار . وهم في الواقع لا يتخيلون بقدر ما يصيغون لانفسهم نوعا من الدمى يصبون عليه جام عداوتهم . ولكنني لما كنت أحب أمي ولما كنت أضع نفسي مكانها عن حب فقد كنت أعلم ان خواطرها في مثل هذه اللحظات لم تكن انانية أو مخيفة أو مخجلة بل لم تكن تمت في الواقع بأية صلة لما كنت أقوله أو ما كنت عليه . والأحزني انني كنت أعلم ان خواطرها كانت عارضة تافهة كتلك التي تخطر على ذهن عجوز جاهلة فقيرة وذلك لانها لم تستطع قط أن تؤمن بشيء واحد يومين متتاليين دون أن تتناقض في حدة بالضرورة .

www.library4arab.com/vb

اما الافكار العظيمة والعواطف العميقة حتى ولو كانت سلبية حزينة فانها تحتاج الى مأوى وفترة للنمو فهي نباتات رقيقة تتطلب زمنا لتدري وتربسج جذورها . ولكن امى لم تستطع قط ان تفرغ في ذهنها او قلبها سوى اعشاب سرعان ما تذوى وتموت وكان قوامها خواطر يومها واحنه ومشاغله . وهكذا امكننى ان ابيع نفسى في مقابل النقود بل ذلك هو ما كنت افعله في الواقع فى غرفتى الخاصة . ولكن امى كانت وهى جالسة فى غرفة الجلوس امام اوراق البيشانس لا تفتأ تقلب فى ذهنها ذلك الهراء المعهود لو امكننا ان نطلق هذا الوصف المنصف على الاشياء التى عاشت من أجلها منذ طفولتها حتى اليوم مثل ثمن الطعام والقييل والقال بين أهل الحى وتصرفات أهل الدار التافهة والخوف من الحوادث والاعمال المنوطة بها وتفاهات أخرى من هذا القبيل . ولعلها كانت على الأكثر تنصت كل يوم الى دقات الساعة الكامنة فى برج مجاور ثم تلوح لها بعض الخواطر دون أن تعلق عليها أهمية كبرى مثل : « لقد تأخرت آدريانا عن مألوف عاداتها فى هذه المرة » . أو تحدث نفسها قائلة عندما تسمعنى أفتح الباب وأردد كلمة أو اثنتين فى الردهة : لقد فرغت آدريانا » . ثم ماذا ؟ ها أنذى فى تخيالاتى قد صرت امى نفسها جسدا وروحا وأحسست انى أحبها من جديد بل أكثر من ذى قبل لا لسبب الا لاننى استطعت أن أضع نفسى مكانها بكل صدق واخلاص وعلى صورة عارية من كل زيف .

www.library4arab.com/vb

واذا بضوضاء الباب وهو يفتح توقظتى من ذلك الحلم الذى كان يترأى لى . فقد كانت امى توقد المصباح قائلة : « ماذا تفعلين فى الظلام ؟ » فقفزت واقفة أنظر اليها وقد انتابتنى الدهشة فقد لاحظت من أول نظرة انها كانت ترتدى ثيابا جديدة . ولكنها لم تضع قبعة على رأسها لانها لم تلبسها قط من قبل . بل كانت ترتدى ثوبا أسود متقن الصنع وتحمل على ذراعها حقيبة كبيرة سوداء من الجلد ذات قفل معدنى أصفر اللون الى حد ما وتضع حوال عنقها فراء هريا قصيرا . أما شعرها الأشيب فقد بللته وسرخته بعناية وقد جذبته بقوة فوق رأسها حيث عقصته فى عقدة صغيرة تحللتها المشابك . بل لقد دوت بعض السحوق الأحمر على وجنتيها العجفاوين الدايلتين اللتين بدتا الآن شديدتى الحمرة . ولم أكد أتمالك نفسى من الابتسام عندما رأيتها متأنقة فى ملابسها جادة فى مظهرها على هذه الصورة . فنهضت قائلة بلهجتى العاطفية

المهودة : « يحسن بنا أن نذهب » .

وكنت أعلم ان امي تجد متعة في السير على مهل خلال الشوارع الرئيسية حيث توجد أفخم محال المدينة ، وذلك عندما تكون حركة المرور على أشدها ، فركبنا الترام ونزلنا منه عند نهاية شارع فياناسيونالي . وكانت أمي تصحبني للنزهة في ذلك الطريق عندما كنت طفلة صغيرة . فكانت تبدأ نزهتها من ميدان دلزدراف على الافريز الايمن ثم تتقدم في بطء وهي تمعن النظر في كل واجهة من واجهات المحال حتى نبلغ ميدان فينيسيا ثم نعبث الطريق ونعود الى ميدان دلزدراف وهي لا تزال تنظر في أمعان الى كل ما يعرض في واجهات المحال ساحبة اياي من يدي . وبعد ذلك تصحبني الى المنزل متعبدة يغالبني النعاس دون أن نشترى شيئاً أو نجرؤ على دخول أحد المقاهي العديدة التي نمر بها . وأذكر انني لم أكن أتمتع بتلك النزه لانني على عكس أمي التي بدت قانعة بمشاهدة واجهات المحال في دقة وتلذذ متخذة منها قوتاً تشبع به شهوتها كنت أبغى دخول المحال وابتياح بعض الاشياء العديدة الجميلة الجديدة المعروضة للبيع في الواجهات خلف بلورها اللامع وفي ضوئها الساطع ثم احملها معي بعد ذلك الى المنزل . ولكنني أدركت منذ طفولتي الباكرة اننا فقراء فلم أعبر عن مشاعري بأية صورة من الصور . ولم يحدث سوى مرة واحدة - ولا يحضرنى السبب في ذلك - ان انتقيت شيئاً أعجبني . فاذا بنا نسير في الطريق المزدحم بسرعة مضاعفة بينما تسحبني أمي من ذراع واحدة وأنا أقاومها بكل ما أوتيت من قوة صارخة باكية الى أن عيل صبرها في النهاية فلطمتنى على أذني بدلا من اعطائي ما كنت أتوق اليه . وكانت كل لطفة من لطفاتها المتتالية تنسيني ألم الحرمان مما كنت أبغى وأشتهى .

وها أنذى الآن أقف مرة أخرى في الطرف القصي من الافريز المواجه لميدان دلزدراف متعلقة بذراع أمي وكأن شيئاً لم يتغير بعد كل تلك السنين . فهنا كانت الافارين تعج بالاقدام التي انتعلت الاحذية القصيرة والاحذية المتوسطة والاحذية الطويلة والاحذية ذات النعال المرتفعة والاحذية ذات النعال المستوية والبعض يرتدى خفافاً . وكان مجرد النظر اليها جميعاً خليقاً بأن يسبب المرء بالدوار . وراح الناس يذرعون الطريق مثنى أو في جماعات من الرجال والنساء والاطفال أو فرادى بعضهم يسير على مهل والبعض على عجل وجميعهم متماثلون . ولعل ذلك راجع الى رغبتهم في التباين فحسب

فقد تشابهت ملابسهم وشعورهم ووجوههم وعيونهم وأفواههم .
فهنا كان الفراون والاساكفة وباعة الأدوات الكتابية وتجار
المجوهرات وصناع الساعات والكتبيون وباعة الزهور وتجار
الاقمشة ومحال اللعب وتجار الادوات المعدنية وباعة القبعات
والجوارب ومحال القفافيز والمقاهي ودور السينما والبنوك . هنا
كانت النوافذ المضاءة في المباني الكبيرة حيث يتحرك الناس في أرجاء
الغرف أو يعملون الي مكاتبهم . أما اللافتات الكهربائية فلم تكن
تغير مطلقا . وعلى نواصي الطريق كانت تقوم اكشاك الصحف ويقف
باعة القسطل والعاطلون من باعة ورق البخور وحلقات المطاط
للمظلات . وهنا كان يقف الشحاذون . فتمة رجل أعمى على عينيه منظار
أسود يقف على ناصية الطريق وقبعته في يده وقد ارتقى رأسه الي
الخلف مستندا الي الحائط . وعلى مسافة منه تجلس امرأة نصف
وهي ترضع طفلها من ثديها المتقلص . وعلى مسافة أخرى يقف
رجل أبله تبدو في مكان يده جزمة صفراء لامعة كمفصل الركبة .
وما ان وجدت نفسي مرة أخرى في ذلك الطريق وبين تلك الاشياء
المألوفة حتى خيل لي انني لا أستطيع حراكا مما أصابني بقشعريرة
عميقة وأشعرني بالعري الوقت وكان نسمة الخوف المثلجة كانت
تمر بين بدني وثيابي . وثمة صوت صاحب منفعل لامرأة تفنى
أخذ ينبعث من الراديو في أحد المقاهي القريبة منشدا اغنية « بابي
الصغير ذو الوجه الاسود » . فقد كان ذلك خلال حرب الحبشة .

ولم تدر أُمي بالطبع ماذا كان شعوري . فلا شك انني لم
أكشف لها عنه . وكما قلت من قبل فاني أبدو رقيقة الطبع سهلة
الانقياد معتدلة المزاج حتى انه لیتعذر على الآخرين من الناس أن
يتكهنوا بما يدور في خلدي . ولكن مشاعري غلبتني في لحظة من اللحظات
« والآن أخذ صوت المرأة يشدو بأغنية عاطفية » . فارتعشت
شفتاي . وخاطبت أُمي قائلة : « أتذكرين حينما كنت تصحبي نيني
لندرع هذا الطريق حيث نتأمل واجهات المحال ؟ » .

فأجابت قائلة : « نعم . ولكن كل شيء حينذاك كان أرخص منه
الآن - فهذه الحقيبة مثلا - كان في امكانك عندئذ ان تحصلى عليها
لقاد ثلاثين ليرة » .
ثم انتقلنا من محل السلع الجلدية الي محل المجوهرات حيث
توقفت أُمي عن المسير لتتأمل الحلوى . وهتفت قائلة في نشوة :
« انظري ! تأملی فقط هذا الخاتم ! يعلم الله كم يبلغ ثمنه - وهذا

السوار الذهبى الثقيل ! ولكننى لا أحس بشصف شديد نحو
الخواتيم والاسورة - بل تعجنى القلائد الجميلة . فقد كنت أملك
فى يوم من الأيام قلادة من المرجان - ولكننى اضطرت عندئذ الى
بيعها » .

- متى ؟ ..

- منذ سنوات الآن .

ولقد تذكرت - ولست أدرى لذلك سبب - أننى حتى الآن وعلى الرغم
من كل مكاسبى المهنية لم أستطع قط أن أبتاع لنفسى حتى أبسط
الخواتيم . وقلت لأمى : « اتعلمين اننى قررت الا اصحب رجالا
الى المنزل بعد ذلك . لقد فرغت من كل هذا » .

ولم يسبق لى أن ذكرت مهنتى لأمى بمثل هذه الصيغة التفصيلية
وقد ارتسم على وجهها تعبير عجزت عن فهمه حينذاك . ثم قالت :
« لقد قلت لك مرارا ان تفعلى ما تشائين . فأنا سعيدة ما دمت
أنت سعيدة » .

ولكنها لم تبد سعيدة ، وأردفت قائلة : « فسنضطر الى
مواصلة الحياة التى كنا نحياها من قبل . وستضطرين الى قص
القمصان وحياتها من جديد .. »

فقلت : « لقد زاوت هذا العمل سنين عديدة » .

وألححت قائلة فى شىء من القسوة : « ولن تتوفر لدينا نقود
كثيرة كما هى الحال الآن . فقد تدللنا أخيرا الى حد ما . ولست
أدري أنا نفسى ماذا أفعل ؟ » .

فسألتنى أمى قائلة فى أمل : « وماذا تفعلين ؟ » .
فأجبت قائلة : « لست أدرى . ربما عدت الى عملى كنموذج أو
عاونتك فى عمك » .

فقلت بلهجة مشبعة للعزم : « وفيم يمكنك معاونتى ؟ » .

فأردفت قائلة : « أو يمكننى الالتحاق بخدمة المنازل . فماذا
هناك من أعمال ؟ » .

والآن بدا لى وجه أمى حزينا تعسا وكأنها فقدت فى لمح البصر
كل ما كانت تتمتع به أخرا من وسائل الراحة البدنية كما تفقد
الأشجار أوراقها الذابلة حالا تسرع فى الجو برودة الخريف . فرددت
قائلة فى اقتناع : « يجب ان تفعلى ما تشائين ما دمت سعيدة .
ليس لدى ما أقوله أكثر من هذا » .

وأدركت أنها كانت تتنازعها عاطفتان متعارضتان : حبها لى ،

وتعلقها بيسر الحياة . ولقد أسفت لها وكنت أفضل أن يكون لديها من الشجاعة ما يجعلها تنازل الى الأبد من إحدى حائلي الماطنين .
أما الحب وأما المال . ولكن ذلك قلما يحدث فاننا نقضى العمر في نسخ آثار فضائلنا بآثار رذائلنا . وقلت لها : « لم أكن سعيدة من قبل ولن أكون سعيدة الآن - ولكنني لم أعد أستطيع مواصلة الحياة على هذه الصورة » .

ثم لزمنا الصمت بعد ذلك . ولشده ما كان وجه أمي شاحبا متقلبا حتى بدا لي وكأنه قد عاوده نحوله وامتقاعه خلف مظهره المتورد . راحت تتأمل واجهات المحال بحماس وتركيز كسابق عهدها . ولكنها كانت تفعل ذلك الآن على صورة آلية دون لذة أو فضول وكان ذهنها مشغول بأمر آخر . فربما كانت عيناها حتى وهي تحمق لا تريان شيئا أو بالأحرى انها لم تكن ترى السلع المعروضة في الواجها بل ماكينه الخياطة بدواستها التي لا تعرف الكلل أو الملل وأبرتها التي لا تفتأ ترتفع وتنخفض في جنون وأكداص القمصان التي لم ينته العمل فيها وقد وضعت على المائدة والمفرش الاسود الذي تعودت أن تحزم فيه ما أنجز من عملها لتحمله عبر المدينة الى عملاتها . أما أنا فلم تكن أمام عيني مثل هذه الرؤى لتحجب عن بصري واجهات المحال . بل كنت أراها في وضوح تام وكانت خواطري في صفاء البللور . وكنت أتبين كل شيء خلف الواجها

الزجاجية وكذلك بطاقات الاسعار واحدة فواحدة . ثم حدثت نفسي قائلة انني ربما كنت عازفة عن الاستمرار في عملي بل هكذا كنت في الواقع ولكن لم يكن هناك بالفعل عمل آخر يمكنني أن أؤديه . فقد كان في وسعي في حدود معينة أن أبتاع معظم الأشياء التي كنت أشاهدها ولكنني لا أكاد أعود الى عملي كنموذج أو أي عمل آخر من هذا القبيل حتى اضطر الى التنازل الى الأبد عن تلك الأشياء وأبدأ أنا وأمي من جديد حياة التقشف والكد المملوءة بالرغبات المكبوتة والتضحية من غير طائل والادخار الذي لا يفنى شيئا - كما انني قد أمنى النفس باقتناء قطعة من الحلوى اذا ما عثرت على من يهني اباهما . في حين أن تلك الامنية تسبح بعيدة المنال بعد الكواكب في السماء لو انني عاودت حياتي الأولى - وغشيتني موجة من النفور نحو حياتي الأولى التي لشده ما كانت قاسية بأسفة على صورة سخيفة . وراودني في نفس الوقت احساس حاد بسخف الاسباب التي من أجلها رغبت في تغيير مهنتي . وذلك ان طالبا

فتنت به أبى أن تكون له صلة بي ! ولاننى اقنعت نفسى بأنه
احتقرنى ! ولاننى وددت لو كنت شيئاً مختلفاً عما كنت عليه فى
الواقع ! وقلت لنفسى أنها كبرى أبى فحسب وأنه لا يمكننى بدافع من
الكبرياء فحسب أن أخوض أنا وأمى بصفة خاصة غمار تعاستنا
الأولى . وفجأة تراءت لى حياة جياكومو منطلقة فى اتجاه آخر بعد
أن التقت بحياتى واختلطت بها لحظة قصيرة ثم ظلت حياتى
تواصل طريقها الذى اتخذته من قبل . وحدثت نفسى قائلة : « انى
أغير حياتى لو وجدت من يحببنى ويبغى الزواج بى حتى ولو كان
فقيراً . أما من أجل نزوة عابرة فإن الأمر لا يستحق العناء » .
وما إن لاح لى ذلك الخاطر حتى امتلأ قلبى بما ينطوى عليه التحرر
من هدوء جميل . وطالما خالجنى ذلك الشعور نفسه منذ تلك اللحظة
لا كلما رفضت ما بدا لى أنه قسمتى فى الحياة بل كلما خرجت
لللقاء مصرى . لقد كنت ما كنت وكان على أن أكون ولا شىء غير
ذلك . فربما كنت زوجة صالحة رغم ما قد يبدو فى ذلك من غرابة ،
أو امرأة تبيع نفسها لقاء النقود . ولكننى لا أستطيع أن أكون
مخلوقة صغيرة تعسة تكذ وتكده طوال حياتها ولا هدف لها من
وراء ذلك سوى ارضاء كبرياتها . وما إن صافيت نفسى حتى
ابتسمت .

وحينئذ كنا نقف أمام محل لازياء النساء وقد عرضت فى
واجهته أنواع من الملابس الحريرية والصوفية . وقالت أمى :
« انظرى . يا لها من قلنسوة جميلة ! ها هى ذى بغيتى بالضبط » .

فرفعت عينى وتأملت القلنسوة التى تعنيها وقد عاودنى هدوئى
وصفاء نفسى . فإذا بها جميلة حقاً يختلط فيها اللونان الاسود
والابيض وعليها زخرف من الطيور وأوراق الشجر . وكان باب
المحل مفتوحاً على مصراعيه ومنضدة العرض واضحة للعيان تعلوها
صينية ذات أقسام صغيرة ملئت جميعها بالقلانس التى تكدمت معاً

فى غير نظام . فسألت أمى قائلة : « أتعجبك ؟ » .
- « نعم .. لماذا ؟ »

- « أذن فستحصلين عليها . ولكن فلتعطينى أولاً حقيبتك
ولناخذى حقيبتى » .

فلم تفهم مرادى وأخذت تحملق فى فاعرة فاجها . ولكننى لم
أنبس بكلمة بل تناولت حقيبتها الجلدية الكبيرة السوداء ووضعت

بين يديها حقيبتى الصغيرة . ثم فتحت قفلى الحقيبة فانفتحت وأبقيتها مفتوحة بين أصابعى ثم دخلت المحل فبسطت يدها كمن تقدم النية على شراء شيء ما . وتبعنى أمى التى لم تفهم شيئاً ولكنها لم تجرؤ على سؤالى .

قلت للبائعة وأنا أتجه نحو الصينية : « نريد أن نرى بعض القلائس ؟ » .

فقلت ملقية بالقلائس أمامى : « هذه من الحرير .. وهذه من الكشمير .. وهذه من الصوف .. وهذه من القطن » .

فاتجهت مباشرة الى المنضدة حيث وضعت الحقيبة فى مستوى بطنى ثم أخذت أفحص القلائس بيد واحدة وأبسطها وأرفعها فى الضوء لأتبين زخرفها وألوانها . وكانت هناك على الأقل اثنتا عشرة قلنسوة اختلط فيها اللونان الأبيض والأسود وجميعها متشابهة تماماً . فجعلت أحداها تنزلق على حافة الصينية فتدلى طرفها فوق المنضدة .

ثم قلت للبائعة : « انى أريد فى الواقع شيئاً أبهى من ذلك » .

فقلت البائعة : « هناك نوع أفضل ولكنه أغلى ثمناً » .
- « فلأره » -

ثم استدارت لتنزل صينية أخرى من فوق الرفوف . وكنت على استعداد لذلك فابتعدت قليلاً عن المنضدة وفتحت الحقيبة . ثم جذبت القلنسوة من طرفها وضغطت بجسدى مرة أخرى على المنضدة ولم يستغرق منى ذلك أكثر من لحظة .

وفى تلك الاثناء كانت البائعة قد أنزلت الصينية من فوق الرف ووضعتها على المنضدة حيث أرتنى بعض القلائس التى كانت أكبر حجماً وأجمل شكلاً . ففحصتها فى هدوء وثؤدة معلقة على ألوانها وزخارفها بل وعارضة أياها على أمى مصحوبة بكلمات الاستحسان التى كانت تجيب عنها بإيماءات من رأسها وهى أقرب الى الموت منها الى الحياة لأنها كانت قد شاهدت ما فعلت .

وأخيراً سألتها قائلة : « وكم يبلغ ثمنها ؟ » .
وما إن ذكرت لى ثمنها حتى قلت فى أسف : « أنك على حق فهى أغلى ثمناً مما نطبق على أية حال .. ومع ذلك فلك الشكر » .

ثم غادرنا المحل واتجهت بسرعة الى كنيسة قريبة خشية أن تلاحظ البائعة السرقة ثم تركض خلفنا خلال الزحام . وأخذت أمى

وهي متعلقة بذراعى تنظر حولها فى حيرة وريبة كمخمور يراوده الشك فيما اذا كان هو المخمور أو ما يراه من أشياء تهتز وتتحرك أمام عينيه . ولم أتمالك نفسى من الضحك لما بدأ عليها من حيرة ودعول . ولم أدر لماذا سرقت القلنسوة . ولم يكن ذلك مهما فى حد ذاته فقد سبق لى أن سرقت « البدارة » من منزل مخدمه جينو . ولا أهمية فى تلك الامور الا للخطوة الاولى . ولكن اذا بى احس من جديد بتلك اللذة الجنسية التى راودتنى فى أول مرة . وخيل لى اننى ادركت الآن السبب فى اقدام الكثيرين على السرقة . وبعد بضع خطوات وصلنا الى الكنيسة التى كانت تقع فى شارع جانبى . فسألت أمى قائلة : « هل ندخل هنا لحظة ؟ » .

فأجابتنى قائلة فى اذعان : « اذا شئت » .

فدخلنا الكنيسة البيضاء الصغيرة ذات الشكل الدائرى التى بدت بحلققتها المزدوجة من الاعمدة المحيطة بأرضيتها المبلطة بالاحجار أشبه بصالة للرقص . وانصب ضوء باهت من خلال نوافذ القبة على صفى المقاعد التى صقلها الاستعمال . فرفعت عينى ورأيت ان القبة كلها كانت تغطيها رسوم الملائكة وقد بسطت أجنحتها فوثقت من ان تلك الملائكة الجميلة الرائعة سوف تحمىنى وأن عاملة المحل لن تلحظ السرقة قبل المساء . ومما ساعد على بث الطمأنينة فى نفسى ذلك الصمت المخيم فى داخل الكنيسة وما شاع فيها من رائحة البخور والظلمة الخفيفة والاحساس بالعزلة على اثر فوضى الطريق وضوئه الذى لشد ما كان قويا ساطعا . ودخلت الكنيسة مهرولة حتى كدت أصطدم بأمى ولكننى سرعان ما استعدت هدوئى . وسكنت مخاوفى . وتظاهرت أمى بالعبث فى حقيبتى التى ما زالت تمسك بها . فقدمت اليها حقيبتها هامسة : « ارتدى قلنسوتك » .

ففتحت الحقيبة ووضعت القلنسوة المسروقة على رأسها . ثم غمسنا أصابعنا فى حوض الماء المقدس وذهبنا لنجلس فى الصف الاول من المقاعد الواحية المذبح الرئيسى حيث جاوت على ركبتي بينما ظلت أمى جالسة فى مكانها وقد وضعت يديها فى حجرها واحتجب وجهها تحت القلنسوة التى كانت أوسع مما ينبغى . وأدركت انها كانت حزينة مفتمة فلم أتمالك نفسى من المقارنة بين هدوئى وغمتها . فأحسست انى فى حال من الصفاء والرضا . وعلى

الرغم من علمي بأنني قد ارتكبت اثماً يحرمه الدين فأنني لم أشعر بشيء من تائب الضمير وكنت أقرب إلى القبي والودع مني وأنا لم ارتكب اثماً سوى الكد والعناء من أجل لقمة العيش. وتذكرت قشعريرة الدهول والحيرة التي سرت في بدني قبل ذلك بلحظة واحدة وأنا أنظر إلى الطريق المزدهم. واستراحت نفسي إلى فكرة وجود أنه يمكنه أن يرى بوضوح من خلالي حيث لا يجد أثراً للشر. كما استراحت إلى أن مجرد وجودي على قيد الحياة خليق بتبرئتي كما هي الحال في الواقع مع البشر جميعاً. فقد كنت أعلم أن هذا الإله لم يوجد للحكم على وادانتى بل لتبرير وجودي الذي لا يمكن إلا أن يكون خيراً ما دام يتوقف عليه مباشرة. وبينما كنت أردد كلمات الصلاة على صورة آية لم افتأ أنظر إلى المذبح حيث بدت لي صورة العذراء الفامضة خلف لهيب الشموع في أطار غير واضح المعالم. وأدركت أن الأمر بيني وبين العذراء لم يكن سلوكي هذا الطريق أو ذاك بل ما هو أهم من ذلك بكثير وهو ما إذا كنت أجد الشجاعة لاواصل الحياة أم لا. وإذا بالشجاعة التي كنت أنشدها تبدو لي فجأة وكأنها تتدفق نحوي من الصورة الفامضة خلف شموع المذبح في شكل احساس مفاجيء بالحرارة يفيض به كياني بأسره. نعم لقد تشجعت على مواصلة الحياة رغم جهلي بها وبالسبب في وجودي على قيدها.

وكانت أمي جالسة هناك حزينة حائرة بينما برزت القلنسوة الجديدة فوق أنفها كالمنقار وعندما استدرت لانظر إليها لم أتمالك نفسي من الابتسام لها في عطف هامسة: « قولي صلاة قصيرة ، فانها تنفعك ». فارتعشت وترددت ثم جثت على مضض وقد ضمت يديها. كنت أعلم انها لم تعد ترغب في الإيمان بالدين إذ بدا لها أنه نوع من العزاء الكاذب الذي يهدف إلى صلاحها ونسيانها قسوة الحياة. ولكنني مع ذلك رأيت شفيتها تتحركان في آية وقد دفعتني تعبير السخط الغريب على وجهها إلى الابتسام مرة أخرى. وكنت أريد أن أطمئنها فأخبرها بأنني قد غيرت رأبي وأنه ليس ثمة ما يزعمها وانها لن تضطر إلى العمل كسابق عهدها. وكان هناك شيء من الصبيانية في عبوس أمي. فكانت أشبه بالطفل الذي حرم من قطعة الحلوى التي سبق أن وعد بها. وقد بدا لي ذلك أهم مظهر من مظاهر سلوكها. والا لتطرق إلى ذهني انها تعتمد على مهنتي في التمتع برفاهتها التافهة. ولكنني كنت أعلم في قرارة

قلبي ان ذلك لم يكن صحيحا .

وما ان تلت صلاتها حتى رسمت علامة الصليب على صدرها في سرعة وعصب وكأنها تريد ان تنظر لي في وضوح انما ما فعلت ذلك الا لترضييني . فنهضت وأشرت لها بالخروج . وما ان بلغت عتبة الباب حتى خلعت القلنسوة وطوتها بعناية ثم أعادتها الى حقيبتها . وعدنا الى شارع « فياناسيونالي » حيث اتجهت الى احد محال الحلوى قائلة : « والان سنشرب قدحا من الفيرموت » . فاحتجت امي قائلة بصوت بدا فيه الرضا والخوف : « كلا ! ولماذا ؟ فانا لسنا في حاجة اليه » . وهكذا كانت دائما منذ عهد بعيد تخشى الاسراف . فقلت : « وماذا يكلف قدح من الفيرموت ؟ ! » فصمتت وتبعتنى الى داخل المحل .

كان محلا قديم الطراز ذا منضدة كبيرة وحاشية من خشب الكابلي المصقول وعدد من الصناديق الزجاجية المملوءة بعلب الحلوى الانيقة . فجلسنا في احد الاركان وطلبنا قدحين من الفيرموت وارتبكت امي لمنظر الساقى فجلست ساكنة مرتبكة وقد نكست عينيها اثناء املائي الطلب . وعندما احضر لنا المشروب التقطت القدح الصغير ولم تأخذ منه سوى رشفة واحدة ثم أعادته مرة اخرى قائلة في لهجة جادة وهي تنظر الى : « انه جيد » .

فاجبتها قائلة : « حسنا . انه فيرموت » . وكان النادل قد احضر حاملا من الزجاج والمعدن به بعض الفطائر . ففتحته قائلة لامي : « خذي واحدة » .

- « كلا . كلا . بحق السماء ! »

- « هيا . خذي واحدة ! »

- « انها ستفسد شهيتي . »

- « قطعة واحدة ! » ثم نظرت الى الفطائر واخترت لها قطعه من

« الميل فوى » وأعطيتها اياها قائلة : « خذي هذه فهي خفيفة » .

فتناولتها وأخذت تقضمها قضمات صغيرة بغير عناية او اهتمام وهي تعاود النظر اليها بعد كل قضة . واخيرا قالت : « لاشك انها الذيرة » .

فقلت : « خذي قطعة اخرى » . وعندئذ قبلت القطعة الاخرى دون حاجة الى ضغط او حث . وعندما احتست الفيرموت واصلنا جلستنا في صمت ونحن نراقب الرواد اثناء دخولهم

www.Library4Arab.com/vb
وخرجهم من المحل . وقد أمكنني أن أرى فرحة أمي بجاوسها
في ذلك الزمان بعد التهامها قلعتي الفطير وقطع الفيوم كما كانت
تلهيها حركة الناس التي لا تنقطع . وقد لاحظت أنه لم يكن لديها
ما تقوله لي . ولعلها كانت لأول مرة في حياتها تزور محلا كهذا
فوقفت تلك التجربة الجديدة حائلا دون تفكيرها في أمور أخرى .

ودخلت المحل سيدة شابة تقود بيدها فتاة صغيرة كانت
ترتدي ياقة فرائية بيضاء كثيرة الوبر وثوبا صغيرا قصيرا كما كانت
ترتدي قفازين أبيضين قطنيين وجوربين من نفس اللون والقماش .
وانتقت الام فطيرة من الحامل الموضوع على المنضدة ثم أعطتها اياها .
فقلت لامي : « انك لم تصحبيني قط الى محال الفطائر وأنا
طفلة صغيرة » .

فسألته أمي قائلة : « وكيف كان يمكنني تحمل ذلك ؟ » .
فاختتمت الحديث بلهجة هادئة قائلة : « والآن اذا بي انا التي
تصحبك الى هنا بدلا من ذلك » .
فصمت لحظة ثم قالت في حزن : « أراك الآن تعيريني
باصطحابي الى هنا . وما كنت أريد المجيء » .
فوضعت يدي على يدها قائلة : « انا لا أعيرك . بل اني فرحة
بذلك . وهل كانت جدتي تصحبك الى محال الفطائر ؟ »

فهزت رأسها قائلة : « اني لم أغادر حينا قط حتى بلغت الثامنة
عشرة من عمري » .

فقلت : « أترين ؟ انكم تحتاجون في الاسرة الى من يقدم في يوم
من الايام على أشياء معينة لأول مرة . فأنت لم تقدمي عليها ولا
أمك بل ربما ام أمك لم تقدم عليها . فما أنذى أفعل هذه الاشياء
اذ انه لا يمكنكم أن تستمروا على هذه الحال الى الابد والى ابد
الآبدين ! » .

فلم تجر جوابا ومكثنا هناك مدة ربع ساعة أخرى نراقب الناس .
ثم فتحت حقيبتي وأخرجت علبة سجائري التي أشعلت منها
واحدة . فان النسوة اللاتي علي شاكلي كثيرا ما يدخن في الاماكن
العامة ليجذبن انتباه الرجال . ولكنني عندئذ لم أكن أفكر في
اقتناص أحد الرجال . بل كنت في الواقع قد قررت ألا أفعل شيئا
من ذلك في تلك الليلة على الاقل . كل ما حدث انني شعرت بالرغبة
في التدخين . فوضعت السيجارة بين شفتي واستنشقت الدخان

ثم نفثته من فمي ومنخري ممسكة بالسيجارة بين اصبعي وأنا
أراقب الناس .

ولكن لا ريب أن حركتي كانت تقسم بشيء من الأثارة . ففقدت
لاحظت في الحال أن رجلا واقفا بالقرب من المنضدة كان يهيم
بارتشاف قدح القهوة الذي يمسك به في يده ثم أحجم عن ذلك
محملا في بنظرة شاخصة وقد ظل القدح في منتصف الطريق الى
شفتيه . كان رجلا في الحلقة الخامسة من عمره قصير القامة ذا
شعر كثيف مجعد وعينين جاحظتين ووجه طويل . ولشد ما امتلأ
جسمه القصير حتى بدا وكأنه بلا عنق . وقف هناك والقدح في
منتصف الطريق الى شفتيه يحملق في كالثور الذي رأى خرقة
حمراء فجمد في مكانه قبل أن يخفض رأسه مهاجما . وكان حسن
الهندام على الرغم من عدم أناقته . فكان يرتدى معطفا محكما
على جسده أبرز عرض كتفيه . فخفضت بصرى وبدأت لحظة أزن
ما له وما عليه . لقد أدركت انه من ذلك الصنف الذي تكفى نظرة
واحدة منى لان تبرز الشرايين في عنقه وان تحيل وجهه أحمر
قانيا . ولكنني لم أكن واثقة مطلقا من ميلى اليه . ثم أدركت
أن رغبتى في اجتذابه قد شدت جسدى بأكمله كما تنبثق العصارة
الخفية من اللحاء الخشن في عدد من براعم الزهور الرقيقة
فاضطرت الى التخلي عن أسلوبى المتحفظ . وكان ذلك بعد
ساعة واحدة من اتفادى قرار تغيير مهنتى . فقلت لنفسي لا
حيلة لى في ذلك وانها أقوى من ارادتى . ولكن خواطرى كانت
مبتهجة للغاية . فمنذ مغادرتى الكنيسة ساد الصفاء بينى وبين
مصريى مهما كان واحسست أن قبولى اياه يفوق فى قيمته كل انكار
للذات بالغا ما بلغ سموه . وبعد لحظة من التفكير رفعت عيني
ونظرت اليه . كان لا يزال هناك كالوحش المفترس والقدح في يده
الغليظة الشعراء وقد تركزت على عيناه البقريتان . وعندئذ بادرت
بالتحرش فرميته بنظرة طويلة مداعبة متغزلة أودعتها كل ما في
طاقتى من ايعاز وإيحاء . والتقت عيناه بعيني فأحمر وجهه كما
توقعت . واحتسى قهوته ثم وضع القدح على المنضدة وسار مختلا
فى معطفه المحكم بخطا قصيرة متصلة متجها الى الخزينة حيث
دفع ثمن مشروبه . وما أن بلغ المدخل حتى استدان نحوى مشيرا
الى اشارة واضحة أمره تنبىء بفهمه . فأجبتة بنظرة قبول .

وقلت لأمى : « والآن سأتركك . ولكنك ستبقين هنا . فلا

يمكننى على أية حال مغادرة هذا المكان فى صحبتك .
كانت تستمتع بكل ما تشاهده فى المحل فجلت منزوعة وهى
تقول : « الى أين تذهبين ؟ لماذا ؟ » فقلت وأنا أنهض واقفة :
« هناك رجل ينتظرنى فى الخارج . هاك النقود .. فلتدفعى ثمن
كل شىء ولتذهبى الى المنزل .. وانى اتوقع ان اكون هناك قبل
قدومك .. ولكننى لن اكون وحدى » .

فنظرت الى فى ذعر وفى نوع من تأنيب الضمير كما بدا لى .
ولكنها لم تنبس بشىء . فأومات لها مودعة ثم غادرت المحل .
وكان الرجل ينتظرنى فى الطريق . وما كدت اغادر المحل حتى انقض
على قابضا على ذراعى فى قوة وهو يقول : « الى أين تذهب ؟ » .
الى شقتى ..

وهكذا بعد بضع ساعات من الالم النفسى المبرح تخليت عن ذلك
الصراع غير المتكافىء مع ما بدا لى انه مضرى . بل انى فى الواقع
رحبت به فى مزيد من الحب كما يعانق المرء عدوا ليس فى وسعه
ان يهزمه . فشعرت بالتححرر . وقد يظن البعض ان قبول مصير
حقير ولكنه مجز ايسر بكثير من التخلى عنه . غير اننى طالما
تساءلت عن السر فيما تنطوى عليه قلوب أولئك الذين يحاولون
ان يعيشوا طبقا لمبادئ معينة وأن يتوخوا مثلا عليا معينة من
سخط وتعاسة فى حين ان البهجة وخلق البال كثيرا ما يتسم بهما
أولئك الذين يرتضون مصيرهم رغم خوائه وظلامه وضعفه فى معظم
الاحيان . وفى مثل هذه الاحوال لا يتوخى المرء مبدءا معينيا بل
مزاجه الخاص الذى يبدو له فى زى مصير حقيقى أصيل . وكان
مزاجى كما سبق ان قلت هو ان اكون مرحة لطيفة هادئة مهما
كلفنى الامر . وقد ارتضيت ذلك .

الفصل الثالث

ولقد انصرفت عن جياكومو تماما وذلك بتصميمى على عدم العودة الى التفكير فيه وكنت أحس انى أحبه وأننى سأسعد بقربه لو عاد الى بل سأحبه أكثر من أى وقت مضى . ولكننى كنت أعلم أيضا اننى لن أدعه يذلنى مرة أخرى . ولو عاد لوقفت أمامه محتمية فى كنف حياتى الخاصة وكأنها حصن منيع حقا ولا سبيل الى زعزعته حتى أغادره من تلقاء ذاتى - وسوف أقول له : « انى بفى لا أكثر .. فان أردتنى فعليك أن تقبلنى كما أنا » . فقد أدركت ان قوتى لم تكن تكمن فى رغبتى أن أكون غير ما كنت بل فى قبولى ما كنت عليه . كانت تلك القوة تكمن فى فقرى وفى مهنتى وفى أمى وفى منزلى القبيح وفى ملبسى البسيط وفى منبتى المتواضع وفى كوارثى وأهم من ذلك كله فى احساسى الذى جعلنى أقبل كل هذه الاشياء - ذلك الاحساس الذى استكن فى أعماق روحى كما يستكن الحجر الكريم فى بطن الارض . ولكننى كنت على ثقة تامة من اننى لن أراه مرة أخرى . وكان من جراء ذلك اليقين أن أحبته حبا حزيننا عاجزا لم أعهده من قبل وقد تميز بعذوبة خاصة كحبنا للموتى الذين ذهبوا بلا عودة .

وحينذاك انقطعت علاقتى نهائيا بجينو . وكما سبق أن قلت فانى أكره القطيعة الفجائية وأوثر أن تعيش الاشياء وتموت من تلقاء ذاتها . وكانت علاقتى بجينو خير مثل لرغبتى فى هذا الصدد . فقد انقطعت تلك العلاقة لانقطاع الحياة فيها وليس اخطأ من جانبى او حتى من جانبه الى حد معين . وقد انقطعت على صورة لم تترك معها أثرا للأسى أو تأنيب الضمير .

وقد استمرت لقاءاتنا من آن لآخر مرتين أو ثلاثا فى كل شهر . فقد كنت أسهل اليه كما سبق ان قلت ولو اننى لم أعد أحترمه . وذات يوم اتصل بى تليفونيا وطلب الى مقابلتة فى أحد محال اللبن فوعده بذلك .

وكان محل اللبن يقع فى حينا . وهناك وجدت جينو ينتظرنى فى الغرفة الداخلية التى كانت صغيرة خالية من النوافذ وقد

اكتست جدرانها بالقرميد الإيطالي المزخرف .. ولكنني عندما دخلت الغرفة وجدت انه لم يكن وحيدا . بل كان يجلس الى جانبه شخص ما يوليني ظهره . فلم استمع ان ارى سوى معطفه الاخضر الواقي من المطر وشعره الاشقر القصير فوق رأسه . وما ان اتجهت نحوهما حتى نهض جينو واقفا بينما ظل رفيقه جالسا . فقال جينو : « دعيني اقدم اليك صديقي سونزونيو » . فنهض هو أيضا ومددت اليه يدي . واذا بي أحس عندما أمسك بها وكأنه قد قبض عليها بمنجلة فأطلقت على الرغم مني صرخة قصيرة من الألم . فأطلق سراحها في الحال وجلست مبتسمة ثم قلت : « أتعلم انك المتني . أهكذا تفعل دائما ؟ » .

فلم يحر جوابا بل ولم يبتسم . كان أبيض الوجه في لون الورق ذا جبهة قوية بارزة وعينين دقيقتين زرقاوين كلون السماء وأنف افطس وفم كالشق . وكان شعره قصيرا خشنا شائكا لا لون له وقد ضغط صدغاه الى الداخل ولكن الجزء الاسفل من وجهه كان عريضا كما كان ذا فك ضخم قبيح . وكان يبدو دائما وكأنه يطحن أسنانه كمن يمضغ شيئا . كما بدا لي وكأن عصبها ما تحت اديم وجهه كان لا يفتأ ينبض ويختلج . وكان موقف جينو منه يدل على صداقة جمعت بين الإعجاب والاحترام .

قال : « هذا لا شيء ! ليتك تعلمين مدى قوته ! فان له قبضة سفاح . »

وخيل لي ان سونزونيو كان ينظر اليه نظرة عدائية . فقال بصوته الرتيب : « هذه قرية . فليست لي قبضة سفاح . ولكن ربما كانت - » .

فسألت قائلة : « وما هي قبضة السفاح ؟ » .

- « عندما يمكنك أن تقتلي رجلا بضربة واحدة .. فعندئذ يحظر عليك استخدام قبضتيك .. فقبضتك تصير مميتة كالطلق الناري » .

والح جينو قائلا في انفعال وكأنه متحمس للتودد الى سونزونيو : « تحسني مدى قوته . تحسني فقط . دعها تجس ذراعك » .

فترددت ولكن جينو كان متحمسا كما بدا لي ان صديقه كان يتوقع ذلك . فمددت يدي في استرخاء لأمسك بذراعه . ففتنى مساعدته ليقطع عضلاته في جذ بل فيما يشبه الجهامة . فاحسنت تحت اناملي من خلال كفه بشيء أشبه بصرة من الاوتار الحديدية . ولما كان نحيلًا للغاية فقد صدمتني الدهشة . فسحبت يدي

صائحة في مزيج من النفور والعجب . ونظر الى سونزونيو في رضا
عن نفسه بينما تلاعبت على شفثيه ابتسامة صغيرة .
وقال جينو : « انه صديق قديم لى . وقد تعارفنا منذ زمن
بعيد . اليس كذلك يا بريمو ؟ حتى انه يمكنك أن تقولى اننا شبه
أخوين » . ثم ربت على كتف سونزونيو قائلا :

« أيها الصديق العزيز بريمو ! »

فhez سونزونيو كتفه وكأنه يريد أن يبعد عنه يد جينو قائلا :
« نحن لسنا صديقين ولا أخوين . بل كنا نعمل معا في نفس
الجراج . هذا هو كل ما هنالك » .

ولكن جينو لم يبد عليه الارتباك مطلقا بل قال : « انى أعلم
انك لا تريد أن تبدو صديقا لأحد . . فأنت دائما وحدك لا تعتمد
على أحد . لا نساء ولا رجال » .

فنظر اليه سونزونيو . وكانت له نظرة شاخصة لا تطرف وملحة
على صورة غير معقولة . فاضطر جينو الى أن يدير عينيه بعيدا .
وسأل سونزونيو قائلا : « من قال لك هذا الهراء ؟ فانى أرافق
من أحب - رجالا أو نساء » .

فقال جينو وقد زايله تماما مظهره الواثق : « كان هذا كلاما
فحسب - وكل ما أستطيع أن أقوله اننى لم أرك قط في صحبة
أحد » .

« انك لم تعرف شيئا قط عن شئونى . »

« حسنا . كنت أراك كل يوم صباح مساء . »

« وماذا لو رأيتنى كل يوم ؟ . . »

فقال جينو مرتبكا : « كنت أراك دائما وحدك فخيلى لى انك
لا تقابل أحدا - فلو أن أحدا له صديقة أو صديق فان الجميع
يعرفون ذلك دائما » .

فقال سونزونيو في وحشية : « لا تكن أحمق » .

فقال جينو متظاهرا بسخطه المهود وقد احمر وجهه : « والآن
تنعتنى بالحماقة » ولكنه كان مذعورا على صورة واضحة .

فردد سونزونيو حديثه قائلا : « نعم . اياك والحماقة والا

شبهت رأسك » .

وفجأة أدركت أنه ليس خليقا بأن يفعل ذلك فحسب بل ينوى

فعلا أن ينفذه . فوضعت يدي على ذراعه وتدخلت قائلة : « اذا

شئتما عراقا لتصفية ما بينكما من خلاف فأرجو الا يكون ذلك في

حضورى لاننى لا اتحمل العنف .

فقال جينو عابسا : « ها انما امر فك بصديقة صغيرة مهذبة وانت تخيفها باساليبك الى حد الجنون ! انها ستظن اننا عدوان ! »

فالتفت سونزونيو الى وابتسم لأول مرة . عندئذ زر عينيه الى أعلى وقطب جبينه ولم يكشف فقط عن أسنانه الفاسدة بل عن لثاته أيضا . وسألنى قائلا : « ولكن سيدتى الصغيرة ليست خائفة . أليس كذلك ؟ »

فأجبتة قائلة في اقتضاب : « مطلقا - ولكنى اكره العنف كما قلت لك » .

ثم أعقب ذلك صمت طويل . فظل سونزونيو جالسا في سكون واضعا يديه في جيبى معطفه الواقى من المطر بينما لم تفتأ أعصاب فكه تختلج وهو يحمق في لا شيء . وكان جينو لايزال يدخن حانيا رأسه بينما يزحف الدخان على وجهه وأذنيه اللتين لم تزايلهما حمרתهما القرمزية . ثم نهض سونزونيو قائلا : « حسنا . انى ذاهب » .

فقفز جينو واقفا في حماس قائلا وهو يمد يده : « حسنا اذن فنحن كما كنا يا بريمو . هه ؟ » .

فردد سونزونيو قائلا من خلال أسنانه المطبقة : « كما كنا » . ثم صافحنى دون أن يؤلمنى في هذه المرة وغادر المكان . كان نحىلا قصير القامة مما استحال معه حقا ان يتبين المرء مصدر كل تلك القوة . وما ان رحل حتى قلت لجينو مازحة : « لعلكما صديقان أو حتى أخوان - ولكن ما أغرب لهجته معك ! » .

وكان جينو الآن قد استرد هدوءه . فقال وهو يهز رأسه . « هكذا خلق . ولكنه ليس سوءا . فانه لما يلائم مصلحتى أن أكون على وفاق معه . فهو ينفعنى أحيانا » .
- « وكيف ؟ .. »

فقد لاحظت ان جينو كان مضطربا تحدوه رغبة ملحة فى ابلاغى شيئا ما . واذا بوجهه يرتسم عليه فجأة الاضطراب والحماس الشديدان .

قال : « أتذكرين « بدارة » سيدتى ؟ » .

- « نعم .. ماذا عنها ؟ .. »

ولمعت عينا جينو بالفرح . ثم قال خافضا صوته : « حسنا . لقد فكرت فى الامر ولم أردھا » .

– « ألم تردها ؟ .. »

– « كلا . فقد فكرت انها ثرية قبل كل شيء . وسواء حشر على

« البذرة » أم لم يحشر عليها فالامر في نظرها سياتي . ثم أضاف قائلاً
بطريقة تميز شخصيته : « لاسيما ان الجرم قد تم بالفعل ولم
أكن أنا السارق قبل كل شيء » .

فقلت بصوت هادىء : « بل أنا السارقة » .

فتظاهر بأنه لم يسمعي واسترسل قائلاً : « ومع ذلك فقد
كانت هناك فيما بعد مشكلة بيعها . اذ انها كانت لافتة للانظار ومن
السهل التعرف عليها . كما اننى لم أجروء على ذلك . فاحتفظت
بها في جيبى فترة طويلة .. الى أن قابلت سونزونيو أخيراً ،
فرويت له القصة كاملة .. »

فقاطعت قائلة : « وهل حدثته عنى ؟ » .

– « كلا ، لم أحدثه عنك .. بل قلت له ان صديقة اعطتني اياها

دون ذكر اسماء .. فتصورى انه باعها فى مدى ثلاثة أيام وأحضر الى
النقود . ولكن بالطبع أخذ نصيبه كما اتفقنا » . كان يرتجف من
الفرحة ثم تلفت حوله وسحب من جيبه صرة من الاوراق المالية .

وعندئذ أحسست نحوه بكراهية عميقة ولا أدرى لذلك سببا .
ولم يكن ما أحس به استنكاراً لما فعل فليس هذا من حقى مطلقاً
ولكن فرحته الشامة أغاظتني . وفضلاً عن ذلك فقد تكهنت بأنه
كان يخفى عنى شيئاً وان ما يخفيه كان بلا شك أسوأ بكثير . فقلت
فى ايجاز :

– « لقد أصبت .. »

فقال وهو يحل رزمة الاوراق المالية : « هاك . فهذا نصيبك .

لقد أحصيته » .

فأجبت قائلة فى الحال : « كلا ، فأنا لا أريد شيئاً . لا أريد

شيئاً على الإطلاق » .

– « لم لا ؟ .. »

– « لا أريده .. »

فقال : « انك تحاولين اهانتى » . وعبرت وجهه سحابة من

الشك والحزن فخشيت أن أكون قد أسأت اليه حقاً . فوضعت

يذى على يده وقلت فى صعوبة : « لو أنك لم تعرض على النقود

فربما كان ذلك مدعاة لدهشتى ، ولا أقول اساءتى . ولكن الامر

قد انتهى الآن ولا غبار عليه بهذه الصورة . فأنا لا أريد حصتى

لان الامر قد انتهى بالنسبة لى ونفضت يدى منه . هذا هو كل ما هنالك . ومع ذلك فانه لسرتى ان تاخذ انت حصتى . فنظر الى فى شك دون ان يفهم ماذا أقول محملاً فى وكأنه يريد ان يستشف الدافع الخفى وراء كلماتى . ولقد أدركت منذ ذلك الحين - كما يدور بخلقى دائماً كلما فكرت فيه - انه لما كان يعيش فى عالم يختلف عن ذلك الذى أعيش فيه وتختلف أفكاره وعواطفه فانه كان عاجزاً عن فهمى . ولا أدرى ان كان ذلك العالم أسوأ من عالمى أو أفضل منه بل كل ما أدريه أن بعض الالفاظ فى نظره كان يختلف معناها عنها فى نظرى وان معظم التصرفات التى كنت أنتقدها فيه كانت لا تفتأ تبدو له مشروعة وصحيحة . فقد بدا انه يعزو أهمية كبرى الى الذكاء الذى كان يعنى فى نظره المكر والدهاء . وكان عند تقسيمه الجنس البشرى الى فريقين - أحدهما يمتاز بالدهاء والآخر مجرد منه - لا يفتأ يحاول أن يدرج اسمه فى القائمة الاولى . أما أنا فلسبت من الدهاء فى شيء بل ولعلى مجردة حتى من الذكاء . فانى لم أستطع قط أن أفهم كيف يمكن تبرير العمل الشرير فضلاً عن قبوله لا لسبب الا لانه ارتكب بدهاء .

واذا بالشك الذى كان يعذبه يبدو وقد تلاشى فجأة عندما هتف قائلاً : « انى أعرف السر فى ذلك ! فانت ترفضين النقود لانك خائفة - خائفة من اكتشاف السرقة . ولكن لا حاجة بك الى القلق فقد استبان كل شيء » .

ومع اننى لم أكن خائفة فانى لم أعبأ بانكار التهمة لانى لم أفهم الجزء الثانى من عبارته .

فسألته قائلة : « ماذا تعنى بقولك ان كل شيء قد استبان ؟ » فأجاب قائلاً : « نعم . . لقد استبان كل شيء - أتذكرين ؟ ! ألم أخبرك ان احدى الخادmates كانت تحوم حولها الشبهات ؟ » . - « نعم . . » .

- « حسناً . لقد انتقمتم من تلك الخادمة لانها كانت تغتابنى . فما ان مرت بضعة أيام على السرقة حتى رأيت ان الموقف بالنسبة لى كان ينذر بالشر - فقد جاء ضابط الشرطة مرتين . ونخيل لى ان الشك يحوم حولى . ولكن تذكرى انهم لم يقوموا بعد بتفتيش المنزل . فخطر لى أن أجعلهم يفتشون المنزل بسبب سرقة أخرى ثم أدبر ثبوت التهمة عليها فى السرقتين معا . »

فلزمت الصمت . . واسترسل قائلاً بعد أن رمقنى بعينيه

المتألفتين وقد فتحتا على سعتهما وكأنه يريد أن يرى ما اذا كنت
معجبة بدهائه : « كانت السيدة تحتفظ ببعض الدولارات في أحد
الإدراج . فأخذتها وأخبتها في غرفة الخادمة مودعا إياها حقيبة
قديمة . وعندئذ قاموا بتفتيش المنزل . وبالطبع عثروا على
الدولارات وقبض عليها . وهي تقسم أنها بريئة . ولكن من ذا
الذي يصدقها ؟ فقد عثروا على الدولارات في غرفتها الخاصة » .
- « وأين هي تلك المرأة الآن ؟ »

- « في السجن . وهي ترفض الاعتراف . ولكن أتعلمين ماذا قال
ضابط الشرطة لسيدتي ؟ .. قال : « لا تقلقي ياسيدتي . فانها
ستعترف في النهاية ساءت الوسيلة أو حسنت » . أترين ماذا
يعنون ؟ ساءت الوسيلة أو حسنت ؟ فانهم سيضربونها » .
وعندما نظرت اليه ووجدته منفعلا وقد اشتد زهوه بنفسه
أحسست اني باردة كالثلج تنتابني حيرة شديدة . ثم سألته بطريقة
عارضة قائلة : « وما اسمها ؟ » .

قال : « لويزا فلينى - وهي ليست صغيرة السن ولكنها متكبرة للغاية
فهى تزعم ان الحظ العاثر هو الذى جعلها خادمة وانه لا مثيل لها
في الامانة ! » ثم ابتسم مسرورا للغاية بذلك التوافق بين زعمها
وما حدث لها .
فبذلت جهدا وكأني أطلق تنهدة عميقة قائلة : « أتعلم انك
وغد ؟ » .

فسألنى في دهشة : « ماذا ؟ ولماذا ؟ » .
ووجدتنى الآن وقد صارحته برأى فيه أحس بمزيد من الحرية
ومزيد من التصميم . فقد ارتعش منخرأى من الغضب وأردفت
قائلة : « وكنت تريدنى ان أقبل النقود ! ولكننى أحسست انها
نقود لا ينبغى أن أخذها » .

فقال محاولا أن يسترد هدوءه : « ما هذه الضجة كلها ؟ فهى
لن تعترف - وعندئذ سوف يفرج عنها » .
- « ولكنك قلت الآن انها لن تخرج من السجن وأنهم سيضربونها ! »
- « كان ذلك كلاما فحسب » .

« لا بهم ذلك » ولمسكنك أرسلت امرأة بريئة الى السجن .
ثم أوتيت من الصفاقة ما يسمح لك بأن تأتى الى وتبلغنى كل شيء !
يا لك من وغد » .

فانتابه الغضب فجأة وهرب الدم من وجهه . ثم قبض على يدي .

قائلا : « كفى عن نعتي بهذه الصفة ! ! »

« لماذا؟ فاني أعتقد أنك وغد ولسوف أقول ذلك . »
ففقد صوابه واتى حركة عتيقة على صورة غريبة . اذ لوى
يدى بيده وكأنه يريد أن يسحقها ثم حنى رأسه فجأة وعض يدي
بقوة . فتخلصت منه بحركة فجائية ونهضت واقفة . ثم هتفت
قائلة : « اجننت ؟ ماذا دهاك الآن ؟ اتعضني ؟ ولكن ذلك لن
يجديك . . فأنت وغد ولسوف تظل وغدا على الدوام » . فلم يحر
جوابا بل أسقط رأسه على يديه وكأنه يريد أن ينتزع شعره .
فناديت الساقى ونقدته ثمن المشروبات جميعا : ما شربته انا
وهو وسونزونيو . ثم قلت : « انى ذاهبة ، وأؤكد لك . . ان كل
شيء بيننا قد انتهى . فلا ترني وجهك مرة أخرى ولا تبحث عنى
ولا تأت الى . . فانا لم أعد أعرفك » .

فلم ينبس بكلمة بل ظل حانى الرأس . ثم غادرت المحل .

وكان محل اللبن يقع على ناصية الطريق الرئيسى غير بعيد من
منزلى . فبدأت أسير ببطء على الجانب المواجه لاسوار المدينة .
وكان الليل مخيما والسماء ملبدة بالغيوم بينما أخذ المطر يتساقط
رذاذا كالغبار المائى خلال الهواء الساكن العليل . وكانت الاسوار
تكتنفها الظلمة كالمعتاد فيما خلا الاماكن التى تضيئها من وقت لآخر
مصابيح الطريق وكانت قليلة . ولكننى عندما غادرت محل اللبن
لاحظت فى الحال رجلا ينسل بعيدا عن أحد مصابيح الطريق ثم
يسير محاذيا الاسوار بنفس سرعتى وفى نفس الاتجاه الذى أسير
فيه . فعرفت انه سونزونيو بمعطفه الواقى من المطر الذى يضيق
عند الخصر ورأسه الاشقر الحليق . وكان يبدو قصير القامة هناك
أسفل الاسوار وهو لا يفتأ يختفى فى الظلام من آن لآخر ثم يعود
الى الظهور على ضوء أحد مصابيح الطريق . ولاول مرة انتابنى
السأم من الرجال - كل الرجال - الذين لا يفتأون يركضون خلف
ازارى وكأنهم جمع من الكلاب يطاردوننى . وكنت لا ازال ارتجف
من شدة الغضب . فلم يسعنى الا أن أشعر بتأنيب الضمير كلما
فكرت فى تلك المرأة التى أرسلها جينو الى السجن فقد كنت انا
سارقة « البدارة » قبل كل شيء . ولكن لعل شعورى لم يكن
تبكيتا من ضميرى بل نفورا وسخطا . فعلى الرغم من تمردى على
الظلم وكراهيتى لجينو فقد كرهت أن اكرهه كما كرهت أن أعلم
بوقوع الظلم . فانى فى الواقع لم أخلق لمثل هذه الامور فليشد ما

غشيني الحزن وتغيرت نفسي - وأسرعت الخطا بغية أن أبلغ
المنزل قبل دنو سونزونيو مني وكان من الواضح أن في نيته ذلك .
ثم سمعت صوت جينو ناديني من الخلف في يأس قائلا :
- « آدريانا ! آدريانا ! »

فتظاهرت بأنني لم أسمعه وأسرعت الخطا . فأمسك بذراعي
قائلا : « آدريانا ! لقد كنا دائما معا ، ولا يمكننا أن نفرق على
هذه الصورة » .

فتخلصت منه بهزة من ذراعي وواصلت طريقي . ثم انبثق من
الظلام شبخ سونزونيو الضئيل بمعاله الواضحة وظهر في دائرة
الضوء المرسل من أحد مصابيح الطريق على الجانب الآخر من
الشارع أسفل الاسوار . واسترسل جينو قائلا وهو يسرع الخطا
بجانبى : « انى أحبك يا آدريانا » .

فأحسست نحوه بمزيج من الشفقة والكراهية . ولشد ما كان
ذلك المزيج من العواطف كريها في نظري على صورة لا يمكن وصفها .
ومع ذلك فقد حاولت ان أفكر في شيء آخر . وفجأة ومض في ذهني
خاطر نير لا أعرف له سببا . فقد تذكرت آستاريتا وكيف كان
لا يبرح يعرض على مساعدته . فخيلى لي انه قادر فيما يشبه
اليقين على اطلاق سراح تلك المرأة المسكينة . وما لبثت الفكرة
ان أنعشت روحى في الحال . وتخلص قلبى من ذلك العبء ، بل
أحسست وكأنى لم أعد أكره جينو بل شعرت نحوود بالاسف
فحسب . فتوقفت عن المسير وخاطبته في هدوء قائلة :
- « لم لا تذهب يا جينو ؟ »

- « انى أحبك » .

- « لقد أحببتك أنا ايضا . . . ولكن كل شيء قد انتهى . . . ولتذهب
الآن الى حال سبيلك . فذلك خير لكلينا » .

كنا واقفين فى بقعة ظلماء من الطريق أقفرت من المحال
والمصاييح . فأمسك بى من حول خصرى محاولا تقبيلي . وكان
في إمكانى أن أتخلص منه بسهولة لاننى قوية للغاية ولا يستطيع أحد
أن يقبل امرأة ما لم ترغب في ذلك . ولكن نزوة خبيثة أوحى الى
بأن نادى سونزونيو وكان واقفا يراقب على الجانب الآخر من
الطريق تحت الاسوار داسا يديه في جيبى معطفه . واعتقد اننى
ناديته لاننى الآن وقد اكتشفت طريقة لمحو الاذى الذى تسبب
فيه جينو أحسست وقد عاودنى فضولى ودلالى . فصحت منادية

مرتين : « سونزونيو ! سونزونيو ! » واذا به يعبر الطريق في الحال . فانتاب جينو الارتباك وأطلق سراحه . وما أن أقبل علينا سونزونيو حتى قلت له : « قل له أن يدعني وشأني . فأنا لم أعد أريده . ولكنه يأبى أن يصدقني . فلعله يصدقك أنت ما دمت صديقه » .

فسأله سونزونيو قائلا : « أسمعت ماذا قالت السيدة الصغيرة ؟ » فبدأ جينو يتكلم قائلا : « ولكنني . . . »

واعتقدت أنهما سيتجادلان بعض الوقت كما يحدث عادة وان جينو سوف يستسلم في النهاية ويمضي الى حال سبيله . ولكنني بدلا من ذلك رأيت سونزونيو يأتي حركة فجائية لم أفهمها ثم يحملق فيه جينو لحظة وهو مدهوش ويتهاوى بعد ذلك على الارض دون أن ينبس بكلمة واحدة ثم يتدحرج من فوق الافريز الى داخل البالوعة . أو لعلني لم أر سوى سقوط جينو على الارض فتكهننت من ذلك بما كانت عليه حركة سونزونيو . فلشد ما تميزت تلك الحركة بالسرعة والصمت حتى تبادر الى ذهني انني تخيلتها . فهزرت رأسي وألقيت نظرة أخرى فرأيت سونزونيو واقفا أمامي مباعدا ما بين ساقيه يتأمل يده المقبوضة . وكان جينو الذي رقد على الارض موليا ايانا ظهره قد ثاب اني رشده ورفع رأسه في بطء وهو متكئ على أحد مرفقيه في البالوعة . ولكنه لم يبد عليه انه يريد النهوض بل بدا وكأنه يفضل أن يظل محملا في قavanaugh صغيرة من الورق الابيض كانت ترى بوضوح وهي تلمع فوق الوحل في البالوعة .

وأخيرا قال سونزونيو : « هيا بنا » فسرت معه تجاه المنزل وكانني في حلم .

كان يسير في صمت ممسكا بنداعي . ومع أنه كان أقصر مني قاما ، فان يده القابضة على ذراعي كانت أشبه بمشد من الحديد تماما .

ثم قلت بعد فترة وجيزة : « ما كان ينبغي أن تضرب جينو على هذه الصورة ، فانه على أي حال كان ذاهبا الى حال سبيله دون أن يضرب » .

فأجابني قائلا : « بهذه الطريقة لن يعود الى أزواجك » .

وسألته قائلة : « ولكن كيف فعلت ذلك ؟ فاني لم أر حتى ماذا فعلت ، كل ما رأيته هو سقوط جينو على الارض » .

فقال : « انها مسألة عادة » .

كان يتكلم وكأنه يعضغ الالفاظ قبل النطق بها أو الاخرى انه
بدا وكأنه يستشعر قوامها بين أسنانه المطبقة التي خيل لى انها
متداخلة كأسنان الحيوانات الهريفة . وتأقت لى الآن الى هضم
ذراعه وتحسس عضلاته الصلبة المشدودة مرة أخرى تحت أصابعى .
لم يكن سونزونيو يجذبنى بقدر ما كان يثير فضولى وخوفى قبل كل
شئ . ولكن الخوف يمكن ان يكون شعورا مثيرا مستحبا على صورة
ما الى أن يعرف سببه .

فسألته قائلة : « ماذا يوجد هنا فى داخل ذراعك ؟ انى
لا استطيع أن أصدق ذلك ! »
فقال يحدوه زهو بدا لشدة جديته منذرا بالشؤم : « ولكننى
قررتك تلمسيننى مرة » .
- « ليس كما ينبغى . . فقد كان هناك جينو . . دعنى أجسه مرة
أخرى . »

فتوقف عن السير وثنى ذراعه وهو يرمينى بنظرة جانبية وقد
بدا على وجهه الجد والبساطة ولكن بساطته لم يكن فيها أثر
للصبيانية . فمددت يدى فى بطء لألمس عضلاته ومررت بها على
ذراعه بأكملها ابتداء من الكتف . فكان احساسى بها وهى نابضة
بالحياة صلبة كالحديد احساسا خارجا عن المألوف . فقلت له فى
صوت واهن ضعيف : « انك عظيم القوة » .
فوافق على كلامى قائلا فى جهامة : « نعم . . أنا قوى » ثم
عاودنا السير مرة أخرى .

والآن احسست بالاسف لاستدعائه . فانى لم أشعر بالميل نحوه
وفضلا عن ذلك فانه كان يخيفنى بجديته وسلوكه . وبلغنا المنزل
دون أن نعاود الحديث ثم أخرجت مفتاحى قائلة وأنا أمد اليه
يدى : « شكرا لاصطحابك اياى حتى المنزل » .

فقال وهو يقترب منى : « انى قادم معك » .
وأردت أن أرفض . ولكنه ربكنى وضايقنى بنظرته المحملقة
فى عينى بتركيز لايمكن تصديقه . فقلت : « ان شئت » . ولم
أدرك الا بعد أن خاطبته اننى استخدمت الصيفة الودية فى خطابه .
وقال مفسرا حزنى على طريقته الخاصة : « لا تخافى . تلمسى
بعض النقود . وسأعطيك ضعف ما ينفحك به غيرى » .

فقلت : « وما شأن هذا بما قصدت ؟ فليس ذلك بسبب
النقود » ولكننى رأيت وميضا غريبا يمرق عبر وجهه وكأن شكرا

منذرا قد لاح له . وفي تلك الاثناء كنت قد فتحت الباب ثم

أودفت قائلة : « ولكننى أشعر بشيء من الاجهاد فحسب » .

وما أن دخل غرفتى حتى بدأ يخلع ملابسه بحركات دقيقة تنم عن شخص منظم . فكان يضع لفاعا حول عنقه نزعه فى عناية

ثم طواه ودسه فى جيب معطفه . ثم علق سترته على ظهر أحد

المقاعد وسوى سراويله على صورة لا تفسد معها ثناياها . وبعد ذلك وضع حذاءه تحت المقعد داسا فيه جوربيه . وقد لاحظت

ان جميع ملابسه كانت جديدة . ومع انها لم تكن من صنف ممتاز

فقد كانت جيدة قوية الاحتمال . وقد فعل ذلك كله فى صمت دون

عجلة أو ابطاء بل فى انتظام مرتب أحسن تخطيطه ولكنه لم يعرني

انتباها . وكنت فى تلك الاثناء قد تجردت من ثيابى ورقدت عارية

على الفراش . ولا شك انه لم يكشف عن رغبته فى ، اللهم الا اذا كان

اختلاج عضلات فكه فى أسفل الجلد مباشرة دليلا على انفعاله . ولكن

تلك الحركة لا يمكن ان تعنى ذلك لانه كان يأتيها من قبل دون أن

يبدو عليه أنه يفكر فى . وقد قلت من قبل اننى لشد ما يعجبني

النظام والنظافة لانهما ينبئان عن صفات عقلية مطابقة . ولكن نظام

سونزونيو ونظافته كانا فى ذلك المساء يثيران فى نفسى أحاسيس

مختلفة تماما تتراوح بين الرعب والخوف . فلم يسعنى الا أن أرى

فى أسلوبه تلك الطريقة التى يستعد بها الجراحون فى المستشفى

عندما يضطرون الى اجراء جراحة دامية بل أسوأ من ذلك اذ ذكرتني

طريقته بالقصابين وهم يتأهبون للذبح على مرأى من الحمل الذى

يوشكون على ذبحه . ولكننى أحسست وأنا راقدة هناك على الفراش

أننى مسلوبة القوة والارادة كالجسد الميت الذى يوشك أن تجرى

عليه التجارب . وكنت من جراء صمته وعدم مبالاته فى شك مما

ينتوى أن يفعله بى حالما ينتهى من خلع ملابسه . فعندما جاء الى رأس

الفراش عاريا تماما من ملابسه ووضع كلتا يديه على كتفى وكأنه

يريد أن يوقف حركتى سرت فى بدننى على الرغم منى قشعريرة خوف

فلاحظ ذلك وسألنى قائلا من خلال أسنانه المطبقة : « ماذا دهاك ؟ »

فاجبت قائلة : « لا شيء . ولكن يديك باردتان كالثلج » .

فقال وهو مازال قابضا على كتفى اثناء وقوفه عند رأس الفراش :

« أنت لا تحبيننى . أليس كذلك ؟ وتفضلين من ينقدونك . أليس

كذلك ؟ » كان وهو يتكلم يحملق فى بنظرة لا تحتمل .

فقلت : « لماذا ؟ فأنت رجل كالباقيين جميعا . فضلا عن ذلك فقد قلت أنت نفسك انك ستنقذني ضعف أجرى »

فقال : « اننى أعرفك عما أقول . فأنت ومن على شاكلتك تضاجعن الاثرياء والسادة . أما أنا فلست سوى رجل عادى مثلك . وأنتن جميعا يا معشر البغايا لا تضاجعن سوى الاثرياء » . ولمست فى صوته رغبته العنيدة المشئومة فى اثاره شجار ،

تلك الرغبة التى دفعته منذ فترة وجيزة الى اهانة جينو لأتفه الاسباب . ولقد خيل لى حينئذ أن لديه أسبابا خاصة للحقد على جينو . ولكننى أدركت الآن ان حساسيته الشديدة المخيفة التى لا يمكن التنبؤ بها كانت دائما يقظة مرهفة وما ان يملكه شيطان الغضب حتى يرى محدثه مخطئا مهما كانت الطريقة التى يعامله بها . فسألته قائلة فى شيء من الحماس : « لماذا تبغى اهانتى ؟ فقد

قلت لك من قبل ان الرجال جميعا متساوون فى نظرى » . - « لو كنت تقولين الصدق لما تجهم وجهك على هذه الصورة . انك لا تحبيننى . أليس كذلك ؟ »

- « ولكننى سبق أن قلت لك .. ! » فاسترسل قائلا : « انك لا تحبيننى . ولكن يؤسفنى انك ستكرهين على ذلك » .

فقلت وقد انتابنى سخط مفاجيء : « أف .. لا تضايقنى ! » فأردف قائلا : « كنت تريدنى ما دمت تنتفعين بى فى تخليصك من برائن عشيقك . ثم آثرت أن تطردينى . ولكننى بدلا من ذلك جئت معك . فأنت لا تحبيننى . أليس كذلك ؟ » .

والآن انتابنى الخوف حقا . فقد بدا لى كل شيء : كلماته المسرعة وصوته الهادىء الجامد ونظرتة الشاخصة فى عينيه وقد بدتا حمراوين رغم زرقتهما ، بدا كل شيء وكأنه يحمله الى هدف رهيب مخيف . ولم أدرك الا بعد فوات الوقت ان اية محاولة للوقوف فى وجهه لن تجدى فتىلا كالوقوف فى طريق صخر يتدحرج من عل فوق منحدر هاو سحيق . فلم أزد على أن هزرت كتفى بعنف .

وأردف قائلا : « انك لا تحبيننى . هه ؟ ويبدو عليك النفور عندما المسك . ولكننى سأعير لك نظرتك يا حبيبتى ؟ » ثم رفع يده وكأنه يهم بصفعى . وكنت أتوقع شيئا من ذلك القبيل . فحاولت أن أحمى نفسى بذراعى . ومع ذلك فقد أمكنه أن يضربنى بقوة مروعة على احدى وجنتى أولا ثم على وجنتى الاخرى عندما

حاولت أن أشرح بوجهي بعيدا . ولم يسبق أن حدث لى شيء من هذا القبيل في حياتى . فكان وقع الدهشة على فى أول الامر رغم تسع الضربات أقوى من احساسى بالألم . فكشفت عن وجهى خائلة له : « أتعرف ما أنت ؟ أنك مخلوق تعس » .

وبدا انه تأثر بتلك العبارة . فجلس على حافة الفراش وهو يتأرجح قابضا على الحشية بكلتا يديه . ثم قال دون أن ينظر الى : « انا جميعا مخلوقات تعسة » .

قلت : « أنك تحتاج الى شجاعة حقيقية لتضرب امرأة ! » ولكننى عجزت فجأة عن مواصلة الحديث فقد افروقت عيناي بالدموع لا من أثر ما تلقيته من ضربات بقدر ما أصابنى من توتر عصبى لم يفارقنى طوال ذلك المساء الحافل بأحداث كثيرة بغيضة مكدره . وتذكرت جينو مطروحا على الارض فى الاوحال كما تذكرت عدم مبالائى به وانطلاقى مرحة فى صحبة سونزونيو ولا هم لى سوى اختبار قوة عضلاته الخارجة عن المألوف . فغلبنى تأنيب ضميرى وراثتى لجينو ونفورى من نفسى . وأدركت اننى نلت جزائى لغباوتى وبلادة حسى بنفس اليد التى طرحت جينو أرضا . فلشد ما راقنى العنف . واذا بذلك العنف الآن يتحول ضدى . ونظرت الى سونزونيو من خلال دموعى وكان جالسا على حافة الفراش عاريا من ملابسه تماما أبيض البشرة أملسها محنى الكتفين وقد استرخت ذراعاها اللتان لم يبد عليهما مطلقا ما يوحى بقوتهما . وأحسست برغبة فجائية فى تقريب المسافة بيننا .

فقلت بصعوبة : « ولكن ألا تخبرنى على الاقل لماذا ضربتني؟ » فقال مفكرا بينما لم يفتأ يختلج ذلك العصب فى فكه : « كان هناك تعبير على وجهك » .

وأدركت اننى لو شئت الاقتراب منه فعلى أن أصارحه بخواطرى جميعها ولا أخفى عنه شيئا . فأجبت قائلة : « لقد خيل لك أننى لا أحبك . ولكنك كنت مخطئا » .

- « ربما .. »

- « كنت مخطئا . فحقيقة الامر أنك تخيفنى . ولا أدري لذلك

سببا . وهذا هو السر فى ذلك التعبير الذى ارتسم على وجهى . » فاستدار نحوى عند سماعه تلك الكلمات ونظر الى فى ارتياب .

ولكنه هدا فى الحال وسألنى قائلا فى شيء من الخيلاء : « اذن فقد اخفكتك ؟ » .

- « نعم .. »

- « أترين أنى لا أزال أخيفك ؟ »

- « كلا . بل يمكنك أن تقتلنى إن شئت ، فانى لم أعد أبالى » . وكانت تلك هى الحقيقة . فانى فى الواقع كنت أريده أن يقتلنى حينذاك لاننى فقدت فجأة كل رغبة فى مواصلة الحياة .
ولكنه غضب قائلا :

- « من ذا الذى تحدث عن قتلك ؟ لماذا كنت تخافيننى ؟ »

- « من يعلم ؟ لقد أخفتنى . ولا يمكنك تفسير هذه الامور . »

- « وهل كان جينو يخيفك ؟ »

- « لماذا يخيفنى ؟ »

- « ولماذا أخيفك ؟ » عندئذ كانت كل خيالاته قد تلاشت وعاود

صوته شىء من الغضب .

فقلت لكى أخفف عنه : « لقد أخفتنى لانه من الواضح لكل

من يراك انك خليك بأن تفعل كل شىء . »

فلم ينبس بكلمة بل جلس هناك لحظة متأملا ثم استدار نحوى

وسألنى قائلا بلهجة منذرة : « هذا معناه أنك تريدنى أن

أرتدى ملابسى وأغادر الدار ؟ » .

فنظرت اليه وأدركت أن نوبة الغضب قد تولته مرة أخرى .

فلو أننى رفضته لعرضت نفسى لمزيد من العنف ، بل ربما تعرضت

لما هو أسوأ من ذلك . فعلى أن أقبله . ولكننى تذكرت عينيه

الشاحبتين . وامتلتأت نفسى نفورا عندما خطر لى انهما ستركرزان

على عينى أثناء المضاجعة .

فقلت فى ضعف : « كلا . بل يمكنك البقاء ان شئت . ولكن

عليك أولا أن تطفىء الضوء » .

فنهض واقفا بحجمه الضئيل وبشرته البيضاء . ولكن أطرافه

كانت غاية فى التناسق فيما خلا عنقه القصير . ثم سار على أطراف

أصابعه ليدير مفتاح النور بالقرب من الباب . غير اننى أدركت فى

الحال ان تكليفه باطفاء الضوء لم يكن اقتراحا موقفا . فما ان

ساد الظلام فى الغرفة حتى عاودنى على صورة لا سبيل الى كبح

جماعها ذلك الخوف الذى حيل لى أنه فارضى . فقد بدا لى ان من

كان معى فى الغرفة ليس رجلا ، بل فهدا أو وحشا آخر مفترسا

ربما ربض لى متحفزا فى أحد أركان الغرفة أو انقض على فمزقنى

أوبا اربا . ولعله تأخر ليجد طريقه فى الظلام بين المقاعد وقطع

الأثاث الأخرى أو لعل الخوف صور لي ان غيبته طالت . فلا شك
لاني أحسست وكأن دجونا قد مرت قبل بلوغه الفراش . وعندما
شعرت بيديه للمسان جسدي عاودتني على الرغم مني فشعريرة
متشنجة . وتمنيت الا يكون قد لاحظها ولكن غرائزه كانت مرهفة
كغرائز الحيوان . وفي الواقع فاني سمعت صوته في الحال بجانبى
قريبا مني وهو يسألني قائلا : « أما زلت خائفة ؟ »

لا ريب ان ملائي الحارس كان ماثلا هناك في الظلام . فثمة تغير
طفيف في نبرة صوته أنبأني انه قد رفع ذراعه في انتظار جوابي
نفيا أو ايجابيا ليتصرف طبقا لذلك . أدركت أنه رغم احساسه بما يبثه
في النفوس من رعب كان ينبغي أن يكون غير ذلك وان ينعم
بالحب كغيره من الرجال ولكنه لم يعرف وسيلة لبلوغ تلك
الغاية سوى اثاره مزيد من الرعب . فرفعت يدي بحجة ان امر
يها على ذقنه وكتفه اليمنى فاكتشفت ان ذراعه كانت مرفوعة حقا
كما خيل لي وعلى أهبة الاستعداد ليهوى بها على وجهي . فتكلمت
في صعوبة محاولة ان أضفي على صوتي هدوءه المعهود ونفمته
الرقيقة قائلة : « كلا . ولكنه اليرد حقا في هذه المرة . فلنتحفظ
بأغطية الفراش » .

فقال : « هكذا أحسنت ! » ولم يزد ذلك الرد بصداه المنذر
على ان جسم مخاوفي . وعندما عانقني ولامسنى مداعبا تحت
الاطية وسط الظلام الذي يكتنفنا مرت بي لحظة من أسوأ لحظات
حياتي عانيت فيها ألما حادا مبرحا . فما ان لامست جسده الاملس
القوى المتلوي على صورة غريبة حتى تصلبت أطرافي من الخوف ،
وانكشيت في قشعريرة لا سبيل الى كبح جماحها . ولكنني في
نفس الوقت قلت محدثة نفسي ان خوفي منه في تلك اللحظة امر
مثير للسخرية . وحاولت بكل قواي العقلية ان اتقلب على خوفي
وان أهبه نفسي في شجاعة كعشيق أعزه وأحبه . ولكن خوفي لم يكن
يكمن في أطرافي التي ما زالت تطيعني بغض النظر عن مدى احجامها
بقدر ما كان يكمن على صورة أعماق في اغوار رجلي الذي بدا
منقبضا يلفظ عناق في رعب . وأخيرا وطئني فأحسست بلذة
جعلها العواف وحشية مشرمة فلم أستلج ان أحبس صرخة مولولة
مولولة في الظلام وكان ضمته الأخيرة هي ضمة الموت لا ضمة الحب
وصرختي زهوق الروح تاركة وراءها جسدا هامدا معذبا .

ثم رقد هناك في الظلام يخيم علينا الصمت . ولما كنت

متعبة فقد استغرقت في النوم في الحال تقريبا . ثم ما لبثت أن
راودني احساس بأن عبئا هائلا أطبق على صدري وكان سونزونيو
قد ألقى فوقى منكشأ في عربة وبدأه تقبضان على ركبتيه اللتين
اتكأ بوجهه عليهما . كان قابعا على صدري وهو يضغط باليديه
القويتين العاريتين على عنقي واضعا قدميه على بطني . وكان
لا يفتأ يزيد ثقله كلما واصلت النوم . وكنت على الرغم من نومي
لا أبرح أتقلب في قلق هنا وهناك محاولة التخلص منه أو ابعاده
عني على الاقل . وأخيرا أحسست وكأني أختنق . فحاولت أن
أصرخ . ولكن صوتي احتبس في حلقي وظللت أصيح بلا صوت
فترة من الزمان بدت لا نهائية . وأخيرا أمكنتني أن أخرج عنة
فاستيقظت مرددة أنيني بصوت مرتفع .

كان المصباح مضاء على المنضدة الصغيرة بجانب الفراش . وقد
اتكأ سونزونيو برأسه على إحدى ذراعيه وهو يتأملني . فسألته
قائلة : « هل طال نومي ؟ » .

فقال مطبقا أسنانه : « نصف الساعة » .

فرميته بنظرة لم تزل ممتلئة برعب الكابوس الذي تراءى لي
لأنه سألتني وفي صوته نبرة غريبة كمن يريد أن يدخل في جدال
قائلا : « أما زلت خائفة ؟ » .

- « لست أدري » .

فقال : « لو عرفت من أنا لزاد خوفك مني عنه في أي وقت مضى » .

ان الرجال جميعا يميلون الى التحدث عن انفسهم عقب المضاجعة
والى وضع ثقتهم في المرأة التي يمارسون الهوى معها . ومن الواضح
ان سونزونيو لم يكن استثناء من هذه القاعدة . وقد تميزت
لهجته بعدم المبالاة والكسل بل والعطف كما خالجتها مسحة من
الخيلاء والرضا عن النفس . ولكنني لشد ما انتابني الخوف مرة
أخرى حتى ان قلبي أخذ يثب في صدري وكأنه يوشك أن ينفجر .
فسألته قائلة : « لماذا ؟ من أنت ؟ » .

فنظر الى لا مترددا ، بل متذوقا تأثير كلماته على ، وأخيرا قال

في بطة : « أنا بطل فيا بالسترو . ذلك هو انا » .

لم يرد ضرورة شرح ما حدث في فيا بالسترو . وكان عندئذ محقا
في خيالاته . فثمة جريمة رهيبه قد ارتكبت حديثا في أحد منازل
ذلك الشارع ، وقد امتلأت بأخبارها الصحف ، كما ظل يناقشها
كل من تستهويه مثل هذه الأخبار ، وفي الواقع فان أمي التي

كانت تقضي معظم النهار في تبحر اناء الجريمة في الصحف كانت
اول من حدثني عنها . وموضوعها ان صائغا شابا قتل في سقته
حيث يقيم وحده . ومن الواضح ان السلاح الذي استخدمه
سونزونيو - اذ اننى تأكدت الآن من انه القاتل - كان مثقلة للورق
برونزية ثقينة . لم يجد رجال الشرطة خيطا يعينهم في مهمتهم .
ومن الواضح أيضا ان الصائغ كان يتقبل السلع المسروقة فظن
رجال الشرطة - وهم على حق في ذلك كما سنرى - انه قتل اثناء
عقد احدي الصفقات التي حرمها القانون .

وطالما لاحظت اننا كلما سمعنا نبأ يملؤنا بالدهشة او الرعب
تصير اذهاننا صفحة بيضاء ثم نوجه انتباهنا الى اول شيء تقع
عليه ابصارنا بطريقة غريبة وكأننا نريد ان نخرق سطحه لنصل
الى سر مجهول يختفى في داخله . ذلك هو ما حدث لى بعد ان
كشف سونزونيو عن شخصيته . فقد فتحت عيناي على سعتهما
وصار ذهني خاويا كوعاء كان يحتوى على سائل معين او مسحوق
دقيق ثم أخذ يرشح فجأة ، غير ان عقلى رغم فراغه كان على
استعداد لتلقى مادة جديدة بل ينتظر مترقبيا ذلك . وقد ألمنى
ذلك الاحساس لاننى كنت اتوق الى ملء فراغه ولا اقوى عليه .
وفي تلك الاثناء لم أفتأ أحملق في معصم سونزونيو الذى تمدد
بجانبى متكئا على أحد مرفقيه . وكانت ذراعه بيضاء ملساء ناعمة
ولكنها رغم امتلائها لم تنبئ قط بقوته الخارجة عن المألوف .
كما كان معصمه ناعما ابيض اللون محاطا بسوار من الجلد كسوار
الساعة ولكنه بلا ساعة . وكان ذلك هو الشيء الوحيد الذى ظل
محتفظا به من ملابسه على جسده العارى . وقد بدا لى أن لون ذلك
السوار القاتم الشحيم كان يضيف بعض المعنى لا على ذراعه فحسب ،
بل على جسده الابيض العارى بأكمله . وأخذت اطوف بعقلي حول ذلك
المعنى دون أن أتمكن من اكتشافه . كان معنى مشئوما يذكرنى
بحلقة في قيد سجين . ولكن ثمة شيئا آخر حول سواره الجلدى
جمع بين الفتنة والقسوة ذلك انه كان أشبه بحلقة تبرز في
سونزونيو طابع وحشيته العائدة الحاجة . ولم يستمر فواغ
ذهنى سوى لحظة واحدة لم يلبث بعدها أن امتلأ رأسى فجأة
بحشد من الخواطر الصاخبة المضطربة التى لم تفتأ تخفق هنا
وهناك كالطيور الحبيسة في قفص مزدحم . وتذكرت اننى أحسست
بالخوف نحو سونزونيو منذ اللحظة الاولى . كما تذكرت اننى

ضاجعته فأدرکت عن طريق حسنى المروع حين استسلمت
لاحصانه في الظلام كل ما كان يخفيه عني حتى قبل أن يدركه عقاب
الجاهل وذلك هو السر في صرختي المدوية .

فسألته قائلة : « ولماذا فعلت ذلك؟ » كان هذا هو أول ماخطر لى
ولم تكذ شفته تتحركان وهو يجيبنى قائلا : « كان معى شىء
قيم أريد أن أبيعہ ، وكنت أعلم انه خنزير قدر ولكننى لم اكن
أعرف تاجرا سواه . فعرض على سعرا مضحكا . وكنت أكرهه
من قبل لانه سبق أن غمطنى حتى . فطلبت اليه أن يرد لى سلعتى
ونعته بالفش ، فقال لى شيئا أفقدنى صبرى . »

فسألته قائلة : « ماذا قال ؟ » وقد لاحظت الآن لدهشتى ان
خوفى أخذ يفارقنى رويدا عندما بدأ سونزونيو يروى لى قصته .
وأثارنى على الرغم منى احساس بالاثم المشترك . وعندما سألتہ عما
قاله الصائغ لاحظت أننى كنت أتمنى أن يكون شيئا شنيعا مسيئا
للمغاية يجعل الجريمة مغتفرة ان لم تكن مبررة تماما .

فأجابنى قائلا باختصار : « قال انه سيسلمنى للشرطة ان لم
أذهب ، فحدثت نفسى قائلا : « حسبى هذا » . وعندما استدار
بعيدا . . . » ولم يتم عبارته بل أخذ يحمق فى بنظرة ثابتة .
ثم سألتہ قائلة وقد بدا فضولى عندئذ بلا هدف أو غاية :
« وكيف كان يبدو ؟ » .

فأجابنى قائلا فى دقة : « أصلع الرأس ، قصير القامة الى حد
ما ، ذا وجه ماكر كوجه الارنب البرى » . ولكنه كان يتكلم وقد
ارتسم على وجهه تعبير ينبئ بالكراهية الهادئة غير المنفعلة مما
جعلنى أتمثل الرجل أمامى وأكرهه أنا أيضا ، ذلك اللعين ذو
الوجه الارنبى الذى كان مخادعا مريبا فى تقديره لقيمة السلعة التى
حملها اليه سونزونيو . وزايلنى الخوف تماما . فقد بدا لى ان
سونزونيو قد نقل الى كراهيته لضحيته مما جعلنى أشك حتى فى
ادانته . وقد بدا لى بالفعل أننى فهمت ما حدث فهما جيدا حتى
أحسست أننى أيضا ربيبا كنت جديرة بارتكاب نفس الجريمة .
فلشد ما فهمت عبارته التى قال فيها : « قال لى شيئا أفقدنى صبرى! »
كما حدث أن فقد صبره مرة مع جينو ثم معى . وان كنا أنا وجينو لم
نزل على قيد الحياة فذلك مرجعه الصدفة السعيدة فحسب . لشد ما
فهمته ولشد ما استطلعت خبيثة نفسه حتى أننى لم يزايلنى الخوف

www.Librarary4arab.com/vb
منه فحسب ، بل أحسست نحوه بنوع من الجاذبية المفزعة ، تلك
الجاذبية التي لم استطع أن أحس بها عندما كنت أجهل كل شيء
عن الجريمة ولم يعد أن يكون في نظري عندئذ أحد عشاقى الكثيرين .
فسألته قائلة : « ألسنت أسفا ؟ الا تشعر بالندم لارتكابها ؟ »
فأجابنى قائلا : « لقد انتهى الامر الآن » .

فنظرت اليه بامعان وتولتني الدهشة عندما وجدتني أوميء
براسى مستحسنة اجابته . ثم تذكرت ان جينو أيضا كان بلغة
سونزونيو خنزيرا قدرا ومع ذلك فقد كان رجلا هو أيضا وأحببني
وأحببته . وخيل لى اننى بهذه الطريقة ربما وجدتني موافقة على
قتل جينو فى المستقبل القريب . فقد اعتقدت ان الصائغ قبل كل
شيء لم يكن أفضل من جينو أو أسوأ منه فى شيء . ولا فارق
بينهما سوى اننى لم أكن أعرفه . وقد وجدت ان قتله كان له
ما يبرره لا لسبب الا لاننى سمعت شخصا يقول عنه بلهجة معينة
ان له وجها كوجه الارنب . فامتلات نفسى رعبا وتبكيئا - لا من
أجل سونزونيو الذى خلق على هذه الصورة وكان لابد ان تفهم
نفسيته قبل الحكم عليه . بل من أجل نفسى لان عدوى الكراهية
والدم قد انتقلت الى رغم اننى لم أخلق على هذه الصورة مثل
سونزونيو واستويت على الفراش وانا فى حالة من الاضطراب هاتفة :
« يا الهى ! يا انهى ! لماذا فعلت ذلك ؟ ولماذا أخبرتنى به ؟ » .

فأجابنى قائلا فى بساطة : « لشهد ما كنت خائفة منى مع أنك
لم تعرفى شيئا عنى . وخيل لى ان هذا امر غريب فأخبرتك بما
حدث » . ثم أردف قائلا وهو مسرور بفكرته : « ومن حسن
الحظ ان الباقيين ليسوا جميعا على شاكلتك والا لكنت الآن
مقبوضا على » .

فقلت : « يحسن بك ان تذهب وتتركنى لشأنى . هيا . . »
فسألنى قائلا : « والآن ماذا دهاك ؟ » .

www.Librarary4arab.com/vb
وأمكننى أن أتبين من لهجته أنه قد بدأ ينتابه الغضب . ولكن
خيل لى أيضا اننى لاحظت عليه نوعا من الحرور احساسه بالوحدة
وبأنه مدان فى نظر الجميع حتى انا مع اننى كنت قد وهبته نفسى
قبل ذلك بلحظة واحدة .

فأسرعت مردفة : « لا تحسبنى خائفة منك . فلا اثر للخوف
فى نفسى . ولكننى يجب ان أروض نفسى على الفكرة وأن اتدبر

الامر . وبعد ذلك يمكنك ان تأتي الى وسوف تجدنى متغيرة « .
فقال : وفيه تفكيرين ؟ ليس في نيتك ان تسلمينى الى الشرطة .
اليس كذلك ؟ »

وقد خالجنى ازاء هذه الكلمات ذلك الاحساس الذى
راودنى عندما روى لى جينو قصة غدره بالخادمة وكان على
الذى أعيش فيه يختلف عن عالم سونزو نيو . فتكلفت مشقة
فى السيطرة على نفسى قائلة : « ولكننى أقول لك انه يمكنك
المجئ ! أتعرف ماذا تقول لك أية امرأة أخرى ؟ تقول انها تريد
ان تقطع كل صلة بك والا تراك مرة أخرى » .
- « ولكنك فى نفس الوقت تأمريننى بالذهاب ؟ »

- « خليك راغبا فى ذلك . فالامر لا يهم ان طال بقاؤك دقيقة
او قل دقيقة . ولكنك ان شئت البقاء فلتبق ! أتريد ان تنام
هنا ؟ يمكنك ان شئت ان تنام معى ثم تنصرف غدا صباحا .
أهذا هو ما تبغى ؟ » وقد اقترحت ذلك فى الواقع بصوت كئيب
حائر حزين . ولا ريب انه قد بدت فى عيني نظرة حائرة ومع ذلك
فقد كان ذلك هو اقتراحى وكنت أعلم اننى مسرورة به . ولعلنى
كنت مخطئة ولكن نظرت الى بدا لى فيها بصيص من العرفان .
فقال وهو يهز رأسه : « كلا . فذلك كلام فحسب . اذ ينبغى
ان أذهب » . ثم نهض واقفا واتجه الى المقعد حيث ترك ملابسه .

فأجبت قائلة : « كما تشاء . ولكنك ان أردت البقاء فأنت
تعلم ان ذلك فى امكانك » . ثم أضفت قائلة فى صعوبة : « وان
احتجت الى مأوى فى احدى الليالى فيمكنك ان تأتي الى هنا » .

فلم ينبس بكلمة ، بل راح يرتدى ملابسه . فنهضت انا أيضا
وتدثرت بعباءة . ثم أحسست بالجنون وأنا أتجول فى الغرفة التى
بدت وكأنها قد امتلأت بأصوات لم تفتأ تهمس فى أذنى بكلمات
منفصلة مخبولة . ولعل ذلك الاحساس بالجنون هو الذى جعلنى
أقدم على شئ دون ان أفهم حينئذ السر فى اقدمى عليه . فبينما
كنت أتجول فى الغرفة متحركة فى بدء رغبم احساسى بالجنون ؟
رأيتة ينحنى ليعقد رباط حذائه . فركعت أمامه فى الحال قائلة :
« دعنى أعقده لك » . فانتابته الدهشة ولكنه لم يحتج . فأمسكت
بقدمه اليمنى ووضعتها فى حجرى ثم عقدت الرباط عقدة مزدوجة .
وهكذا فعلت فى القدم اليسرى . فلم يشكرنى ولم ينبس بكلمة .

ولعل كلينا لم يفهم السر فيما فعلت . ثم ارتدى ستترقه وأخرج
حافظه كمن يهيم بأعطائي نقوداً . فقلت في حدة : « كلا . كلا .
لا تعطني شيئاً . . فهذا لا يهم » .

فسألني قائلاً في غضب : « لماذا ؟ أليست نقودي كنقود غيري ؟ »
وخيل لي أنه من الغريب إلا يفهم نفوري الغريزي من النقود التي
ربما كانت مسلووبة لتوها من جيب القتييل . ولكن لعله كان
يدرك ذلك فعلاً غير أنه ينبغي أن يعرضني للشبهة بجعل شريكة في
الجريمة على صورة ما . كما أراد في نفس الوقت أن يقف على
حقيقة شعوري نحوه .

فقلت : « كلا . لم أقصد ذلك . ولكنني عندما استفتت بك
لم أكن أفكر في النقود . فهذا لا يهم » .
فهدأ روعه قائلاً : « حسناً . ولكنني أحب أن أترك لك
تذكارا » . ثم أخرج شيئاً من جيبه وضعه على رخامة المنضدة
الصغيرة .

فتأملته دون أن التقطه فاذا به تلك « البدارة » التي سرقتها
من مخدومة جينو قبل ذلك ببضعة شهور .
فتلعثمت قائلة : « ما هذه ؟ »

- « لقد أعطانيها جينو . وهي تلك السلعة التي كان علي أن أبيعها
وأراد الصانع أن يحصل عليها دون مقابل . ولكنها في اعتقادي
ثمينة للغاية حقاً ، فهي من الذهب . . »
فقلت متحكمة في نفسي : « شكراً » .

فأجاب قائلاً : « لا موجب للشكر مطلقاً » . ثم ارتدى معطفه
الواقى من المطر وشد حزامه وخاطبني قائلاً من مدخل الفرفة :
« اذن فالى اللقاء » . ثم ما لبثت أن سمعت الباب الخارجى
يفلق .

وما ان خلوت الى نفسي حتى اتجهت الى المنضدة الصغيرة
لالتقط « البدارة » فأحسست بالحيرة والذهول وانتابتنى في نفس
الوقت دهشة كئيبه . كانت « البدارة » تتلألأ في يدي وفجأة بدت
الياتونة النسيبة في القفل وكأنها تكبر في الحجم حتى صارت قطرة
حمراء مستديرة لم تفتأ تتسع حتى غطت الذهب . فكانت راحة
يدي تحتوى على بقعة لامعة مستديرة من الدم تعادل في وزنها
« البدارة » نفسها . وما ان هزرت رأسي حتى اختفت البقعة
الحمراء ومرة أخرى لم أعد أرى سوى « البدارة » الذهبية ذات

القفل المرصع بالياقوت : ثم أعدت « البدارة » الى مكانها على المنضدة الصغيرة واضطجعت على الفراش متدثرة بعباءتى حيث اطلت النور وبدأت افكر .

وخيل لى انه لو رويت لى قصة « البدارة » لوجدتها مسلية للغاية . وكان ما يروى لى هو سلسلة من الظروف التى لا يكاد يمكن تصديقها . فهى من تلك القصص التى تستفزنا هاتفين : « يا لها من صدفة ! » كما ان النساء ممن على شاكلة أمى يحسبن على أساسها أرقام اليانصيب ، فهذا الرقم يمثل الرجل الميت وذاك يمثل الذهب وذاك يمثل اللص . ولكنها عندئذ وقعت لى وأدركت لدهشتى الفارق بين وجودى فى داخل الواقعة وبين وجودى كشخص غريب فحسب . وكانت طريقة حدوثها أشبه بشخص وضع بذرة فى الارض ثم نسيها . وعندما عاد اليها ألفاها نباتا زاهرا تكسوه الاوراق والبراعم التى توشك على التفتح . ولكن - يا لها من بذرة ويا له من نبات ويا لها من براعم ! وأطلقت العنان لذاكرتى فأخذت تنقلنى من شىء الى آخر ولكنى لم أستطع ان اعثر على نقطة البداية . لقد أسلمت نفسى لجينو آملة ان يتزوجنى ولكنه غدر بى فسرقت « البدارة » لأكيد له . ثم صارحته بالسرقة فانتابه الخوف . ولكى أحول دون طرده من عمله أعدت اليه « البدارة » حتى يتمكن من ردها الى صاحبته . ولكنه بدلا من ردها احتفظ بها . وخشية ان يتهم بالسرقة الصق التهمة بالخادمة التى أرسلت الى السجن . وكانت الخادمة بريئة وكانوا يضربونها فى السجن . وفى تلك الاثناء كان جينو قد أعطى سونزونيو « البدارة » لبيعها له فذهب سونزونيو الى الصائغ . فأساء الصائغ الى سونزونيو . فقتله وهو فى سورة غضبه . فمات الصائغ وأصبح سونزونيو قاتلا . وأدركت اننى بمتابعتى للأحداث لا يمكننى ان أنحى باللائمة على نفسى والا لاضطرت ان أقول ان رغبتى فى الزواج وتكوين أسرة كانت هى السبب الاول فى تلك الكوارث المتلاحقة . ولكنى مع ذلك لم أستطع ان أتخلص من الاحساس بالرعب وتأنيب الضمير . وأخيرا وبعد تفكير طويل لم يسعنى الا ان اعترف بأن الخطأ كله راجع الى - الى ساقى وردفى ونهدى - الى كل ذلك الجمال الذى لشد ما زهت به أمى وهو فى حد ذاته صفة بريئة كل البراءة شأنه فى ذلك شأن كل ما تهبه ايانا الطبيعة . ولكن تلك الخواطر كان مبعثها

سخطي وبأسي . اذ اننا نسمع لخاطر واحد سخيف بأن يطرد ما
عداه من الدخائل التي تعرفه سخفاً مرة . وكنت اعلم في قرارة
قلبي ان اللوم لا يقع على أحد في الحقيقة وان كل شيء حدث كما
كان مقدراً له أن يحدث ولو ان الأمر كله كان يفوق الاحتمال .
وان كان لابد حقاً من وجود مذنب وبريء فان كلا منا كان مذنباً بقدر
ما كان بريئاً .

وفي تلك الاثناء اخذ الظلام يكتنفي رويدا رويدا كمياء الفيضان
التي تصعد من الطابق الارضي الى الطوابق العليا في المنزل . وكانت
قدرتي على الحكم هي اول ما غمرته الظلمة . ولكن خيالي من
الناحية الاخرى لم يفتأ يداعبه سحر جريمة سونزونيو حتى آخر
لحظة . ومع ذلك فان الجريمة كانت بعيدة كل البعد عن أي ارتباط
باللوم أو الرعب كواقعة تتميز بفتنتها الغريبة الخاصة ولا سبيل
الى تفسيرها . تخيلت سونزونيو وهو يسير في شارع فيا بالسترو داسا
يديه في جيبى معطفه الواقي من المطر ثم تخيلته عند دخوله المنزل
ووقوفه في ردهة الشقة في انتظار قدوم الصائغ الذي تمثلته وهو
يدخل الغرفة مصافحاً سونزونيو متخذاً بعد ذلك مكانه على المقعد
خلف منضدته بينما يقدم اليه سونزونيو « البدارة » فيفحصها
وهو يهز رأسه متظاهراً باحتقارها . وعندئذ يرفع وجهه الارنبى
مقدماً عرضه المضحك فينظر اليه سونزونيو نظرة شاخصة وقد
امتلات عيناه بالغضب ثم يخطف « البدارة » من يده في عنف متهما
اياه بالرغبة في خداعه . فيرد عليه الصائغ مهدداً اياه ببلاغ الشرطة
وينذره بمغادرة الدار . وعندئذ يشيح بوجهه بعيداً او يحنى رأسه
كمن يريد أن ينهى المناقشة . فيلتقط سونزونيو مثقلة الورق
البرونزية ويضربه بها مرة على رأسه . فيحاول الصائغ أن يهرب .
ولكن سونزونيو ينقض عليه ويظل يضربه حتى يتأكد تماماً من
أنه فارق الحياة . ثم يدفعه سونزونيو الى الارض ليفتش الادراج
فيأخذ منها كل ما أمكنه العثور عليه من نقود ثم يولى هارباً .
ولكنه قبل انصرافه يرفس القليل في وجهه وهو في سورة غضبه كما

سبق أن قرأت في الصحف .
واخذت أتأني مفتونة بتفاصيل الجريمة جميعها . وتابعت
سونزونيو متقمصة حركاته فيما يشبه الحب . فكنت أنا اليد التي
قدمت « البدارة » والتي التقطت مثقلة الورق وضربت الصائغ .
وكنت أنا القدم التي سحقت وجه القليل في غضب عندما

انتهى كل شيء . ولكن تلك الرؤى كانت خالية من كل اثر للربح
أو اللوم كما خلت أيضا من الموافقة والاستحسان كل ما حدث انني
احسست بنفس المنة الغريبة التي لا تتأثر اودنا ونحن أطفال كلما
انصتنا الى قصص امهاتنا حيث نجد الدفاء في انكماشنا بالقرب
منهن متابعين في انتباه مفتون مغامرات اولئك الابطال الاسطوريين .
غير ان قصتي كانت بشعة دامية مخيفة بطلها سونزوونيو فخالطت
متعتي بها كآبة لا معدي عنها . وبينما كنت احاول اكتشاف المعنى
الخفى للقصة اذا بي ابدأ في استعراضها من جديد وتلخيص مراحل
الجريمة جميعا . فعاودني ذلك الاحساس بالمتعة الغامضة ووجدتني
أقف وجها لوجه أمام السر الغامض من جديد . واستغرقت
في النوم بين حدثين في تخيلاتى كمن يهوى برأسه في الفراغ الفاصل
بين هوتين لاساءته تقدير المسافة بينهما .

ونمت زهاء ساعتين ثم استيقظت . أو الاحرى اننى بدأت
استيقظ جسمانيا بينما ظل عقلى في حال من الخدر والركود -
وكانت يداى هما أول ما استيقظ في جسدى فمددتها أمامى في
الظلام كما يفعل الاعمى دون أن أدري أين كنت . ورغم أننى عندما
استغرقت فى النوم كنت ممددة بطولى على الفراش فقد وجدتنى
أقف الآن منتصبه القامة فى فراغ ضيق ينحصر بين جدارين أملسين
عموديين ليست بهما شقوق أو كسور مما أوحى الى فى الحال
بزناة السجن . وتذكرت فى نفس الوقت تلك الخادمة التى تسبب
جينو فى القبض عليها . كنت انا نفسى تلك الخادمة فقد احسست
فى قلبى بكل ما كانت تعانيه من ألم مبرح لما لحقها من ظلم . ثم
تحول ذلك الألم الى الاحساس الجسمانى بأنى الخادمة نفسها . وقد
بدلنى أساها وجسنى فى جسدها وأعارنى وجهها وفرض على
حركاتها . فاحتفتت وجهى بيدي وبكيت متخيلة نفسى وقد أودعت
ظلما زناة السجن حيث لا سبيل مطلقا الى الهرب . ولكننى كنت
أعلم فى نفس الوقت اننى أدريانا التى لم تقاس ظلما والتي لم تودع
السجن قط . وكنت أعلم اننى بحركة واحدة خليفة باطلاق سراحى
فلا أحس بعد ذلك بأنى الخادمة . غير اننى لم أستطع ان أسجل
كيف يمكن أن تكون تلك الحركة - رغم معاناتى على صورة لا توصف
بسبب رغبتى فى الهرب من سجن الشفقة والألم . وفجأة ومض
فى خاطرى اسم أستاريتا وقد أبرق به ضوء متقطع مرتعش كذلك
الذى يبدو لعينى المرء عندما يتلقى ضربة عنيفة . فحدثت نفسى

قائلة : « سأذهب لمقابلة آستاريتا حتى يفرج عنها » . ومددت
يدي مرة أخرى واكتشفت شقا ضيقا في الجدران العمودية لزنزانتى
يمكننى أن أهرب منها . فتقدمت بضع خطوات في الظلام وهناك
أحسست بمفتاح النور تحت أصابعى فأدركته بسرعة هستيرية .
فافترش الضوء الغرفة . واذا بى واقفة بالقرب من الباب عارية
لاهثة يتصبب العرق البارد على وجهى وجسدى . ولم تكن الزنزانة
التي احتبست فيها سوى الزاوية القائمة بين صوان الملابس وركن
الغرفة وخزانة الثياب وكانت تشكل فراغا ضيقا يكاد ينحصر تماما
بين الجدران وقطع الاثاث . فلا ريب اننى نهضت أثناء نومي وتجولت
هنا وهناك حيث أقحمت نفسى في تلك الزاوية .

أطفأت الضوء مرة أخرى وعدت في ببطء الى الفراش . ولكننى
أدركت قبل استغراقى في النوم انه لا يمكننى بالطبع أن أبعث الصائح
الى الحياة . ولكننى أستطيع أن أنقذ الخادمة أو أحاول انقاذها
وهذا هو كل ما يهم . ومما زادنى الآن احساسا بذلك الواجب
اكتشافى اننى لم أكن خيرة كما كان اعتقادى دائما في نفسى . أو
على الاقل ان الخير في نفسى لم يخل من الميل الى سفك الدماء
والاعجاب بالعنف والاستمتاع بالجريمة .

الفصل الرابع

وفي اليوم التالي ارتديت ملابسى بعناية وألقيت « البدارة » فى حقيبتي ثم غادرت الدار لأتصل بأستاريتا تليفونيا . وكنت منشرحة الصدر على صورة غريبة . فقد تلاشى تماما ذلك الالم المبرح الذى سببه لى سونزونيو فى الليلة البارحة بما أظهرنى عليه من أسرار . وطالما لاحظت فى حياتى منذ ذلك الحين ان الزهو هو ألد أعداء الاحسان والتبكيك الادبى . فكان شعورى الآن نوعا من الزهو بدلا من الخوف والرعب وذلك لاعتقادى انه لم يكن فى المدينة من يعلم طريقة ارتكاب جريمة فيابالسترو أو شخصيه مرتكبها سوى . فحدثت نفسى قائلة : « انى أعرف من الذى قتل الصائغ » وأخذت أنظر الى الناس والاشياء نظرة تختلف عن نظرتى اليها البارحة . بل خيل لى ان وجهى لابد أن يكون قد طرأ عليه شيء من التغير . وخشيت أن يرى الناس فى تعبير وجهى سر سونزونيو . وراودنى فى نفس الوقت حنين هادىء لزيد غلاب الى الكشف عن خبيئة نفسى . فقد فاض قلبى بالسر كما يفيض الاناء الصغير بالماء واستمالتنى اغراء ان استودعه غيرى . وأعتقد ان هذا هو السبب الرئيسى فى ان الكثيرين من المجرمين يظهرون خليلاتهم وزوجاتهم على الجرائم التى يرتكبونها فيبوح بها النساء الى اخلص الاصدقاء ليفضوا بها بدورهم الى غيرهم وهكذا حتى تبلغ مسامع الشرطة فيكون فى ذلك هلاكهم جميعا . ولكننى أعتقد أيضا ان المجرمين يحاولون بحديثهم عن جرائمهم أن يتخففوا من عبء لا يطاق باشارك غيرهم فيه وكأن الجرم طرد كبير يمكن تقسيمه الى طرود صغيرة يحملها عدد كبير من الناس فتخف وطأته وتقل خطورته ولا يكون كما هو فى الواقع عبئا يتعذر نقله ولا يقل وزنه مطلقا بمشاركة الآخرين بل على العكس يزيد وزنه فى الحقيقة كلما زاد عدد حامليه . وبينما كنت أجوب الشوارع بحثا عن تليفون عمومى ابتعت جريدتين لاستطلع مزيدا من التفاصيل فى جريمة فيابالسترو . ولكن الجريمة كانت قد مضت عليها بضعة أيام فلم أجد سوى مسطور قليلة مخيبة للأمال تحت عنوان : « لا أدلة فى مصرع

الصائح « . فأدرت ان سونزونيو لن يكتشف امره ما لم يرتكب خطأ آخرق . ومما جعل تحريات الشرطة معذرة الفاهة ان القتل كان يمارس عملا غير مشروع . فان الصائح كما قالت الصحف كانت له اتصالات خفية لا يقرها القانون بأناس من جميع الطبقات والبيئات . وربما كان القاتل شخصا لم يره قط من قبل وقد قتله من قوره . وكان ذلك التفسير اقرب ما يكون الى الحقيقة . ولكنه لما كان غاية في الصحة لذلك السبب بعينه فمن الواضح ان رجال الشرطة كانوا قد فقدوا كل امل في الوصول الى القاتل .

وعثرت على تليفون عمومي في مطعم صغير فاتصلت بأستاريتا . ولم أكن قد اتصلت به لمدة ستة أسابيع على الاقل فلاريب انه فوجيء بي لانه لم يتعرف على صوتي في بادىء الامر وخاطبني بتلك اللهجة العملية التي يستخدمها في مكتبه الى حد أنه تبادر الى ذهني لحظة انه لا يبغى ان تكون لى به صلة بعد ذلك . وتوقف قلبي عن الخفقان عندما تذكرت تلك الخادمة السجينة التي شاء سوء حظها ان ينبذني أستاريتا في اللحظة التي كان لابد فيها من تدخله لانقاذ تلك المرأة التعسة . ومع ذلك فان ياسي قد خالطه بعض السرور لانه عندما عاودني ادراك الخير في نفسي صرت ارى ان الافراج عن تلك المرأة امر يهمني حقا . واننى كنت رغم اتصالي الوثيق بالقاتل سونزونيو لا ازال كما كنت دائما أدريانا الرقيقة العطوف .

فأدليت باسمى لأستاريتا في خوف ورجفة ولكنى شعرت بالارتياح عندما سمعت لهجة صوته تتغير في الحال فينتابه التردد والتسرع ويتعثر في الفاظه . ولا يفوتنى ان اعترف بأننى أحسست نحوه عندئذ باندفاع عاطفى لان حبا من ذلك النوع الذى لا يفتأ يدغدغ كبرياء المرأة كان خليقا ان يبث الطمأنينة في نفسى ويشعرنى عندئذ بفيض من العرفان . فضربت له موعدا بلهجة عذبة رقيقة فوعدنى بضرورة حضوره ثم غادرت المطعم .

كان المطر لا يفتأ يهطل بغزارة أثناء ذلك الكابوس الذى تراءى لى . وطالما سمعت في نومى هسيس المطر منطلعا بصنير الريح فكانا يشيدان حول منزلى جدارا من الطقس الردىء مما لم يفتأ يزيد من وحشة ذلك الظلام الذى اكتنفتى أثناء صراعى مع الكابوس ولكن المطر كان قد انقطع قرب الصباح واستطاعت نفثات الريح الاخيرة ان تبدد الفيوم فصفت السماء وصار الهواء نظيفا عريلا .

وبعد ان تم اتصالي بأستاريتا اتخذت طريقى فى شارع تحف به
أشجار الدلب بينما أشرقت شمس الصباح الباكر . وكنت أشعر
بدوار طفيف هو كل ما خففه تلك الليلة المورقة ولكنه ما لبث
أن تبدد مع الهواء البارد . ولشد ما أبهجنى ذلك اليوم الجميل .
فكان كل ما يقع عليه بصرى يتميز بلون من الفتنة التى تجذبنى
وتسرنى . فأعجبت برقاع البلل التى ما زالت تحوف بأحجار
الافاريز الجافة . وأعجبت بالمنازل التى ما برحت تحمل على واجهاتها
آثار المطر الغزير الذى انهمر اثناء الليل فى رقاع كبيرة من البلل .
كما أعجبت بالمارة من رجال يهرعون الى أعمالهم وخادمات يحملن
حقائب السوق وفتية وفتيات يتأبطون كتبهم وحقائبهم المدرسية
ممسكين بأيدي أولياء أمورهم وأخوتهم الكبار . وتوقفت عن
المسير لأتصدق على سائل مسن . وبينما كنت أبحث فى حقيبتى
عن بعض النقود وجدتنى أحملق بشفف فى عباءته العسكرية البالية
مسرورة بتلك الرقاع التى توسطت الكمين عند المرفق وأحاطت
بالياقة . فكانت هناك رقاع رمادية وبنية وصفراء وخضراء باهتة
وأدركت مدى شغفى بملاحظة ألوانها ومشاهدة حياكتها المتقنة

بخيط قطنى اسود فى غرز كبيرة . وفوجئت بنفسى وأنا أتخيل
كيف كان يعمل ذات صباح وهو يقص الاجزاء البالية بالمقص مدبرا
الرقاع من خلق قديم ليضعها على الثقوب ويحيكها فى عشق . وقد
بعثت تلك الرقاع فى نفسى سرورا كذلك الذى يبعثه منظر الخبز
الطازج فى نفس الجائع . وعندما فارقه لم أتمالك نفسى من النظر
الى الخلف لأتأملها مرارا وتكرارا . وخطر لى فجأة كم تكون الحياة
رائعة جميلة لو كانت فى شفافية ذلك الصباح وصفائه وجماله ولو
زايلها كل ما علق بها من مظاهر قدرة حتى يمكن النظر فى شفف

الى احقر ما فيها من اشياء . وقد أحيى ذلك الخاطر رغبتى فى
حياة عائلية طبيعية فى كنف زوج وفى منزل جديد نظيف مرتب
مضى . تلك الرغبة التى طال نومها وكبتها . وأدركت اننى لم أكن
أحب مهنتى رغم استعدادى الطبيعى لها على ما فى ذلك من تناقض
غريب . فانها لم تكن تبدو لى مهنة نظيفة . اذ كان يخيل لى ان
حسدائى وأصابعى وأرأشى كانت جميعها لا تتألف فوج منها رائحة
العرق العفنة والدفء النجس والروائح اللزجة التى لا سبيل الى
زوالها مهما اغتسلت ومهما نظفت غرفتى ونظمتها . كما كان ارتداء
ملابسى وتجردى منها كل يوم تقريبا على مرأى من رجال مختلفين

يحرمانني من متعة النظر الى جسدي مع احساس باللذة والخلوة
ذلك الاحساس الذي اذكر انه كان لا يفتأ يراودني وأنا فتاة صغيرة
كلما تأملت صورتي في المرآة أو ذهبت الى الحمام . فانه لمن
المتع ان يتمكن الانسان من تأمل جسده وكأنه يتأمل شيئا جديدا
مجهولا وهو لا يفتأ ينمو ويقوى ويزيد جمالا من تلقاء ذاته . ولكنني
حرمت نفسي من تلك المتعة الى الابد لكي أوحى الى عشاقى
بالجدة في كل مرة .

وعلى ضوء تلك الخواطر بدت لي جريمة سونزونيو وخبث جينو
وكوارث الخادمة وجميع الدسائس الاخرى التي اشركت فيها نتائج
تمخضت عنها حياتي المضطربة . ولكن تلك النتائج لم تكن تنطوي
على معنى خاص ولم تكن تبعث في نفسي احساسا بالاثم بل كان
في وسعي تنحيها جانبا حالما أستطيع اشباع رغبتى الفضة اليافعة
في حياة طبيعية . وأحسست برغبة غامرة ملحة في تنظيم حياتي
من جميع الوجوه والتراضى مع القيم الاخلاقية التي تدين مهنتى
والاتفاق مع الطبيعة التي تبغى من امرأة في مثل سنى ان تحمل
اطفالا ومصافاة الذوق السليم الذي أعد الحياة ليحيها المرء بين
اشياء جميلة رافلا في ثياب جديدة خلاصة ومقيما في منازل مضيئة
نظيفة مريحة . ولكن كلا من هذه العناصر الثلاثة كان يستبعد
غيره . فلو شئت ان أكون على وفاق مع الاخلاق لما استطعت في
نفس الوقت ان أتفق مع الطبيعة . أما الذوق السليم فان الاخلاق
والطبيعة تقلبانها رأسا على عقب . وما ان عرفت انى مدينة
لضرورات الحياة ولا يمكننى سد مطالبها الا بالتضحية بأسمى غاياتي
حتى ملأني ذلك السخط المعهود الذي يلزم المرء حياته بأسرها .
ولكنني أدركت من جديد انى لم أذعن بعد لمصيرى اذنانا تاما مما
بعث في نفسي بصيصا من الامل لاننى استطعت ان أقول لنفسي انه
ما ان تسنح لي فرصة لتغيير حياتي حتى أكون متيقظة لها فأنتهزها
عن وعى وتصميم .

وكنت قد ضربت موعدا لاستاريتا عند الظهر حالما يغادر مكتبه .
فكان على ان أنتظر ساعة او اثنتين . ولما لم يكن لدي ما أتعله فقد
صممت على الذهاب لمقابلة جيزيلا . وكنت قد انقطعت عن مقابلتها
بعض الوقت فخيّل لي ان الفراغ الذي كان يشغله ريكاردو من
قبل في حياتها لابد ان شخصا ما قد ملأه - شخصا لا هر بالخطيب
ولا بالعشيق ، بل بين بين . وكانت جيزيلا تأمل ايضا ان تنظم

حياتها يوما ما . فاني اعتقد ان هذا الامل مشترك بين جميع النساء اللاتي على شاكلتي . ولكنني كنت مبالغة بطبعي الى ذلك في حين ان جيزيلا التي تعلق أهمية قصوى على الاعتبارات الديوية كانت ترى انه اقرب لان يكون موضوع لياقة اجتماعية . فقد كانت تخجل من ان يراها الناس على حقيقتها رغم ان استعدادها لمهنتها كان يفوق استعدادي بكثير . اما انا فلم اكن اشعر بالخجل منها مطلقا ، بل كان يراودني فحسب من وقت لآخر احساس بالعبودية وبالخيانة ازاء طبيعتي .

رما ان بلغت منزل جيزيلا حتى هممت بالصعود ولكن البوابة نادتنى قائلة : « هل أنت صاعدة لمقابلة السنيوريتا جيزيلا ؟ انها لا تقيم هنا الآن » .

- « الى أين ذهبت ؟ »

- « الى شارع فياكازابلانكا رقم ٧ . » وكان شارعنا جديدا يقع في احد الاحياء الحديثة . ثم اردفت قائلة : « لقد جاءها شاب اشقر يملك سيارة فنقل متاعها ورحلت معه » .

فأدرت على الفور ان ذلك هو بالضبط ما كنت اتوقع سماعه ، انها رحلت مع رجل . ولا ادري لماذا انتابني الهزال فجأة وارتعشت ساقي مما اضطرني الى ان اتكئ على عمود الباب خشية السقوط على الارض . ولكنني استعدت هدوئي وقررت بعد لحظة من التفكير ان اذهب لزيارة جيزيلا في عنوانها الجديد . فناديت احدى سيارات الاجرة وأمرت السائق بأن يصحبني الى فياكازابلانكا .

وبينما كانت السيارة تسرع بي لاحظت اننا تركنا وسط المدينة بما فيه من صفوف المنازل القديمة المتقاربة التي ازدحمت بها الشوارع الضيقة . كما لاحظت ان الشوارع أخذت تتسع وتشعب لتلتقي في ميادين مفتوحة ثم لا تفتأ تتسع وتتسع حيث تقوم المنازل الجديدة . وكنت من وقت لآخر المح بينها الريف الاخضر . وأدرت ان رحلتي كانت لها دلالة خفية مؤلمة للغاية حتى انني مع كل لحظة تمر كنت ازداد حزنا وكآبة . واذا بي أتذكر فجأة تلك الجهود التي بذلتها جيزيلا لتجردني من براءتي وتجعلني أحذو حذوها . فأخذت أبكي على صورة تلافائية كما تنزف الجراح .

وعندما غادرت السيارة في نهاية الرحلة كانت عيناي تلمغان بينما ابتلت وجنتاي . فقال السائق : « لا ينبغي أن تبكي يا آنستي » . فلم أزد على أن هزرت رأسي واتجهت نحو الدار حيث تقيم جيزيلا .

www.Librarary4arab.com/vb

كان مبنى صغيرا ابيض اللون حديث الطراز . وكان من الواضح انه شيئا جديدا كما دل على ذلك وجود الترامبل والادوات والالواح الخشبية مكدسة في الحديقة الصغيرة الجرداء ورذاذ الملاط الابيض على قضبان البوابة . فدخلت ردهة بيضاء عارية حيث رايت درجا ابيض اللون ذا نوافذ لبنية يدخل منها الضوء الهادى وقادنى البواب الى داخل المصعد وكان شابا احمر الشعر يرتدى بزة العمال ومختلفا كل الاختلاف عن اولئك البوابين المسنين القذرين الذين تعودنا رؤيتهم . وما ان ضغطت على زر المصعد حتى اخذ يرتفع . وقد شاعت فيه رائحة الكحول والحشب الجديد المصقول وهى رائحة لذيدة . وبدا لى ان هناك شيئا جديدا فى طنين الآلات أشبه بصوت جهاز لم يعمل سوى فترة وجيزة . وارتفع المصعد الى الطابق الاعلى وكان الضوء لا يفتأ يزداد انتشارا كلما ارتفع المصعد فبدا المنزل وكأنه بلا سقف وبدا المصعد وكأنه يرتفع مباشرة الى السماء . ثم توقف عن الصعود وما ان غادرته حتى وجدت نفسى واقفة على بسطة بيضاء ناصعة تخطف الابصار وقد انتشر فيها الضوء الساطع . وامامى باب جميل ذو مقابض نحاسية مصقولة . ثم دققت الجرس ففتحت لى الباب خادمة صغيرة نحيلة سمراء تضع على رأسها قلنسوة بيضاء من الدانتلا وتتشح بوزرة مطرزة . فسألته قائلة : « هل توجد هنا السنيورينا دى سانتس؟ ارجو ان تبليها انى آدريانا » .

فتركتنى وسارت فى دهليز يفضى الى باب ذى الواح زجاجية لبنية اللون كتلك التى رايتها على نوافذ الدرج ، وكان الدهليز بأسره ابيض اللون عاريا أيضا شأن بقية الارضية واعتقدت انها لا بد ان تكون شقة صغيرة تتألف من أربع غرف فقط . وقد شاع فيها الدفء المنبعث من الاجهزة المشعة مما اظهر تلك الرائحة النفاذة التى يتميز بها الجير والطلاء الجديدان . ثم فتح الباب ذو الواجهة الزجاجية الذى يقع فى نهاية الدهليز وعادت الخادمة لتبلىنى انه يمكننى الدخول .

www.Librarary4arab.com/vb

ولم ار شيئا عند دخولى فى اول الامر بصباح شمس الشتاء المعشية التى كانت تفرم الغرفة من خلال نافذة واسعة شغلت الحائط المواجه للباب بأكمله . وكانت الشقة فى الطابق الاعلى فلم يكن يرى من خلال تلك النوافذ سوى رقعة من السماء الزرقاء التى تتألق فى ضوء الشمس . وعندما أغمضت عينى فى ضوء الشمس

الذهبي الدافئ كالخمر المعتق نسيت زيارتي لحظة وخالجني شعور
بالراحة والرفاهية . ولكنني جفلت عند سماعي صوت جيزيلا
التي كانت تجالس امام النافذة وقد جلست لي مواجعتها عبر منضدة
خفيضة مغطاة بالقناني مدرمة الاظافر وهي امرأة شمطاء ضئيلة .

فقلت في فتور متكلف : « آه آدريانا ! أرجو أن تجلسي . فلن
ألبث أن أخلو اليك » .

فجلست بالقرب من الباب وتلفت حولى . فاذا بها غرفة طويلة
ضيقة . ولم يكن بها فى الواقع أثاث كثير ، بل كانت تحتوى على
منضدة وبوفيه وبضعة مقاعد صنعت من خشب زاهى اللون ولكن
كل ما فيها كان يتميز بالجدة وكانت الشمس مشرقة . حقا ان الشمس
كانت وافرة غامرة . فلم يسعنى الا ان أتصور ان مثل هذه الشمس
لا تفر سوى منازل الاغنياء . فأغمضت عيني فى عمد لاستمتع
بذلك الاحساس اللذيذ ولم أفكر فى شيء . فاذا بشيء ناعم ثقيل
يقفز الى حجرى . ففتحت عيني ورأيت قطا كبير الحجم من نوع
لم أره قط من قبل . كان ذا شعر طويل ناعم كالحرير تميل
زرقتة الى الشهبه ويتسم تعبيره الذى لم يرقنى بالعبوس والكبرياء .
وأخذ القط يحتك بى وهو يموء بصوت أجش رافعا طرف ذنبه . ثم
تقوس فى حجرى وبدأ يهر ، فقلت : « ما أجمل هذا القط ! من أى
نوع هو ؟ » .

فقلت جيزيلا فى فخر : « انه فارسى . وهو ثمين حقا . فان
قطا كهذا يبلغ ثمنه ألف ليرة » .
فقلت مرتبة عليه : « لم أر مثيلا له قط من قبل » .

فقلت المدرمة : « أتعرفين من يملك مثيلا له تماما ؟ السننيورا
رادلى . ينبغى أن ترى كيف تعنى به ! أكثر من عنايتها بمخلوق
بشرى . بل لقد ضمخته كله بالعطر منذ أيام . هل أسوى لك
اظافر قدميك يا آنستى ؟ » .

فقلت جيزيلا : « لا يهم ذلك يا مارتا . اذ يكفى ما فعلت اليوم »
فوضعت المدرمة أدواتها وقنانيها الصغيرة فى حقيبتها ثم ودعتنا

وانصرفت .
وما أن خلت احدانا الى الأخرى حتى تبادلنا النظر . فبدت
جيزيلا جديدة كمنزلها من أعلى رأسها الى أخمص قدمها . كانت
ترتدى سترة جميلة حمراء من « الانجورا » وازارا بنيا لم أره
عليها من قبل . وقد مال جسمها الى البدانة فامتلا صدرها وضاق

www.Librarary4arab.com/vb
أزارها بردفها . كما لاحظت تورم حنفيها مما ينم عما تمتع به
من غذاء طيب ونوم عميق وراحة بال . وقد أهدى عليها جفانها
ذلك التعبير العابس الى حد ما .
فسألتني قائلة وهي تفحص أظافرها : « حسنا ، ما رأيك في
شقتي ؟ » .

اني لا أعرف الحسد بطبعي . ولكنني أحسست عندئذ لأول
مرة في حياتي بوخز الحسد فوجدته بغيضا مؤلما للغاية حتى أنني
عجبت لأولئك الذين يفدون هذا الشعور وينموننه في قلوبهم طوال
حياتهم . فقد توتر وجهي وعراه الشحوب وكأني قد انتابني الهزال
فجأة مما نعذر معه ان أبتسم لجيزيلا أو أقول لها قولا حسنا
كما كنت أتمنى . وخالجني نحو جيزيلا نفسها احساس حاد
بالنفور . فراودتني رغبة في ايدائها والتعبير عن حقدى عليها
واهانتها وتحقيرها بل وتنقيص سعادتها في الواقع . فحدثت نفسي
قائلة في حيرة وأنا لا أزال أربت على القبط : « ماذا دهاني ؟ هل
تغيرت ؟ » ولكن ذلك الشعور لم يلبث لحسن الحظ أن زایلني .
اذ تحرك في نفسي كل ما كنت أنطوى عليه من عوامل الخير والاريجابية
متغلبا على شعوري بالحسد . فتذكرت أن جيزيلا كانت صديقتي
وان كل ما يصيبها من خير انما هو عائد علي وانني يجب أن أفرح
من أجلها . وتخيلت جيزيلا عند دخولها شقتها الجديدة لأول مرة
وهي تصفق بيديها من شدة الفرح . وعندئذ زال عن وجهي شلل
الحسد الثلجي . وعادوني من جديد ذلك الاحساس بدفع الشمس
ولكن على صورة أعمق وكان الشمس قد اخترقت قلبي .

فقلت : « كيف يمكنك ان تسألني ؟ فما أبهج هذا المكان وما
أجمله ! كيف حدث كل هذا ؟ » .
وخيل لي وأنا أقول هذه الكلمات ان نبرات صوتي كانت تنبئ
بالاخلاص . فابتسمت ولم تكن ابتسامتي موجهة لجيزيلا بقدر
ما كانت مكافأة لي على صدقي واخلاصي .

فأجابتنني في ثقة قائلة بلهجة من يأتين آخر على سر ما :
« أتذكرين جيانكارلو ؟ ذلك الشاب اللطيف الذي تشاجرت معه
حالا التقيت به في ذلك المساء الاول ؟ لقد جاء لزيارتي مرة أخرى
ولكنه لم يكن فظا كما بدا لأول وهلة . ثم التقينا بعد ذلك عدة
مرات . وقال لي منذ بضعة أيام : « هيا . فلدي مفاجأة لك » .
وخيل لي أنه يريد اهدائي حقيبة أو زجاجة عطر أو ما شابه ذلك

كما تعلمين . فاذا به بدلا من ذلك يصحبني الى هنا في سيارته
ويقودني الى هذه الشقة وكانت خالية . فحسبتها شقته . ثم
سألني ان كانت تحبني؟ فأجبته بالإيجاب ولكن دون ان
أحلم بما يعنيه بالطبع ! ثم قال : « لقد استأجرت لك هذه الشقة »
ويمكنك أن تتخيلي شعوري ! »

ثم ابتسمت وهي تتلفت حولها في رضا موقر جليل . فنهضت
واقفة من فوري واتجهت نحوها قائلة وأنا أقبلها : « انى سعيدة .
سعيدة للغاية . سعيدة حقا » .

فبددت تلك الحركة جميع المشاعر العدائية من قلبي . ثم
اتجهت الى النافذة لأطل منها . فاذا بالمنزل يقوم على مرتفع يمتد
في أسفله منظر طبيعي واسع فسيح . كان سهلا ذا زرع يتخلله
نهر ملتو وقد تناثرت في ربوعه الاحراش والمزارع وكتل الصخور .
اما المدينة فقد اختفت معالمها فيما عدا بعض المباني البيضاء التي
تقوم في احدى زوايا المنظر وهي آخر ما شيد من عمارات في احدى
ضواحي المدينة . كما كانت هناك سلسلة من الجبال الزرقاء التي
برزت في وضوح عند الافق منعكسة على خلفية من السماء المضيئة
فقلت ملتفتة نحو جيزيلا : « انه منظر رائع » .

فأجابت قائلة : « اليس كذلك ؟ » ثم اتجهت الى « البوفيه »
حيث أخرجت قدحين صغيرين وقارورة قصيرة وضعتهما جميعا
على المائدة . وسألني قائلة في غير اكتراث : « هل تأخذين قدحا
من الليكير ؟ » وكان من الواضح ان جميع حركاتها كربة منزل
يخصها وحدها تملؤها بالرضا .

ثم جلسنا الى المائدة وأخذنا نرشف قدحيننا في صمت . ولاحظت
ان جيزيلا كانت مرتبكة فأردت ان أفعل شيئا لأخفف عنها فقلت
في رقة : « ومع ذلك فان تصرفك لم يكن يخلو من الجفاء . فكان
ينبغي عليك أن تخبريني .. »

فأسرعت بإجابتي قائلة : « لم يتسع لي الوقت . فأنت تعلمين
ماذا يعنى الانتقال من منزل الى آخر ثم لشد ما انهمكت بعد ذلك
في ابتغاء الاشياء التي كنت في حاجة ماسة اليها ، كالاثاث والمفارش
والاواني الخرفية . فلم أجد فسحة من الوقت لأتسلس . ان تأثرت
منزل مهمة شاقة » . ثم ضمت شفيتها كما تفعل السيدة
المحترمة عندما تتحدث .

فقلت وقد خلت نفسي من كل اثر للحقد او المرارة وكان الامر

برمته لا يخصصني في شيء : « انى أفهم ماذا تقصدون . فقد أصبحت الآن تملكين ثقة خاصة بك كما أصبحت حائكة المايه . فانت لا تريدان ان تكون لك علاقة بى . اذ انك خجلة منى » . فأجابت قائلة في شيء من الضيق . وكان من الواضح ان سخطها لم تبعث عليه كلماتي بقدر ما بعثت عليه لهجة صوتى الهادئة المتزنة : « لست خجلة مطلقا . وانه لمن الحماسة ان تتصورى ذلك غير اننا لن نستطيع الآن ان نلتقى كما كنا نفعل من قبل . اعنى ان نخرج معا الى آخر ذلك . فلو انه اكتشف امرى لوقعت فى حيص بيص » .

فأجبت قائلة فى رقة : « لا حاجة بك الى القلق . فلن يقع بصرى على مرة أخرى . وما جئت اليوم الا لأقف على ما حدث » . فتظاهرت بأنها لم تسمعنى مما عزز ايمانى بصحة رأبى . ثم أعقبت ذلك فترة صمت سألتنى بعدها فى حماس متكلف قائلة : « وماذا عنك ؟ »

فاذا بى فى التو اذكر جياكومو على صورة تلقائية أخافتنى . ورددت قائلة فى صوت مخنوق :

- « أنا ؟ لا شيء . فلا جديد فى حياتى . »

- « وماذا عن أستاريتا ؟ »

- « أراه من وقت لآخر . »

- « وجينو ؟ »

- « انتهت علاقتى به . »

وقد اعتصرت قلبى ذكرى جياكومو . ولكن جيزيلا ما ان رأت ذلك الالم العميق مرتسما على وجهى حتى فسرتة على طريقته الخاصة . فلعلها حسبتنى مروررة ازاء حظها السعيد وأسلوبها المترفع .

فقلت بعد لحظة من التفكير متظاهرة بالاهتمام : « ومع ذلك فانى ما زلت أعتقد اعتقادا راسخا بان أستاريتا على استعداد لتوفير الحياة اللائقة بك فى منزل يخصك حالما توافقين » فقلت فى هدوء : « ولكنى لا أريده ان يفعل . لا هو ولا غيره »

فبدأ الى انها ارتبكت اجابتنى ثم قالت : « لم لا ؟ الا تحبين ان يكون لك بيت كهذا ؟ »

فقلت : « ان المنزل يعجبنى . ولكن رغبتى فى التمتع بحريتى تفوق عندى كل رغبة أخرى » .

فأجابت قائلة في استياء : « ولكنى اتمتع بحريتي ! بل انى
كثير منك تمتعا بالحرية . فنهارى كله ملك لى » .
- « لست هذه هى الحرية التى أعيها . »
- « اذن فماذا تعنين ؟ »

وأدركت اننى أسأت اليها بعدم اظهار ما يكفى من الاعجاب
بشقتها التى لشد ما كانت فخورا بها . غير اننى لو أوضحت لها
اننى لم أكن أحتقرها واننى فى الواقع لم أشأ ان أرتبط برجل لا
احبه لكان احساسها بالاساءة اشد وأعمق . فأثرت ان اغير
الموضوع .

وأسرعت قائلة : « هلا أريتنى الشقة ؟ كم غرفة فيها ؟ »
فقالت تحذوها خيبة أمل صبيانية : « وماذا يهمك منها ؟
فلقد قلت أنت نفسك انك لا تريدن شقة مثلها » .
فأجبت قائلة فى هدوء : « ولكننى لم اقل ذلك . فهى شقة
جميلة ، أتمنى لو امتلكت مثلها » .

فلم تنبس ببنت شفة . بل أخذت تحملق منكسة بصرها وقد
علا وجهها تعبير عابس . وما لبثت ان أردفت قائلة فى ضعف :
« اذن فأنت ترفضين السماح لى برؤية الشقة ؟ » .

فرفعت عينيها ورأيت لدهشتى ان الدموع تترقرق فيهما . ثم
هتفت قائلة : « انك لست الصديقة التى كنت أحسبها ! فنفسك
تفيض بالحسد . ولذلك فانك تحاولين ان تبخسى الشقة لا لشيء
الا لتكدرينى » . كانت تتكلم جزافا بينما تنهمر على وجهها دموع
الغضب . فعندئذ كانت هى التى تحسدنى حسدا لا معنى له .
وكان يشدد من تأثير حسدها على غير وعى منى حبى اليائس لجياكومو
وما يبشه فى نفسى من احساس مرير بالفراق . ولكننى
أحسست بالاسف لها رغم معرفتى التامة بها بل كانت تلك المعرفة
فى الواقع هى مبعث احساسى بالاسف . فنهضت من مكانى واتجهت
نحوها حيث وضعت يدي على كتفها .

قلت : « لم تقولين ذلك ؟ فانى لا أحسدك مطلقاً . بل انى
أحب أشياء أخرى ، هذا هو كل ما هنالك . ولكننى فرحة
بسعادتك » . ثم أردفت قائلة وأنا أعانقها : « هيا أرينى باقى
الغرف » .

فتمخبطت ثم قالت مدعنة لحتى اياها : « هناك أربع غرف فى
المجموع ، وهى تكاد تكون خاوية » .

- هيا أرنهيا .

فنهضت من مكانها وقادتني في الدهليز حيث أخذت تفتح لي أبواب الغرف واحدا بعد الآخر وأرنتني غرفة نوم بها فراش واحد ومتكأ عند طرفه الأسفل ، كما أرنتني غرفة أخرى خاوية كانت تنوى أن تضع فيها فراشا آخر « للضيوف » وغرفة صغيرة للخادمة لا تكاد تتسع لشيء . وكان يراودها في أثناء ذلك نوع من الحقد . فأخذت تفتح أبواب الغرف شارحة وجوه استخدامها دون أن تجد في ذلك لذة ما . ولكنها عندما أرنتني غرفة الحمام والمطبخ وكلاهما قد اكتست جدرانهما بالقرميد كما زودتا بالآلات الكهربائية الحديثة والصنابير اللامعة إذا بسخطها يتحول الى زهو وخيلاء . وأخذت تشرح لي طريقة تشغيل تلك الآلات وكيف كانت تفوق بكثير تلك التي تدار بالغاز ، كما شرحت لي مدى نظافتها واستهلاكها الاقتصادي . ومع اني في الحقيقة لم أجد في ذلك ما يثير اهتمامي مطلقا فقد تظاهرت عندئذ بالحماس وهتفت معبرة عن اعجابي ودهشتي . ولشد ما ابتهجت لموقفى حتى انها قالت لي عندما انتهينا من رؤية الشقة : « فلنعد الى غرفة الجلوس لنتناول قدحا آخر من الليكير » .

فأسرعت قائلة : « لا . لا . فاني مضطرة للذهاب » .

- « وفييم العجلة ؟ انتظري قليلا . »

- « لا يمكننى ذلك . »

وكنا في الدهليز ، فترددت لحظة ثم قالت : « ولكنك يجب أن تأتي لزيارتى . أتعرفين ماذا يمكن أن نفعل ؟ انه كثيرا ما يغادر روما ، فسأخبرك بذلك لتأتى وفي صحبتك اثنان من أصدقائك لنلهو قليلا . »

- « وماذا لو اكتشف ذلك ؟ »

- « لماذا ؟ »

فقلت : « حسنا اذن » . ثم ترددت لحظة ولكننى ما لبثت أن استجمعت شجاعتي قائلة :

- « وبهذه المناسبة هل حدث أن ذكر لك ذلك الصديق الذى كان

www.library4arab.com/vb

معك في تلك الليلة ؟ »

- « الطالب ؟ لماذا ؟ هل أعجبت به ؟ »

- « كلا . بل انى أتساءل فحسب . »

- « لقد رأيناها مساء أمس . »

فلم أستطع أن أخفى اضطرابي ، وقلت بلهجة مترددة :
« أنصتى ، أبلغيه ان قابلته ان يأتي لزيارتي . ولكن بطريقة عارضة

كما تعلمين ، دون الحاح » .
فأجابت قائلة : « حسنا . سأبلغه ذلك » . ولكنها كانت تنظر

الي في أرتياب . فارتبكت لنظرها اذ ان حبي لجياكومو كان يبدو
مكتوبا على وجهي بحروف كبيرة . ولقد فهمت من لهجة صوتها

انها لن تبلغ الرسالة . ففتحت الباب في يأس وودعتها . ثم هرولت
هابطة الدرج دون أن التفت الي الخلف . ولكنني توقفت عند

البسطة الثانية حيث اتكأت على الحائط متطلعة الي أعلى . وحدثت
نفسى قائلة : « لماذا قلت لها ؟ ماذا دهانى ؟ » ثم واصلت هبوط
الدرج برأس منكس .

وكنت قد ضربت لأستاريتا موعدا للقاء في شقتى التى ما ان
بلغتها حتى كان الاعياء قد نال منى كل منال . اذ اننى لما كنت

قد أقلعت عن الخروج في الصباح فقد أحسست بالاجهاد من تأثير
الشمس والحركة . بل انى لم أشعر حتى بالتعاسة لاننى كنت قد

دفعت ثمن زيارتى لجيزيلا عندما بكيت في السيارة وأنا في طريقى
الي شقتها الجديدة . وأخبرتني أمى التى جاءت تفتح لى الباب

ان شخصا ما كان ينتظرنى في غرفتى منذ ساعة . فدخلت الغرفة
رأسا حيث جلست على الفراش دون أن ألحظ أستاريتا الذى

وقف أمام النافذة وكان من الواضح انه يحملق فى الفناء . ولما كنت
قد صعدت الدرج بسرعة كبيرة فقد ظللت لحظة فى سكون ضاغطة

بيدى على قلبى وأنا ألهمث . وجلست مولىة ظهري لأستاريتا
ومحلمقة فى الباب بنظرة ذاهلة حتى اننى لم أرد التحية التى قراها

على . فجاء وجلس بجانبى محيطا خصرى بذرعه وهو ينظر الي
فى جد وحزم .

وقد أنصتنى مشاغلى الكثيرة رغبته المسعورة التى لا
تهدا أبدا ولا يخمد أوارها . فقلت وأنا انسحب الي الخلف بلهجة

بطيئة بفيضة وقد نفذ صبرى تماما : « ألا تهدا رغبتك أبدا ؟ »
فلم ينبس بكلمة بل تناول يدي ورفعها الي شفته متطلعا الي .

فخيل لى اننى سأحس وسخت يدي بعيدا . ثم أردفت قائلة :
« انك دائما على استعداد . اليس كذلك ؟ حتى فى الصباح ؟ بعد
ساعات عملك المتصل ؟ وقبل تناولك طعام الفداء ؟ ومعدتك خاوية؟
أتعلم انك حقا لا تحتلم ؟ » .

فرايت شفتيه ترتعشان وعينييه تدوران في محجريهما ثم قال :
« ولكنني أحبك ! »
- « هناك وقت للحب ووقت للأمر الأخرى . ولقد ضربت لك
موعدا في الساعة الواحدة لا لسبب الا لايبين لك اننى لا أقصد الحب
وأنت - حقا انك نسيج وحدك ! ألسنت خجلا من نفسك ؟ »
فحملك في وهو صامت . وأحسست فجأة اننى أفهمه فهما تماما .
فقد كان أسير هواى وقد ظل أياما ينتظر ذلك الموعد . فبينما كنت
أنا أصارع الشدائد الكثيرة كان هو لا يفكر في شيء سوى ساقى
وصدرى وردفى وفمى . فقلت له بلهجة أقل غضبا : « اذن فلو
اننى تجردت الآن من ثيابى .. »
وما ان أوما موافقا حتى انفجرت ضاحكة لا فى قسوة بل فى
مرارة وحزن قائلة :

« - ألا يخطر ببالك اننى ربما كنت أشعر بالتعاسة أو لا أحس
بالرغبة فى ذلك - أو جوعى أو متعبة - أو لدى بعض المشاغل ،
ألا يخطر ذلك ببالك مطلقا ؟ »
فنظر الى ثم اذا به فجأة يلقي بجسده على وهو يضمنى اليه فى
قوة دافنا وجهه فى التجويف الكائن بين عنقى وكتفى . لم يقبلنى
بل أخذ يضغط على بدنى بوجهه وكأنه يريد أن يستشعر دفته .
وكان يتنفس بصعوبة متهدا بين الفينة والفينة . فزائلنى سخطى
عليه اذ ان حركته قد أثارت شفقتى القلقة المعهودة ولم أشعر الا
بالتعاسة . ولكننى عندما خيل لى انه نال حظه من التهنيدات
دفعته بعيدا عنى قائلة :

- « لقد طلبت اليك الحضور الى هنا لاتحدث اليك فى أمر خطير .
فتطلع الى ثم تناول يدى وأخذ يربت عليها . كان ذا هدف
واحد لا يحيد عنه وكانت رغبته هى كل شيء فى نظره ولا وجود
لما عداها .

قلت : « انك تعمل فى الشرطة . اليس كذلك ؟ »

- « نعم .. »
- « حسنا اذن ، فلتقبض على وترسلنى الى السجن .. » قلت ذلك
فى ثبات تام . فعندئذ وددت حقا ان فعل ذلك .
- « لماذا ؟ ماذا حدث ؟ »

فقلت بصوت عال : « انى لصة . لقد ارتكبت سرقة . فقبض
على امرأة بريئة بدلا منى . ولذا فلتقبض على . انى راغبة حقا

في الذهاب الى السجن . هذا هو ما اریده .

ولكنه لم يبد مدهوشا بل منزعجا فحسب .

فقال وقد بدا على وجهه تعبير الألم : « والآن هديني من روعك . ماذا حدث ؟ أخبريني بكل شيء » .

- « لقد قلت لك أنني لصة . » ثم حدثته باختصار عن السرقة وكيف تم القبض على الخادمة بدلا مني . كما قصصت عليه حيلة جينو ولكنني لم اذكر اسمه . بل تحدثت عنه كخادم فحسب . وراودتني رغبة عنيفة في ان احكى له عن سونزوينو وجريمته حتى انني وجدت صعوبة في كتمان الامر . وأخيرا انتهيت من قصتي قائلة : « والآن عليك ان تختار ، فاما اخرجت هذه المرأة من السجن أو ذهبت لاسلم نفسي . »

فقال رافعا يده : « لا تتعجلي الامور على هذه الصورة ، فلا حاجة بك الى ذلك ، انها الآن رهينة السجن ، ولكنها لم يحكم عليها بعد . فلنتظر . . . »

- كلا ، لا أستطيع الانتظار ! فهي رهينة السجن حيث تضرب كما يقولون ، وأنا لا أستطيع الانتظار ، فعليك ان تقرر الآن . »

فأدرك من لهجة صوتي انني جادة فيما اقول ، فنهض واقفا وقد ارتسم على وجهه تعبير ينبيء بالسخط وأخذ يتجول في الغرفة ، ثم واصل حديثه قائلا وكأنه يحدث نفسه : « هناك موضوع الدولارات » .

- « ولكنها ظلت تحتج طوال الوقت ! فقد تم العثور على الدولارات ، وفي امكاننا ان نقول انه انتقام شخصي من عدو يكرهها » - « وهل لديك « البدارة » ؟ »

فقلت وأنا اخرجها من الحقيبة واناوله اياها : « ها هي ذى » ولكنه ابي ان يلمسها قائلا : « لا ، لا ، يجب الا تعطيني اياها » ثم ما لبث ان قال بعد لحظة من التردد : « يمكنني الافراج عن هذه المرأة ولكن الشرطة في نفس الوقت يجب ان يتوفر لديها الدليل على براءتها ، هذه « البدارة » مثلا » .

- « خذها اذن وأعدّها الى صاحبتها . »

فابتسم اجتماعة بنضرة قائلا : « من الواضح انك لا تعلمين شيئا عن هذه الامور ! فاني مضطر ادبيا الى القبض عليك اذا

قبلت منك هذه « البدارة » ، والا قالوا « كيف وضع آستاريتا يده على السلعة المسروقة ؟ ومن الذي اعطاه اياها ؟ وكيف حصل

عليها ؟ » الى آخر ذلك ، كلا . . يجب ان تعثرى على طريقة لتسليم « البدارة » الى الشرطة ولكن دون ان تكشفني عن شخصيتك بالطبع .

- « يمكنني ارسالها بالبريد . »

- « كلا ، فهذا لن يجدى . »

أخذ يذرع الغرفة ثم جاء ليجلس بجانبى قائلا : « هذا هو ما يجب ان تفعله ، أتعرفين قسا ؟ » .

فتذكرت ذلك الراهب الفرنسى الذى اعترفت له عندما عدت من فيتريو فقلت :

- « نعم . . معرفى . »

- « وهل ما زلت تذهبين للاعتراف ؟ »

- « تعودت ذلك فيما مضى . »

- « حسنا ، اذهبي الى معرفك واخكى له القصة كاملة ، تماما

كما رويتها لى ، وتوسلى اليه ان يأخذ « البدارة » ويسلمها الى

الشرطة بالنيابة عنك ، فلا يستطيع معرف ان يرفض ذلك . وهو

بحكم التزامه بسر الاعتراف ليس مضطرا للدلاء بأية معلومات

للشرطة . وسأتصل بهم تليفونيا بعد يوم أو اثنين . . وهكذا سوف

يفرج عن الخادمة التى تشغل بالك الى هذا الحد . »

ولشد ما استخفنى الفرح حتى انه لم يسعنى الا ان ألقى

بذراعى حول عنقه وأقبله . ثم أردف قائلا بصوت يرتعش بالرغبة

فعلا : « ولكنك كما تعلمين يجب ألا تفعلى هذه الاشياء ، وعندما

تحتاجين الى النقود فما عليك إلا ان تطلبى الى . . »

- « هل يمكننى ان أذهب اليوم لمقابلة المعرف ؟ »

- « بالطبع . »

فوقفت هناك بعض الوقت بلا حراك شاخصة ببصرى امامى

وممسكة « بالبدارة » فى احدى يدي ، فقد راودنى احساس

بالارتياح العميق وكأنى أنا نفسى الخادمة ، وفى الواقع فانى تشدد

أحسست وكأنى فى مكانها عندما تخيلت راحتها للافراج عنها وكانت

تفوق راحتى بكثير ، ولم أعد أحس بالتعاسة أو التعب أو النفور .

وفى أثناء ذلك كان أستارتنا يربت بأصابعه على معصمى محاولا ان

يدسها داخل كمي ليلمس ذراعى ، فاستدرت نحوه وحدثته بلهجة

مدغدغة وأنا أحملق فيه بشغف .

ثم سألته قائلة : « أتشعر حقا بالرغبة الشديدة فى ذلك ؟ »

فأوما برأسه عاجزا عن النطق .
فأردفت قائلة في رقة وقوة : « إلا تعتقد ان الوقت قد تأخر ،
وانه يحسن تأجيل الامر الى يوم آخر ؟ »
فهز رأسه .

وسألته قائلة : « اتحبني كثيرا ؟ »
فقال بصوت خفيض : « أنت تعلمين انى أحبك » ثم هم بعناقى
ولكننى تجنبته قائلة :
- « انتظر .. »

فلم يلبث ان هدا في الحال لادراكه اننى وافقت ، ونهضت واقفة
ثم اتجهت في ببطء نحو الباب لأوصده ، ثم سرت الى النافذة حيث
فتحتها وجذبت مصراعها الخشبيين وأغلقتها مرة أخرى ، ولم
أفتأ احس بعينيه على بدنى وأنا أتجول مختالة فى الغرفة بحركات
بطيئة رشيقة ، وقد أمكننى ان أتخيل في وضوح كم كان يبدو
رضاي غير المتوقع رائعا في نظره ، فما ان جذبت مصراعى النافذة
حتى أخذت أهمهم في هدوء بصوت مرح نابع من الاعماق ثم فتحت
خزانة الملابس حيث علقت معطفى الذى خلعتة ، وبعد ذلك نظرت
الى صورتى في المرآة وأنا ما زلت أغنى . فخيل لى اننى لم أكن
قط بمثل هذا الجمال ، اذ كانت عيناي تتألقان ومنخرأى يرتعشان
وفمى منفرجا الى حد ما كاشفا عن ثفرى الابيض النضيد ،
وأدركت ان جمالى كان مرجعه رضاي عن نفسى فقد أحسست اننى
فتاة خيرة ورفعت صوتى قليلا وأنا أغنى بينما أخذت فى نفس
الوقت أفك أزرار سترتى مبتدئة بطرفها الاسفل ، وكنت أهمهم
بأغنية سخيفة كانت شائعة وقتذاك ، هذا نصها : « انى
أشدو بالأغنية التى لشد ما أهواها والتى تقول دو - دو - دو - دو
دو - دو » وكان قرارها السخيف كالحياة نفسها واضحة
السخف ولكنها فاتنة خلابة في بعض اللحظات ، وفجأة اذا بالباب
يطرق فى نفس اللحظة التى اكشف فيها عن صدرى ، فقلت فى
هدوء : « لايمكننى المجيء الآن ، فيما بعد .. »

فانبعث صوت أمى قائلا : « انه أمر عاجل » .
فساورنى الشك واتجهت الى الباب لافتحه وانعمت النظر الى
الخارج .

فاذا بأمى تشير الى بأن أخرج وأغلق الباب .
ثم همست لى قائلة فى الغرفة الخارجية المظلمة : « هناك رجل

يريد أن يحدثك في الحال .

www.library4arab.com/vb

فتحت باب غرفة الجلوس في هدوء شديد واختلست النظر الى الداخل ، فرأيت رجلا متكئا الى المائدة وقد أولانى ظهره ، فعرفت في الحال انه جياكومو ثم أغلقت الباب بسرعة .
وقلت لأمي : « اخبريه انى قادمة حالا ، ولا تدعيه يترك الغرفة ، فأخبرتني انها ستفعل ما أريد وعدت الى غرفتي حيث كان أستاريتا لا يزال كما تركته جالسا على الفراش .
قلت : « هيا أسرع ، فمما يؤسفنى انك ستضطر الى الانصراف » فتولاه الحزن وتلعثم لسانه ببعض الاحتجاج ، ولكننى قاطعته بسرعة قائلة : « ان عمى قد انتابها المرض فى الطريق ولا بد ان أذهب مع أمى الى المستشفى فى أقرب وقت ممكن ، كانت أكذوبة مكشوفة الى حد ما ولكن تفكيرى حينذاك لم يسعفنى بشيء سواها ، فنظر الى فى غباوة وكأنه لا يستطيع أن يصدق حظه العائر ، ورأيت انه كان قد خلع حذاءه واستقرت قدماه على الارض فى جوربيهما المخططين .

فقلت فى سخط : « هيا ! لماذا تحملق فى ؟ فعليك أن تذهب ! » فأجابنى قائلا وهو ينحنى ليرتدى حذاءه مرة أخرى : « حسنا انى ذاهب » . فوقفت أمامه لاناوله سترته ، ولكننى أدركت اننى يجب أن أعده بشيء اذا كنت أريده أن يتدخل لانقاذ الخادمة . فقلت وأنا أعاونه على ارتداء سترته : « اصغ الى ، اننى آسفة كل الاسف لما حدث ، ولكن فلتعد الى غدا مساء بعد العشاء ، وعندئذ لن يقاطعنا أحد ، أما اليوم فقد كنت مضطرة - على أية حال - الى اخراجك من المنزل حال انتهائنا من المضاجعة تقريبا ، ولذا فان ذلك خير لنا فى النهاية » .

فلم ينبس بكلمة . ثم اصطحبته الى الباب وأنا أقوده من يده وكأنه يزورنى فى المنزل لأول مرة ، فلشد ما خشيت أن يدخل غرفة الجلوس حيث يرى جياكومو .
وقلت له عند الباب : « تذكر ، فانى ذاهبة اليوم لمقابلة المعرف » فأجابنى بايماءة من رأسه وكأنه ينوه بأن ذلك أمر مفهوم بيننا . وقد بدأ عليه النفور والجمود ، ولشد ما انتابنى الضجر حتى اننى لم أنتظر أن أودعه وكدت أصفق الباب فى وجهه .

وما ان لمست اصابعي مقبض باب غرفة الجلوس حتى بوغت بخاطر قوى ينبئني ان العلاقة التي ستنشأ بيني وبين جياكومو ما لم تحدث معجزة ما فقد كتب عليها ان تكون تفسدة كعلاقتي بأستاريتا ، فقد تبين لي الآن ان احساسى نحو جياكومو كان مزيجاً من الخضوع والخوف والرغبة العمياء تماما كاحساس أستاريتا نحوى ، ومع علمى بأننى يجب ان اغير من مسلكى اذا كنت اطمع فى حبه فقد وجدتنى منساقه بقوة لا تقاوم الى ان أضع نفسى ازاءه فى مستوى تبعى اذنى من الشك والقلق ، وما كان يمكننى ان افسر أسباب احساسى بالنقص تجاهه .

ولو كان ذلك فى امكانى لتلاشى ذلك الاحساس ، بل كنت أعلم بالفريزة فحسب ان كلا منا ذو معدن مختلف ، فقد وجدتنى أهش معدنا من جياكومو غير أننى كنت أصلب عودا من أستاريتا ، وكما كان هناك ما يمنعنى من حب أستاريتا كذلك كان هناك ما يمنع جياكومو من حبى . ولقد بدأ حبى لجياكومو بداية سيئة ولسوف ينتهى نهاية أسوأ وكذلك كان الحال مع أستاريتا . أخذ قلبى يثب فى صدرى وأخذت انفاسى تتتابع حتى قبل ان اراد او أحدثه ، فليشد ما خشيت ان أقع فى خطأ ما كأن أظهر له حماسى ورغبتى فى ارضائه فأفقدته مرة أخرى وبلا رجعة ، فمن الواضح ان هذا هو أسوأ علاج للحب ، انه لا يقابل أبداً بالمثل . فعندما تحب لا تحب وعندما تحب لا تحب ، اذ لايمكن ان يلتقى عاشقان على نفس المستوى من العاطفة والرغبة مع ان هذا هو المثل الاعلى الذى يسعى اليه البشر جميعا . فانى أعلم على وجه اليقين ان حبى لجياكومو كان وحده السبب فى عدم تعلقه بى ، كما أدركت اننى مهما بذلت من جهد فلن أنجح فى ارغامه على حبى وهو ما لم أشأ ان أعترف به أمام نفسى . لاح لي كل ذلك فى وميض خاطف أثناء وقوفى مترددة خارج الباب فى حال من الاضطراب الرهيب ، وقد انتابنى دوار وأحسست انى موشكة على ارتكاب أعمال أشد ما تكون استشارة للسخرية فأغضبتنى ذلك الاحساس . وأخيرا استجمعت

شجاعتى ودخلت الغرفة .
كان لا يزال واقفا كما رأته عندما أختسيت النظر اليه من خلال
فتحة الباب أى انه كان مستندا الى المائدة وقد اولانى ظهره ،
ولكنه ما ان سمعنى ادخل الغرفة حتى استدار نحوى قائلا وهو
يرمقنى بانتباه ناقد مدقق : « كنت مارا بدارك ففكرت فى زيارتك
ولعله ما كان يجدر بى ان أفعل ذلك » . ولاحظت انه كان يتكلم
فى ببطء كمن يريد ان ينعم النظر الى قبل ان يتجاذب معى اطراف
الحديث ، فلم أتمالك نفسى من الشعور بالقلق متسائلة عن صورتى
فى نظره وكيف كنت ابدو له ، ولعل صورتى اختلفت عما انطبع فى
ذاكرته وقلت جاذبيتها عن تلك الصورة التى دفعته الى زيارتى
بعد مضي تلك الفترة الطويلة من الزمن ، ولكننى احسست بالطمأنينة
عندما تذكرت مدى ما شاهدته من جمالى وأنا أحملق فى صورتى
فى المرآة قبل ذلك بفترة وجيزة .

فقلت لاهثة بعض الشيء : « كلا مطلقا - بل لقد أصبت بمجيثك -
فقد كنت على وشك الخروج لتناول الغداء ، ويمكننا ان نذهب
معا » .

فسألنى قائلا فى تهكم : « اتقصدين ان تقولى انك تعرفينى ؟
أعرفين من أنا ؟ »
فقلت فى غباوة : « بالطبع اعرفك ! » وقبل ان تتمكن ارادتى
من التحكم فى حركاتى اذا بى اتناول يده وأرفعها الى شفتى وفى
عينى نظرة ملؤها الحب ، فارتبك لذلك وابتهجت .
ثم قلت له فى شغف وقلق : « لم لم تزرنى من قبل أيها الفتى
المشاكس ؟ »

فهز رأسه قائلا : « كنت مشغولا للغاية » .
وقد طاش عقلى تماما ، فاذا بى بعد تقبيل يده اضعها على قلبى
أسفل نهدي قائلة : « أحس قلبى ! » ولكننى فى نفس الوقت
اتهمت نفسى بالحقق لاننى كنت أعلم انه ما كان ينبغى على ان أحذو
هذا الحذو قولا أو عملا ، وما ان بدأ عليه الحرج حتى أسرع
قائلة فى انزعاج : « انى ذاهبة لاريدى مطفى وسأعود اليك
مباشرة ، انتظرنى .. »

كنت فريسة للحيرة ، ولشد ما خشيت ان افقده حتى اننى
عندما بلغت الغرفة الخارجية أدت المفتاح بعنف فى القفل ثم
أخرجته من ثقبه . وهكذا فانه حتى لو حاول الخروج اثناء ارتدائى

ملا بى فلن يمكنه ذلك ، ثم دخلت غرفتي حيث اتجهت الى
مرآة الصوان وازلت بطرف منديلى كل ما كان يعلو عيني وفمي من
طلاء ، والتقطت اصبع احدى الشفاه ورحلت المس به ششفتى مرة
اخرى لمسات خفيفة ، ثم اتجهت الى علاقة المعاطف حيث بحثت
عن معطفي فلم اجده فتولتني الحيرة ولكنني تذكرت انني كنت
قد علقته داخل صوان الملابس فأخرجته وارتيديته ، ونظرت الى
صورتى في المرآة من جديد فخيلى لى ان طريقة تصفيف شعري كانت
تلفت الانظار اكثر مما ينبغي ، فأسرعت بتمشيطة ثم صنفته كما
تعودت أن أفعل عندما كنت خطيبة لجينو . وفي تلك الاثناء بينما
كنت اصفف شعري عاهدت نفسي في صدق وخشوع شديدتين على
ان اكبت منذ تلك اللحظة كل بادرة رعناء من بوادر حبي العنيف
وان افرض على ألفاظي وحركاتي سيطرة قوية . وأخيرا ما ان
صرت على أهبة الاستعداد حتى دلفت الى الغرفة الخارجية والقيت
نظرة عند باب غرفة الجلوس لادعو جياكومو .
ولكننا عندما تأهبنا للرحيل فضحني باب الشقة الذي اوصلته
وفاتني لارتباكى أن أفتحه .

فتمتم جياكومو قائلا وأنا أبحث عن المفتاح في حقيبتى : « انت
تخشين أن أهرب ؟ » ثم تناول المفتاح من يدي وفتح الباب بنفسه
وهو يرمقني بعينيه ويهز رأسه في نوع من القسوة الحانية ، فامتلا
قلبي فرحا ورحت أركض خلفه هابطة الدرج .
ثم سألته قائلة وأنا أمسك بذراعه وقد انبهرت انفاسي : « ولكن
ذلك لم يضايقك ، اليس كذلك ؟ » فلم يجر جوابا .

ثم سرنا معا في ضوء الشمس وقد تشابكت ذراعانا فمررنا
بأبواب الدور والمحال أثناء سيرنا في الطريق ، ولشد ما أحسست
بالسعادة وأنا أمشي بجانبه حتى انني نسيت تماما ما اتخذته من
قرارات تفيدني ، فأحسبت عند مرورنا بالفيللا الصغيرة ذات
البرج وكان شخصا ما قد أمسك بيدي وألهمني أن اضغط بها على
يده ، وفي الوقت نفسه أدركت انني كنت أميل الى الامام لانعم
النظر الى وجهه .

قلت : « اتعلم انني فرحة للغاية برويتك مرة اخرى ؟ »
فارتسم على وجهه ارتبائه المعهود ثم قال : « وأنا كذلك » .
ولكن لهجته لم تبد لى فرحة تماما ، فعضضت على شفتي حتى
ألتنتى وسحبت يدي من يده ، غير انه لم يبد عليه انه لاحظ ذلك ،

بل اخذ ينظر حوله في شرود الى أن بلغ بوابة الاسوار حيث تردد
ثم توقف عن المسير قائلاً في تحفظ :
« اصغى الى ، فهناك ما ينبغي أن أصرحك به . »

« اذن فالى به . »

« لقد جئت لزيارتك عن طريق الصدفة ، وعن طريق الصدفة
ذاتها أجدنى لا أملك مليماً ، لذا فالاجدر بنا أن نفرق . » وكان
أثناء حديثه يمد يده الى .

فانزعجت لاوئ وهلة وحدثت نفسى قائلة : « انه سيفارقنى ،
ولم أجد لذلك الموقف من علاج وأنا فى غمتى سوى أن أتشبث به
متوسلة اليه بدموعى ألا يذهب ، ولكننى عندما فكرت فى الامر
بدا لى نفس العذر الذى تعلل به لفراقى مخرجاً حسناً من ذلك
المأزق فتبدلت مشاعرى ، اذ خطر لى انه يمكننى أن ادفع عنه
ثمن غدائه ، وقد أبهجنى أن أتولى الإنفاق عليه وعلى نفسى تماماً
كما كان يفعل معى الكثيرون . وقد تحدثت من قبل عن تلك اللذة
الجنسية التى كنت أحس بها كلما تلقيت نقوداً من أحد ، فاذا بى
اكتشف الآن ان فى بذل المال لذة لا تقل اثارة عن لذة أخذه وأن
مزج الحب بالمال سواء أعطى أو اخذ ليس كله مصلحة ذاتية ،
فهتفت قائلة فى اندفاع : « لا تعر الامر اهتماماً بعد الآن ! فسأتولى
الإنفاق . انظر ، فانى أملك بعض النقود » . ثم فتحت كيس نقودى
لأريه بعض الاوراق المالية التى كنت قد دستتها فيه فى الليلة
السابقة .

فاحتج قائلاً تشوب صوته رنة خيبة : « ولكن ذلك لا يحسم
الامر » .

« وماذا يهم ؟ لقد عدت الى وجدير بى أن أحتفى بعودتك . »

فقال : « كلا ، يحسن بك ألا تفعلنى » ثم هم مرة اخرى
بمصافحتى ليفترق عنى . وعندئذ أمسكت بذراعه قائلة : « لا تدعنا
نتحدث فى ذلك بعد الآن » ثم اتخذت طريقى نحو المطعم .

وهناك جلسنا الى نفس المائدة التى جلسنا اليها من قبل ، وكان
كل شىء على حاله تماماً لم يتغير فيما خلا شعاع من ضوء الشمس
كان ينقاد من الباب ذى الواجهة الزجاجية مضيئاً اللوائد والحدارة
وجاءنا صاحب المحل بقائمة الطعام فأصدرت اليه أوامرى بلهجة
ثابتة تنبئ عن حمايتى لرفيقتى تماماً كما كان يفعل عشاقى ، ولم
ينبس بكلمة أثناء القائى أوامرى بل جلس منكساً عينيه . ولما

كنت لا اشرب الخمر فقد فاتنى ان اطلب نبيدا . ثم تذكرت انه شرب قليلا من النبيذ عندما كنا معا في المرة السابقة فأمرت بزجاجة وما إن ذهب صاحب المطعم حتى فزحت حقبتي وأخرجت ورقا . من ذات المائة ليرة ثم طويتها وقدمتها الى جياكومو من تحت المائدة بعد أن ألقيت من حولي نظرة سريعة . فنظر الى متسائلا :

فقلت له : « ها هي ذى النقود لكي تدفع ثمن الطعام شيما بعد »

فقال في بطاء : « النقود » ثم تناول الورقة وبسطها على المائدة وهو ينظر اليها ، وبعد ذلك طواها مرة أخرى ثم فتح حقبتي وأعادها اليها . كل ذلك في جد ساخر متهمك . وسألته قائلة في شيء من الارتباك : « أريد أن أتولى أنا دفع النقود ؟ »

فقال في هدوء : « كلا ، بل أنا الذى يدفعها » .

- « اذن فلماذا ادعيت الافلاس ؟ »

فتردد لحظة . ثم وأصل حديثه قائلا في مرارة ولكن في صدق : « لم تكن زيارتي لك عن طريق الصدفة . فالحقيقة اننى ظلت شهرا افكر فى المجيء اليك . ولكننى كلما وجدت نفسى امام منزلك أحسست بقوة تدفعنى بعيدا مرة أخرى . فخطر لى ان ادعى الافلاس آملا ان تطردينى » . ثم ابتسم قائلا وهو يمر بيده على ذقنه : « ومن الواضح اننى كنت مخطئا » .

اذن فقد حاول ان يختبرنى . اذ انه لم يشأ ان تكون له علاقة بى ، او الاخرى ان قلبه كان مسرحا للصراع بين انجذابه نحوى وكراهيته لى التى لم تكن تقل قوة عن احساسه الآخر . ولقد اكتشفت فيما بعد ان قدرته على التظاهر بما لا يشعر به عن صدق كانت جزءا جوهريا من شخصيته . ولكننى حينذاك أحسست بالارتباك الشديد ولم أدر أكان ينبغى أن أفرح أو أكتئب لخداعه وهزيمته .

فسألته قائلة فى آلية : « ولكن لماذا أردت أن تفارقنى ؟ »

- « لأننى أدركت اننى لا أحسن بشيء نحوك ، أو بالأحرى اننى لم أشعر نحوك إلا بثلثك الرغبة التى أحسن بها صديقى قبل صديقك فى ذلك المساء . »

فسألته قائلة : « هل علمت انهما اثنا شقة للاقامة معا ؟ »

فأجاب قائلا فى احتقار : « نعم . فقد خلق كلاهما للآخر » .

قلت : « انك لم تشتر شيئا نحوي ، ولم تشأ ان تأتي لزيارتي ومع ذلك فقد جئت ! » كان افتقاره الى المنطق يعقب الى حد ما من وقع الصدمة التي توقعت ان يسببها لي حبي .
فأجاب قائلاً : « نعم . لانني اعانى مما يسمى عادة بالشخصية الضعيفة » .

فقلت في قسوة : « ومع ذلك فقد جئت . وهذا يكفيني » . ثم مددت يدي من تحت المائدة ووضعتها على ركبتيه ، وكنت اراقبه في أثناء ذلك فلاحظت أنه اضطرب للمستى وبدأ ذقنه يرتجف . وقد سرنى ان اراه مضطرباً على هذه الصورة . وادركت انه على الرغم من رغبته الشديدة في مضاجعتي كما اعترف بذلك عندما قال انه ظل شهراً كاملاً يفكر في المجيء لزيارتي فان ثمة جزءاً من نفسه لم يبرح يناصبني العداة ، وكان على أن أبذل كل ما في وسعي لتحطيمه وتذكرت نظرتة الحادة القاطعة على ظهرى العسارى عندما تضاجعنا لأول مرة وخطأت نفسى لاستسلامى لتلك النظرة التي تجمد لها جسدى ، فلو اننى واصلت اغواءه في الحاح واصرار بما كنت أبذله من جهود لذابت تلك النظرة كما ينوب الآن وقاره المتشنج على وجهه .

فاتكأت على المائدة وكأنى أريد أن أسر اليه بشيء ما ثم واصلت دغدغته بيدي ، ولشده ما استهوانى فى الوقت نفسه أن أرى تأثير تلك الدغدغة منعكسا على وجهه . كان يرمقنى بنظرة استياء وتساؤل من عينيه النجلاوين السوداوين اللامعتين اللتين طالت أهدابهما النسوية .

وأخيراً قال لى : « ان كان يرضيك حبى لك على هذه الصورة فلتفعلى ما شئت » .

فاعتدلت فى جلستى فى الحال ، وعندئذ جاء صاحب المطعم ليضع السكاكين والشوك والصحاف على المائدة . ثم بدأنا نتناول الطعام فى صمت وبلا شهية .

قال : « لو كنت فى مكانك وانت فى مكانى لحاولت ان اسرك » .

« لماذا ؟ »
« لاننى عندما أسكر أستجيب فى سهولة لما يطلبه الى الناس » .

وكانت عبارته التي قال فيها : « ان كان يرضيك حبى لك على هذه الصورة فلتفعلى ما شئت » قد أساءتنى بالفعل . أما ما قاله عن الخمر فكان خليقاً باقناعى ان جهودى معه لن تجدى فتيلاً .

فقلت في يأس : « كل ما أبغيه منك أن تفعل ما يحلو لك ، فان

شئت الذهاب فلتذهب ، فها هو ذا الباب » . فقال شاكسا : « ان كان على أن أذهب فلا بد أن أتأكد من أن ذلك هو ما أبغى » .

- « أتريدني أن أذهب ؟ »

وتبادلنا النظرات ، وكنت في تعاستي قد وطنت النفس على الرحيل ، وبدا لي انه اضطرب ازاء تصميمي كما اضطرب لدغدغتي قبل ذلك بلحظة واحدة . ثم قال في جهد : « كلا ، بل أبقى هنا » ثم واصلنا تناول طعامنا في صمت ، ورايته يصب لنفسه ملء قوح كبير من النبيذ ويفرغه في جوفه دفعة واحدة قائلا : « أترين؟ اننى أسكر ؟ »

- « يمكننى أن أرى ذلك . »

- « ولن تلبث الخمر أن تصعد الى رأسى . وعندئذ ربما كاشفتك

يحبى . »

كانت كلماته تطعننى في قلبى ، وفي الواقع فانى لم استطع أن أتحمل مزيدا من العذاب على هذه الصورة فقلت في ذلة : « اصغ الى . عليك أن تكف عن تعذيبى » .

- « وهل أعذبك ؟ »

- « نعم . فانك تسخر منى . . وأنا لأطلب اليك الا أن تتجاهلنى فلتدعنى وشأنى . »

ولم ينبس ببنت شفة بل جرع قدحا آخر من النبيذ ، فخشيت أن اكون قد أسأت اليه .

وسألته قائلة : « ماذا دهاك ؟ هل غضبت منى ؟ »

- « غضبت منك ؟ كلا مطلقا . »

- « ان شئت أن تسخر منى فلتفعل . . فانى لم أقصد شيئا . . »

- « انى لا أسخر منك . »

فألححت عليه قائلة دون ما روية او دهاء على الاطلاق بل مدفوعة برغبتى في اذلال نفسى أمامه :

- « وان شئت أن تقول لى كلاما قاسيا فلتفعل ، فانى سأحبك

على الرغم من ذلك . . . بل سيزيد حبى لك ، حتى لو ضربتنى فانى سأقبل يدك التى ضربتنى . »

كان يتفحصنى بانتباه وقد بدا عليه الارتباك الشديد ، فمن

أوضح انه قد انتابته الحيرة أزاء حبي القوي .
ثم قال : « ملا ذهبنا ؟ »

- « الى أين ؟ »

- « الى شقتك ؟ »

ولشد ما تملكنى اليأس حتى كدت أنسى السبب في يأسى ،
فاذا بذلك الاقتراح الذى جاء على غير انتظار وكنا قد انتهينا لتونا
من تناول أول أصناف الطعام فقط ، وكان دورق النبيذ لا يزال
ممتلئا حتى نصفه اذا به لا يلقى منى سرورا بقدر ما أثار من دهشتى
فقد أدركت ان ارتبائه جعله يرغب فى أن يقطع علينا وجبتنا .
فقلت : « لشد ما تتوق الى التخلص منى . أليس كذلك ؟ »

فسألنى قائلا : « كيف تكهنت بذلك ؟ » ولكن لما كان رده
أقسى من أن يصدق فقد بث فى نفسى الشجاعة لسبب لم يمكنى
تفسيره .

فقلت منكسة عينى : « ان بعض الاشياء لا تحتاج الى مناقشة
ومع ذلك فلننته من تناول وجبتنا أولا . . ثم نذهب » .
- « كما تشائين . . ولكننى عندئذ أكون قد سكرت . »

- « فلتسكر اذن . . فهذا لا يهمنى . »

- « ولكننى سأسكر حتى أمرض ، وعندئذ لا تجدى عشييقا
تمارسين معه الحب بل مريضا تسهرين على تمييزه . »
فدفعتنى سداجتى الى اظهار قلقى ومددت يدي نحو الدورق
قائلة : « اذن فلتكف عن الشراب ! » فانفجر ضاحكا وهو يقول ،
« لقد أوقعتك فى الفخ هذه المرة ! » .

- « لماذا ؟ »

- « لا تخافى ، فأنا لا أمرض بالسهولة التى تتصورينها . »
فقلت يخالجنى شعور بالمهانة : « ولكننى كنت أفكر فىك » .
- « فى . . حقا ! حقا ! »

ولم يفتأ يشاكسنى ، ولكن رقة قلبه التى فطر عليها كانت
تستبطن مشاكساته جميعا فلم أعبأ كثيرا بما يقول .

- « أنا لا أحب الخمر ، وفضلا عن ذلك فان قدحا واحدا كفى

بأن يسكرنى . »

- « وماذا يهم ؟ فسوف نسكر معا . »

- « ما أشنع النساء عندما يسكرن ، وأنا لا أبغى أن ترانى مخمورة . »

- « لماذا ؟ وما وجه الشناعة في ذلك ؟ »

- « لست أدري ، ولكنه منظر شنيع أن ترى امرأة تترنح

وتعثر في القبول وتأتي حركات فظة مبهتة ، بل منظر محزن ، وأنا أعلم أنني امرأة منكودة كما أعلم أن هذا هو رأيك في ، ولكنك لو رأيتني مخمورة لما نظرت في وجهي مطلقا بعد ذلك ،

- « ولنفرض أنني أمرتك بأن تشربي ؟ »

فقلت وأنا أفكر في كآبة : « اتبني حقا أن تراني مهينة ؟ ان ميزتي الوحيدة هي أنني لست فظة . أتريدني حقا أن أفقد هذه الميزة أيضا ؟ »

فقال مؤكدا : « نعم .. هذا هو ما أريده بالضبط » .

- « لست أدري ماذا يشرك في ذلك ولكن ما دام الامر كذلك

فلتصب لي بعض النبيذ » . ثم قدمت اليه قدحي . فنظر الى القدح والى ثم انفجر ضاحكا مرة أخرى وهو يقول : « كان ذلك مزاحا فحسب » .

- « انك دائما تمزح . »

ثم ما لبث أن أردف قائلا بعد لحظة وهو يرمقني في اتباه :

- « أذن فأنت لست فظة ؟ »

- « هكذا يقولون على أي حال . »

- « أتظنينني أوافقهم على ذلك ؟ »

- « وكيف لي أن أعلم ماذا تعتقد ؟ »

- « فلنر . ماذا تتوقعين أن يكون رأيي فيك وشعوري نحوك ؟ »

فقلت في ببطء وخوف : « لست أدري ، ولكنك بالطبع لا تحبني كما أحبك ، لعلك تعجب بي كما يعجب أي رجل بآية امرأة بشرط ألا تكون شديدة البشاعة . »

- « أذن فأنت تعتقدين أنك لست شديدة البشاعة ! »

فقلت في فخر : « نعم .. بل أني في الواقع أعلم أنني جميلة ، ولكن ماذا أفادني جمالي حتى الآن ؟ »

- « ليس المقصود بالجمال أن يكون ذا فائدة . »

وكنا في تلك الاثناء قد فرغنا من تناول وجبتنا وأوشكنا أن نأتي على لادوقين من البيت .

قال : « أترين ؟ أنني ظللت أشرب ولكنني لم أسكر ؟ » ولكن بدا لي ان عينيه اللامعتين ويديه المرتعشتين تكذب ما يقول ، فنظرت اليه تحدوني بارقة من الامل ، فاذا به يردف قائلا :

- « انك تريدن الذهاب الى المنزل ، هه ؟ »

(I) C'est venus toute entière à sa proie attachée ...

- « لا شيء .. انه بيت من الشعر اقتبسته ليناسب المقام ،
أيها الساقى ! »

كان لايزال يتكلم بلهجة توكيدية ولكنها مازحة . ثم سأل
صاحب المطعم بلهجة مازحة عن قيمة الفاتورة وألقى في وجهه
بالنقود بعد أن اضاف اليها هبة سخية وهو يقول : « هذه
لك » . ثم تجرع ما بقى من النبيذ ولحق بى فى خارج المطعم .

وما كدت أخرج الى الشارع حتى انتابنى جنون لا يبلغ المنزل .
كنت أعلم انه جاء لزيارتي على الرغم منه وكنت أعلم انه يمقت
ذلك الشعور الذى دفعه الى البحث عنى ويحتقره ، ولكننى لشد
ما كنت مؤمنة بجمالى وبحبى له ووددت بفارغ الصبر ان أتذرع
بهذين السلاحين لقهر عداوته ، واذا بارادة مرحة عدوانية تستفزنى
ويتولانى يقين من انتصار حبى على كراهيته ونفوره ومن انصهار
معدنه الخشن الصلب فى النهاية ازاء حرارة حماسى العاطفى
فيبادلنى الحب .

قلت وانا أسير الى جانبه فى الطريق الذى اقفر من الناس فى
ملك الساعة المبكرة من الاصيل .

- « ولكن عليك أن تعدنى بالأ تحاول الهرب منى عندما نصل
الى المنزل . »

- « أعدك بذلك . »

- « كما عليك أن تعدنى بشيء آخر . »

- « ما هو ؟ »

فترددت قبل أن أجيب قائلة : « لولا انك فى المرة السابقة
وميتنى بنظرة معينة جعلتنى أشعر بالخجل لأمكن أن يسير كل
شيء على ما يرام فعليك أن تعدنى بالأ تنظر الى تلك النظرة مرة
أخرى » .

- « وكيف كانت ؟ »

- « لست أدرى .. ولكنها نظرة كريهة » .

(1) جاء هذا البيت فى مسرحية « فيدر » لراسين على لسان فيلد وترجمته : « ان
فينوس بكل قدرتها الالهية متشبثة بفريستها » والمقصود ان « فيدر »
وأفراد أسرتها جميعا نزلت بهم لعنة الحب

فما لبث أن اجاب قائلا : « لايمكننى التحكم فى نظراتى ، ولكننى ان شئت لن أنظر اليك مطلقا ، بل سأغض بصرى ، ارضيك هذا ؟ »

فاحتجبت قائلة فى عناد : « كلا ، فهذا لايرضىنى »
- « اذن فكيف تريدان أن أنظر اليك ؟ »
فأجبت قائلة : « هكذا نظرة رقيقة حانية .. »
- « آه فهمت ، نظرة حانية .. »

وبينما كنا نصعد الدرج التنصص القدر المؤدى الى شقتى لم يسعنى الا ان اذكر تلك العمارة التى تسكنها جيزيلا بما عليها من نظافة ولمعان . فقلت وكأنى أحدث نفسى : « لو اننى لا اسكن مكانا كهذا ، ولو اننى لم اكن تلك المخلوقة التنصصة لارتفع قدرى كثيرا فى نظرك » .

فاذا به على غير انتظار يتوقف فجأة عن الصعود ويقبض على خصرى بكلتا يديه قائلا فى صدق واخلاص : « ان كان ذلك هو اعتقادك فيمكنك أن تثقى تماما انه اعتقاد خاطئ .. » ثم التمعت عيناه بتعبير قريب جدا من الحب ، وفى نفس اللحظة انحنى فوقى ملتصقا شفتى ، وكانت انفاسه تفوح منها رائحة النبيذ القوية ، ومع اننى لم اكن اقوى مطلقا على احتمال رائحة النبيذ فقد بدت لى عندئذ وهى تنبعث من فيه بريئة خلاصة تكاد تثير الشفقة وكأنها تنبعث من فم صبي غر ، كما أدركت أن كلماتى قد أصابت من نفسه أكثر المواطن حساسية حتى خيل لى اننى أشعلت فى صدره شررا من العاطفة ، ولكننى عرفت فيما بعد ان ما حدث لم يكن الا خفقة من حب الذات وانه لم يكن بعناقه اياى منساقا بدافع من الحب بقدر ما كان مستسلما لنوع من الابتزاز الادبى ، ومن ثم فقد دابت كثيرا فيما بعد على ابتزازه بنفس الطريقة . فكنت اتهمه باحتقارى لفقرى وهنتى ، ولم أفتأ أحقق النتائج التى كان يحن اليها قلبى مع شدة احساسى بالمهانة والفشل كلما زاد فهمى لشخصيته .

ولكن معرفتى به عندئذ لم تكن قوية كما آلت اليه فيما بعد . فملاتنى قبلته بالفرح وكأننى فزت بنصر حاسم . فلم أزد على أن لمست شفتى غائبة بالحركة وحدها ثم أمسكت به من يده وجذبتة الى أعلى صاعدة به آخر مراحل الدرج وأنا أقول :

- « هيا . فلنسرع ! » فانقاد لى مستسلما دون أن ينبس بكلمة ودخلت شقتى وأنا أكاد أركض بينما لم يفتأ هو يصطدم بجدران

المدخل وكأنه دمية . ثم اقتحمت غرفتي وألقيت به على الفراش .
وعندئذ لاحظت لأول مرة أنه لم يكن مخمورا فحسب كما توقعت
بل يكاد يقىء من شدة السكر . فلشد ما امتقع وجهه ، ولم
يفتأ يمر بيده على جبهته وقد ارتسم على وجهه تعبير مذهول وفي
عينيه نظرة زائفة شاردة . لاحظت كل ذلك لأول وهلة ، فخشيت
في الحال ان يمرض حقا ويضيع لقاؤنا الثاني هباء . ولشد ما انتابني
تأنيب الضمير أثناء تجوالي في الغرفة وأنا أخلع ثيابي لانني لم
امنعه من الشراب - حتى كاد ينتابني اليأس، ولكنه جدير بالذكر
انه لم يخطر حتى ببالي أن أتخلي عن تصميمي على مضاجعته
- تلك الامنية التي طالما تفتت الى تحقيقها . وكنت أتمنى
شيئا واحدا فقط - هو الا يعجزه المرض عن ممارسة الحب معي
والا يظهر اثر لفثيانه - ان كان شديدا حقا - الا بعد اشباع رغبتى
فقد كنت مفرمة به حقا ولكن حبي لم يستطع أن يتجاوز حدود
ذاتي لخوفي الشديد من فقدانه .

فتجاهلت سكره ، وما ان خلعت ثيابي حتى جلست بجانبه على
الفراش ، وكان لا يزال مرتديا معطفه تماما كما كان عند دخوله
الغرفة ، فبدأت أعاونه على خلع ثيابه وكنت في أثناء ذلك لا أنقطع
عن الكلام لكي أشتت انتباهه وأحول بينه وبين التفكير في النهوض
ومفادرة المنزل .

قلت : « انك للآن لم تذكر لى كم تبلغ من العمر ؟ » وكنت
في أثناء ذلك أنزع عنه معطفه وهو رافع ذراعيه في استسلام تيسرا
لمهمتي .

ولم يلبث ان قال : « التاسعة عشرة » .

- « انك تصغرنى بعامين » .

- « وهل انت فى الحادية والعشرين ؟ »

- « نعم . . بل انا هز الثانية والعشرين فى الواقع » .

واخذت أصابعى تعبت فى ارتباك بعقدة رباط عنقه ، فدفعنى
بعيدا فى بطاء ومشقة وحل العقدة بنفسه . ثم سقطت ذراعى
فمزعت الرباط عن عنقه قائلا : « هذا الرباط قد بلى تماما
وسأبتاع لك رباطا جديدا ، فأى الالوان تفضل ؟ »
فأخذ يضحك . وعندئذ أحسست زهوه بالحب . فلشد ما كانت
ضحكته جذابة .

قال : « انك تنوين حقا ان تكفلىنى ! فأنت تبغين أولا ان تدفعى

لى ثمن وجبتى والآن تريدان اهدائى رباط عنق .
فقلت فى شغف به : « يا للسخف ! وماذا يهملو عن لى أن
أهديك رباط عنق ؟ فان ذلك لا يمكن أن يعطيك ! » وكنت فى
تلك الاثناء قد نزعت عنه سترته وصديرة . ولم يبق عليه سوى
قميصه وهو جالس على حافة الفراش .
وسألنى قائلاً : « هل يمكنك أن تتكهنى بأنى فى التاسعة عشرة
من عمري ؟ » وكان مفرماً دائماً بالحديث عن نفسه ، فسرعان
ما اكتشفت ذلك .

فقلت مترددة على صورة كنت أعلم انها ترضى كبرياءه : « عن
طريق أشياء معينة » . ثم أضفت قائلة وأنا أربت على رأسه :
« فلشد ما يشى بك شعرك ، اذ ان شعر الرجال ليس على هذه
الصورة من الحيوية . أما وجهك فلا يمكننى أن أتعرف منه على
سنة » .

- « كم تقدرين عمري من وجهى ؟ »

- « الخامسة والعشرين » .

فسكت عن الكلام ثم رأته يغمض عينيه وكأنه قد غلبه سكره
فعاودنى الخوف من مرضه وأسرعت بنزع قميصه قائلة : « زدنى
حديثاً عن نفسك . فهل أنت طالب ؟ »

- « نعم .. »

- « وماذا تدرس ؟ »

- « القانون .. »

- « أتقيم مع اهلك ؟ »

- « كلا .. فهم من سكان الريف وقيمون ببلدة س .. »

- « أتقيم فى نزل ؟ »

فأجابنى قائلاً بلهجة آلية وهو مغمض العينين : « كلا ، بل
فى غرفة مؤثثة ، بالشقة رقم ٨ من المنزل رقم ٢٠ بشارع كولاى
ونزو لدى السنيورا آماليا مدولاجى ، وهى أرمل »

وكان صدره الآن قد تعرى فلم أتمالك نفسى من أن أمر بيدي على
صدره وعنقه فى عشق وسألته قائلة : « لم تجلس هنا ؟ إلا
تشعر بالبرد ؟ »

فرفع رأسه وتطلع الى قائلاً : « أتظنينى لم ألاحظ شيئاً ؟ »
ثم ضحك وكان صوته حاداً بعض الشيء .
- « وماذا لاحظت ؟ »

« أنك تنزعين عني ثيابي أثناء حديثك ، فربما كنت مخمورا ولكن ليس الى هذا الحد » .
فقلت في شيء من الارتباك : « حسنا » ولنفرض انني فعلت ،
فماذا يضرك في ذلك ؟ كان ينبغي أن تخلع ثيابك بنفسك ، ولما لم
تفعل فقد أخذت أعاونك علي خلعها » .

من الواضح انه لم يسمع ما كنت أقول . اذ انه اخذ يهز رأسه
قائلا : « انني مخمور ولكنني أعرف جيدا ماذا افعل ولماذا انا
هنا ؟ كلا ، فأنا لست في حاجة الى مساعدتك ، شكرا لك » .

واذا به يفك حزامه ويلقى بعيدا سراويله وبكل ما كان يرتديه
من ملابس بحركات فجائية عنيفة بدت كحركات الدمى بسبب
نحافة ذراعيه . ثم قال قابضا على خصري بكلتا يديه : « كما انني
أعلم ماذا تتوقعين مني أن افعل » . فأمسكت بي يداه القويتان
العصبيتان ثم بدا لي ان النظرة المخمورة في عينيه قد تلاشت
وحلت محلها نظرة تنم عن الشر وحب الايذاء القوي . وكان علي
أن أواجه تلك النزعة الشريرة ذاتها في نفس اللحظة التي لشد ما
كان يبدو فيها مستسلما للذة . فقد كانت دليلا واضحا علي
صفاء وعيه الذي لم يفتأ يتمتع به في جميع الاوقات مهما كان
العمل الذي يؤديه . وكان ذلك كما اكتشفت للأسف فيما بعد
يقف حائلا بينه وبين حب أي شخص حبا حقيقيا ويمنعه من
الاتصال به .

ثم أردف قائلا وهو يتشبث بي وينشب اظافره في بدني : « هذا
هو ما تريدن . اليس كذلك ؟ هذا وهذا وهذا » . وكان كلما قال
« هذا » يأتي حركة من حركات الحب كالتقبيل والعض والقرص
على غير انتظار . وأخذت أضحك وأتلوى وأقاوم وقد تولتني سعادة
غامرة ليقظته الفجائية فلم الحظ كم كان سلوكه متكلفا ومفتقرا الى
التلقائية . ولشد ما ألمني بحركاته كما لو كان جسدي شيئا بفيضا
في نظره يكرهه ولا يحبه . والتمعت عيناه بالفضب أكثر مما لمعتا
بالرغبة . وفجأة هدأت نوبة جنونه كما بدأت . واذا به يستلقي
بطوله الى الخلف على الفراش منفضا عينيه بطريقة غريبة غامضة
وكانه قد غلبه شعوره بالسكر فوجدتني راقدة بجانبه يرأودني
احساس غريب بأنه لم يأت حركة قط ولم ينبس بكلمة وبأنه لم
يلمسني البتة أو يعانقني كما لو كنا لم نفعل شيئا بعد .
رقدت هناك بعض الوقت بلا حراك راقدة أمامه على الفراش

وقد تهدل شعري على عيني . أخذت أنظر اليه وأتحسس على
استحياء جسده الطويل النحيل الجميل البريء بأنامل وحلة . كان
ذا بشرة بيضاء برزت منها عظامه وقد عرض منكباها النحيلان وضمر
ردفاه وطالت ساقاه وملس جسده إلا من بعض شعرات على صدره
واستوى بطنه وهو في ذلك الوضع الذي كان يرقد فيه مما جعل
أعضائه التناسلية ترتفع الى أعلى وكأنها تعرض نفسها . ولما كنت
أكره العنف في الحب فقد راودني احساس بأن شيئاً لم يحدث بيننا
وان كل شيء لم يبدأ بعد . فانتظرت حتى يعود الهدوء ويسود
السكون بعد تلك الضجة الهائلة المفتعلة التي لم تلبث الا لحظة .
وما ان أسترد قلبي صفاء المعهود وحبه العارم حتى اضطجعت
بجانبه . فأحسست وكأنني أنفمس رويدا في بحر ساكن يزخر بالمياه
الجميلة ذات يوم قانظ . ثم التفت ساقاي بساقيه وأحاطت بعنقه
ذراعاي ، وتشبثت به . وعندئذ لم يتحرك أو يتكلم حتى آخر
لحظة . فأخذت أدعوه بأرق الاسماء وأعزها الى قلبي بينما انبعثت
انفاسي اللاهثة لتداعب وجهه . كما أخذت أعانقه عناقا حارا ملتها
بالحب وهو مستلق على ظهره بلا حراك وكأنه جثة هامدة فقدت
الحياة . وقد عرفت فيما بعد انه ليس في وسعه أن يقدم دليلا
على حبه أقوى من تلك السلبية المنعزلة .

وبعد قليل نهضت متكئة على مرقى وأخذت أنعم النظر اليه
على صورة ما زالت للآن بعد كل هذا الوقت الطويل تشكل ذكري
ثمينة مؤلمة ، فقد كان ينام وراسه في وضع جانبي غائص في الوسادة
وقد زايله وقاره المهتز المتردد الذي كان لا يفتأ يحاول الاحتفاظ
به في جميع الاوقات مهما كان الثمن . ولم يبق شيء في ملامحه
التي كشف عنها النوم بكل ما فيها من صدق وأخلاص سوى شبابه
الذي لا سبيل الى وصف نضارته وبراءته الا بآثما تعبير صادق
عن صفة خاصة من صفات روحه أو ميل معين فيها . ولكنني
تذكرت انني رأيت وقد اثباتته على التوالي حالات الحقد والعداء
وعدم الاكتراث والقسوة والرغبة . فامتلات نفسي بالكآبة والتبرم
القلق لاني كنت أعلم ان حقه وعداوته وعدم اكرامه ورغبته كانت
كلها أشياء تميزه على وعن كل من عداه وانها نابعة من مصدر عميق
في نفسه كان لا يزال سرا مستغلقا على . ولم أشأ أن أجعله يفسر لي
حالاته بتناولها وفحصها ثم شرحها لي في الفاظ كما لو كانت أجزاء
في آلة يمكن تناولها وفحصها . بل كنت أفضل أن أتعرف عليها

في ادق مظاهرها من خلال مضاجعتي اياه ولكنني لسوء الحظ
تشتتت في ذلك ، فالقليل الذي فاتني أدراكه منه هو ذاته بأكملها .
اما الكثير الذي لم تقمى ملاحظته فكان ناقها لا يعيدنى في شيء .
ولقد احسست ان جينو وأستاريتا بل حتى سونزونيو كانوا أقرب
الى منه وكنت أعرفهم أكثر منه ، فنظرت اليه يخالجنى ألم مبرح
لان أعماق نفسيينا لم تتمكن من التلاقى والتلاحم كما تلاقى جسدانا
قبل ذلك بفترة وجيزة . فتفجعت أعماقي وبكت في مرارة تلك
الفرصة التي ضاعت هباء . فربما مرت لحظة أثناء ممارستنا الحب
كشفت فيها عن نفسه وتخلي عن ستره وكان في وسعى بحركة أو
كلمة ان أنفذ اليه فيصير ملكا لى الى الابد . ولكننى لم أتعرف
على تلك اللحظة المناسبة . والآن قد فات الاوان فهو مستغرق في
النوم وقد ولى بعيدا عنى مرة أخرى .

وبينما كنت أتأمله فتح عينيه ولكنه ظل ساكنا تماما وقد غاص
رأسه في الوسادة وهو لا يزال في وضعه الجانبي . ثم سألتى قائلا :
« هل نمت أنت أيضا ؟ »

وخيل لى ان صوته كانت تتخلله نبرة مختلفة اكثر ثقة واثمنا
فملا قلبي أمل مفاجيء بأن العلاقة بيننا ربما توثقت أثناء نومه على
صورة غامضة . فقلت : « كلا ، بل كنت أراقبك » .
فسكت لحظة ثم أردف قائلا : « أريد ان أطلب اليك صنيعا .
ولكن أيمكننى الاعتماد عليك ؟ »

- « يا له من سؤال ! »

- « أتؤدبن لى صنيعا بأن تحتفظى لى بطرد أعطيك اياه مدة ايام
قلائل ؟ ثم أحضر اليك لاتسلمه وربما حملت اليك طردا آخر . »

لو طلب الى ذلك فى اى وقت آخر لأظهرت بعض الفضول ازاء
موضوع الطرود ، ولكننى عندئذ لم يكن يهمنى سوى جياكومو
وعلاقتنا ، وخطر لى ان ذلك سيتيح لى الفرصة لرؤيته مرة أخرى
واننى يجب ان أفعل كل ما فى وسعى لارضائه ، كما خطر لى
اننى لو سألته عما يحويه ذلك الطرد فلعله يندم على اقتراحه
ويسحبه ، فقلت باستخفاف : « اذا كان ذلك هو كل ما تطلب ! »

ثم عاد فلزم الصمت فترة طويلة وكأله يعكر فى الامر ، وبعد
ذلك سألتى قائلا : « اذن فأنت توافقين ؟ »

- « لقد قلت لك ذلك فعلا . »

- « ألا يهملك أن تعرفى ما تحويه تلك الطرود ؟ »

فاجبت قائلة وانا احاول جهد الطاقة ان اتظاهر بعدم الاكتراث :
« اذا لم تشأ ان تخبرنى فمعنى ذلك ان لديك مبرراتك ، لذا
فانى لا اطلب اليك ذلك » .
« ولكنك ربما كان شيئا خطيرا ، فكيف تعرفين ؟ »

« لا بد من المخاطرة . »

فأردف قائلا وهو مستلق على ظهره بينما لمعت عيناه بالسرور
الساذج : « فلعلها سلع مسروقة ، وربما كنت لصا » .

فتذكرت سونزونيو الذى لم يكن لصا فحسب بل سفاحا ثم
تذكرت سرقاتى التى ارتكبتها : « البدارة » والقلنسوة ، وبعد
ذلك تصورت كم كان غريبا منه أن يرغب فى ايهامى بأنه لص فى حين
اننى كنت لصة بالفعل أعيش بين اللصوص ، فقلت فى رقة وأنا
أربت عليه مدغدغة : « كلا ، فانى واثقة انك لست لصا » .

فتجهم وجهه ، اذ انه لما كانت كبرياؤه يقظة دائما فانه كان
يستشعر الاساءة فى أغرب الاشياء وأبعدها احتمالا ، ثم سألنى
قائلا : « ولم لا ؟ فلعلى كذلك » .

« ولكنك لا تبدو لصا .. كل شىء ممكن بالطبع .. ولكنك
لا توحى الى بشىء من هذا حقا . »
« لماذا ؟ وكيف ابدو لك ؟ »

« على حقيقتك ، فأنت تبدو شابا من أسرة كريمة ، طالب علم .. »
« لقد زعمت لك اننى طالب ، ولكننى ربما كنت شيئا آخر
كما هى الحال فى الواقع . »

غير اننى لم أعد أنتبه اليه ، فقد خطر لى ان وجهى ايضا لم
يكن ينبىء بأننى لصة ومع ذلك فهكذا كنت ، وتمنيت أن أقول
له ذلك ، وكان موقفه الغريب يفرينى بذلك الى حد ما ، فقد كنت
أعتقد دائما ان السرقة جرم يستحق اللوم ، فاذا بذلك الرجل
لا يعنى فقط مثل هذا العمل من اللوم بل يبدو وكأنه يرى فيه
ظاهرة ايجابية لم أستطع ادراكها .

فقلت بعد لحظة من التردد : « أنت على حق ، فانا أرفض ان
أصدق انك لص لشعورى بأنك لست كذلك ، أما عن سيمائك -
فربما كنت لصا - اذ ان الناس لا تبدو عليهم الحيف دائما ، فهل
أبدو أنا لصة مثلا ؟ »

فأجابنى قائلا دون أن ينظر الى : « كلا .. »
فقلت فى هدوء : « ومع هذا فانى كذلك .. »

« حقا ؟ »

www.library4arab.com/vb

« وماذا سرقت ؟ »

كنت قد وضعت حقيبتى على المنضدة الصغيرة بجانب الفراش فالتقطتها وأخرجت منها « البدارة » قائلة : « هذه » وقد سرقتها من منزل تصادف وجودى فيه منذ فترة وجيزة ، كما سرقت منذ أيام قلنسوة حريرية من أحد المحال ثم أعطيته لأمى .

ولا ينبغي أن تتصوروا اننى صارحته بكل ذلك بدافع من الزهو والخيلاء ، بل دفعتنى اليه فى الواقع رغبتى فى توطيد العلاقة بيننا والمشاركة العاطفية فى الاثم ، كما أن الاعتراف بالجرم ان لم يأت بنتيجة أفضل فانه يقرب بين الناس ويوقظ الحب ، ولقد رأيت وجهه يتخذ سيماء الجد وهو يتأملنى فى شيء من الحزن ، فخشيت فجأة أن يظن بى سوءا وأن يقرر مقاطعتى فأسرعت قائلة : « ولكن لا تظننى فرحة بما ارتكبته من سرقة ، فقد قررت اليوم فى الواقع أن أرد « البدارة » الى صاحبته . أما القلنسوة فلا يمكنى ردها ، ولكننى نادمة على ما حدث وقد قررت الا أعود اليه » .

وبينما كنت اتكلم لمعت عيناه بحب الابداء المعهود ، وأخذ يتأملنى ثم انفجر فجأة فى الضحك ، وأمسك بى من كتفى وراح يضمنى اليه بقوة ويقرصنى بطريقته الفجائية قائلا : « أيتها اللصة ! انك لصة ، لصة كبيرة ، لصة صغيرة عزيزة » راح يردد ذلك بلهجة جمعت بين الحب والتهكم تركنتى فى شك مما اذا كان ينبغي لى أن أغضب أم أسر ، ولكن اندفاعه أثارنى وأرضانى على صورة ما . فقد كان ذلك على أية حال أفضل من سلبيته المعهودة التى تشبه الموت ، فأخذت أضحك وأتلوى من أعلى رأسى الى اخصص قدمى لشدة تأثرى بالدغدغة وكان يصر على دغدغتى أسفل ذراعى ولكننى كنت ألاحظ طوال الوقت الذى لم افتأ أتلوى فيه وأضحك حتى تحدرت الدموع على وجنتى أن وجهه المنحنى فوقى فى غير ما شفقة على الاطلاق كان باردا متحفظا . ثم اذا به يتوقف فجأة كما بدأ ويستلقى الى الخلف على الفراش قائلا : « ولكننى لست لصا - ولا شيء من هذا القبيل - وأما هذه الطرود فلن تحوى سلعا مسروقة » .

وقد لاحظت انه كان يتحرق شوقا ليخبرنى بما كانت تحويه تلك الطرود كما لاحظت ان الامر كله لا يعدو أن يكون فى نظره

مشارا للزهو اكثر من أى شيء آخر ، ذلك الزهو الذى لا يختلف كثيرا عما كان يشعر به سونزوويو عندما اطلعني على جريمته . فالرجال يشتركون فى نواح متعددة رغم كل ما بينهم من اختلافات . فعندما يوجد الرجل مع امرأة يحبها او تربطه بها علاقة غرامية فانه لا يفتأ يميل الى استعراض رجواته عن طريق التفاخر بما قام به او يعتزم القيام به من أعمال قوية وخطيرة .

فقلت فى رقة : « انك تتحرق شوقا لظهارى على محتويات تلك الطرود » .

ففضب قائلا : « انك سخيفة حمقاء ، فان ذلك لا يهمنى فى شيء ولكننى يجب أن أخبرك بمحتوياتها حتى تقررى ان كنت ستؤدين لى ذلك الصنيع أم لا ، ولذا فانى اصارك بأنها تحتوى على دعاية » .

- « ماذا تعنى ؟ »

فقال فى ببطء : « اننى انتمى الى جماعة من الناس لا يميلون الى نظام الحكم الحاضر بل يكرهونه فى الواقع ويريدون ان يتخلصوا منه فى اقرب وقت ممكن ، وتحتوى الطرود على كثير من المنشورات التى طبعت سرا والتي نشرح فيها أسباب فساد هذا النظام وكيفية التخلص منه » .

لم تكن لى صلة قط بالسياسة ، واعتقد ان مسألة نظام الحكم لم تكن تمسنى أنا او غيرى من الكثيرين فى شيء ، ولكننى تذكرت آستاريتا واشاراتة الى السياسة من وقت لآخر .

فهتفت قائلة فى انزعاج : « ولكن هذا شيء محرم ، انه خطير ! »

فنظر الى فى رضا واضح ، اذ قلت أخيرا شيئا أعجبه وأرضى غروره ، فأمن على كلامى قائلا فى جد متناه ولهجة توكيدية الى حد ما : « نعم .. انه خطير ، والآن عليك أن تقررى ان كنت ستؤدين لى ذلك الصنيع أم لا ؟ »

فأجبت قائلة فى جد : « لم اكن اتكلم عن نفسى ، بل كنت أعنيك ، أما عن نفسى فانى سأقوم بالمهمة » .

فعاد يقول : « حذار ، فان الامر جد خطير ، فلو أنهم عثروا على تلك الطرود لانتهى بك المطاف الى السجن » .

فنظرت اليه وغشيني فيض من العاطفة الجامعة ، ولا ادري ان كانت هذه العاطفة من أجله أم من أجل شيء آخر لم أعرف كنهه ، فاغرورقت عيناى بالدموع وتلعثمت قائلة : « الا ترى ان

www.library4arab.com/wb
الامر لا يهمني مطلقا ؟ فاني سأذهب الى السجن .. ثم ماذا ؟
وهزنت رأسي فتحدثت الدموع على وجنتي .
فسألني قائلا في دهشة : « والآن ماذا يبكيك ؟ »
فقلت : « اني آسفة ، فهذا سخف مني .. ولكني لا أدري
أنا نفسي لماذا أبكي ؟ فلعلي أريدك أن تدرك كم انا مغرمة بك وكم
انا على استعداد لعمل أى شيء من أجلك » .

ولم أكن بعد قد تعلمت انه لا ينبغي أن أذكر له حبي ، فما ان
سمع كلماتي حتى امتلأ وجهه بتعبير ينم عن الارتباك الغامض
الصلف ذلك التعبير الذي كان مقدرا لى أن أراه كثيرا فيما بعد .
ثم أسرع قائلا : « حسنا ، سأحمل اليك الطرد بعد يومين ، اذن
فقد اتفقنا ، والآن ينبغي أن اذهب فقد تأخر الوقت » . وبينما
كان يتكلم وثب من الفراش وأخذ يرتدى ملابسه بسرعة ، وبقيت
حيث كنت عارية من ثيابي تغمرنى عاطفتي ودموعي ويخالجني شيء
من الخجل اما لعريي واما ليكائي .

ثم التقطت ملابسه التي كانت ملقاة على الارض وأخذ يرتديها
واتجه الى المشجب لتناول معطفه الذي اندس فيه ثم جاء نحوي
قائلا بابتسامته البريئة الخلافة التي لشد ما كانت تجذبني :
« جسي » .

فنظرت ورأيت أنه كان يشير الى أحد جيبي معطفه ، وكان قد
اقترب من الفراش حتى يمكنني أن أمد يدي في غير جهد ،
فأحسست من خلال قماش جيبه بشيء صلب ، وسألته قائلة دون
أن أفهم شيئا : « ما هذا ؟ »

فابتسم في رضا ودس يده في جيبه ثم سحب في ببطء غدارة
كبيرة سوداء أبرزها حتى نصفها وهو يحملق في طوال الوقت بنظرة
شاخصة . فهتفت قائلة : « غدارة ! وماذا تفعل بها ؟ »
فقال : « من يدري ؟ فلعلها تنفعني في يوم من الايام » .

ولكنني لم أثق بما قال ولم أدر ماذا أعتقد بل انه لم يتح لى
الفرصة للتفكير ، فقد أعاد السلاح الى جيبه وانحنى فوقى مقبلا
شفتي على محفل وهو يقول « حسنا ، اذن لابد يومين سأحضر
اليك » . ثم انصرف قبل أن أفيق من دهشتي .

ومنذ ذلك الحين طالما فكرت في أول لقاء غرامى لنا ولم أفتأ
أؤنب نفسي في مرارة لانني لم أتنبأ بالخطر الذي يعرضه له شغفه
الشديد بالسياسة ، وانى لأعلم أنه لم يكن لى قط نفوذ عليه

ولكننى على الاقل لو كان لى الامام بالاشياء الكثرية التى تعلمتها
منذ ذلك الحين لامكنى ان اناصحه واذا لم تجد معه النصيحة
لوقفت الى جانبه يحدونى وعى تام وتصميم أكيد ، واللوم كله
يقع على بسبب جهلى الذى لا ذنب لى فيه بل ان ظروفى التى نشأت
فيها هى التى كانت مسئولة عنه ، فانى كما سبق ان قلت لم تكن
لى صلة مطلقا بأمور السياسة التى لم أكن أفهمها واحس انها
غريبة عنى تماما وكأنها لا تجرى من حولى بل فى كوكب آخر .

وكنت كلما قرأت جريدة لا أفتأ اترك الصفحة الاولى التى تحمل
انباء السياسة لعدم اهتمامى بها ثم أتصفح تقارير القضايا الجنائية
حيث كانت بعض الحوادث والجرائم تمد ذهنى بشيء يفتت به
على الاقل ، وكانت حالى فى الواقع اشبه بحال تلك المخلوقات
الهلامية الصغيرة التى تعيش كما يقولون فى قاع البحر فيما يشبه
الظلام ولا تدرى شيئا مما يدور على سطح الماء فى ضوء الشمس .
فكانت السياسة شأنها شأن كثير من الامور الاخرى التى يبدو لى
ان الناس يعلقون عليها أهمية كبرى لا تفتأ تبلغنى من عالم أعلى
مجهول بل كانت أوهى فى نظرى وأكثر غموضا من ضوء النهار
بالنسبة لتلك المخلوقات الصغيرة البسيطة التى تعيش فى أعماق
البحار .

ولكن الذنب فيما حدث لم يكن يرجع الى والى جهلى فحسب
بل اليه أيضا بسبب غروره وطيشه ، فلو اننى أحسست فيه
بشيء آخر سوى الفرور الذى كان يراوده فى الواقع فلعلى كنت
أتصرف على صورة مختلفة ولأرغمت نفسى على الامام بجميع الامور
التى كنت أجهلها ولكننى لا أستطيع ان أتكهن بما كان يمكن ان
أحققه من نجاح . وعند هذه النقطة أحب ان أوضح امرا آخر
ساعد بلا شك على عدم اكرائى - الا وهو انه كان لا يفتأ يبدو

وكانه لا يودى عملا جادا بل يمثل دورا هزليا ، فقد بدا وكأنه قد
أقام لنفسه شخصية مثلى شيدها قطعة قطعة ولكنه لم يسعه
الا ان يؤمن بها الى حد معين وكان لا يفتأ يجاهد ليجعل أعماله
تتفق مع تلك الشخصية التى ، فكانت تلك الهزلة المستمرة توحى
بأنه يمثل دورا فى لعبة اتقنها للغاية ، ولكنها كانت تجعل أعماله
كذلك تبدو اقل جدية بكثير وكان الامر لا يعدو ان يكون لعبة كما
كانت توحى فى نفس الوقت بأن كل شيء فى نظره يمكن اصلاحه
وانه فى آخر لحظة حتى اذا ما خسر اللعبة فان خصمه سيرد له

خسائره ويصافحه . والآن لعله كان يلعب حقا شأن الصبية الذين
تدفعهم غرائزهم التي لا سبيل الي كبتها الي العيش بكل شيء .
ولكن خصمه كان جادا كما ستري ، ولذا فقد وجد نفسه في نهاية
اللعبة عاجزا ومجردا من السلاح وقد وقع أسير قبضة عدوه القاتلة
التي لا أثر فيها للمزاح أو العبث .

وعندما استعرضت في ذهني ما حدث تبين لي ان كل هذه
الاشياء وغيرها مما هو أفجع من ذلك بكثير وليس أقل منطقا أو
عقلا قد وقع لي فيما بعد ، ولكن لم يخطر ببالي عندئذ - كما
أعتقد اني سبق أن أوضحت - ان مسألة الطرود هذه قد يكون
لها تأثير ما على علاقتنا . كنت فرحة بعودته الي ، فرحة بإمكانني
أن أؤدي له صنيعا وبأن تتاح لي في نفس الوقت فرصة لرؤيته
مرة أخرى ، ولكنني لم أتطلع الي ما وراء ذلك المنبع المزدوج
للسعادة ، بل أذكر انني كلما خطر لي عرضا وعلى صورة غامضة
حالة ذلك الصنيع الغريب الذي سألتني أن أؤديه كنت أهز رأسي
وكأني أقول : « عبث صبية ! » ثم يتجه تفكيري الي أمور أخرى
وعلى أية حال فلشد ما أحسست بالسعادة حتى انني لو شئت
أن أفكر في شيء مقلق لما أمكنني تركيز انتباهي عليه .

بدا لي أن كل شيء كان يتم في سهولة ونجاح ، فقد عاد الى جياكومو كما وفقت في الوقت نفسه في الافراج عن الخادمة التي اتهمت ظلما دون أن اضطر الى أن أحل محلها في السجن ، ولقد قضيت يومئذ ساعتين على الاقل بعد انصراف جياكومو تخالجنى فرحة شديدة بسعادتي كما نفرح بجوهرة أو بشيء ثمين لايزال جديدا علينا وقد انتابتنا الحيرة والدهشة والخدر دون أن تخلو نفوسنا مع ذلك من المتعة العميقة . واذا بأجراس الصلاة توقظني من ذلك التـأمل الحسى ، فتذكرت نصيحة آستاريتا فيما يخص حاجتى الملحة الى مساعدة تلك المرأة التعسة رهينة السجن ، فارتديت ثيابى بسرعة وغادرت المنزل .

في فصل الشتاء عندما يصير النهار قصيرا وعندما ننفق في البيت الصباح كله والساعات الاولى من الاصيل ونحن في خلوة مع خواتمنا يصبح من الممتع أن نغادر الدار لنجوب الشوارع في قلب المدينة حيث تبلغ حركة المرور ذروتها ويبلغ الزحام اشده وتضاء المحال بأبهى أنوارها ، إذ تثب قلوبنا في الهواء النقي البارد وسط ضوضاء الحياة في المدينة وحركتها وبريقها وينقشع الضباب عن أذهاننا وتمتلئ نفوسنا بالاثارة الجذلة المبتهجة وبالنشوة المرحية وكأن مشكلات الحياة جميعا قد حلت فجأة ولم يبق لنا الا أن نتجول وسط الزحام في مرح وخلو بال قانعين بالانقياد لاي احساس عابر يوحى به الى أذهاننا الخاملة مهرجان الطريق ، وعندئذ يبدو لنا فعلا وكان جميع ذنوبنا قد غفرت كما تقول الصلاة المسيحية دون أي ثواب أو استحقاق من جانبنا بل بفضل أريحية كريمة غامضة فحسب ، فلا شك اننا عندئذ نكون في حالة نفسية سعيدة أو راضية على الاقل ، والا فان حياة المدينة قد لا تثبت في نفوسنا سوى احساس حاد بالحركة السخيفة التي لا تهدف الى شيء ، ولكنني يومئذ كنت سعيدة ولشد ما ازداد ذلك الاحساس عندما أخذت أسير على الافارينز في قلب المدينة وسط زحام الناس . كنت أعلم انني يجب أن أذهب الى الكنيسة لأعترف ، ولكنني

لم اكن في عجلة من امرى بل لم اكن حتى لأفكر فيما سأفعل ربما
لعلمي بأن تلك هي غايتي . ولفرحتى بأننى كنت صاحبة ذلك الاقتراح
أخذت أسنى الهوبنى من شارع الى آخر متوقفة بين الحين والحين
لألقى نظره على السلع المعروضة فى واجهات المحال ، ولو أن أحدا
رأنى حينذاك لتبادر الى ذهنه بلا ريب اننى اعترم اقتناص عشيق
من الطريق ، ولكن ذلك فى الواقع كان أبعد ما يكون عن تفكيرى ،
فلعلنى كنت أتوقف عن المسير لو اعترض طريقى رجل استهوئتنى سماته
ولكننى ما كنت لأفعل ذلك جريا وراء الكسب ، بل مدفوعة اليه
باحساس من السعادة وفيض من الروح المعنوية العالية ، غير اننى لم
أجد ما يجذبنى فى ذلك النفر القليل من الرجال الذين ما ان رأونى
واقفة فى سكون انظر فى واجهات المحال حتى جاؤوا الى بعباراتهم
المعهودة وعرضهم لاصطحابى ، فلم احر جوابا بل لم اتطلع حتى الى
وجوههم وواصلت طريقى على الأفريز مختالة فى خطاى البطيئة
المعهودة وكأنهم ليس لهم وجود .

وبينما كنت فى تلك الحالة النفسية المرحة الشاردة اذا بمنظر
الكنيسة التى ذهبت للاعتراف فيها آخر مرة عقب رحلة فيترير
يهاجمنى بفتة وعلى غير وعى منى ، فبدت لى واجهة تلك الكنيسة
بزخارفها الكثيرة وهى مغمورة فى الظلام وقد بنيت كستار على
طول أحد منحنيات الطريق بمقصها المرتفع الذى يعلوه ملاكان
ينفخان البوق وبما انعكس عليها فى خطوط بنفسجية من أشعة
كانت ترسلها لافتة كهربية مثبتة على أحد المنازل المجاورة. بدت لى
تلك الواجهة كوجه أسود مفضن لامرأة عجوز لم يفتأ يشير الى
خلصة من خلف وشاح قديم وقد أحاطت به وجوه أخرى لغيرها
من المارة أشرقت بالضوء وهى واقفة فى مكانها تحف بها من ناحية
لوحات الاعلان عن السينما ومن الناحية الأخرى واجهة محل للملابس
الرجال الداخلية وكانت كلتاهما تتألق بالضياء ، وتذكرت معرفى
الفرنسى الوسيم - الأب ايليا - وكيف انجذبت اليه ، وخيل لى
انه خير من يقوم بمهمة رد « البدارة » الى صاحبته لانه كان
شابا ذكيا ورجلا دنيويا يختلف من جميع الوجوه عن غيره من الكهنة
وفضلا عن ذلك فان الأب ايليا كان يعرفنى من قبل الى حد ما
مما سيهون على مهمة اعترافى له بما ارتكبت من آثام كثيرة وهيبة
مخجلة كانت روحى ترزح تحت عبئها الثقيل .

وصعدت الدرج ثم نحيت جانبا ذلك الستار الثقيل المسدل على

الباب ودخلت الكنيسة بعد ان وضعت منديلا على راسي ، وبينما كنت اغمس اصابعي في جرن الماء المقدس لفت نظري منظر محفور حول حافته ، كان يمثل امرأة عارية تطير شعرها في الهواء وارفعت ذراعها وهي تجرى هاربة من تنين خبيث شرير ذي منقار ببغائي كان يقف كالرجل منتصبا على خلفيته ، فبدأ لي اننى اتعرف على نفسى في تلك المرأة وخطر لي اننى ايضا كنت اركض هربا من تنين كهذا الا اننى في اثناء ذلك السباق الدائرى كنت أحيانا أجدنى متعببة فى مرح ذلك الوحش القبيح لا هاربة منه .

ثم تحولت عن جرن الماء المقدس الى الكنيسة راشمة الصليب على صدرى فبدأت لي وكأنه لم يزايلها ما لاحظته فى أول مرة من ظلام وقذارة وفوضى ، كان كل شىء على حاله غارقا فى الظلام فيما عدا الهيكل الرئيسى بكل ما عليه من شموع مشتعلة عن قرب حول الصليب الذى يحمل المسيح وقد اختلط من حوله بريق الشمعدانات النحاسية والوانى الفضية ، كما أضيئت الانوار فى كنيسة العذراء الصغيرة التى صليت فيها آخر مرة بحماس شديد وبغير طائل . وكان هناك شماسان يقفان على سلمين خشبيين وهما يثبتان على العارضة ستائر حمراء مذهبة الحواشى . وعندما وجدت كرسى الاعتراف الخاص بالاب ايليا مشغولا ذهبت لأجثو امام الهيكل الرئيسى على أحد المقاعد الخيزرانية التى نقلت من مكانها ، ولم يخالجنى شعور ما سوى رغبتى الملحة فى الانتهاء من موضوع « البدارة » ، وقد تميزت تلك الرغبة الملحة بطابع غريب هو احساسى فى قرارة قلبى بالبهجة والاندفاع وتهنئة النفس والزهو الى حد ما ، ذلك الاحساس الذى يراودنا عندما نكون مقدمين على عمل خير ظللنا نتأمله زمنا طويلا . وطالما لاحظت أن مثل هذه الرغبة الملحة التى تنبع من القلب ولا تقبل النصح تنتهى عادة بتشويه العمل الخير وتضر أكثر مما تنفع على عكس السلوك المخطط المدبر .

وما ان رأيت المعترف ينهض وينصرف حتى توجهت مباشرة الى كرسى الاعتراف حيث ركعت وبدأت أتكلم دون انتظار كلمة يخاطبنى بها معرفى ، قلت : « أبى ايليا ، ما جئت لأعترف بالطريقة المعتادة بل لأحدثك فى أمر خطير للغاية ولأطلب اليك نصيحا لا يساؤونى شك فى قبولك القيام به » .

ولقد اغراني بمواصلة حديثى صوت معرفى الخفيض فى الناحية الاخرى من السياج ، ولشد ما كنت واثقة من وجود الاب ايليا فى

www.Librarary4arab.com/vb
الجانب الآخر حتى كاد يخيل لي أنني أرى وجه الهادي - الوسيم مرتسما على السياج المعتم ذي الثقوب الصغيرة . وعندئذ إذا بي أحس لأول مرة منذ دخولي الكنيسة باندفاع عاطفي من الخشوع والثقة . أحسست وكأن روحي قد اندفعت لتتحرر من جسدي وتجتو عارية على الدرج أمام السياج كاشفة عن كل ما فيها من عيوب وأخطاء ، فخيّل لي لحظة وكأنني روح بلا جسد - روح حرة طليقة قوامها الهواء والضوء كحالنا بعد الموت كما يقولون ، وكذلك خيّل لي أن الأب ايليا بروحه التي لشدة ما تفوق روحي نورانيه قد تحرر من سجن البدن فأزال السياج والجدران وبدد الظلام المخيم على كرسي الاعتراف ثم مثل بشخصه أمامي باهرا بصري ومخففا عني ، ولعل تلك هي العاطفة التي ينبغي ان نشعر بها كلما جئنا للاعتراف ، ولكنني لم أشعر بها قط بمثل هذه القوة .

وبدأت أتكلم مغمضة العينين وقد أسندت رأسي الى السياج ، ثم رويت له كل شيء ، فحدثته عن مهنتي وعن جينو وآستاريتا وسونزونيو وعن السرقة والقتل ، كما ذكرت له اسمي واسم جينو وآستاريتا وسونزونيو ثم أخبرته بالمكان الذي ارتكبت فيه السرقة ومكان جريمة القتل كما أخبرته بمكان اقامتي ، وكذلك أعطيته أوصاف الشخصيات المختلفة ، ولا أدري كنه القوة التي كانت تدفعني أمامها ، ولعلها نفس القوة الدافعة التي تحس بها ربة الدار عندما يصبح عزمها نهائيا على تنظيف المنزل بعد فترة طويلة من الإهمال ولا تجد سبيلا الى الراحة حتى تزيل آخر ذرة من الغبار وآخر قطعة من الخمل تحت الاثاث او في زوايا الدار . وفي الواقع فاني كنت أحس وأنا أسرد له قصتي بكل تفاصيلها وكأنني أزيح عن قلبي وروحي عبئا ثقيلا ، فراودني شعور بالخفة والنظافة .

وظللت طوال الوقت أتكلم بنفس النبرات الهادئة المتزنة ، وظل المعرف يصغى الى دون ان يقاطعني حتى انتهيت من قصتي . وعندما توقفت عن الحديث أعقبت ذلك لحظة من الصمت ، ثم سمعت صوتا رهيبا بطيئا لنا مستأنيا بخاطبي قائلا : « لقد حدثتني يا بنيتي عن أشياء فظيعة مخيفة لا يكاد يصدقها العقل ، ولكنك أحسنت صنعا بمجيئك للاعتراف ، وسأبدل كل ما في وسعي من أجلك » .

وكانت قد مضت فترة طويلة منذ اعترافي الاول الوحيد في تلك الكنيسة ، فكادت أنسى لشدة اضطرابي من جراء أريحيتي الراضية

أحب ميزات الاب ايليا الى نفسى ، وهى نطقه الفرنسى . فان الكاهن الذى كان يحاطبى لم يتغير صوته بلهجة معينة بل كان ايطاليا بلا شك وكان صوته ليئا على صورة غريبة كصوت الكثيرين من الكهنة . وفجأة ادركت الخطأ الذى وقعت فيه فسرت فى بدنى قشعريرة باردة ، وكأنى قد مددت يدي لالتقاط زهرة جميلة فاذا بأناملى تلمس حراشف حية ثلجية ترتجفة . وكان مما شدد من وقع المفاجأة البغيضة على حين واجهت معرفا لا انتظره ذلك الاحساس بالرعب الذى اثاره فى نفسى صوته العميق الموعز . فتلعثمت قائلة فى مشقة : « هل انت حقا الاب ايليا ؟ » فأجابنى الكاهن المجهول قائلا : « هو نفسه شخصيا ، لماذا ؟ هل جئت هنا من قبل ؟ » فقلت : « مرة واحدة » .

فسكت الكاهن لحظة ثم قال : « ان كل ما قلته لى يتطلب التأمل فيه نقطة نقطة . فأنت لم تروى لى شيئا واحدا ، بل أشياء كثيرة بعضها يخصك وبعضها يخص غيرك من الناس . أما فيما يخصك ، فهل تدركين ان ذنبك جسيم ؟ » فتستمت قائلة : « نعم .. أدرك ذلك » .
- « وهل انت نادمة ؟ »
- « هذا هو اعتقادى » .

فبدأ يتكلم بصوت أبوى مؤتمن خفيض : « لو كنت مخلصه فى ندمك فهناك بلا شك أمل فى المفرة ، ولكن الامر لسوء الحظ لا يخصك وحدك ، بل هناك الآخرون جميعا بجرائمهم وخطاياهم . فقد اطلعت على تفاصيل جريمة شنيعة قتل فيها رجل بطريقة مروعة ، أفلا تشعرين فى قرارة قلبك بدافع للكشف عن اسم المجرم وحمله على الوقوف أمام العدالة ؟ » .

كان يقترح على بهذه الطريقة أن أشى بسونزونيو ، ولا أزعم انه أخطأ فى ذلك بوصفه كاهنا ، ولكن اقتراحه على فى مثل ذلك الوقت بصوته الموعز لم يكن له من أثر سوى زيادة شكوكى ومخاوفى ، فتلعثمت قائلة : « لو اعترفت على القاتل لأودعت السجن أنا نفسى » .

فجاء جوابه على الفور قائلا : « ان الناس كالاله نفسه قادرون على فهم تضحيتك وندمك ، والقانون يكفل العقاب كما يكفل العفو . ولكنك فى مقابل شىء من العذاب تساعدن على اقرار العدالة من جديد بعد اختلال ميزانها على صورة بغيضة . يا بنيتى الا تسمعين

صوت الحزن عليه وهو يتنفس الرحمة من قائله لي غير طائل « .
وهكذا ظل يعظني في رضا عن نفسه وهو ينتقى الفاظه بعناية من
بين العبارات التقليدية الملائمة لوظيفته ككاهن ، ولكنني لم اكن
أحس الا بالرغبة في الهرب حتى كاد ينتابني الجنون .
فقلت : « سأفكر في الإبلاغ عنه وسأعود غدا لأخبرك بما قررت ،
فهل أجرك هنا ؟ »

- « بالتأكيد في أي وقت . »

فأجبت قائلة في لهجة مذهولة : « حسنا ، كل ما أطلبه اليك
مؤقتا هو تسليم هذه « البدارة » ثم توقفت عن الكلام ، وما ان
سألني مرة أخرى بعد صلاة قصيرة عما اذا كنت نادمة حقا وعمما
اذا كنت قد وطنت النفس على تغيير طريقة حياتي حتى منحني
الففران ، ورشمت الصليب على صدري ثم غادرت كرسي الاعتراف
ففتح بابيه في نفس الوقت ووقف أمامي ، وما ان وقع بصري عليه
حتى تضاعفت جميع مخاوفي التي أثارها صوته في نفسي . كان قصير
القامة ذا رأس ضخم يميل جانبا وكأنه يشكو من تصلب في عنقه .
ولم يتسع وقتي لافحصه بدقة فلشد ما كان يملؤني رعبا ، ولشد
ما تعجلت الرحيل لأجري بعيدا ، ولقد لمحت وجهه الاصفر المائل
الى السمرة وجبهته العالية وعينييه الفائرتين في محجريهما وأنفه
الافطس الذي اتسع منخراه وقمه الواسع الذي لا شكل له وشفتيه
الجمراوين المتعرجتين . أما عن السن فلا يمكن أن يكون طاعنا فيه
لانه كان سرمديا . عقد يديه على صدره وطأ رأسه ثم خاطبني
قائلا بلهجة صادقة : « ولكن لم تأتي الى قبل ذلك يابنيتي
العزيزة ؟ لم ؟ فكم كان ذلك يجنبك كثيرا من الفظائع ؟ » .

وأردت أن أعبر له عن اعتقادي وهو ان هذه هي ارادة الله ولكنني
كبحته جماح نفسي ثم اخرجت « البسدارة » من حقيبتي وناولته
اياها قائلة في حزم : « أرجو أن تسرع قدر امكانك ، فلا يمكنني
أن اصف لك مدى حزني عندما يخطر لي أن تلك المرأة التعسة

رهينة السجن سببي .
فأجابني قائلا وهو يضم « البدارة » الى صدره ويهز رأسه
مسترحما مستغفرا : « اني ذاهب اليوم » .

فشكرته بصوت خفيض وما كدت أوميء له برأسي حتى غادرت
الكنيسة بأقصى سرعة ممكنة ، وظل واقفا في مكانه بجانب كرسي
الاعتراف شابكا يديه على صدره وهو لا يفتأ يهز رأسه .

وعندما عدت في امان الى الطريق حاولت أن أتأمل ما حدث في هدوء فاذا بي أدرك الآن وقد زایلتنى مخاوفى الأولى المختلطة أن ما كنت أخشاه أكثر من أى شىء آخر هو أن يفشى الكاهن سر الاعتراف . وحاولت اكتشاف أسباب تلك الوسوس . فقد كنت أعلم كما يعلم الجميع ان الاعتراف سر مقدس ولذا فانه لا يجوز افشاؤه . كما كنت أعلم انه من المحال على أى كاهن مهما بلغ فساده أن يفشى هذا السر . ولكن نصحه اياى بإبلاغ الشرطة عن سونزونيو جعلنى أخشى أن يأخذ على عاتقه مهمة الكشف عن اسم الجانى فى جريمة فيا بالسترو . وكان صوته ومظهره يسببان لى أشد المخاوف كما اننى ممن تغلب عليهم العاطفة أكثر من العقل والمنطق وتنبتنى غريزتى بدنو الخطر كما هى الحال مع بعض الحيوانات . فكانت جميع الاسباب التى رتبها عقلى لادخال الطمأنينة على نفسى لا تقوى على الوقوف امام احساسى الباطنى الذى لم يكن يستند الى عقل أو منطق . وحدثت نفسى قائلة : « لا شك ان سر الاعتراف لا يمكن نقضه . ولكن ذلك الكاهن لن يمنعه شىء من ألوشاية بسونزونيو وبالأخرين جميعا » .

وثمة شىء آخر ساعد على احساسى بأن كارثة ما وشيكة الوقوع ذلك هو حلول المعرف الثانى محل الاول . فمن الواضح ان الكاهن الفرنسى لم يكن هو الاب ايليا مع انه أصفى الى فى كرسى الاعتراف الذى يحمل ذلك الاسم . اذن فمن هو ذلك الكاهن ؟ وشعرت بالاسف لاننى لم أسأل الاب ايليا الحقيقى عن أخباره . ولكنى خشيت أن يقول لى انه لا يدرى شيئا عنه مما يؤكد تلك الشخصية الوهمية التى تميز بها ذلك الكاهن الشاب فى نظرى . فلا شك انه كان يتميز بشىء وهمى ويرجع ذلك الى الفارق الكبير بينه وبين غيره من الكهنة والى الطريقة التى ظهر بها فى حياتى ثم اختفى . وفى الواقع فانى قد بدأت أشك فيما اذا كنت قد رأيت على الاطلاق أو الاخرى فيما اذا كنت قد رأيت قط بدمه ولحمه . وخيل لى اننى ربما كنت أهذى لاننى اكتشفت الآن انه كان بلا ريب يشبه المسيح نفسه كما يظهر فى الصور الزيتية القديسة . ولكن ان صح ذلك وكان المسيح نفسه هو الذى ظهر لى فى ساعة مجنتى وسمع اعترافى فان حلول ذلك القس القبيح المنفر الذى رأيت منذ قليل محله انما هو قال سيىء بلا شك ومعناه ان لم تكن هناك معان أخرى ان الدين قد تخلى عنى وأنا أمر بأسوأ محنة روحية . وكان

ذلك أشبه بفتح خزانة تحوى قطعاً من العملة الذهبية بغية الحصول عليها لمواجهة حاجة ملحة فإذا بها خاوية إلا من الغبار والمناكب وقدر الفئران .

وعدت الى المنزل يحدوني الانطباع بأن اعترافى لا بد أن يتمخض عن كارثة ما فذهبت مباشرة الى فراشى دون أن أتناول عشاءى وأنا مقتنعة بأنها آخر ليلة أقضيها فى المنزل قبل القاء القبض على . ولكننى يجب أن اعترف بأننى الآن لم أعد خائفة مطلقاً ولم تكن بى رغبة فى تجنب مصيرى . فان لحظة الرعب الاولى التى ربما كانت ترجع الى ضعف الاعصاب وهو ما يشترك فيه جميع النساء تقريباً قد أعقبها تصميم على قبول مصيرى المحـمـدق بى - لم يكن استسلاماً فحسب بل شيئاً أكثر من ذلك . فقد راودنى فى الواقع نوع من المتعة الشهوانية باستسلامى للسقوط الى أعماق مرحلة خيل لي انها آخر مراحل اليأس . وقد أشعرنى عظم الكارثة بنوع من الحصانة . فقد رأقتى الى حد ما اعتقادى ان ما حدث لى لا يمكن أن يفوقه مكروه سوى الموت الذى لم أعد أخشاه .

ولكننى فى اليوم التالى ظلمت أنتظر عبثاً ما كنت أتوقعه من زيارة الشرطة . فمضى اليوم بطوله واليوم التالى دون أن يحدث شيء يبرر مخاوفى . وكنت فى أثناء تلك الفترة كلها لا أغادر المنزل قط ولا حتى غرفتى . ولم البث أن مللت التفكير فيما قد يتمخض عند تهورى من نتائج . وعاد بى تفكيرى الى جياكومو فأحسست بحنين الى رؤيته مرة أخرى على الاقل قبل أن ينالنى شيء من وشاية القس التى لا مناص منها . فنهضت من فراشى فى اليوم الثالث قرابة المساء وارتديت ملابسى بعناية ثم غادرت المنزل .

كنت أعرف عنوان جياكومو فاستغرق منى الذهاب الى منزله عشرين دقيقة . ولكننى عندما أوشكت على الدخول من الباب الرئيسى تذكرت اننى لم أنذره بمجيئى فأحسست فجأة بالخجل . وخشيت ان يضيق بزيارتى فيطردنى . واذا بخطاى المهرولة فى اشتياق يبطؤ سيرها ثم توقفت خارج أحد المحال وقد ملأ الحزن قلبى فأخذت أسأل نفسى ان كان من الاجـسـدر بى ان اعود الى منزلى حيث انتظره الى ان يصبح عزيمه على زيارتى وأدركت انه ينبغي على وخاصة فى بدء علاقتنا أن أتدرع بالدهاء والحدرد الشديدين وأن أخفى عنه تماماً تعلقى به وعدم امكانى الحياة بدونه . ولكن لشد ما بدأ انصرافى اليما مريراً لما كنت اعانيه من قلق بسبب اعترافى وحاجتى الى رؤيته لأبعد عن ذهنى ما يؤرقه . ووقع بصرى على

واجهة المحل الذي كنت اقف امامه فاذا بها مملوءة بالقمصان واربطة العنق فتذكرت فجأة انى كنت قد وعدت بشراء رباط عنق جديد ليحل محل ذلك الرباط البالى . ان الناس حين يأسرهم الهوى تتوقف عقولهم عن التفكير بالطريقة الصحيحة . فقلت لنفسي انى استطيع ان اتخذ من الهدية ذريعة لزيارته دون ان ادري ان الهدية نفسها تؤكد طبيعة شعورى نحوه بالنقص والشوق . فدخلت المحل وبعد ان ترددت قليلا فى اختيارى اشتريت رباطا رماديا ذا خطوط حمراء وكان اجمل الاربطة جميعا واغلاها ثمنا . وسألنى الرجل من خلف منضدة البيع فى مجاملة خالية من الحذر الى حد ما على طريقة الباعة الذين يعتقدون انه يمكنهم التأثير فى عملائهم - سألنى ان كان الرباط لرجل اشقر ام أسمر فأجبت ببطء قائلة : « انه أسمر اللون » . وادركت انى نطقت كلمة « أسمر » بلهجة رقيقة مدغدغة فاحمر وجهى خجلا عندما خيل لى ان البائع ربما لاحظ ذلك .

وكانت الارملة مدولاجى تسكن الطابق الرابع فى قصر معتم قديم تطل نوافذه على جسر التيبر . فصعدت ثمانى مراحل من الدرج ثم دققت جرس باب مخفف فى الظلام دون أن أنتظر حتى استترد انفاسى . وفتح الباب فى الحال تقريبا ثم ظهر جياكومو نفسه على عتبة الباب . فهتف قائلا فى دهشة : « اوه انت الطارقة ؟ » كان من الواضح انه يتوقع شخصا ما .

« ايمكننى الدخول ؟ »

- « بالطبع . . تعالى من هذا الطريق . »

ثم قادنى الى غرفة الجلوس مجتازا الردهة المعتمة . وهناك كان الظلام سائدا ايضا لان النوافذ كانت بها ألواح صغيرة مستديرة حمراء من الرصاص كنوافذ الكنيسة . ولمحت كمية من الاثاث الاسود المطعم بالصدف . فكانت تقوم فى وسط الغرفة منضدة مستديرة تعلوها قنينة من البللور الازرق ذات الشكل القديم . كما كانت هناك سجاجيد كثيرة وبساط ابيض بال من جلد الدب . كان القدم سود كل شيء ولكن فى نظافة ونظام وحسن صيانة وهو طيب ذلك السميت العميق الذى كان من الواضح انه يكتمف المنزل منذ عهد لا تعيه الذاكرة فاتجهت الى اريكة فى الطرف الآخر من الغرفة حيث جلست وسألته قائلة : « اكنت تتوقع زيارة شخص ما ؟ »

- « كلا . ولكن لماذا جئت ؟ » ولا يفوتنى ان أقول ان الفاظه كانت

خيرا من الترحيب الجار . ولكنه لم يبدا غاضبا بل مندهشا فحسب .

فابتسمت قائلة : « جئت فقط لاطمئن عليك فاني أعتقد ان هذه آخر مرة نلتقى فيها » .

- « لماذا ؟ »

- « لانني واثقة انهم قادمون غدا على الاكثر ليقتادوني الى السجن »

- « الى السجن ؟ ماذا تعنين بحق الشيطان ؟ »

وتغير صوته وتعبير وجهه . فأدركت انه كان خائفا على نفسه . فلعله ظن أنني وشيت به أو عرضته للخطر على صورة ما باطلاع شخص ما على نشاطه السياسي . فابتسمت مرة أخرى قائلة :

- « لا تقلق . . فالامر لا يمسك على الاطلاق . »

فأسرع بالاجابة قائلا : « كلا ، كلا ، ولكنني لا أستطيع ان أفهم

ماذا حدث . هذا هو كل ما هناك . لماذا يزوج بك في السجن ؟ »

فقلت مشيرة الى الاريكة المجاورة لي : « اغلق الباب وتعال

لتجلس هنا » .

فذهب ليفلق الباب ثم جاء ليجلس بجانبي . وعندئذ رويت له

في هدوء تام القصة الحقيقية « للبدارة » بما في ذلك اعترافي . فأصفي

الى حاني الرأس دون أن ينظر الى وهو لا يفتأ يقضم أظافره وكانت

تلك الحركة تدل دائما على اهتمامه . ثم اختتمت حديثي قائلة :

- « واني واثقة من أن ذلك الكاهن سيدبر لي حيلة قدرة . .

ما رأيك ؟ »

فhez رأسه وتكلم دون ان ينظر الى بل الى الالواح الرصاصية في

النوافذ قائلا : « انه لا ينبغي ان يفعل ذلك . بل اني في الواقع لا

أحسبه يفعل ذلك . فلا يمكنك أن تقولي هذا لمجرد انك لم تعجبي

بطلعته » .

فقاطعته في حماس قائلة : « ولكنك كان يجب ان تراه ! »

فأضاف قائلا وهو يضحك : « قد يكون قبيح الصورة ولكن

هذا لا يبرر اتهامك اياه بأنه سيرتكب مثل هذه الفعلة ! ومع ذلك

فكل شيء محتمل بالطبع » .

« اذن فأنت ترى أنه لا داعي للخوف . »

« نعم . ولما كنت لا تستطيعين شيئا فأولي بك ألا تخافى . فالامر

لا يتوقف عليك . »

« ياله من منطق ظريف ! ان الناس يخافون لانهم يخافون ،

فهذا الشعور اقوى من ارادة الانسان . «

وإذا به فجأة يأتي حركة من حركاته العاطفية . فقد وضع يده على عنقه ثم أخذ يضحك وهو يهزني هزة خفيفة قائلا : « ومع ذلك فانك لست خائفة . اليس كذلك ؟ »

« بل أوكد لك أنني خائفة . »

« انك لست خائفة . فأنت امرأة شجاعة ! »

« أوكد لك أن الرعب قد انتابني ! فقد أويت الى فراشي ولم اتحرك منه لمدة يومين . »

« نعم . ولكنك جئت لزيارتى وابلاغى كل شىء فى هدوء تام انك لا تعرفين الخوف . »

فسألته قائلة وأنا ابتسم على الرغم منى : « ماذا كان ينبغى أن افعل ؟ انى لا أستطيع أن أصرخ من الرعب ! »

« انك لست خائفة . »

ثم أعقبت ذلك لحظة من الصمت . وفجأة سألتنى قائلاً بلهجة غريبة أدهشتنى : « وماذا عن صديقك هذا - فلندعه صديقك ! - سونزونيو ؟ .. أى صنف من الرجال هو ؟ »

فأجبت قائلة فى غموض : « كغيره من الكثيرين » . وعندئذ لم يخطر ببالى شىء بالذات أذكره عن سونزونيو .

« ولكنه كيف يبدو ؟ صفيه لى . »

فسألته قائلة وأنا أضحك : « لماذا ؟ أتريد القبض عليه ؟ لو فعلت فتذكر أنني سأودع السجن أنا أيضا ! » وأضفت قائلة : « انه أشقر قصير القامة عريض المنكبين ذو وجه شاحب وعينين زرقاوين وفى الواقع ليس ثمة ما يميزه بصفة خاصة . ولكن الشىء الوحيد البارز فيه هو قوته الهائلة » .

« قوته ؟ »

« ان منظره لا ينبئك بشىء من ذلك . ولكن ذراعه كالحديد اذا ما لمستها . »

وعندما رأيت اهتمامه رويت له ما حدث بينه وبين جينو . فلم يعلق بشىء ولكنه قال فى النهاية : « لكن فأنت تعتقد ان جريمة سونزونيو كانت مدبرة . اعنى أنه فكر فى جميع تفاصيلها ثم ارتكبها فى هدوء وبغير انفعال » .

فأجبت قائلة : « كلا مطلقا ! فهو لا يخطط شيئا البتة . ولعله لم يكن يحلم بما فعله مع جينو قبل أن يطرحه أرضا بلحظة واحدة . »

ولا ريب أن ذلك هو ما حدث مع الصائغ أيضا .
« اذن فلماذا فعل ذلك ؟! »
« لانه ! لانه شيء أقوى من ارادته . كالوحش المفترس تراه في لحظة هادئا وفي اللحظة التالية يخمشك بمخلبه . ولا يعلم أحد السبب في ذلك . » ثم رويت له قصة علاقتي بسونزونيو بأسرها وكيف انه ضربني وهددني بالقتل في الظلام . واختتمت حديثي قائلة : « انه لا يفكر مطلقا . بل تراه في لحظة معينة وقد استبدت به قوة أقوى من ارادته ، وعندئذ يكون الابتعاد عنه هو خير ما تفعل ! واني واثقة انه ذهب الى الصائغ ليبيعه « البدارة » . فلما أهانه قتله » .

« اذن فهو وحش ضار . »
فأضفت قائلة وأنا أحاول أن أعرف في ذهني ذلك الشعور الذي بثه في نفسي جنون القتل عند سونزونيو : « سمه ما شئت . فلا ريب انها قوة كتلك التي تدفعني الى حبك . فلماذا أحبك ؟ علم ذلك عند ربي . ولماذا يحس سونزونيو بالدافع للقتل ؟ ذلك أيضا لا يعلمه الا الله . ولا اعتقد ان هناك تفسيراً لمثل هذه الامور » .

ففكر قليلا ثم رفع رأسه قائلا : « أي دافع تحسبيني أحس نحوك ؟ اتحسبيني أحس بأى دافع لحبك ؟ » .
ولشد ما خشيت أن أسمعه يقول انه لا يحبني . فكلمت فمه بيدي وتوسلت اليه قائلة : « أرجو الا تخبرني بشيء عن شعورك نحوي » .

« ولم لا ؟ »
« لانه لا يعنيني أن أعلم . . فأنا لا أعرف شعورك نحوي ولا أريد أن اعرفه . . بل حسبي حبي اياك . »
فhez رأسه قائلا : « من سوء حظك أن تتعلقى بي ، فقد كان ينبغى ان تحبى رجلا كسونزونيو » .

فدهشت حقا لذلك وقلت له : « ماذا تعنى بحق السماء ؟ كيف أحب مجرما كهذا ؟ »

« وانفرض انه مجرم ولكنه يملك الدوافع التي ذكرتها . فاني واثق ان سونزونيو كما يملك الدافع للقتل كذلك يملك الدافع للحب في بساطة تامة ودون تعقيد . أما أنا - »

ولكننى منعه من الاستطراد في حديثه قائلة في احتجاج : « لا يمكنك أن تقارن بينك وبين سونزونيو . فأنت ما أنت . أما هو

فمجرم ووحش . وعلى أية حال فليس صحيحا انه يملك الدافع للحب .. فمثل هذا الرجل لا يمكن أن يحب . إذ إن الأمر في نظره لا يدعو أن يكون أشبها بحواشيته . . . وسواء لديه لو كنت أنا أو أية امرأة أخرى » .

فلم يبد عليه الاقتناع ولكنه لزم الصمت . فانتهزت الفرصة ودست أصابعي تحت رदन قميصه فوق معصمه محاولة أن أبلغ ذراعه وقلت : « مينو » .

فرايته يجفل قائلا . « لماذا تدعينني مينو ؟ »

- « انه اختصار لجياكومو . ألا يمكنني ذلك ؟ » .

- كلا ، كلا ، فهذا لا يهم . بل يمكنك ذلك بالطبع . ولكنهم هكذا يدعونني في أسرتي . هذا هو كل ما هنالك .

فسألته قائلة وأنا أطلق سراح معصمه وأدس يدي تحت رباط عنقه مارة بأنامل على صدره العاري بين حافتي قميصه : « أهكذا تدعوك أمك ؟ »

فقال في ضجر : « نعم . هكذا تدعوني أمي » ثم أردف قائلا بلهجة جمعت بين السخرية والاحتقار : « كما أنك لا تحاكين أمي في ذلك فحسب بل أنك في قرارة قلبك تشاركينها آراءها في كل شيء »

فسألته قائلة : فيم ؟ أعطني مثلا . ؟ ، وعندئذ كنت في حال من الاضطراب فلم أكد أسمع ماذا يقول . وكنت قد فككت عرى قميصه محاولة أن أبلغ بيدي كتفه الجميلة اليافعة .

فأجابني قائلا : « في هذا مثلا . عندما قلت لك انني اشتغل بالسياسة هتفت قائلة في الحال بلهجة مذعورة : « ولكن هذا غير مشروع ! هذا خطر ! » ذلك هو بالضبط ما كانت تقوله أمي وبنفس اللهجة . »

ولقد أرضى كبريائي أن أحاكي أمه أولا لأنها أمه وثانيا لعلمي بأنها سيدة محترمة فقلت في رقة : « يا لك من فتى سخيف ! وما الضرر في ذلك ؟ فهو يعني أن أمك تحبك كما أحبك . فلا شك مطلقا في خطورة العمل بالسياسة . إن شابا أعرفه قبض عليه وأودع السجن حيث أمضى الآن سنين . وما الحادي من ذلك ؟ لهم الجانب الأقوى على أية حال . وما أن تفعل شيئا حتى يودعوك السجن . . . ورأيت أنك تستطيع أن تشق طريقك بنجاح بعيدا عن السياسة » .

فهتف قائلا في سخريه مرحة : « ما أشبهك بأمي ! فهكذا تتحدث بالضبط » .

فأجبت قائلة : « لست أدري ما الذي تقوله أمك ، ولكنني واثقة من أن كل ما تقوله في مصلحتك . إذ يجب عليك أن تتخلى عن السياسة . فهي ليست مهنتك . انك طالب والطالب عمله الدراسة والتحصيل » .

فتمتم قائلا وكأنه يحدث نفسه : « ادرس و فز بدرجتك ثم كون لنفسك مركزا » .

ولكنني لم أحر جوابا بل تطلعت اليه بوجهي مقدمة اليه شفتي . فتبادلنا قبلة ثم افترقنا . فبدا أسفا ونظر الى نظرة عدائية معذبة . فخشيت أن أكون قد ضايقته بقبلي التي قطعت عليه انفجاره السياسي . فأردفت قائلة بسرعة : « ومع ذلك فلتفعل ما تشاء . فلا دخل لي في شئونك . وفي الواقع فاني ما دمت هنا فيمكنك اعطائي ذلك الطرد لآخفيه لك كما اتفقنا » .

فأسرع قائلا : « كلا ، كلا ، كلا مطلقا - فلن يجدي ذلك مع صداقتك بأستاريتا - فلنفرض انه اكتشف الامر ؟ »

- « لماذا ؟ وهل أستاريتا علي هذا القدر من الخطورة ؟ »

فأجبت قائلا في حزم : « انه من ألد أعدائنا » .

فأحسست برغبة مشاكسة في جرح كبريائه لا عن حقد بل عن شعور يقارب العطف والحب . فقلت في رقة : « في الواقع انك لم تقصد حقا أن تعطيني ذلك الطرد » .

- « اذن فلماذا ذكرته لك ؟ »

- « لانك - ولكن اياك ان يفضبك ذلك الآن - فاني أعتقد أنك ذكرته لي أعلاء لشأنك في نظري ، حتى أرى أنك تأتي أعمالا خطيرة محرمة في حزم حقيقي » .

فاستشاط غضبا وأدركت انني أصبته في الصميم . إذ قال : « يا له من هراء ! انك فتاة سخيقة حقا » ثم سألتني قائلا في حرج وقد عاوده الهدوء فجأة : « ولكن ما الذي يجعلك تعتقدين ذلك ؟ »

فأجبت قائلة بابتسامة : « لست أدري . انبه اسلوبك في مجموعه . وانك لا تلاحظ ذلك أنت نفسك . ولكن لا توحى مطلقا بأنك تعنى حقا ما تقول » .

فأتي حركة غريبة وكأنه ينتقد نفسه قائلا : « ومع ذلك فانه أمر

خطير للغاية . . « تم نهض واقفا وهو يمد ذراعيه النحيلتين مبتدئا
في تلاوة الشعر بصوت كاذب مصطنع ومشهددا على مخارج الفاظه
قائلا :

« سيفى . . الى بسيفى ! »
« فأنا وحدي المقاتل وأنا وحدي القتيل . »
ولشد ما كان مضحكا وهو يلوح بذراعيه هنا وهناك حتى كاد
يبدو كالاراجوز .

وسألته قائلة : « ما معنى هذا ؟ »
فأجاب : « لا شيء . انه بيت مقتبس من قصيدة » . واذا
بحماسه يهدأ فجأة ثم يستسلم لحالة غريبة من الكآبة والتفكير .
فعاود جلسته وأردف قائلا في حزم : « . . ومع ذلك - فاني جاد
للفاية في كل ما أضطلع به حتى اننى أتمنى حقا أن يقبض على .
وعندئذ سيري الجميع ان كنت جادا ام لا » .

فلم افه بكلمة بل ضممت وجهه بين راحتي وأخذت أربت عليه
قائلة : « ما أجمل عينيك ! » ولقد صدقت . فان جمال عينيه
النجلاوين الرقيقتين بتعبيرهما البريء كان خارجا عن المألوف حقا .
وعراه الاضطراب لقولى وأخذ ذقنه يرتعش . فتمتمت قائلة :
« لم لا ندخل غرفتك ؟ »

- « هذا محال - فهي مجاورة لغرفة الارملة - وهي لا تغادرها
طوال النهار وقد فتح بابها لتراقب من خلاله الدهليز . »
- « اذن فلنذهب الى شقتى . »
- « لقد تأخر الوقت . ومسكنك بعيد للغاية . كما اننى أتوقع
أن يزورنى بعض الاصدقاء بعد قليل . »
- « هنا اذن . »
- « لقد جننت ! »

فأصرت قائلة : « انت تعنى انك خائف ! فانت لا تخشى ان
يكون لك نشاط سياسى - او هكذا تزعم على الاقل - ولكنك تخشى ان
تضبط في غرفة الجلوس مع المرأة التى تحبك . وعلى أية حال فماذا
يمكن أن يحدث ؟ ربما طردتك الارملة وعندئذ تضطر الى البحث عن
غرفة أخرى » .

كنت أعلم اننى لو جعلت الامر مسألة كرامة أمكننى ان انال منه
كل ما أريد . وفى الواقع فقد بدا لي مقتنعا . فلا ريب أنه كان
يشعر بنفس الرغبة القوية التى أشعر بها . اذ انه ردد كلامه قائلا :

« لقد جننت ! فلعل طردى من هنا يضايقنى أكثر من القبض على .
وفضلا عن ذلك فأين يمكننا أن نرقد ؟ » فقلت فى رقة ورغبة :
« لنفترش الأرض هيا . سأريك » . وكان يبدو الآن فى حالة لا
تسمح له بالكلام . نهضت من فوق الأريكة وتددت فى بطء على
الأرض التى فرشت بالسجاجيد وقد توسطت الفرفة المائدة التى
تحمل القنينة . تمددت على السجاجيد واضعة رأسى وصدري أسفل
المائدة ثم جذبت مينو من ذراعه وأرغمته على أن يرقد فوقى . وما
ان ألقيت برأسى الى الخلف مغمضة العينين حتى بدت لى رائحة
الغبار القديمة وخمل السجاد كالنشوة الخلافة فأحسست وكأننى
أفترش حقلًا فى الربيع يتضوع منه أريج الزهور والعشب لا رائحة
الصوف القدر . رقد مينو فوقى فأشعرنى ثقله بصلاية الواح
الخشب من تحتى . وكان شعورا ممتعا . فقد أسعدنى انه لم يكن
يحس بها وان جسدى كان مضجعه ثم أحسست به وهو يقبل عنقى
ووجنتى فامتلات نفسى فرحا لانه لم يفعل ذلك قط من قبل .
فتحت عينى وكان رأسى فى وضع جانبى مما جعل احدى وجنتى
تحتك بصوف السجادة الخشن وأمكننى أن أرى فيما وراء السجادة
مساحة واسعة من الأرضية الموزايكو المصقولة بالشمع وكذلك الجزء
السفلى من الباب المزدوج ذى الزمبرك فيما وراء ذلك . فأطلقت
تنهدة عميقة وانغمضت عيني مرة اخرى .

وبادر مينو بالنهوض ولكننى مكثت بعض الوقت حيث تركنى
مضطجعة على ظهري وذراعى على وجهى بينما انفرجت ساقي
وشاعت الفوضى فى ثيابى . أحسست بالسعادة وفراغ الذهن حتى
خيل لى انه كان يمكننى أن أمكث هناك ساعات بطولها مستمتعة
بصلاية الأرضية تحت جسدى ورائحة الغبار والخمل فى منخري .
ولعلى استفرقت لحظة فى اغفاءة خفيفة سريعة حيث تراءى لى اننى
كنت حقا فى مرعى مزهر من تحتى العشب ومن فوقى سماء مشمسة
بدلا من المنضدة . ولا ريب ان مينو قد تبادر الى ذهنه اننى مريضة
لانى أحسست به فجأة وهو يهزنى قائلا فى صوت خافت : « ماذا
دهاك ؟ ماذا تفعلين ؟ انهضى بسرعة ! »

فأبعدت ذراعى عن وجهى فى مشقة ثم خرجت فى بطء من تحت
المائدة ونهضت واقفة . كنت أشعر بالسعادة وقد أشرك وجهى
بابتسامة . وراح مينو ينظر الى فى صمت مستندا بظهره الى
« البوفيه » وهو لا يزال يلهث بينما ارتسم على وجهه تعبير ينبئ

بالعداء والحيرة وأخيرا قال : « أنا لا أريد مطلقا أن أراك مرة أخرى »
وفي نفس الوقت ارتجف جسده المحنى رجفة غريبة لا ارادية وكأنه
دمية انصهر فيها نواة أحد أوليها . فابتسمت قائلة : « لماذا ؟ تكلان يحب الآخر - وسوف نلتقي
مرة أخرى » . ثم اتجهت نحوه لادغدغه ولكنه أشاح بعيدا بوجهه
الابيض الحزين مرددا : « أنا لا أريد مطلقا أن أراك مرة أخرى »

وقد أدركت أن عداءه لي كان يرجع بصفة رئيسية الى تأنيب
ضميره بسبب استسلامه لي . فانه لم يستسلم قط لممارسة الحب
معى دون أن يراوده شعور بالكره والاسف العميق . وكان حاله
أشبه بمن يقرر أن يفعل شيئا على غير رغبته ويعلم انه لا ينبغي أن
يفعله . ولكنني كنت واثقة ان سخطه لن يلبث أن يزول وأن رغبته
في - مهما قاومها وكرهها - لن تفتأ أن تكون في النهاية أقوى من
حنينه الفريب الى العفة والطهارة . فلم أعبأ بما قال وما ان تذكرت
رباط العنق الذي اشتريته له حتى اتجهت الى الرف حيث وضعت
قفازي وحقيبتى .

ثم قلت : « والآن هدىء من روعك . فلا تغضب الى هذا الحد !
انى لن أحضر الى هنا مرة أخرى . ايكفيك ذلك ؟ »

فلم يجر جوابا . وعندئذ فتح الباب بعنف . واذا بزائرين يدخلان
الحجرة تقودهما خادمة غرفة الاستقبال وهي امرأة نصف . فقال
الاول في صوت عميق أجش : « مرحى يا جياكومو » .

فأدركت انهما لابد أن يكونا من زملائه السياسيين وتأملتهما في
فضول . وكان المتحدث عملاقا - ذا قامة أطول من قامة مينو
ومنكبين عريضين يبدو كالملاك المحترف . وكان أشقر الشعر أشعثه
ذا عينين زرقاوين وانف أفطس وفم عديم الشكل . ولكن تعبير
وجهه كان صريحا مستحبا فيه مزيج جذاب من الحياء والبساطة .
وكان رغم الشتاء لا يرتدى معطفا بل يلبس تحت سترته دراعة بيضاء
تبرز مظهره الرياضى . وقد لفتت نظرى في الحال يداه الحمراءوان
بمعصميهما الغليظين اللذين كانا يبرزان من ردفى دراعته وقد طويا
الى أعلى . ولا ريب انه كان صغير السن للغاية . فربما كان فى مثل سن
جياكومو تقريبا . أما الرجل الآخر فكان ناهض الأريسين من العمر .
وكان ملبسه ومظهره يدلان على شخص ينتمى الى الطبقات المتوسطة
على عكس رفيقه الذى كان من الواضح انه عامل أو فلاح . وكان
قصير القامة يبدو ضئيلا الى جانب صديقه . كما كان شديد السمرة

تجيب وجهه نظارة كبيرة صنع اطارها من البأفة . وكان يطل
من تحت منظاره انف افطس واسع اشبه بشق يمتد من احدى
اذنيه الى الأخرى . وكانت وجنتاه التحيلتان غير العديتين وياقته
البالية وحلته المبرقشة ذات الشبايا التي أخذ هيكله الضئيل الشمس
يؤفل فيها مسترخيا وكذلك كل شيء فيه يوحى بالاهمال الوقح
المتعمد والفقر الراضى . ولقد أدهشنى فى الواقع مظهر هذين الرجلين
ذلك لان مينو كان لا يفتأ يتميز بنوع من الاناقة المهمة وكانت هناك
دلائل كثيرة تبين انه ينتمى الى طبقة اجتماعية تختلف عن طبقتهم .
ولو اننى لو لم أرهما وهما يحييان مينو ولو لم أر مينو وهو يرد تحيتهما
لما تصورت أن يكونا صديقيه . ولكننى بالفريزة أحسست بميل
نحو الشاب الطويل . أما الرجل القصير فقد كرهته .

وقال الشاب الطويل يسأل بابتسامة مرتبكة : « لعلنا جئنا قبل
الموعد ؟ »

فقال مينو مستجمعا شجاعته : « كلا . . كلا »
كان ذاهلا وبدا انه يجد بعض المشقة فى استعادة هدوئه ثم قال :
« بل وصلتما فى الموعد المحدد تماما » .

فقال الرجل القصير وهو يفرك يديه : « المواظبة من ادب الملوك »
وفجأة انفجر ضاحكا على غير انتظار وكأنه قد وجد عبارته مضحكة
الغاية . ثم اذا به يعود الى جديته مرة أخرى بنفس الطريقة
الفجائية البغيضة التى ضحك بها . بل لشد ما بدا الجدد على وجهه
حتى ساورنى الشك فيما اذا كان قد ضحك على الاطلاق .

فقال مينو فى مشقة مشيرا الى الرجل القصير : « آدريانا . دعيني
أقدم اليك اثنين من اصداقائى - توليو » . ثم أردف قائلا :
« وتوماسو » .

ولاحظت انه لم يذكر لقبيهما . فخيل لى ان الاسمين ربما كانا
زائفين . فمددت يدي بابتسامة وصافحنى الشاب الطويل بقوة
ألمت أصابعى . أما الرجل الضئيل فقد بلل أصابعى بالعرق الذى
أخذ يتصبب من راحة يده . وقال هذا الأخير فى ود مضحك :
« أنا سعيد بمعرفتك » . بينما قال الشاب الطويل بساطة وكأنه
- كما خيل لى - قد مال لى : « يسرنى لقائك » . ولاحظت ان
بصوته نغمة طفيفة لاحدى اللهجات .

وتبادلنا النظر لحظة فى صمت . ثم قال الشاب الطويل :
« يمكننا الانصراف يا جياكومو ان شئت . فبوسعنا أن نأتى غدا »

إذا كان هناك ما يشغلك ؟ »

ورأيت مينو يجفل ناظرا اليه فأدركت انه يوشك ان يطلب اليهما البقاء ويأمرني بالانصراف . فقد توطدت عندئذ معرفتي به الى حد يجعلني أفهم انه لا يسهه الا ان يفعل ذلك . وتذكرت انه لم تكن سوى بضعة دقائق على مضاجعتي اياه ، والتي ما زلت أشعر بدفء شفتيه على عنقي وهما تقبلانني وبآثار يديه على بدني وهما تتشبهان بي . كان جسدي هو الذي تمرد ، لا روحى التى كانت دائما على استعداد للخضوع والاستسلام . وقد بدا تمرده وكأنه احتجاج على المعاملة المجحفة التى لا تليق بما قدمه من هبة وبما احتواه من جمال فتقدمت خطوة الى الامام قائلة فى عنف : « نعم . يحسن بكما ان تنصرفا . ففى وسعكما ان تلتقيا به غدا ، فما زلت أريد ان أقول لمينو الشيء الكثير » .

فقال مينو معترضا على وقد بدا عليه السخط والانزعاج :

« ولكننى يجب أن اتحدث اليهما ! »

« بوسعك ان تتحدث اليهما غدا . »

فقال توماسو فى دماثة : « حسنا . عليك ان تحزم أمرك ، فان كنت تريدنا أن نبقى فلتقل ذلك ، وان كنت تريدنا ان نذهب فسنذهب » .

وتدخل توليو قائلا بضحكته المعهودة : « نحن لا نطلب اليك خيرا من ذلك » .

ولكن مينو ظل مترددا . فأحس جسدي على الرغم منه بدفعة عدوانية أخرى . فقلت رافعة صوتى : « أنصتا الى . منذ بضعة دقائق كان جياكومو يضاجعنى هنا على هذه السجادة فماذا تفعلان لو كنتما فى مكانه ؟ أظرداننى ؟ »

اعتقد ان مينو قد احمر وجهه خجلا . فلا شك انه قد عراه الارتباك اذ انه أدار ظهره فى تبرم واتجه صوب النافذة . ونظر الى توماسو نظرة جانبية ثم قال دون أن يبتسم : « لقد فهمت . نحرز ذاهبان . وداعا يا جياكومو ، وسوف نراك غدا فى نفس الموعد » .

ولكن توليو الضئيل بدا وكأنه قد أزعجته كلماتى . فنظر الى فاعرا فاه وقد اتسعت عيناه خلف منظاره السميك . فلا شك انه لم يسمع قط امرأة تتكلم بمثل هذه الصراحة ولا ريب انه فى ذلك اللحظة قد مر بذهنه ألف خاطر قذر . ولكن الشاب الطويل ناداه من مدخل الباب قائلا : « هيا ياتوليو » فانسحب الرجل القصير

وانتظرت حتى يغادرا المنزل ثم اتجهت الى مينو الذى كان
لايزال واقفا عند النافذة مديرا ظهره الى الغرفة ثم أحطت كتفيه
بذراعى قائلة :

- « والآن لا يمكنك احتمالى . »

فاستدار فى ببطء ونظر الى . فاذا بعينيه يملؤهما الغضب .
ولكنه ما ان رأى وجهى الذى كان تعبيره بلا ريب ينطق بالحب
والبراءة حتى تغيرت نظرتة وتكلم فى صوت هادىء تشوبه رنة من
الحزن قائلا : « أسعيدة أنت الآن ؟ لقد نلت ما تبغين » .

فقلت وأنا أعانقه دون أن ألقى منه مقاومة : « نعم ، انى سعيدة »
ثم سألتى قائلا : « ما هذا الذى كنت تبغين قوله لى ؟ »
فأجبتة قائلة : « لا شيء ، بل أردت أن أقضى معك المساء » .
فقال : « ولكننى لن ألبث أن أذهب لتناول طعامى . هنا - مع
الارملة مدولاجى » - « حسنا . فلتدعنى أنا أيضا »

فنظر الى وابتسم قليلا لجرأتى . ثم قال فى استسلام : « حسنا .
انى ذاهب لابلاغهم ولكن كيف يجب أن أقدمك اليهم ؟ »
- « كما تشاء . . كاحدى قريباتك . »

- « كلا ، بل سأقدمك اليهم كخطيبتى ، ايرضيك ذلك ؟ »
ولم أجسر على اظهار مدى سعادتى باقتراحه . فقلت متظاهرة
بعدم الاكتراث : « سواء كنت خطيبتك أو أى شيء آخر فالامر
يستوى فى نظرى ما دمننا معا » .
- « انتظرى هنا ، فسأعود اليك فى الحال . »

وما ان غادر المكان حتى اتجهت الى احدى زوايا غرفة الجلوس
حيث جذبت ثوبى الى أعلى وأسرعت بتوثيق عرى سروالى الداخلى
الذى تشعث أثناء مضاجعتنا واضطرابنا لوصول صديقيه على غير
انتظار . وثمة مرآة كانت معلقة على الحائط فى مواجهتى كشفت لى
عن ساقى الطويلة الرائجة وقد اكتست بالحرير فتركت فى نفسى
انطبعا غريبا وسط كل ذلك الاثاث القديم الذى ساده جو من
الصمت المنعزل . وتذكرت حين مارست الحب مع جينو فى فيللا
مخدومته حيث سرقت « البدارة » ولم يسعنى الا أن أقارن بين
تلك اللحظة البعيدة فى حياتى وبين هذه اللحظة . فقد كان يراودنى
حينذاك احساس بالفراغ والمرارة والرغبة فى الانتقام لنفسى ان لم

يكن من جينو مباشرة فمن العالم أجمع على الاقل . ذلك العالم الذي
لشد ما آذاني في أسوة متخذاً من جينو وسيلة له . أما الآن فقد
احسست بالسعادة والحرية والمرح . وادركت مرة أخرى انى
متعلقة حقاً بمينو . ولم يكن يعينى كثيراً ان كان لا يبادلنى الحب .

سويت ثيابى ثم اتجهت الى المرأة حيث نسقت شعري ، وإذا
بالباب يفتح من خلفى ويدخل مينو عائداً .

فتمنيت أن يأتى ويقبلنى من الخلف أثناء تأملى صورتنى فى المرأة
ولكنه ذهب ليجلس على الأريكة فى الطرف القصى من غرفة الجلوس
ثم قال وهو يشعل سيجارة : « لقد تم كل شيء . فقد أعدوا لك
مكاناً آخر ، ولن نلبث أن ندخل لتناول العشاء » .

فتركت المرأة وذهبت لأجلس بجانبه حيث ادخلت ذراعى فى ذراعه
وضففت عليه بجسدى ثم قلت جزافاً : « اليس هذان الرجلان من
أصدقائك السياسيين ؟ »

- « نعم . »

- « ولكن الثراء لا يبدو عليهما مطلقاً . »

- « لماذا ؟ »

- « هذا واضح من ملبسهما على أية حال . »

فقال :

- « ان توماسو هو ابن شريف مقاطعتنا . أما الآخر فانه يعمل
مدرساً . »

- « انى لا اميل اليه . »

- « أيهما ؟ »

- « المدرس . فهو قدر التفكير . فلشد ما أدهشتنى نظرتة الى
عندما قلت اننى كنت أضاجعك . »

- « من الواضح أنه اعجب بك بلا ريب . »

ثم ساد الصمت بعض الوقت .

ولسكننى ما لبثت أن قلت : « انك خجل من تقديمى كخطبتك .
ولكننى سأصرف أن شئت . »

كنت أعلم أنه لا يسجل الى اغتصاب حركة حالية من جانبه الا عن
ذلك الطريق وهو أن ابتزه باتهامه انه كان خجلاً منى . وفى الواقع

فانه أحاط خصرى بذراعه فى الحال وهو يهتف قائلاً : « لقد
اقترحت انا ذلك ! فلماذا أخجل منك ؟ » .

- « لست أدرى ، ولكننى أرى أنك ساخط . »

فأجابني قائلا بلهجة تكاد تكون علمية : « لست ساخنا ولكنني ذاهل . وذلك بسبب ملامتنا الحب . دعيني أتخلص من هذا الدهول » .

ولاحظت ان وجهه ما زال شديد الشحوب وانه كان يدخن في نفور .

فقلت : « انك على حق ، فانا آسفة . ولكنك دائما بارد الشعور مماطل على صورة تفقدني صوابي . لو كان شعورك مختلفا لما أصرت على البقاء منذ لحظة » .

فألقي سيجارته قائلا : « لست باردا ولا مماطلا » .
- « ومع ذلك .. »

ولكنه استرسل قائلا وهو ينظر الى بانتباه : « بل اني احبك كثيرا ، وفي الواقع فاني لم اقاومك منذ قليل كما اردت ان افعل » ولقد سرتني تلك العبارة فنكست عيني دون ان أتكلم بينما أردف هو قائلا : « ومع ذلك فاني اعتقد انك محقة في الواقع ، فهذا لايمكن ان يسمى حبا » .

فوجف قلبي ولم يسعني الا ان اتمتم قائلة : « اذن فما معنى الحب في نظرك ؟ »

فأجابني قائلا : « لو انني احببتك لما اردت ان اطردك منذ لحظة ولما غضبت عندما اردت البقاء » .

- « هل غضبت ؟ »

- « نعم . ولكنني الآن سأتحدث اليك وسأكون مرحا مبتهجا ذكيا مؤنسا - وسوف اضع خططا للمستقبل - هكذا يكون الحب . أليس كذلك ؟ »

فقلت في هدوء : « نعم . أو تلك هي مظاهر الحب على الأقل »

ولزم الصمت بعض الوقت ثم تكلم في ذلة كئيبة دون اي شعور بالرضا قائلا : « اني امارس كل شيء بنفس الطريقة دون ان احب ما افعل أو احس به في قلبي ، ولكنني اعرف بعقلي كيف افعله بل افعله من وقت لآخر غير انني لا افتأ احس بالفتور ولا احس بشيء في اعمالى . هكذا انا ومن الواضح انه لايمكنني ان اكون غير ذلك » .

وبذلت جهدا اكبر للسيطرة على نفسي .

ثم قلت : « احبك كما أنت ، فلا تقلق » ثم عانقته في حب شديد ، وفي نفس اللحظة تقريبا فتح الباب وأطلت منه الخادم

www.Library4Arab.com/vb
العجوز لتخبرنا بأن العشاء قد أعد .
تصادفنا غرفة الجلوس ثم سرنا في دهليز الى ان بلغنا غرفة
الطعام . واني اذكر جيدا كل ما في تلك الغرفة ومن فيها لانني كنت
حينذاك حساسة للانطباعات كاللوحه الفوتوغرافية فقد أحسست
انني لم اكن اتصرف بقدر ما كنت اراقب نفسي وانا اتصرف بعينين
واسعتين حزينتين . ولعل هذه هي النتيجة المباشرة لاحساسنا
بالتمرد عندما نواجه بحقيقة تجعلنا نعاني بينما نتمنى في نفس الوقت
لو كانت غير ذلك .

كانت الارملة السنيورا مدولاجي تبدو لي لسبب لا ادريه شديدة
الشبه بأثاث غرفة الجلوس المصنوع من خشب الابنوس الاسود
المطعم بالصدف . كانت امرأة في منتصف العمر طويلة القامة على
صورة مهيبة ضخمة الصدر والردفين ترتدي ثيابا حريرية سوداء
من اعلى رأسها الى اخمص قدميها . وكان وجهها الذي يشبه في
شحوبه لون المحارة عريضا منزهلا يحيط به اطار من الشعر الاسود
وقد بدت صبغته واضحة للعيان . كما كانت هناك ظلال كبيرة سوداء
في اسفل عينيها . وقفت امام « سلطانية » الحساء المزينة بالزهور
حيث أخذت تقدم الينا الحساء في شيء من الازدراء بينما أضاء
صدرها ذلك المصباح الثقيل الذي جذب فوق المائدة فكان صدرها
أشبه ما يكون بطرد كبير اسود لامع . أما وجهها الابيض الذي احاطت
بعينيه حلقتان سوداوان فكان يذكرني وهو في الظلام بتلك الاقنعة
الحريرية الصغيرة التي يرتديها الناس في الكرنفال . كانت المائدة
صغيرة وقد أعدت عليها أربعة أماكن في كل جانب منها مكان واحد .
وكانت ابنة صاحبة الدار قد اتخذت مكانها الى المائدة ولم تنهض
عند دخولنا .

قالت الارملة مدولاجي : « ان السيدة الصغيرة يمكنها ان تجلس
هنا . ما أسمك ؟ »
- « أدريانا » .

www.Library4Arab.com/vb
فقلت السيدة دون تفكير : « ماما كابتتي . فلدينا الآن أدريانتان »
وكانت تتكلم يراودها شعور بالذات فون ان ننظر الينا . ومن الواضح
انها لم تكن ترحب مطلقا بوجودي هناك . وكما سبق ان قلت فاني
لا أكاد أضع الاصباغ على وجهي ولا أضمح شعري قط بالاكسيجين .
فكان مظهرى في الواقع لا ينبىء البتة بمهنتى . ولكنني كنت ابدو
في نظر الجميع فتاة بسيطة جاهلة من الشعب وهي حقيقة لم أعبأ

بأخفائها . ولا ريب ان السيدة ربة المنزل كانت كذلك . تحدثت نفسها
قائلة : « ما أغرب هؤلاء القوم الذين تحضروهم يأمينوا الى الدار !
فتاة من الدهماء » .

جلست وتأملت الفتاة التي تحمل اسمي ، فاذا بها تبلغ نصفي تماما
في كل شيء ، رأسها وصدرها وردفيها . كانت نحيلة القد قليلة
الشعر ذات وجه بيضاوى رقيق وعينين كبيرتين بليدتين ينم
تعبيرهما عن الذهول النصفى . نظرت اليها فلاحظت ان جمالي جعلها
تنكس عينيها حتى خيل لي انها حيية . فقلت لكي استهل
الحديث : « اتعلمين انه يبدو لي غريبا للغاية ان تحمل اسمي سيدة
أخرى ويكون بيني وبينها كل ذلك الاختلاف ؟ »

لقد تكلمت جزافا لكي أستهل الحديث وكانت عبارة سخيفة .
ولكنني لدهشتي لم أتلق جوابا ، بل نظرت الفتاة الى بعينيها
اللتين فتحتا على سعتهما ثم حنت رأسها فوق صحفتها وبدأت تأكل
في صمت . وفجأة لاحت لي الحقيقة ، فانها لم تكن حيية ، بل
خائفة مذعورة . وكنت أنا مبعث رعبها . فقد ذعرت لجمالي الذي
اقتحم عليها جو مسكنها الداوي المغبر كوردة أحاط بها نسيج
العنكبوت . كما أفرعتها حيويتي المتدفقة التي ما كان يمكن أن
يخطئها البصر حتى وأنا صامتة لا أبدي حراكا . ولكن لشد ما
أرعبها أني فتاة من الدهماء . فلا شك أن الغنى لا يكن حبا للفقير ولكنه
ايضا لا يخشاه وهو يعرف كيف يبعده عنه بكبريائه وغروره . أما
الفقير الذي يتقمص روح الغنى عن طريق التعليم أو يوهبها بالطبيعة
فلشد ما يفزعه ان يرى فقيرا أصيلا وكأنه يحس انه معرض للعدوى
بمرض معين أصيب به شخص آخر . فلا شك ان الارملة مدولاجي
وابنتها لم تكونا من ذوات الثراء وآلا لما اجرا غرفا . ولما كانتا تحسان
بفقرهما وتأبيان الاعتراف به فان وجودي كفتاة فقيرة لا تضع
قناعا على وجهها بدا فيه خطر عليهما واهانة لهما . من ذا الذي
يمكنه ان يتكهن بما جال بخاطر الابنة وأنا مخاطبها ؟ فلعلها حدثت
نفسها قائلة : « هذه الفتاة هنا تحدثني ، وهي تريد ان تتودد الي .
فلن أستطيع التخلص منها » . أدركت كل ذلك في لمح البلق فقررت
الا انطق بكلمة أخرى حتى نهاية الوجبة .

ولكن أمها التي ربما كانت أكثر فضولا وسماحة لم تشأ ان
تمتنع كلية عن بعض الحديث اذ قالت لمينو : « اني لم أعلم بخطبتك
فمنذ متى تمت الخطبة ؟ »

كان صوتها متكلفا وهي تتكلم من خلف كتلة صدرها وكأنها تقف خلف خندق وأق .
فقال مينو : « منذ شهر تقريبا » . وقد صدق فيما قال فقد مضى على تعارفنا شهر واحد .

- « وهل السيدة الصغيرة من بنات روما ؟ »
- « بالطبع ، بل ان ذلك يرجع تاريخه الى سبعة اجيال . »
- « ومتى يتم الزفاف ؟ »
- « قريبا .. حالما يخلو المنزل الذي سنقيم فيه . »
- « أوه .. وهل استقر رأيكما على المنزل ؟ »
- « نعم .. انها فيللا صغيرة تحيط بها حديقة ، وبها برج صغير ، انها خلابة . »

بهذه الطريقة التهكمية وصف مينو تلك الفيلا الصغيرة التي لفت نظره اليها على الطريق الرئيسي بالقرب من شقتي .
فقلت في صعوبة : « لو انتظرنا ذلك المنزل فاني أخشى اننا لن نتزوج » .

فقال مينو في مرح : « هذا هراء » .
وقد بدأ عليه انه قد استرد هدوءه تماما بل زادت حمرة وجنتيه ثم أردف قائلا : « أنت تعلمين انه سيخلو في اليوم الذي حددناه »
ولما كنت لا اميل الى المزاح فاني لم أفه بشيء . وجاءت الخادم لتغيير الصحاف . ثم قالت السنيورا مدولاجي : « ان الفيلات يا مستر ديوداتي جميلة للغاية ولكنها ليست مريحة ، فهي تحتاج الى عدد كبير من الخدم » .

فقال مينو : « ولماذا ؟ فلا ضرورة لذلك . ان آدريانا ستكون هي الطاهية والخادمة ومديرة المنزل . اليس كذلك يا آدريانا ؟ »
فأضافت السنيورا مدولاجي قائلة وهي ترميني بنظرة سريعة :
« في الواقع ان السيدة لديها ما تفعله الى جانب تفكيرها في الطهو والكنس وترتيب الأسرة ، ولكن اذا كانت السيدة الصغيرة معتادة على ذلك ففي تلك الحال .. » ولم تتم عبارتها بل وجهت انتباهها الى الصحيفة التي كانت الخادم تقدمها الي قائلة : « لم نكن نعلم بمجيبك والا لا يمكن ان نضيف الى الطعام بيضة او اثنتين » .

وانتابني الغضب على مينو وعلى السيدة حتى اوشكت ان اجيبها قائلة : « كلا ، بل أنا معتادة على أن أذرع (١) الطرقات » . ولكن

(١) المقصود هنا العامر التي تلزع الطرقات لتبيع الهوى .

www.Librarary4arab.com/vb
مينو الذي كانت روحه تفيض ببهجة مخبوءة صب لنفسه ملء قدح كبير من النبيذ كما صب لي الليل منه (بينما كانت عينا السنيورا مدولاجي تتابعان القنينة في قلق) ثم أردف قائلا : « آه . ولكن أدريانا ليست سيدة أو لن تكون كذلك في يوم من الايام ، فانها دائما تسوى الاسرة وتكنس الارض . ان أدريانا فتاة من الشعب » .

فنظرت الى السنيورا مدولاجي وكأنها ترانى لأول مرة مرددة كلامها في ادب جارح بينما حنت الابنة رأسها فوق صحفتها : « بالضبط ، كما كنت اقول عما اذا كانت معنادة » .

فاسترسل مينو قائلا : « نعم ، معنادة على ذلك . ولا شك اننى لن اجعلها تطلع عن مثل هذه العادات النافعة . ان أدريانا هي ابنة صانعة قمصان ، كما انها هي نفسها صانعة قمصان ، أليس كذلك يا أدريانا ؟ » ثم مد ذراعه عبر المائدة حيث أمسك بيدي وقلبهها ظهرا لبطن قائلا : « انها تطفى أظافرها حقا ولكنها يد فتاة كادحة كبيرة قوية طبيعية ، تماما كشرعها فهو مجعد ولكنه ثائر ذو جذور خشنة » . وما ان ترك يدي تسقط حتى جذبني من شعري بقوة وكأني حيوان قائل : « ان أدريانا في الواقع تمثل بجدارة شعبنا الرقيق السليم القوى في كل شيء وكل مكان » .

وكان يتخلل صوته تحد ساخر ، ولكن احدا لم ينتبه اليه . واخذت الفتاة تنظر من خلالي وكأني جسم شفاف تخترقه بنظراتها لترى شيئا من خلفه . وأمرت الام الخادمة بتغيير الصحف ، ثم استدارت نحو مينو وسألته قائلة بطريقة غير متوقعة تماما : « اذن فهل ذهبت يامستر ديوداتي لمشاهدة تلك المسرحية ؟ »

وكدت انفجر ضاحكة لتلك الطريقة الخرقاء في تغيير الموضوع ، ومع ذلك فان مينو لم يحس بالاهانة ، بل هتف قائلا : « لاتحدثيني عنها ! فهي غاية في السوء » .

- « اننا سنذهب غدا لمشاهدتها ، فهم يقولون انها فرقة ممتازة .

فأجاب مينو بأن الممثلين ليسوا بالبراعة التي وصفتها الصحف . فدهشت السيدة لكذب الصحف ولكن مينو اجاب قائلا في هدوء ان الصحف من اولها الى آخرها ما هي الا سلسلة واحدة من الاكاذيب . ومنذ تلك اللحظة اخذ الحديث يدور حول موضوعات مماثلة . وكانت السنيورا مدولاجي لا تكاد تفرغ من الحديث في احد هذه الموضوعات حتى تبدأ موضوعا جديدا في عجلة لا تحسن اخفاءها . اما مينو الذي لشد ما بدا مسرورا فقد كان مستجيبا

لها لا يفتأ يرد عليها في ذكاء .
انذا يتحدثان عن المشتين وعن حياة الليل في روما وعن المقاهي
ودور السينما والمسارح والفنادق الى آخر ذلك . كانا اشبه بلاعبي
البنج بونج وهما عاكفان على تبادل الكرة دون ان يتيجا لها ان
تسقط على الارض . ولكن بينما كان مينو يفعل ذلك بدافع من
شغفه المعهود باللهو ذلك الشغف الذي لشد ما تطور عنده كانت
السنيوراء مدولاجي تستجيب له لشعورها نحوي ونحو كل ما يتعلق
بى بالخوف والنفور . فقد بدت انها تقصد ان تقول له بحديتها
الرسمى التقليدى : « هذا هو اسلوبى لافهامك ان زواجك بفتاة
من الدهماء امر مفجع حقا وان احضارك اياها الى منزل ارملة الموظف
المدنى مدولاجي لهو امر مفجع حقا على اية حال » . اما الابنة فلم
تفه بشيء فقد كانت مذعورة ، كما بدت انها تمنى في صراحة تامة
لو انتهت الوجبة ومضيت الى حال سبيلى بأسرع ما يمكن . واما انا
فقد راقنى بعض الشيء ان أتابع تلك المعركة الكلامية ولكننى ما لبثت
ان مللت ذلك الجدل وغشيتنى تماما احزان قلبى . فقد أدركت
ان مينو لم يكن يحبنى وكان ذلك الادراك مريرا . فضلا عن ذلك
فقد لاحظت ان مينو قد استغل ثقتى به لينسج ملهاة خطبته .
ولم يمكننى ان أفهم بالضبط ان كان يريد ان يسخر منى أم من
المرأتين أم من نفسه ولعله أراد ان يسخر منا جميعا ومن نفسه
بصفة خاصة . لقد بدا وكأنه هو أيضا كان يغذى فى قلبه تلك الامانى
التي كنت اكنها نحو حياة طبيعية مهذبة . كما بدا وكأنه قد فقد
كل أمل فى تحقيقها لاسباب تختلف عن اسبابى ، ومن ناحية اخرى
فقد أدركت ان امتداحه اياى بأننى فتاة من الشعب لم يكن فيه اطراء
لى أو لعامة الشعب ، بل ان ذلك لم يعد ان يكون وسيلة لتنفير
المرأتين منه . وقد دلت تلك الملاحظات على صحة ما كان يقول
قبل ذلك بفترة وجيزة ، وهو انه لا يقوى على ان يحب بقلبه .
وعندئذ أدركت تماما كما لم أدرك قط من قبل ان الحب هو كل
شيء وان كل شيء يعتمد على الحب ، وهذا الحب اما ان يوجد او
لا يوجد . فان وجد لم يحب المرء عشيقته فحسب ، بل الناس
اجمعين وكل ما فى الوجود من اشياء تماما كما كنت أفعل . وان
لم يوجد فان المرء لا يحب احدا ولا يحب شيئا ، كما هى الحال
معه ، والافتقار الى الحب يؤدي فى النهاية الى العجز والعنة .

عندئذ كانت المائدة قد اخلت مما عليها من أدوات الطعام وظهرت

في دائرة الضوء المرسل من الثريا على مفرش المائدة وقد تناثر فوقه فتات الخبز أربعة فناجيل من القهوة ومنفضة للسجائر من الفخار على شكل زهرة الخزامى كما ظهرت يد كبيرة مرقطة يزينها عدد كبير من الخواتيم الرخيصة وقد أمسكت بسيجارة مشفولة - تلك كانت يد السنيورا مدولاجى . وفجأة ضاق صدرى من شدة الضجر فنهضت واقفة على قدمى وقلت متعمدة المبالغة فى لهجتى الرومانية : « آسفة يا مينو لانى مشفولة .. فأنا مضطرة للذهاب » .

فسحق سيجارته فى المنفضة ثم نهض واقفا هو أيضا ، وفى صوت مدو تمنيت لهم مساء طيبا تماما كما تفعل آية فتاة من الشعب . ثم انحنيت انحناءة طفيفة ردت عليها السنيورا مدولاجى فى تصلب . أما ابنتها فقد تجاهلتها ثم انصرفت . وعند مدخل الشقة حدثت مينو قائلة : « أخشى ان السنيورا مدولاجى بعد هذا المساء ستطلب اليك البحث عن غرفة أخرى » .
فهز كتفيه قائلا : « لا اظن ذلك ، فانى أدفع لها بسخاء وبانتظام دقيق » .

قلت : « انى ذاهبة . ولكن هذه الوجبة قد تسببت فى شقائى » .
- « لماذا ؟ »

- « لانى اقتنعت تماما فى النهاية بأنك لا يمكن أن تحب » .

قلت ذلك فى حزن دون أن أنظر اليه . ثم رفعت عينى وخيل لى أن تعبير وجهه كان ينبىء بالذلة والمهانة . ولكن ذلك ربما كان راجعا الى ظلمة الردهة فى انعكاسها على وجهه الشاحب . وامتلات نفسى فجأة بتأنيب الضمير . ثم سألته قائلة :
- « هل غضبت ؟ »

فقال فى صعوبة : « كلا ، فهى الحقيقة قبل كل شيء » .

وعندئذ فاض قلبى بحبه فعانقته بحركة تلقائية قائلة : « هذا افتراء .. وما قلته الا عن حقد ، وعلى آية حال فلشدد ما احبك رغم ذلك .. أنظر .. فقد احضرت اليك هذا الرباط » . ثم فتحت حقيبتي لأخرج الرباط وأقدمه اليه . فنظر اليه ثم سألتنى قائلا :

« هل سرقته ؟ »
لم تكن سوى دعابة ولكنها كشفت لى عن مدى شغفه بى أكثر مما كان يمكن أن تفعله أصدق آيات الشكر ، وذلك هو ما أدركته فيما بعد . أما فى تلك اللحظة فقد طعنتنى فى الصميم ، واغرورقت

عيناي بالدموع . ثم تلعثت قائلة : « كلا ، بل اشتريته من محل
أسفل المنزل تماما » .

وما ان لاحظ ما لحقني من مهانة حتى عانقني قائلاً : « ما أسخفتك !
فما قصدت سوى المراح ، ولكنني على أية حال معجب به حتى
لو كنت سرقتة ، بل ربما زاد اعجابي ؟ » .

فقلت وقد خفف عني قليلا بما قاله لي : « انتظر ، فاني سأضعه
لك حول عنقك » . وما ان رفع ذقنه حتى حلت له رباطه القديم
ثم قلبت ياقة قميصه حيث عقدت له الرباط الجديد قائلة :

« أما هذا الرباط البشع القديم البالي فساخذه معي ، فلا يجب
مطلقا أن ترتديه مرة أخرى » . وكنت أقصد في الحقيقة ان احمل
معي قطعة من ثيابه تذكارا منه .

فقال : « اذن فسأراك قريبا » .

- « عتي » ؟

- « غدا بعد العشاء » .

« حسنا » . ثم تناولت يده وهممت بتقبيلها ، ولكنه جذبها
بعيدا بعد فوات الاوان ، اذ لم يحل ذلك دون لثمها سريعا بشفتي
ثم ركضت بسرعة هابطة الدرج دون أن انظر خلفي .

وبعد ذلك اليوم واصلت حياتى المعتادة . فقد أحببت مينو حقا ورغبت أكثر من مرة فى تغيير مهنتى التى كانت تتناقض تناقضا تاما مع الحب الحقيقى . ولكن ظروفى بقيت كما هى دون تغيير رغم وقوعى فى الحب ، ولم أتجاوز تلك النقطة التى وقفت عندها إلا وهى افتقارى الى المال والى الوسيلة التى يمكننى ان احصل بها عليه ما لم أتبع ذلك الطريق . ولم أشأ ان أقبل نقودا من مينو ، ولكنه كان على أية حال محدود الدخل اذ أن أسرته كانت لا ترسل اليه الا ما يكفيه فى عسر لدفع نفقات معيشته فى المدينة . ولا يفوتنى ان اعترف عند هذه النقطة بأننى لم أفتأ احس برغبة غلبة لا تقاوم فى ان أقوم بالانفاق عليه فى جميع المحال والمقاهى والمطاعم التى كنا نغشاها . ولكنه كان دائما يرفض عروضى فكنت فى كل مرة أشعر بخيبة الامل والمرارة . وكان كلما نفدت نقوده يصطحبني الى الحدائق العامة حيث نجلس معا على احد المقاعد لتجاذب أطراف الحديث ونراقب المارة كما يفعل الفقراء .

وذات يوم قلت له : « ولكن فلنذهب الى احد المقاهى حتى ولو كنت معسرا ، فسأقوم أنا بالانفاق .. وأى فرق هناك ؟ » .

- « هذا محال . »

- « لماذا ؟ فانا أريد الذهاب الى أحد المقاهى لاتناول مشروبا . »

- « اذن فلتذهبي وحدك .. »

وفى الواقع فانى لم اكن متحمسة للذهاب الى احد المقاهى بقدر حماسى للانفاق عليه . فقد كانت تراودنى رغبة عميقة ملحة مؤلمة فى ان أفعل ذلك . كما كنت اوثر ان أعطيه مباشرة كل ما كنت أكتسبه من نقود على ان أقوم أنا نفسى بجميع النفقات شيئا فشيئا بنفس الطريقة التى كنت أتلقاها بها من لقطاع الطريق الذين هم عشاقى . فقد خيل لى اننى بذلك فحسب يمكننى ان أكشف له عن

حسب . ولكنه خيل لى أيضا اننى لو تكلمت به طالبا لسأربه بى برباط أقوى من مجرد الحب . وقد قلت له فى مناسبة أخرى :

لشد ما يسرنى ان أعطيك بعض النقود ، كما اننى واثقة بأنك

ستجد في ذلك شيئا من المتعة .
فأخذ يضحك قائلا : « ان علاقتنا من وجهة نظري على الاقل لا
تقوم على المتعة » .

« علام اذن ؟ »
فتردد ثم اجاب قائلا : « على مشيئتك في حبي ، وعلى ضعفى
امام تلك المشيئة ، ولكن هذا لا يعنى ان ضعفى بلا حدود » .
- « ماذا تعنى ؟ »

فقال في هدوء : « ان الامر بسيط للغاية . وقد سبق ان شرحته
لك مرارا وتكرارا ، فنحن معا لانك شئت ذلك في حين اننى على
العكس لم أشأ ، بل انى الآن من الناحية النظرية على الاقل أوثر
الا افعل » .

فقاطعتة قائلة : « يكفى هذا ، فلا تدعنا نتحدث عن حينا ، وما
كان ينبغى ان اذكره » .

وكلما فكرت في شخصيته منذ تلك اللحظة اذا بى في معظم الاحيان
اخرج بنتيجة مؤسفة وهى انه لم يكن يحبنى البتة واننى لم اكن
سوى أداة لاحدى تجاربه . فقد كان اهتمامه فى الواقع مقصورا على
نفسه . ولكن شخصيته كانت فى داخل تلك الحدود معقدة للغاية .
كان فتى من أسرة ريفية ميسورة الحال - كما اعتقد اننى سبق
ان ذكرت - وكان يمتاز بقرته وذكائه وثقافته وتهذيبه وجديته .
وكانت أسرته - بقدر ما امكننى ان اتبين مما قاله لى رغم قلته
وذلك لعدم شغفه بالتحدث عنها - من تلك الاسر التى كنت اتمنى
فى أحلامى الفريرة حول حياة طبيعية لو ولدت فيها . كانت أسرة
تقليدية ، فكان أبوه طبيبا من ملاك الاراضى ، وكانت امه لا تزال
صغيرة السن تمكث فى الدار معظم الوقت حيث لا هم لها سوى
زوجها وأطفالها ، وكانت له ثلاث أخوات صغيرات وأخ أكبر ، ومن
المعروف ان اباه كان من الشخصيات المتداخلة كما كان حجة فى
الشئون المحلية . أما امه فكانت شديدة التعصب وأخواته طائشات
مستهترات الى حد ما ، وأخوه الأكبر مثلا للشباب الفنى الذى
يقضى معظم وقته فى المحال العامة الانيقة والمنتديات الراقية كما
يفعل جيانكارلو .

ولكن كل هذه الأخطاء كانت محتملة على الرغم من كل شيء بل
انها فى نظري وقد ولدت بين قوم اختلفت طريقة معيشتهم كل
الاختلاف من جميع الوجوه لم تكن تبدو أخطاء . كانت أسرة متحدة

تماما وكان جميع أفرادها من الابوين الى الاطفال يدينون بالاخلاص والولاء لينيو .
وكان اعتقادي انه سعيد الحظ للغاية لانتمائه الى تلك الاسرة .
ولكنه بدا على العكس من ذلك كارها أسرته مبغضا اياها مشمئزا
منها مما استغلق على فهمي تماما . كما بدا انه يحس بنفس البغض
والكراهية والاشمئزاز ازاء نفسه طبيعة واعمالا . ولكن كراهته
نفسه بدت انها لم تكن سوى انعكاس لكراهته أسرته جمعاء .
وبعبارة اخرى فقد بدا انه يكره في نفسه كل ما بقي مرتبطا بأسرته
وكل ما خضع بأية صورة من الصور لنفوذ دائرة الاسرة . وقد قلت
من قبل انه كان مهذبا مثقفا ذكيا رقيقا جادا ، ولكنه كان يحتقر
ذكاءه وآدابه وثقافته ورقته وجديته لا لسبب الا لانه كان يرجح
انه مدين بها للوسط الذي عاش فيه وللأسرة التي ولد ونشأ فيها
وقد قلت له ذات مرة : « ولكن قل لي حقا ، ماذا تبغى ان تكون؟
فهذه كلها صفات حميدة ، ينبغي ان تشكر حسن طالعك السدي
حباك بها » .

فقال وهو لا يكاد يحرك شفثيه : « على الرغم من كل
النفع الذي تحققه لي فقد كنت افضل ان اكون على شاكلة سونزونيو
مضرا بذلك عن رأيي الشخصي ! »
فقد تركت قصة سونزونيو تأثيرا عميقا في نفسه ولا يمكنني ان
أتخيل السبب في ذلك . فهتفت قائلة : « يا للشناعة ! انه وحش
وانت تريد ان تكون على شاكلته ! » .

فاوضح ما يعنيه في هدوء قائلا : « من الواضح اني لا أريد ان
احاكي سونزونيو من جميع الوجوه . فاني ما ذكرت سونزونيو
الا لابين مرادى . فان سونزونيو مهيا للحياة في عالمنا هذا ، اما
انا فلا » .

ثم سألته قائلة : « اتريد ان تعرف ماذا كنت أتمنى ان اكون؟ »

- « اخبريني .. »

فقلت في بطن متذوقة في لذة طعم العبارات التي بدا لي ان كلا
منها كان يتجسد فيها احد اخلص التي لشد ما كانت عزيزة حدى
حبيبة الى قلبي : « أتمنى لو كنت في مثل ظروفك بالضبط - تلك
الظروف التي لشد ما تشقى بها - كنت أتمنى لو ولدت في اسرة
ميسورة كأسرتك تتيح لي قسطا وافرا من التعليم ، كنت أتمنى
ان أعيش في منزل نظيف جميل كمنزلكم ، كنت أتمنى لو كان

لى مدرسون اكفاء ومربيات اجنبيات كما اتيح لك ، كنت اتمنى لو
اقضى الصيف على شاطئ البحر أو فى الجبال ، واقتنى ثيابا جميلة
وألقى الدعوات واستقبل الضيوف ، كما كنت اتمنى لو أتزوج رجلا
يحبني ، رجلا مهذبا يودى عملا ويكون ميسور الحال كذلك ، كنت
أتمنى أن أعيش معه وأحمل له اطفاله ! .

كنا راقدين على الفراش ونحن نتحدث ، فاذا به ينقض على فجأة
كعادته قابضا على بدنى بيديه وهو يهزنى مرددا : « هلى ، هلى ،
هلى ! انك فى الواقع تتمنين لو كنت مثل السنيورا لوبيانكو » .
فسألته قائلة وأنا أشعر بالاساءة والارتباك فى نفس الوقت .
« ومن هى السنيورا لوبيانكو ؟ »

- « امرأة جشعة رهيبة كثيرا ما تدعونى الى حفلات استقبالها
آملة أن أقع فى حب احدى بناتها البشعات فأتزوجها اذ انى أمثل
ما يسمى بالزوج الصالح . »

- « ولكننى لا أتمنى مطلقا أن اكون مثل السنيورا لوبيانكو ! »

- « ذلك هو مصيرك بلا شك اذا ما أتيح لك كل ما ذكرت من
أشياء . فقد ولدت السنيورا لوبيانكو فى أسرة غنية أتاحت لها تعليما
ممتازا على أيدي مدرسين اكفاء ومربيات اجنبيات ثم أرسلتها الى
المدرسة بل والى الجامعة كما اعتقد - وقد نشأت هى أيضا فى منزل
نظيف جميل - كما كانت فى كل صيف تذهب الى شاطئ البحر
أو الجبال - وكذلك كانت تقتنى ثيابا جميلة . كما كانت تتلقى
الدعوات ، كثيرا من الدعوات وتقيم الحفلات ، كثيرا من الحفلات - وقد
تزوجت أيضا رجلا مهذبا هو المهندس لوبيانكو الذى يعمل ويجلب
الى منزله المال الوفير - وقد أنجبت من زوجها الذى اعتقد
انها ظلت مخلصه له عددا كبيرا من الاطفال - ثلاث بنات وابنا
واحدا - ولكنها على الرغم من كل ذلك امرأة جشعة رهيبة كما
سبق أن قلت . »

- « لا بد انها امرأة جشعة دون أن تكون لبيئتها يد فى ذلك البتة ! »

- « كلا ، بل هى على شاكلة صديقاتها وصديقات صديقاتها . »

فقلت محاولة أن أفلت من عناقه الساخر المتهمك : « ربما ، ولكن
كل شخص له اخلاقه الخاصة ، وربما كانت السنيورا لوبيانكو
امرأة جشعة ولكننى واثقة انه لو أتيحت لى مثل هذه الظروف
لصرت أفضل مما أنا عليه بكثير . »

- « بل لما كنت أقل بشاعة من لوبيانكو . »

- « لماذا ؟ »

- « لهذا .. »

- « ولكن انصت الى . هل تعتقد ان اسرتك بشعة ايضا ؟ »

- « بالطبع ، انها كريهة بغیضة .. »

- « وهل انت بشع ايضا ؟ »

- « نعم .. فى كل ما ورثته عن أسرتى . »

- « ولكن لماذا ؟ قل لى لماذا ؟ »

- « لهذا .. »

- « هذه ليست اجابة .. »

فاجابنى قائلا : « انها نفس الاجابة التى ترد بها عليك الحنيورا لوبيانكو لو وجهت اليها أسئلة معينة . »

- « أية أسئلة ؟ »

فقال باستخفاف : « لا داعى لذكرها . أسئلة محيرة - فكلمة

« لهذا » اذا ما قيلت باقتناع خليقة باسكات اكثر الناس فضولا -

« لهذا » بلا سبب - « لهذا » .. »

- « انى لا أفهم ماذا تعنى ؟ »

فختم حديثه قائلا وهو يعانقنى على طريقته الساخرة التى خلت من الحب : « وماذا يهم لو لم نتفاهم ما دمنا نتبادل الحب - وهو حقيقة ؟ » وهكذا انتهت المناقشة ، فمثلما كان يابى أن يستسلم كلية من الناحية العاطفية ولا يفتأ يبدو وكأنه يحتجز شيئا فى أعماقه ولعله جوهر نفسه مما يجعل انفجاراته العاطفية النادرة عديمة القيمة كذلك كان بنفس الطريقة تماما يابى دائما أن يكشف عن أفكاره كلها ، وكلما اعتقدت انى بلغت جوهر تفكيره لم يفتأ يصدنى بدعابة ما أو حيلة لطيفة يشتت بها انتباهى . فلشد ما كان مراوغا بكل ما فى الكلمة من معنى . وكان يعاملنى كشخص اقل منه كما لو كنت تقريبا أداة لاحدى تجاربه . ولكن لعل ذلك هو السبب فى حبي الشديد له على تلك الصورة العاجزة المستسلمة .

ومع ذلك فانه كان يبدو أحيانا وكأنه لا يكره أسرته والوسط الذى نشأ فيه فحسب بل الشرية جمعاء . فقد قال لى ذات يوم ولا تحضرنى المناسبة : « ان الاغنياء مرعبون ولكن ما لاشك

فيه ان الفقراء ليسوا احسن حالا ولو اختلفت الاسباب » .

- « انك تصير اقرب قليلا الى الصحة لو اعترفت صراحة بكراهبتك للبشرية جمعاء دون استثناء . » فأخذ يضحك وهو يجيبنى قائلا :

« انى لا اكره الناس من الناحية النظرية وانا بعيد عنهم ، او على الاقل تتضائل كراحتي الى حد الايمان بتقدمهم . ولو كنت لا اومن بذلك لما شغلت نفسي بالسياسة . ولكنهم لشد ما برعوني عندما اوجد بينهم » . ثم اردف قائلا فى حزن : « والحقيقة ان الجنس البشرى تافه لا قيمة له » .

فقلت : « ولكننا بشر ايضا . وهكذا فاننا تافهون كذلك . ومن ثم فلا يحق لنا ان نحكم عليهم » .

فعاد يضحك وهو يجيبنى قائلا : « انى لا احكم عليهم . بل اتشمهم - او بالاحرى انى اتنسم رائحتهم - كما يتنسم الكلب رائحة الدراج او الارنب البرى . ولكنه هل يحكم عليها ؟ انى اتنسمهم فاجدهم خبثاء اغبياء انانيين تافهين مبتذلين مخادعين مخجلين قدرين . انى اتنسمهم . وذلك احساس والاحساس لا يمكننا كتبها . اليس كذلك ؟ » .

فلم ادر كيف اجيبه ولكننى لم ازد على ان قلت : « هذا الاحساس لا يراودنى » .

وفى مناسبة اخرى تحدث الى بالطريقة التالية : « قد يكون الناس اختيارا او شرارا لست ادرى . ولكنهم بلا شك عديمو الفائدة فائضون عن الحاجة على اية حال » .

- « ماذا تعنى ؟ »

- « اتمنى لو امكن محق الجنس البشرى باجمعه لاسباب وجيهاة فهو لا يعدو ان يكون زائدة قبيحة على وجه الارض - بثرة . فلو خلا العالم من البشر ومدنهم وشوارعهم وموانئهم وكل ما يتخذونه من ترتيبات صغيرة يصير العالم اكثر جمالا الى حد بعيد . فلتخيلي كم يكون العالم جميلا لو انه خلا الا من السماء والبحر والاشجار والارض والحيوانات . »

ولم يسعنى الا ان اضحك هاتفة : « ما اغرب آراءك ! » .

فاسترسل قائلا : « ان الجنس البشرى ليست له بداية او نهاية - ومن ثم فهو شئ سلبي حتما . وما تاريخ البشرية الا ثوباء واحدة طويلة مبعثها السأم الخالص . فما الحاجة اليه ؟ وفى رأى انه كان فى وسعى تماما الاستغناء عنه » .

فاعترضت عليه قائلة : « ولكنك انت نفسك جزء من الجنس البشرى . فهل كان يمكنك الاستغناء عن نفسك اذن ؟ » .

- « الاستغناء عن نفسى بصفة خاصة . »

ثمة فكرة أخرى من الأفكار التي كانت لا تفتأ تلازم ذهنه هي فكرته عن العفة . ومما يريد في عبارة تلك الفكرة أنه لم يكن يحاول ممارستها فكان كل ما يجنيه منها هو افساد متعته . كان لا يفتأ يتغنى بمديحتها وخاصة على اثر ممارستها الحب مباشرة وكأنه يكيد نفسه . وكان يقول ان المضاجعة ليست سوى أسخف الطرق وأيسرها لتنجية جميع المشكلات بأرغامها جميعا على الخروج من أسفل خلسة وبعبدا عن الانظار مثلما يساق الضيوف المزعجون للخروج من الباب الخلفي . وكان يقول : « وما ان تتم العملية حتى يخرج الرجل في نزهة مع شريكته سواء أكانت زوجته أم عشيقته حسبما يكون الوضع وقد تهيأ على صورة عجيبة لقبول العالم كما هو حتى ولو كان شر العوالم جميعا » .

فقلت : « انى لا أفهمك » .
فقال : « ولكنك يجب ان تفهمي ذلك على الاقل . اليس هو اختصاصك ؟ » .

فأحسست بالاساءة ، وقلت : « ان اختصاصى كما تسميه هو ان احبك . ولكن ان شئت فاننا لن نمارس الحب مرة أخرى - وسوف احبك على الرغم من ذلك » .

فضحك وهو يسألنى قائلا : « هل انت متأكدة تماما مما تقولين؟ »
وفي ذلك اليوم توقفنا عن الجدل . ولكنه كان لا يفتأ يعود الى نفس الاشياء مرارا وتكرارا حتى اننى فى النهاية لم أعد التفت اليه بل تقبلت ذلك كما تقبلت سمات أخرى كثيرة فى شخصيته المتناقضة

كان لا يتحدث الى مطلقا فى السياسة الا على صورة اشارة عابرة ، بل انى اليوم لا أدري شيئا عن أهدافه وآرائه والحزب الذى كان ينتمى اليه . ويرجع جهلى تارة الى تكتمه ذلك الجانب من حياته وتارة الى عدم المامى بتاتا بالسياسة كما حال خجلى وعدم اكرائى دون سؤاله عن كل التفسيرات التى كان يمكننى ان استنير بها .

وكنت مخطئة فى ذلك والله يعلم انى ندمت فيما بعد . ولكننى خيل لى حينذاك انه مما يربحنى حقا الا أفكر الا فى الحب والا اتدخل فى أمور كانت كما تصورت لا تخصنى . وفى الواقع فانى كنت احذو

حذو كثير من النساء زوجات كن أو خليلات ممن لا يدرين حتى ان رجالهن بعرق جبينهم يكسبون المال الذى يجلبسونه الى البيت . وطالما التقيت برفيقه اللذين اعتاد أن يراها كل يوم تقريبا . ولكن ثلاثهم كانوا فى حضورى يمتنعون عن الحديث فى السياسة .

يمزحون واما يتكلمون فى موضوعات تافهة .

ومع ذلك فانى لم استطيع ان انفض عن نفسى احساسا دائما بالخوف لانى كنت أدرك ان التآمر ضد الحكومة أمر خطير . ولشد ما كنت أخشى ان يساق مينو الى الاشتراك فى عمل من أعمال العنف . وكنت بجهلى لا أستطيع ان أفرق بين فكرة التآمر وبين الاسلحة والدم . ولا يفوتنى فى هذا الصدد ان أروى حادثا يظهر الى أى مدى بلغ احساسى رغم غموضه بما يفرضه على واجبى من التدخل لابعاد المخاطر التى تتهدد مينو - فقد كنت أعلم ان حمل السلاح أمر غير مشروع قانونا وان المرء قد يحكم عليه بالسجن لا لسبب الا لحمله سلاحا بدون ترخيص . ومن الناحية الأخرى فما أيسر ان يفقد المرء صوابه فى بعض الأحيان . وطالما كان استخدام الاسلحة سببا فى تعريض الناس للشبهات فى حين انهم لولا ذلك لأعفوا من العقاب . فلهذه الاسباب مجتمعة خطر لى ان المسدس الذى لشد ما كان مينو فخورا باقتنائه لم يكن فقط غير ضرورى

على الاطلاق بل كان فى وجوده ، خطر محقق اذ انه قد ترغمه الظروف على استخدامه كما انه قد يضبط معه . ولكننى لم أجرؤ على مصارحته بمخاوفى لانى تحققت من ان ذلك لن يأتى بنتيجة . فاستقر رأى فى النهاية على العمل فى الخفاء . وكان قد شرح لى فى احدى المناسبات كيفية استخدامه . وذات يوم بينما كان نائما أخرجت المسدس من جيب سرواله ثم جذبت المخزن وأبعدت منه الرصاص . وبعد ذلك أغلقتة مرة أخرى ثم أعدته الى مكانه فى جيبه . وأخفيت الرصاص فى أحد الادراج تحت ثيابى الداخلية . فعلت ذلك كله فى لحظة واحدة ثم عدت لأنام بجانبه . وبعد مضي يومين وضعت الرصاص فى حقيبتى وذهبت لالقى به فى نهر التيبر .

وذات يوم جاء أستاريتا لزيارتى . وكنت قد أوشكت على نسيانه . فقد اعتقدت اننى أديت واجبى فيما يخص موضوع الخادمة ولم اشأ ان أفكر فيه بعد ذلك . اذ أبلغنى أستاريتا ان القس كان قد سلم « البدارة » الى الشرطة وان صاحبة « البدارة » بناء على نصيحة رجال الشرطة انفسهم كانت قد سلحت اطفالها وأخلت سبيل الخادمة دون ان تشوبها شائبة . ولا يفوتنى ان أعترف بأنى سعدت بهذه الاخبار وخاصة لانها بددت احساسى بالشؤم الذى ظل يلزمنى منذ اعترافى الاخير . ولم أعد أفكر فى الخادمة التى أخلت سبيلها أخيرا بل انحصرت تفكيرى فى مينو وقلت لنفسى انه لم يعد

الآن ما أخشاه بالنسبة لكلينا بعد زوال الخطر من الوشاية التي كنت أتوقعها . ولم أتمالك نفسي وقد استخفتني الفرحة من معانقة آستاريتا .

فسألني قائلا وقد ارتسم على وجهه تعبير ينبىء بالشك : «أكنت متحمسة الى هذا الحد للأفراج عن تلك المرأة أذن ؟ » .

فكذبت قائلة : « لعل ذلك يبدو غريبا في نظرك . فأنت ترسل الكثيرين من الابرياء الى السجن كل يوم دون أن يخالجك شيء من تأنيب الضمير . أما أنا فلشد ما تعذبت لذلك » .
فتمتم قائلا : « انى لا أرسل أحدا الى السجن . بل أؤدى واجبي فحسب » .

وسألته قائلة : « هل رأيت القس شخصا ؟ » .

- « كلا ، لم أره . بل اتصلت تليفونيا فأبلغوني ان « البدارة » كان قد سلمها اليهم في الواقع أحد القساوسة مع التزامه بسر الاعتراف فقد أعطاه اياها أحد المعترفين . وعندئذ أوصيت بالأفراج عن الخادمة . »

فظللت غارقة في تأملاتي دون أن أدري لذلك سببا .

ثم سأله قائلة : « أتجبنى حقا ؟ »

فعراه الاضطراب لهذا السؤال في الحال ثم عانقني وهو يتلثم قائلا : « لماذا تسألينني ؟ كان ينبغي الآن أن تعلمي » .

وأراد أن يقبلني ولكنني تحاشيته قائلة : « أردت أن أعلم لانى أتساءل عما اذا كنت ستقف الى جانبي دائما - كلما طلبت اليك ذلك - كما فعلت في هذه المرة » .

فأجابني قائلا وهو يرتجف من أعلى رأسه الى اخمص قدميه : « دائما » ثم قال رافعا وجهه نحوى : « ولكنك ستترققين بي ؟ »

وكنت الآن قد قررت بعد عودة مينو أن أقطع كل صلة تربطني بآستاريتا . فقد كان يختلف عن عشاقى العابرين المألوفين . فمع اننى كنت لا أحبه بل أحس نحوه أحيانا بكراهية أكيدة بالفعل فقد شعرت ربما لهذا السبب نفسه بأن فى استسلامى له خيانة لينو .

ورأدتنى الرغبة فى مصارحة بالحقيقة وذلك بقولى : « كلا ، لن أترفق بك » . ولكننى عدلت عن ذلك فجأة وكبحت جماح نفسى .

فتذكرت ما كان يملكه من سلطة واسعة كما تذكرت ان جياكومو قد يقبض عليه فى أية لحظة وانه ليس من الحكمة أن أغضبه اذا كنت أريده أن يتدخل للأفراج عنه . لذا فقد استسلمت قائلة فى همس :

« نعم سأترفق بك » .

فألح قائلاً وقد واثته الجراءة : « أخبريني ، هل تحبينني قليلاً؟ »
فقلت في صراحة : « كلا ، اني لا أحبك . واثت تعلم ذلك - فقد سبق ان قلته لك مرارا » .

- « ألا تحبينني يوماً ما ؟ »

- « لا أعتقد ذلك . »

- « ولكن لماذا ؟ »

- « لا سبب هناك . »

- « أتحبين شخصاً آخر ؟ »

- « هذا لا يمكن أن يهكم في شيء . »

فقال في يأس وهو ينظر الى بعينه الصفراوين : « ولكنني في حاجة الى حبك . فلم لا تحبينني ولو قليلاً ؟ »

ويومئذ سمحت له بالبقاء معي حتى ساعة متأخرة من الليل . فلم يكن ثمة سبيل الى عزائه بسبب عجزى عن حبه كما بدا لى انه لم يقتنع قط بصحة ما كنت أقول . فقد احتج قائلاً : « ولكنني لست أسوأ من غيرى . فلم لا تستطيعين أن تحبينني بدلا من شخص آخر ؟ » ولشد ما أسفت له في الحقيقة . ولما كان مصرا على سؤالى عن طبيعة مشاعرى نحوه وعلى تلمس بعض الوقود لاماله في اجاباتى فقد كدت أستجيب للاغراء بكذبه حتى أبعث في نفسه فقط ذلك الوهم الذى كان يحن اليه . فقد لاحظت في ذلك المساء انه كان أكثر حزنا ونفورا من مألوف عادته وكأنه كان يريد بحركاته ومواقفه ان يوقظ عندى ظاهريا ذلك الحب الذى حرمه منه قلبى . وانى اذكر انه في لحظة معينة طلب الى ان اجلس عاربة في أحد المتكآت . ثم جثا أمامى متوسداً حجرى وضاعظاً بوجهه فى قوة على بطنى حيث ظل بعض الوقت على تلك الصورة بلا حراك . وفى تلك الاثناء كان على ان أربت بيدي على رأسه مرارا وتكرارا بلمسات خفيفة مستمرة . ولم تكن هذه أول مرة يرغمنى فيها على اتيان حركات شبيهة بحركات الحب . ولكنه كان يبدو يومئذ في حال أكثر بأسا من مألوف عادته . راح يضغط برأسه فى عنف الى داخل حجرى وكأنه يريد ان يلجنى بكيانه كله لتحتويه احشائى ولم يفتأ يتأوه من وقت لآخر . ولم يعد يبدو فى تلك الاوقات عشيقا بل طفلا ينشد الدفء والظلام فى حجر امه . وخطر لى ان كثيرا من الرجال كانوا يؤثرون الا يولدوا قط وان حركته تلك كانت تعبر بطريقة لا

واعية عن ذلك الحنين الفامض للعودة من جديد الى حيث تحتويه
تلك الاحشاء المظلمة التي لفظته في ألم الى الضوء .
وفي تلك الليلة ظل جاثيا مدة طويلة حتى اتت ابني العساس
واستفرقت في النوم وقد ارتمى رأسي الى الخلف على ظهر المقعد
بينما بقيت يدي على راسه . ولست أدري كم طال النوم بي ولكنني
في لحظة معينة استيقظت من نومي ولمحت أستاريتا الذي لم يعد
جاثيا عند قدمي بل جالسا في مقعد أمامي وقد ارتدى ملابسه حيث
ظل يحملق في بعينه الصفراوين الحزینتين . ولكن ربما كان ذلك
حلما فحسب أو نوعا من الهذيان . والحقيقة انني صحت فجأة
على صورة لا شبهة فيها فوجدت ان أستاريتا قد رحل تاركا
في حجرى حيث كان يوسد راسه ذلك المبلغ المعهود .

ومضى ما يقرب من أسبوعين كانا من أسعد أيام حياتي . فقد
تعددت أن أرى مينو كل يوم تقريبا . ومع انه لم يطرأ تغير ما
على علاقتنا فقد كنت قانعة بتلك العادة التي اكتسبناها والتي بدت
في النهاية أساسا مشتركا بيننا . وكان من المسلم به في صمت بيننا
انه لا يحبني ولن يحبني وأنه على أية حال لم يفتأ يفضل العفة
على الحب . كما كان من المسلم به بنفس القدر انني أحبه وانني
سأظل دائما أحبه رغم عدم اكترائه بي وانني على أية حال كنت
أفضل حبا كهذا مع ما فيه من نقص وذبذبة على أي حب آخر .
فقد كنت اختلف في طبعي عن أستاريتا - ذلك لانني وقد سلمت
بحرمانى من حب من أهوى فان متعتى بحبى له كانت تبلغ مع ذلك
حدا بعيدا . ولعل بصيصا من الامل كان يراودنى في قرارة قلبى
بان أحظى بحبه يوما ما نتيجة لاذعاني وحبى وصبرى . ولكنني
كنت لا أفعل شيئا اتقوية ذلك الامل الذي كان بضىفى على دغدغته
الكارهة المترددة أكثر من أى شيء آخر مذاق التابل المر .

ولكننى بالطبع بذلت كل ما فى وسعى لادخل حياته دون ان
أفرض نفسى عليها . ولما كنت لا أستطيع ذلك عن طريق الباب
الرئيسى فقد استخدمت ذكائى فى محاولة الدخول عن طريق الباب
الخلفى . فعلى الرغم من كراهيته الواضحة التى أو من بصدقها للجنس
البشرى فإن ثمة تناقضا غريبا كان يدفعه بقوة لا تقاوم الى الدعوة
والعمل لنصرة ما كان يعتقد ان فيه خير البشرية . وكانت تلك
القوة الدافعة رغم اخلاصها لا تفتأ تعوقها بلا شك فى أغلب الاحيان
نوبات مفاجئة من الاسف والنفور الساخر المتهمك . فقد بدا حينذاك

متحمسا لتعليمي كما كان يشير اليه في تهكم وسخرية . ولما كنت
أحاول ربطه بي كما سبق أن قلت فقد جذبت فيه ذلك الاتجاه .
ولكن التجربة ما لبثت أن انتهت في الحال تقريبا على صورة أعتقد
انها جديرة بالذكر . فقد ظل يأتي لزيارتي عدة أمسيات متتالية حاملا
معه بعض كتبه . وبعد أن شرح الموضوع لي باختصار أخذ يقرأ
فقرة هنا وفقرة هناك . وكانت قراءته جيدة يتخلل صوته فيها
عدد كبير متنوع من نغمات التعبير طبقا لما تتطلبه المادة التي يقرأها .
كما كان يحدوه حماس احمر له وجهه وأضفى على ملامحه حيوية
غير مألوفة . ولكنني رغم ما بذلته من جهد جهيد لم أستطع أن
أفهم ما كان يقرأه . وما لبثت أن انصرفت عن الاصفاء اليه واكتفيت
بمراقبة شتى التعبيرات التي كانت تمرق عبر وجهه أثناء قراءته
وكنت أجد في ذلك متعة لا يدركها الملل قط . ولشد ما كان يستسلم
لمشاعره أثناء تلك القراءات بلا خوف أو سخرية كمن يعيش في دنياه
ولم يعد يساوره الخوف من اظهار صدقه وأخلاصه . وقد لفتت
نظري تلك الحقيقة لانني كنت لا أفتأ أعتقد حتى تلك اللحظة ان
الحب لا الادب هو أكثر الظروف ملائمة لازدهار الروح البشرية .
ومن الواضح ان العكس كان صحيحا في حالة مينو . فلا شك انني
لم أر على وجهه قط ولا حتى في لحظات حبه النادرة مارأيته حينذاك
من حماس وصدق وهو يقرأ لي فقرات لكتابه المحبوبين رافعا
صوته في نبرات جوفاء على صورة غريبة أو خافضا اياه الى مستوى
الحوار . وفي مثل هذه الاوقات كان يزايله تماما مظهره المسرحي
الهزلي المتكلف الذي لم يكن يفارقه قط حتى وهو في أخرج المواقف
مما يوحي الى من يراه بأنه لا يفتأ يمثل دورا سطوحيا مقصودا .
بل كنت في كثير من الاحيان أرى عينيه وقد أغرورقتا بالدموع .
ثم اذا به يفلق الكتاب ويسألني فجأة قائلا : « هل أعجبك ؟ »

وكنت أجيبه عادة بالإيجاب دون تحديد السبب وهو أمر ما كان
في استطاعتي أن أفعله لانني كما قلت قد أقلعت منذ البداية عن
كل محاولة لفهم معنى ذلك الكلام الغامض . ولكنه ذات يوم ألح
علي قائلا : « أخبريني لماذا أعجبك . فسرى لي ذلك » .
فأجبت قائلا بعد لحظة من التردد : « الحقيقة انني لا أستطيع
تفسير ذلك لانني لم أفهم كلمة واحدة » .

— « ولم لم تخبريني بذلك ؟ »
— « اني لم أفهم شيئا — ما خلا النذر اليسير — مما كنت تقرأ »

« وتتركيني أوصل القراءة دون أن تنذريني ! »
« وأنتك مستعمعا بالقراءة فلم أشأ أن أسد عليك متعتك -
ولكنني على أية حال لم أمل قط - فلشد ما تسرني مراقبتك
أثناء القراءة » .

فوثب واقفا على قدميه وقد استبد به الغضب قائلا : « يا
للشيطان ! فأنت حمقاء بلهاء . وها أنذا أبدد أنفاسي - مع بلهاء
مثلك ! » ثم بدا وكأنه يهم بأن يقذفني بالكتاب ولكنه كبج جماح
نفسه في الوقت المناسب وظل يسبني على تلك الصورة فترة طويلة .
فتركته ينفس عن غضبه بعض الوقت ثم تكلمت قائلة : « أنت تريد
أن تعلمني ولكن الشرط الاول لتعليمي هو أن أتخلص من ضرورة
كسب القوت بالطريقة التي أمارسها - فليس ثمة ما يدعوني مطلقا
الى قراءة الشعر أو تأملات حول الاخلاق لكي اجتذب الرجال .
بل ربما كنت أجهل القراءة والكتابة تماما ولكنني مع ذلك أتقاضى
أجري » .

فقال متهكما : « أنت تبغين أن يكون لك بيت جميل وزوج وأطفال
وثياب وسيارة . أليس كذلك ؟ ولكن المشكلة هي ان النساء جميعا
لا يقرأن ولو كن من طبقة أسرة لوبيانكو - لاسباب مختلفة عما تبدين
ولكنها لا تقل عنها وجاهة من وجهة نظرهن » .

فقلت في تبرم : « لست أدري ماذا أبغى . ولكن هذه الكتب
لا تلائم ظروف حياتي . كمن يعطى سائلا قبعة باهظة الثمن ثم يتوقع
منه أن يرتديها وهو في أسماه البالية المألوفة » .
فقال : « ربما . ولكنني لن أقرأ لك بعد ذلك سطرا واحدا » .

وما ذكرت ذلك النزاع التافه الا لأنه يمثل بالضبط أسلوبه في
التفكير والسلوك . واني لأشك فيما لو كان سيواصل جهوده لتعليمي
حتى لو لم أعترف له بعجزى عن فهمه . ولا يرجع اعتقادي هذا
الى تقلبه فحسب بل الى عجزه عن المثابرة على أى عمل يتطلب
حماسا مخلصا مستمرا . ولعل ذلك العجز يرجع في أصله الى
ناحية جسمانية . كما أدركت ان ذلك الطابع الهزلي الذي كانت
تنسم به أفاضه كثيرا ما كان يطبق في الواقع حاجته النفسية رغم
انه لم يتحدث عنها قط . فكنت تراه يتحمس لأى هدف ويظل
ينظر اليه كشيء محسوس يمكن الوصول اليه ما دامت جذوة
حماسه لم تنطفئ . أما اذا خمدت وهو ما يحدث فجأة فانه لا
يشعر بشيء سوى الملل وينتابه قبل كل شيء احساس بالسخف

المطلق . وعندئذ اما أن يسلم نفسه لنوع كئيب متبلد من اللامبالاة
واما أن يسلك سلوكا تقليديا سطوحيا كما لو كانت جذوة حماسته لم
تنطفىء قط - وباختصار فانه يتظاهر . ومن المتعذر على الى حد
ما أن أفسر ما كان يحدث له في مثل هذه الازمات - فلعله كان
يحس بتوقف مباغت في حيويته وكان حرارة دمه قد بردت فجأة
مخلفة في ذهنه فراغا مجدبا . كان انقطاعا فوريا تاما لا سبيل الى
التنبؤ به ولا يمكن مقارنته الا بانقطاع تيار الكهرباء مما يتسبب
عنه انتشار الظلمة المفاجئة في منزل كان قبل ذلك بلحظة واحدة
مضاء على صورة بهيجة أو بالمحرك الذي تنقطع عنه فجأة قوة الكهرباء
فتتوقف فيه كل عجلة صغيرة عن الحركة وتظل ساكنة . وكانت
حالات الحماس والفتور التي كثيرا ما كانت تنتابه في تعاقب هي
التي كشفت لي لأول مرة عن حركة المد والجزر المستمرة في أعماق
قواه الحيوية . ولكن لشد ما انكشفت لي تلك الظاهرة في النهاية
عن طريق حادث غريب لم اعلق عليه حينذاك أهمية ما . غير انه بدأ
لي فيما بعد عظيم الأهمية .

فقد سألتني قائلا ذات يوم على غير انتظار مطلقا : « اتبغين أن
تفعلي شيئا من أجلنا ؟ »
- « من أجل من ؟ »
- « من أجل جماعتنا ، كأن تساعدننا في توزيع منشوراتنا مثلا ؟ »
وكنت لا أفتأ أتحين الفرص لأقربه مني وأقوى علاقتي به .
فاجبت قائلة في اخلاص : « بالطبع ، مرني بما يجب أن أفعل
وسأفعله » .

- « ألسنت خائفة ؟ »

- « ولماذا ؟ اذا كنت أنت تفعل ذلك . »

فقال : « نعم . ولكنني يجب أن أوضح لك أولا ما هو الفرض
من كل هذا . فعليك أولا أن تتفهمني الافكار والمبادئ التي من أجلها
تعرضين نفسك لمثل هذا الخطر » .

- « اذن فلتشرحها لي . »

- « ولكنني لا أجد منك اهتماما . »

- « لماذا ؟ فان اهتمامي أمر لا شك فيه - كما أن كل ما تفعله

يهمني ولو لم يكن لذلك من سبب سوى أنك أنت الذي تفعله . »
نظر الى فاذا بعينيه تلمعان فجأة واذا بوجنتيه تحمران على
صورة غير متوقعة مطلقا . ثم قال في عجلة : « حسنا . لقد تأخر

بنا الوقت اليوم - ولكنني غدا سأشرح لك كل شيء بنفسى ما دمت
تسامين المكتب . ولكن حذار فان الامر يطول شرحه وعليك ان
تنصتى وتتابعينى حتى ولو خيل اليك أحيانا أنك لا تفهمينتى .
فقلت : « سأحاول أن أفهم » .
وأجابنى قائلا وكأنه يحدث نفسه : « ينبغى عليك أن تفعلنى » .
ثم تركنى وانصرف .

وفى اليوم التالى ظللت أنتظره ولكنه لم يأت . ثم جاء بعد يومين
وما ان دخل غرفتى حتى جلس على المتكأ عند أسفل الفراش دون
أن ينبس بكلمة .
فقلت مبهجة : « حسنا . انى على استعداد . فها أنذى أنصت
اليك » .

وكنت قد لاحظت تعبيره المكتئب وعينييه الحزينتين ومظهره
المتعب المتخاذل ولكننى لم أشأ أن أعلق عليه بكلمة .

وأخيرا قال : « لا يجدى انصاتك لانك لن تسمى شيئا » .
- « ولماذا ؟ »

- « لهذا . »

فاحتججت قائلة : « والآن أصدقنى القول - أنك تظن اننى من
الغباوة والجهالة بحيث لا أستطيع أن أفهم بعض الامور . أليس
كذلك ؟ شكرا ! » .

فقال بلهجة جادة : « كلا ، بل أنت مخطئة » .
= « اذن فلماذا ؟ »

وظللنا بعض الوقت على تلك الصورة فلم أفتأ ألح فى معرفة
السبب ولكنه رفض أن يدلى بشيء . وأخيرا قال : « أتبغين حقا
أن تعرفى السبب ؟ لاننى الآن لا أعرف أنا نفسى كيف أعبر لك عن
هذه الافكار » .

- « لم لا ؟ - ما دمت تفكر فيها طوال الوقت ! »

- « لا شك اننى افكر فيها طوال الوقت . انى أعلم ذلك . ولكن
هذه الافكار صارت منذ أمس مستغلقة على ادراكى . ولا يعلم الا
الله منى يراينى هذا الاحساس . فانى أصارحك بأننى لا أفهم
شيئا . »

- « أنك لا تعنى ما تقول ! »

فقال : « حاولى أن تفهمى . فمنذ يومين عندما اقترحت عليك
أن تعملى من أجلنا كنت على ثقة تامة بأننى لو شرحت لك مبادئنا

لأنجزت تلك المهمة في قوة ووضوح واقناع ولتفهمتها تماما . أما اليوم فربما جرى لساني وشفثاي بسلسلة من الإلناظ ولكن على صورة آية للغاية دون أن أشعر فيها بشيء . ثم وردت كلامه مشددا على كل مقطع ينطق به قائلا : « فأنا اليوم لا أفهم شيئا » .
- « لا تفهم شيئا ؟ »

- « نعم . لا أفهم شيئا . فقد تحولت الافكار والمبادئ والحقائق والذكريات والمعتقدات بل تحول كل شيء الى كتلة - كتلة تملأ رأسي ثم نقر على جبهته بأصابعه قائلا : « رأسي بأكمله - وهى تنفرنى كما لو كانت برازا » .

فنظرت اليه في ترقب حائر . وبدا لى ان رجفة من السخبط قد سرت في بدنه ازاء تلك النظرة . ثم صاح قائلا : « حاولى ان تفهمى فان كل شيء يبدو اليوم مستغلقا على ادراكى . كل شيء يبدو سخيفا . ليس هذا مقصورا على الافكار فحسب بل كل ما يكتب او يقال او يعتقد . فهل تعرفين مثلا صلاة الرب ؟ » .
- « نعم .. »

- « اذن فلتلتها .. »

فبدأت أتلو الصلاة قائلة - « أبانا الذى فى السماوات . ولكنه قاطعنى قائلا - « يكفى هذا . والان فكرى فقط كم من الطرق تليت بها هذه الصلاة على مدى القرون . وكم صاحبته من العواطف المختلفة ! انى لا أفهمها مطلقا بأية صورة من الصور . اذ يمكنك تلاوتها من آخرها الى أولها ولن يغير ذلك من الأمر شيئا بالنسبة لى »

ولزم الصمت لحظة . ثم استرسل قائلا - « ولكن هذا التأثير لا تحدثه فى نفسى الالفاظ فحسب بل الاشياء كذلك - والناس . فها أنت ذى جالسة بجانبى على ذراع هذا المقعد ولعلك تعتقدين اننى أستطيع أن أراك ؟ ولكننى لا أدراك لاننى لا أستطيع أن أفهمك - بل ربما لمستك ولكننى مع ذلك لا أفهمك - بل انى سألمسك فى الواقع - » واذا به وهو يتكلم يجذب عباةتى المنزلية كاشفا عن ثديي وكان مسا من الجنون قد أصابه فجأة . ثم عاد يقول فى غضب قابضا على ثديي بقوة على صورة لم أستطع معيانه اكتبه صراحة الم صغيرة -

« وها أنا المس ثديك . واستشعر شكله ودنائه واستندارته وأرى لونه ورسمه . ولكننى لا أفهم ما هو . فانى احدث نفسى قائلا - « ها هو ذا شيء مستدير دافىء لين أبيض منتفخ يتوسطه بروز صغير مستدير قاتم اللون - يدر اللبن وعند دغدغته يورث اللذة . »

ولكننى لا أفهم شيئاً . فانى أقول لى نفسى انه جميل . وينبغى أن
يملأنى بالرغبة غير أننى مع ذلك لا أفهم شيئاً . والآن أتريين ماذا
أعنى ؟ ثم أطلق سراحى فى الحال وما لبث أن قال فى تأمل بعد
لحظة - « ولعل ذلك القصور عن الفهم هو الذى يضى القسوة على
الكثيرين من الناس . فهم يحاولون الاتصال بالحقيقة عن طريق ايلام
الغير . »

وساد الصمت بعد ذلك . ثم قلت - « اذا كانت هذه هى الحقيقة
فكيف تدبر أمرى عندما يفرض عليك أن تأتى أعمالاً معينة . »
- « مثل ماذا ؟ »

- « لست أدرى - فما أنت تكلفنى بتوزيع منشوراتكم - وتزعم
أنك تكتبها بنفسك . ولكنك ان كنت لا تؤمن بها فكيف يمكنك
كتابتها وتوزيعها ؟ »

فانفجر فى نوبة من الضحك الساخر المتهمك قائلاً - « أتصرف
وكأنى أو من بها فعلاً . »
- « ولكن هذا محال . »

- « لماذا ؟ فهكذا يفعل جميع الناس تقريباً الا فى حالات معينة
هى الاكل والشرب والنوم والمضاجعة . فجميع الناس تقريباً يأتون
أعمالاً وكأنهم يؤمنون بها . ألم تلاحظى ذلك ؟ »
ثم ضحك فى عصبية .
وأجبت قائلة - « كلا . لم لاحظ ذلك . »

فرد قائلاً بلهجة مسيئة تقريباً - « انك لم تلاحظى ذلك لانك تقنعين
بالاكل والشرب والنوم والمضاجعة كلما احسست بالرغبة فى ذلك .
وانى اعتقد ان هذه الأمور لا ضرورة للتظاهر فيها . » وفجأة ضحك
ثم صفعنى بقوة على فخدى وضمنى كعادته بين ذراعيه قائلاً وهو
يهصرنى ويهزنى - « ألا تعلمين أنه عالم « كما لو » ؟ ألا تعلمين أن
الجميع - ابتداء من الملك حتى أحقر شحاذ يتصرفون « كما لو » -
انه عالم « كما لو - كما لو - كما لو »

وتركنه يفعل ما يشاء لاننى كنت أعلم أنه يحسن بى فى مثل هذه
الاقوات ألا أظهر استيائى او احتج على سلوكه بل أنتظر حتى يزياله
سخطه وانتهى . ولكننى أخيراً قلت له فى نيات - « انى أحبك -
هذا هو كل ما أعرفه . وحسبى ذلك . »

فقال ببساطة وقد عاوده الهدوء فجأة - « انك على حق . » وانتهى
المساء بالطريقة المعتادة دون ان نعود الى الحديث فى السياسة او الى

عجزه عن مناقشة الموضوع .

وعندما خلوت الى نفسي مرة اخرى انتهيت بعد تفكير طويل الى أن الامور ربما كانت كما صورها . ولكن الأرجح كثيرا أنه أبى أن يتحدث الى فى السياسة لأنه اعتقد أنني ربما عجزت عن فهم ما يقول أو لأنه خشى أن أعرضه للشبهات بسبب ما قد ارتكبه من اهمال . ولم يخطر ببالي أنه يكذب . فقد علمتني خبرتى أن كل فرد يمر فى حياته يوم يبدو له فيه العالم وقد انهار حطاما أو كما قال يقصر فيه عن فهم كل شئ حتى صلاة الرب . كما أن ذلك الاحساس نفسه تقريبا بالملل والنفور والكتابة كان يخالجنى أنا أيضا عندما ينتابنى المرض أو السخط لاي سبب من الاسباب . فمن الواضح أن ثمة دافعا اخر بلا شك دعاه الى الامتناع عن دعوتى لمشاركته ذلك الجانب الخفى من حياته الذى لشد ما أحيط بالكتمان - ذلك الدافع كما سبق أن قلت هو عدم الثقة بذكائى أو بحسن تقديرى للامور . ولم أدرك خطئى الا بعد فوات آلاوان فان مثل هذه الحالات النفسية المرضية كانت عنده ذات خطورة خاصة بسبب شبابه المفتقر الى الخبرة أو بسبب ضعف شخصيته .

ولكننى اعتقدت حينذاك أن الحكمة تملى على أن انسحب وألا أزعجه بفضولى . وذلك هو ما فعلته .

الفصل الثامن

لست أدري السبب فى ذلك ولكننى ما زلت أذكر جيدا كل ما حدث حتى حالة الطقس حينذاك . كان شهر فبراير قد مضى ببرده وأمطاره وظهرت مع حلول شهر مارس تباشير الجو المعتدل . فكانت السماء بأسرها تغطيتها شبكة كثيفة من السحب البيضاء الرقيقة التى تشبه نسيج العنكبوت والتى ما ان يواجهها المرء فى الطريق بعد خروجه من ظلام المنزل حتى تبهر بصره . وكان الهواء لطيفا معتدلا ولكنه ما زال خدرا من أثر عنف الشتاء وقسوته . سرت فى ذلك الضوء الرقيق الناعس الذى لم تكتمل يقظته بعد تحدونى لذة مدهولة بينما أبطىء السير مغمضة عيني من وقت لآخر أو أقف ساكنة وقد عرتنى الدهشة لأحملك فى أتفه الاشياء : فى قط راح يلحق نفسه على احدى عتبات الدور وقد اختلط بياضه بسواده . أو فى غصن كان يتدلى من احدى أشجار الدقل وقد أذوته الريح ولكنه مع ذلك ربما صار مزهرا أو فى نؤابة من الكلا الأخضر كانت تثبت بين بلاط الافريز . ولقد امتلأت نفسى باحساس عميق بالطمأنينة والثقة عندما رأيت الطحلب على أثر أمطار الشهور السابقة وقد تناثر فى الفجوات هنا وهناك عند أسفل الدور فقد خطر لى أنه اذا أمكن أن يترععرع مثل ذلك المخمل الزمردى الجميل فى تلك التربة الهزيلة المتناثرة بين حزازات الصخر والزلط فان حياتى التى لم تتعمق جذورها مثلما تعمقت جذور الطحلب والتى يكفى أقل غذاء لنموها وازدهارها والتى لم تكن فى الحقيقة سوى نوع من ذلك النبات الذى ينمو عند أسفل المباني ، هذه الحياة كان من المحتمل الى حد ما استمرارها وازدهارها . فقد كنت مقتنعة بأن كل ما مرتت به من تجارب بغيضة فى الماضى القريب قد انتهى الى الابد . فانى لن أرى سونزو نيو ولن أسمع شيئا عن جريمته مرة أخرى . وأناة يكفى من الان فصاعدا أن أستمتع بعلاقتى بمينو دون أن يزعجنى شيء . وبينما كانت تتراءى لى تلك الخواطر بدا لى أننى أذوق طعم الحياة الحقيقى لأول مرة تنوقا تاما فاذا بها خليط من السأم المخفف والفرصة والامل . بل بدأت أرى أمامى بوادر فرصة لتغيير أسلوب حياتى . فان حبنى

لمينو كان يجعلنى أشعر فى قرارة قلبى بالفتور نحو غيره من الرجال .
ولذا فانى لم أعد احس فى علاقاتى المعارضة بذلك الدافع القصرى
الشهرانى . ولكننى كنت أعتقد أيضا أن سبل الحياة كلها تتساوى
وانه ليس مما يستحق العناء أن يبذل المرء جهدا كبيرا لتغيير أسلوب
حياته . وكنت قد قررت ألا أفعل ذلك الا اذا اكتسبت عادات وعواطف
واهتمامات جديدة وأصبحت فتاة تختلف تماما عما كنت عليه حتى
ذلك الوقت على أن يتم ذلك التحول دون صدمة أو انقطاع مفاجيء
بل من تأثير ظروف لا دخل لارادتى فيها . وكنت لا أرى وسيلة
أخرى لتغيير اسلوب حياتى . كما كنت حينذاك لا أطمح مطلقا فى
تحقيق أى نجاح أو تقدم مادى . وكنت لا اعتقد اننى بتغيير أسلوب
حياتى أستطيع تحسين ظروفى فى أية صورة من الصور .

وذات يوم صارحت مينو بهذه الاراء . فأصغى الى بانتباه ثم
قال - « أعتقد أنك تناقضين نفسك . اليس كذلك ؟ الا تقولين دائما
أنك تودين لو صرت غنية ولو كان لك منزل جميل وزوج وأطفال ؟
ولا شك مطلقا فى أنه ينبغي أن يكون لك ما تبغين . وربما تحقق
لك ذلك يوما ما - ولكنك لو ظللت تفكرين بهذه الطريقة فلن تحصلى
على شىء من هذا . »

فأجبت قائلة - « اننى لم أقل مطلقا اننى أبغى هذه الاشياء . بل
كنت أتمنى لو كانت لى - أى أنه لو أتاحت لى حرية الاختيار
قبل مولدى لما اخترت قطعا ان أكون كما أنا . ولكننى ولدت فى هذا
المنزل ومع هذه الام وفى هذه الظروف . فانا ما انا رغم كل شىء . »
- « ماذا تعنين بذلك ؟ »

- « أعنى أن رغبتى فى أن أكون شخصا آخر تبدو سخيفة فى نظرى .
فانا لا أحب أن أكون شخصا آخر الا اذا أمكننى فى نفس الوقت أن
أظل محافظة على ذاتى . أى اذا أمكننى حقا أن أبتهج لما يحدث من
تغيير . اما ان أصير شخصا آخر لمجرد التغيير فحسب فذلك امر
لا يستحق العناء . »

فهمس قائلا - « بل انه يستحق العناء دائما ان لم يكن من اجلك
فمن أجل الآخرين . »
فاسترسلت فى حديثى قائلة دون أن التفت الى مفاظعته - « كما
ان الأهمية العظمى للحقائق . الا تعتقد أنه كان فى امكانى العثور على
عشيق موسر مثلما فعلت جيزيلا ؟ أو ان اتزوج ؟ فان كنت لم أفعل
فان ذلك معناه اننى فى قرارة قلبى لم اشأ ذلك على الرغم من كل ما أقول »

فهمت قائلا وهو يعانقني محاببا - « ولكني سأ تزوجك . فانا غنى
- وعندما تموت جدتي وهو أمر لن يطول انتظاره الان فسوف اوث
عنها أفدنة من الارض فضلا عن فيللا في الريف وشقة في المدينة وسوف
نؤثث المنزل على صورة لائقة حيث تدعين سيدات الحى الى «لقاءاتك
المنزلية» . كما ستكون لدينا طاهية وخادمة للمائدة وعربة يجرها
حصان واحد أو سيارة . بل لعلنا نكتشف ذات يوم بمجهود بسيط
اننا ننحدر من أصل نبيل فنحصل على لقب كونت أو ماركيز »
فقلت وأنا أدفعه بعيدا - « لا يمكننى بحال أن اتحدث إليك حديثا
جادا . فانك تجعل من كل شيء مادة للمزاح »

وذات مساء ذهبت الى السينما في صحبة مينو . وعند عودتنا
ركبنا تراما مزدحما . فقد كان من المتفق عليه أن يعود مينو معى الى
المنزل وان نتناول العشاء معا في حانة بالقرب من أسوار المدينة .
فتناول مينو البطاقتين وشق طريقه وسط الزحام الذى كان يسد
مدخل الترام . وحاولت أن أكون على مقربة منه ولكنه اختفى عن
بصرى عندما تمايل الزحام الى الامام . وبينما كنت أبحث عنه أثناء
وقوفى مسحوقة بجانب أحد المقاعد اذا بشخص يلمس يدي . وما ان
خفضت بصرى حتى رأيت سونزونيو جالسا هناك أسفل عيني
مباشرة .

فشهقت واحسست بوجهى يمتقع لونه ويتغير تعبيره . كان يتطلع
الى بنظرته المبهودة التى لا تحتمل . ثم نهض قليلا من مقعده وتحدث
الى من بين أسنانه المطبقة قائلا :

- « أتريدن الجلوس ؟ »

فتلعثمت قائلة - « شكرا لك . ولكنى سأغادر الترام بعد قليل
- « اجلسي » .

فرددت كلامى فائلة - « شكرا لك . » ثم جلست . ولو اننى لم
أفعل ذلك لكان من المحتمل أن يغمى على .

ظل واقفا بجانبى وكأنه يحرسنى وقد أمسك بكلتا يديه ظهر مقعدى
والمقعد الامامى . وكان كما هو تماما لم يطرأ عليه تغير ما . فكان
لا يزال يرتدى نفس المعطف الراقى من المطر بحيث يخرسه حرام
محكم وفكه لا يزال يختلج بنفس الطريقة الآلية . فأغمضت عيني
وحاولت مؤقتا أن انسق أفكارى . حقا هكذا كان يبدو دائما . ولكن
خيل لى عندئذ اننى أرى فى عينيه تعبيرا اشد قسوة وصرامة . وما
ان تذكرت اعترافى حتى خطر لى انه لو كان القس قد افشى السر كما

اعتقدت أنه لابد فاعل ونمى ذلك الى علم سونزونيو لما كانت لحياتي

قيمة تذكر . لم يخفى ذلك الحاضر . ولكنه تشد ما بث الرعب في قلبي

وهو واقف هناك في تصلب بجانبى - او الاحرى انه كان يسحرني

ويسيطر على . وخيل لى أننى لا استطيع أن أرفض له طلباً وان ثمة

رباطا اقوى بكثير مما يربطني بمينو كان يشدنى اليه مع أنه لم يكن

حبا . ولا ريب أنه هو أيضا كان يشعر بذلك شعورا غريزيا . فقد كان

موقفه منى دائما موقف السيطرة والسيادة . ثم ما لبث ان قال -

« فلنذهب الى شقتك » . فأجبتة قائلة في انقياد دون أقل تردد - « ان شئت » .

وأقبل مينو وهو يشق طريقه وسط الزحام فى شىء من الصعوبة

ثم وقف بجانب سونزونيو تماما متشبها بنفس المقعد الذى كان يمسك

به بل كانت أصابعه الطويلة المنحيلة تحتك فعلا بأصابع

سونزونيو القصيرة الغليظة . واهتز الترام فارتمى كلاهما على الآخر

ورجاه مينو فى أدب أن يعفو عنه لاصطدامه به . وبدأت أشعر بالضيق

لرؤيتهما معا فى تقارب شديد ولكن دون أن يعرف كلاهما الآخر على

الاطلاق . وفجأة استدرت نحو مينو فى تعمد على صورة لا يتخيل

معها سونزونيو اننى أخاطبه قائلة - « انصت الى - لقد تذكرت الان

فقط اننى على موعد مع شخص هذا المساء . فالاجدر بنا أن نفرق

الان » . - « سأصحبك الى المنزل ان شئت » .

- « كلا - فسألتقى بهذا الشخص عند موقف الترام » .

وكان ذلك أمرا مألوفا . فقد كنت لا أزال اصحب الرجال الى

المنزل . وكان مينو على علم بذلك . فقال فى هدوء - « كما تشائين .

اذن فسألقاك غدا » . فأومأت برأسى موافقة ثم مضى بعيدا خلال

الزحام . وبينما كنت أراقبه وهو يشق طريقه بين الناس اذا بى أتعرض

لحظة لنوبة من اليأس العنيف . فقد خيل لى أننى أراه لآخر مرة

ولكننى لم أدر لماذا وأودنى ذلك الحاضر . فتمتمت محدثة نفسى وأنا

أتابعه بعينى قائلة - « وداعا يا حبيبى » . وأردت أن أصبح لاستوقفه

فيعود مرة أخرى ولكن صوتى احتبس فى حلقى . وتوقف الترام

ثم خيل لى أننى أراه وهو يهبط منه . وعاد الترام فانطلق من جديد .

أما سونزونيو وأنا فقد ظللنا صامتين طوال الرحلة . وقد هذا

روعى الان قليلا وقلت لنفسى ان القس لا يمكن أن يكون قد افشى
السري . ومن ناحية اخرى فاني بعد أن فكرت في الأمر قليلا لم أشعر
بالأسف حقا للقائى به . إذ اننى بهذه الطريقة سوف أتخلص الى
الأبد من وساوسى وشكوكى ازاء ما تمخض عنه اعترافى من نتائج .

نهضت واقفة عند محطة الترام ثم هبطت منه وسرت قليلا دون
أن أنظر خلفى . . . كان سونزونيو بجانبى وفى امكانى رؤيته لو أدت
رأسى قليلا . وأخيرا سألته قائلة - «ماذا تريد منى ؟ ولماذا عدت ؟»
فقال فى شيء من الدهشة - « لقد طلبت الى العودة أنت نفسك !»
وقد صدق فيما قال ولكننى كنت قد نسيت ذلك من شدة
الربعب . ثم دنا منى وأمسك بذراعى قابضا عليه بقوة وهو يكاد
يرفعنى عن الارض . فسرت الرجفة على الرغم منى فى جميع أطرافى .
ثم سألتى قائلا - « من هو ذلك الرجل ؟ »

- « أحد أصدقائى »

- « هل رأيت جينو مرة أخرى ؟ »

- « كلا . أبدا . »

فنظر حوله بسرعة ثم قال - « ان ثمة شعورا غريبا لا أدرى له
سببا أخذ يراودنى أخيرا منذرا اياى بأن هناك من يتبعنى . ولا يوجد
سوى شخصين يمكنهما أن يشيا بى أنت وجينو »
فسألته هامسة - « ولماذا يشى بك جينو ؟ » ولكننى أحسست
بقلبى يخفق فى عنف .

- « كان يعلم اننى سأحمل تلك السلعة الى الصائغ . بل لقد
أخبرته باسمه وهو لا يعلم بالضبط اننى قتلته . ولكنه كان فى امكانه
بسهولة أن يتكهن بذلك » .

- « ان جينو لن يجنى شيئا من الوشاية بك - بل أنه لو فعل
لوشى بنفسه أيضا »

فتمتم قائلا - « ذلك هو اعتقادى »

ثم أردفت قائلة بصوت هادىء للغاية - « أما عنى فيمكنك ان تتأكد
اننى لم أنس بشيء . فلست حمقاء - إذ اننى لو فعلت لقبض على
أنا أيضا » .

فأجابنى منذرا - « أمل ذلك من أجلك » ثم أضاف قائلا - « ولقد
قابلت جينو لحظة . فقال لى على سبيل المزاح أنه يعرف أشياء
كثيرة . وذلك هو ما يقلقنى . فهو رجل سوء »

فقلت - « لشد ما أسأت معاملته فى ذلك المساء . ولاشك الان

انه يكرهك . وبينما كنت اتكلم احسست انى اكاد اتمنى لو كان جينو قد وشى به حقا .

فقال فى زهر متجهيم - « كانت لكمة رائعة - وقد ظلت يدى تؤلمنى بعد ذلك مدة يومين »

فاختتمت الحديث قائلة - « ان جينو ان يشى بك . فذلك لايتفق مع مصلحته . فضلا عن هذا فهو لا يجرو على ذلك لخوفه الشديد منك » .

كنا نسير فى الطريق ونحن نتبادل الحديث بصوت خفيض دون ان ينظر احدنا الى الاخر . وقد تلونت السماء بضوء الشفق واكتنف الاسوار القاتمة واغصان الدلب البيضاء والمنازل الضاربة الى الصفرة والمنظر النائى فى الطريق الرئيسى ضباب يميل لونه الى الزرقة . وما أن بلغنا الباب الخارجى للمنزل حتى احسست لأول مرة اننى اخون مينو بالفعل . لقد شئت ان اخدع نفسى باعتقادى ان سونزونيو لا يعدو ان يكون واحدا من بين كثيرين . ولكننى كنت أعلم ان ذلك الاعتقاد لا صحة له . فدخلت الفناء ثم جذبت الباب من خلفى . وهناك وقفت ساكنة فى الظلام ثم استدرت نحو سونزونيو قائلة :
- « انصت الى - يحسن بك ان تنصرف » .
- « لماذا ؟ » .

أردت ان اصارحه بالحقيقة كلها رغم الخوف الذى انتابنى فقلت -
« لانى احب رجلا آخر ولا أريد ان اخونه » .

- « ومن هو ؟ اهو ذلك الرجل الذى كان معك فى الترام ؟ »
فأشفقت على مينو وأسرعت باجابته قائلة - « كلا . بل شخص آخر لا تعرفه . والان أرجو ان تتركنى - انصرف ؟ »
- « ولنفرض اننى لا ابغى الانصراف ؟ »

فبدأت اتكلم قائلة - « ولكن الا تعلم ان هناك أشياء معينة لايمكنك اغتصابها » غير اننى لم أستطع ان اتم حديثى . ولا ادرى كيف حدث ذلك . اذ اننى دون ان اراه فى الظلام أو أرى حركاته اذا به فجأة يلمنى بظهر يده على خدى لظمة رهيبة قائلا - « امضى »

فهرولت صاعدة الدرج وقد خفضت رأسى . فأمسك بى من ذراعى مرة أخرى وراح يسندنى فى كل خطوة . حتى شعرت وكأنه يكاد يرفعنى عن الارض فأطير فى الهواء . كان خدى يؤلمنى بشدة ولكن ثمة احساسا بالشؤم المنذر كان يخيفنى اكثر من اى شىء اخر . وخيل لى ان هذه اللظمة قد قطعت ما كان من نعم سعيد فى الايام الاخيرة

وظهرت في الافق من جديد مصاعب الماضي ومخاوفه . فملأني نأس
مطلق وتوربت على الفور أن أعرب عن المصير الذي حدثتني به نفسي .
قررت أن أعرب يومئذ من المنزل وأن أذهب الى مكان آخر أما الى
شقة جيزيلا وأما الى غرفة مؤثثة .

ولشد ما أعنت التفكير في كل هذه الاشياء حتى أنني لم أكد
الحظ أنني في داخل الشقة وأننى قد عبرت الغرفة الخارجية الى حيث
توجد غرفتي . فوجدتني - بل أكاد أقول أنني صحوت لأجد نفسي -
جالسة على حافة الفراش بينما راح سونزونيو يخلع ملابسه قطعة
قطعة وهو يضعها في نظام على أحد المقاعد بحركات دقيقة راضية
لا تصدر الا عن شخص منظم في جوهره . وكانت نوبة الغضب قد
زائلته تماما . فقال في هدوء - « كنت اود لو جئت اليك قبل ذلك .
ولكنني لم أستطع . ومع هذا فأننى لم أفتأ أفكر فيك » .
فسألته قائلة في آلية - « وماذا كان تفكيرك بشأنى ؟ »
- « لقد خلق كلانا للآخر . » ثم نهض واقفا وبيده صديره وأردف
قائلا بلهجة غريبة - « لقد جئت في الواقع لاطلب اليك الزواج »
- « ماذا؟ »

- « عندي بعض المال . فلنذهب معا الى ميلان حيث أعرف أصدقاء
كثيرين . فانى أريد أن أفتح جراجا للسيارات . وفي ميلان يمكننا
أن نتزوج »

فأحسست وكأننى أذوب من الداخل . وغلبنى احساس بالضعف
الشديد جعلنى أغمض عيني . فلاول مرة بعد جينو يعرض على
الزواج ويكون المتقدم هو سونزونيو . لشد ما استبد بي حنينى الى
الحياة الطبيعية مع زوج وأطفال وها هي ذى الان تعرض على - ولكن
المظهر الطبيعى فيها ليس سوى عطاء خاو يحوى كل ما هو
شاذ ومخيف . فقلت في ضعف - « ولكن لماذا ؟ فلا يكاد كلانا يعرف
الآخر . فانك لم ترنى سوى مرة واحدة »

فجلس بجانبى واضعا ذراعه حول خصرى ثم قال - « ليس ثمة
من يعرفنى خيرا منك . فأنت تعرفين عنى كل شيء »

وخطر لى أن عواطفه ربما كانت مضطربة نائرة في اعماقه وأراد
أن يظهر لى أنه يحبني وأننى يجب أن تحبه . ولكن ذلك لم يكن سوى
خيال من جانبى فقد خلا سلوكه من كل ما يؤكد ذلك الظن .

فقلت في صوت خفيض - « أنتى لا أعرف شيئا عنك . كل ما أعلمه
هو انك قتلت ذلك الرجل » .

فقال وكأنه يحدث نفسه - « ثم انى قد سئمت الحياة وحدى .
فعندما تعيشين وحدك ينتهى بك الامر الى ارتكاب عمل جنونى » .
وبعد لحظة من الصمت تكلمت مرة اخرى قائلة - « لا يمكننى ان
أقول « نعم » أو « لا » مباشرة على هذه الصورة . اعطنى الفرصة
لافكر فى الامر »

فقال لدهشتى - « فكرى فى الامر . فانى لست فى عجلة . » ثم
افترق عنى واستمر فى خلع ملابسه .

ولشد ما لفتت نظرى عبارته التى قال فيها - « لقد خلق كلانا
للاخر » . وأخذت الآن اتساءل عما ان كان مع ذلك محقا فيما يقول .
فمن ذا الذى اتوقع أن يتزوجنى الان سوى رجل من صنفه ؟ ثم أليس
حقا أن رباطا خفيا ادركته وخشيته كان يشدنى اليه ؟ ووجدتني
أردد فى اذعان محدثة نفسى « الهرب . الهرب » . بينما لم أفتأ أهز
راسى فى يأس .

ثم قلت فى صوت واضح وقد امتلأ فمى باللعب - « هل اقترحت
الذهاب الى ميلان ؟ الا تخشى أن يكونوا لك بالمرصاد ؟ »
- « قلت ذلك لانى أردت أن أقول شيئا فحسب . ولكن أحدا
لا يعلم بوجودى فى الواقع »

وفجأة تلاشى ذلك الضعف الذى كان يجعل أطرافى ثقيلة كالرصاص
وراودنى احساس بالقوة والتصميم . فنهضت من مكاني وخلعت
سترتى ثم ذهبت لاعلقها على مشجب المعاطف . وأدرت المفتاح فى
القفل كالمعتاد ثم سرت فى بطء الى النافذة لاغلاق مصراعها . وما ان
وقفت منتصبه القامة أمام المرآة حتى بدأت أفك أزرار سترتى مبتدئة
من أسفل . ولكننى توقفت فى الحال تقريبا ثم استدرت نحو سونزوونيو
وكان جالسا على حافة الفراش وقد انحنى فوق حذائه ليحل رباطه .
رقلت بلهجة عارضة متكلفة - « استأذنىك دقيقة واحدة . فقد كان
المفروض أن يزورنى شخص ما هذا المساء . ولذا يجب أن اذهب
لاندر امى بالتخلص منه » فلم يحر جوابا بل انه لم يجد الفرصة
لذلك . وغادرت الغرفة ثم أغلقت الباب من خلفى . ودلقت الى
غرفة الجلوس .

كانت امى عاكفة على ماكينة الخياطة بالقرب من النافذة . إذ انها
كانت قد عادت الى عملها منذ فترة وجيزة لكنى تخفف من احساسها
برتابة الحياة . فقلت لها بسرعة وبصوت هامس - « اتصلنى بى
تليفونيا فى منزل جيزيلا أو زيلندا غدا صباحا » . . . وكانت زيلندا

امراة توجر الغرف و وسط المدينة حيث كنت اتردد أحيانا مع عشاقى . وكانت أمى تعرفها .

« لماذا؟ » . Library4arab.com/vb
فقلت - « انى ذاهبة . وعندما يسأل عنى ذلك الرجل بالداخل

اخبريه أنك لا تعرفين مكانى . »
فجلست امى هناك فافرة فاها وهى تحمق فى بينما راحت تخرج كيشة من سترة فرائية كنت ارتديها قبل ذلك بعدة اعوام .
ثم اضفت قائلة - المهم فى الامر الا تخبريه اين ذهبت .
والا قتلنى «

« ولكن - »
- « النقود مودعة فى مكانها المألوف . . اذن فلتحذرى . .
لا تخبريه بشئ . واتصلى بى غدا . » ثم خرجت مهرولة وعبرت

الردهة على اطراف أصابعى ثم بدأت أهبط الدرج
وما ان بلغت الشارع حتى أخذت أركض . كنت أعلم أن مينو كان وقتئذ فى المنزل فأردت اللحاق به قبل ان يخرج مع صديقيه بعد العشاء . ظللت أركض حتى بلغت الساحة حيث ركبت سيارة أجرة وأدليت بعنوان مينو . وبينما كانت السيارة تسرع بى أدركت فجأة اننى لم أكن أهرب من سونزوونيو بقدر هروبى من نفسى وذلك لاحساسى الفامض بالانجذاب نحو قوته وعنقه . وتذكرت تلك الصيحة النفاذة التى اختلط فيها الرعب باللذة التى انتزعها منى عندما ضاجعنى لأول وآخر مرة . وقلت لنفسى أنه قد غزانى يومئذ الى الابد كما لم يفعل رجل اخر منذ ذلك الحين ولا حتى مينو . فلم يسعنى الا أن اخرج من ذلك بأن كلا منا قد خلق للآخر حقا ولكن كالجسد الذى قيل عنه انه خلق للهاوية التى تصيب رأسه بالدوار وتغيم لمراها عيناه فتجذبه فى النهاية أعماقها السحيقة .

وصعدت الدرج مثنى مثنى حتى اذا ما بلغت الشقة كنت مبهورة الانفاس وأدليت باسم مينو للخادمة النصف التى جاءت لتفتح لى الباب .

فبدت لى وكأن الذعر قد اخرجها عن وعيها . فتركتنى على عتبة الباب ثم هرولت بعيدا دون أن تصب بكلمة .
وخيل لى أنها ذهبت لتخبر مينو بجيئى . فدخلت الردهة وأغلقت الباب .

ثم سمعت همسا خلف الستارة التى تفصل الردهة عن الدهليز .

وارتفعت الستارة وظهرت الارملة مدولاجي . وكنت قد نسيتها تماما منذ لقائي بها اول مرة . فلما لني الرعب عندما رأيتها تنتصب امامي بقماتها الضخمة المشحمة بالسواد ووجهها الابيض الذي يحال وجه الموتى وقد علاه قناع أسود من عينيها فأحسنت وكأني أمثل أمام شبح مخيف . وقفت غير بعيد مني ثم خاطبتني قائلة :

« هل أردت مقابلة السنيور ديوداتي ؟ »

« نعم »

« لقد قبض عليه » .

ولم أفهم ماذا قالت في اول الامر . فقد خيل لي لسبب لا أدريه ان هناك صلة ما بين القبض عليه وجريمة سونزونيو . فتلعثمت قائلة - « قبض عليه ! ولكنه لا صلة له بما حدث » .

فقلت - « اني لا أدري شيئا مما حدث - كل ما اعلمه أنهم جاءوا هنا وفتشوا المنزل ثم قبضوا عليه »

وفهمت من تعبير وجهها الذي ينبىء بالنفور أنها لن تخبرني بشيء

ولكنني لم اتمالك نفسي من أن أسألها قائلة - « ولكن لماذا ؟ »

« لقد قلت لك ياسيدتي انني لا أدري شيئا » .

« الى اين اقتادوه ؟ »

« اني لا أدري شيئا » .

« ولكن أخبريني على الاقل ان كان قد ترك لي رسالة ما »

وعندئذ لم تحر جوابا بل ستدارت بعيدا في جلال متصلب مستاء

ثم صاحت قائلة - « ديوميرا ! »

فعدت الخادمة النصف ذات النظرة المدعورة الى الظهور من

جديد .

وأشارت سيدتها الى الباب قائلة وهي ترفع الستارة وتستدير

لتذهب - « أخرجي الانسة الصغيرة » . ثم عادت الستارة الى مكانها

المعهود .

ولم أدرك أن القبض على مينو وجريمة سونزونيو واقعتان منفصلتان

لا صلة بينهما الا بعد أن هبطت الدرج وخرجت الى الطريق . وكان

خوفي في الواقع هو الحلقة الوحيدة التي تربط بينهما . وبدأ لي ذلك

السير غير المتوقع من الكوارث دليلا على سخاء القدر الذي انشد

يفدق على كل هباته الفاجعة في وقت واحد تماما كما تنضج معا في

الموسم الجيد شتى أنواع الفاكهة . فلا شك ان المتاعب لا تأتي فرادي

كما نقول المثل . لم أفكر في ذلك بقدر ما أحسست به وأنا أسير من

شارع الى شارع وقد انحنى رأسي وكتفائي وكأني أسير تحت وابل
من البرد الواسع . ومن الطبيعي أن أستاريتا كان أول شخص فكرت في اللجوء إليه .
وكنت احفظ رقم تليفون مكتبه عن ظهر قلب . فدخلت أول مقهى
صادفني في الطريق حيث اتصلت به . لم يكن رقمه مشغولاً
ولكنني لم أتلق جواباً . وبعد أن أدت الرقم عدة مرات اقتنعت في
النهاية بأن أستاريتا لم يكن في مكتبه . فلاريب أنه خرج لتناول العشاء
وسوف يعود بعد قليل . كنت أعلم كل ذلك ولكن الأمل داودني في
العثور عليه في مكتبه حينذاك كاستثناء من القاعدة .

تطلعت ببصري الى احدى الساعات فوجدتها تشير الى الثامنة
مساءً . وكنت أعلم أن أستاريتا لن يعود الى مكتبه قبل العاشرة .
فتوقفت عند ناصية في الطريق وقد امتد أمامي سطح جسر مقوس
يتدفق فوقه سيل لا ينقطع من المشاة الذين كانوا يسرون أحادي
أو في جماعات وهم يندفعون نحوي في غموض مهولين كأنهم أوراق
ذابلة تدفعها ريح لا تهدأ . أما صفوف المنازل فيما وراء الجسر فكانت
توحى بالهدوء والطمأنينة بكل ما فيها من نوافذ مضاءة وأناس
يروحون ويفدون بين الموائد وقطع الاثاث الأخرى . وخطر لي انني
لم اكن على مسافة بعيدة من مركز الشرطة الرئيسي حيث خيل لي أن
مينو لا بد أن يكون قد اقتيد اليه . ومع انني كنت أعلم انها محاولة
بائسة فقد قررت أن اذهب رأساً الى هناك لاسأل عن أخباره . وكنت
أعلم مقدماً انني لن أصل الى شيء ولكن ذلك لم يكن يهمني . فقد
أردت أن احس انني أفعل شيئاً من أجله .

فاتخذت طريقى في الشوارع الجانبية وسرت بمحاذاة الجدران حتى
بلغت مركز الشرطة فارتقيت الدرج ودخلت . فاذا بشرطى يجلس
متكئاً الى الخلف في مقعده بفرقة البواب وهو يقرأ جريدة واضعاً
قدميه على مقعد آخر وقلنسوته على المنضدة يسألني عن وجهتي .
فأجبت قائلاً - « مكتب الاجانب » وكان ذلك هو أحد الاقسام
العديدة في مركز الشرطة وقد سمعت أستاريتا يشير اليه في احدى

المناسبات ولا اذكر ماذا دعاه الى ذلك .
كنت لا أدري الى أين أتوجه . ولكنني أخذت أصعد الدرج القدر
ذا الاضاءة الخافتة بلا هدف معين . ولم أفتأ اصطدم بالكتابة أو برجال
الشرطة في زيهم الرسمي وهم يصعدون الدرج أو يهبطونه وقد امتلات
أيديهم بالاوراق ولكنني ظللت أصعد حانية الرأس في محاذاة الجدران

حيث يتكاثف الظلام . وكنت المح عند كل بسطة في الدرج دهاليز خفيضة قدرة مظلمة يروح فيها الناس ويفدون بينما اضيئت الغرف جنبها اضاءة خافتة وفتحت ابوابها . وبدأ مركز الشرطة وكأنه خاية نحل مزدحمة لا تنقطع فيها الحركة ولكن النحل الذي يسكنها كان بلا شك يتجنب الزهور اذ ان عسله الذي كنت اذوقه لأول مره في حياتي كان اسود زنخا شديد المرارة . وعندما بلغت الطابق الثالث كان يأسى قد بلغ منتهاه فوق اجتيازى جزافا على احد الدهاليز حيث لم ينظر الى احد أو يعبا بى مخلوق . وكانت الابواب التى فتح معظمها تتابع على جانبي الدهليز بابا وراء باب . وفي مداخلها يجلس رجال الشرطة في زيهم الرسمي على مقاعد خيزرانية وهم يدخنون ويثرثرون . اما منظر كل غرفة من الداخل فلم يكن يتغير أبدا - فالارفف المحملة بالملفات يعلو بعضها البعض والمنضدة يجلس خلفها الشرطى وييده القلم . ولم يكن الدهليز مستقيما بل منحنيا حتى اننى لم البث ان ضللت طريقي . فقد كان الدهليز يفضى من آن لآخر الى دهليز ثان منخفض مما يضطرنى الى الهبوط ثلاث أو أربع درجات - أو يتقاطع مع دهاليز اخرى تشبهه في كل معالمها . فى أضوائها وصفوف ابوابها المفتوحة وكذلك رجال الشرطة الجالسين فى المداخل . وأحسست بالحيرة . اذ خيل لى فى لحظة من اللحظات اننى اتعقب خطواتى واننى أسير فى دهليز سبق أن عبرته قبل ذلك . ومر بى رسول ماكدت أسأله عن رئيس الشرطة حتى اشار الى دهليز مظلم قريب يقع بين بابين دون أن يتكلم ، فاتجهت نحوه وهبطت أربع درجات ثم دخلت دهليزا صغيرا خفيضا ضيقا للغاية . وفى نفس اللحظة فتح باب فى نهايته حيث كان ذلك الدهليز الشبيه بالامعاء يصنع زاوية قائمة ثم خرج منه رجلان أخذا يسيران بعيدا عنى تجاه الزاوية . وكان أحدهما يمسك بالآخرى من معصمه وخيل لى لحظة انه مينو . فصحت قائلة - « مينو ! » ثم اندفعت الى الامام نحوهما .

ولكننى لم أنجح فى اللحاق بهما لان شخصا ما أمسك بذراعى . فاذا به شرطى صغير السن ذو وجه اسمر نحيل . وكانت كتلة شعره الاسود المجدد تلوها قنسيوة امالها جانبا . وسألنى قائلا - « من تريدان ؟ وعمن تبحثين ؟ » واستدار الرجلان لصيحتى فتبين لى اننى اخطأت . ولهتت قائلة - « لقد قبضوا على صديقى . فأردت أن أعلم ما اذا كانوا قد

اقتادوه الى هنا » .

فيسألني الشرطي قائلا دون أن يدخل سبيلي متخذا مظهر السلطة المطلقه - « ما اسمه ؟ »

- « جياكومو ديوداتي »

- « وما عمله ؟ »

- « انه طالب » .

- « ومتى قبض عليه ؟ »

وفجأة أدركت أنه كان يسألني بهذه الطريقة ليضفي على نفسه مظهر الاهمية في حين أنه كان لا يعلم شيئا .

فأجبت قائلة في غضب - « أخبرني أين هو ولا تكثر من الاسئلة . »

كنا وحدنا في الدهليز . فنظر حوله ثم دنا مني هامسا بلهجة

حمقاء - « سننظر في امر الطالب - ولكن فلتمنحيني الآن قبلة . »

فصحت قائلة في غضب - « دعني اذهب ! ولا تضيع

وقتي ! » ثم دفعته بعيدا عني وانطلقت أجرى حتى دخلت دهليزا

آخر . وهناك رأيت بابا مفتوحا ووراء الباب غرفة أكبر من الاخريات .

وكان في نهايتها مكتب يجلس اليه رجل . فدخلت الغرفة قائلة دون أن

أتوقف لالتقط أنفاسي - « أريد أن أعلم أين اقتيد الطالب ديوداتي -

لقد قبض عليه هذا المساء . »

فرفع الرجل عينيه عن مكتبه حيث وضعت أمامه جريدة « مفتوحة»

ثم نظر الى في دهشة قائلا - « تريدان ان تعلمي . »

- « نعم - أين اقتيد الطالب ديوداتي الذي قبض عليه هذا المساء . »

- « ولكن من أنت ؟ ومن الذي سمح لك بالدخول ؟ »

- « ليس هذا من شأنك - أخبرني فقط أين هو . »

فصاح قائلا وهو يطرق المنضدة بقبضته - « من أنت ؟ وكيف

تجسرين ؟ أتدرين أين تقفين ؟ »

وفجأة أدركت أنني لن أعرف شيئا وانني في خطر من أن يقبض

على أنا نفسي وعندئذ لا يمكنني أن أتحدث الى أستاريتا فيظل مينو

مقبوضا عليه ولا يدخل سبيله .

فقلت منسحبا - « لا يهم . فقد أخطأت - وأرجو عفوكم . »

ولكن اعتذاراتي اثارت غضبه أكثر من أسئلتى التي سبقتها .

وكنت الآن قريبة من الباب . فصاح قائلا وهو يشير الى لافتة علقت

فوق رأسه . « عليك أن تؤدي التحية الفاشية عند دخولك هذه

الغرفة أو خروجك منها . » فأومأت برأسي وكأني أوافقه - حقا ان

التحية الفاشية ينبغي أن تؤدي عند دخول الغرفة والخروج منها . ثم غادرت الغرفة منسجحة إلى الخلف . وعبرت الدهليز بطوله كاملاً ثم سرت عننا وهناك بعض الوقت . وما أن عثرت على الدرج صدفه حتى أسرع بالهبوط . فمررت بغرفة البواب ثم خرجت إلى الطريق من جديد .

ولم تتمكن من زيارة إلى مركز الشرطة عن شيء سوى أنها ساعدت على مضي الوقت . وقدرت أنني لو سرت في بطن شديد تجاه وزارة أستاريتا فان ذلك يستغرق ثلاثة أرباع الساعة أو ربما ساعة بأكملها وعندما أصل إلى هناك يمكنني أن أجلس في أحد المقاهي القريبة من الوزارة حيث اتصل تليفونيا بأستاريتا بعد حوالي عشرين دقيقة آمله أن أجده هناك .

وفيما أنا سائرة في طريقي خطر لي ان القبض على مينو ربما كان نوعاً من الانتقام من جانب أستاريتا . فقد كان يشغل منصباً هاماً في قوة الشرطة السياسية التي إلتقت القبض على مينو . فمن الواضح انهم كانوا يراقبون مينو بلا ريب منذ بعض الوقت وكانوا على علم بعلاقتي به . ومن المرجح أن يكون أستاريتا قد اطلع على أوراقه وأصدر أمره بالقبض على مينو بدافع من الغيرة . وما أن خطر لي ذلك حتى اجتأحتني نوع من الغضب الشديد على أستاريتا . كنت أعلم أنه مازال يجنني وأحسست أنني قادرة تماماً على أن أقضي منه ثمناً بأهظاً مريراً جزاء فعلته القاسية إذا ما صحت ظنوني . ولكن خطر لي في نفس الوقت أن الامر ربما لم يكن كذلك وأنني كنت أتأهب بأسلحتي الضعيفة لمحاربة عدو خفي عديم الملامح وأن خواصه لا يتصف بها رجل حساس تسلطت عليه عواطفه بقدر ما يتصف بها جهاز بارع .

وعندما بلغت الوزارة عدلت عن فكرة الجلوس في مقهى واتجهت رأساً إلى التليفون . وعندئذ ما كاد الجرس يدق حتى رفع «السماعة» شخص ما وإذا بصوت أستاريتا هو الذي يرد على .
فقلت في اندفاع - « أنا أدريانا . أبغى مقابلتك . »
- « توا ؟ »

- « نعم . في التليفون . فالامر عاجل . أنا هنا خارج الوزارة . »
فسكت لحظة ليفكر ثم سمح لي بالتهاب لمقابلته . وكانت تلك هي المرة الثانية التي أصعد فيها درج وزارة أستاريتا . ولكن لشدة ما اختلفت حالتي النفسية عنها في أول مرة . فقد كنت أخشى في أول مرة أن يبتزني أستاريتا وأن يحبط زواجي بجينو . كنت أخشى ذلك

www.Librarary4arab.com/vb
التهديد الضامن الذي يحس به جميع القراء مسلطاً على روايتهم في كل ما يتعلق بالشرطة . ولقد ذهبت الى هناك بقلب خافق وروح وجلة هيبانة . أما الآن فقد وجدتني على العكس من ذلك في حالة نفسية عدوانية وفي نيتي أن أبتز أستاريتا بدوري عاقدة العزم على استخدام كل ما أملك من وسائل للافراج عن مينو ولكن تلك الحالة النفسية العدوانية لا يمكن أن يكون مرجعها حبي لمينو فحسب . بل كان احتقاري أستاريتا ووزارته وشئون السياسة ومينو نفسه من حيث اهتمامه بالسياسة بالذات من بين أسبابها أيضا الى حد ما . كنت لا أدرك شيئا من أمور السياسة . ولعل جهلي بالذات هو الذي جعل السياسة تبدو أمرا تافها مثيرا للسخرية اذا ما قورنت بحبي لمينو . وتذكرت كيف كان أستاريتا يرتج عليه ويتعثر لسانه كلما رآني أو حتى سمع صوتي . وخالجني الرضا عن نفسي لاقتناعي بأن لسانه لم يكن يتعثر عند ما يواجه رؤساءه أو حتى موسولينى نفسه . أخذت تلك الخواطر تدور بذهني وأنا أهروول خلال الدهاليز الضخمة في الوزارة . ولاحظت أنني كنت أنظر باحتقار الى كل من صادفني في طريقى من الكتبة . وتاقت نفسي الى أن أخطف تلك الملفات التي كانوا يحملونها وألقيها بعيدا وأن أبعثر جميع اوراقها المملوءة بالمظالم والمحظورات لتدروها الرياح . قلت في غطرسة للحاجب الذي أقبل نحوى في غرفة الانتظار - « يجب أن أتحدث فورا الى الدكتور أستاريتا - فانى على موعد معه ولا يمكننى الانتظار . » فنظر الى فى دهشة ولكنه لم يجرؤ على الاحتجاج بل ذهب ليعلن حضورى .

وما ان رآني أستاريتا حتى هروول نحوى وقبل يدي ثم قادنى الى أريكة فى نهاية الغرفة . وكان قد حيانى بنفس الطريقة أيضا فى أول مرة . فخيل لى أن ذلك هو مسلكه نحو جميع النساء اللائى يزرنه فى مكتبه . وكبحت جماح الغضب الذي أحسست به يتأجج فى نفسى . ثم قلت - « أنصت الى - ان كنت قد أمرت بالقبض على مينو فمر باخلاء سبيله فى الحال . والا فلن ترى وجهى مرة أخرى . »

www.Librarary4arab.com/vb
فارتسم على وجهه تعبير ينبئ بالدهشة العميقة وقد خالطها خاطر بعض طارىء . فأدركت أنه لم يكن يدري شيئا عن الموضوع بأسره . اذ تلعثم قائلا - « مهلا . مهلا . من تقصدين بحق الشيطان !؟ من هو مينو هذا ؟ »

فقلت - « خلتك على علم بما حدث . » ثم رويت له فى ايجاز بقدر امكانى قصة حبي لمينو بأسرها وكيف ألقى عليه القبض ذلك المساء .

والاحباط تغير لونه عندما كاشفوه بحبي لمينو ولكنني آثرت ان اصارحه
بالحقيقة لانني كنت اخشى ان اضر مينو بكذبي فحسب بل لانني كنت
اتوق الى اعلان حبي لمينو على العالم اجمع . وما ان اكتشفت ان
آستاريتا لم تكن له يد في القبض على مينو حتى هدا ذلك الفضب
الذي ظل يدفعني حتى تلك اللحظة وعاودني احساسى بالضعف
الشديد والتجرد من كل سلاح . ولهذا السبب بدأت اروي قصتي
بصوت ثابت منفعل وانتهيت منها وانا على وشك البكاء . بل كانت
عيناي في الواقع تفيضان بالدموع . وقلت في ألم شديد - « لست
أدرى ماذا يفعلون له . فهو يقول انهم يضربونهم » .
فقاطعتني آستاريتا في الحال قائلا - « لا تنزعجى . فهذا اذا
كان عاملا - أما وهو طالب - »

فصحت قائلة في لهجة باكية « ولكننى لا أريده ان يودع السجن ! »
ثم خيم علينا الصمت . وحاولت ان أسيطر على عاطفتى بينما كان
آستاريتا ينظر الى . وقد بدأ لاول مرة محجما عن أداء صنيع أطلبه
اليه . ولكن لا ريب ان احجامة عن ارضائى كان مرجعه الى حد ماخية
امله لاكتشافه اننى أهوى رجلا آخر . فقلت وانا أضع يدي عليه -
« انى أعدك لو أخليت سبيله ان أفعل كل ما تريد . »
وما ان نظر الى مترددا حتى انحنيت الى الامام مقدمة له شفتى رغم
كرهى لذلك قائلة - « حسنا . هل أديت لى هذا الصنيع ؟ »

فحملق فى بينما يصطرع فى نفسه الاغراء بتقبيلى واحساسه بمهانة
القبلة المقدمة اليه كرشوة فحسب من وجه تلوثة الدموع . ثم دفعنى
بعيدا وقفز واقفا على قدميه طالبا الى الانتظار ثم أختفى من الغرفة .
وعندئذ تأكدت ان آستاريتا سوف يخلى سبيل مينو . فلشدة
جهلى بهذه الامور تخيلت آستاريتا وهو يخاطب بالتليفون احد الحراس
الاذلاء بلهجة غاضبة أمرا اياه بالافراج فورا عن جياكومو ديوداتى .
فأخذت أحصى الدقائق فى ضجر وما ان ظهر آستاريتا حتى نهضت
واقفة على قدمى معتقدة انى سأشكره ثم أهرع للقاء مينو .

ولكن اذا بوجد آستاريتا يعمل تعبيرا بغيضا فريدا فى نوعه كان
خليطا من خيبة الأمل والظنن الحقول . ثم قال فى ايجاز - « ماذا
تعنين بقولك انه قبض عليه ؟ لقد أطلق النار على الشرطة ثم ولى
هاربا - كما ان أحد رجال الشرطة قد نقل الى المستشفى وهو يلفظ
أنفاسه الاخيرة . ولو قبضوا عليه الان وهذا أمر مؤكد فلن يسعنى
ان أفعل شيئا » .

وقفت هناك وأنا أشهق من الدهشة . وتذكرت أنني أفرغت
السدى من الرصاص . ولكنه بالطبع ربما حشاه مرة أخرى دون
علمي . وإذا بي بعد أن عاودت التفكير في الأمر أحس بالفرحة تملأ
جوانحي . وقد أدركت في الحال أن تلك الفرحة مرجعها عواطف
متباينة . فكانت هناك الفرحة لعلمي بأن مينو حر طليق . وكذلك
الفرحة لعلمي بأنه قتل الشرطي وهو عمل ماكنت أحسبه قادرا عليه
مما جعلني أغير رأيي الذي كونته عنه حتى تلك اللحظة تغيرا
عميقا . وعجبت لتلك القوة العدوانية الملحة التي صفق لها قلبي
اعجابا بسلوك مينو المتهور بينما عهدته يأبى جميع أشكال العنف
ويستنكرها . كان شعوري في الواقع لا يختلف عما أحسست به من
متعة لا تقاوم وأنا أتمثل في ذهني جريمة سونزونيو ولكن متعتي في
هذه المرة كان يصاحبها نوع من التبرير الأدبي . ثم أخذت أتخيل
كيف أنني لن ألبث أن أكتشف مخبأه وكيف أننا سنهرب معا
ونختفي . بل ربما سافرنا الى الخارج حيث كان اللاجئون السياسيون
يلقون ترحيبا كما كنت أعلم . وامتلا قلبي بالأمل . كما خيل لي أنني
ربما كنت حقا على أبواب حياة جديدة . وقلت لنفسي أنني مدينة
لمينو وشجاعته بذلك التجديد في حياتي . فامتلات نفسي بالعرفان
والحب له . وفي تلك الاثناء كان أستاريتا يذرع الغرفة في غضب
شديد متوقفا من أن لآخر لا لسبب الا ليحرك شيئا على مكتبه .

قلت في هدوء - « من الواضح أنه استجمع شجاعته بعد القبض
عليه فأطلق النار ثم ولى هاربا » .

فوقف أستاريتا ساكنا وهو ينظر الى مصعرا وجهه على صورة
قبيحة ثم قال - « أنت فرحة . اليس كذلك ؟ »

فقلت في اخلاص - « لقد كان محقا في قتل الشرطي . اذ انه كان
يحاول اقتياده الى السجن - ولو كنت في مكانه لحدوت حدوه » .

فأجابني قائلا بلهجة بغيضة - « لا صلة لي بالسياسة . أما
الشرطي فكان يؤدي واجبه فحسب . انه متزوج وله أطفال . »

فأجبت قائلة - « اذا كان مينو يشتغل بالسياسة فلاريب أن لديه
أسبابا قوية . أما الشرطي فكان في إمكانه أن يحرم أن الانسان يقدم

على ارتكاب أي عمل قبل أن يسلم نفسه للسجن مختارا . وبئس
ما يفعل ... »

وأحسست بالطمأنينة في قلبي عندما خيل لي أنني أرى مينو وهو
يسير في شوارع المدينة حرا طليقا . وأخذت أستمتع مقدما باللحظة

التي استدعيني فيها من مخبئه فأراه مرة أخرى . وبدأ لي ان
آستاريتا عندما لاحظ هدوئي فقد كل سيطرة على نفسه وصاح
قائلا - « ولكننا سنعثر عليه . أتخسبينا لان استطاع ذلك ؟ »
- « لا أدري شيئا عن هذا . ولكنني فرحة بهروبه . هذا هو كل
ما هنالك . »

- « أنا سنعثر عليه وعندئذ يمكنه ان يتأكد انه لن يفلت من يد
العدالة بمثل هذه السهولة » .
وبعد لحظة سألته قائلة - « أعلم لماذا أنت غاضب الى هذا
الحد ؟ »

- « أنا لست غاضبا على الاطلاق » .

- « لانك كنت تتمنى لو قبض عليه حتى يمكنك ان تستعرض
مروءتك نحوى ونحوه - ولكنه أفلت من أيديكم . هذا هو ما يفضبك »

ثم رأته يهز كتفيه في غضب . ودق جرس التليفون فرفع
آستاريتا السماعه وقد بدا عليه الارتياح كمن وفق الى عذر يتخلص
به من نقاش محرج . وما ان بلغت سمعه الكلمات الاولى من الحديث
التليفوني حتى تغير تعبير وجهه فحل الصفاء محل الضيق المتجهم
كما يضيء المنظر الطبيعي تدريجيا في يوم عاصف شعاع مفاجيء من
ضوء الشمس المشرقة . وفسرت ذلك على أنه نذير سيء دون أن
أعرف لذلك سببا .

وقد طال الحديث ولكن آستاريتا لم يزد قط على قوله « نعم »
أو « لا » حتى لا يمكنني ان أعرف موضوع الحديث . ثم قال وهو
يعيد السماعه الى مكانها - « اني آسف من أجلك . فان البلاغ الاول
الخاص بالقبض على الطالب كان خطأ . فقد ارسل المركز الرئيسي
للشرطة رجاله الى منزله ومنزلك حتى يتأكدوا تماما من العثور عليه
وقد قبضوا عليه فعلا في منزل الارملة حيث يستأجر احدي الغرف .
ولكنهم عثروا على شخص آخر في شقتك وكان رجلا أشقر قصير
القامة ذا لهجة شمالية ما ان طلبوا اليه اطلاعهم على أوراقه حتى
أطلق النار عليهم ثم ولى هاربا . فمن الواضح انه شخص بينه وبين

الشرطة حساب عليه أن يسويه » .
وأحسست اني على وشك الأغماء . أذن فمينو رهين السجن
وسونزونيو مقتنع بأنى وشيت به . فذلك هو ما يتبادر الى الذهن
ازاء اختفائي ثم وصول الشرطة فورا بعد ذلك . كان مينو في السجن
وسونزونيو يبحث عنى ليثار منى . لشد ما انتابني الدهول حتى

الله لم يسعني إلا أن أتمم قاتلة - « ياويلاه! ياويلاه! » وأنا أتجه نحو الباب .

لازيب أن وجهي قد عراه شحوب شديد إذ اختفت في الحال نظرة الرضا الظاهره الحزينه من وجه أستاريتا ثم أقبل نحوي قائلاً في قلق - « اجلسي . ولنتحدث في الأمر . فكل شيء يمكن علاجه » . فهزرت رأسي ومددت يدي نحو الباب . ولكن أستاريتا وففني قائلاً في لعثمة - « أنصتي الي . اعدك بأن أبذل كل ما في وسعي - فستجوبه أنا نفسي - فاذا لم يكن هناك شيء خطير أطلقت سراحه في أقرب وقت ممكن . أهذا يرضيك ؟ »

فقلت في ذهول - « نعم يرضيني . » ثم أضفت قائلة في مشقة - « أنت تعلم أن كل ماتفعله يقابل بالعرفان . »

وقد أدركت الآن أن أستاريتا في الحقيقة لن يألو جهداً للافراج عن مينو كما قال . ولم تكن لي سوى رغبة واحدة - هي أن أذهب بعيداً وأن أترك هذه الوزارة الرهيبة في أقرب وقت ممكن . ولكنه عاد يخاطبني بلهجة مهنية تعبر عن قلقه - « وبهذه المناسبة - ان كان هناك ما يدعوك إلى الخوف من ذلك الرجل الذي عثروا عليه في شقتك - فلتذكرى لي اسمه . فذلك سهل علينا مهمة القبض عليه » .

فقلت وأنا أهم بالانصراف - « ولكني لا أعرف اسمه » . فألح قائلاً - « على أية حال يحسن بك أن تذهبي من تلقاء نفسك إلى مأمور الشرطة لتخبريه بما تعلمين - وسوف يطلبون اليك أن تضعي نفسك تحت تصرفهم ثم يخلون سبيلك . أما إذا لم تذهبي فان ذلك يزيد الموقف سوءاً . »

فأجبتته بأنني سأذهب ثم ودعته وانصرفت . ولم يفلق الباب في الحال بل وقف يراقبني من المدخل وأنا أعبر غرفة الانتظار .

الفصل التاسع

وما كدت أغادر مبنى الوزارة حتى هرولت مسرعة الى اقرب ميدان وكأني اولى هاربة . ولم أدرك اننى لا أعرف لنفسي وجهة الا بعد أن بلغت وسط الميدان حيث أخذت أتساءل عن المكان الذى يمكننى أن آوى اليه . فكرت أول الامر فى جيزيلا ولكن منزلها كان بعيدا ولم تعد ساقاي تقويان على حملنى من شدة الارهاق . ومن ناحية أخرى فاننى لم أكن واثقة بترحيب جيزيلا بى ورغبتها فى ايوائى . فلم يبق أمامى حل آخر سوى زيلندا صاحبة المنزل التى سبق أن ذكرتها لأمى عند خروجى من الدار وذلك لقرب منزلها منى فضلا عن صداقتها لى . فاستقر رأبى على الذهاب اليها .

كانت زيلندا تقيم فى مبنى ضارب الى الصفرة وهو احد المباني العديدة المتشابهة التى تقع فى ميدان المحطة . وكان مما يميز ذلك المنزل الى جانب أشياء أخرى كثيرة أن درجه كان لايفتأ يغمره ظلام حالك حتى فى الصباح . فلم يكن به مصعد أو نوافذ مما يتعرض معه كل من يصعد الدرج فى ذلك الظلام الذى يوشك أن يكون تاما شاملا لان يصطدم بشبح شخص آخر يهبط الدرج وقد أمسك كلاهما بنفس السياج . وثمة رائحة طبخ كريهة دائمة كانت لاتفتأ تسمم الهواء . ولعلها أصناف تم طبخها منذ سنوات مضت بينما ظلت روائحها المختلفة تتحلل فى الهواء البارد الرطب . وبينما كنت أصعد الدرج الذى طالما ارتقيته من قبل وفى أعقابى عاشق يتحرق شوقا أخذت ساقاي ترتعشان . فلشد ما أثقل الحزن قلبى . وقلت لزيلندا التى جاءت تفتح الباب - « أريد غرفة ... أقضى فيها الليل » .

كانت زيلندا امرأة بدينة تبدو أكبر من سنها بسبب بدانتها مع انها ربما لم تكن تتجاوز منتصف العمر . إذ أنها على الرغم من بدانتها المفرطة ووجنتيها السقيمتين البقعواوين وعينيها الزرقاوين البليدتين الخابيتين وشعرها الأشقر النحيل الذى كان يرى دائما أشعث نائرا وقد تساقط فى صفائر صغيرة وكأنه مصنوع من نسالة الكتان فانها كانت لاتزال تحتفظ وخاصة فى ملامحها ببعض مظاهر

الفتنة الرقيقة تماما كبعض الاشعة الوانية التي تظل منعكسة على سطح المياه الساكنة فترة وجيزة بعد غروب الشمس قالت « لدى غرفة . هل أنت وحدك ؟ »

- « نعم وحدي » .

وما ان دلفت الى الداخل حتى اغلقت الباب . ثم سارت متعثرة امامى بهيكلها القصير الممتلىء العريض مرتدية عباءتها المنزلية القديمة وقد تدلت على كتفيها عقيصة شعرها التي اوشكت ان تنفرط على حين برزت منها مشابك الشعر جميعا . . كانت الشقة باردة مظلمة كالدرج . ولكن رائحتها تنبئ ببطعام طبخ حديثا مما يوحي بوجبة جديدة نظيفة كانت تعد آنذاك . قالت موضحة وهي تستدير نحوى مبتسمة - « كنت على وشك تناول العشاء » . وكانت تلك المرأة التي تؤجر الغرف بالساعة شغوبا بي ولا أدري لذلك سببا . فطالما كانت تستبقيني هناك بعد زيارتي المعهودة لتثرثر معى مقدمة الى الحلوى و « الليكير » . كانت عزبا ولعل احدا لم يقع قط في حبها لان بدانتها كانت منذ طفولتها سببا في تشويه جمالها - وكان مما يدل على عذريتها ما يعترها من حياء وارتباك وفضول عندما تسألنى عن علاقاتى بالرجال . ويخيل لى أنها مادامت لاتعرف الحسد أو الحقد فانها كانت تشعر بالحسرة في قلبها لانها لم تمارس قط ماكانت تعلم أنه يدور في غرفها . اما عملها كصاحبة نزل تؤجر غرفه بالساعة فلم يكن يرضى حاسة العمل التجارى عندها بقدر ارضائه رغبتها اللاواعية في تجنب الشعور باستبعادها تماما من فردوس الحب المحرم .

وكان هناك في نهاية الدهليز بابان اعرفهما جيدا . فتحت زيلندا الباب الايسر وتقدمتنى الى داخل الغرفة حيث اضاءت الثريا ذات الفروع الثلاثة بمصابيحها الزجاجية الشبيهة بزهر الخزامى ثم ذهبت لتغلق مصراعى النافذة . كانت غرفة واسعة نظيفة . ولكن بدا لى أن نظافتها كانت تلقى ضوءا قاسيا على اثاثها الرث من السجاجيد البالية بالقرب من الفراش والغطاء القطنى ذى الرتوق والمرابى البراقة والشظايا التي تعلو الابريق والطشت اقبلت نحوى ثم سألتنى قائلة وهي تنظر لى - « امريضة أنت ؟ »

- « بل في غاية الصحة » .

- « أذن فلم لاتنامين في شقتك ؟ »

- لا رغبة لى في ذلك » .

فقلت في حب وكأنها تعلم عنى كل شيء .. فلنر ان كنت استطيع
التكهن بما حدث . لقد خاب أملك - كنت تتوقعين شخصا ما فلم
يحضر . « ربما - » .

- « ولنر هل يصدق ظنى هذه المرة أيضا أم لا - انه ذلك الضابط
الشاب الاسمر الذى كان يرافك في آخر مرة » .

ولم تكن تلك أول مرة تسألنى فيها زيلندا أسئلة كهذه . فأجبتها
قائلة وأنا أكاد أغص من شدة الالم - « انك محقة تماما - ثم ماذا ؟ »

- « لاشيء - ولكننى أفهمك في الحال كما ترين ! فقد تكهنت
بما حدث على الفور . ولكنك لا يجب أن تنزعجى - فاذا كان قد
تخلف عن الحضور فلا بد أن هناك سببا منعه من ذلك - فان الجنود
لا يملكون وقتهم كما تعلمين - »

ولكننى لم أحر جوابا . فنظرت الى لحظة . ثم عادت تخاطبني
بصوتها المحب الحبي الملائف قائلة - « أترغبين فى تناول العشاء
معى ؟ فهناك طعام شهى » .

فأسرعت بإجابتها قائلة - « كلا . شكرا . فقد تناولت عشائى »
فعدت تنظر الى وهى تربت على وجنتى مداعبة . ثم قالت وقد
علا وجهها تعبير غامض يبعث الامل وكأنها عمه عجوز تخاطب فتى
صغيرا أو أحد أبناء اخوتها أو اخواتها . ثم سحبت من جيبها
مجموعة من المفاتيح واتجهت الى خزانة الملابس حيث فتحت أحد
الادراج مولية ظهرها نحوى .

وكنت قد فككت أزرار سترتى ثم اتكأت على المنضدة واضعة
احدى يدي على ردى بينما رحت أراقب زيلندا وهى تنبش قاع
الدرج . وتذكرت ان جيزيلا كثيرا ما كانت تأتى الى تلك الغرفة مع
اصدقائها من الرجال . كما تذكرت ان زيلندا لم تكن تحب جيزيلا .
أما أنا فكانت تحبنى لشخصى لا لانها تحب الناس جميعا . فأحسست
بالعزاء عندما خطر لى أن هناك شيئا آخر فى الوجود وأن العالم ليس
مقصورا على الشرطة والوزارات والسجون ومثل هذه الاشياء القاسية
التي لاتعرف الرحمة . وفى تلك الاثناء كانت زيلندا قد قرغت من
تفتيش الدرج فأغلقتة بعناية وأقبلت نحوى مرعدة :

- « هاك .. فانك بلاشك لن ترفض ذلك . » ثم وضعت شيئا
ما على مفرش المائدة . وعندما نظرت وجدت هناك خمس سجائر
من صنف جيد مذهبة الرؤوس وحفنة من الملابس الملفوف فى أوراق

ملونة وأربع ثمار صغيرة ملونة مصنوعة من عجينة اللوز . ثم سألتني
قائلة وهي ترتب على خدي مرة أخرى - (إيكيك هذا؟)

فتلعثمت قائلة في ارتباك - « هذا جميل . شكرا . . »

- « عفوا . عفوا - اذا احتجت الى شيء فماعليك الا ان تنادينى ولا تخافى »
وما ان خلوت الى نفسى مرة أخرى حتى احساست بوطاة البرودة
وانتابتنى حالة من التردد الشديد . كنت لا أشعر بالنعاس ولم أشأ
ان أذهب الى الفراش . ولكن لم يكن هناك بد من ذلك فى تلك الغرفة
الباردة التى خيل لى أن برودة الشتاء ظلت محفوظة فيها سنوات
عدة كما هى الحال فى الكنائس والاقبية . ولم يكن على أن أواجه تلك
المشكلة فى المناسبات الأخرى التى كنت أقصد فيها ذلك المكان فلم
يكن هناك ما نتوق اليه أنا ورفيقي سوى أن نتدثر بالملاء حيث يدفىء
كلانا الأخر . ومع اننى لم أكن أشعر بالحج نحو عشاقى من لقطاء
الطريق فقد كانت العملية الجنسية ذاتها نستغرق انتباهى ويفشائى
سحرها . أما الآن فقد بدا لى من غير المصدق أن أكون قد ضاجعت
وضوجعت وسط ذلك الاثاث القذر وفى مثل ذلك الجو المورور .
فلاريب أن حرارة حواسنا أنا ورفاقي كانت فى كل مرة تخلق لنا جوا
من الوهم يضى على تلك الاشياء الغريبة المثيرة للسخرية ألفة
وجمالا . وخطر لى ان حياتى ستكون كهذه الغرفة تماما اذا ما قدر
لى الا ارى مينو مرة أخرى . فلو اننى نظرت الى حياتى نظرة
موضوعية بعيدة عن الاوهام لوجدتها فى الواقع خالية من كل جمال
او الفة ولوجدت أن قوامها أشياء باردة قبيحة بالية كغرفة زيلندا .
فسرت الرجفة فى بدنى وبدأت أخلع ثيابى فى بطف .

كانت الملاء مثلجة كما بدت مبتلة من أثر الرطوبة . وخيل لى
عندما تمددت فى الفراش اننى اطبع صورة جسدى على صلصال
مبلل . وظللت مستغرقة فى التفكير فترة طويلة بينما أخذ الدفاء
يشيع فى الملاء رويدا . فقد انطلق ذهنى فى طريق جانبى يفكر فى
سونزونيو ويحلل دوافع ذلك الموضوع الغامض بأسره وما ترتب عليه
من نتائج . فلاشك أن سونزونيو يعتقد الآن اننى وشيت به وكانت

الشواهد كلها تدلنى . ولكن هل هى الشواهد تحسب ؟ وتذكرت
عبارته حين قال - « يراودنى شعور غريب بأن هناك من يتبعنى . »
وتساءلت عما اذا كان القس قد باح بالسر رغم كل شيء . فعلى
الرغم من ان ذلك كان يبدو أمرا بعيد الاحتمال فانه لم يظهر حتى
الآن ماينقضه .

وبينما كنت لا أزال أفكر في سونزونيو بدأت أتخيل ما حدث في المنزل بعد خروجي . فتخيلت سونزونيو جالسا في انتظار عودتي الى ان نفذ صبره فارندى ملامسه ثم تحيات دخول الشرطيين عليه وشهره مسدسه ثم اطلاقه اياه دون انذار وفراره . وقد بعثت في نفسي تلك الصور الخيالية لما حدث احساسا غامضا باللذة التي لاتعرف الشبع كذلك الاحساس الذي راودني عندما استعدت في ذهني جريمة سونزونيو . لم أفتأ استعرض في ذهني مشهد اطلاق النار متريثة في شغف لا تأمل جميع التفاصيل ولا شك انني في أثناء الصراع بين سونزونيو ورجال الشرطة كنت منحازة قلبا وقالبا الى جانب سونزونيو . فأخذت ارتجف من الفرح عندما رأيت الشرطي الجريح يسقط على الارض وتنفست الصعداء عندما هرب سونزونيو ثم تابعتة في قلق وهو يهبط الدرج . ولم أسترد هدوئي الا بعد أن رأيتة يختفي في ظلام الشارع الرئيسي البعيد - وأخيرا سئمت ذلك النوع من السينما الذهنية فأطفت الضوء .

وقد سبق أن لاحظت في مناسبات أخرى ان الفراش كان يستند برأسه الى باب يفضي الى الغرفة المجاورة . فماكدت أطفئ الضوء حتى لاحظت أن مصراعي الباب لا يلتئمان تماما وأن شعاعا من الضوء كان ينفذ من خلال الفرجة . فنهضت قليلا معتمدة على الوسائد بمرفقي وأخرجت رأسي من بين الزخارف الحديدية القائمة في آخر الفراش حيث اختلست النظر من خلال الشق . لم أفعل ذلك بدافع من الفضول فقد كنت على علم بما سأراه وأسمعه من خلال الشق . ولكنني كنت أخشى خواطري ووحدتي ودفعتني خوفا الى أن أنشد الصحبة في الغرفة المجاورة حتى ولو كنت لا أستطيع ذلك الا باستراق السمع . غير أنني ظللت أنظر بعض الوقت دون أن أرى أحدا - فقد كانت هناك منضدة مستديرة أمام شق الباب حيث كان الضوء ينصب من الثريا . كما لمحت فيما وراء المنضدة مرآة صوان للملابس كانت تلمع في الظلام العميق . ولكنني سمعت أصواتا - ذلك الحديث المعهود الذي لشد ما كان مألوفا لدى عن مسقط الرأس والعمر والاسم . وكان صوت المرأة هادئا متحفظا . أما صوت الرجل فكان مجلا مضطربا . وكانا يتبادلان الحديث في إحدى روايات الغرفة ولعلهما كانا في الفراش . وبدأت أحس بالم حاد في عنقي من جراء حملتي الطويلة دون أن أرى شيئا وكنت على وشك أن أشيح برأسي بعيدا عندما ظهرت المرأة أمام المرآة المعتمة فيما وراء المنضدة

وقد أولننى ظهرها . كانت تقف منتصبه القامة وهى عارية ولكننى لم أستطع أن أرى من جسدها سوى ذلك الجزء الذى يبدأ من الخصر حتى الرأس وذلك لأن المتصدة كانت تعترض مجال بصرى . كانت بلا ريب صغيرة السن للغاية . وقد بدا ظهرها تحت كتلة شعرها المجعد نحىلا يابساً قبيحاً ينم بياضه عن الضعف الشديد . ولعلها كانت دون العشرين من عمرها ولكن رخاوة صدرها وترهله كانا ينبئان بأنها ربما كانت أما بالفعل . وخطر لى أنها لابد أن تكون من بين أولئك الفتيات الصغيرات الجائعات اللائى يتسكنن حول الفياض على مقربة من المحطة وهن حاسرات الأذرع والرءوس فى معظم الأحيان وقد ساء طلاء وجوههن ورثت ثيابهن واندرست أقدامهن فى احذية اسفينية ضخمة . وخطر لى انها لا ريب تكشف عن لثاتها عندما تضحك . مرت بذهنى كل هذه الاشياء فى تلقائية تامة وبلا تفكير لان منظر ذلك الظهر العارى التعس كان يخفف عنى فأحسست انى أحبها وأدرك ادراكاً تاماً ماكان يخالجها فى تلك اللحظة من مشاعر وهى تتأمل صورتها فى المرآة . ولكن صوت الرجل انبعث قائلاً فى خشونة - « ماذا تفعلين بحق السماء ؟ » فتركت المرآة . ورايتها لحظة فى وضع جانبي وقد انحنى كتفاها وضمر صدرها تماماً كما تخيلتها . ثم اختفت عن بصرى ولم يلبث الضوء أن انطفأ بعد ذلك بلحظة واحدة .

وانطفأ أيضاً ذلك الحب الغامض الذى أحسست به نحوها اثناء مشاهدتها ووجدتنى مرة أخرى وحيدة فى ذلك الفراش الكبير البارد وقد غمرنى ظلام احتوى فى طياته تلك الاشياء الباردة البالية . ومرت بذهنى صورة هذين الشخصين الراقدين فى الناحية الاخرى من الحائط . فتخيلت انهما لن يلبثا أن يناما معا بعد فترة وجيزة . وان الفتاة سترقد ملتصقة بظهر رفيقها وقد وضعت ذقنها على كتفه وتشابكت ساقاها بساقيه واحاطت ذراعها بخصره واستقرت يدها على حقوه بينما امتدت أصابعها عبر بطنه فى استرخاء - كالجذور التى تنشد الغذاء فى أعماق الارض - وفجأة راودنى شعور بأنى كنت كالنبات الذى اقتلع من تربته وألقى به على أحد أحجار الرصيف المساء ليدوى ويموت . وانتقدت مينور . وكنت اذا مدت يدي أحس بفراغ كبير خاو متجمد يحيط بى من جميع الجهات وانا أرقد منكشمة هناك فى وسط الفراش بلا صحبة أو حماية . ولشد ما كان حنينى الى عناقه حاداً مؤلماً . ولكنه لم يكن هناك . فراودنى

احساس الزوجة التي أرملت . وبدأت أبكى وذراعى ممتدة تحت
الملاء كأنى أضمه الى . وأخيراً لا أدري كيف استفرقت في النوم .
كان نومي دائماً هادئاً وعميقاً يشبه الشهية التي يسهل اشباعها
دون جهد خاص . لذا كادت تنتابنى الدهشة عندما استيقظت في
الصباح التالي لأجد نفسى في غرفة زيلندا ممتددة في ذلك الفراش
وقد سقط على الوسادة والحائط شعاع من الشمس كان يتسلل من
خلال مصراعى النافذة . ولم أكد أرى أين كنت حتى سمعت زنين
التليفون فى الدهليز . فردت زيلندا وسمعتها تذكر اسمى ثم جاءت
لتطرق باب غرفتى . فقفزت من الفراش وبركضت نحو الباب عارية
القدمين مرتدية قميص النوم .

كان الدهليز خالياً وقد وضعت سماعة التليفون على الرف . أما
زيلندا فقد عادت الى المطبخ وسمعت صوت أمى فى الطرف الاخر من
سلك التليفون يقول :

— « هل هذه أنت يا أدريانا ؟ »

— « نعم . »

— « ما الذى دعاك الى الرحيل ؟ ... لبتك تعلمين فقط ماذا
حدث هنا ! ... كان فى امكانك ان تنذرينى ... فليشد ما انتابنى
الذعر ! »

فقلت فى عجلة :

— « نعم . انى اعلم كل ما حدث . فلا جدوى من الحديث فيه » .
فأردفت قائلة :

— « لشد ما كنت قلقة عليك . ثم هناك السنيور ديوداتى . »

— « السنيور ديوداتى ؟ »

— « نعم . فقد جاء هذا الصباح فى ساعة مبكرة للغاية .. وهو
يريد ان يراك فوراً لامر عاجل للغاية .. ويقول انه باق هنا فى
انتظارك . »

— « أخبريه انى قادمة فى الحال . أخبريه انى سأكون هناك
بعد دقيقة او اثنتين . »

وضعت السماعة ثم ركضت الى داخل الفسحة حيث ارتديت
ثيابى بأسرع ما أمكننى . لم أكن أمل ان يفرج عن مينو بهذه
السرعة . ولو انه لم يفرج عنه الا بعد فترة انتظار طالت بضعة ايام
او أسبوعاً لزادت سعادتى عما خالجنى وقتذاك . فلم أكن مطمئنة
الى مثل هذا الافراج السريع . وساورنى على الرغم منى شعور

بالخوف الفاض فكل حقيقة لها دلالتها ولكنني عجزت عن فهم ما تعنيه تلك العودة السريعة الى الحرية . غير انني أحسست بالهدوء عندما خطر لي أن أستاريتا ربما استطاع أن يفرج عنه فوراً كما وعد . وعلى أية حال فقد تاقنت نفسي الى رؤيته مرة أخرى فكان ذلك الشوق رغم ايلامه الى حد ما يبعث في نفسي احساسا لذيذا .

وما ان ارتديت ملابسى ووضعت في حقيبتى السجائر والملبس وثمار اللوز لكيلا أجرح شعور زيلندا فأنتى لم أذق منها شيئاً في الليلة السابقة حتى ذهبت الى المطبخ لتوديعها . فسألتنى قائلة :

– « أتشعرين بمزيد من البهجة ؟ . هل زالت عنك تلك الحالة النفسية السيئة ؟ »

– « كنت مرهقة . والان وداعا . »

– « مهلا . مهلا ! اتحسبيني لم أسمع حديثك في التليفون ؟ السنيور ديوداتي هه ؟ هاك . انتظري دقيقة – فلتأخذنى قدجا من القهوة – « كانت لا تزال تتكلم عندما كنت قد غادرت الشقة فعلا . »

كنت وأنا جالسة على حافة المقعد في السيارة الاجرة وحقيبتى بين يدي متحفزة للقفز الى الخارج حال وقوفها . وكنت أخشى أن أجد جمعا من الناس امام المنزل بسبب الاعيرة النارية التى اطلقها سونزونيو . وتساءلت عما اذا كان من الحكمة أن اذهب الى المنزل – فربما جاء سونزونيو طلبا للانتقام منى – ولكننى أحسست اننى لا أعبأ بذلك . فلو شاء سونزونيو ان ينتقم منى فليفعل فقد كنت أتوق الى رؤية مينو كما استقر رأى على الخروج من مخبئى ما دمت لم ارتكب ذنبا .

ولكننى لم أجد أحدا عند الباب أو على الدرج . فاندفعت الى داخل غرفة الجلوس حيث رأيت أمى جالسة الى ماكينة الخياطة بالقرب من النافذة بينما كانت أشعة الشمس تجاهد لتدخل من خلال زجاج النافذة القذر ورأيت القط فوق المائدة يلحق مخالفه . فتوقفت

– « اذن فما انت ذى ! كان فى امكانك ان تخبرينى على الاقل بأنك ذاهبة لاستدعاء الشرطة ! »

– « أبة شرطة ؟ ماذا تعنين بحق السماء ؟ »

– « اذن لذهبت معك – ليتك تعلمين فقط مدى ما انتابنى من الذعر . »

فاحتججت قائلة في غضب :

— اننى لم اذهب لاستدعاء الشرطة . بل غادرت المنزل وهذا هو كل ما حدث . اما رجال الشرطة فكانوا يبحثون عن شخص آخر . ولا ريب ان هذا الرجل كان يورق ضميره شيء ما . «

فقالت وهى تنظر الى معاتبه — « اذن فأنت تأبين حتى ان تخبرينى . «

— « بماذا اخبرك ؟ »

— لا تخشى من ثرثرتى . ولكنك لن تقنعينى بانك خرجت لغير ما غاية أو هدف . فان رجال الشرطة جاءوا بعد خروجك بدقائق . «

— « بيد ان هذا غير صحيح فاننى — «

— « ولكنك على أية حال محقة تماما فيما فعلت . فهناك بعض العناصر الرهيبة . أتعرفين ماذا قال أحد رجال الشرطة ؟ قال — « لقد رأيت هذا الوجه من قبل . «

فوجدت انه ما من سبيل لاقتناعها . اذ انه كان يخيل لها اننى خرجت عمدا للوشاية بسونزونيو وأن ذلك أمر لا يقبل المناقشة ، فقاطعتها فجأة في جفاء قائلة — « حسنا . . حسنا . وماذا عن الرجل المصاب ؟ كيف نقاوه ؟ »

— « أى مصاب ؟ »

— « لقد قيل لى ان هناك رجلا في النزاع الاخير — «

— « لا . لا . لقد أخطأوا فيما ادعوا . فان أحد رجال الشرطة قد أصابته رصاصة بسجح فى ذراعه وضمدتها له بنفسى . ولكنه كان على خير ما يرام عندما غادر المنزل . ومع ذلك فليتك سمعت الطلقات ! كانوا يطلقون النار على الدرج وقد ضج المنزل بأسره . وعندما سئلت عما حدث قلت اننى لا ادرى شيئا . «

— « وأين السنيور ديوداتي ؟ »

— « فى غرفتك . «

كان السبب فى تباطئى قليلا مع أمى اننى الان كدت أشعر بالاحجام عن لقاء مينو وكانى كنت أتوقع أن أسمع أنباء سيئة تركت غرفة الجلوس واتجهت نحو غرفتى التى وجدتها غارقة فى الظلام . وقبل ان امد يدي لأشعل الضوء اذا بصوت مينو يقول — « ارجو الا تشعلى الضوء . «

فلفتت نظرى نغمة غريبة فى صوته لم تكن مرحلة على الاطلاق . فأغلقت الباب وتحسست طريقي الى الفراش حيث جلست على

حافنه . فأحسست به مضطجعا على جنبه بالقرب مني . وسألته
قائلة - « أمرض أنت ؟ »

- « بل في تمام الصحة . »

- « ألسمت متعبا ؟ »

- « كلا . لست متعبا . »

كنت أتوقع لئلا يختلف عن ذلك كل الاختلاف . ولكن تلازم
الفرحة مع الضوء حقيقة ثابتة . ففي ذلك الظلام بدت عيناي
عاجزتين عن التألق واللمعان وبدا صوتي عاجزا عن صيحات البهجة
والفرح وعجزت يداي عن التعرف على ملامحه المحبوبة . فانتظرت
بعض الوقت . ثم سألته منحنية تجاهه قائلة - « ماذا تبغى أن
تفعل ؟ أتريد أن تنام ؟ »

- « كلا . »

- « أتريدني أن أبقى هنا بجانبك ؟ »

- « نعم . »

- « أتريدني أن أرقد على الفراش ؟ »

- « نعم . »

- « أتريد المضاجعة ؟ »

- « نعم . »

وقد أدهشني ذلك الرد لانه كما سبق أن قلت لم يراوده قط
ميل حقيقي الى المضاجعة . فأحسست فجأة بالفلمة تدب في حواسي .
وسألته قائلة في حب - « أتريد أن تضاجعني ؟ »

- « نعم . »

- « وهل سترغب في ذلك دائما من الان فصاعدا ؟ »

- « نعم . »

- « وهل سنكون دائما معا ؟ »

- « نعم . »

- « الا تريدني أن أشعل الضوء ؟ »

- « كلا . »

www.library4arab.com/vb « لا يهم . فسأخلم ثيابي في الظلام . »

وبدأت أخلع ثيابي يخالجنى احساس بالنشوة كمن أحرز نصرا
حاسما . فقد خيل لي ان الليلة التي قضاها في السجن قد
أظهرت له فجأة انه يحبني وفي حاجة الى . ولكنه كان تقديرا خاطئا
كما سأذكر . فمع اني كنت محقة في اعتقادي ان هناك علاقة بين

القبض عليه وبين الاستسلامه غير المتوقع فأننى لم أدرك ان التفسير الذى طرأ على موقفه لم يكن فيه ما يرضى غرورى او حتى يشجعنى . ولكنى من الناحية الأخرى كنت لا أستطيع عندئذ ان اتبين الأمور أكثر من ذلك . فقد كان جسدى يحفزنى نحوه باندفاع كحصان كبح جماحه زمنا طويلا وكنت أتوق الى الترحيب به فى حماس وأبتهاج بعد ان حال موقفه والظلام دون ذلك .

لكننى عندما اقتربت منه وانحنيت فوق الفراش لامتداد بجانبه شعرت به فجأة يقبض على ركبتي بذراعيه ثم يعضنى فى ردفى الأيسر بوحشية . فأحسست بألم حاد ولكننى فى نفس الوقت أدركت تماما أنه بعضته هذه انما يعبر عما يخالجه من يأس غامض لا تفسير له . فبدأ لى وكأننا روحان لعينتان فى أعماق جحيم جديد دفعتنا الكراهية والفضب والحزن الى ان يفرز كل منا أسنانه فى بدن الآخر لا عاشقان يتأهبان لممارسة الحب . وبدت لى انها عضه لا نهائية كأنه يريد ان يمزق بأسنانه فلذة من بدنى . وأخيرا لم أعد أستطيع ان اتحمل الألم فدفعته بعيدا عنى مع أننى كنت أشعر ببعض الرغبة فى ذلك لما وجدته من اللذة فى عضه بينما أحسست فى نفس الوقت أنه عمل خال من الحب . فقلت له فى صوت ذليل متقطع - « لا . لا . ماذا تفعل ؟ انك تؤلمنى ... »

وهكذا تلاشى من ذهنى وهم النصر الذى أحرزته . وبعد ذلك لم ننس بكلمة واحدة طوال الوقت الذى مارسنا فيه الحب . ولكننى مع هذا استطعت من خلال سلوكه ان اتكهن فى غموض بالمعنى الحقيقى لاستسلامه للذة . وقد فسر ذلك بالتفصيل فيما بعد . فقد أدركت أنه حتى تلك اللحظة لم يكن يرغب فى تجاهلى بقدر رغبته فى تجاهل جزء من نفسه كان يشتهينى . ولكنه اذا به الان على العكس من ذلك يطلق له العنان بعد ان ظل يقاومه حتى تلك اللحظة - هذا هو كل ما هنالك . اما أنا فام يكن لى شأن بذلك ولم يزد حبه لى عما كان عليه من قبل . وسواء فى نظره ان كنت انا التى يضاجع أم اية فتاة أخرى . فلم أعد ان أكون وسيلة يتخذها ليعاقب بها نفسه أو يشبها . ولم تكن تلك الأشياء ثمرة تفكرى اثناء رقادنا معا فى الظلام بقدر ما كانت وليدة احساسى بها فى لحمى ودمى تماما كما أحسست من قبل ان سونزوئيو كان وحشا رهيبا مع أننى لم أكن أدري شيئا عن جريمته . ولكننى أحببته وكان حبي أقسوى من معرفتى .

ومع ذلك فقد أدهشني عنفه وجلد رغبته التي لشد ما كانت
تسببها من قبل . وكنت أعتقد دائما ان ضعف بنيته يضطره الى
كبح جماح نفسه حرصا على صحته . ولذا فانه عندما بدأ يعيد
الكرة مرة أخرى بعد مضاجعته اياي لم يسعني الا ان أهمس له
قائلة - « اما فيما يخصني فلتفعل ما شئت . ولكن حذار ان تؤذي
نفسك . »

ويخيل لي انه ضحك ثم تمتم في اذني قائلا - « لا يمكن ابدا ان
تؤذي نفسي شيء الآن . »

فبعثت في نفسي كلمة ابدا احساسا رهيبا كاد يقضي على تلك
اللذة التي كنت أشعر بها في عناقه ومضاجعته وظللت أنتظر في ضجر
تلك اللحظة التي يمكنني ان أحدثه فيها لأعرف ما حدث بالفعل .
وما كدنا ننتهي من ممارسة الحب حتى بدأ لي أنه استغرق في
اغفاءة ولكنه ربما لم ينم حقا . فانتظرت فترة معقولة قبل ان
أحدثه قائلة في صوت خفيض وفي مشقة أوجفت قلبي :

- « والان أخبرني بما حدث . »

- لم يحدث شيء . »

- « ولكن لا ريب ان شيئا ما قد حدث . »

فسكت لحظة ثم تكلم بعد ذلك قائلا وكأنه يحدث نفسه - « أعتقد
انك انت أيضا ينبغي ان تعلمي . حسنا . هذا هو ما حدث . ففي
الساعة الحادية عشرة من مساء أمس صرت خائنا . »

فانتابتنى لهذه الكلمات رجفة باردة لا بسبب الالفاظ نفسها
فحسب بل بسبب اللهجة التي قيلت بها . . فتلعثمت قائلة :

- « خائنا !! لماذا ! »

وكانت لهجة اجابته باردة مضحكة على صورة حزينة - « كان
السنينور مينو معروفا بين رفاقه في العقيدة السياسية بصلايته في
الرأي وعنقه في رد الفعل . وكان يعتبر في نظرهم خليقا بأن يكون
زعيم المستقبل . . ولشد ما كان السنينور مينو واثقا بجدارته
الخلقية في أي ظرف من الظروف حتى انه كاد يتمنى أن يقبض عليه
لكي يوضح موضع الاختيار . ذلك لان السنينور مينو كان يعتقد
ان الاعتقال والسجن وغيرهما من وسائل التعذيب تشكل جزءا
جوهريا من حياة رجل السياسة تماما كما تشكل الرحلات البحرية
الطويلة والاعاصير وحوادث غرق السفن جزءا من حياة البحار .
ولكن ذلك الملاح ما كاد يواجه الامواج العالية لأول مرة حتى انتابه

الفتيان كأنفس فتاة صغيرة . فما ان وجد السنيور مينو نفسه في
حضرة شرطى هادى صبر حتى باح بكل شئ دون انتظار لهستدريه
أو تعذيب . . وفي الواقع - فانه خائن . . وهكذا فمئذ أمس ودع
السنيور مينو حياته السياسية واتخذ لنفسه وظيفة جديدة - تلك
هى - ماذا أسميها - وظيفة المرشد ؟ »

فهمت قائلة - « لقد انتابك الخوف ! »
فأجابنى قائلا على الفور - « كلا فلعلى لم اكن حتى خائفا . ولكن
ما حدث لى هو بذاته الذى عرانى فى ذلك المساء عندما كنت معك -
حين طلبت الى ان أشرح لك آرائى . فاذا بها تبدو لى فجأة وقد
فقدت أهميتها تماما . فقد استهوانى ذلك الذى قام باستجوابى .
كان يريد ان يعرف اشياء معينة . وعندئذ لم أعبأ باخفائها عنه
فذكرتها له فى بساطة تامة كما اتحدث اليك الآن . » ثم أردف
قائلا بعد لحظة من التفكير - « أو بالاحرى اننى لم أذكرها بنفسى
هذه البساطة - بل بدقة وسرعة وحماس أيضا الى حد ما . ولو
زاد الامر قليلا عن هذا الحد لاضطر الرجل الى تهدة حماسى ! »

فتخيلت أستاريتا وادهشنى ان يعجب به مينو وسالته قائلة :-
« من الذى استجوبك ؟ »

- « لست أدرى . ولكنه كان شابا انيقا للغاية شاحب الوجه
اصلع الرأس اسود العينين . لا ريب انه أحد الكبار . »
ولما تبينت من وصفه انه أستاريتا لم أتمالك نفسى من الهشاق
قائلة - « وهل أعجبت به ؟ ! »

فأخذ مينو يضحك فى الظلام وفعه على اذنى قائلا - « مهلا .
مهلا ! فانى لم أعجب بشخصه بل بوظيفته . فانت تعلمين - انك
عندما تتخيلين عما تدركين انه من حقك - او حتى لا تدركين انه من
حقك - فان حقيقتك تطفو فوق السطح . الست ابن أحد كبار
الملاك ؟ ألم يكن ذلك الرجل يحمى مصالحى على ضوء وظيفته ؟
لقد تبين لنا ان كلينا ينتمى الى نفس الطبقة . وان قضيته فى الحقيقة
هى قضيتى . ماذا خيل لك ؟ اننى أعجبت به لشخصه ؟ لا . لا .
بل أعجبت بوظيفته - فقد أدركت اننى أنا الذى يلقده أجره ليفعل
ما فعل . واننى أنا الذى يدافع عنه . واننى أنا الذى يظاهره
كسيده رغم مواجعتى اياه فى موقف المتهم . »

ثم ضحك أو بالاحرى انه أطلق سعة ضاحكة صرت فى اذنى على
صورة شنيعة . وكان كل ما أدركته أن أمرا فاجعا قد وقع وأن

حياتي بأسرها صارت مهددة مرة أخرى . ثم ما لبثت ان أودف قائلا
- « ولكن ربما كان في ذلك ظلم لي . فعلى لم أتحدث إلا لأنه لم يعد
يهمني لو فعلت ذلك - ولان كل شيء بدأ لي فجأة سخيفا عديم
الاهمية ولأنني لم أعد أدرك شيئا من تلك الاشياء التي كان ينبغي
على أن أومن بها . »

فرددت قائلة على صورة آية - « ألم تعد تدرك شيئا ؟ »
- « كلا . أو الأخرى - أنني لم أعد أدرك سوى الالفاظ نفسها
لا الحقائق التي تنطوي عليها . والان كيف يمكنك أن تتعذبي من
أجل الفاظ فحسب ؟ والالفاظ ما هي إلا أصوات . فأكون كمن ذهب
الى السجن من أجل نهيق حمار أو صرير عجلة . فالالفاظ التي
سمعتها لم تعد لها قيمة اذ بدت كلها تافهة متشابهة . وكان هو
يطلب مني الفاظا فأعطيته اياها بقدر ما أراد . »
فلم يسعني إلا ان أعترض قائلة - « حسنا اذن فماذا يهم مادامت
الفاظا فحسب . »

- « نعم . ولكنها لسوء الحظ ما كادت تخرج من فمي حتى
صارت حقائق ولم تعد الفاظا فحسب . »
- « لماذا ؟ »

- « لانني بدأت أتعذب . فقد أسفت لقولها . ولأنني أدركت
أنني بقولها صرت أنا نفسي تلك الحقيقة المعروفة بكلمة خائن . »
- « اذن فلماذا تكلمت ؟ »

قال في ببطء - « لماذا يتكلم الناس أثناء نومهم ؟ فعلى كنت نائما
أما الآن فقد صحوت . »

وهكذا أخذ يدور ويلور ولكنه كان لا يفتأ يعود الى نفس النقطة .
فأحسست بطعنة في قلبي وقلت في مشقة - « ولكن لعلك مخطيء .
فأنت تظن أنك بحت بكل شيء - في حين أنك لم تقل شيئا بالفعل . »
فقال في ايجاز - « كلا . لست مخطئا . »

ثم سكت لحظة فسألته قائلة - « وماذا عن صديقك ؟ »
- « أي صديقين ؟ »

- « توليو وتوماسو . »
فقال متظاهرا عن عمد بعدم الأكرات - « لست أدري شيئا
عنهما . ولكنهما سيقبض عليهما . »

فهتفت قائلة - « كلا . لن يقبض عليهما ! » فقد خيل لي ان
أستاريتا لن يستغل ضعف مينو المؤقت . ولكن عندما مرت بذهني

لمكرة القبض عليهما بدأت تلوح لي خطورة الامر كله .

فقال - « لم لا ؟ لقد أدليت بأسيهما . وليس هناك ما يمنع من القبض عليهما . »

فلم يسعني الا أن أصيح في ألم قائلة - « آه يا مينو . لماذا فعلت ذلك ؟ »

- « هذا هو السؤال الذي لا افتأ أوجهه الى نفسي . »

فاسترسلت قائلة بعد لحظة وأنا اتشبث بالأمل الوحيد الذي لم يبق عندي سواه :

- « ولكنهما اذا لم يقبض عليهما فلن يكون الامر خطيرا الى هذا الحد . إذ انهما لن يعلما أنك - »

فقاطعتني قائلا - « ولكنني أعلم ذلك ! وسوف أعلمه دائما .

سأعلم دائما أنني لم أعد ذلك الشخص الذي كان بل شخصا آخر - شخصا تمخضت عنه على وجه اليقين كما تتمخض الام عن طفلها

ولكنني لسوء الحظ لا أحبه . وهذه هي المشكلة . فبعض الرجال يقتلون زوجاتهم لانهم لا يطبقون الحياة معهم . والآن عليك أن تتخيلي

فقط كيف تكون الحال لو قمص شخصان جسدا واحدا وكان أحدهما يكره الآخر كرهه للموت . أما بخصوص صديقي فمن المؤكد

على أية حال انهما سيقبض عليهما . »

ولم يعد في وسعي أن أكبح جماح نفسي فقلت - « كان سيفرج عنك حتى لو لم تتكلم مطلقا . أما صديقك فلا يتهددهما خطر ما . »

ثم رويت له بسرعة قصة علاقتي بأستاريتا وتدخلتي للأفراج عنه ووعد أستاريتا . فأنصت الى في صمت . وأخيرا قال - « هذا

أفضل وأفضل ! إذن فان الأفراج عنى لا يرجع الى حماسي كمرشد بل الى علاقتك الفرامية بأحد رجال الشرطة . »

- « لا تقل هذا يا مينو ! »

ثم أضاف قائلا بعد لحظة - « ولكنه مما يسرنى على أية حال ان

بفلت صديقاى بسهولة من العقاب - فان ذلك سيغيبني من تأنيب ضمري قبلهما على الأقل ! »

فقلت في حماس - « انصت الى . ما الفرق بينك وبين صديقك ؟ فهما مدينان بحريتهما لي أيضا وللحب الذي يربط أستاريتا بي . »

- « ولكن معذرة ! فهناك فارق ! فهما لم يبوحا بشيء . »

- « وكيف تعلم ؟ »

- « أمل الا يفعلا من اجلهما . وعلى أية حال فلا يجديني مطلقا

الأكور في نفس موقفهما . «
فأحضت مرة أخرى قائلة - « ولكن ما عليك إلا أن تتجاهل
ما حدث - اذهب لزيارتها ولا تقل شيئا . فماذا يهمك ؟ فكل
إنسان معرض لان تمر به لحظة ضعف . »
فأجابني قائلا - « نعم . ولكن لا يرغب كل انسان على مواصلة
الحياة بعد ان يموت . أتدرين ماذا حدث لى في تلك اللحظة عندما
تكلمت ؟ لقد مت - مت الى الأبد . »
ولم اعد أستطيع ان اتحمل الألم الذى كان يعصر قلبى فانفجرت
باكية .

فسألنى قائلا - « لماذا تبكين ؟ »
فأجبتة مجهشة بالبكاء أكثر من أى وقت قائلة - « لقولك انك
ميت . لشد ما أنا خائفة » .

فسألنى مازحا - « ألا تحبين صحبة الموتى ؟ ليس الامر
مخيفا كما يبدو . بل انه في الواقع ليس مخيفا على الإطلاق . فقد مت
بطريقة خاصة للغاية . اذ ان جسدى ما زال حيا تماما . جسى لترى
ان كان حيا أو ميتا » . ثم تناول يدي وجعلنى أجسه قائلا - « يمكنك
ان تحسى أنى حى . وجذب يدي ضاغطا بها على جسده ثم سحبها
الى حقوه حيث جعلنى أضغط بشدة على ذكره قائلا - « ها انذا حى
في جميع أجزاء جسدى . وأما فيما يخصك فاننى أكثر حياة مما كنت
في أى وقت مضى . لا تخافى فان كنا لم نمارس الحب كثيرا اثناء
حياتى فسنعوض ذلك تماما الان بعد مماتى » .

ثم ألقى يدي الباردة بعيدا عنه في نوع من الاحتقار الفاضب .
فوضعت كلتا يدي على وجهى واخذت أبكى تعاستى بصوت مسموع .
أردت ان أبكى الى الأبد بكاء لا ينتهى لاننى كنت أخشى اللحظة التى
أتوقف فيها عن البكاء فأبقى خاوية ذاهلة في مواجهة نفس الموقف الذى
أثار بكائى . ومع ذلك فقد حانت تلك اللحظة وجففت بالملاءة وجهى
المبلل بالدموع ثم اخذت أحملق في الظلام بعينين مفتوحتين على
سعتهما . وسمعتة يخاطبنى بصوت حان رقيق وهو يسألنى قائلا :

« فلتنسح الى وايك فيما ينبغى ان أفعل » .
فاستدرت نحوه بعنف وتشبثت به بكل ما أوتيت من قوة ثم تكلمت
وفمى على فمه قائلة :

- « فلتنس هذا الموضوع . ولا تنزعج بشأنه . فما فات مات .
ذلك هو ما ينبغى ان تفعل » .

- « ثم ماذا ؟ »

- « ثم تعود الى دراستك من جديد ، وتحصل على درجتك ، وبعد ذلك تعود الى مسقط رأسك . ولا يهمني الا أراك مرة أخرى مادمت أعلم أنك سعيد . فابدأ العمل وعندما يحين الوقت تزوج فتاة من ذلك الجزء من العالم - فتاة تحبك وتنتمي الى طبقتك . ما شأنك بالسياسة ؟ أنك لم تخلق لها . ولقد أخطأت باشتغالك بها . أخطأت ولكن الناس جميعا يخطئون . وسيأتى اليوم الذى ترى فيه أن اهتمامك بالسياسة كان أمرا خارجا عن المألوف . اننى أحبك حقا يا مينو فلو أن امرأة أخرى فى مكانى لما قبلت أن تفارقك . ولكن فلترحل غدا ان دعت الضرورة . ولنفترق الى الأبد ان رأيت ذلك ضروريا . فمادمت سعيدا - » .

فقال فى صوت واضح عميق - « ولكننى لن أعرف السعادة مرة أخرى . فأنا مرشد » .

فأجبتة قائلة فى سخط - « هذا كذب ! فانك لست كذلك على الإطلاق . وحتى لو كنت كذلك فى إمكانك رغم هذا أن تكون سعيدا ! فكم من الناس يلبسون ذروة السعادة مع أنهم قد ارتكبوا جرائم . ولتتخذنى مثلا . فعندما يتكلم الناس عن بغي تجوب الشوارع فلا يعلم الا الله ماذا يجول بخاطرهم . ولكننى امرأة كفى من النساء وغالبا ما أنعم بالسعادة » . ثم أضفت قائلة فى مرارة :

- « ولشد ما تمتعت بالسعادة فى تلك الايام القليلة الماضية » .

- « اكنت سعيدة ؟ » .

- « نعم . للغاية . ولكننى كنت أعلم انها لا يمكن أن تدوم وفى الواقع - »
وعندئذ أحسست بالرغبة فى البكاء من جديد ولكننى تماكنت نفسى -
وأضفت قائلة - « كنت تتخيل نفسك فى صورة مختلفة تماما عن حقيقتك . ونحن نعلم ما حدث بعد ذلك فعليك الان أن تقبل نفسك كما أنت فى الحقيقة ليعود كل شىء الى نصابه . ان احساسك بالخجل وخوفك مما يظنه الناس وأصدقائك بك ازاء ما حدث . هما اللذان يشقيانك الى هذا الحد . اذن فلتقلع عن مقابلتهم . ولتجتمع بقوم آخرين فى العالم فسيح ! وإذا كان شقيتهم بك لا تكفى لإقناعهم بأن ما حدث لم يكن سوى لحظة ضعف فلتبق معى . فانى أحبك وأفهمك ولا أقف منك موقف القاضى - حقا ! » هكذا رحت أصيح عندئذ فى قوة وأضفت قائلة - « حتى اذا ارتكبت ما هو أسوأ من ذلك ألف مرة فانك ستظل حبيبي مينو » .

فلزم الصمت . واسترسلت قائلة - « اننى أعلم اننى لست سوى فتاة فقيرة جاهلة . ولكننى أدرك بعض الأمور خيرا مما يدركها أصدقاؤك بل خيرا مما تدركها أنت . وقد راودنى نفس هذا الشعور الذى يراودك الان . فعندما التقينا لأول مرة ورفضت أن تلمسنى خيل لى أنك تحتقرنى . وفجأة فقدت كل رغبة فى مواصلة الحياة واشتد احساسى بالتعاسة والشقاء . فاردت أن اصير شخصا آخر ولكننى ادركت فى نفس الوقت أن ذلك ضرب من المحال وانه يتحتم على أن اظل كما كنت . وانتابنى احساس لزج محرق بالعار واليأس والحزن

العميق فخيلى لى انى تقلصت وتجمدت وشلت حركتى بل راودتنى الرغبة فى الموت أو هكذا خيل لى أحيانا . وذات يوم خرجت للنزهة مع أمى وحدث أن دخلنا إحدى الكنائس حيث تبين لى عن طريق احساسى اثناء الصلاة انى ان كنت كما كنت فليس فى ذلك ما يدعو الى الخجل فى قرارة قلبى بل معنى ذلك أن تلك هى ارادة الله . ولا ينبغى أن أتمرد على مصرى بل يجب أن اقبله فى اذعان وثقة وان كنت تحتقرنى فلا لوم على بل عليك . وفى الواقع فقد مرت بذهنى اشياء كثيرة وأخيرا زایلنى احساسى بالمهانة وعاودنى مرحى وابتهاجى»

وبدا يضحك ضحكة تجمدت لها اطرافى . ثم اجابنى قائلا - « معنى ذلك اننى يجب أن اقبل ما فعلت والا أقاومه - يجب أن اقبل ما فعلت وما صرت اليه والا أحكم على نفسى . حسنا مثل هذه الاشياء يمكن أن تحدث فى داخل الكنيسة . أما فى خارجها » .

فاقترحت عليه متشبثة بأمل جديد - « اذن فلتذهب الى الكنيسة » .

- « كلا لن اذهب اليها . فانى لا أومن بها . ولا اشعر فيها الا بالملل . وفضلا عن ذلك - فيالها من طريقة غريبة فى الحديث ! » ثم أخذ يضحك من جديد ولكنه توقف فجأة وأمسك بى من كتفى ثم راح يهزنى فى عنف وهو يصيح قائلا - « الا تدركين ماذا فعلت ؟ الا تدركين ؟ الا تدركين ؟ » أخذ يهزنى فى عنف حتى ذهبت انفاسى قبل أن يلقى بنفسه الى الخلف على الفراش فى انفجار نهائى . ثم سمعته وهو يثب من الفراش وياخذ فى ارتداء ملابسه فى التلاطم . قال مهددا - « اياك أن تشعلى الضوء . فلا بد أن أعود نظرة الناس الى . ولكن الوقت لم يحن بعد . فحذار أن تشعلى الضوء » .

ولم أجرؤ حتى على أن اتنفس . وأخيرا سألته قائلة - « هل أنت ذاهب ؟ » .

فقال ويخيل لى انه ضحك مرة اخرى - « نعم ولكنى سأعود .
لا تخشى شيئاً فانى عائد . وفي الواقع فهناك خبراً سعيداً - فانى
قادم الإقامة هنا معك » .
- « هنا معى ؟ » .

فاسترسل قائلاً - « نعم . ولكنى لن أزعجك فى شىء . فى إمكانك
أن تواصلى طريقتك المألوفة فى الحياة . وفى الامكان ان يعيش كلانا
على ما ترسله الى أسرتى . كنت أدفع أجرا شاملاً لإقامتى . ولكن
هذا الاجر يكفيننا نحن الاثنين اذا ما عشنا هنا فى المنزل » .
ولم يبعث البهجة فى نفسى اقتراحه الإقامة معى بقدر ما أثار
الدهشة ولكنى لم أجرؤ على أن أعلق عليه بكلمة . وانتهى من ارتداء
ملابسه فى ذلك الظلام الدامس وهو صامت لا يتكلم . ثم قال -
« سأعود الليلة » . وسمعتة يفتح الباب ليخرج ثم يفلقه . ووقدت
هناك فى الظلام وعيناي تحمقان وقد فتحتا على سعتهما .

وفي ذلك المساء نفسه توجهت الى مركز الشرطة المحلى عملا
بنصيحة آستاريتا لادلى ببلاغ حول قضية سونزونيو . وكان يحدوني
احجام شديد . اذ وجدتنى بعد ما حدث لمينو احس برعب قاتل
مमित . ازاء كل مايتصل بالشرطة ولو من بعيد . ولكننى الان كدت
استسلم للمقادير فقد أحسست أن الحياة أوشكت أن تفقد طعمها
لفترة من الزمان .

وما كدت اطلع مأمور الشرطة على السبب الذى دعانى للحضور
حتى قال لى - « كنا نتوقع مجيئك هذا الصباح » . كان رجلا دمثا
فقد سبق لى أن عرفته بعض الوقت . ومع أنه كان رب أسرة وكانت
سنه تزيد على الخمسين فقد أدركت قبل ذلك بزمن طويل أن مشاعره
نحوى لم تكن ودية فحسب بل أكثر من ذلك . ومن بين ملامحه التى
ما زالت بارزة فى ذاكرتى أنه الكبر الشبيه بالاسفنجة الذى لا يفتأ
يضى الكآبة على وجهه . وكان شعره لا يفتأ يقف فوق رأسه بينما
يفضى عينيه دائما وكأنه قد نهض لتوه من الفراش . وكانت عيناه
الزرقاوان الحادثان تبدوان وكأنهما تختلسان النظر من خلف قناع
وجهه الاحمر المجدد الغليظ الذى يحاكي قشر البرتقال الضخم وهو
نوع يظهر فى نهاية الموسم ولا يحتوى الا على ثمار يابسة متقلصة .
فقلت اننى لم استطع المجيء قبل ذلك . فرمقتنى عيناه الزرقاوان
من خلف اديم وجهه الشبيه بقشر البرتقال مدة لحظة ثم خاطبنى
قائلا بلهجة مؤتمنة .

- « حسنا . ما اسمه ؟ »

- « وكيف أعلم ذلك ؟ »

- « كفى عن هذا . فلا شك أنك تعلمين : »

فقلت واضعة يدي على قلبى - « أتسم لك بشرى اننى لا أعلم .

فقد وقفنى فى الطريق - واذكر أنه خيل لى أن هناك شيئا غريبا فى

شخصيته . ولكننى لم أعره اهتماما . »

- « ولكن كيف حدث أنك تركته وحيدا فى شقتك ؟ »

- « كنت على موعد عاجل فتركته . »

« ولكنه ظن أنك ذهبت لاستدعاء الشرطة . اتعلمين ذلك ؟ وصاح

قائلا أنك وشيت به » .

www.library4arab.com/vb

« نعم . أعلم ذلك » .

« وأنه سينتقم منك » .

« ثم ماذا » .

فأضاف قائلا وهو ينظر الى بامعسان - « ولكن الا تدركين أنه رجل خطر وأنه ربما أطلق النار عليك غدا لانك وشيت به تماما كما أطلق النار على رجال الشرطة » .

« انى أدرك ذلك بالطبع » .

« اذن فلماذا ترفضين الادلاء باسمه ؟ سنلقى القبض عليه ولا حاجة بك الى القلق بعد ذلك » .

« ولكننى قلت لك اننى لا أعرف اسمه ! وهل ينبغي على ان أعرف أسماء جميع الرجال الذين أصحابهم الى المنزل ؟ » .

فاذا به يعلن فجأة قائلا بلهجة مسرحية ونبرات عالية وهو يتكئ الى الامام .

« ولكننا نعلم من هو ! »

فأدركت أنه كان يتظاهر فحسب وأجبتة قائلة فى فتور - « اذا كنتم تعلمون من هو فلماذا تضايقوننى ؟ اقبضوا عليه ولتريحونا من الامر كله بعد ذلك » .

فأخذ يرمقنى لحظة فى صمت . ولاحظت ان عينيه القلقتين المضطربتين كانتا لا تتفحصان وجهى بقدر ما تتفحصان قوامى . وأدركت ان احساسه بالواجب المهنى قد انهزم على الرغم منه امام رغبته فى . ثم استرسل قائلا - « كما نعلم أنه اذا كان قد أطلق النار ثم لاذ بالفرار فلاريب أن هناك سببا قويا دعاه الى ذلك » .

« آه لاشك عندى فى هذا » .

« ولكنك تعلمين الاسباب التى دعته الى ذلك » .

« انى لا أعلم شيئا . فان كنت لا أعرف اسمه فكيف يمكننى

ان أعرف البقية ؟ » .

فقال - « نحن نعلم الامر كله » . صار الآن يتكلم بطريقة آلية تماما وكان يفكر فى شيء آخر . فأكدت أنه لن يلبث ان ينهض من مكانه ويقبل نحوى . ثم أردف قائلا - « نحن نعلم كل ما حدث وسوف نقبض عليه . انها فقط مسألة أيام - ولعلها ساعات » .

« انكم بذلك تحسنون صنعا » .

ثم نهض واقفا كما توقعت وسار حول المنضدة مقبلا نحوي . ثم قال لي وهو يحتف ذقني بيده - « كفى عن هذا فأنت تعلمين كل شيء . ولكنك ترفضين مصارحتنا . فماذا تخشين ؟ » . فأجبت قائلة - « انى لا اخشى شيئا . ولا ادرى شيئا . والآن ابعده يدك عنى » .

فرددت قائلا - « كفى عن هذا » . ولكنه عاود جلسته خلف المنضدة قبل ان يسترسل قائلا :

- « من حسن حظك انى احبك واعرف انك فتاة طيبة . اعطينى ماذا يفعل اى رجل آخر فى مكانى ليرغمك على الكلام ؟ انه يحتجزك فترة طويلة او يرسلك الى سان جاليكانو » .

فنهضت قائلة - « انى مشغولة - فاذا لم يكن لديك شيء آخر تريد ان تقوله لى ... »

- « اذهبى . ولكن كونى حذرة فى اختيار اصدقائك - من السياسيين وغيرهم » .

فتظاهرت باننى لم اسمع تلك الكلمات الاخيرة التى قالها بقصد معين وهربت بأسرع ما امكنتى من تلك الفرف الصغيرة القذرة .

وبينما انا سائرة فى طريقى عاودت التفكير فى سونزونيو . فقد رجح مأمور الشرطة ما سبق ان خامرني من ظنون . اذ ان سونزونيو

كان يريد ان ينتقم لنفسه منى لانه وثق باننى وشيت به . وانتابنى الرعب لا خوفا على نفسى بل خوفا على مينو . فقد كان سونزونيو

يهرق كالمجنون . ولو عثر على فى صحبة مينو لما تردد فى قتلنا نحن الاثنين . ولا يفوتنى ان اعترف بان فكرة الموت مع مينو كانت تجذبني

على صورة غريبة . وتمثلت المشهد بأسره . فما ان يطلق سونزونيو النار حتىلقى بنفسى امامه لاحمى مينو فيصيبني الرصاص بدلا

منه . ومع ذلك فقد استهوانى ايضا ان يصاب مينو فى المعركة فنموت معا وتختلط دماؤنا . ولكن خيل لى ان مصرعنا معا بيد قاتل واحد

وفى لحظة واحدة لن يبلغ فى روعته الانتحار معا . فقد بدا لى ان الاتفاق على الانتحار خاتمة خليقة بقصة غرام عنيف . كان اشبه

باقتطاف الزهرة قبل ذبولها او الانزلاق فى مكان ساكن بعد سماع بعض الالحن السماوية . وطالما فكرت فى ذلك النوع من الانتحار الذى

يوقف عجلة الزمن فيحول دون فساد الحب او اطلاقه . وهذا النوع من الانتحار لا يرجع السبب فيه الى العجز عن احتمال الالم بل يدبر

عمدا نتيجة لفرط المتعة . فعندما كنت احس ان حبي لمينو قد بلغ

من القوة حدا لن أستطيع ان اصل اليه في المستقبل كانت فكرة
الاتفاق على الانتحار تراودني على صورة طبيعية للغاية بنفس التلقائية
التي تدفعني الي تقبله وادخلة . ولكنني لم أكتشفه قط بذلك
الخطر لاني كنت أعلم انه اذا اتفق عاشقان على الانتحار معا فلا بد
ان يكون جيهما متساويا . ولم يكن مينو يحبني او ان حبه لي لم يبلغ
حد الرغبة في ان يموت معي .

كانت كل هذه الخساطر تدور بذهني وانا في طريقى الى المنزل
عندما فوجئت بدوار مصحوب بنوبة من الغثيان . ودب في جميع
اطرافي هزال مخيف . ولم يكد يتسع الوقت الا لدخول احد محال
اللبن وكان على مقربة مني . كنت على مسافة غير بعيدة من المنزل
ولكنني أدركت انني لم أعد أقوى على قطع تلك المسافة القصيرة دون
ان أسقط على الارض .

جلست الى احد الموائد الصغيرة خلف الباب ذي الواجهة الزجاجية
حيث أغمضت عيني يخالجنى احساس بالانهيار . ولم يزايلني الدوار
او الغثيان الشديد بل زاد شعوري بهما من أثر نفثات البخار المتصاعد
من ماكينة القهوة . فلشد ما أزعجتني تلك النفثات رغم بعدها الغريب
عني . كنت أحس في يدي وفي وجهي بدفء الفرفة الساخنة المقللة
ومع ذلك فقد سرت في جسدي برودة شديدة . وصاح الرجل قائلا
من خلف المنضدة الطويلة - « أتبعين قدحا من القهوة يا مس
آدريانا ؟ » كان يعرفني جيدا فأومات له برأسي موافقة دون ان افتح
عيني .

وأخيرا ثبت الى رشدي ورشفت القهوة التي وضعها الرجل امامي
على المائدة وفي الواقع لم تكن هذه اول مرة اشعر فيها بذلك الغثيان
نفسه ولكنه كان لا يفتأ ينتابني على صورة خفيفة للغاية حتى انني
لم أكد الحظه . ولم أعره بالا لان الاحداث الغريبة المحزنة التي
استفرقتني حالت دون ذلك . أما الان فاني بعد التفكير فيه والربط
بين شعوري بالغثيان وبين انقطاع له دلالة كان قد طرا في الشهر
السابق على حياتي الجسمانية صرت مقتنعة بأن ذلك الشك الغامض
الذي أخذ يساورني أخيرا وكنت لا أفتأ أبعداه الى اظلم بقعة في وعيي
لا بد ان يكون له اساس من الواقع . ووجدتني فجأة أحدث نفسي
قائلة - « لا سبيل الى الشك في الامر . فلاريب انني حامل » .

دفعت ثمن القهوة وغادرت المكان . وعندئذ لشد ماتعقد شعوري
بل أجدني الان وقد تعذر على التعبير عن ذلك الشعور رغم مضي

تلك الفترة الطويلة من الزمن . سبق أن قلت ان الكوارث لا تأتي فرادى . اذ ان تلك الحقيقة الجديدة التي لو طالعتني في اى وقت آخر وفي غير تلك المناسبة لاستقبلتها بالفرحة والسعادة بدلت لى في ظل الظروف الراهنة مثلا حقيقيا لسوء الحظ . ولكننى اجد فى طبعى من الناحية الاخرى غريزة غامضة لا تقاوم تقودنى دائما الى اكتشاف ناحية جذابة حتى فى ابغض الظروف . وحينذاك لم يتعذر على مطلقا ان اجد تلك الناحية الجذابة فيما حدث . انه نفس الشعور الذى يملأ قلوب النساء جميعا بالامل والرضا عندما يعلمن انهن حبالى . لا شك ان طفلى سيولد فى ظروف لا يمكن ان يتخيل المرء شرا منها . ولكنه مع ذلك سيكون طفلى وسأكون انا الام التى وضعتہ وسأعلمه وأسعد به . وحدثت نفسى قائلة ان الطفل طفل دائما ولا يسع اية امرأة مهما اشتد فقرها وساءت ظروفها وغمض مستقبلها وانعدم احساسها بالمسئولية وافتقرت الى من يعولها الا ان تشعر بالسعادة عندما تعلم انها سوف تضع طفلا .

وعلى اثر تلك الخواطر عاودنى هدوئى . فلم البث بعد لحظة من الخوف واليأس ان استعدت شعورى بالطمأنينة والثقة كطبعى دائما . وكانت عيادة ذلك الطبيب الشاب الذى سبق ان فحصنى منذ فترة وجيزة عندما سحبتنى امى الى الصيدلية لتعرف ما اذا كنا انا وجيلو قد مارسنا الهوى لا تبعد كثيرا عن محل اللبن . فاستقر رأبى على الذهاب اليه ليفحصنى . وكان الوقت مبكرا فلم اجد احدا فى غرفة الانتظار . وكان الطبيب يعرفنى جيدا فحيانى تحية قلبية .

ولم يكد يفلق الباب حتى أعلنت قائلة فى هدوء - « أكاد أكون على ثقة بأننى حامل يا دكتور » .
ولما كان على علم بمهنتى فقد اخذ يضحك ثم سألنى قائلا - « هل انت آسفة لذلك ؟ »

- « كلا مطلقا . بل انى فرحة فى الواقع » .

- « فلنر » .

وبعد ان وجه الى عدة أسئلة عن حالة الغثيان التى تنتابنى ارقدنى على الغطاء المشمع الذى يكسو الارىكة ثم فحصنى . وقال لى بلهجة مريحة - « لقد أسبت كبد الحياتة فى هذه المرة » .
وسرنى ان تتأكد ظنونى دون ان يكون هناك مجال للشك . وكنت هادئة للغاية فقلت :

- « كنت أعلم ذلك وما جئت الى هنا فى الحقيقة الا لاقطع الشك باليقين »

– « يمكنك أن تثقى تماما بما أقول » .

وفرك يديه في فرح وكأنه هو نفسه والد الطفل ثم اخذ يتمايل تجاهي في فرح وهو مختبط بي . ولكن شيئا واحدا كان يلقني فأردت ان اتأكد منه . وسألته قائلة – « وما عمر هذا الجنين ؟ »

– « لعله قد مضى عليه شهران تقريبا . لماذا ؟ أتريدان ان تعلمي لمن هو ؟ »

– « انى أعلم ذلك بالفعل » .

واتجهت نحو الباب . فقال وهو يفتح لى الباب – « اذا أعوزك شيء فتعالى لزيارتى . وعندما يحين الوقت سنحرص على ان يولد الطفل فى أحسن الظروف الممكنة » . ولشد ما كان مفرما بى مثل مأمور الشرطة . ولكننى كنت ابادله ذلك الشففى فى حين اننى لم اكن أميل مطلقا نحو مأمور الشرطة . ولقد سبق ان وصفته مرة . فهو شاب وسيم شديد السمرة قوى نشيط ذو شارب أسود وعينين براقتين واسنان بيضاء يمتاز بشدة مرحه وحيويته . وطالما ذهبت اليه ليفحصنى على الاقل مرة كل أسبوعين وقد سمحت له بمضاجعتى مرة أو مرتين على نفس الاريكة ذات الغطاء المشمع حيث كان يفحصنى وذلك اعترافا منى بجميله فانه لم يكن يتقاضى منى اجرا – ولكنه كان يمتاز بلباقته الشديدة . فانه لم يحاول قط ان يفرض رغبته على باستثناء مداعبة عابرة تصدر عنه من وقت لآخر . وكان يسدى الى النصح . كما أعتقد انه كان يحبنى قليلا على طريقته الخاصة .

لقد قلت له اننى أعلم لمن كان ذلك الطفل . وفى الواقع فقد أحسست حينئذ اننى أعلم ذلك بغيرزتى لا عن طريق عد الايام على صورة آلية – كان خاطرا مر بذهنى . ولكننى عندما عدت الى الطريق وأخذت أحصى الايام وأعود بذاكرتى الى الماضى اذا بذلك الخاطر يصير حقيقة لا شك فيها . فما ان تذكرت صرخة الالم واللذة الطويلة الباكية التى انتزعت منى فى ظلام غرفتى بسبب ما خالجنى نحوه من رعب وافتتان حتى تأكدت ان والد الطفل لا يمكن ان يكون سوى سونزونيو . ولشد ما هالنى ان أعلم ان والد طفلى شقى متوحش سفاح مثل سونزونيو وخاصة لاننى ساكون دائما مهددة بأن يخذو الطفل حذو ابيه وان يربث صفحاته . ومن ناحية أخرى لم يسعنى الا ان أحس بان هناك وجها غريبا من العداوة فى ابوة سونزونيو . فهو وحده دون غيره من الرجال الكثيرين الذين ضاجعونى قد امتلكنى حقا فى أخص اعماق كيانى واشدها ظلمة وغموضا . اما ما انتابنى نحوه من

رعب وخوف واستسلام راغم فلن يثر شيئا من امتلاكه اياي على صورة نائمة عميقة . بل الاخرى انه يؤكد تلك الحقيقة . فان ذلك الاحساس بالامتلاك الشرعى رغم مقتى اياه لم يثره في نفسى جينو او استاريتا او حتى مينو الذى كنت اشعر نحوه بعاطفة مختلفة تماما . فبدأ لى كل ذلك غريبا مخيفا . ولكن هكذا الامر فى الواقع . فالمشاعر هى الشئ الوحيد الذى لا يمكن أن ينبذه المرء او ينكره او حتى يحلله من وجهة نظر معينة . وخرجت من ذلك بأن بعض الرجال قد خلق للحب وبعضهم للانجاب . واذا كان قد حق على أن أنجب طفلا لسونزونيو فقد حق لى ايضا وبتنفس القدر أن أمقته واهرب منه وأن أحب مينو كما كنت أفعل فى الحقيقة .

أخذت أصعد الدرج فى بطء وأنا أفكر فى ذلك العبء الحى الذى صرت الان أحمله فى أحشائى . وما كدت أدخل الردهة حتى سمعت أصواتا فى غرفة الجلوس فاتجهت نحو الباب وأدهشنى أن أرى مينو جالسا على رأس المائدة وهو يتحدث فى هدوء الى أمى التى جلست بالقرب منه عاكفة على الحياكة . وكان المصباح الاوسط وحده مضاء بينما غمر الظلام معظم الغرفة .

قلت فى كسل وأنا أتقدم نحوهما - « مساء الخير » . فقال مينو فى صوت متردد أجش - « مساء الخير - مساء الخير » وتطلعت الى وجهه فرايت لمعانا شديدا فى عينيه فتأكدت أنه مخمور . وكان أحد طرفى المائدة قد بسطت عليه فوطة علتها شوك وسكاكين لشخصين . ولما كنت أعلم أن أمى تأكل دائما وحدها فى المطبخ فقد أدركت أن المكان الثانى قد أعد لمينو . ثم ردد قائلا - « لقد أحضرت حقائبى وهى فى الغرفة الاخرى . كما صادقت أمك . » ثم خاطبها قائلا - « فكلانا يفهم الآخر تماما . اليس كذلك ؟ »

وساورنى الخوف عندما سمعت لهجته المتهمكة وصوته العابث فى حزن وتجهم . فتهاويت على أحد المقاعد وقد أغمضت عينى لحظة . واذا بى أسمع أمى ترد عليه قائلة - « هذا هو ما تزعمه أنت . ولكننا لن نتفق اذا ما حاولت ان تنال من آدريانا » .

فهتف مينو قائلا وهو يتظاهر بالدهشة - « ولكن ماذا قلت ؟ ان آدريانا خلقت لهذه الحياة التى تحياها . وأن آدريانا ترى الحياة رائعة . أى خطأ فى ذلك ؟ »

فردت أمى قائلة - « هذا افتراء . فان آدريانا لم تخلق لهذه الحياة التى تحياها . بل كانت بكل ما أوتيت من جمال تستحق مصيرا

افضل بكثير . الا تعلم انها من اجمل فتيات الحي بسـل روما
بأسرها ؟ فاني ارى فتيات اخريات كثيرات قد اسعدهن الحظ رغم
انهن لا يقاربنها جمالا . اما آدريانا ذات الجمال الرائع فانها دائما
صفر اليدين . ولكنني اعرف السبب . «
- « وما هو ؟ »

- « لانها اطيب قلبا مما ينبغي . هذا هو السبب . لانها جميلة
وطيبة ولو كانت جميلة وشريرة لرأيت كيف يتغير معها مجرى
الامور . »

فقلت يخالجنى شعور بالارتباك ازاء تلك المناقشة وخاصة ازاء
لهجة مينو لانه بدأ يسخر من أمي - « كفى . كفى . فاني جائعة .
ألم يعد العشاء بعد ؟ »

- « انه معد الآن . » ثم وضعت أمي ما بيدها على المائدة وهرولت
الى خارج الشرفة . فتبعتها الى المطبخ .
وهناك دمدمت قائلة - « هل جعلنا من شقتنا نزلا ؟ لقد دخل
المنزل وكأنه سيده ثم وضع حقائبه في غرفتك واعطاني نقودا لابتياح
بعض الحاجيات . »

- « حسنا . السميت مسرورة بذلك ؟ »

- « انني افضل حياتنا السابقة . »

- « حسنا . تظاهري بأننا خطيبان . وعلى أية حال فهو وضع
مؤقت فحسب . اذ انه لن يبقى هنا سوى بضعة أيام - فمن المحال
ان يقيم هنا الى الابد . » قلت لها شيئا أو شيئين من هذا القبيل
لاطمئنها ثم ضممتها الى وعدت الى غرفة الجلوس .

ستظل تلك الوجبة الاولى التي تناولها مينو معي أنا وأمي في منزلي
باقية في ذاكرتي زمنا طويلا . فانه لم يتوقف عن المزاح
وكانت شهيته رائعة . ولكن فكاهاته بدت أبرد من الثلج وأمر من
الليمون . فمن الواضح انه لم تكن في ذهنه سوى فكرة واحدة كانت
أشبه بالشوكة المفروزة في بدنه . ولم تزد فكاهاته على تحريكها
فيعمق مفرزها ويتحدد ألها . وكان قوام تلك الفكرة هو كل ما قاله
لاستارينا . وفي الواقع فاني لم ار في حياتي لندما عميقا على ذلك
الصورة . وقد علمني القساوسة في طفولتي ان الندم يغسل الذنوب
ولكنه في حالة مينو بدا وكأنه لا نهاية له ولم يأت بنتيجة نافعة .
فقد أدركت انه لشد ما كان يعاني فكانت معاناتي من أجله بنفس
القدر وربما زادت لعجزى عن مساعدته أو تخفيف العبء عنه .

وتناولنا أول أصناف الطعام في صحت . ثم قالت أمي شيئا عن سعر اللحم وكانت واقفة لتقوم على خدمتنا . فقال مينو رافعا رأسه - « لا تقنقى . فمن الان فصاعدا سأعمل على تزويدكما بكل ما تطلبان فاني سأحصل على وظيفة مجزية . »
وكاد الأمل يراودني عندما صرح بذلك . فسألته أمي قائلة - « أية وظيفة ؟ »

فقال مينو في جدية مبالغ فيها - « انها وظيفة في الشرطة . وسوف يعينني فيها صديق لادريانا - مستر آستاريتا . »
فوضعت السكين والشوكة على المائدة ورحت أحملق فيه . فاسترسل قائلا - « لقد اكتشفوا في تلك الصفات التي ينشدونها في رجل الشرطة » .

فقالت أمي - « ربما . ولكنني لم أحب الشرطة قط . ان ابن الغسالة التي تقيم في الطابق السفلي شرطى أيضا . أتعلم ماذا قال له الشبان الذين يعملون في مصنع الاسمنت المجاور لنا ؟ ابتعد عنا . فاننا لا نريد ان تكون لنا بعد ذلك صلة بك . وعلى أية حال فان العمل في الشرطة ليس مجزيا . » ثم قطبت وجهها وغيرت صحفته مقدمة اليه طبق اللحم .

فرد مينو قائلا وهو يأخذ نصيبا منه - « ليس هذا ما أعنيه . بل أقصد وظيفة هامة دقيقة للغاية سرية للغاية . يا للشيطان ! ان دراستي تم تذهب هباء ! فقد أوشكت ان أحصل على درجتى . كما انى ملم باللغات الحديثة . ان الفقراء من الناس هم الذين يصيرون رجال شرطة فحسب . أما امثالي فلا . »

فرددت أمي قائلة - « ربما . » ثم أضافت قائلة وهي تدفع الى صحفته بأكبر قطعة من اللحم - « خذ هذه . »

فقال مينو - « ليس ربما ، بل هو في الحقيقة كما أقول . »
ولزم لصمت لحظة ثم قال - « ان الحكومة تعلم ان البلاد مملوءة بالمعارضين لها لا بين الفقراء فحسب بل بين الاغنياء كذلك . فهي

في حاجة الى قوم متعلمين ايتحسبوا على الاغنياء - قوم يتحدثون مثلهم ويرتدون ازياءهم ويتحلقون بدابهم كما يوحون بالثقة . هذا هو ما سأفعله . فسوف أتقاضى اجرا مجزيا واقيم في فنادق الدرجة الاولى وأسافر في عربات النوم وأتناول طعامي في افخر المطاعم ويحيك لي ثيابي خياط عصرى وارتاد الشواطىء الحديثة الراقية والمصايف الشهيرة في الجبال . بالله ماذا حسبتنى ؟ »

عندئذ كانت أمي تحمق فيه فاعرة فاها . فقد بهرها كل هذا الترف . وأخيرا قالت - « في هذه الحالة ليس لدى ما أقوله » .
وكانت قد انتهت من تناول وجبتي . وفجأة وجدته لا أقوى مطلقا على الاستمرار في مشاهدة تلك المهزلة التي تمزق نياط القلوب فقلت في اقتضاب - « اني متعبة . وسأذهب الى الغرفة الأخرى . »
ثم نهضت وغادرت غرفة الجلوس .

وما أن دخلت غرفتي حتى جلست على الفراش وانطويت على نفسي ثم بدأت أبكي في صمت من خلال أصابعي التي كانت تخفي وجهي . فكرت في محنة مينو وفي الطفل الذي سأرزق به . فبدأ لي أن المحنة والطفل كليهما كائن حي ينمو من تلقاء ذاته بعيدا عني وعن نطاق سيطرتي وأنه لم تعد لي حيلة فيهما . وما ان لحق بي مينو بعد فترة وجيزة حتى نهضت في الحال مشيخة بوجهي بعيدا عنه خشية ان يرى عيني المملتين بالدموع قبل ان يتسع الوقت لتجفيفهما . وكان قد أشعل سيجارة ثم اضطجع على الفراش . فجلست بجانبه قائلة :

- « أرجو يا مينو - الا تتحدث الى امي على هذه الصورة مرة أخرى . »

- « لماذا ؟ »

- « لانها لا تفهم شيئا . ولكنني افهم ما تقول . وكل كلمة تنطق بها تطعنني في قلبي كالابرة » .

فلم ينبس بشيء بل أخذ يدخن في صمت . فأخرجت من الدرج قميص نوم والتقطت ابرة وبكرة من خيوط الحرير ثم عكفت على حياكته دون ان أتكلم وأنا جالسة على حافة الفراش بالقرب من المصباح . لم اشأ ان اتكلم لانني خشيت لو فعلت ان يأخذ في

مناقشة الموضوع المعهود . فلزمت الصمت عسى ان تهيم خواطره فيطرده من ذهنه تلك الفكرة . والحياكة عمل يتطلب كثيرا من الانتباه كما تعلم جميع النساء اللاتي يحترفنه . ولكنه يطلق العنان للذهن فبينما كنت عاكفة على الحياكة اذا بخواطري تدور براسي او الأخرى اني أحسست وأنا ادفع بالابرة بريما في الثوب الذي كان بين يدي ثم انتزعها منه وكانى ارتق فتقا أو ألق حاشية في ذهني . كما اني شاركت مينو تلك الفكرة الثابتة في ذهنه ولم أتمالك نفسي من التفكير فيما قاله لاستارتينا وما سوف يترتب عليه من نتائج . ولكنني لم اشأ ان افكر في ذلك لانني خشيت لو فعلت ان ينطلق تفكيره في نفس

www.Library4arab.com/vb
الاتجاه أيضا بفعل قوة غائضة فأصبر على الرغم منى مسئولة على صورة ما عن تفاهم اساء وبث الحياة فيه . لذلك فقد حاولت ان افكر فى شىء آخر - شىء فيه صفاء ومرح واشراق . فركزت انتباهى بكل ما أوتيت من قوة ذهنية على الطفل الذى سأرزق به - ذلك الحادث الذى يمثل فى الواقع الظاهرة الوحيدة السعيدة فى حياتى بعد ان ملأتها الآن الصور الاليمة المفجعة . فتخيلت شكله وهو فى عامه الثانى او الثالث وتلك اجمل مراحل النمو اذ عندها يبلغ الطفل اوج فتنته وجماله . وفيما أنا أفكر فى افعاله واقواله جميعا وفى طريقة تربيته عاودنى مرعى كمال تمنيت ان يحدث ونسيبت مينو ومحنته لحظة من الزمان - وكنت قد انتهيت من رتق قميص النوم وبينما كنت أتناول قطعة اخرى من الثياب اخذت افكر فى طريقة اخفف بها من ساعات التوتر الطويلة التى سأقضيها مع مينو . ففكرت فى اعداد ملابس الطفل ولوازمه . غير اننى يجب الا اطلع مينو على ما اعلم او التمس له عذرا . فخطر لى ان أخبره باننى كنت اعددها لاحدى جارائنا وكانت بالفعل تنتظر مولودا . ولما كنت قد حدثت مينو عنها من قبل وأشرت الى فقرها فقد خيل لى انه سيكون عذرا وجيها . ولشد ما استهوتنى تلك الخواطر حتى اننى دون ان الحظ ذلك تقريبا اخذت ادندن فى هدوء .

ومع أن صوتى ليس قويا فان أذنى حساسة للغاية وحلاوة نبرائى خارجة عن المألوف حتى فى حديثى . فأخذت انشد اغنية « الفيللا الحزينة » وكانت معروفة وقتذاك . وعندما رفعت عينى لأقضم الخيط الذى كنت احبك به اذا بمينو ينظر الى . فتوقفت عن الغناء . اذ خيل لى انه ربما لامنى لفنائى فى فترة حرجة للغاية بالنسبة له . فقال وهو ينظر الى - « استمرى فى الغناء . »

- « اتريدنى ان أغنى ؟ . »

- « نعم . »

- « ولكننى لا احسن الغناء . »

- « هذا الا يهم . »

www.Library4arab.com/vb
فعدت الى العياكة من جديد واخذت أغنى له . وكنت كمعظم الفتيات أعرف عددا كبيرا من الاغانى . وكانت عندى فى الواقع حصيلة ضخمة منها وذلك لقوة ذاكرتى حتى انه كان يمكننى ان اتذكر الاغانى التى حفظتها فى طفولتى . اخذت أغنى نبذة من كل الغنية ولا اكاد انتهى من احداها حتى ابدا فى الاخرى . وكنت أغنى اول الامر بصوت

هاديء ثم اذا بي اتحمس تدريجيا فارفع عقيرتى بالفناء مستجمعة
كل ما فى نفسى من مشاعر . وتوالت الاغاني احداها بعد الاخرى
وقد تبانت جميعها . وكنت اثناء غنائى فى احداها افكر فى الاغنية
التي تليها . واخذ ينصت الى وقد ارتسم على وجهه تعبير جاد
فسررت لامكانى تشتيت انتباهه وابعاده عما يخالجه من تأنيب
الضمير . ولكننى تذكرت فى نفس الوقت اننى فى طفولتى ذات مرة
فقدت لعبة كنت شغوفاً بها للغاية . فلما لم استطع التوقف عن
البكاء بسبب الخسارة التي حلت بى جلست اُمى على حافة الفراش
واخذت تنشدنى ما تعرف من اغان قليلة . فاذا بى على الرغم من
سوء غنائها ونشازها انصت اليها فى اول الامر كما انصت الى مينو
ولكن ذكرى اللعبة التي فقدت منى ما لبثت ان قطرت مرارتها
تدريجيا فى قدح النسيان الذي قدمته الى اُمى فتسمم كل شئ فى
النهاية وصارت الخسارة لشدة التباين امرا لا يمكن احتمالها مطلقا .
واذا بى فى النهاية انفجر فجأة فى البكاء من جديد واذا بأُمى التي
عيل صبرها تطفئ الضوء وتغادر الغرفة منصرفه عنى لابكى فى الظلام
ما شاء لى البكاء . ولذا فقد كنت واثقة ان حلاوة غنائى الخداعة
لا يكاد يتلاشى تأثيرها حتى يعاوده لا محالة ذلك الالم المبرح الذي
سيكون لتناقضه مع تفاهة اغانى العاطفية اكثر حدة واشد قسوة .
ولم اكن مخطئة فى تقديرى . فقد ظلمت اغنى قرابة الساعة . واذا
به يقاطعنى فجأة قائلاً فى جفاء - « يكفى هذا » فلشدة ما سئمت
اغانيك . « ثم انطوى على نفسه وكأنه يريد ان ينام مديرا ظهره
نحوى .

لم اتألم كثيرا لاننى كنت انتظر ان يكون سلوكه على تلك الصورة
الوقعة . وعلى اية حال فانى حينذاك لم اكن اتوقع شئنا سوى
الشقاء . ولو حدث عكس ذلك لاثار دهشتى . فنهضت من الفراش
لابعد الثياب التي اصلحتها . ثم خلعت ملابسى وانا لا ازال صامتا
وانسلت الى داخل الفراش فى الجانب الذي تركه مينو خاليا .
واضطجعنا قليلا فى صمت على تلك الصورة ظهرا لظهر . كنت ادرك
انه ليس نائما وانه يفكر طوال الوقت فى امر واحد . وقد اثار فى
ذهنى ذلك الادراك فضلا عن احساس الحاد بعجزى عن تقديم العون
اليه عاصفة من الخواطر المختلطة اليائسة . كنت راقدة على جنبى
وانا مستغرقة فى التفكير احمق امامى فى احدى زوايا الغرفة .
فامكننى ان ارى احدى الحقيبتين اللتين احضرهما مينو من منزل

السنيوراء مدولاجي . وكانت حقيبة جلدية قديمة صفراء تكسوها
بطايات ملونة الفساق الخشنة . وظهرت من بينها بطاقة رسمت
عليها رقعة من البحر الازرق وصخرة حمراء ضخمة وكلمة : كابري .
وكانت تلك البقعة الزرقاء تبدو مضيئة في ذلك الضوء الخافت وبين
قطع الاثاث الكثيرة المعتمة بل تبدو اكثر من مجرد بقعة . كانت
ثغرة الملح من خلالها تلك المساحة الطويلة الضيقة من البحر البعيد .
وانتابني حنين مفاجيء الى البحر بكل ما فيه من تالق وحيوية .
اذ انه مهما فسدت الاشياء وانعدم شكلها فان البحر خليق بتطهيرها
وتسويتها واستكمال شكلها وتحويلها الى اشياء نظيفة جميلة .
وكنت لا افتأ أحب البحر حتى شاطيء « اوستيا » الاليف المزدهم .
فكان منظر البحر يبعث في نفسي دائما احساسا بالحرية التي تنتشي
لها اذناى اكثر مما تنتشي لها عيناي وكانى اصفى الى ألحان موسيقى
رائعة خالدة لا تبرح تطفو الى الابد فوق امواجه . وبدأت أفكر في
البحر وقد انتابني حنين شديد الى امواجه الشفافة التي بدت لى
انها لا تفصل الجسد فحسب بل الروح ايضا . اذ انها بلمسها
السائل تحررها من اثقالها وتملؤها بالفرحة . وحدثت نفسى قائلة
انه لو أمكننى ان اصحب مينو الى البحر فلعله بضخامته وحركته
الدائبة وضجيجه الذى لا ينقطع يبعث فى نفسه التأثير الذى لم
يستطع حبي وحده ان يحدثه .

وفجأة سألته قائلة - « هل زرت كابري قط ؟ »

فقال دون ان يستدير انحوى - « نعم . »

- « هل هي جميلة ؟ »

- « نعم - للغاية . »

فقلت مستديرة نحوه في الفراش ومحيطة عنقه بذراعى - « انصت
الى - لم لا نذهب الى كابري ؟ او الى أى مكان اخر على شاطيء
البحر ؟ فانك مادمت باقيا هنا في روما فلن يمكنك ان تفكر في شيء سار
وانى واثقة انك مع تغير الجو سوف ترى كل شيء في صورة
مختلفة . سنرى اشياء كثيرة مما لا تراه الان . انى واثقة ان في ذلك

نعم لك .
فلم يجبنى في الحال . وبدأ لى انه يفكر فيما قلت . ثم قال -
« لا حاجة بى لان اذهب الى البحر . اذ يمكننى حتى هنا ان ارى
الاشياء في صورة مختلفة كما تقولين . وما على الا ان اقبل ما فعلت
كما نصحتنى من قبل . وعندئذ استمتع بالسماء والارض وبك وبكل

شيء في الحال . اتظنيني لا أدري أن الوجود جميل ؟ »

فقلت في شوق - « حسنا . اذن فتقبله . فإذاً يكلفك ذلك ؟ » -

فأخذ يضحك قائلاً - « كان ينبغي أن أفكر في ذلك أولاً . كان ينبغي

على أن أحذو حذوك - فأقبل ذلك مباشرة منذ البداية . فحتى

الشحاذون الذين يجلسون على عتبات الكنائس طلباً للدفع في ضوء

الشمس قد قبلوا كل شيء منذ البداية . أما الآن فقد فاتني الوقت »

- « ولكن لماذا ؟ »

- « هناك من يقبل وهناك من لا يقبل . ومن الواضح أنني انتمى

إلى الطائفة الثانية » .

لم أدر ماذا أقول فلزمت الصمت . ثم أضاف قائلاً بعد لحظة

- « والآن اطفئ الضوء . فسأخلع ثيابي في الظلام . فلا ريب أن

ساعة النوم قد حانت . »

فامتثلت لأمره . وخلع ملابسه في الظلام . ثم أوى إلى الفراش

بجانبي . واستدردت نحوه وكأني أهم بمعانقته . ولكنه دفعني بعيداً

دون أن ينبس بكلمة ثم انكمش على حافة الفراش مديراً ظهره

نحوي . فملاّنتني تلك الحركة بالمرارة وانكمشت أنا أيضاً في انتظار

النوم بينما كانت روحي تنتحب باكية . ولكنني عاودت التفكير في

البحر واستبدت بي الحنين لاغرق نفسي فيه . فقد خيل لي أن ذلك لن

يستغرق سوى لحظة واحدة من الألم . ثم لا تفتأ تنتقل جثتي

الطافية من موجة إلى موجة تحت الشمس دهوراً طويلة . فتفقا

النوارس بمناقيرها عيني وتحرق الشمس صدري وبطنى ويقرض

السماك ظهري . وفي النهاية أغوص في القاع حيث يسحبني من

رأسى تيار أزرق مثلج ليحرفني أمامه عبر قاع البحر شهوراً وأعواماً

بين صخور القاع وأسماكه وأعشابه البحرية فتفسل الأمواه الملحة

الصافية جيني وصدري وبطنى وساقى ويتعري بدني من اللحم

رويدا وتظل تلك المياه تسوى جسدي وتطهره إلى أن تقذف بي أخيراً

أحدى الأمواج يوماً ما على شاطئ ما حيث لا أكون سوى حفنة من

عظام هشة بيضاء . وراقنتني فكرة غوصي إلى قاع البحر منسحوبة

من شعري . كما راقنتني فكرة تحوّل يوماً ما إلى كومة صغيرة من

العظام على أحد الشواطئ بلا شكل آدمي بين الأحجار الملساء .

ولعل شخصاً ما يطأ عظامي دون أن يلحظ ذلك فيسحقها ويحولها

إلى مسحوق أبيض . . ثم استغرقت في النوم تراودني تلك الخواطر

الشهوانية الحزينة .

الفصل الحادى عشر

وفى اليوم التالى حاولت ان اقنع نفسى بالقوة ان النوم والراحة قد بدلا من مشاعر مينو ولكننى مع ذلك لاحظت فى الحال انه كان كما عهدته دائما . بل لقد بدا لى فى الواقع أسوأ حالا مما كان الى حدما . فقد ظلت تمر به فترات من الصمت الطويل الحزين العنيد تعقبها انفجارات من الثرثرة الهائمة المتهمكة فى موضوعات تافهة لم تفتأ تتجلى فيها مع ذلك نفس الفكرة المسيطرة كعلامة النسيج فى بعض أنواع الورق . وكان تدهور حالته بقدر ما أمكننى ان أرى يتمثل بصفة رئيسية فى نوع من الجمود الارادى والبلادة وعدم الاكتراث وكلها أشياء دخيلة عليه لانه كان دائما آية فى النشاط والحيوية . كان يمارس نوعا من الانعزال التدريجى عن كل ما كان يقوم به حتى الان . وقد فتحت حقائبه ووضعت حلله وملابسه الاخرى فى صوان ملابسى . ولكننى ما ان اقترحت عليه ان أصف له كتبه التى كان يحتاج اليها فى دراسته فوق خزانة الثياب أسفل المرآة حتى اجابنى قائلا « اتركها فى الحقيبة . فهى لم تعد تفيدنى فى شىء على اية حال » . فسألته قائلة - « ولم لا ؟ أليس عليك ان تحصل على درجتك ؟ » - « بل لن أحصل عليها » . - « ألا تريد ان تواصل دراستك ؟ » - « كلا » .

ولم ألح عليه خشية ان يعاود الحديث فى ذلك الموضوع المعهود الذى كان يحزنه وتركت الكتب فى الحقيبة . ولاحظت انه لم يطلق ذقنه ولم يفتسل رغم ما عهدته فيه دائما من نظافة مفرطة وحرص على الاناقة . وفى اليوم التالى قضى سحابة النهار فى غرفتى تارة يضطجع على الفراش وهو يدخن وتارة يذرع الغرفة وهو مستغرق فى التفكير وقد يدب فى حيرة . ولكنه عند الغداء لم يعد يتحدث الى امى كما وعدنى . وعندما أقبل المساء أخبرنى انه سيتناول العشاء فى الخارج وغادر الدار وحده . ولم أجرؤ على ان اقترح عليه اصطحابى . ولا أدرى أين ذهب ولكننى كنت أتهيا للنوم عندما دخلت الغرفة ولاحظت فى الحال انه كان يشرب الخمر ، فعانقنى بطريقة

مضحكة فيها مفالاة، وأصر على مضاجعتي. فاضطرت الى الاستسلام له رغم ادراكي أن ممارسة الحب كانت في نظره عندئذ كماقارة الخمر - امرأ بفيضا يكره نفسه عليه حتى ينال منه التعب وينتابه الخمر . وقد صارحته بذلك قائلة - « يمكنك بالمثل أن تضاجع اية امرأة أخرى . » فأجابني قائلاً : - « يمكنني ذلك . ولكن ها أنت ذى هنا سهلة المنال . » وقد ساءني ذلك بل جرح كبريائي أكثر مما ساءني لانه دل على نضوب عاطفته نحوي .

وفجأة لمع في ذهني وميض من الادراك . فقلت له - « انصت الي : انى أعلم اننى لست سوى فتاة تافهة مسكينة . . . ولكن حاول أن تحبني . فذلك خير لك . اذ انى واثقة أنك لو احببتنى امكنك فى النهاية أن تحب نفسك » . فنظر الى ثم ردد قائلاً بصوت ساخر مرتفع - « الحب . الحب . » ثم أطفأ الضوء . فرقدت هناك فى الظلام بعينين محمقتين يخالجنى شعور بالحيرة والمرارة . ولم أدر ماذا أفكر .

لم يطرا تغير ما على حالته فى الايام التالية بل سار كل شىء على نفس الوتيرة . ولكن بدا لى فقط أنه أخذ يكتسب عادات جديدة لتحل محل عاداته القديمة . فقد كان قبل ذلك يتابع دراسته ويذهب الى الجامعة ويلتقى بأصدقائه فى أحد المقاهى ويقرا ويطلع . أما الان فتارة يرقد على الفراش وهو يدخن وتارة يتجول فى الفرفة وهو لا يفتأ يردد تلميحاته الجنونية التى لا رابط بينها وتارة يشرب الخمر حتى يسكر وتارة يمارس الحب . وفى اليوم الرابع بدأت أشعر حقاً باليأس المطلق . فقد أمكننى أن أرى أن اله المبرح لم تقل مرارته . وخيل لى أن مواصلة الحياة على تلك الصورة ضرب من المحال . فقد بدأت لى غرفتى التى لم يبرح يملؤها دخان السجائر وكأنها مصنع يعمل ليل نهار فى انتاج الالم دون أن ينقطع عن ذلك لحظة واحدة . حتى أن الهواء الذى صرت أستنشقه الان كان كتلة هلامية سميقة من الخواطر الحزينة الملحة . وطالما لعنت جهلى وتفاهتى حينذاك ولعنت الظروف التى جعلت امى أكثر منى جهلاً وتفاهة . فان أول ما يخالغ الإنسان ساعة الملحة هو أن يحبه الى شخص يكرهه سناً ويفوقه خبرة طلباً للنصيحة . ولكنى كنت لا أعرف أحداً له مثل هذه الصفات . أما امى فكان طلب العون اليها كطلبه الى أحد الاطفال الكثيرين الذين ألفوا أن يلعبوا فى فناء الدار . ومن الناحية الاخرى فقد تعذر على أن أنفذ الى أعماق أساه . اذ أن أمورا كثيرة

كانت تفوتنى ملاحظتها . ولكننى توصلت تدريجيا الى ان اعرف ان
ما كان يعد له أكثر من أى شيء آخر هو اعتقاده ان كل ما قاله
لاستاريتا كان مدونا فى تقرير الشرطة ومحفوظا فى السجلات كشاهد
أبدى على ضعفه . وقد عززت بعض أقواله ذلك الاعتقاد الذى توصلت
اليه . وذات مساء تحدثت اليه فى الامر قائلة : « ان كان من دواعى
أسفك انهم سجلوا كل ما قلته لاستاريتا - فان أستاريتا لا يرفض
لى طلبا . وانى واثقة أنه سيعدم التقرير لو طلبت اليه ذلك » .

فقال وهو يرمينى بنظرة غريبة - « وما الذى يجعلك تعتقدين
ذلك ؟ »

- « لقد اعترفت أنت نفسك بذلك أخيرا حين طالبتك بأن تحاول
النسيان فقلت لى انك حتى لو نسيت ما حدث فان الشرطة لن تنسى »
- « ولكن كيف يمكنك ان تفاتحيه فى الامر ؟ »
- « ذلك أمر ميسور للغاية ! فانى أتصل به تليفونيا ثم اذهب
لمقابلته فى الوزارة » .

ولكنه رفض ان يفصح عما يريد . فألححت قائلة - « حسنا -
أتريدنى ان اطلب اليه ذلك ؟ »
- « أما فيما يخصنى فلتفعلى ما شئت » .

فخرجنا معا وأتصلت به تليفونيا من أحد محال اللبن . فرد على
أستاريتا فى الحال وأخبرته اننى يجب ان أتحدث اليه فى أمر ما .
ثم استأذنته فى الذهاب لمقابلته فى الوزارة . فأجابنى قائلا فى صوت
غريب متلعثم - « أما ان نلتقى فى شقتك واما لا نلتقى مطلقا » .
فأدركت أنه يريد ان يتقاضى ثمن الصنيع الذى سأطلبه اليه .
وحاولت ان أتحاشى ذلك قائلة - « فليكن لقاءنا فى أحد المقاهى » .
- « اما فى شقتك أولا نلتقى مطلقا » .

فقلت - « حسنا . اذن فليكن فى شقتى . » ثم أضفت قائلة اننى
ساعود يومئذ الى المنزل فى ساعة متأخرة من المساء .

ثم قلت لمينو ونحن فى طريقنا الى المنزل عائدين - « انى اعرف
ماذا يريد . فهو يبنى مضاجعتى - بيد ان أحدا لم يستطع ان يفتصب
امراة . لقد اتزنى مرة واحدة من قبل عندما كنت تمولنى الخبرة .
ولكنه لن يفلح فى ذلك مرة أخرى » .

فسألنى مينو قائلا فى غير اكتراث - « ولكن لم لا تريدينه ان
يضاجعك ؟ »

- « لانى أحبك » .

« ولكنه ربما رفض ان يعدم التقارير لو ابيت ان تسمحى له بمضاجعتك . » ثم سألنى قائلا بلهجتة التي مازالت عديمة الاكتراث - « فكيف يكون الموقف إذن ؟ »

« بل انه سيعدها . لا تنزعج . »
« ولكن لنفرض انه أبى ان يفعل ذلك الا بشرط واحد . »
وكنا عندئذ نصعد الدرج . فوقفت ساكنة وقلت - « سأفعل ما تقرره أنت . »

فأحاط خصرى بذراعه قائلا فى بطء - « حسنا - هذا هو ما أريده - أريدك ان تأتى بأستاريتنا الى شقتك وان تصحبيه الى غرفتك بقصد المضاجعة . وسأكون أنا واقفا فى انتظاره خلف الباب فأرديه قتيلا بمسدسى لحظة دخوله . ثم ندفع بجثته تحت الفراش ونمارس الحب طوال الليل . »

كانت عيناه تلمعان . فقد انجابت عنهما لأول مرة منذ أيام تلك السحابة الثقيلة التي كانت تغشاهما فتخبى نورهما . وانتابنى الخوف اذ أمكننى ان أرى فى اقتراحه شيئا من المنطق . كما صرت الان اتوقع فى استسلام ان تنزل بى كارثة أقوى وأشد فخيلى لى أنها الجريمة التي يمكن ان ترتكب بالضبط . فهتفت قائلة - « أستحلفك بالله يامينو الا تردد مثل هذه الاشياء ولا حتى على سبيل المزاح ! »
فردد كلامى قائلا - « ولا حتى على سبيل المزاح . لقد كنت أمزح فى الواقع . »

وخطر لى انه ربما لم يكن يمزح مطلقا . ولكننى أحسست بالطمأنينة عندما تذكرت ان المسدس الذي ربما فكر فى استخدامه كان فارغا لاننى كنت قد أخرجت منه الرصاص بنفسى . غير انه لم يكن يعلم ذلك كما سبق ان ذكرت . واسترسلت قائلة - « لا تنزعج . فان أستاريتنا لن يرفض لى طلبا . ولكن اياك ان تتكلم على هذه الصورة مرة أخرى . فليشد ما أخفتنى . »

فقال باستخفاف وهو يدخل الشقة - « أواه ! فلم يعد يمكننى حتى ان أمزح . »

وما كدنا ندخل غرفة الجوارس حتى لاحظت ان نوبة فجائية من القلق قد انتابه فأخذ يذرع الغرفة وقد دس يديه فى جيبه كما لو ف عادته . ولكنه كان يسير بطريقة مختلفة فقد دب النشاط فى حركته واكتسى وجهه بتعبير ينم عن صفاء التفكير وعمقه وعن تخلصه من بلادته ونفوره المألوف . وعزوت ذلك التغير الذى طرا عليه الى

راحته النفسية عندما علم بقرب اعدام الاوراق التي تسيء الى سمعته . فقلت له وقد بعث الامل في صدري من جديد - « سوف نرى ان الامور جميعا لن تلبث ان تستقيم » .

فانتابته رجفة عنيفة ثم نظر الى وكأنه لا يعرفنى مرددا في آلية « نعم - ان الامور جميعا سوف تستقيم » .

وكنت قد ارسلت امي الى خارج الدار بحجة ابتياع بعض الحاجيات للعشاء . وراودنى فجأة شعور بالتفاؤل . فقد خيل لى حقا ان الامور جميعا سوف تستقيم بل لعلها صارت خيرا مما كنت أتوقع . فان أستاريتنا سيستجيب لما أريد . هذا اذا لم يكن قد استجاب بالفعل فيتخلص مينو يوما بعد يوم من تأنيب ضميره . ويبدأ فى التمتع بالحياة من جديد ويتطلع الى المستقبل فى ثقة . ففى وقت الشدة يقنع الناس جميعا بالبقاء فحسب . ولكن ما ان يتغير اتجاه الريح حتى يشرعوا فى وضع الخطط الطامحة ذات المدى البعيد . فقد خيل لى قبل ذلك بيومين اننى قادرة على التخلي عن مينو من أجل سعادته . ولكننى الان وقد وجدتنى مقتنعة بقدرتى على استعادة سعادته لم أتخل فقط عن كل تفكير فى الافتراق عنه بل حاولت ان أدبر وسيلة أستطيع بها ان أربطه بى برباط أقوى وأشد . لم يكن عقلى هو الذى يحثنى على وضع تلك الخطط بل ان قوة غامضة طى روحى هى التى كان يعوزها الامل ولا يمكنها ان تصبر على المهانة والاسى زمنا طويلا . فقد بدا لى ازاء ظروفنا ان هناك حلين ممكنين لا ثالث لهما . فاما ان نفترق او يرتبط كلانا بالآخر مدى الحياة . ولما كنت أرفض حتى ان افكر فى الحل الاول فقد أخذت اتساءل عما اذا كانت هناك وسيلة يمكننى بها ان اصل الى تحقيق الحل الثانى . انى اكره الكذب واعتقد أنه يمكننى ان أضع ضمن صفاتى الايجابية نوعا من الصدق المبالغى فيه . واذا كنت قد كذبت مينو حينذاك فان ذلك يرجع الى عدم احساسى بالكذب مطلقا . لقد بدا لى اننى أقول الصدق . فقد كان ما قلت حقيقة أصدق من الصدق - حقيقة روحية لا مادية . وفى الواقع فانى ما فكرت مطلقا فيما قلت بل كان نوعا من الالهام .

كان يدرع الخوف كالاعتاد وكنت بحالسة الى احد طرفى المائدة . فاذا بى أقول فجأة - « أنصت لى . توقف عن المسير . فهناك شيء يجب ان أخبرك به » .

- « وما هو ؟ »

- « كنت أشعر اخيرا بانى على غير ما يرام . فذهبت لزيارة

الطبيب منذ بضعة أيام - وقد أخبرني بأنى حامل .
فوقف ساكنا ينظر الى ثم ردد كلامى قائلا - « هل أنت حامل ؟ »
- « نعم . وانى على ثقة بانه من اذك أنت والد الطفل » .

كان مينو ذكيا . فقد أدرك في الحال الغرض الحقيقى من ذلك
التصريح رغم أنه لم يستطع أن يتكهن بكذبنى . فتناول مقعدا وجاء
ليجلس بجانبى حيث ربت على خدى فى شغف قائلا - « اعتقد ان
ذلك ينبغى أن يكون سببا آخر بل السبب الرئيس فى الواقع الذى
يجب أن ينسينى ما حدث ويجعلنى اواصل طريقى . اليس كذلك ؟ »
فسألته متظاهرة بأنى لم أفهم مقصده قائلة - « ماذا تعنى ؟ »

فاسترسل قائلا - « ما دمت سأصير رب أسرة فينبغى من أجل
هذا المخلوق البريء - كما تقلن أنتن أيتها النساء - أن أفعل ما لا
ابغى أن أفعله من أجل حبك » .
فقلت هازة كتفى - « أفعل ما شئت . فما كاشفتك بذلك الا لانه
الحقيقة » .

فأردف قائلا وكأنه يفكر بصوت عال - « ان الطفل قبل كل شيء
يمكن أن يكون سببا للحياة . فكثير من الناس لا يطلبون أكثر من ذلك .
فوجود الطفل مبرر للحياة . حتى أنه يمكنك أن تسرقى أو تقتلى من
أجل الطفل » .

فقاطعته فى غضب قائلة - « ومن ذا الذى يريدك أن تسرق أو
تقتل ؟ ما قصدت الا اسعادك . فان كان ذلك لا يسعدك ... اذن
فليس ثمة ما يقال أكثر من هذا » .

فنظر الى وربت على خدى مرة أخرى فى شغف قائلا - « ان كنت
سعيدة بذلك فأنا سعيد . فهل أنت سعيدة ؟ »
فقلت فى فخر وثبات - « نعم . اولالانى أحب الاطفال . وثانيا
لانه طفلك » . فضحك قائلا - « أنت امرأة ذكية » .

- « لماذا ؟ وما وجه الذكاء فى أن أكون حاملا ؟ »
- « لا شيء . ولكنك يجب أن تعترفى أنها ضربة حاسمة فى هذه
اللحظة بالذات . انى حامل وعلى ذلك - ؟ »

- « وعلى ذلك ؟ »
وعندئذ صاح فجأة بأعلى صوته وهو يثب واقفا على قدميه وملوحا
بذراعيه فى جنون قائلا :

- « وعلى ذلك فيجب أن تقبل ما فعلت . وعلى ذلك فيجب أن
تعيش . تعيش . تعيش ! »

وقد فاقت لهجته كل وصف . فأحسست بطعنة في قلبي واغرورقت
عيناى بالدموع . ثم تلعثمت قائلة - « افعل ما شئت . اذا شئت ان
تتركنى اذن فلتتركنى . فانى . فانى سأرحل » .
وكان من الواضح انه اسف لانفجاره فقد جاء الى وربت على مرة
اخرى قائلا : - « انى اسف . لا تكثرئى لما أقول . فكرى فى طفلك
ولا تنزعجى على » .

فتناولت يده وضفطتها على وجهى وغسلتها بدموعى وانا اتعلم
قائلة - « أوآه يا مينو . . . كيف يسعنى الا انزعج عليك ؟ »
وظللنا صامتين على تلك الصورة بعض الوقت . كان واقفا بجانبى
وانا اضفط يده على خدى واقبلها باكية . ثم سمعنا فجأة رنين جرس
الباب الامامى .

فابتعد عنى وقد امتقع وجهه بشدة ولكننى حينذاك لم استطع
ان ادرك السبب فى ذلك . ولم أهتم بسؤاله . بل قفزت واقفة على
قدمى وقلت - « اذهب . ها هو ذا استاريتا ! اسرع ! ابتعد . »

ففسادر الغرفة من باب المطبخ وتركه مواربا . فجففت عيني
بسرعة واعدت المقاعد الى اماكنها ثم خرجت الى الردهة . وعادونى
هلونى التام وثقتى بنفسى . وفى ظلام الردهة خطر لى ان اخبر
آستاريتا بانى حامل . فهذه الطريقة اتقى مضايقاته واذا لم يرغب
فى أداء الصنيع الذى سأطلبه اليه بدافع من حبه لى دفعته الشفقة
الى أدائه .

وما كدت افتح الباب حتى خطوات الى الخلف بسرعة . فقد رايت
سونزونيو على عتبة الباب بدلا من آستاريتا .
كان يدس يديه فى جيبه وعندما حاولت ان أغلق الباب فى وجهه
بطريقة تكاد تكون آلية دفعه فى خفة بكتفه ففتحه على مصراعيه
ودخل الشقة . فتبعته الى غرفة الجاوس حيث ذهب ليقف بجانب
المائدة على مقربة من النافذة . كان حاسر الرأس كعادته . وما ان
دخلت الغرفة حتى أحسست بعينيه الشاخصتين الملحتين مركزتين
على . فأغلقت الباب ثم حدثته متظاهرة بعدم الاكتراث الشديد

قائلة .

- « لماذا جئت ؟ »

- « انك ذهبت لتشى بى . أليس كذلك ؟ »

فهزوت كتفى وجلست الى رأس المائدة قائلة - « انى لم أش

بك . »

« لقد تركتني وذهبت لاستدعاء الشرطة . »

كنت أحس بالهدوء التام . ولو ان شعورا راوذي قط حينذاك
فانه الغضب لا الحزن . اذ انه لم يعد يخشني . واحسست بالغضب
يغلي في صدري لينصب عليه وعلى كل من وقف حائلا دون سعادتي
كما فعل هو . قلت - « لقد تركتك وذهبت لانى احب رجلا اخر
ولا اريد ان تكون لى صلة بك بعد ذلك . ولكننى لم استدع الشرطة .
فانا لست مرشدة . بل ان رجال الشرطة جاءوا من تلقاء انفسهم
للبحث عن شخص آخر . »

فاقبل على وامسك بى من خدى ثم قرصهما بقسوة شديدة
جعلتنى افتح فاي وهو يرفع وجهى نحوه قائلا - « يمكنك ان تحمدى
الله على انك امرأة . »

وظل يقرص خدى مما جعلنى الوى وجهى فى الم على صورة
مخيفة ومضحكة فى نفس الوقت . فاستولى على الغضب وقفزت
واقفة على قدمى وانا اصيح قائلة - « اخرج من هنا ايها الاحمق ! »

فأعاد يديه الى جيبه واقترب منى وهو يحملق فى عينى كالمعتاد .
فصحت قائلة مرة اخرى : - « انك لأحمق ! بعضلاتك وعينيك
الزرقاوين الصغيرتين ورأسك الاصلع ! اخرج من هنا ! اغرب ايها
الابله ! »

وخيل لى انه احمق بحق وهو واقف هناك فى صمت تعلو فمه
الرقيق المعوج ابتساما واهنة وقد دس يديه فى جيبه وهو لا يفتأ
يحملق فى مقتربا منى . فجريت نحو الطرف الاخر من المائدة حيث
امسكت بمكواة ثقيلة وصحت قائلة - « اخرج من هنا ايها الابله !
والا هشمت وجهك بهذه المكواة ! »

فتردد لحظة ثم وقف ساكنا . وفى نفس اللحظة فتح من خلفى
باب غرفة الجلوس وظهر استاريتا فى مدخل الغرفة . وكان واضحا
انه وجد الباب مفتوحا فسار الى الداخل فاستدرت نحوه صائحة -
« مر هذا الرجل بالخروج من هنا . فلست ادرى ماذا يريد . مره
بالخروج من هنا . »

ولا ادرى لماذا كانت اناقة استاريتا فى تلك المناسبة مبعثا لسرونى
الشديد . فقد كان يرتدى مغطا رماديا ذا صبغين تبدو عليه العدة
وكان يلبس قميصا من الحرير ذا خطوط حمراء على خلفية بيضاء .
وقد اندس بين ثنايا حلتته الزرقاء الداكنة رباط عنق رمادى بلون
الفضة من الحرير المتاون . فنظرالى وانا واقفة هناك ألوح بالكواة ثم نظر

الى سونزونيو قائلا في هدوء - « لقد امرتك السيدة الصغيرة
بالانصراف ، فاذا تنتظر ؟ »

فقال سونزونيو في صوت عميق للغاية - « هناك أمور كثيرة يجب
ان نتحدث فيها أنا والسيدة الصغيرة . فيحسن بك ان تنصرف . »

وكان آستاريتا قد خلع قبعته عند دخوله وهي قبعة سوداء من
اللباد ذات حاشية حريرية . فوضعها في هدوء على المائدة ثم اتجه
صوب سونزونيو . وقد أدهشني موقفه . فقد بدت عيناه تومضان
في تحفز للعراك وكانتا عادة شديدتي السواد والاكتئاب . كما التوى
فمه الكبير الى أعلى مبتسما في لذة وتحذ كاشفا عن أسنانه . ثم
قال مشددا على كل مقطع من مقاطع ألفاظه - « اذن فأنت تأبى
الخروج . ولكننى أوكد لك انك خارج من هنا وبسرعة . »

فهز سونزونيو رأسه رافضا ذلك ولكنه لدهشتى تقهقر خطوة
الى الوراء . ثم تذكرت بالضبط من هو سونزونيو . وانتابنى
الخوف لا على نفسى بل على آستاريتا الذى راح يستفزه بجرأة
شديدة دون ان يدري من هو . فراودنى نفس الشعور بالالم الذى
كان يراودنى فى طفولتى عندما اذهب الى السيرك حيث أرى مروض
الاسود الصغير ممسكا بسوط يشاكس به اسدا ضخما زار فى
وجهه . فهيمت بأن اصيح قائلة - « حذار ! فهذا وحش سفاح ! »
ولكننى لم أقو على ذلك . وعاد آستاريتا يقول له - « هل أنت
ذاهب - أم لا ؟ »

فهز سونزونيو رأسه مرة أخرى وتقهقر خطوة ثانية الى الخاف .
فتقدم آستاريتا خطوة واحدة حتى صارا يقفان وجها لوجه وقد
تساوى ارتفاع قامتيهما . وكاد كلاهما يلمس الآخر . وسأله
آستاريتا قائلا تعلق وجهه نفس التصعيرة المتوية - « من أنت على
اية حال ؟ قل لى ما اسمك - هيا ! »

ولكن سونزونيو لم يحر جوابا . فردد آستاريتا كلامه قائلا
بلهجة تكاد تكون شهوانية وكان صمت سونزونيو كان مبعثا
للذته - « اذن فأنت تأبى ذلك - هه ؟ تأبى ان تقول لى من أنت
وتابى ان تخرج من هنا - هه ؟ اليس كذلك ؟ »

فانتظر لحظة ثم رفع يده وصفع سونزونيو بقوة على احدى
وجنتيه ثم على الاخرى . فرفعت قبضتى الى فمى وغرزت فيها
أسناني . ثم حدثت نفسى قائلة وقد اغمضت عيني : - « والان
سيقتله . » ولكننى سمعت صوت آستاريتا وهو يقول - « والان

عليك ان تغرب . تحرك بسرعة ! » ففتحت عيني مرة اخرى لارى
آستاريتا وهو يدفع سونزونيو نحو الباب . كان يجره من ياقة
معطفه . وقد بدأ سونزونيو طبعاً رغم احمرار وجهه من أثر
الصفعات التى تلقاها . اذ انقاد له وكأنه كان يفكر فى شيء آخر .
وقد دفعه آستاريتا الى خارج غرفة الجلوس ثم سمعت الباب
الامامى يصفق بعنف . وعاد آستاريتا الى الظهور .

سألنى وهو يبعد فى آلية خيطا كان على صدر معطفه - « من
هذا ؟ » ثم أخذ يتفحص هندامه وكأنه يخشى ان يكون قد أفسد أناقته
بما بذله من مجهود عنيف .

فكذبت قائلة - « لم اعرف لقبه قط . كل ما اعرفه ان اسمه
كارلو . »

فأجابنى بضحكة هازئة وهو يهز رأسه قائلاً - « كارلو . » ثم
أقبل نحوى . كنت واقفة فى اطار النافذة اتطلع الى الخارج من خلال
الواح الزجاج . فأحاط خصرى بذراعه . ثم سألنى قائلاً وقد تغير
صوته وتعبيره تغيراً تاماً - « كيف حالك ؟ »

فقلت دون ان انظر اليه - « على خير ما يرام . » فحملق فى ثم
ضمنى اليه بقوة دون ان يتكلم . فدفعته بعيداً فى رفق ثم قلت -
« لشد ما كنت رقيقاً معى . لقد اتصلت بك تليفونياً لأسألك
صنيعاً . »

فقال - « فلنر ما هو . » وكان لا يزال يحملق فى . ولم يبد
عليه انه مصغ الى .

فبدأت أتكلم قائلة - « ذلك الشاب الذى استجوبته - »
فقاطعنى فى عبوس قائلاً - « نعم . أعود الى الحديث عن ذلك

الشاب ؟ لقد تبين لى انه ليس على جانب كبير من البطولة . »
فدفعنى الفضول لان اعرف حقيقة ما حدث اثناء لقائه بمينو .
فسألته قائلة :

- « لماذا ؟ اكان خائفاً ؟ »

فهز آستاريتا رأسه قائلاً - « لست ادرى ان كان قد انتابه
الخوف أم لا . كل ما ادرىه انه ما ان وجه اليه اول سؤال حتى باح
بكل شيء . ولو انه أنكر لما أمكننى ان افعل له شيئاً . فلم يكن
لدى الأدلة . »

وحدثت نفسى قائلة « اذن فقد صح ما قانه مينو . وكلان اعترافه
لوعا من الغفلة الفجائية . كان سقطة لم تطلب اليه ولم يدفع اليها

ولا مبرر لها « . فأردفت قائلة - « اعتقد أنك سجلت ما قال . أريد منك ان تعلم كل اثر لما دونت . » فابتسم قائلا - « لقد ارسلك الى . اليس كذلك ؟ » فاجبته قائلة - « كلا . انه اقتراحي . » ثم اضفت قائلة بلهجة مؤثرة - « ليتنى اصعق الان ان كنت كاذبة . »

- « انهم جميعا يتمنون لو اختفت السجلات . فان ارشيف الشرطة يمثل ضمائرهم القلقة . واذا ما اختفى السجل زایلهم ايضا تأنيب الضمير . »

قلت متذكرة مينو - « اتمنى لو صح ذلك . ولكننى اخشى انك مخطيء في هذه المرة . »

فضمنى اليه مرة اخرى وهو يضغط بجسده على جسدى . ثم تلعثم قائلا وهو يرتجف بالرغبة :
- « وماذا تعطينى في مقابل ذلك ؟ »

فقلت في بساطة - « لا شيء . لا شيء مطلقا في هذه المرة . »
- « ولنفرض اننى رفضت ؟ »

- « عندئذ تتسبب في تعاستى الشديدة لانى احبه . فكل ما يحدث له يبدو وكأنه يحدث لى . »

- « ولكنك وعدتني بأن تترفقى بى . »

- « حقا . غير اننى عدلت عن ذلك . »

- « لماذا ؟ »

- « لهذا . فليس هناك سبب معين . »

فضمنى اليه مرة اخرى ثم وضع فمه على اذنى واخذ يتلعثم متوسلا الى ان اخضع لرغبته اليائسة لآخر مرة . ولا أستطيع ان اردد كل ما قاله لانه خلطتوسلاته بأقوال فاحشة لا يمكننى ان اكتبها . تلك الاقوال التى يرددها الرجال لمثيلاتى من النساء وترددها مثيلاتى من النساء لعشاقهن . اخذ يقول تلك الاشياء بتفصيل دقيق ولكن بغير تلك البهجة اللانهائية المألوفة التى تصاحب مثل هذه الانفجارات .

بل فى لذة حزينة وكأنه مخبول . ولقد سمعت ذات مرة مريضا مصابا بجنون القتل يصف لمرطبه صوف العذاب التى سينزلها به لو شاءت المقادير ان يقع تحت رحمته . وكان يتكلم بنفس اللهجة

الدقيقة الجادة المتزنة التى اخذ يهمس بها استاريتا فى اذنى معبرا عن فحشائه . وكان مايقصده فى الحقيقة بذلك الوصف هو حبه لى الذى جمع بين الشهوة والحزن الفاجع . ولو كان فى مكانى أى شخص

آخر لتبادر الى ذهنه ان مايقوله لايعدو ان يكون تعبيرا عن الشهوة .
إما اذا فعل العكس اذ أدركت انه حب عريق مطلق خالص على طريقته
كأي حب آخر . فانار ذلك شفقتي عليه كما كان يحدث دائما لأنني
استطعت ان اتكهن بما يستبطن فحشاءه من احساس بالوحدة وعجز
تام عن التخلص منه . فتركته يفرغ جعبته قبل ان اتحدث اليه
قائلة - « اني لم اشأ ان اخبرك ولكنك ترغمني على ذلك . افعل
ماشئت . ولكنني لن أستطيع ان اكون كما كنت . فاني حامل . »
فلم يدهش . اذ انه كان لايجيد لحظة واحدة عن غايته الثابتة
المحددة . بل قال :

- « حسنا - وماذا اذن ؟ »

- « سأغير أسلوب حياتي . سأتزوج . »

كان السبب الرئيسي الذي دفعني الى مصارحته بحالتي هو أن
اعزيه عن رفضي طلبه . ولكنني بينما كنت اتكلم أدركت اني اترجم
عن رأيي الحقيقي وأن الفاظي كانت نابغة من قلبي . فأردفت قائلة
وأنا أتهدد - « عندما عرفتنى لأول مرة كنت ابغى الزواج . واذا
كنت لم افعل فذلك ليس خطئي » .
وكانت ذراعه لاتزال حول خصرى ولكنه خفف من احاطته بي .
وعندئذ انسحب بعيدا عنى وهو يقول - « لعنة الله على اليوم الذي
لقيتك فيه ! »

- « لماذا ؟ »

فبصق مشيحا براسه جانبا ثم استرسل قائلا - « لعنة الله على
اليوم الذي لقيتك فيه وعلى يوم مولدى . » كان يتكلم فى هدوء .
ولم يبد أنه ينفس عن أية عاطفة عنيفة . بل كان يتحدث فى هدوء
وثقة . ثم أضاف قائلا - « ليس هناك مايدعو صديقك الى الخوف .
فان لقائى به لم يسجل - والمعلومات التى ادلى بها لم يعقبا اجراء
ما . كل ماهنالك أن اسمه مدون فى سجلاتنا باعتبار أنه عنصر خطر
من الناحية السياسية . وداعا يا آدرينا . »

مكثت بجانب النافذة حيث ودعته عند رحيله كما ودعنى . ثم
التفت فبعته التى كانت على المائدة وفادار الدار دون ان يسلم
نحوى .

وفى الحال فتح الباب المؤدى الى المطبخ ودخل مينو ممسكا
بمسدسه فى يده . . فحملقت فيه مدهوشة بخالجنى احساس
بالفراغ والعجز عن الكلام .

ثم قال مبتسما - « كانت نيتي مبيتة على قتل آستاريتا . اخيل لك حقا انني ابالي ان اخنفت أوراق قضيتي أم لا ؟ »
فسأله فأنه في صوت مذهول - « اذن فلم لم تقتله ؟ »
فقال وهو يهز رأسه - « لقد استنزل اللعنة من اعماقه على يوم مولده . فأثرت ان يواصل لعناته عاما أو عامين . »
وأحسست ان أمرا ما كان يزعجني ولكنني عجزت عن اكتشافه رغم مابذلته من جهد مضم . فقلت - « على أية حال لقد حصلت على ما أريد . فليس ثمة شيء مدون . »

فقاطعني قائلا - « لقد سمعته . سمعت كل شيء . فقد وقفت خلف الباب وكان مواردبا . كما شاهدت ما فعل . » ثم أضساف قائلا في غير اكتراث - « فهو شجاع . ان صديقك آستاريتا رجل شجاع . اذ نعت طريقته في صفع سونزونيو عن السيطرة التامة ! فهناك طرق معينة تؤدي بها مثل هذه الاعمال حتى توجيه الصفعات . لقد ضربه وكأنه رجل عظيم يضرب مخلوقا حقيرا أو سيد يضرب خادمه . كما عجبت للطريقة التي تقبل بها سونزونيو صفعاته ! فانه لم ينطق بكلمة . » ثم ضحك وأعاد مسدسه الى جيبه .
وقد حيرني الى حد ما ثناؤه الغريب على آستاريتا . وسألته قائلة في رجفة - « ماذا تتوقع ان يفعل سونزونيو ؟ »
- « من يعلم ؟ »

عندئذ كان الليل يوشك ان يخيم فقد شاع الظلام الحالك في غرفة الجلوس . واثكأ مينو فوق المائدة ليشعل المصباح الاوسط . فبقى كل ماحولنا غارقا في الظلام . وقد وضعت على المائدة نظارة أمي وأوراق اللعب الخاصة بها . فجلس مينو والتقط الورق ثم خلطه قائلا - « هل لك في احدى ألعاب الورق اثناء انتظارنا العشاء ؟ »

فهتفت قائلة - « ياله من اقتراح ! نلعب الورق ! »
- « نعم . بيجار ماي نيبير Beggar My Neighbour هيا . »
فامتثلت له وجلست أمامه ثم تناولت في آلية ماوزعه على من الورق . وكان براسي ذهبل وبيدي رجفة لا أدري لها سببا . وبدأت اللعب فبدت لي صور الأوراق وقد اتخذت طابعا خبيثا مزعجا . فبدأ الاعرج السباتي أسود شريرا بعينه السوداء ، وزهرته السوداء في يده . وبدت البنت « الكوبة » شهوانية منفعة معدومة الشكل . أما « الباش الديناري » فقد بدا مكرشا باردا عديم الحس غليظ

القلب . واحسست ان الرهان بيننا في اللعب ذو اهمية بالغة . ولكننى لم ادر ماهو . ولشد ما كنت حزينة حتى اننى اخذت اتهد من وقت لآخر اثناء اللعب لارى ما اذا كان ذلك العبد الثقيل لا يزال جاثما على صدرى . فاذا بى احس انه ليس جاثما فحسب بل زاد ثقلا . وعندما فاز فى الشوط الاول والثانى سألنى قائلا وهو يخلط الورق - « ماذا دهالك ؟ انك لاتجيدين اللعب مطلقا ! » فألقيت الورق قائلة - « لاتعذبنى على هذه الصورة يامينو ! فانى فى الواقع لا اشعر مطلقا بالرغبة فى اللعب . » - « لماذا ؟ »

ثم نهضت واقفة واخذت اتجول فى أرجاء الغرفة وانا افرك يدى فى قوة دون ان يرانى . ثم اقترحت عليه قائلة - « هلا ذهبنا الى الغرفة الاخرى ؟ » - « ان شئت ذلك . »

فخرجنا الى الردهة . وهناك فى الظلام احاط خصرى بذراعه ولثم عنقى . ولاول مرة فى حياتى احسست ان الحب كان - كما يعتقد هو - وسيلة للتخدير وطرده الافكار ولكنه ليس الذ ولا اهم من اية وسيلة اخرى . فأمسكت رأسه بيدي وقبلته فى عنف . ودخلنا الغرفة وقد تشبث كلانا بالآخر . وكانت غارقة فى الظلام ولكننى لم احظ ذلك . فقد ملا عيني ضوء متألّق احمر كالدم . وكانت كل حركة من حركاتنا تتميز بروعة السنة اللهب وهى تشب فى سرعة وبغته من النار التى راحت تلتهمنا . فأحيانا تبدو اجسادنا وكأنها تملك حاسة سادسة فنألف الظلام كما نألف ضوء الشمس . ولكنها رؤيا لاتتجاوز حدود الاتصال البدنى فكان كل ما امكننى رؤيته هو منظر جسدينا وقد انعكست صورتها على صفحة الظلام وكأنهما جسدا غريقين أقت بهما على الشاطيء دوامة سوداء .

وفجأة وجدتنى راقدة على الفراش وقد انعكس ضوء المصباح على بطنى العارى . فضمت فخذى بقوة ولا ادرى ان كان ذلك بسبب البرد أو الخجل . ثم سترت نفسى بيدي . فنظر الى مينو قائلا - « والان سيأخذ بطنك فى الانتفاخ ويبدأ ويبدأ كل شهر الى ان ياتى يوم يرفعك فيه الألم على ان تفتحي ساقيك اللتين تضمينهما الآن بقوة ثم يظهر رأس الطفل وقد كساه الشعر فتلفظينه الى ضوء النهار ليلتقطه المحيطون بك ويضعوه بين ذراعيك فتشعرين بالسعادة . وهكذا يضاف رجل آخر الى العالم . فلنأمل الا يردد مقاله أستاريتا . »

« وماذا قال ؟ »

« لعنة الله على يوم مولدى . »

فقلت :

« آستاريتا رجل تعس . ولكنى واثقة أن ابنى سيكون سعيدا
مجدودا . »

ثم تدرت بالبطانية واعتقد أننى استغرقت فى النوم . ولكن اسم
آستاريتا أيقظ فى قلبى من جديد ذلك الاحساس بالالم الذى راودنى
بعد رحيله . وفجأة سمعت صوتا مجهولا يصيح فى اذنى بنبرات
عالية قائلا - « بام . بام ! » وكأنه يقلد صوت طلقين ناريين .
فنهضت من الفراش واتجهت صوب الباب لاناكد من أنه مفلق
باحكام . ولكنى اصطدمت بمينو الذى كان واقفا فى كامل هندامه
يدخن بالقرب من الباب . فعدت الى الفراش حيث جلست على
حافته وقد انتابنى الدهول والحيرة . وسألته قائلة - « مارايك ؟
ماذا سيفعل سونزونيو ؟ »

فاجابنى قائلا وهو ينظر الى - « وكيف أعلم ذلك ؟ »

فقلت وقد واتنى الالفاظ اخيرا لاعبر بها عن المي - « انى اعرفه .
فانقياده له دون احتجاج وهو يدفعه الى خارج الغرفة لايغنى
شيئا . فهو قادر تماما على قتله . ما رأيك ؟ »

- « ربما . فذلك امر محتمل جدا . »

- « اتعتقد أنه سيقتله ؟ »

- « لو أنه فعل ذلك لما دهشت . »

فصحت قائلة وأنا أنهض من مكانى لابدأ فى ارتداء ثيابى دون مزيد
من اللفظ - « يجب أن نحذره أنا واثقة أنه سيقتله . آواه ! لم لم
أفكر فى ذلك من قبل ؟ »

ارتديت ثيابى بسرعة أثناء حديثى عن مخاوفى وأحاسيسى
الداخلية . ولم ينبس مينو بكلمة بل ظل يدخن متجولا فى أرجاء
الغرفة . وأخيرا قلت - « انى ذاهبة الى منزل آستاريتا . فهو
الآن فى داره . انتظرنى هنا . »

« انى قادر . معك . »

فلم أصر على ما قلت . بل فرحت من أعماقى لصحبته إذ أننى
كنت فى حالة من الاضطراب يخشى معها أن ينتابنى المرض . قلت
وأنا أرتدى معطفى - « يجب أن نستقل سيارة فى الحال » ولبس
مينو معطفه أيضا ثم غادرنا المنزل .

واخذت اهرول في الطريق اكاد اركض . فوسع مينو خطاه لكي يلحق بي وقد شك ذراعه بذراعي . وما لبثنا ان وجدنا سيارة فأسرعت بركوبها وأنا أصبح مدليه بعنوان أستاريتا . وكان يقطن في أحد شوارع حي « براتي » الذي لم أره قط من قبل ولكنني كنت أعلم انه يقع على مقربة من المحاكم .

واخذت السيارة تستجمع سرعتها بينما لم افتأ اتابع الطريق وكأني مخبولة وقد اتكأت الى الامام مراقبة الشوارع من فوق كتف السائق . وفي لحظة معينة سمعت مينو يقول في هدوء - « وماذا لو فعل ؟ فبذلك تكون أفعى قد التهمت أفعى . هذا هو كل ما هنالك . » ولكنني لم التفت اليه . وما ان وصلت السيارة الى خارج مبنى وزارة العدل حتى أمرت السائق بالوقوف . فنقده مينو أجره ثم غادرنا السيارة . وركضنا عبر الحديقة الصغيرة ذات الشكل الهندسي مجتازين ممراتها المغطاة بالحصباء فيما بين الأشجار والمقاعد . وفجأة اذا بالشارع الذي يسكنه أستاريتا يمتد امامي كالسيف طويلا مستقيما وقد أضاءه عن بعد صف من المصابيح الكبيرة البيضاء . كان شارعا ذا منازل ضخمة بنيت في نظام وقد بدا مهجورا لخلوه من المحال التجارية . وقدرت من الرقم ان يكون منزل أستاريتا قرب نهاية الشارع الذي لشد ما سادته الهدوء حتى قلت - « لعلها كلها تخيلات . . ولكن لا يسعني الا أن أفعل ذلك »

ومررنا بثلاثة مبان أو أربعة وبمثلها من مفارق الطرق ثم تكلم مينو قائلا في هدوء : - « ومع ذلك فلا ريب أن شيئا قد وقع . انظري هناك . » وما ان رفعت بصري حتى رأيت زحاما أسود كان قد تجمع امام أحد الابواب الامامية غير بعيد من مكاننا . فقد اصطف الناس على الافريز المواجه وهم يتطلعون بأبصارهم نحو السماء المظلمة . وتأكدت أن ذلك بلا ريب هو منزل أستاريتا فأخذت اجري نحوه كما اعتقد أن مينو كان يجري أيضا . ولهتت قائلة لاحد الافراد المتجمهرين حول مدخل الدار - « ماذا هناك ؟ ماذا حدث ؟ »

فقال الشخص الذي خاطبته وكان فتى صغيرا أشقر حاسر الرأس والذراعين يمسك بدراجة من قضبان مقودها - « لم ينجل الامر تماما . فقد ألقى شخص بنفسه في بحر السلم . أو ألقى به . » وصعد رجال الشرطة الى سطح المنزل للبحث عن شخص آخر . « فشقت طريقي خلال الزحام وأفسحت لنفسي مكانا بمرفقي في ردهة المدخل التي كانت فسيحة باهرة الإضاءة مزدحمة بالناس .

وثمة درج أبيض ذو سياج حديدي كان يرتفع في منحني واسع فوق رؤوس الناس . وبينما كنت أشق طريقتي إلى الإمام وأنا أكاد ارتفع عن الأرض بقوى الدافعة أمكنني أن أرى من فوق كل هذه الرؤوس والمناكب مكانا مكشوبا على الأرض أسفل الدرج . وثمة عمود رخامي أبيض مستدير كان يحمل تمثالا عاريا مجنحا من البرونز المذهب وقد ارتفعت إحدى ذراعيه ممسكة بمشعل زجاجي أغبش ركب في داخله مصباح كهربائي ، وفي أسفل ذلك العمود مباشرة رقد جثمان آدمي مسجى بملاءة . وكان الجميع ينظرون في نفس الاتجاه فنظرت أنا أيضا حيث لاحظت أنهم يحملقون في قدم بارزة من تحت الملاءة وقد انتعلت حذاء أسود . عندئذ سمعت أناسا كثيرين يصيحون قائلين بلهجة أمرية - « ابتعدوا . ابتعدوا ! » فاندفعت مع الآخرين جميعا إلى الورا حيث وجدت نفسي في الطريق .

فقلت في ضعف لشخص كان يقف خلفي تماما - « فلنذهب إلى المنزل يامينو ! » ثم استدرت نحوه فاذا بي أمام وجه مجهول أخذ ينظر إلى في دهشة . وأخذ الناس يتفرقون معلقين على ما حدث بعد أن ظلوا يحتجون عبثا وهم يطرقون الباب المغلق على حين لم يفتأ قوم آخرون يفدون على المكان راكضين من اتجاهات أخرى . فقد وقفت سيارتان وعدد من راكبي الدراجات لتحري ما حدث . وأخذت أتجول خلال الزحام وقد انتابتني حالة من القلق المتزايد فرحت أتفحص الوجوه دون أن أجرؤ على مخاطبة أصحابها . فكانت بعض الرؤوس والمناكب تبدو من الخلف وكأنها لمينو، فأشق طريقتي باندفاع حتى أتوسط كل جماعة فاذا بعدد من الوجوه المجهولة تطالعني في دهشة . وكان الزحام حول مدخل الدار لا يزال على أشده فقد كان الناس يعلمون بوجود جثة في الداخل وما زالوا يأملون في القاء نظرة عليها . وقد تزاحموا في جد وجلد كأنهم يقفون في صف خارج أحد المسارح . وظللت أتجول هنا وهناك حتى أدركت في لحظة معينة أنني كنت أتفحص كل وجه ولم أفتأ أطلع نفس الوجوه . وقد خيل لي أنني سمعت اسم أستاريتا يتردد في إحدى الجماعات فلاحظت أنني لم أكن قد تركتني على مينو كل أحاسيس بالأمم . وأخيرا اكتشفت بأنه لا يمكن أن يكون هناك . فلا ريب أنه انصرف عندما شققت طريقتي إلى داخل الردهة . وخيل لي ولا أدري لذلك سببا أنه كان ينبغي على أن أتوقع هروبه . وعجبت كيف أنني لم أفكر في ذلك من قبل . وما إن استجمعت شجاعتي حتى تحاملت على نفسي إلى أن

بلغت الساحة حيث ركبت سيارة وأدليت بعنوان منزلى . وخطر لى أن مينو ربما افتقدنى فى الزحام فعاد الى المنزل وحده . ولكننى كنت على يقين تقريبا من أن ذلك الاحتمال غير صحيح .
لم يكن فى المنزل ولم يعد لافى ذلك المساء ولا فى اليوم التالى فاحتبست فى غرفتى وقد استحوذ على شعور قوى بالقلق والاضطراب حتى أننى لم أستطع أن أتمالك نفسى من الرجفة فى جميع أطرافى . كانت حرارتى طبيعية ولكن بدا لى أننى أعيش خارج نفسى فى جو شاذ يتجاوز حدود طاقتى وكان كل مشهد فيه وكل صوت وكل احتكاك بالمجتمع يؤذنى ويضننى . ولم يقو شىء على تشتيت ذهنى وصرفه عن التفكير فى مينو ولا حتى تلك الجريمة الجديدة التى ارتكبها سونزونيو وامتلات بها جميع الصحف التى كانت تحملها الى أمى . وكانت تلك الجريمة تحمل طابع سونزونيو الذى لا يمكن أن يخطئه أحد . فلعلمنا اشتبكا فى صراع مدة لحظة خارج الباب الامامى لشقة أستاريتا ثم حتى سونزونيو ظهر أستاريتا الى الخلف على سباج الدرج ورفعها الى أعلى ثم ألقى به فى بئر السلم . مثل هذه الوحشية كانت معبرة للغاية : ولا يمكن أن يفكر أحد فى القتل على هذه الصورة سوى سونزونيو . ولكننى كما قلت لم يكن يشغل بالى سوى خاطر واحد ولم يقو شىء على أن يثير اهتمامى ولا حتى تلك المقالات التى وصفت للناس كيف قتل سونزونيو بعد ذلك بعبارة نارى فى ساعة متأخرة من الليلة نفسها أثناء هروبه كالقط عبر سطوح المنازل . فقد كانت كل صورة من صور الانشغال أو تشتيت الذهن أو حتى التأمل فى غير مينو تعافها نفسى وتماؤنى بالفغيان . ولكن التفكير فى مينو كان فى نفس الوقت يسبب لى الما مبرحا لا يمكن احتمالاه . وحدث أن خطر أستاريتا على بالى مرتين أو ثلاثا وما أن تذكرت حبه لى وكآبته حتى خالجنى نحوه احساس قوى بالشفقة العاجزة وحدثت نفسى قائلة اننى لولا قلقى الشديد على مينو لبكيتته واصلت على روحه التى لم تعرف السعادة قط والتى انتزعت من جسده بطريقة أشد ماتكون بغتة ووحشية .

هكذا أمضيت سحابة اليوم الاول بطوله وليله كاملا ثم نهار اليوم التالى وليله . فكنت تارة أرقد على الفراش وتارة أجلس فى التسكع عند طرف سريرى ممسكة بين يدي بأحدى سترات مينو وقد وجدتها معلقة على المشجب . وكنت بين الفينة والفينة أقبلها فى حرارة وحماس أو أعضها بأسناني لاهدىء من قلقى . وكنت عندما ترغمنى أمى على

تناول شيء من الطعام استخدم في تناوله بدا واحدة فقط بينما اظل قابضة بيدي الاخرى في تشنج على سترة مينو . وفي الليلة الثانية ارادت امي ان تصنع الفراش اخذت الى اليوم فتركها تخرج لي ثيابي . ولكنها ما ان حاولت تاخذ السترة مني حتى اطلقت صرخة حادة ملاتها بالرعب . وكانت امي لا تعرف شيئا معرفة مؤكدة بل قدرت على نحو ما ان غيبة مينو عن المنزل هي التي دفعتني الى اليأس .

وفي اليوم الثالث امكنت ان اصل الى فكرة ما تشبثت بها في قوة طوال الصباح رغم احساسى الغامض بمدى عيها وعدم استنادها الى اساس قوى . فقد خيل لي ان مينو قد انتابه الذعر عندما علم بحملي واراد ان يتهرب من الواجبات الملقاة على عاتقه فرحل الى منزل أسرته في الريف . ومع ان ذلك الفرض كان بفيضا فقد آثرت ان اظن به هذه النذالة على ان اقبل الفروض الاخرى التي لم يسعني الا ان اتخيلها لتفسير اختفائه والتي لشد ما كانت اليمة مفاجعة . وقد اوحى بها الى الظروف الملابس لهربه .

وفي ظهر ذلك اليوم دخلت امي غرفتي واقلت بخطاب على الفراش . فتعرفت على خط مينو ووثب قلبي من الفرح وانتظرت ريثما تغادر امي الغرفة ثم انتظرت حتى يهدأ روعى قليلا . وبعد ذلك فتحت الخطاب وهاهو ذا نصه :

آدريانا يا اعلی حبيبة .

في اللحظة التي تسلمين فيها هذا الخطاب اكون قد رحلت عن هذه الدنيا . عندما فتحت المسدس ووجدته فارغا ادركت في الحال انك الفاعلة . واتجه تفكيري اليك في حب شديد . لهفى عليك يا آدريانا فانت لا تعرفين شيئا عن هذه الاسلحة . فثمة رصاصة اخرى كانت باقية في المخزن . وقد عزز من تصميمي اغفالك اياها . وعلى اية حال فهناك طرق كثيرة للانتحار .

لقد وجدت نفسي كما قلت لك عاجزا عن قبول ما فعلت . كما احسست بالحب نحوك خلال الايام القليلة الاخيرة . ولكنني لو كنت منطقياً مع نفسي لوجب على ان اكرهك . فانت تمثلين كل ما امقته في نفسي اشد المقت - كل ما كسنت عنك في نفسي تلك المقابلة . فان ما حدث عندئذ في الواقع كان انهيارا لتلك الشخصية التي ينبغي عنى ان اكونها . فتعريت الا من ذلك الرجل الذي يمثلني في الحقيقة . فلم يكن ما حدث جننا او خيانة بل انقطاعا غامضا في الارادة فحسب .

ولعله ليس غامضا الى هذا الحد - ولكن ذلك قد يحملنى بعيدا عن الموضوع . كل ما أريد ان أقوله هو اننى بانتحسارى أضع الامور فى نصائبها الذى ينبغى أن تكون عليه .
لا تجزعى فانى لا أكرهك . بل لشد ما أحبك فى الواقع حتى اننى لا أرضى عن الحياة الا اذا فكرت فىك . ولو كان فى امكانى لواصلت الحياة ولاتخذتك زوجة لى ولكانت السعادة من نصيبنا كما تعودت أن تقولى . ولكن ذلك فى الواقع ليس فى الامكان .
كما تذكرت الطفل الذى تحملينه . فكتبت بشأنه رسالتين احدهما الى أسرته والاخرى الى صديق محام . وهم قوم مهذبون قبل كل شيء . فعلى الرغم من أن مشاعرهم نحوك لايمكن أن يحوطها الفموض فانى واثق من أنهم سيؤدون واجبهم . اما اذا رفضوا - وهذا امر بعيد الاحتمال للغاية فلا تترددى فى اللجوء الى القانون - وسوف يزورك صديقى المحامى ويمكنك أن تثقى به .
اذكرينى أحيانا . وانى اقبلك .

مينو

ملحوظة : صديقى المحامى يدعى فرانسيسكو لاورو . ويقوم بالمنزل رقم ٣ بشارع فياكولا دى رنزو .
ما ان قرأت هذه الرسالة حتى دفنت نفسى بين اغطية الفراش حيث جذبت الملاءة فوق رأسى واخذت أبكى فى مرارة . ولايمكننى أن اذكركم طال بكائى . فكلما خيل لى اننى توقفت عن البكاء اذا يتمزق اليم حاد فى صدرى يجعلنى انفجر باكية من جديد . ولم أبك بصوت عال كما كنت اتمنى أن افعل خشية أن اجذب انتباه امى . فرحت أبكى فى صمت . وخيل لى اننى أبكى لآخر مرة فى حياتى بأسرها . فبكيت مينو وبكيت نفسى وبكيت حياتى الماضية بأسرها وكذلك حياتى المستقبلية .

وأخيرا نهضت من الفراش وأنا لا أزال أبكى يخالجنى احساس بالذهول وبلادة الذهن وبدأت ارتدى ثيابى بسرعة وقد عشيت عيناي بالدموع . ثم غسلت عينى بالماء البارد . وطلت وجهى الاحمر التورم بقدر ما أمكننى ذلك . ثم غادرت المنزل فى هدوء دون أن اخبر امى .

وتوجهت الى مركز الشرطة المحلى حيث قابلت المأمور . فأنصت الى روايتى ثم قال يراوده الشك - « لم تصلنا فى الواقع أية معلومات فستجدينه قد فكر فى الامر مرتين . »

وتمنيت لو صح ما قال ، ولكنى ضقت به في نفس الوقت دون ان ادري ذلك سبباً . فقلت في حدى - (انت تكلم بهذه المهجة لانك لا تعرفه . اتحسبهم جميعاً على شاكلتك ؟)

فسألنى قائلاً - « انصتى الى ! اتريدينه حيا ام ميتا ؟ »
فصحت قائلة - « اريده ان يعيش ! اريده ان يعيش ! ولكنى لشد ما أخشى ان يكون قد مات . »

ففكر قائلاً - « تشجى . فربما كان ينوى الانتحار عندما كتب لك هذا الخطاب . ولكن لعله عدل عن ذلك فيما بعد . فهو كائن بشرى ومن المحتمل ان يحدث ذلك لاي شخص . »

فتعلمت قائلة - « نعم . انه كائن بشرى . » ولم اعد ادري ماذا انا قائلة .

ثم ختم حديثه قائلاً - « وعلى اية حال فلتعودى الينا هذا المساء . وعندئذ يمكننى ان ازودك ببعض الاخبار »

فخرجت من مركز الشرطة واتجهت مباشرة الى الكنيسة . وكانت هى نفس الكنيسة التى عمدت فيها ثم نصرت وتمت فيها مناولتى الاولى . كانت كنيسة عريقة فى القدم مستطيلة عارية بها صفان من الاعمدة الحجرية ذات اللون البنى المخفف وارضية مغطاة من احجار الرصف الرمادية . ولكن كان هناك على جانبى الكنيسة حيث يكتنف الظلام صحنها فيما وراء صفى الاعمدة عدد من الكنائس الصغيرة المذهبة فى بدخ اشبه بالكهوف العميقة الملوثة بالكنوز . وقد كرسى احدى هذه الكنائس للسيدة العذراء . فجثوت على الارض فى الظلام امام الحاجز البرونزى الذى كان يحيط بها . وقد ظهرت العذراء فى صورة كبيرة معتمة خلف عدد من اصص الزهور ، وكانت تمسك بطفلها بين ذراعيها بينما سجد عند قدميها احد القديسين شابكا يديه وهو يتهل اليها . فاتحنيت على الارض حيث اصطدم راسى بأحجار الرصف . وفيما انا اعطى الحجر بقبلاى رشمت علامة الصليب على تراب الارض ثم استغثت بالعذراء ونذرت على نفسى الا ادع رجلا آخر يقربنى طوال حياتى ولا حتى مينو . وكان الحب هو الشيء الوحيد الذى اكره له فى الوجود بأسره فلم تكن لى متعة سواه . وخيل لى انها اعظم تضحية يمكننى ان اقدمها لخلص مينو . وبعد ذلك صليت من قلبى بلا الفاظ ولا خواطر وكنت لا ازال منحنية يلامس جبينى ارض الكنيسة . ولكننى ما ان نهضت واقفة حتى انبهرت . فقد بدت لى تلك الظلمة الحالكه التى تكتنف الكنيسة

وقد انشقت فجأة بنور ساطع حيث ابصرت العذراء بوضوح وهى تنظر الى فى رقة وحنان . ولكنها مع ذلك أخذت تهز رأسها وكأنها تقول لى انما لا تقبل صلاتى . ولم تمنح على ذلك لحظة واحدة حتى وجدتنى واقفة مرة اخرى امام الحاجز المواجه للهيكل . وخالجتنى لذلك احساس بانى اقرب الى الموت منى الى الحياة . فرشمت الصليب على صدرى ثم عدت الى المنزل .

وظللت اليوم بطوله أعد الدقائق والثوانى . وما أن اقترب المساء حتى ذهبت مرة اخرى لمقابلة مأمور الشرطة . فرمانى بنظرة غريبة مما جعلنى احس وكأنه سيفشى على فقلت بصوت لا يكاد يخرج من حلقى - « اذن فالخبر صحيح . لقد قتل نفسه بالفعل . »

فالتقط مأمور الشرطة صورة فوتوغرافية كانت على المنضدة ثم قدمها الى قائلا : - « ثمة رجل لم تعرف شخصيته بعد قتل نفسه فى أحد الفنادق بالقرب من المحطة . انظرى لترى ان كان هو صديقك . » فتناولت الصورة وتعرفت عليه فى الحال . لقد صوروا الجزء الاعلى من جسده ابتداء من الخصر . ومن الواضح انه كان ممددا فى الفراش . وقد سالت الدماء عبر وجهه فى خطوط سوداء صغيرة منبثقة من صدغه حيث أطلق النار على نفسه . ولكن وجهه تحت هذه الخطوط كان يرتسم عليه صفاء لم اره قط خلال حياته .

أثبت شخصيته بصوت ضعيف واهن ثم نهضت واقفة . وهم الضابط بأن يقول لى شيئا ولعله أراد أن يعزىنى ولكننى لم أشأ أن انصت اليه . بل غادرت الغرفة دون أن أستدير نحوه .

وذهبت الى المنزل . وعندئذ ارتميت بين ذراعى أمى ولكن دون أن أبكى . كنت أعلم أنها غبية وأنها لاتفهم شيئا ولكن لم يكن فى وسعى أن أتمن سواها . ورويت لها كل شىء عن انتحار مينو وعن حبنا وعن حملى . ولكننى لم أخبرها أن سونزونيو كان والد الطفل . وأخبرتها بالندر الذى قدمته أيضا قائلة انه قد استقر رأى على تغيير أسلوب حياتى ومساعدتها فى حياكة القمصان أو الانخراط فى سلك الخدمة . فقالت أمى بعد أن حاولت تعزيتى بعبازات سخيفة ولكنها صادقة انه ينبغى على الا أتخذ قرارات متهورة - وأنما يجب

أن أفعل الآن هو أن أبكى ما أستفعله الأسرة من حلى . فقلت - « هذا الموضوع يخص طفلى ولا يخصنى . »

وفى صباح اليوم التالى زارنى فجأة وعلى غير انتظار صديقا مينو توليو وتوماسو . فقد تسلما هما أيضا رسالة من مينو أبلغهما فيها

بخيانتة وحذرهما من العواقب التي قد تترتب على ذلك بعد ان كاشفهما باعتزامه الانتحار .

قلت في حدة - « لا تنزعجوا . فلا حاجة لكما الى الدعوى . فلن يصيبكما مكروه على الاطلاق . » ثم حدثتهما عن استاريتنا وكيف أنه وهو الشخص الوحيد الذي يعرف شيئا قد قضى نحبه وأن المقابلة التي تمت بينهما لم تسجل في محاضر الشرطة وأنها كانا في أمان من الوشاية . وبدا لي أن توماسو قد أزعجه حقا مصرع مينو . أما توليو فلم يكن قد تخلص بعد من خوفه . إذ أنه مالبت أن قال - « ومع ذلك فانه قد وضعنا في مأزق حرج . فمن ذا الذي يمكنه أن يثق بالشرطة ؟ وما يدرينا . فما أشنعها من خيانة ! » ثم فرك يديه منفجرا في الضحك على طريقته المعهودة المفاالى فيها وكأن مايقوله شيء مسل حقا .

فنهضت واقفة في غضب ثم قلت - « لم تكن شيئا من هذا القبيل - لقد قتل نفسه - فماذا تطلبان اليه أكثر من ذلك ؟ فان أحدا منكما ما كان ليجد الشجاعة التي تؤهله لان يحنو حذوه . كما يمكنني ان أقول لكما شيئا آخر - فأنتما وان لم تكونا خائنين لا تساويان شيئا ! أتعرفان لماذا ؟ لانكما منكودان بأئسان تعسان مفلسان لن يصل الى حوزتكما مليم واحد . فاذا ما سارت معكما الامور سيرا حسنا نلتما مالم تحصلا عليه قط حتى الان في حياتكما بأسرها ونعمتتما وأسرتكما برغد العيش . أما هو فكان غنيا اذ ولد في أسرة ثرية . وكان سيدا مهذبا . وان كان قد انضم لحركتكم فذلك لايمانه بها لا املا في مأرب أو غاية . فكان الامر بالنسبة له خسارة على طول الخط أما بالنسبة لكما فالامر على العكس من ذلك كسب على طول الخط ! هذا هو مايمكنني ان أقوله لكما - وكان يجب أن تخجلا من مجيئكما الى هنا لتحدثاني عن الخيانة . »

فففر توليو الضئيل فاه الضخم وكأنه يهم بالرد فمنعه توماسو بحركة من يده وقد فهم ماقلت . ثم قال لي - « انك على حق - ولكن لا تنزعجى - فلن أذكر مينو الا بالخير . » وبدا متأثرا فأحسست بالليل نحوه لانه من الواضح انه كان شغوفا حقا بمينو . ثم ودعاني

وانصرفا . وما ان خلوت الى نفسي من جديد حتى أحسست ان ماقلتة لهذين الشخصين قد خفف الى حد مامن حزني وأساي . فكرت في مينو ثم فكرت في الطفل وكيف انه سيكون طفلا لابوين : سفاح

وبغى . ولكن كل رجل في العالم عرضة لان يقتل شخصا ما وكل
امراة عرضة لان تبيع عرضها . ولكن أهم ما فى الامر هو أن يولد فى
يسرا وان ينمو قويا سليم البنية . واستقر رأي ان كان ذكرا على
تسميته جياكومو احياء لذكرى مينو . اما اذا كان المسولود انثى
فسأدعوها « لتيتا » لاننى كنت أريدها ان تحظى بما لم أحظ أنا به
وهو الحياة المرححة السعيدة . وكنت على ثقة بأن ذلك سيتاح لها
بمساعدة أسرة مينو .

تمت

www.library4arab.com/vb

www.library4arab.com/vb

www.library4arab.com/vb

www.library4arab.com/vb

www.library4arab.com/vb

رقم الايداع : ٤٤٩٦ / ١٩٩٠
I.S.B.N
977-07-0006-7

www.library4arab.com/vb

www.library4arab.com/vb

الطبعة : مؤسسة دار الهلال - القاهرة

www.library4arab.com/vb



البرتومورافيا

● ولد في مدينة روما في ٢٨ نوفمبر عام ١٩٠٧ وتوفي في ٢٦ سبتمبر ١٩٩٠ .
● بدأ حياته الادبية في عام ١٩٢٩ حين نشر روايته الاولى « اللامبالون » ثم تابعت اعماله التي رفعته الى مصاف اكبر ادباء ايطاليا طوال ستين عاما .

● كتب ١٦ رواية .. والعديد من المجموعات القصصية والمسرحيات .

● تحولت رواية « امرأة من روما » الى فيلمين الاول عام ١٩٥٤ ، والثاني في عام ١٩٨٧ والاثنان من بطولة جينا لولو برجيدا .

● نشرت له روايات الهلال .. « المستهترون » « ١٩٣٤ » و « امرأة من روما » .

● تزوج ثلاث مرات من كاتبات . منهن : السامورانتة ، وكارمن ليرا .
● زار مصر والمنطقة

مسكينة اوريانا ..
لقد باعتها امها وهي في السادسة عشر من عمرها الى اكثر من رجل .
اوريانا ابنة لخياطة فقيرة . بدأت امها تعرضها على الرجال .. كان اول رجل هو رسام اتخذها نموذجا وعشيقة . ثم دفعها للعمل كفتاة ليل في احد الكباريات .. ثم اضطرت الفتاة المسكينة الى ان تجد الرجال في فراشها بناء على رغبة امها .. كل ذلك من اجل ان تمتلئ بطن امها بالطعام وجذبها بالفلوس .

تقابل اوريانا تلميذا مناضلا متحمسا للقضايا الوطنية . تحبه وترتبط به . لكن الشاب ينتحر .

اوريانا نموذج انساني يثير الشفقة . والرثاء .. كتبه البرتومورافيا في عام ١٩٤٧ في واحدة من أهم رواياته « امرأة من روما » . التي نشرتها روايات الهلال اول مرة في عام ١٩٧١ في ترجمة كاملة .

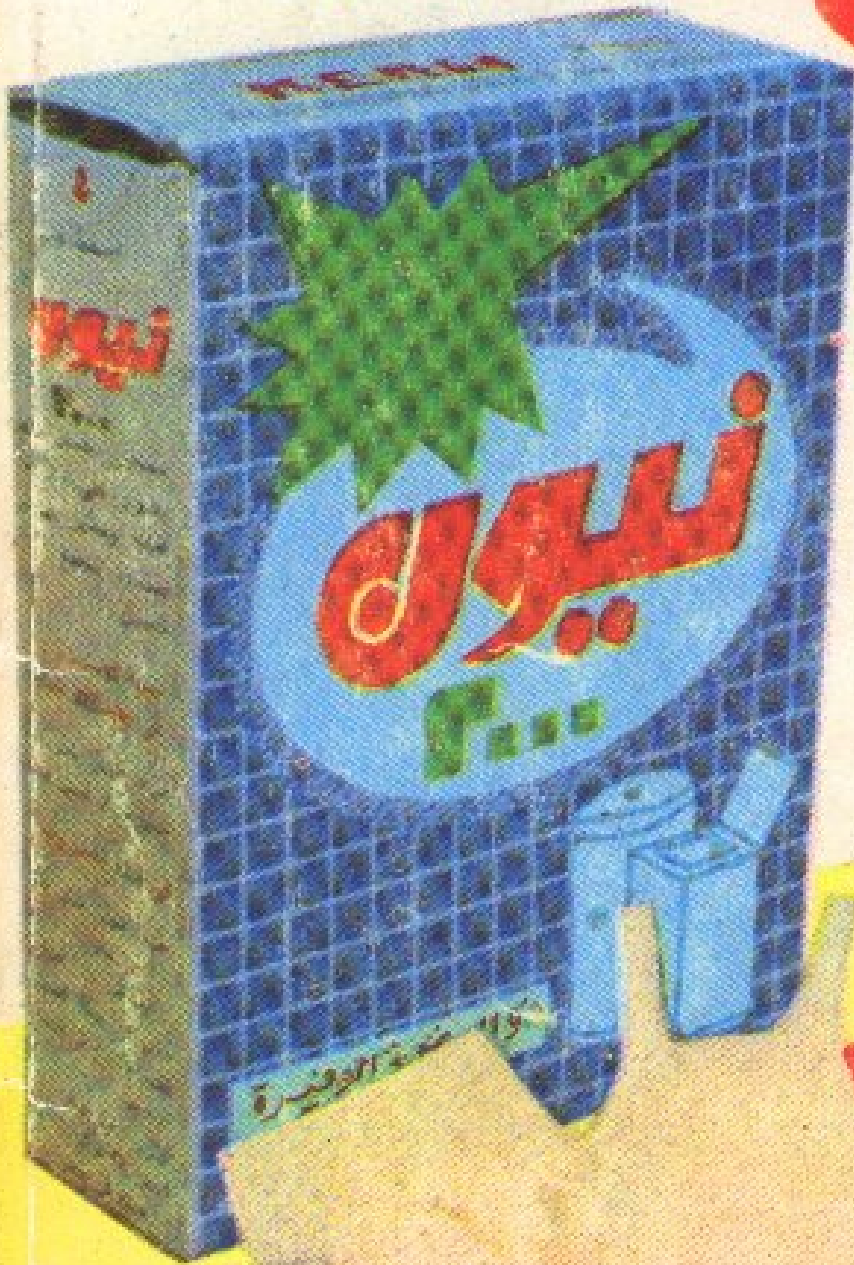
واليوم نعيد نشر هذه الرؤية الرائعة في جزء واحد . وفي نفس الطبعة الكاملة بمناسبة رحيل البرتومورافيا . واحد من ابرز الكتاب الايطاليين في القرن العشرين .

امرأة من روما ..
رواية الأمس .. واليوم .. والغد ..

المنظف الصناعي

www.library4arab.com/vb

نيون



ذو الرغبة الوفيرة
والرائحة الذكية

www.library4arab.com/vb

إنتاج
شركة اسكندرية للزيوت والصابون